المشروع القومى للترجمة

إدواردو مندوثا

مدينة المعجزات

ترجمة

محمد أبو العطا

المجلس الأعلى للثقافة
٢٠٠١

هذه الترجمة الكاملة لمجلد :

La ciudad de los prodigios

Barcelona, ed. Seix Barral, 1ª edición:1986;
Trigésimo segunda edición:1997

تحت رعاية معهد ثربانتس والسفارة الإسبانية بالقاهرة

والوكالة الإسبانية للتعاون الدولي

Bajo el patrocinio del Instituto Cervantes de El Cairo,
la Embajada de España en El Cairo y la Agencia
Española de Cooperación Internacional

Instituto Cervantes

Embajada de España

COOPERACION ESPAÑOLA

إهــداء المتــرجم

إلـى حـسام وصفاء ورءوف وهالـة ومنـى وعائشـة ومحـمد فتحى.

Para Eduardo Mendoza, caballero escitor, con el afecto de un incondicional.

M. Abuelata

إهـداء المؤلـــف

إلى آنـــا

متى يخرج الروح النجس من الإنسان، يجتاز فى أماكن ليس فيها ماء يطلب الراحة وإذ لا يجد يقول أرجع إلى بيتى الذى خرجت منه. فيأتى ويجده مكنوساً مزيناً. ثم يذهب ويأخذ سبعة أرواح أخر أشر منه فتدخل وتسكن هناك فتصير أواخر ذلك الإنسان أشر من أوائله.

لوقا (١١: ٢٤-٣٦)

الفصل الأول

(١)

كانت مدينة برشلونة، عام أن وصل إليها أونوفرى بوفيلا، فى ذروة حمى التجديد. تقع المدينة في الوادى الذى تخلفه وراءها جبال السلسلة الساحلية لدى انسحابها قليلاً نحو الداخل، فيما بين مالجرات وجرّاف، وهى بهذا الشكل تؤلف ما يشبه المدرج. هناك الجو معتدل وبلا تقلبات: فالسماء صحو ومشرقة عادةً والسحب نادرة وبيضاء على قلتها والضغط الجوى مستقر والمطر نادر لكنه غادر وطوفانى أحياناً. ويرجع الرأى السائد -مع أنه مثار جدل- إنشاء برشلونة فى المرتين الأولى والثانية إلى الفينيقيين. ونحن على الأقل نعلم أنها دخلت التاريخ مستعمرةً لقرطاج التى كانت بدورها حليفة لصيدا وصور. ومن الثابت أن فيلة هانيبال توقفت لتنهل وتمرح على ضفاف نهر بيسوس أو نهر يوبريجات وهى فى طريقها إلى جبال الألب حيث قضى البرد ووعورة الأرض عليها. تعجب البرشلونيون الأوائل لرؤية هاته الحيوانات. يالها من أنياب! -راحوا يقولون- وأى آذان! وأى خرطوم أو زلومة! هذا التعجب وما لحقه من تعليقات دامت أعواماً أنبتا هوية برشلونة نواةً حضرية: وبعد أن فُقدتْ سعى البرشلونيون فى القرن التاسع عشر إلى استعادة تلك الهوية. تبع الفينيقيين الإغريق ثم لاييتانيو طركونة. ترك الأولون لدى مرورهم بقايا حرف يدوية، ونَدين للآخرين بملمحين مميزين لسلالتنا، طبقاً لعلماء الإثنولوجيا: ميل القطلونيين إلى الالتفات برؤوسهم جهة اليسار حين يظهرون أنهم مصغون ونزوع الرجال إلى "تربية" شعر طويل فى فتحتى الأنف. واللاييتانيون -الذين نعلم عنهم القليل- كانوا يتغذون فى الأساس على أحد مشتقات الألبان يرد ذكره أحياناً بكلمة "مصل" وأحياناً أخرى بكلمة "ليمونادة" ولكنه لم يكن يختلف كثيراً عن "اليغورت" (الزبادي) الحالى. مع ذلك فإن الرومان هم

من وسموا برشلونة بسمتها كمدينة، من أسسوا بنيتها بشكل نهائى: هذا الشكل، الذى قد يكون من العبث تفصيله، هو الذى سوف يحدد تطورها اللاحق. إلا أن كل شيء يشير إلى أن الرومان كانوا يشعرون بازدراء مترفع نحو برشلونة. لم يكن يبدو أنها تثير اهتمامهم لمبررات استراتيجية أو لأية تجانسات من نوع آخر. فى عام ٦٣ قبل الميلاد، يكتب شخص يدعى موكيوس أليكساندرينوس، حاكم رومانى، يكتب إلى حميه وراعيه فى روما ليشكو كونه عُين فى برشلونة: هو كان طلب منصباً فى مدينة بيلبيليس أوجوستا الفخيمة، "قلعة أيوب" الحالية. وأتاولفو هو الملك القوطى الذى فتحها لتظل قوطية إلى أن استولى عليها العرب بلا قتال فى عام ٧١٧ من الميلاد. وحسب عاداتهم، يقتصر العرب على تحويل الكاتدرائية (لا التى تحوز إعجابنا اليوم، بل أخرى أقدم، مقامة فى مكان آخر ومسرح العديد من التحويلات والشهداء) إلى مسجد، ولا شيء أكثر. فى عام ٧٨٥ أعادها الفرنسيون إلى العقيدة الكاثوليكية، وبعد مرور قرنين تحديداً، فى عام ٩٨٥، أعادها إلى الإسلام المنصور "الرحيم"، "القاسى"، "الذى له ثلاث أسنان فقط". أثرت الفتوحات والاستردادات فى سمك أسوار المدينة وتعقدها، فلكونها محشورة وسط معاقل وحصون متداخلة المركز صارت شوارعها أشد التواءً دائماً، وهذا ما جذب إليها يهود القابال من مدينة جرندة الذين أسسوا فروعاً لمذهبهم هناك وحفروا سراديب تؤدى إلى قاعات لمجالس السنهدريم السرية وإلى برك للغنم تم اكتشافها فى القرن العشرين لدى بناء مترو الأنفاق. على تيجان الأعمدة الحجرية فى الحى العتيق لم يزل بالإمكان قراءة رسوم هى شفرات سرية للمبتدئين، صيغ لتحقيق ما لا يخطر ببال أحد، إلخ. فيما بعد، عرفت المدينة أعواماً من الازدهار وقروناً مظلمة.

قال صاحب البنسيون:

– هنا ستكون على خير ما يرام، سترى. الغرف ليست واسعة لكنها

جيدة التهوية، وأما من حيث النظافة فلن تجد أنظف من هنا. الطعام بسيط لكنه مغذٍ.

هذا البنسيون الذى نزل فيه أونوفرى بوفيلا ما إن وصل برشلونة يقع فيما يسمى باللغة القطلونية بـcarreró del Xup. هذه الـcarreró، التى تمكن ترجمة اسمها إلى "حارة الجُب"، كانت تنحدر بعد قليل من بدايتها انحداراً طفيفاً يأخذ فى الشدة إلى أن يؤلف درجتى سلم، ثم يمتد أفقياً لينتهى بعد عدة أمتار إلى الأمام عند جدار قائم على أنقاض سور قديم ربما كان رومانياً. من ذلك الجدار ينساب على نحو متصل سائل لزج أسود دوّر على مر القرون درجتى السلم بالحارة وصقلهما ولمعهما إلى أن أضحتا زلقتين. ثم ينسرب خيط الماء إلى أسفل المنحدر فى خط مواز لحافة الطوار كى يغوص، فى قرقرة متقطعة، فى البالوعة المفتوحة عندَ تقاطع شارع لامنجا (لابيرا سابقاً)، الطريق الوحيدة المؤدية إلى حارة الجب. هذا الشارع، الثقيل الظل والقبيح، فى وسعه الزهو (رغم أن أرجاء أخرى من الحى تنازعه نفس الشرف غير المؤكد) بأنه كان مسرحاً للحادثة القاسية التالية: إعدام القديسة ليوكريثيا على السور الرومانى. هذه القديسة، التى من المحتمل أنها سابقة على قديسة أخرى تحمل نفس الاسم، ليوكريثيا القرطبية، تظهر فى سير القديسين تارة باسم ليوكريثيا وأخرى باسم ليوكراتيا أو لوكاتيس*. وهى فى الأصل من برشلونة أو من الضواحى القريبة منها وابنة ممشط صوف اعتنقت المسيحية فى صغرها. زوجها والدها على غير رغبتها من شخص يدعى تيبوركيوس أو تيبوركينوس، مراقب خزانة رومانى. أما ليوكراثيا فبدافع من إيمانها قسمت ممتلكات زوجها على الفقراء وحررت العبيد. وأما الزوج، الذى تصرفت هى دون موافقته، فاستشاط غضباً. ولأنها فعلت ذلك ولم ترتد عن دينها قطع رأسها فى المكان المذكور. وتضيف الأسطورة أن رأسها تدحرج على المنحدر ولم يتوقف

* هذه الكلمة بالتعبير الدارج تعنى المجنونة.

عن التدحرج، وراح ينعطف عند النواصى ويعبر الشوارع ويزرع الرعب بين المشاة إلى أن سقط فى البحر وحمله درفيل أو سمكة كبيرة أخرى ويحتفل بعيدها فى السابع والعشرين من شهر يناير. فى أواخر القرن الماضى، كان هنالك بنسيون فى البسطة العليا للحارة. كانت منشأة شديدة التواضع وإن لم تعدم طموحاً من جانب أصحابها. كان المدخل ضيقاً: لا يتسع إلا لطاولة خشبية فاتحة اللون عليها حامل للكتابة من الصفيح ودفتر لتسجيل النزلاء مفتوحاً دائماً لمن شاء التيقن من شرعية المكان ليراجع بعينيه، على ضوء شمعة خافت، بيان الألقاب والأسماء المستعارة التى تؤلف قائمة النزلاء، وجحر حلاق وحامل مظلات خزفى وصورة للقديس كريستوبال، راعى مسافرين من نوع لا وجود له حينئذٍ، إذ هو اليوم راعى قائدى السيارات. خلف الطاولة تجلس طوال الوقت السيدة أجاتا، امرأة بدينة وشبه صلعاء ولها هيئة كئيبة، تحسبها ميتة لو لم تحملها أوجاعها، التى تجبرها على وضع قدميها فى طست من الماء الفاتر، على الصياح من وقت إلى آخر: ديلفينا، الطست! فعندما يبرد الماء كانت تُبعث لتقول ذلك. وعندئذٍ تصب ابنتها فى الطست الماء المنبعث منه البخار الذى أحضرته فى مغرفة. ومن كثرة صب المغرفة فى الطست كان الماء يهدد بالانسكاب وإغراق المدخل. لكن هذا الخطر لا يبدو أنه يثير قلق صاحب البنسيون، الذى كان الجميع يدعوه "السيد براوليو" والذى عقد معه أونوفرى بوفيلا تلك المقابلة الأولى. استطرد السيد براوليو:

– فى الحقيقة، لو كان البنسيون فى مكان أفضل لاعتُبر فندقاً ولحظيَ ببعض شهرة.

السيد براوليو، زوج السيدة أجاتا ووالد ديلفينا، رجل مديد القامة ومتناسق الملامح، وُهب نذراً من الوجاهة المتكلفة. فى البنسيون، أوكل كافة المهام إلى زوجته وابنته، وكرس اليوم بأكمله لقراءة الصحافة

اليومية والتعقيب على الأنباء مع نزلاء البنسيون الدائمين. كل جديد يبهره. ولما كانت تلك الحقبة سخية فى الاختراعات كان يمضى الساعات بين "أوه!" و"آه!" . بين حين وحين، كأن أحداً يدفعه دفعاً، يلقى بالصحيفة ويصيح: سأذهب لأرى كيف يسير الطقس. ثم يخرج إلى الشارع ويراقب السماء: بعد ذلك، يعاود الدخول ليعلن: صحو؛ أو: ملبدة بالغيوم؛ أو: بارد قليلاً، إلخ. لم يكن يعرف له نشاط آخر.

أضاف فى أسى:

- إنه هذا الحى الفقير الذى يجبرنا على أن نضع أسعاراً أقل بكثير من مرتبة هذا المكان.

ثم رفع إصبعاً منبهاً: مع ذلك، نتخير عملاءنا بعناية شديدة.

أيكون فى هذه العبارة نقد مقنع لمظهرى؟ -راح يفكر أونوفرى بوفيلا وهو يستمع إلى ما يقوله السيد براوليو. ومع أن المسلك الحميمى لصاحب النزل يكذب ذلك، كان لحساسية أونوفرى بوفيلا المفرطة ما يبررها تماماً، فعلى حداثة سنه يلاحظ عليه، بمجرد النظر، قصر قامته غير المتسق ومنكبيه العريضين. كان لون بشرته ضارباً إلى اللون الأخضر وملامحه دقيقة وخشنة وشعره أسود، أكرث. وكان أحضر معه ملابسه المليئة بالرقع والشديدة القذارة والمربوطة فى صرة. كل شيء يشير إلى أنه ظل يسافر عدة أيام وهو يرتديها وأنه ليس لديه أخرى، ربما فيما عدا غيار واحد فى الصرة التى تركها على الطاولة لدى دخوله ويسترق النظر إليها على نحو متصل. فى أثناء ذلك كان ينتاب السيد براوليو شعور بالراحة: ثم تعود نظرة الصبى لتنشب فيه مرة أخرى فيعاوده الشعور بالقلق. قال صاحب النزل لنفسه:ثمة شيء فى عينيه يثير أعصابى. ثم جعل يفكر:"كلا، لعله الأمر المعتاد: الجوع والحيرة والخوف. كان رأى العديد من الناس فى نفس الظروف: لم تكن المدينة تتوقف عن النمو. فكر: فرد آخر، سردينة صغيرة سيلتهمها الحوت دون أن يدرى. أمست حيرة السيد براوليو حنواً، قال لنفسه: إنه طفل تقريباً وإنه

ليائس. ثم اختتم حديثه قائلاً:

- وهل لى أن أسألك يا سيد بوفيلا عن سبب حضورك إلى برشلونة؟

بهذه الطريقة الملتوية كان يبغى أن يخلف انطباعاً شديداً فى نفس الصبى. وهذا، بالفعل، ظل صامتاً لحظات، فهو لم يعِ السؤال حتى. أجاب فى شيء من الخجل:

- أبحث عن عمل.

وفى الحال عاد لينشب فى صاحب النزل نظرته الحادة، متوجساً من أن يستتبع رده ما يضيره. لكن ذهن السيد براوليو كان منشغلاً بأمر آخر فلم يكد يوليه اهتماماً. اقتصر على قول:"آه، حسنٌ!"، وهو يزيل شيئاً علق بكتف معطفه. وأونوفرى بوفيلا فى داخله شكر له عدم الاكتراث ذاك. فأصله كان يعن له مخجلاً ولم يكن يرغب لقاء أى شيء فى العالم فى الإفصاح عن المبرر الذى حدا به إلى التخلى عن كل شيء والمجيء إلى برشلونة يائساً.

لم يولد أونوفرى بوفيلا -كما قال البعض فيما بعد- فى قطلونيا المزدهرة والمشرقة والمرحة والمتكلفة شيئاً التى يحممها البحر، بل فى قطلونيا الخشنة والمعتمة التى تمتد إلى الجنوب الغربى من سلسلة جبال البرانس وبين سلسلة جبال الكادى ثم تتبسط حيث يتصل نهر سِجره -الذى يرويها فى الجزء الأول من مجراه ويستقبل عندها روافده الرئيسية- بنهر نوجيرا بياريسا ثم يستأنف المرحلة الأخيرة من حياته فيذهب ليصب فى نهر إبره عند ماكيننثا. فى الأراضى الواطئة الأنهار سريعة الجريان وشديدة الفيضان فى فصل الربيع من كل عام. وحين تنحسر المياه تتحول الأراضى إلى مستنقعات غير صحية لكنها خصبة ومليئة بالثعابين ومناسبة للقنص. مناطق كثيفة الضباب والغابات ومواتية للخرافات. فلا أحد بالفعل يجرؤ على ولوج ذلك الضباب المعتم فى أيام بعينها من السنة: ففى تلك التواريخ المحددة يمكن سماع قرع

أجراس حيث لا كنائس أو صوامع للعبادة، وأصوات وضحكات بين الأشجار، وأحياناً تُرى أبقار ميتة ترقص رقصة الساردانا. ومن يرَ أو يسمع ذلك يجن مؤكداً. ويحيط بهذه الوديان جبال وعرة ومغطاة بالثلوج طوال العام تقريباً. هناك، شيدت المنازل فوق أوتاد خشبية، وكان نظام الحياة قبلياً كما كان الرجال، القساة والأفظاظ، لا يزالون يستخدمون الجلود فى مليسهم. هؤلاء الرجال لم يكونوا يهبطون الوديان مع ذوبان الجليد إلا بحثاً عن عروس فى أعياد جمع العنب أو ذبح الخنزير. فى تلك المناسبات، كانوا ينفخون فى نايات من العظم ويؤدون رقصة تحاكى قفزات الكبش. كانوا يأكلون، بلا توقف، خبزاً وجبناً ويحتسون نبيذاً مخففاً بالزيت والماء. وعلى قمم الجبال، يحيا أفراد أشد منهم خشونة، فهؤلاء لم يكونوا يهبطون الوديان قط وكان شاغلهم الوحيد على ما يبدو ممارسة صنف من المصارعة اليونانية الرومانية. أما أهالى الوادى فكانوا أكثر تحضراً، يحيون على الكروم والزيتون والذرة (للماشية) وبعض أشجار الفواكه والرعى والعسل. ففى هذه المنطقة، فى أوائل القرن، تم حصر ٢٥ ألف نوع من النحل لم يتبقَ منها الآن سوى خمسة آلاف أو ستة. وكانوا يصطادون الأيل الأسمر والخنزير البرى والأرنب الجبلى والحجل وكذلك الثعالب وبنات عرس والغُرير اتقاء لهجماتها المستمرة. وفى الأنهار يصطادون سمك التروتة كما يصطادون الذباب، بمهارة شديدة. كانوا يأكلون جيداً، فلا يغيب عن نظامهم الغذائى اللحم أو السمك أو الغلال أو الخضر أو الفاكهة؛ لذا كانت سلالة طويلة القامة وقوية البنية وموفورة الصحة، تقاوم التعب بشدة لكنها ثقيلة الهضم وذات مزاج فاقد الإرادة. هذه الصفات البدنية كان لها أثرها فى تاريخ قطلونيا: فمن مبررات الحكومة المركزية لرفض الادعاءات الاستقلالية للقطر أن ذلك لو حدث لأدى إلى تقلص متوسط طول قامة الإسبان. ويطلق ر. دى ب. بينيويلا، فى تقريره إلى الملك كارلوس الثالث، عقب مجيئه من نابولى، يطلق على قطلونيا "منصة إسبانيا". كانت لديهم

كـذلك وفـرة فى الأخـشـاب والفلين وبعض المعـادن. ويسكنون منازل -يطلقون عليها اسم "مـاسيّا" masía- متفرقة فى الوادى، بلا أية صلة فيمـا بينهـا إلا الكنيسـة أو الدير. وأسس ذلك لعادة بعينها: ذكـر اسم الكنيسـة أو الدير بدلاً من مكان الميلاد، فنجد لذلك أسمـاء من صنف: بارا ليبـرا من سـان روك، و يواقـيم كوليبـروكيل من لا مـارا دى ديو دل روزيه، إلخ. لهـذا السبب كـانت تقع على كاهل رؤسـاء الأديرة مسـؤولية عظمى، فكان عليهم الحفـاظ على الوحدة الروحيـة والثقـافيـة وحتى اللغوية للمنطقة. كمـا أنيطت بهم مهـام حاسمـة كحفظ السـلام فى الوديان وبين كل وادٍ وجاره، وتجنب اندلاع العنف والأعمـال الانتـقاميـة الدموية التى لا تنتهى. لهذا ظهـر صنف من رؤساء الأديرة امتدحه فيما بعد الشعـراء: رجال حصفاء ومعتدلون، قادرون على مواجهة أشد أحوال الطقس تقلباً والسير مسـافات لا تصـدق يحملون فـى يد وعاء القربان المقدس وفى الأخـرى البندقيـة. ومن المحتمل أن يرجع إليهم الفضل فى أن الإقليم ظل علـى هامش الحـــروب الكارليـــة. فى نهـــاية النـزاع، استخدمت الفرق الموالية لدون كارلوس وريثاً لعرش إسـبانيا المنطقة ملجأ وثكنات للشتاء ومركزاً للإمدادات. ولم يعترضهم أهل الإقليم، فى بعض الأحايين كانت تظهر جثة شبه مدفونة فى خط الزراعة أو وسط الغابات تحمل عياراً نارياً فى الصدر أو القفا. وكان الجميع يصطنع أنه لم يرَ شيـئاً. وأحياناً، لا تكون جـثة أحد الموالين لدون كارلوس بل جثة ضحية نزاع شخصى تم حله على حساب الحرب.

مـا نعلمه علم اليقين أن أونوفـرى بوفـيـلا عُـمِّـد فى يوم القـديس رستيتوتو والقديسة ليوكاديا(٩ ديسمبر) من عام ألف وثمانمائة وأربعة وسبعين أو ستة وسبعين، وأنه تلقى مـاء التعميد على يد السيد سيرافى دالماو، القس، وأن والـديه همـا جـوان بوفـيـلا ومـارينا مـونت. ومع ذلك لا أحـد يعلم لمَ سُـمـيَ "أونوفـرى" ولم يُسَمَّ باسم قـديس ذلك اليـوم. فى

شهادة التعميد، التى استقيت منها هذه البيانات، مثبت أنه ولد فى نطاق أبروشية سان كليمنتى وأنه الابن البكر لعائلة بوفيلا.

- رائع، رائع، هنا ستحيا كملك حقيقى -راح يقول السيد براوليو فيما كان يخرج من جيبه مفتاحاً صدئاً ويشير بإيماءة مبالغ فيها إلى دهليز البنسيون المعتم والخبيث الرائحة- إن الغرف، كما ترى...أوه، ياللفزع!

مرد هذه الصيحة هو أن الباب الذى كان يوشك أن يدخل فى ثقبه المفتاح انفتح بغتة من داخل الحجرة وارتسم ظل ديلفينا فى فراغ الباب، فى انعكاس الضوء الصادر من الشرفة. قال السيد براوليو بعد أن تمالك نفسه من الفزع:

- هذه ابنتى ديلفينا، لاشك أنها كانت ترتب الغرفة كى تنال رضاك على أفضل نحو. أليس كذلك يا ديلفينا؟ -ولما كانت ديلفينا لا ترد، أضاف متوجهاً من جديد إلى أونوفرى بوفيلا- وبما أن صحة والدتها المسكينة، زوجتى، حرجة قليلاً كانت كل مهام البنسيون ستقع على كاهلى لولا معاونة ديلفينا التى هى كنز حقيقى.

أونوفرى كان رأى ديلفينا وهلةً من قبل، فى المدخل، حين كانت ذاهبة لتصب الماء الساخن فى الطست للسيدة أجاتا. فى تلك المناسبة، لم يكد يلتفت إليها؛ أما الآن فتفحصها على مهل فوجدها منفرة حقيقةً. كانت ديلفينا من نفس عمر أونوفرى بوفيلا تقريباً: كانت متيبسة وخرقاء، لها أسنان نائتة وبشرة متشققة وعينان زائغتان؛ هاتان العينان كانتا تنفردان بلون حدقتيهما الأصفر. أدرك أونوفرى فى الحال أن ديلفينا هى التى تقوم فى الواقع بكافة أعباء البنسيون. متجهمة، قذرة، شعثاء، بائسة الملبس، حافية، كانت طيلة الوقت تركض من المطبخ إلى الغرف ومن الغرف إلى المطبخ وإلى غرفة الطعام تحمل دلاء ومقشات ومناشف التنظيف. فضلاً عن أنها كانت ترعى والدتها -التى كانت احتياجاتها لا

تنتهى لأنها غير قادرة على خدمة نفسها- وتقوم على خدمة الموائد فى مواعيد الإفطار والغداء والعشاء. وفى الصباح، فى وقت مبكر، تخرج للشراء ومعها سلتان كبيرتان من الصفصاف المجدول كانت، فى طريق العودة، تجرهما فى مشقة. لم تكن تتوجه بأية كلمة للنزلاء واصطنع هؤلاء جهلهم بوجودها. إلى جانب خشونتها فى التعامل كان يلتصق بكاحليها قط أسود لا يسمح لغير صاحبته بالاقتراب منه، فكان مع الآخرين يستخدم العض وضربة المخلب. كان اسم القط بعلزبول *وكان أثاث البنسيون وحوائطه تحمل آثار شراسته. مع ذلك، لم يشغل شيء من هذا بال أونوفرى بوفيلا فى تلك اللحظة. كان دخل من توه الحجرة التى خصصت له وراح للمرة الأولى يتأمل ذلك المخدع الضيق المتقشف. "إنها غرفتى -فكر فى شيء من التأثر- يمكن القول إننى صرت رجلاً مستقلاً، برشلونياً حقيقياً". كان تحت تأثير الوضع الجديد، وككل من يصلون لتوهم كان مأخوذاً بسحر المدينة الكبيرة. قبل ذلك عاش دائماً فى الريف ولم يزر مدينة هامة إلا مرة واحدة. والآن يحتفظ من تلك الزيارة بذكرى حزينة. كانت المدينة تسمى باسورا وتقع على مسافة ١٨ كم من سان كليمنى أو سانت كلمنت (بالقطلونية)، أبروشيته ومسقط رأسه. حين زار أونوفرى بوفيلا باسورا كانت المدينة تقدمت بشكل ملحوظ. فمن مركز زراعى ورعوى على وجه خاص تحولت إلى مدينة صناعية. حسب الإحصاءات، فى عام ١٨٧٨، كانت بمدينة باسورا ٣٦ صناعة، منها ٢١ تنتمى إلى فرع النسيج (أقطان، حرير، صوف، سجاد، إلخ.) و١١ إلى فرع الكيماويات (فوسفات، خلات، كلورات، مكسبات لون، صابون) وثلاث إلى فرع الحديد والصلب وواحدة إلى فرع الأخشاب. كان هناك خط سكك حديدية يربط باسورا ببرشلونة وميناءها الذى كانت تشحن فيه المنتجات التى تصدرها باسورا إلى ما وراء البحار. ورغم وجود خدمة نقل بعربات تجرها الخيل كان الناس يفضلون القطار عامة. كانت هنالك مصابيح

* رئيس الشياطين.

غاز فى عدد من شوارع المدينة وأربعة فنادق أو نُزُل وأربع مدارس وثلاث كازينوهات ومسرح واحد. وكانت تربط المدينة بأبروشية سانت كليمنت طريق وعرة وغير مستوية تخترق الجبال من خلال فج أو شعب اعتاد الجليد أن يسده فى الشتاء. من هذه الطريق كانت تذهب وتجيء عربة ذات عجلتين عندما تسمح بذلك ظروف الطقس. وكانت هذه العربة تقطع الـ١٨ كم بين سانت كليمنت وباسورا بلا أدنى نسق دورى أو ساعة معينة أو موعد، وتحضر إلى المنازل أدوات الزراعة والمؤن من كل صنف، وخطابات إن وجدت، وتعود بفائض الحقل فى ذلك الفصل. ذلك الفائض كان يرسله رئيس دير سانت كليمنت إلى راهب آخر فى باسورا صديق له، وكان يضطلع بدوره بأمر تسويقه وإرسال أرباح البيع فى شكل بضائع وعمل كشف حساب لم يكن يطلبه أو يفهمه أو يهتم بمراجعته أحد. كان اسم الحوذى أو كانوا يطلقون عليه اسم العم تونيت. حين يصل سانت كليمنت يقضى الليل على أرضية حانة لصيقة بحائط جانبى للكنيسة. وقبل أن يرقد يحكى ما رآه وسمعه فى باسورا، على الرغم من أن قليلين فقط كانوا يصدقون حكاياته إذ اشتهر بولعه بالخمر وبخياله الواسع. غير أن أحداً لم يكن يرى فى ذلك القدر من المعجزات التى يحكيها الحوذى ما من شأنه أن يبدل مجرى الحياة فى الوادى.

مع ذلك، باسورا نفسها تتراءى له الآن غير ذات قيمة على نحو ما حين يقارنها ذهنياً بمدينة برشلونة تلك التى وصل إليها تواً ولا يعرف عنها شيئاً. هذا الموقف، الساذج من أكثر من ناحية، لم يكن جميعه بغير مبرر: فطبقاً لتعداد ١٨٨٧، ما نطلق عليه الآن "النطاق الحضرى"، أى المدينة والتجمعات المحيطة بها، كان مقدراً بـ٤١٦ ألف نسمة، وكان هذا الرقم ينمو سنوياً بمقدار ١٢ ألف نسمة. من هذا الرقم الذى يشير إليه التعداد (ويرفضه البعض) كانت مدينة برشلونة، أو ما كان حينئذ بلدية برشلونة، تستأثر بـ٢٧٢ ألف نسمة. أما البقية فكانت موزعة بين الأحياء والقرى الواقعة خارج نطاق سور المدينة القديم. وخلال القرن التاسع

عشر قامت فى هذه الأحياء والقرى أهم الأنشطة الصناعية. وعلى مدار ذلك القرن، ظلت برشلونة فى طليعة التقدم. فى ١٨١٨، أقيمت بين برشلونة وريوس أول خدمة منتظمة لعربات النقل بالدواب فى إسبانيا. وفى ١٨٢٦، أجريت فى فناء لالونخا أول تجربة للإضاءة بالغاز. وفى ١٨٣٦، أقيم أول "وابور"، النواة الأولى للميكنة الصناعية. وأول سكة حديدية إسبانية كانت تلك التى تغطى خط برشلونة-ماتاروه، وترجع إلى ١٨٤٨. كما أن أول محطة كهرباء فى إسبانيا أنشئت فى برشلونة فى ١٨٧٣. فى هذا الصدد، كانت هنالك هوة بين برشلونة وبقية شبه الجزيرة، لذا كان ما تخلفه من انطباع فيمن يصلها لأول مرة شديداً. لكن ثمن ذلك التقدم من الجهد كان غالياً. ففى ذلك الحين، كانت برشلونة كأنثى من نوع نادر أنجبت من توها عدداً كبيراً من الأبناء وترقد خائرة القوى ومترهلة: فمن الشقوق انسربت تيارات مثيرة للغثيان وانبعثت روائح خبيثة أفسدت هواء الشوارع والمنازل. وعم التعب والتشاؤم. بعض الحمقى من أمثال السيد براوليو هم وحدهم الذين كانوا يرون لون الحياة وردياً. فى تلك الليلة نفسها، قال لأونوفرى بوفيلا فى مطعم البنسيون فيما كان الأخير يرتشف حساء لاذعاً وبلا لون أعدته له ديلفينا:

– فى برشلونة، ما أكثر الفرص لمن لديه خيال ورغبة فى اقتناصها. وتبدو لى أنت شريفاً ويقظاً ودؤوباً. لا يساورنى شك فى أنك سرعان ما ستحل الموقف على نحو جد مُرضٍ. فكر أيها الشاب فى أن تاريخ البشرية لم يحظَ بحقبة كهذه: الكهرباء والهاتف والغواصة...، أثمة ضرورة لأن أواصل ذكر الأعاجيب؟ الله وحده يعلم أين مستقرنا. وأمر آخر، هل بوسعك أن تسدد الإيجار مقدماً؟ إن زوجتى، التى تعرفت أنت إليها فعلاً، دقيقة جداً فى مسألة الحساب. والمسكينة مريضة كما تعلم!

وأونوفرى سلم كل ما كان معه للسيدة أجاتا. هكذا دفع إيجار أسبوع، غير أنه أمسى مفلساً. فى صباح اليوم التالى، مع بزوغ الفجر، خرج إلى الشارع يبحث عن عمل.

(٢)

على الرغم مما شاع فى أواخر القرن التاسع عشر من القول بأن برشلونة تعيش "وظهرها للبحر"، كان الواقع اليومى ينفى ذلك الزعم. فبرشلونة كانت من قبل وكانت حينئذٍ مدينة-ميناء: كانت من قبل تحيا على البحر وللبحر، تتغذى من البحر وتقدم له ثمرة جهدها. فشوارع برشلونة تقود خطا السائر إلى البحر، وعن طريق البحر تتصل ببقية العالم. ومن البحر يصدر الهواء والطقس والرائحة غير الممتعة دائماً، وكذلك الرطوبة والملح اللذان يسببان تآكل الحوائط. وكان صخب البحر يهدد قائلة البرشلونيين وتشير صافرات المراكب إلى مرور الزمن ويحذر نعيق النوارس التعس والممرور من أن عذوبة الظل الذى تعكسه أشجار الشوارع ليست إلا وهماً، فالبحر يعمر الأزقة بشخوص منحرفين، أجنبىّ لسانهم ومقلقل خطوهم وغامض ماضيهم، شخوص أميل إلى رشق المدى أو إطلاق النار أو استخدام الهراوة. وكان البحر يتستر على من أفلت بجلده من العدالة أو فر عن طريقه تاركاً وراء ظهره صرخات ليلية ممزقة وجرائم بلا عقاب. وكانت منازل برشلونة وباحاتها باللون الأبيض والمبهر، لون البحر أيام الصفو، أو الرمادى والمعتم أيام العواصف. وكان لابد لكل ذلك من أن يجذب إليه أونوفرى بوفيلا الذى كان من أهل الأراضى الداخلية. أول ما فعله فى ذلك الصباح هو الذهاب إلى الميناء للبحث عن عمل كحمال.

بدأت برشلونة تنمو اقتصادياً فى أواخر القرن الثامن عشر، وكتب لهذا النمو أن يستمر حتى العقد الثانى من القرن العشرين، لكنه لم يكن نمواً متصلاً. فكانت تتبع فترات الذروة لحظات كساد، لكن تيار الهجرة حينئذٍ لم يكن يتوقف: فى المقابل، كانت الحاجة إلى العمالة فى انخفاض وتحول دون الحصول على عمل فى تلك الظروف صعوبات لا يمكن

تجاوزها تقريباً. فعلى الرغم مما قاله السيد براوليو فى الليلة السابقة، حين خرج أونوفرى بوفيلا إلى الشارع ينقب عن وظيفة تكفل له قوت يومه كانت برشلونة تمر منذ سنين بواحدة من فترات الكساد المشار إليها.

منعه حصار رجال الشرطة من دخول رصيف الميناء. سأل ماذا هنالك؟ فأجابوه بأن بين عمال الميناء أعلن عن عدة حالات كوليرا، جلب عدواها بلا ريب مركب قادم من سواحل بعيدة. استرق النظر من فوق كتف أحد رجال الشرطة فأمكنه رؤية مشهد مأسوى: عدد من الحمالين نفض عنه البالات التى يحملها وراح يتقيأ على بلاط الرصيف فيما كان آخرون -أسفل الروافع- يزيلون سائلاً معتماً وقليل اللزوجة. بعد أن تخف النوبة، كانوا يعودون إلى أشغالهم، بين التشنجات، حتى لا يفقدوا اليومية. وكان الأصحاء لدى مرورهم بالمصابين يتجنبونهم ويهددونهم بالسلاسل والمرادي إذا حاول هؤلاء الاقتراب منهم. حاولت حفنة من النساء اختراق الكوردون الصحى لإسعاف أزواجهن أو أصدقائهن لكن الشرطة كانت تصدهن بلا أدنى اعتبار.

واصل أونوفرى بوفيلا سيره، محاذياً البحر، فى اتجاه برشلونة. فى ذلك الوقت، كانت السيادة للمراكب الشراعية. منشآت الميناء نفسها كانت فى غاية التأخر: لم تكن أرصفة الموانئ تسمح للمراكب بأن ترسو بجانبها بل بمؤخرتها، وكان ذلك يزيد من صعوبة أعمال الشحن والتفريغ التى كانت تنجزها زوارق ومراكب صغيرة. ففى كل وقت يشق سرب من هذه المراكب والزوارق مياه الميناء محملاً بالبضائع. وعلى أرصفة الميناء وفى الشوارع القريبة بحارة عجائز لوحت وجوههم واعتادوا أن يشمروا سراويلهم حتى الركبة ويرتدوا قميصاً مخططاً أفقياً وقبعة "جمهورية"، يدخنون فى غليون طويل ويحتسون العرق ويأكلون اللحم المقدد وبسكويتاً يتركونه يجف أسابيع، ويأكلون أيضاً الليمون بشراهة، قليلو الكلام مع الناس فيما يتحدثون إلى أنفسهم بلا

توقف، نادرو الاتصال بالبشر، معربدون، فيما اعتادوا أن يصطحبوا كلباً أو ببغاء أو سلحفاة أو أى حيوان آخر يترعونه بالتدليل والرعاية. وهم فى الواقع ذوو مصير مأسوى عادة: فهم ركبوا البحر صغاراً للعمل كصبى ملاح ولم يعد أحد منهم حتى شيخوخته إلى وطنه الذى تربطه به الذاكرة وحدها. ذلك الترحال المتصل حال بينهم وبين تكوين أسرة وعقد صداقات دائمة. أما الآن، عند العودة، فيشعرون بأنهم غرباء. لكن الفارق بينهم وبين الأجنبى الحقيقى، الذى غالباً ما يعتاد بشكل أو آخر عادات البلد الذى يحتضنه، أنهم مشدودون إلى ذكريات زيفها مرور كل هذه الأعوام، كل هذه الساعات من أوقات الفراغ المهدرة فى صوغ أحلام ومشروعات؛ والآن، وهم يواجهون واقعاً مغايراً، تحرمهم الذكريات "المثالية" التأقلم مع الواقع. ولكى يتجنب بعضهم تحديداً ذلك الخلل يفضل أن ينهى حياته فى ميناء غريب، بعيداً عن الوطن. تلك كانت حال ذئب من ذئاب البحر يناهز المائة تقريباً ويدعى ستروم، مجهول الأصل، كان فى تلك السنين بلغ حظاً من الشهرة فى حى لا بارثيلونيتا الذى يقطنه. يتحدث بلغة لا يفهمها أحد، حتى أساتذة كلية الفلسفة والآداب الذين ساقه إليهم جيران العجوز. كل رأس ماله رزمة من العملات الورقية التى لم يشأ أى بنك فى برشلونة أن يغيرها: ولما كانت تلك الرزمة منتفخة عُدَّ من الأثرياء وسمحوا له بالاقتراض فى المحال والحانات. قيل عنه إنه لم يكن مسيحياً بل من عبدة الشمس وإنه يخبئ فى حجرته عجل بحر أو فيل بحر.

كانت لابارثيلونيتا حياً للصيادين نشأ خلال القرن الثامن عشر خارج أسوار برشلونة. فيما بعد انضم إلى المدينة وتعرض لعملية تصنيع متسارعة. فى لابارثيلونيتا، فى ذلك الوقت، كانت أحواض بناء السفن. هناك، وجد أونوفرى بوفيلا وهو يتنزه جماعة من النسوة البشوشات والبدينات تنتقى السمك وسط القهقهة. شجعته طبيعتهن السمح فتوجه إليهن بحثاً عن معلومات. ربما تمكنت هذه النسوة من إخبارى أين

بوسعى العثور على عمل -هكذا فكر- فالنساء أحن على صبى مثلى. فى الحال أدرك أن المزاج، المعتدل فى الظاهر، لأولئك النسوة مرده فى الواقع اختلال عصبى يجعلهن يضحكن بلا اتزان، بلا مبرر أو تحكم. فهن فى الحقيقة كن ممرورات ويغلين من الغضب: لأقل سبب يشهرن المدى ويتراشقن بسرطان البحر، بناء عليه فر هارباً. لم يحالفه الحظ كذلك حين حاول أن يستقر فى مهنة بحار على أحد المراكب الشراعية الراسية هناك والتى لم تتأثر بالحجر الصحى. فحين اقترب من أحدها أقنعه البحارة الذين يرتفقون ظهر المركب بالعدول عن الفكرة. لا تصعد إذا كنت تنشد البقاء-هذا ما قالوه له. حكوا له أنهم هم أنفسهم من ضحايا الإسقربوط، وحين يتحدثون كانت ترى لثاتهم النازفة. فى محطة السكك الحديدية قال له الحمالون، الذين يكاد الروماتيزم يمنعهم الحركة، إن أعضاء جمعية بعينها هم وحدهم الذين فى وسعهم أن يطمحوا إلى مهنة العبيد تلك. وهكذا، على التوالى. مع حلول الليل، عاد خائر القوى إلى البنسيون. فيما كان يلتهم العشاء القليل أبدى السيد براوليو، المُحلّق كالفراشة من منضدة إلى أخرى، اهتماماً بعاقبة مساعيه. أخبره أونوفرى بأن الحظ لم يحالفه. أنصت الشخص صاحب محل الحلاقة القائم فى المدخل إلى الحديث ولم يرَ حرجاً فى التدخل. قال لأونوفرى بوفيلا: واضح جداً أنك قادم من الريف: اذهب إلى سوق الخضار فلعلك واجد هناك شيئاً. فى تغاضٍ عما يشوب تلك النصيحة من سخرية، أعرب عن شكره للنزيل وركل قط ديلفينا الذى كان نشب مخلبه فى سمانة ساقه. رمته الخادم بنظرة شحنت حقداً رد هو عليها بنظرة ازدراء. فعلى الرغم من أنه كان يأبى الاعتراف بالأمر، فتت أحداث اليوم العصيبة فى عضده. راح يقول لنفسه: لم أكن أحسب الأمور تسير على هذا النحو السيء. بيد أنه -فى داخله- كان يردف: حسن، لا يهم، غداً أحاول من جديد، بالصبر سأجد شيئاً، أى شيء إلا العودة إلى المنزل. فذلك الاحتمال كان أشد ما يؤرقه.

عملاً بنصيحة الحلاق، فى اليوم التالى، زار "البورنى"، هكذا كانت تسمى السوق المركزية للفاكهة والخضار. لكن زيارته تلك كانت عقيماً من مثل الزيارات الأخرى التى قام بها فيما بعد. هكذا مرت الساعات والأيام: دائماً بلا نتيجة ملموسة أو أمل فى الحصول على نتيجة. فى الشمس أو تحت المطر، قطع المدينة من أقصاها إلى أقصاها على قدميه. وفى الترحال لم يدع باباً لم يطرقه. جرب القيام بمهن لم يكن إلى ذلك الحين يعلم بوجودها: صانع سجائر، صانع جبن، غواص، عامل رخام، حفار آبار، إلخ. وفى أغلب الأماكن التى جرب فيها لم يكن هنالك عمل، وفى أماكن أخرى كانوا يشترطون الخبرة. فى محل للحلويات سألوه هل يجيد عمل البسكويت، وفى ترسانة للسفن، عن معرفته بـ"جلفطة" المراكب. ورداً على كافة هذه الأسئلة كان يجد نفسه مضطراً إلى الإجابة بكلمة لا. وما لبث أن اطلع على أمور لم يتخيلها من قبل: من بين كافة الأعمال كانت الخدمة بالمنازل أكثرها راحة. فى ذلك الحين، كان ١٦١٨٦ شخصاً يعملون بها فى برشلونة. أما بقية الأعمال فكانت تؤدى فى ظروف مرعبة: كان يوم العمل طويلاً جداً، ووجب على العمال أن ينهضوا يومياً فى الرابعة أو الخامسة صباحاً كيلا يتأخروا عن أعمالهم. وكانت الأجور جد منخفضة، والأطفال يعملون بدءاً من خمس سنوات فى أعمال البناء والنقل وكذلك فى المقابر حيث يعاونون اللحادين. فى بعض الأماكن، أحسنوا معاملته، وفى أخرى استقبلوه بعدائية صريحة. فى مزرعة ألبان كادت تنطحه بقرة، وحث عليه بعض الفحامين كلباً. فى كل مكان رأى بؤساً ومرضاً. أحياء كاملة تشكو من التيفوس أو الجدرى أو الحُمرة أو الحمى القرمزية. ورأى حالات من داء الرُّماع والازرقاق والكُمنة والنكرزة والتيتانوس والشلل واحتقان الدم والصرع والخناق. وكان الهزال والكساح يتغذيان على الأطفال ومرض الصدر على البالغين والزهرى على الجميع. وكغيرها من المدن، تعرضت برشلونة على نحو دورى لأفظع الأوبئة. ففى عام ١٨٣٤، قتل داء الكوليرا

لدى مروره بالمدينة ٣٥٢١ شخصاً: وبعد ذلك بعشرين عاماً، أى فى ١٨٥٤، سقط ٥٦٤٠ شخصاً ضحية لنفس المرض. فى عام ١٨٧٠، انتشر فى لابارثيلونيتا وباء الحمى الصفراء القادم من جزر الأنتيل الإسبانية فأخلى الحى بأكمله وحرق رصيف "لاريبا". فى مثل تلك الظروف، كان الرعب يسود أولاً ومن بعده اليأس. ثم تنتظم مواكب وشعائر عامة لاسترضاء الرب. إلى تلك الابتهالات كان يذهب الجميع بمن فيهم من كان قبل ذلك بعدة شهور شارك فى حرق الأديرة إثر موجة شغب أو حرض على ارتكاب تلك الأفعال البربرية. وأكثر هؤلاء ندماً هم تحديداً من كانوا قبل وقت قصير قد رشوا ثوب قداس القس بالراتينج بغلٍّ أشد أو لعبوا الورق بالأيقونات أو صنعوا -كما يقال- مرقةً أو "لحماً فى القدر"* من عظام القديسين. فيما بعد كانت الأوبئة تخف وتبتعد لكن ليس تماماً قط، إذ كانت تتبقى دائماً مواطن يبدو أن المرض كان يركن إلى الراحة وينبت جذوره فيها. فبعد كل وباء يأتى آخر قبل أن يتلاشى الأول كلية، وهكذا يغطى كل مرض سابقه. وكان الأطباء يضطرون إلى التخلى عن علاج آخر المصابين بالمرض المعدى للتصدى لعلاج الحالات الأولى من المرض التالى، وهكذا كان شغلهم لا ينتهى. وكان ذلك سبباً فى انتشار المشعوذين وأدعياء الطب، العطارين و"حلاقى الصحة". فى كل ميدان، كان هنالك رجال ونساء يدعون إلى عقائد مريبة، وينذرون بمقدم المسيخ الدجال ويوم القيامة و"مسيح" غريب الأطوار ومهتم على نحو مريب بأموال الغير. بعض الناس، بلا سوء نية، كانوا يتطوعون بتوفير علاجات أو وقاية لا نفع فيها، إن لم تكن مضرة، من مثل إطلاق صرخات فى ليالى اكتمال القمر أو ربط جرس فى كاحل القدم أو رسم علامات البروج أو عجل القديسة كاترين على جلد الصدر. والناس، ممن أصابهم الذعر أو المنكشفين إزاء أضرار المرض، كانوا يشترون الطلاسم التى يصفونها لهم ويحتسون بلا كلمة الأشربة أو يجبرون أبناءهم على

* اسم وجبة قطلونية.

احتسائها ظناً منهم أنهم بذلك يحسنون إليهم. وكانت البلدية تضع الأختام على منازل من مات من المصابين بالعدوى، لكن ندرة المساكن بلغت حد أن بعض الذين كانوا يفضلون المخاطرة على العيش فى الخلاء كان يقطن هذه المنازل مرة أخرى فيصاب بالمرض فى الحال ويقضى نحبه بلا حيلة. ومع ذلك، أحياناً، لم تكن الأمور تسير على هذا النحو. فلم نكن نعدم كذلك بعض حالات إنكار الذات، كما هو مألوف فى مثل هذه الظروف العصيبة. فعلى سبيل المثال، تحكى هذه الحالة المحددة: حالة راهبة متقدمة فى السن تدعى تارسيلا، نما شاريها قليلاً، وكانت ما إن ينمو إلى علمها أن هذا الشخص أو ذاك سقط فى فراشه يشكو مرضاً عضالاً تخف إليه حاملة معها "أكورديون". فعلت ذلك على مدار عقود من الزمان دون أن تصاب بأى مرض، مهما سعلوا بالقرب منها.

فى الليلة التى انتهت فيها المهلة المحددة، دعا السيد براوليو أونوفرى إلى اجتماع. قال له: الدفع، كما تعلم، يكون مقدماً: عليك أن تسدد لنا أجرة الأسبوع. تنهد أونوفرى. قال: لم أحصل بعد على عمل يا سيد براوليو، أعطنى أسبوعاً سماحاً وسأسدد لك كل الأجرة المتأخرة ما إن أتسلم أول يومية. فأجابه صاحب النزل:

– لا تحسب أننى لا آخذ بعين الاعتبار وضعك يا سيد أونوفرى، لكنك أنت أيضاً يجب أن تقدر وضعنا؛ ليس لأن تقديم الطعام لك يومياً يكلفنا كثيراً فحسب بل لأننا نخسر ما كان سيدفعه نزيل آخر لو أنك تركت الغرفة. إنه لأمر مؤسف، أعلم ذلك، لكننى ليس فى وسعى سوى أن أطلب منك أن ترحل غداً. صدقنى، يؤسفنى التصرف بهذه الطريقة، فأنا الآن أكن لك مودة.

فى تلك الليلة لم يكد يقرب عشاءه. فالتعب المتراكم على مدار اليوم جعله يروح فى الكرى ما إن رقد فى سريره، غير أنه بعد ساعة واحدة استيقظ فجأة. حينئذ جعلت تطارده الأفكار النحسة. ولكى يتخلص منها

نهض وخرج إلى الشرفة: هناك استنشق الهواء الرطب و المالح الذى كان يجلب من ناحية الميناء رائحة سمك وخيش. ومن هناك كذلك جاء سطوع شبحى: مصابيح الغاز تعكس ضوءها فى الضباب. كانت بقية المدينة غارقة فى ظلمة مطلقة. بعد هنيهة نخر البرد عظامه فقرر العودة إلى الفراش. وهناك أشعل ذبالة الشمعة التى فوق المنضدة المجاورة للفراش وأخرج من تحت الوسادة ورقة مصفرة مطوية بعناية. بسطها فى حذر وقرأ ما كان مدوناً فيها على ضوء الشمعة المرتجف. وفيما يقرأ ما كان بلا ريب يحفظه عن ظهر قلب راحت شفتاه ترتعشان وقطب جبينه واكتست عيناه تعبيراً ملتبساً، مزيجاً من الحقد والتعاسة.

فى ربيع ١٨٧٦ أو ١٨٧٧ هاجر أبوه إلى كوبا. وأونوفرى بوفيلا فى ذلك الزمن كان له من العمر عام ونصف العام؛ ولم يكن أبواه قد أنجبا سواه بعد. كان والده رجلاً متحدثاً واحتفالياً وصياداً ماهراً ومخبولاً قليلاً على حد قول من عرفوه قبل أن يبدأ تلك المغامرة. وجاءت والدته من الجبال، وكانت هبطت الوادى كى تتزوج من جوان بوفيلا: طويلة القامة، ضامرة، صموت، عصبية الإيماءات، فظة قليلاً لكنها تتحكم فى طباعها؛ قبل أن يعلوها الشيب كان لها شعر بلون القسطل وعينان رماديتان مائلتان إلى الزرقة كعينى أونوفرى الذى كان من حيث التكوين الجسمانى، فيما عدا ذلك، قريب الشبه بوالده. قبل القرن الثامن عشر، كان من النادر ذهاب القطلونيين إلى أمريكا، ومن ذهب منهم كان فى الأغلب من موظفى التاج؛ ولكن مع بداية القرن الثامن عشر هاجر العديد من أهل قطلونيا إلى كوبا. وما كان هؤلاء يرسلونه من أموال من المستعمرة أدى إلى تراكم غير متوقع فى رأس المال. وبرأس المال ذاك أمكن بدء عملية تصنيع وتشجيع الاقتصاد القطلونى الذى كان يخبو منذ عهد الملكين الكاثوليكيين، دون فرناندو ودونيا إيسابل. والبعض، فضلاً عن إرسال الأموال، كان يعود فى نهاية الأمر: إنهم أثرياء جزر الهند الغربية الذين كانوا يشيدون القصور الغربية فى ضياعهم. وأكثرهم

غرابة كانوا يحضرون معهم قياناً زنجيات أو خلاسيات لهم بهن علاقات حميمة بداهة. ولما كان ذلك سبباً فى احتجاج عارم كانوا يزوجونهن من فلاحين ذاهلين. وأنجبت مثل هذه الزيجات أطفالاً دكناء، مهمشين، كان ينتهى بهم الأمر إلى الرهبنة، فكانوا يرسلونهم فى بعثات إلى الطرف الآخر من العالم: جزر "ماريانس" أو جزر "كاروليناس" التى كانت لا تزال تابعة لكرسى أسقف قادس أو أشبيلية. فيما بعد انخفض تيار الهجرة هذا، ولكن ظل هناك من يعبر المحيط بحثاً عن الثروة، لكنها كانت حالات فردية: أن يكون الابن الثانى فى أسرة محكوم عليه بالفقر بسبب نظام المواريث الذى يخول كل الإرث العائلى لطفل واحد، أو مالك أرض أفلس بسبب الفيلوكسيرة، إلخ.

لم تكن أى من تلك حال جوان بوفيلا: لم يعلم أحد حينئذ أو بعدها المبرر الذى دفعه إلى الهجرة. قال البعض: إنه الطموح، وقال البعض الآخر: الخلافات الزوجية. واخترع البعض الحكاية التالية: بعيد زواجه اكتشف جوان بوفيلا سراً رهيباً عن زوجته فكان يسمع بالمنزل صراخ وضرب شديدان ليلاً، وأن ذلك الصراخ كان يوقظ الطفل طوال الليل، وأن بكاءه كان يسمع حتى الفجر حين يخف الصخب. وعلى ما يبدو أن شيئاً من هذا لم يكن حقيقياً. فبعد رحيل جوان بوفيلا استمر رئيس دير سانت كليمنت فى استقبال زوجته، مارينا مونت، فى الكنيسة وفى مناولتها القربان المقدس كبقية رعية أبروشيته وكانت تحظى منه باحترام خاص. بذلك أسكت الشائعات المغرضة.

كتب جوان بوفيلا خطاباً إلى زوجته بعد قليل من رحيله.

ذلك الخطاب الذى حرر فى جزر الأزور، التى توقفت فيها سفينته، حمله فى عربته العم تونيت إلى الكنيسة واضطر رئيس الدير إلى قراءته لأنها لم تكن تعرف القراءة. وحتى يسكت إلى الأبد الألسنة الشريرة قرأ الخطاب يوم أحد من فوق المنبر: ما إن أجد عملاً ومنزلاً وأجنى قليلاً من المال سأرسل لأحضركما معى -هذا ما ذكر فى الخطاب-، الرحلة

طيبة: رأينا اليوم أسماك قرش، تسير خلف المركب على نحو خطر، وفى أسراب، فى انتظار أن يسقط راكب فى الماء، حينئذ تلتهمه فى الحال، فهى تمزق كل شيء بصف أسنانها الثلاثية ولا تعيد إلى البحر أى شيء تفترسه أو تلتهمه. ولم يعاود الكتابة بعد ذلك قط.

طوى أونوفرى بوفيلا الخطاب مرة أخرى بعناية شديدة ووضعه تحت الوسادة وأطفأ الشمعة وأغمض عينيه. هذه المرة نام نوماً عميقاً غير مبالٍ بخشونة المرتبة أو بهجمات البق والبراغيث. مع ذلك، قبل بزوغ الفجر، أيقظه ثقل فوق بطنه وهرير والشعور المزعج بأن أحداً يراقبه. كانت الحجرة مضاءة بشمعة، ليس التى أطفأها قبل ساعات بل أخرى يحملها شخص لم يتعرفه فى لحظتها لأن أمراً آخر كان يشل انتباهه. فوق غطاء السرير كان يقف بعلزبول، قط ديلفينا المتوحش. كان ظهره مقوساً وذيله منتصباً وقد شهر مخالبه. فى المقابل، كانت الملاءات تشل حركة ذراعى أونوفرى الذى لم يجرؤ على إخراجهما كى يحمى وجهه، فكان يخشى أن تهيج حركته الوحش. لبث ساكناً ونبتت فى جبهته وشفته قطرات عرق. لا تخف فلن أهاجمك -همس صوت- لكنك لو حاولت شيئاً ضدى سأقتلع عينيك. تعرف أونوفرى صوت ديلفينا لكنه لم يحول بصره عن القط ولم ينبس ببنت شفة.

- أعلم أنك لم تجد عملاً -واصلت ديلفينا حديثها، كانت نبرة شماتة تشوب صوتها، ربما لأن فشل أونوفرى جاء ليؤكد تكهناتها أو لأنها تجد متعة فى شقاء الغير- يخالنى الجميع لا أدرى شيئاً لكننى أنصت إلى كل شيء. إنهم يعاملوننى كقطعة أثاث، شيء بلا نفع، وهم حتى لا يحيوننى حينما يمرون بى فى الدهليز. ذلك أفضل، فما أتعسهم. أنا واثقة من أن أقصى أحلامهم أن يحملونى إلى الفراش...أنت تدرى ما أقصد إليه. آه، لكنهم إن حاولوا سيفصل بعلزبول جلودهم عن أجسادهم قطعة قطعة. لذا يفضلون التظاهر بأنهم لا يروننى.

حين سمع اسمه أصدر القط فحيحاً محنقاً وأفلتت من ديلفينا ضحكة مزهوة، وأما أونوفرى فأدرك أن الخادم فقدت صوابها. هذا ما كان ينقصني! -فكر- ما عاقبة كل هذا؟ -تساءل-، آه، يا إلهى، المهم ألا تكون العاقبة أن أصير أعمى...

- لكنك لا تبدو مثلهم -طفقت الخادم تتحدث من بين أسنانها وتنتقل بلا هوادة من الضحك إلى الصرامة- ربما لأنك مازلت صبياً. لكنك فى نهاية الأمر ستفسد. غداً ستنام فى الشارع، وستضطر إلى النوم بعين مفتوحة دائماً ثم ستصحو بردان وجوعان إذ لن تجد ما يقيم أودك، وستحارب كى تتمكن من التفتيش فى القمامة عما تأكله. وستصلى كيلا يسقط المطر ولكى يأتى الصيف سريعاً. بذلك ستتبدل، ستصبح وغداً مثلهم جميعاً. ماذا؟ ألا تقول شيئاً؟ فى وسعك الحديث دون أن ترفع صوتك. ولكن لا تأتِ بأية حركة!

- لمَ جئت؟ -اجترأ أونوفرى وطرح هذا السؤال مستنشقاً الكلمات- ماذا تريدين منى؟

- يخالون ألا نفع لى إلا فى المسح وغسيل الأطباق -كررت ديلفينا مستعيدة ابتسامتها المزدرية- لكننى لدى طرقى. يمكننى مساعدتك لو شئت أنا ذلك.

قال لها أونوفرى وهو يحس بالعرق ينزلق على ظهره:

- ما الذى عليّ أن أفعله؟

تقدمت ديلفينا خطوة نحو الفراش. تجمد أونوفرى، بيد أنها توقفت هناك. بعد وهلة قالت: أنصت إلى ما سأقوله لك. لى خطيب، هذا ما لا يعرفه أحد ولا حتى والديّ، ولن أخبرهما أبداً. يوماً ما، لن يتوقعه أحد، سأرحل معه. سيبحثون عنى فى كل مكان لكننا سنكون ابتعدنا كثيراً. لن نتزوج مطلقاً لكننا سنحيا دائماً معاً، لن يعاودوا رؤيتى هنا. إذا أفشيت هذا السر سأقول لبعزيول أن يهشم وجهك، أفهمت؟ -هكذا اختتمت الخادم حديثها وأونوفرى بوفيلا أقسم لها بالله و بذكرى والدته الغالية

أنه سيحفظ السر. نال ذلك رضا ديلفينا التى أردفت: أنصت إليّ، ينتمى خطيبى إلى جماعة، هذه الجماعة مؤلفة من رجال كرام وشجعان عازمين على القضاء على الظلم والبؤس اللذين نغرق فيهما. توقفت لتراقب أثر كلماتها فى أونوفرى بوفيلا فلما لم تجد أثراً أضافت: أسمعت عن الفوضوية؟ نفى أونوفرى برأسه. وباكونين، أتدرى من هو؟ فعاود أونوفرى النفى. وبدل أن تستشيط غضباً كما كان يخشى، هزت منكبيها، قالت: بالطبع، فهى أفكار جديدة يعرفها عدد قليل من الناس. لكن لا تنزعج، سرعان ما سيعرفها جميعهم فالأمور ستتغير.

فى عقد الستينيات من القرن التاسع عشر، قررت جماعات الفوضويين الإيطالية، التى كانت ازدهرت خلال سنى الكفاح من أجل توحيد إيطاليا، إرسال أشخاص ينشرون مذهبها ويبشرون به فى دول أخرى. أما الرجل الذى أرسل إلى إسبانيا، حيث كانت الأفكار الفوضوية معروفة وتتمتع بشهرة واسعة، فكان اسمه فوسكارينى. لكن الشرطة الإسبانية بالتواطؤ مع الشرطة الفرنسية أوقفت القطار الذى كان يستقله على مسافة عدة كيلومترات من نيس وصعدت إلى القطار. أصدر رجال الشرطة وهم يصوبون بنادقهم إلى الركاب هذا الأمر: ارفعوا أيديكم لأعلى! من منكم فوسكارينى؟ فرفع كافة الركاب أذرعتهم معاً. أنا فوسكارينى، أنا فوسكارينى -قالوا. فمن وجهة نظرهم لم يكن هنالك شرف أسمى من أن يشتبه فى أنهم ذلك المبشر. الوحيد الذى لم يقل شيئاً كان فوسكارينى نفسه. أعوام طويلة من العمل السرى كانت علمته المداراة فى مثل تلك الحالات: والآن راح ينظر عبر النافذة ويصفر فى مرح كأن مداهمة القطار لا تعنيه فى شيء. هكذا تمكنت الشرطة من التعرف عليه فى يسر. أنزلوه عنوة من القطار وجردوه إلا من ملابسه الداخلية وربطوه بحبل وأرقدوه فوق شريط القطار ورأسه مستند إلى قضيب وقدماه فوق الآخر. وقالوا له: حين يمر قطار التاسعة

السريع سيقطعك إرباً! ستنتهى حياتك كشرائح اللحم المقدد يا فوسكارينى -جعلوا يقولون فى سخرية شيطانية. وارتدى أحد رجال الشرطة ملابسه وصعد إلى القطار. حين رآه الركاب يدخل القطار اعتقدوا أنه فوسكارينى وأنه تمكن من الإفلات من مختطفيه فانفجروا فى الهتاف، فأخذ فوسكارينى المزيف يبتسم ويسجل أسماء من كان يهتف بحماس أكبر. وحين وصل إسبانيا تكرس لإذكاء العنف غير المبرر بهدف خلق مناخ غير صحى واستعداء الناس ضد العمال وإيجاد مبرر للإجراءات القمعية الحكومية الرهيبة. قالت ديلفينا: فى الواقع كان عميلاً محرِّضاً*.

فى نفس الوقت تقريباً هبطت برشلونة شخصية على طرف النقيض من كلا الفوسكارينيين، الأصلى والمزيف، رجل يدعى كونراد دى ويرد كان فى الولايات المتحدة، من حيث جاء، ناقداً رياضياً ذا حظ من الشهرة، سليل عائلة موسرة ذات أمجاد أرستقراطية من كارولينا الجنوبية، فقدت خلال الحرب الأهلية أو حرب الانفصال كل ثروتها بما فيها الأراضى والعبيد الزنوج. فى بلتيمور ونيويورك وبوسطن وفيلادلفيا جرب دى ويرد ممارسة الصحافة التى كان يحبها لكنه لكونه جنوبياً وجد كافة المجالات محرمة عليه فيما عدا الرياضة. كان يعرف شخصياً أهم أبطال الرياضة فى زمنه من أمثال جيك كيلرين و جون ل. سوليفان لكن حياته كناقد رياضى كانت تجرى عامة مجرى شديد البؤس. فى منتصف القرن الماضى كانت الرياضة شبه ذريعة للمراهنات وإطلاق أحط الغرائز. غطى دى ويرد مصارعات للديكة والكلاب والجرذان، ومصارعات مختلطة لثيران ضد كلاب ولكلاب ضد جرذان ولجرذان ضد خنازير، وهكذا. واضطر كذلك إلى حضور مباريات للملاكمة مرهقة ودموية كانت تدوم حتى ٨٥ جولة وتنتهى عادة بتراشق الرصاص. فى خاتمة الأمر، توصل إلى نتيجة مفادها أن الطبيعة البشرية متوحشة

* ذكرت هاتان الكلمتان بالفرنسية في النص الإسباني.

وقاسية فى جوهرها وأن التربية المتحضرة وحدها يمكنها أن تحول الفرد إلى كائن لديه الحد الأدنى من الإنسانية. بدافع من هذا الاقتناع هجر عالم الرياضة وكرس نفسه لإنشاء جمعيات عمالية بالأموال التى تبرع بها بعض المرابين اليهود من ذوى الميول الليبرالية. كان هدف هذه الجمعيات تبادل التعلم وممارسة الفنون خاصة الموسيقا، كان يرغب فى جمع العمال فى فرق كورال كبيرة، لكى يتخلوا -هكذا فكر- عن اهتمامهم بمصارعة الجرذان. عاش دى ويرد فقيراً، فكل ما كسبه أنفقه على فرق الكورال التى راح ينشئها. شيئاً فشيئاً تسلل رجال العصابات إلى فرق الكورال وحولوها إلى جماعات ضغط. ولكى يتخلصوا من دى ويرد أرسلوه إلى أوربا، ليقوم هناك بمهام تبشيرية. وحين علم بوجود فرق كورال "كلابيه" هبط برشلونة يوم "الصعود" من عام ١٨٧٦. هناك التقى بأنصار فوسكارينى المزيف المخبولين من دعاة قتل الأطفال لدى خروجهم من المدرسة بلا تمييز فخلف فيه ذلك أثراً بالغ السوء.

فى هذا الاتجاه -واصلت ديلفينا حكيها- هنالك شخصية أخرى شائقة، ريميديوس أورتيجا لومبريثس وشهرتها لا تاجارنينا. هذه النقابية الجسور كانت تعمل من قبيل المصادفة فى مصنع للتبغ بأشبيلية. إثر وفاة والديها وهى فى العاشرة من عمرها تحملت مسؤولية أخوتها الثمانية. مات اثنان منهم ضحية المرض لكنها ربت الباقين بمجهودها بل وتبقى لديها قوى كى تتولى تربية أحد عشر ابناً من سبعة آباء مختلفين. فيما هى تلف السيجار وتلصقه تلقت معرفة راسخة فى النظرية الاقتصادية والاجتماعية على النحو التالى: لما كان على كل عاملة أن تلف عدداً محدداً من السيجار فى اليوم، قررن جميعاً أن يغطين عمل واحدة منهن لكى تتمكن هذه من قراءة الكتب عليهن بصوت عال. هكذا كن يعرفن ماركس وآدم سميث وباكونين وزولا وآخرين كثيرين. وكان موقفها أكثر مناضلة من دى ويرد وأقل فردية من الإيطاليين. لم تكن تدعو إلى هدم المصانع، لأن ذلك كان سيحمل البلاد

إلى البؤس التام، بل كانت تدعو إلى احتلالها وتحويلها إلى ملكية جماعية. كان لكل زعيم بالطبع مريدوه، لكن يجدر التنبيه إلى أن كافة الفرق كان يحترم بعضها بعضاً مهما يكن عمق الخلاف النظرى. ففى كل لحظة كانوا جميعاً على أهبة الاستعداد للتعاون فيما بينهم وإسداء العون كما لم تحدث بينهم ألبتة أية مواجهة. منذ البداية كان عدوهم اللدود الاشتراكية بكافة توجهاتها، على الرغم من أنه كان من الوعر التمييز فيما بين مذهب وآخر. -هذا ما انتهت إلى قوله ديلفينا. فيما كانت تتحدث، فيما تقوم بذلك العرض الساذج والمليء بالتناقضات والأغلاط، تألقت حدقتاها الصفراوان ببريق جنون تراءى لأونوفرى جذاباً، بل ساحراً، دون أن يدرك السبب. كانت الخادم تحمل الشمعة عالياً كالفنار، دون أن تبالى بسقوط قطرات الشمع على الأرض. هذا الضوء الشاحب والقميص ذو القماش الخشن الذى يغطى تكويناتها الضامرة نفحاها هيئة مينرفا بروليتارية. فى النهاية، أظهر القط نذر نفاد صبره فقطعت ديلفينا إسهابها قائلة:

- أما البقية، إذا فعلت ما أقوله لك، فستعرفها فيما بعد.

سألها أونوفرى عما كان عليه أن يفعله فقالت إن الأساس هو التعريف بـ"الفكرة"، النفخ فى البوق لإيقاظ الجماهير الغافلة. أنت جديد فى برشلونة -قالت- لا أحد يعرفك، وأنت صغير السن جداً وتبدو ساذجاً. يمكنك أن تساهم فى القضية وتكسب كذلك بعض المال، ليس الكثير فنحن شديدو الفقر، ستكسب فقط ما يمكنك من دفع أجرة البنسيون. هكذا ترى أننا لا نفرط فى الحلم كم يزعم البعض، فنحن نتفهم أن الناس ينبغى أن يكون لديها ما يقيم أودها. حسنٌ، ماذا ترى؟ سألها أونوفرى:

- متى أبدأ؟

رغم أنه لم يكن يرى الأمور بحماس كبير، جاءت مداخلة ديلفينا بالفعل لتريحه قليلاً من تردده. قالت ديلفينا وهى تخفض صوتها كثيراً:

– غداً صباحاً تذهب إلى رقم أربعة بشارع الموسجو. هناك تسأل عن بابلو. هو ليس خطيبى لكنه لديه معلومات عنك. هو ينتظرك وسيخبرك بما عليك أن تفعله. كن رصيناً وتأكد من أن أحداً لا يتبعك: تذكر أن الشرطة تراقب. أما فيما يتعلق بأبى وأجر الغرفة الأسبوعى فلا تخشَ شيئاً، سأضطلع بالأمر. بعلزيول، هيا بنا!

دون أن تضيف أى شىء آخر، نفخت فى الشمعة فأظلمت الحجرة. أحس أونوفرى بأن ثقل القط يتلاشى، سمع صوت الارتطام الناعم لأرجل القط بالبلاط ثم رأى إلى جانب الباب ألق عينى ذلك الحيوان الرهيب. وأخيراً، أوصد الباب فى تكتم.

(٣)

بعد أن سأل هنا وهناك اكتشف أن العنوان الذى أعطته إياه ديلفينا كان فى "بيوبيلو نويبو"، القريب نسبياً من برشلونة. كان هناك ترام تجره البغال يغطى ذلك المسار لكن سعره كان ٢٠ سنتيماً ولم يكن مع أونوفرى بوفيلا ما يدفعه فاضطر إلى السير يتبع القضبان. كان شارع الموسجو طريقاً كئيبة ووحيدة، لصيقة بسور مقبرة مدنية مخصصة للموتى المنتحرين. وكان الشارع مليئاً بالكلاب المذعورة ذات الشعر القليل والخطوم المدببة التى تنبش ليلاً المقابر بحثاً عن الغذاء. فى الليلة السابقة هطل المطر وتلبدت السماء بالغيوم، وانخفض الضغط الجوى وصار الهواء رطباً ولزجاً. لم يفت ذلك فى عضد أونوفرى بوفيلا الذى كان رائق البال: ففى ذلك الصباح نفسه، ساعة الإفطار، دنا منه السيد براوليو وقال له: ليلة أمس كنت أتحدث مع زوجتى وقررنا أن نعطيك أسبوعاً قرضاً. كان السيد براوليو قد حك أذنه فاستحال لونها قرنفلياً. وأضاف: الأحوال وعرة وأنت مازلت صغير السن على السير بلا مأوى فى أراضى الله الواسعة. ونحن نأمل كذلك أن تجد ذلك العمل الذى تسعى إليه بكل هذا الاجتهاد ونحن مقتنعان بأنك بنزاهتك وعطائك ستتمكن على المدى الطويل من بناء مستقبل باهر- هكذا اختتم حديثه على هذا النحو الفخيم. فشكره ونظر ملياً إلى ديلفينا: فى تلك اللحظة، كانت الخادم تعبر حجرة الطعام تحمل دلواً مليئاً بماء قذر لكنها أظهرت أنها لا تراه أو أنها لم تكن تراه. قرع الباب رقم أربعة ففتح له فى الحال شخص له هيئة مريض ذو جبهة مقوسة وشفتين رقيقتين، ممتعضتين:

- أنا أونوفرى بوفيلا وأبحث عن شخص يدعى بابلو.
- أنا بابلو، تفضل.

دخل مخزناً يبدو مهملاً، فالحوائط غطيت بالطحالب والأملاح، وعلى الأرض كانت هنالك بقع زيت وصناديق وبكرات حبال. من أحد هذه الصناديق أخرج بابلو مغلفاً وقال وهو يمد يده به إلى أونوفرى: هذه هى المنشورات التى ستوزعها. أأنت معتاد الفكرة؟ لاحظ أونوفرى أن بابلو وديلفينا يقولان "الفكرة" كأنما ليس هناك إلا فكرة واحدة، وذلك أمتعه. وخمن كذلك أن الصدق أفضل وسيلة مع أشخاص من أمثال بابلو فأجابه بالنفى. أومأ بابلو إيماءة غاضبة، قال: اقرأ أى منشور من هذه بعناية، لا وقت لدى لأعلمك مذهبنا، المنشورات تفسر كل شيء بوضوح. ينبغى أن تكون لديك معرفة فريما سألك أحد توضيحاً، أتفهم؟ قال أونوفرى: نعم. سأله المبشر: أقالوا لك أين ستوزعها؟ للمرة الثانية أجاب أونوفرى بالنفى. "آه، ولا حتى هذا؟"، زفر بابلو موعزاً بأن كل عبء الثورة يقع على عاتقه وحده. أضاف: "لا بأس، سأخبرك أنا بذلك. أتدرى أين يشيدون المعرض العالمى؟" عاد أونوفرى إلى النفى فقال المبشر مستاءً: "ولكنك يا ولد من أى كوكب قدمت؟" ودون أن يتوقف عن الهمهمة أشار إليه بالطريقة التى يصل بها إلى هناك ثم تركه فى الشارع. قبل أن يتمكن من إغلاق الباب سأله أونوفرى:

- حين تنتهى المنشورات، ماذا أفعل؟

ابتسم المبشر لأول مرة، أجاب بنبرة شبه عذبة: تحضر إلى هنا طلباً للمزيد. قال له إن عليه المجيء إلى المخزن صباحاً، فيما بين الخامسة أو السادسة، وليس فى غير هذه الساعة بأى حال من الأحوال، ثم أضاف فى الحال: إذا التقينا فى مكان آخر فكأنك لا تعرفنى، لا تعط هذا العنوان لأحد ولا تتحدث عنى أو عن الشخص الذى أرسلك حتى وإن قتلوك -أضاف فى مهابة- وإذا سألك أحد عن اسمك قل: جاستون، فهذا سيكون اسمك الحركى. والآن، اذهب، فكلما قصرت لقاءاتنا كان ذلك أفضل.

ابتعد أونوفرى عن ذلك المكان المقبض، وحين وصل باحة صغيرة

جلس فوق مقعد وفتح المغلف وطفق يقرأ أحد المنشورات. كان بعض الصبية يركض فى الباحة ومن ورشة أقفال غير مرئية لكنها قريبة يأتى صرير متصل. لذا لم يتح له التركيز فهو يكاد يعرف القراءة ويحتاج إلى الوقت والهدوء ليعى ما يقرأ. فضلاً عن أن نصف الكلمات استغلق عليه. وكان النثر من الالتواء بحيث إنه بعد مراجعة النص عدة مرات لم يتمكن من فهم عما كان يتحدث. قال لنفسه: أمن أجل هذا الهراء أخاطر بحياتى؟ ربط المغلف من جديد واتجه إلى المكان الذى حدده له بابلو. فى سيره تأمل بعينى مزارع هكتارات كانت قبل سنين بساتين؛ أما الآن، وهى فى شراك التقدم الصناعى، تنتظر مصيراً مبهماً، قاحلةً، سوداء، خبيثة الرائحة، تسممها الجداول العفنة التى تصبها هناك المصانع القريبة. هذه الجداول بعد أن تمتصها التربة العطشى تصير وحلاً يلتصق بأحذية المارة ويعرقل سيرهم.

فى لحظة ما يبدو أنه ظن أن شريط القطار هو خط الترام فضل الطريق؛ ولما لم يرَ أى كائن حى ليسأله صعد أكمة وكان يأمل أن يعثر من هناك على ضالته أو على الأقل يحدد موقعه. وضع الشمس وحساب بسيط للوقت ومعارفه سمحت له بتحديد الجهات الأصلية. فكر: الآن أعلم أين موقعى. كانت السحب انقشعت ناحية الشرق ومن هناك أرسلت الشمس أشعتها التى حين استقبلها البحر أطلق ومضه وكان فضياً. حين استدبر البحر لمح ظل المدينة الشائهة عبر طبقة من الهواء الخانق، رأى أبراج الأجراس وأبراج الكنائس والأديرة ومداخن المصانع. بالقرب من هناك، كانت إحدى القاطرات تقوم بالمناورة فى اتجاه خط ميت، وكان عمود الدخان الذى تصدره يتوقف عن الصعود عند ارتفاع عدة أمتار فقد كان الهواء الكثيف والرطب يدفع الدخان إلى أسفل. كان صوت القاطرة وحده يكسر الصمت. تابع سيره، وكلما رأى تلاً ارتقاه ومسح الأفق ببصره. وأخيراً، خلف شريط القطار الذى رأى عنده القاطرة قبل ذلك بلحظات، اكتشف أرضاً شاسعة يعمل بها رجال ودواب

وعربات، بنايات تحت الإنشاء. حسب أونوفرى بوفيلا أن ذلك كان المكان المنشود: قال لنفسه: أو هم سيرشدوننى هناك! هبط المرتفع وتوجه إلى مكان الإنشاءات ورزمة المنشورات تحت ذراعه.

ظهرت القلعة، التى لم تزل ذكراها المخجلة حية ولم يزل اسمها مرادفاً للقمع، ظهرت واختفت على النحو التالى: فى عام ١٧٠١ عانقت قطلونيا -حماية لحرياتها- قضية أرشيدوق أوستريا فى حرب الخلافة على عرش إسبانيا، فلما هزم واعتلت العرش أسرة بوربون عوقبت قطلونيا بشدة. كانت الحرب طويلة وضارية لكن ويلاتها كانت أنكى. نهبت الجيوش البوربونية قطلونيا بالتآمر مع القادة ولم تدخر حقدها. ثم جاء القمع الرسمى: أعدم المئات من القطلونيين وعلقت رؤوسهم على أسنة الرماح وعرضت، عظةً ودرساً، فى أكثر الأماكن ازدحاماً فى الإمارة. وحكم على الألوف من الأسرى بالأشغال الشاقة فى أنحاء قصية من شبه الجزيرة بل وفى أمريكا، وقضى جميعهم نحبه يرسف فى أصفاده ودون أن يعاود رؤية وطنه الحبيب.واستخدم صغار النساء فى تسلية القوات وأسفر ذلك عن "غلاء" فى النساء فى سن الزواج لم يزل قائماً إلى اليوم فى قطلونيا. حقول كثيرة حرقت وزرعت ملحاً حتى تجدب واقتلعت أشجار الفاكهة. أرادوا إهلاك الماشية وخاصة بقرة البرانس، الشهيرة، فأخفقوا لأن بعض هذه الأبقار فر إلى الجبال وعاش فى حالة برية إلى ما بعد أوائل القرن التاسع عشر، وبهذا وحده نجت هذه السلالة من حملات الفرسان الشرسة وشحنات المدفعية وسكاكين المشاة. هدمت القلاع واستخدمت حجارتها فى محاصرة عدد من القرى بالأسوار وتحويلها هكذا إلى سجون. كما حطمت الآثار والتماثيل التى كانت تزين الشوارع وتحولت إلى تراب. وغطيت جدران القصور والبنايات العامة بالجير ورسمت عليها أشكال بذيئة وخطت عبارات نابية وخادشة. وتحولت المدارس إلى اصطبلات والعكس. وأغلقت جامعة برشلونة التى تعلمت فيها وعلمت شخصيات مرموقة، كما جرى

تفكيك مبنى الجامعة حجراً حجراً وأخذوا يسدون بها مجارى العيون والقنوات والسواقى التى كانت تمد المدينة والبساتين القريبة بالماء. وزرع ميناء برشلونة بالموانع وألقى فى البحر أسماك قرش استقدمت خصيصاً من جزر الأنتيل فى صهاريج لتلويث مياه المتوسط. لكن ذلك الوسط، لطيب الطالع، لم يكن ملائماً لها فما لم يمت منها بسبب المناخ أو عسر الهضم لأكله القشريات هاجر إلى أصقاع أخرى عن طريق مضيق جبل طارق الذى كان انتقل إلى سيطرة الإنجليز. بكافة تلك الإجراءات أحاط الملك علماً فقال: قد لا تكفى القطلونيين هذه العبرة! كان فيليب الخامس، دوق أنجوه، ملكاً مستتيراً، نعته كاتب فرنسى بأنه ملك أحمق وشجاع وورع. تزوج من إيطالية، إيزابلا دى فارنزيو، ومات مخبولاً. لم يكن دموياً لكن مستشارين أشراراً حدثوه شراً عن أهل قطلونيا مثلما حدثوه عن أهل صقلية ونابولى والكريول فيما وراء البحار وعن أهل جزر الكنارى والفليبين والهند الصينية، وجميعهم رعايا التاج الإسبانى. لذا أمر بإنشاء حصن منيف فى برشلونة وأسكنه جيش الاحتلال المتأهب للخروج لقمع أى تمرد. منذ البداية، أطلق على ذلك الحصن اسم "القلعة". كان الحاكم يسكنها منعزلاً تماماً عن الشعب: فكل شىء كان يحاكى أعتى النظم الاستعمارية. فى ساحة القلعة كانت تجرى عمليات شنق المتهمين بإثارة الفتن وكانت جثث الوطنيين المشنوقين تترك فريسة للعقبان. وفى ظل المعاقل كان أهل برشلونة يحيون حياة مهينة، يبكون حنيناً وغضباً. مرةً أو نحوها حاولوا الهجوم على الحصن والاستيلاء عليه غير أنهم دحروا بسهولة واضطروا إلى الانسحاب عن ساحة القتال بعد أن زرعت قتلى. وراح المدافعون يسخرون منهم فيطلون من الفتحات ويبولون على الموتى والجرحى. فى مقابل هذه المتعة الشريرة، لم يكن فى وسعهم مغادرة نطاق القلعة أو مخالطة المدنيين الذين كانوا يكرهونهم، فحرموا أية تسلية وأصبحوا أسرى ذلك الوضع. فاتجه الجنود المحرومون من صحبة النساء إلى اللواط وأهملوا نظافتهم

الشخصية فصارت القلعة بؤرة لكافة الأمراض. من ثم، بعد تأمل الوضع فى هدوء، جعل الطرفان يطلبان من ملك بعد ملك أن يضع حداً لرمز العداوة والعار ذاك، إذ لم يكن هنالك سوى عدد من المتعصبين المدافعين عن ضرورة بقائه. واعتاد الملوك الموافقة مبدئياً ثم التسويف فيما بعد، شأن كل من لديه سلطة مطلقة. فى منتصف القرن التاسع عشر كانت القلعة فقدت جزءاً كبيراً من فعاليتها، فالتقدم الحربى ألغى وظيفتها ومبرر وجودها. فى ١٨٤٨، بسبب تمرد شعبى، رأى الجنرال إسبارتيرو أن من الأسرع قصف مدينة برشلونة من مرتفع مونجوى. فى النهاية، بعد مرور مائة وخمسين عاماً، هدمت أسوار القلعة ووهبت الأرض التى تحتلها والأبنية الكائنة فوقها للمدينة كأنما بغرض أن ينمحى الألم المتراكم. بعض تلك البنايات هدم لمبررات بديهية والبعض الآخر مازال قائماً. وتقرر أن تتحول ساحة القلعة إلى حديقة عامة متعة للجميع، وكان من المفارقة أن ترى كيف كان يغرس الشجر وتنبت الزهور فى أرض شهدت ارتكاب مثل تلك الأفعال الوحشية وكانت قائمة فيها إلى وقت قريب سقالة الإعدام. وأنشئت كذلك بحيرة ونافورة كبيرة تحمل اسم "الشلال". أما الحديقة فكانت ومازالت تحمل اسم "القلعة". فى ١٨٨٧، حين وضع أونوفرى بوفيلا قدمه هناك، كان يقام فيها ما سمى فيما بعد بأرض "المعرض العالمى". كان ذلك فى أوائل أو فى منتصف شهر مايو من ذلك العام. فى ذلك الحين، كانت أعمال البناء وصلت مرحلة متقدمة. وبلغ عدد العمال أقصاه: أربعة آلاف وخمسمائة رجل. كان رقماً فلكياً وغير مسبوق فى ذلك الزمن، يضاف إليه رقم آخر غير محدد لكنه كبير كذلك من البغال والحمير. كما كانت تعمل هناك روافع وماكينات تعمل بالبخار وآلات وعربات. كان الغبار يغطى كل شيء والضجة تصم الآذان والفوضى تامة.

كان السيد فرانثيسكو دى ريوس إى تاوليت يشغل منصب عمدة برشلونة للمرة الثانية. فى حوالى الخمسين، متجهم، ذو صلعة خيالية

وفودان طويلان حتى إنهما يغطيان طيتى سترته. وقال المؤرخون عنه إن له مظهراً شريفاً. كان شديد الحساسية بصدد سمعة المدينة وسمعة إدارته هو. فى تلك الأيام القائظة من عام ١٨٨٦ كان يواجه لغزاً محيراً، فقبل شهور زاره سيد يدعى إوّخنيو سيرانو كازانوفا وقال له: "سأطلعك على أمر خطير". كان السيد إوّخنيو سيرانو كازانوفا من إقليم جليقية ويقيم فى قطلونيا، فإلى هناك ذهب به فى شبابه نضاله المتحمس للقضية الكارلية. فيما بعد خففت السنون حماسه وليس طاقته، إذ كان مقداماً ورحالة. وأثناء رحلاته أتيح له حضور المعارض العالمية فى أميريس وباريس وفيينا: وبدت له تلك المسابقات ضرباً من العجب. ولما كان رجلاً لا يقبل أن يفسد له رأى أعد خططه وطلب تصريحاً من بلدية برشلونة لينجز هناك ما رآه فى تلك المدن. أعطته البلدية حديقة القلعة. إذا رغب فى أن يضع نفسه فى المآزق فليفعل فهو حر -هكذا ارتأت السلطات المختصة فى سلوك يتسم بالإهمال والخطورة من جانبها. الحق أن أحداً لم يكن يعى ما يعنيه تنظيم معرض عالمى، إذ كانت هذه المعارض ظاهرة جديدة لا يعلم أحد عنها شيئاً إلا عن طريق الصحف. وعلى الرغم من أن مفهوم "معرض عالمى"، فكرة المسابقة نفسها، ولد فى فرنسا أقامت لندن أول معرض فى عام ١٨٥١؛ وأقامت باريس معرضها العالمى فى ١٨٥٥. فى باريس كان التنظيم سيئاً إذ فتح المعرض أبوابه متأخراً خمسة عشر يوماً عن موعده؛ وفى يوم الافتتاح، لم يكن العديد من القطع المعروضة قد أخرج بعد من صناديق الشحن. من بين الشخصيات الكبرى التى زارت المعرض الملكة فيكتوريا نفسها وكانت حينئذ فى أوج مجدها. "لا بأس، لا بأس"، راحت تهمهم الملكة المذكورة فى إيماءة تعب رقيقة وفى قمة سعادتها بالطبع لبوادر القصور تلك التى بدرت من الفرنسيين. وكان يتبعها سباهىّ طوله متران دون حساب عمامته، يحمل على وسادة من الحرير القرمزى الـ كوهى نور، أكبر ماسة فى العالم فى ذلك الوقت. كأنما أرادت الملكة فيكتوريا بتلك اللفتة

أن تقول إن شيئاً واحداً فقط مما أملك يساوى أكثر مما هو معروض هنا؛ لكنها لم تكن محقة فالمعرض الحقيقى هو التنافس على الأفكار وعلى التقدم. فيما بعد أقيمت معارض فى أمبيريس وفيينا وفيلادلفيا وليفربول. وكانت لندن نظمت معرضها الثانى فى ١٨٦٢، وباريس فى ١٨٦٧، عندما طرح ريوس إى كازانوفا فكرته. كان حماسه فياضاً ورأس ماله منعدماً. وكانت برشلونة تمر بأزمة مالية حادة ولم تجد نداءات الداعية المجتهد صدى لها. فقد نفدت الأموال المخصصة للمشروع فى البداية مما اضطره إلى التخلى عنه. ذهب سيرانو إى كازانوفا للقاء العمدة ريوس إى تاوليت، وفى نبرة عذبة، كمن يفشى سراً، قال له: أحيطكم علماً بأمر خطير على نحو خاص، لقد قررت، وأنا فى بالغ الأسى، أن أستسلم. أعمال تجهيز الحديقة كانت قد بدأت وكان هذا الحدث، لمبررات متباينة، حظى بدعاية واسعة. صرخ ريوس إى تاوليت:"اللعنة!"، وقرع بإصرار ناقوساً صغيراً من الذهب والزجاج كان على مكتبه بالبلدية. وأمر أول من ظهر (ساع) دون أن ينظر إلى وجهه بأن يتخذ كافة التدابير لدعوة كبار الشخصيات فى برشلونة لاجتماع فورى: الأسقف والحاكم والقائد العام ورئيس مجلس المقاطعة ورئيس الجامعة ورئيس الأتينيوم، إلخ. سقط الساعى مغشياً عليه فى مكتب العمدة واضطر الأخير نفسه إلى إفاقته بأن روّحه بمنديله. وحين اجتمع الكبراء فى آخر الأمر لم تكن هنالك رغبة فى فعل شيء بقدر ما كان هنالك من ثرثرة، فجميعهم كان مستعداً لإبداء الرأى لكن أحداً منهم لم يظهر اهتمامه أو اهتمام المؤسسة التى يمثلها، بل إنهم كانوا أقل استعداداً لتقديم الدعم المالى لمشروع سيرانو كازانوفا الأرعن. فى النهاية، خبط ريوس إى تاوليت المنضدة خبطة قوية بحافظة أوراق جلدية وحسم ذلك الهراء. صرخ بملء رئتيه: بحق القربان المقدس وأم يسوع!* سمعت هذه الاستهلالية الرنانة فى ميدان سان چاوما وأضحت

* العبارة ذكرت في النص الأصلى بالقطلونية.

ذائعة الصيت وهى الآن، إلى جانب عبارات أخرى شهيرة، منقوشة على أحد جانبى النصب المقام للعمدة الذى لا يكل. لم يكن بوسع الأسقف إلا الرضوخ، فما يتصل بالعمدة لم يكن أمراً يحتمل الهزل. وفى أقل من ساعة حصل من كافة الحضور على موافقتهم وعلى وعد منهم بالمشاركة المنشودة لاستكمال المشروع. قال لهم إن التخلى عنه الآن سيكون مخزياً لبرشلونة واعترافاً بالعجز. أقروا الدفع بالمشروع إلى الأمام تحت رعاية "مجلس للإدارة". كما أنشئ مجلس للمؤسسة يضم سلطات مدنية وعسكرية، من رؤساء الجمعيات وأصحاب البنوك ورجال الأعمال. بذلك ألزم الجميع بتلك المهمة التى كان لا مناص من أن تكون جمعية حتى تنجز. كما أنشئ مجلس فنى مؤلف من معماريين ومهندسين آخرين. وبمضى الوقت تكاثرت المجالس واللجان (لجان اتصال بالشركات الوطنية، لجان اتصال بالعارضين الأجانب، لجان مسؤولة عن إعلان نتائج مسابقات ومنح جوائز،إلخ.) مما نجم عنه فوضى وبعض خلاف. واتفق الجميع على نعت ذلك التنظيم بأنه "حديث جداً". أما مسألة أن يجمع الرأى العام على جدوى المشروع فكان لها شأن آخر، إذ أوردت صحيفة من ذلك الوقت: "فيما عدا ذلك [المعرض] لا يعتبر أهل برشلونة من عوامل الجذب التى تجعل من إقامة الأجنبى فيها عدة أيام إقامة سارة". كان الجميع يفكر فى أن برشلونة ستنهض بدور كئيب إذا ما قورنت بباريس أو بلندن. لم يفكر أحد فيما كانت تقدمه حينئذ من عوامل جذب مدن مثل أمبيريس أو ليفربول اللتين أقامتا معرضيهما الدوليين بلا ذلك الإحساس الكبير بالذنب. أو ربما طرحتا نفس الأمر غير أنهما قالتا: بوسع الآخرين الإتيان بالسخافات إن شاءوا أما نحن فلن نفعل. يقول خطاب نشرته صحيفة من ذلك الزمن:"فى برشلونة، فيما عدا طقسها المعتدل وموقعها الممتاز وآثارها التليدة ونذراً -قليلاً جداً- من روح المبادرة لدى أهلها، لسنا على مستوى شعوب أوربا الأخرى التى لها أهميتنا نفسها، فكل ما له صفة إدارية يحتل مرتبة أدنى:

شرطة المدينة مزرية عموماً والأمن ليس على ما يرجى بأية حال وعدد كبير من المرافق الضرورية لخدمة ٢٥٠٠٠٠ نسمة منعدم أو هو يسير على نحو سيء كما أن ضيق شوارع المدينة القديمة وقلة الميادين الكبيرة سواء فى الأحياء القديمة أم الجديدة يعرقلان المرور ويحرماننا الراحة، فضلاً عما ينقصنا من طرق جيدة أو منوعة ومن متاحف ومكتبات ومستشفيات وملاجئ وسجون،إلخ.، جديرة بالزيارة". ومن بين أشياء أخرى، تقول كذلك هذه الرسالة المطولة التى قوامها عدة صفحات:"بذلنا أموالاً طائلة على حديقة القلعة لكن أبعادها متواضعة إذ تنقصها غابة رحيبة وحديقة أكبر، كما أن بحيرتها سخيفة للغاية". وصاحب هذه الرسالة وهو يقول ذلك ربما كان فى ذهنه أشهر حدائق ذلك الزمن: "بوا دى بولونى" و"هايد بارك". تستأنف الرسالة قدحها:"الكساح الذهنى والزهو الفارغ غالباً ما يسمان أفعال إدارتنا المحلية. منذ عدة سنوات وإلى الآن تحولت برشلونة إلى مدينة قذرة، أما واجهات المنازل القديمة شيئاً فكم تثير الغثيان عادةً!". رسائل مماثلة كانت مألوفة فى الصحافة المحلية فى ذلك الحين فيما أعرب آخرون عن تحفظاتهم بشكل أكثر اقتضاباً كما فعلت إحدى الصحف فى ٢٢ سبتمبر ١٨٦٦ إذ اختارت لافتتاحيتها العبارة التالية:"أللمعرض جدوى اقتصادية أم سيكون كارثة؟" ومع ذلك، كانت معارضة إقامة المعرض الدولى واهية عموماً. أغلب المواطنين كان على أهبة الاستعداد لمواجهة أخطار المغامرة، فيما أدرك الآخرون أن ما تقره السلطات يدخل دائماً حيز التنفيذ فعدة قرون من الحكم المطلق علمت الناس ألا يضيعوا الحبر أو الموهبة فيما لا طائل تحته. أضف إلى ذلك عاملاً جد مهم له أثره على الرأى العام: سيقام أول معرض دولى فى برشلونة وليس فى مدريد. كانت صحف العاصمة قد أشارت إلى ذلك الأمر بالفعل. هذه الصحف نفسها كانت توصلت إلى خلاصة أليمة ولا خلاف عليها وهى أن تلك كانت الحقيقة، فاتصال برشلونة ببقية العالم، بحراً وبراً، يؤهلها

أكثر من غيرها فى شبه الجزيرة لجذب الأجانب، هذا ما ذكرته الصحف. بذلك استراحوا، كأنما اختيار برشلونة مقراً للمعرض اختيارهم هم. مع ذلك لم تثر هذه المبررات حماس الحكومة، قيل لهم: أنتم تقيمونه فأنتم تنفقون عليه. فى تلك الفترة، كان اقتصاد الدولة مركزياً، شأنه شأن كل شيء، وثروة قطلونيا، شأن أى جزء آخر من المملكة، كانت تذهب مباشرة لتملأ خزائن مدريد. وكانت المحليات تغطى احتياجاتها من تحصيل الرسوم المحلية لكنها إزاء أية مصروفات طارئة كانت تلجأ إلى الحكومة سعياً وراء دعم أو قرض أو خيبة الرجاء، مما أثار بين أهل قطلونيا شعوراً بالتضامن أسكت الانتقادات. قال ريوس إى تاوليت: من هذه الناحية هم يصنعون فينا معروفاً، أما فيما عدا ذلك فلا نرى منهم خيراً. لم يكن على ذلك خلاف. قال مانويل جيرونا: قد ينتهى الأمر بشجار مع مدريد، لكننا بدون مدريد لن نتقدم خطوة. كان من رجال المال المشاهير ثم أصبح رئيساً للأتينيوم، وكان معروفاً بأنه لا يفقد ألبتة رباطة جأشه. اقترح: لندع إلى فرصة أنسب الانفعالات المزاجية لنواجه الواقع، يجب أن نتوصل إلى اتفاق مع مدريد، سيكون أمراً مهيناً لكن القضية تستحق التضحية. بهذه الكلمات حسم النقاش واختتمت الجلسة المنعقدة يوم أربعاء فى مطعم "الأبواب السبعة". فى يوم الأحد التالى، بعد سماع القداس وكورال الكنيسة، خرج وفد من عضوى المجلس فى طريقه إلى العاصمة. كانا يسافران فى عربة يجرها الخيل وضعتها البلدية نفسها تحت تصرفهما منقوش على بابيها شعار "مدينة القومس"*. فى حوافظ أوراق ضخمة من جلد التمساح كانا يحملان وثائق المشروع، وفى عدة صناديق مثبتة بأحبال فى الجزء الخلفى من العربة غيارات كثيرة لأنهما كانا يتوقعان غياباً طويلاً، هذا ما حدث. ما إن وصلا مدريد أقاما فى فندق. فى صباح اليوم التالى توجها إلى "وزارة الدعم". أثار وصولهما جلبة عظمى فقد جاءا من

* اسم آخر لمدينة برشلونة.

برشلونة بملابس وعباءات تنتسب إلى جوان فيبيير، حامى حمى برشلونة الأسطورى، وكانا يرتديانها. مع انصرام القرون صار صوف تلك الأردية أشبه بسقط الصوف كما صار الحرير أقرب إلى نسيج العنكبوت. عند مرور الموفدين، اللذين كانا يحملان حوافظ الأوراق بكلتا اليدين كالقرابين، كانت بُسُط الوزارة تتغطى بغبار بنى اللون. واسما هذين الموفدين، على التوالى: "جيتارى" و"جيتارو"، ولولا كونهما حقيقيين لاعتبرا مبتدعين خصيصاً ليناسبا الحكاية. قادوهما إلى صالون سقفه شاهق ومبطن بالخشب على الطراز القديم، ليس به سوى مقعدين من طراز عصر النهضة وغير مريحين إطلاقاً ولوحة بعرض ثلاثة أمتار وطول تسعة، من ورشة ثوربران، تمثل ناسكاً شيخاً له بشرة لازوردية ومغطى بالعقد الليمفاوية ومحوطاً بعظام الساق والجماجم. اضطرا إلى الانتظار هناك ما زاد على ثلاث الساعات فى نهايتها فتح باب جانبى، شبه خفى، وظهر شخص وجهه منتفخ وفوداه على هيئة رأس معول ويرتدى سترة موشاة. فى الحال نهض عضوا الوفد وتمكن أحدهما من الهمس فى أذن زميله وقد فتّ طول الانتظار فى عضد جهازه العصبى: بحق القديسة كيتيريا، نظرة واحدة منه تثير الرعب! أدى كلاهما تحية إجلال شديدة. أما القادم من توه فلم يكن الوزير بل الحاجب الذى أبلغهما فى جفاف بأن يتوجها فى اليوم التالى وفى نفس الساعة مجدداً إلى الوزارة لأن السيد الوزير لن يتمكن من رؤيتهما اليوم. تلك الحيرة التى أحدثها زى الحاجب الزاهى كان بداية سلسلة مطولة: كان موفدا المجلس يتحركان فى وسط غريب عليهما وما كانا يعرفان أى موقف يتخذانه فى مدينة الحانات والأديرة تلك، مدينة الباعة الجائلين والسوقة والقوادات والمتقرحين والمتسولين، وما يوجد فى قلب هذه المدينة من عالم أشد غرابة بعد قوامه البهرج والمراسم والوعيد والمنح، ويعمره جنرالات متآمرون ودوقات دساسون وقساوسة مدعون ومحاسيب ومصارعو ثيران وأقزام وسفهاء بلاط يستهزئون بهما

وبلكنتهما القطلونية على نحو خاص. فى الذهاب والإياب إلى مقر الوزارة بذلا بلا طائل ثلاثة أشهر وما توازيه من نفقات؛ وبعد أن نفد المال كتبا إلى برشلونة ليشرحا ما حدث ويطلبا توجيهات. مع عودة البريد وصلهما طرد مرسل من ريوس إى تاوليت نفسه به أموال ونسخة جيرية من تمثال العذراء مونسرّات ورسالة تقول:"مصير أحد الطرفين الرضوخ، وبحق الرب المبارك لن نكون نحن هذا الطرف". لم يكن الموفدان المسكينان يخرجان تقريباً من الفندق حيث صار القائمون على خدمته، بعد أن اعتادوا وجودهما واقتنعوا بألا ينتظروا منهما أية بوادر كرم مفرطة، صاروا لا يعبأون بتغيير المناشف أو الملاءات أو بالمرور بالمنفضة على الأثاث القليل والمتهالك. واقتصاداً للنفقات تقاسما نفس الغرفة فى ضيق شديد وراحا يعدان الإفطار والعشاء هناك وبالماء الساخن الموجود فى البانيو.

لكن عذابهما الفعلى تمثل فى زياراتهما الصباحية للوزارة، فسرب الزنابير وحاملى السيوف -الذى يظهر أنه كان يقطن ممراتها وأبهاءها- نظم فيهما شعراً جارحاً كانا يسمعانه دندنةً لدى مرورهما بأى مكان. أما من هم أقرب إلى الوزارة فأعدوا لهما مزحاً أشد مهانة كأن يضعوا دلاء ماء أعلى ساكف الباب الذى سيجتازانه أو يمدوا حبلاً أرضاً كى يعثرا به أو يقربوا شمعة مشتعلة من ذيلى ثوبيهما فتصدر عنهما رائحة شياط. فى بعض يوم، لدى دخولهما صالون الانتظار كانا يجدان المقعدين يشغلهما آخرون يطلبون قضاء مصلحة وأكثر تبكيراً منهما ولكن بما لديهم من خبرة فى ذلك الصنف من المواقف وانطبع فى قلوبهم من قسوة بعد حياة كاملة من الانتظار العقيم والمداهنة والاستعطاف والسعى والفشل كانوا يتظاهرون بأنهم لا يلتفتون إلى وجودهما وخلال الساعات الثلاث المعتادة لا يسمحون لهما بالجلوس دقيقة واحدة. استمر الوزير فى الامتناع عن استقبالهما. وفى كل يوم، وبعد الانتظار فى تلك القاعة التى حفظا أصغر تفاصيلها عن ظهر قلب،

يفتح الباب شبه الخفى ويدخل الحاجب ذو الفودين ويمد لهما على صينية مذكرة متعجلة حيث يبلغهما الوزير بأنه كان يود استقبالهما بيد أنه لن يتمكن من ذلك. كانت فوضى استخدامه مفردات وعبارات سوقية تحرمهما فهم تلك المذكرات مما يزيد من كربهما فكانا يذهبان وهما نهب للريب من ألا يكونا فهما على النحو الصحيح تعليمات الوزير الذى راحا يجريان استشفاف أى تبدل فى حالته المزاجية من خلال أية بادرة مهما تكن طفيفة. أحياناً، بعد تردد طويل ونقاش مستفيض فيما بينهما، كانا يردان على تلك المذكرات بأخرى. لذلك الغرض طبعا فى منشأة متخصصة بشارع مايور بطاقات نقش عليها، لاندرى أعن قصد أم من قبيل الخطأ، شعار بلنسية بدلاً من شعار برشلونة الذى طلباه. كان تصحيح الخطأ يعنى شهراً من التأخير فاضطرا إلى الرضوخ. فى هذه البطاقات كتبا :"نتفهم تماماً أن سعادتكم، حفظ الله حياتكم أعواماً مديدة، مشغول إلى حد بعيد، لكننا نسمح لأنفسنا بالإلحاح، بكل احترام، نظراً إلى خطورة المهمة الموكلة إلينا"، إلخ... فيرد عليها الوزير فى اليوم التالى بعبارات من صنف "الوقت ملتصق بمؤخرتى" (أى: نظراً إلى ضيق الوقت) أو "أمضى مخرجاً قضيبى" (أى: أرزح تحت وطأة العمل) أو "أخرج أو أتبرز غائطاً"(أى: أعمل بأقصى ما فى وسعي) أو "خلع السروال الحريمى ضرطاً (معنى غير واضح)، إلخ. ثم يختتم رسالته بقوله:"حتى جمع الخيار" أو بشيء من قبيله. أما هما فقد ردا بقولهما: "ربما أتيح لسعادتكم مزيد من الوقت لو لم تسرف سعادتكم فى الأماليح". فى الليل كانا يكتبان لذويهما فى برشلونة خطابات مفعمة بالحيرة والوحشة، وأحياناً تمحو الحبر دمعة لم تكبح.

فى تلك الأثناء، فى برشلونة، لم يكن مجلس إدارة المعرض العالمى برئاسة ريوس إى تاوليت يعرف النوم. "فلنواجه مدريد بالأمر الواقع"، يبدو أن ذلك كان شعاره. كانت مشروعات الأبنية والآثار والمنشآت والمرافق قد وزعت وقدمت وأقرت، وبدأت أعمال الإنشاء بإيقاع لم تكن

الأموال المتاحة تحتمله زمناً طويلاً. وفيما أضحت حديقة القلعة كلها رأساً على عقب دعت البلدية المراسلين الصحفيين لزيارته. وكحافز لجذب اهتمامهم أقيمت لهم مأدبة تشهد قائمتها على ميل المضيفين الكوزموبوليتانى:

الحساء: حساء جمبرى على الطريقة الأمريكية
الطبق البديل: سمك على طريقة جينيف
الأطباق الرئيسية: أفراخ دجاج من منطقة مان على طريقة تولوز
وشرائح فيليه على طريقة جودار
الخضراوات: بازلاء بالزبد
المشويات: سمان صغير بـ"كروستاد"
ولحم ديك رومى مع عيش الغراب
فواتح الشهية:
بسكويت مارتان
وأناناس وجوتوف
وحلوى منوعة
النبيذ: بورتو برتغالي
شاتو لكيم
بوردو فرنسي
شمبانيا فرنسي

فى الكلمات التى ألقيت فى ختام المأدبة حدد موعد الافتتاح (ربيع ١٨٨٧)، وظهرت فى عدد من الصحف أخبار تشيد بالحفل، كما وضعت ملصقات إعلانية فى محطات قطارات أوربا كلها وأرسلت دعوات إلى هيئات وشركات إسبانية وأجنبية لتشجيعها على المشاركة فى المعرض وأقيمت كذلك -جرياً على العادة حينذاك- عدة مسابقات أدبية. جاءت استجابة المشاركين المستقبليين فاترة لكن على أية حال كانت هناك

استجابة. فى أواخر ١٨٨٦ ورد بالصحف نبأ منح أول ترخيص للخدمات. "تم منح ترخيص دورات المياه والمراحيض، الخاضع كلياً للشروط المحددة سلفاً، للسيد فراشيداس إى فلوريت. هذا الرجل الذكى يعتزم تزويد هذه المرافق بخدمة تواليت كاملة من صالونات بها كافة الكماليات الواجبة: ملابس بيضاء وصابون وأدوات زينة وعطور. كما ستزود بقاعة خاصة لمسح الأحذية وبعدد من السعاة لخدمة الجمهور والعارضين ونقل الرسائل أو لتوصيل مشتريات المعرض إلى المنازل. نهنئ السيد فراشيداس إى فلوريت لأنه إذ فطن إلى ما فى هذه الخدمة من ربح تجنب أن ينتفع به أجنبى". آل الأمر بوزير الدعم إلى الرضوخ. كان رجلاً بديناً، ذا مظهر وحشى، غير إنسانى تقريباً. من وراء ظهره كانوا يسمونه "الإفريقى". وهو لم يذهب قط إلى إفريقيا ولم يكن يمت بصلة إلى تلك القارة وإنما حاز ذلك اللقب لهيئته الجسمانية وطبيعته. وحين علم بما يطلقونه عليه لم يغضب بل على العكس، وضع حلقة تتدلى من أنفه.

استقبل عضوى المجلس ببرود مفرط، لكن مرور الزمن أفادهما بغير علمهما. فلقد أصابتهما ساعات الانتظار التى لا تحصى والمحن والإهانات التى كابداها بالهرم، ولطول معيشتهما معاً ليل نهار أصبحا صنوين كقطرتى ماء كما أصبحا معاً شديدى الشبه بناسك اللوحة التى من ورشة الرسام الإسبانى ثوربران والذى ظلا يتأملانه شهوراً كثيرة. فى حضورهما شعر الوزير بغتة بالتعب، وبغتة ثقل على كاهله كل سلطته الهائلة، وما كان ينتظر أن يكون مواجهة بين عماليق راح حديثاً كليلاً مترعاً بالشجن.

(٤)

أحيطت أرض حديقة القلعة بسياج لحماية إنشاءات المعرض من تدخل الفضوليين. مع ذلك كانت بذلك السور عدة فتحات، فضلاً عن أن السعى الدائب والصاخب عبر أبوابه، إذ يدخل الناس ويخرجون بلا نظام أو مراقبة من أى صنف، كان يتيح اختراق أى حاجز بلا صعوبة. دس أونوفرى بوفيلا خمسة منشورات فى صدره وخبأ بقيتها بين شاهدى قبر من الجرانيت بجوار السور المتاخم لشريط القطار وتسلل إلى داخل السور. حينئذ فقط، حين رأى ذلك الهرج، وعى جيداً أن مهمته جد وعرة، ففيما عدا مساعدته لأمه فى أعمال الحقل لم يكن امتهن أية مهنة ولم تكن لديه أية فكرة عما يمكن أن يبلغه التعامل مع الغير من تعقيد. فكر: عجيب! لقد انتقلتُ من إلقاء الذرة إلى الدجاج إلى الثورة فى السر. ثم أردف: حسن، يستوى الأمر، فمن يصلح للأمر الأول يصلح للآخر. بعد أن أشاعت هذه الفكرة الحماس فيه اقترب من جماعة من النجارين تثبت بمسامير ألواحاً خشبية فى هيكل ما سيصبح فيما بعد أحد أجنحة المعرض. لكى يلفت الانتباه إليه أطلق عدة عبارات: إيه! إيه! أهلاً! صباحاً مباركاً من الرب!...إلخ. أخيراً التفت نجار إلى وجوده بطرف عينه فدنا منه يسأله عما يريد بإيماءة طفيفة بحاجبيه.

صرخ أونوفرى مخرجاً المنشورات للنجار:

- أحضرت عدداً من المنشورات الهامة جداً!

صرخ النجار بدوره: "ماذا تقول؟".

كان صوت المطرقة التى يدق بها هو نفسه يحرمه فى تلك اللحظة من سماع أى شيء أو ربما أصابه بالصمم إلى الأبد. ود أونوفرى تكرار عبارته لكن عربة يجرها ثلاثة بغال اضطرته إلى التراجع فى سرعة.

طرقع البغّال سوطه فى الهواء فيما يشد الأعنة وقد ثبت كاحليه فى الأرض وناء بجسده إلى الخلف. راح يعوى: الطريق! الطريق! فوق العربة تكدست أنقاض تتصاعد منها سحابة ضاربة إلى البياض مع اهتزازها. كانت عجلات العربة تتقافز فوق الحجارة والأخاديد مصدرة أصواتاً معدنية غائرة كقرع المقارع. صرخ البغّال: هيا، هيا! وأونوفرى بوفيلا فضل الانصراف. على مدار ثوان راودته فكرة إلقاء المنشورات فى مقلب قمامة وأن يقول لبابلو فيما بعد إنّه وزعها كلها، غير أنه سرعان ما عدل عنها: كان يخشى أن يكون الفوضيون يراقبونه، على الأقل فى الأيام الأولى. سأله أحد البنائين كان توجه إليه:

- ماذا أحضرت أيها الصبى؟

هذا الرجل كان وسط جماعة من البنائين فى لحظة توقف عن العمل فيما اضطلع واحد منهم بمهمة المراقبة، فإذا رأى ملاحظ العمال قادماً أطلق صفيراً فيعود البناؤون إلى أعمالهم مسرعين. فيما بعد أثمرت هذه العادة أغنية شعبية.

أجابه أونوفرى وهو يسلمه منشوراً:

- هذا من أجل القيام بالثورة إذا أردتم!

صنع عامل البناء من المنشور كرة وألقاها فى كومة من الأنقاض ثم قال لأونوفرى:

- لكن ألا تدرى أيها الصبى أننا هنا لا نعرف القراءة أو الكتابة؛ ثم: ماذا تعرف أنت عن الثورة؟ إن الثورة أمر جد خطير. -ثم أردف- انظر، من الأفضل أن تذهب قبل أن يحضر الملاحظ ويراك.

بعد أن حذره البناء تفرغ وهلةً لاستطلاع المكان بدقة، وفى الحال تعلم تمييز الملاحظين وتيقن كذلك من أنهم كانوا منشغلين بإصدار الأوامر والتأكد من أنها نفذت أكثر من انشغالهم بانحرافات مرؤوسيهم الأيديولوجية المحتملة. قال لنفسه: مع ذلك، على أن ألزم الحذر. كل ملاحظ مسؤول عن قطاع أو جزء من الأعمال، وهم كثيرو العدد ولكل

منهم طريقته فى الحياة وفى العمل. وفى أرض المعارض يذهب ويجيء شخوص يغطيهم واق من الغبار ويرتدون قبعة ونظارة، يتفقدون سير العمل ويأخذون قياسات بمقاييس أطوال وتيودوليت ويراجعون رسومات ويصدرون الأوامر لملاحظى العمال الذين كانوا ينصتون إليهم ويظهرون فى الحال أنهم فهموا كل شيء كأنهم بإيماءات الاحترام التى يأتون بها يريدون القول:"لا عليك يا سيدى، سنفعل ما تقول، سنفعل بالضبط ما قلته، حتى أدق التفاصيل". هؤلاء السادة المهمون هم المهندسون ومساعدوهم ومعاونوهم الذين بذهابهم وإيابهم يحاولون تنسيق العمل هناك. فيما عدا هذا الاتصال العارض بدا أن كل مجموعة تعمل لنفسها غير عابئة بوجود الآخرين. فالبعض يقيم سقالات والبعض الآخر يفككها، البعض يشق أخاديد والبعض الآخر يسدها، بعض يكوم الطوب وبعض يدك الحوائط، وكل ذلك وسط أوامر وعكس الأوامر وصراخ وصفير وصهيل ونهيق، وهدير المراجل وطرقعة العجلات وصرير الفولاذ ودوى الحجارة وطقطقة الألواح الخشبية وقعقعة الآلات، كأن كافة معتوهى العالم اجتمعوا فى تلك النقطة لكى يطلقوا العنان لعتههم. ففى ذلك التاريخ كانت إنشاءات المعرض اتخذت إيقاعاً خاصاً لا لأحد أو لشيء أن يوقفه. ولم تغب الوسائل التقنية لتحقيق ذلك: حينئذ كان فى برشلونة ٥٠ مهندساً معمارياً و١٤٦ مقاول بناء فى متناول أيديهم مئات الأفران والمسابك وورش النجارة وورش الحديد والصلب. وكانت الأيدى العاملة وفيرة كذلك نظراً إلى زيادة البطالة الناجمة عن الكساد الاقتصادى.

الشيء الوحيد الذى لم يكن فائضاً هو المال اللازم لدفع أجور كل هؤلاء العاملين وسداد مستحقات موردى المواد الخام. ومدريد، حسب عبارة نحتتها صحيفة ساخرة من ذلك الوقت، كانت "تقبض بأسنانها على رباط صرة المال". هذه السخرية المميزة لحس الدعابة آنئذ تؤكد إمعان الحكومة فى الشح. قال ريوس إى تاوليت وهو يهز منكبيه: يالسوء

الحظ، سنضطر إلى تجنب المشكلة دون أن ندفع! وتطبيقاً لهذا المبدأ تراكمت ديون هائلة على بلدية برشلونة. كان ريوس إى تاوليت يقول: شيئان دون غيرهما يشعراننى بأنى عمدة: الصرف بلا حساب وادعاء الحمق. وتبنى خلفاؤه هذا الشعار.

كان أونوفرى بوفيلا بمنأى تماماً عن ذلك كله، يهيم عل وجهه بأرض المعرض مجرباً أن يألف أبعاده رويداً فأحس بالرعب عدة مرات كانت أولاها وأخطرها حين ظهر الحرس المدنى بغتة. لكنه، بعد أن تمالك نفسه، قال لنفسه إن الحرس المدنى، وسط ذلك الصخب الهائل، ربما ينشغل فحسب بحوادث التشاجر أو التمرد أو أية أحداث شغب أخرى خطيرة وإنه بشيء من الحذر يمكنه ألا يلفت النظر إليه. بعد أن هدأ عاود الكرّة ومع ذلك فى نهاية اليوم لم يتمكن إلا من توزيع منشور واحد. مرهقاً، مغبراً، بلا طعام منذ الإفطار، استعاد الرزمة التى خبأها قبل دخوله وآب إلى البنسيون سيراً على قدميه. فى الطريق أخذ يقول لنفسه:"أمن المعقول أن شيئاً يسيراً مثل تسليم ورقة لشخص آخر يستعصى على هكذا؟ ثم كان يرد فى قرارة نفسه:"هيهات، هذا ما ليس بوسعى أن أقبله! الظاهر أن كل شيء أعقد مما يبدو أول وهلة!" ثم يفكر:"قبل بدء أية عملية لابد من دراسة ملابساتها جيداً، الأرض التى أطؤها، لا ريب من أننى لم أزل فى حاجة إلى تعلم الكثير". لكنه يردف فى الحال وبقوة:"لكننى لا بد أن أتعلم بسرعة، فلا وقت لدى، صحيح أننى لازلت يافعاً غير أن هذه هى اللحظة المناسبة لشق طريقى إن كنت أريد أن أصبح ثرياً وإلا سأكون تأخرت". فالثراء كان الهدف الذى وضعه لحياته.

حين سافر والده إلى كوبا واصل هو ووالدته الحياة فى ضيق شديد، كثيرا ما يمضهما الجوع وفى الشتاء يكابدان شدة القر. على أنه منذ وعى جعل يتحمل ذلك الشقاء مقتنعاً بأن والده سيعود يوماً محملاً بالأموال وحينئذ سيكون كل شيء نعيماً متصلاً. ولم تكن أمه فعلت أو

قالت شيئاً يعزز تلك الرؤى بيد أنها لم تحرمه كذلك منها: لم تتحدث مطلقاً فى ذلك الموضوع. هكذا أطلق العنان لتخييلاته. لم يسائل نفسه قط لمَ لا يرسل لهم والده شيئاً من المال من حين لآخر لو أنه حقيقة قد صار غنياً كما كان يتصوره، أو لماذا كان يرضى أن يعيش زوجه وولده فى البؤس فيما يسبح هو فى الرخاء؟ حين أطلع الآخرين على هذه التهويمات بسلامة نية كان رد فعلهم مؤلماً. لذا كف هو أيضاً عن الحديث فى الموضوع وبدأ يشاطر والدته صمتها الدفين وهكذا واصلا الحياة عاماً فآخر إلى اليوم الذى جاء فيه العم تونيت بنبأ أوبة جوان بوفيلا من كوبا ثرياً فعلاً.

لم يكن أحد يعلم بأية أداة توصيل بلغ هذا النبأ مسامع الحوذى. ارتاب كثيرون فى صحتة غير أنهم اضطروا إلى العدول عن ذلك حين أحضر فى عربته بعيد ذلك بأيام جوان بوفيلا نفسه. قبل ذلك بعشرة أعوام كان هو نفسه أقله إلى باسورا إلى محطة القطار، التى رحل منها إلى برشلونة كى يركب الباخرة. والآن يقله فى طريق العودة. احتشد الناس جميعاً من الأنحاء المجاورة أمام الكنيسة لمشاهدة وصولهما. ومن هناك راقبوا الأكمة والطريق الذى يمر بغابة السنديان.

وكان الصبى خادم القداس ينتظر إشارة من القس لكى يقرع جرس الكنيسة. كان أونوفرى هو الوحيد الذى لم يتعرفه فى الحال ما إن عنت العربة عند منعطف فى الطريق. أما الآخرون فتعرفوه على الفور رغم أنه جسدياً تغير كثيراً خلال تلك الأعوام العشرة من المناخ الحاد والظروف. الآن يرتدى بذلة من الكتان الأبيض لها وميض تقريباً تحت الشمس الخريفية. وقبعة عريضة الحافة. كما كان يحمل فوق ركبتيه طرداً مربع الشكل ملفوفاً فى منديل كبير. "لابد أن تكون أنوفرى" -كان هذا أول ما قاله فيما يقفز من العربة على الارض- فرد هو: "أجل يا

سيدى". جثا جوان بوفيلا على ركبتيه وقبل التراب. لم يرد النهوض إلى أن باركه الخورى. كان ينظر إلى ابنه بعينين زجاجيتين، نظرة مشوبة بالتأثر. قال: أراك كبرت كثيراً؛ ثم بمن يقولون إنك قريب الشبه؟. أجاب بلا تردد: بك يا أبى. فى تلك اللحظة كان يعى بأى فضول يراقبهما الآخرون ويعى تخميناتهم. أحضر جوان بوفيلا من العربة الطرد المربع الشكل وقال: "انظر ماذا أحضرت لك"، وهو يحل المنديل الذى كان يلفه. كشف عن قفص بداخله قرد حجمه ليس أكبر كثيراً من حجم أرنب، نحيف وله ذيل طويل جداً. ذلك القرد كان يبدو جد مغتاظ وكان يكشر عن أنيابه بوحشية لا تناسب حجمه. فتح جوان بوفيل القفص وأدخل يده، فأمسك القرد بأصابعه. ثم أخرج يده من القفص وقربه من وجه اونوفرى الذى راح يتفحصه مرتاباً، فقال: خذه يا بنى، خذه فلن يصيبك بأى أذى، إنه لك! حمله اونوفرى لكن القرد تسلق ذراعه وجلس على كتفه ثم صفع وجهه بذيله. قطع القس ذلك المشهد قائلاً: نظمت عدة صلوات بها نشكر للرب عودتك. أومأ جوان بوفيلا إيماءة احترام طفيفة ثم مسح بعينيه واجهة الكنيسة من أعلى إلى أسفل. كانت بناية بدائية، من الحجارة، ذات صحن واحد مستطيل وبرج أجراس مربع الشكل. قال جوان بوفيلا بصوت عال: هذه الكنيسة فى حاجةإلى ترميم جيد. منذ ذلك الوقت راح الجميع يلقبه بـ "الأمريكى"؛ وكانوا حينئذ ينتظرون أن يدخل تغييرات كبيرة على الوادى. وهو خلع القبعة وقدم ذراعه لزوجته ومعاً دخلا الكنيسة. هناك كانت الشموع تسطع أمام المذبح. ولم يكن أحد من قبل رأى مثل ذلك "البروتوكول". والآن يتذكر أونوفرى فى نقاء تلك الأوقات السحرية فيما هو عائد جائعاً ومتعباً إلى البنسيون. وحين يمر بأية عربة كان يجرب النفاذ إلى ما بداخل نفسه عله واجدٌ شخصاً تغذى رؤيته فيما بعد أحلامه. غير أن تلك العربات راح يندر مرورها كلما قربته خطاه من الحى المقبض الذى يقع فيه البنسيون. لكن ذلك لم يكن كافياً ليضعف من عزيمته، فقد ألفاه أول ضوء من نهار اليوم التالى

داخل أرض المعارض. كان قد ترك المنشورات فى البنسيون وراح يفتش فقط هنا وهناك، مصمماً على التعرف شبراً شبراً ما سيكون مسرح عملياته من الآن فصاعداً. هكذا تعلم أن العاملين هناك ليسوا جميعاً درجة واحدة. كان هنالك عمال ومساعدون لهم وفيما بينهما اختلاف أساسى فى رأيه. فالعمال رجال مهنة ومنتظمون حسب التراتب الوظيفى وأعراف المهن القديمة، وهم يحظون باحترام أصحاب العمل ويتحدثون على قدم المساواة تقريباً مع ملاحظى العمال، ولديهم عزة نفس أقرب إلى ما للفنانين لشعورهم بأنهم لا غنى لأحد عنهم، وهم عامة لا يقبلون على مبادئ الحركة النقابية السياسية لأنهم يتلقون راتباً لا بأس به. أما مساعدوهم أو العمال البسطاء فيأتون من الريف ولا يتقنون عمل شىء؛ وهم حضروا إلى المدينة فى مغامرة يائسة، بعد أن طردهم من مسقط رأسهم الجفاف أو الخراب الناجم عن الحروب أو الأوبئة أو، ببساطة، لأن الثروات المحلية لا تكفى لتقيم أودهم. وهم يجرون وراءهم أسرهم وأحياناً أقارب من بعيد، أقارب مقعدين لم يسعهم أن يخلفوهم وراءهم ويتكفلون بهم بإخلاص الفقراء البطولى؛ وهم الآن يعيشون فى عشش من الصفيح والخشب والكارتون على الشاطئ الممتد من مرسى المعرض إلى مصنع الغاز. النساء والأطفال مبثوثون بالمئات بذلك المعسكر الذى نشأ فى ظل المنصات والهياكل التى ترسم بالفعل ملامح ما سيكون فى وقت قريب قصوراً وأجنحة. بعض تلك النسوة متزوج من العمال المساعدين: بعض آخر تربطه بهم صلة رفقة: وبعض ثالث قوامه أمهاتهم أو أخواتهم اللاتى لم يتزوجن أوحمواتهم أو زوجات إخوتهم. أغلبهن فى حالة حمل متقدمة. يقضين الوقت فى نشر غسيل رطب على أحبال شدت إلى عصوين متبتتين فى الرمل حتى يجففه نسيم البحر الدافئ والشمس المشرقة. ويقمن كذلك بالطهو على مواقد الفحم على أبواب أكواخهن ويهوين على النار بمراوح من القش أو هن يقمن بأعمال الرتق والرفو. ويفعلن ذلك جميعه فيما يعتنين بأطفالهن، وهؤلاء من القذارة

بحيث يصعب تحديد ملامح وجوههم، لهم بطون منتفخة، عراة، يلقون الجميع بالحجارة، وإذا اقتربوا من النساء اللاتى يقمن بالطهو فهم عرضة لتلقى صفعة أو ضربة "مقلاة". هكذا يبعدنهم لكنهم سرعان ما يعودون وقد جذبتهم رائحة الطعام. وشاعت الجلبة بين النسوة والصراخ والسباب وكثيراً ما كان يصل إلى الأيدى. وكان الحرس المدنى يرابط على مسافة مناسبة فى هذه الحالات ولا يتدخل طالما لم يشاهد ألق سكين أو مدية. فى تقصى هذه الأمور قضى أنوفرى بوفيلا الأيام. أفاد من مظهره المسالم وبميزة تحرره من مواعيد العمل ومن انتسابه إلى أى قطاع فراح ينتقل هنا وهناك حتى يعتاد الناس حضوره. لا يضايق مطلقاً من يعملون ويسأل من هم فى وقت الراحة أسئلة تتصل بمهنتهم. وإذا وجد وسيلة للمساعدة فى شئ كان يساعد، وشيئاً فشيئاً راح يجد قبولاً من الجميع وتقديراً من بعض الناس. بعد انصرام الأسبوع الأول ورغم أنه لم يسلم أى منشور وجد فوق الوسادة المال الذى وعدت به ديلفينا والذى من المؤكد أنها هى التى وضعته هناك. فى داخله هنأ نفسه لتفهم من يستخدمونه ونزاهتهم فكر؛ لن أخيب ظنهم، وليس لأن هذه الثورة التى أروج لها تثير اهتمامى فى شئ بل لأننى أريد أن أثبت أن بوسعى فعل ذلك تماماً مثل أفضل شخص. فى وقت قريب سأتمكن من توزيع منشوراتهم هذه، فمثابرتى ورصانتى ها هما تؤتيان أولى ثمارهما، ها قد انتصرت على الارتياب المبدئى الذى ربما أثرته بخرقى؛ فضلاً عن أن أحداً لا يراقبنى الآن فجميعهم غارق فى هذا المعرض السخيف. بالفعل، ففى ١٨٨٦، أى قبل عامين من موعد افتتاح المعرض، حذرت صحيفة من أن: "أجانب سيذهبون إلى برشلونة على نحو مستمر معدين لتكوين انطباع عن جمالها وتقدمها ...". لذا، تضيف الصحيفة: "فإن الزينة العامة وما يختص بالراحة والأمن هى القضايا التى ينبغى أن تشغل فى هذه الحالة الأولوية والاهتمام السامى لسلطاتنا". فلم يكن يمضى يوم، مؤخراً، دون أن تتقدم الصحف بمقترحات: فتوصى صحيفة

بإدخـال الصـرف الصـحى فى المدينة الجـديدة"؛ وترى أخـرى "إزالة العنابر التى تشوه ميدان قطلونيا"؛ وأخرى "تزويد طريق كولون بمقاعد حجرية وتجميل الأحياء فى أطراف المدينة مثل "بوبله سيك" والتى سيضطر إلى اجتيازها كل من سينتهز فرصة إقامته فى برشلونة لزيارة "مونجوى" مأخوذاً بعيون الماء الرائعة التى تنتشر بهذا المرتفع"، الخ. بعض الصحف أعرب عن قلقه بصدد سلوك أصحاب النُزُل والمطاعم واللوكندات والمقاهى والخانات، إلخ. وطالبهم بأن يعوا أن "الرغبة المفرطة فى الربح عادة ما تعود بالضرر على صاحب الشأن إذ تؤدى إلى عزوف المسافر". هذا القطاع من الصحافة لم يكن يقلقه الانطباع الذى تخلفه المدينة بل الذى يخلفه أهلها الذين كان يرتاب بكل وضوح من نزاهتهم وأهليتهم وأخلاقهم.

قال انوفرى:

- أعطنى مزيداً من المنشورات يا بابلو.

همهم المبشر، قال له: لقد تأخرت أكثر من ثلاثة أسابيع فى توزيع أول رزمة، عليك أن تجتهد أكثر. كانت الخامسة صباحاً والشمس جاوزت الأفق وتسللت من شقوق باب جحره. فى الضوء الحاد لذلك الفجر من فصل الصيف تراءى ذلك الجحر أصغر حجماً ومهدماً ومغبراً.

قال أنوفرى:

- فى البدء لم يكن الأمر يسيراً، لكنك سترى كيف تتبدل الحال من الآن.

انتهى من توزيع الرزمة الثانية فى ستة أيام فقط، فقال له بابلو: اغفر لى يا صديقى ما قلته المرة السابقة، فأنا أدرك أن البدايات قاسية، وأحياناً يهيمن على نفاد صبرى؛ أتدرى؟ ربما كان القيظ، هذا

القـيظ وهذا الحـبس يقـتـلاننى. كـانت آثار القـيظ ظاهـرة فى أرض المعارض كذلك فكانت تثور الأعصاب لأقل سبب وظهرت حالات الإسهال الصـيفى، المخـيفـة لأنهـا تقـتل الأطفـال بالعـشـرات. كـان الأكـثـر هـدوءاً يقولون:

- سيأتى الأسوأ لدى انتهاء الإنشاءات ونصبح بلا عمل .

واعتقد أكثرهم اطمئناناً أن برشلونة ما إن يفتتح معرضها ستصبح مـدينة كـبـرى، وفى هذه المدينة الكبـرى سـيكون هنالك عـمل للجـمـيع وسيـرتفع مـستوى المرافق العامـة فى القريب وسـيحظى الجميع بالرعاية الواجـبـة. من هؤلاء السـذج سـخـر الآخـرون عن طيب خـاطـر. وكـان أونوفـرى ينتهـز الفـرصة السـانحـة ليتحـدث عن باكـونين ودائمـاً ينتـهى بتوزيع بعض المنشورات. وفيـمـا يفـعل ذلك لم يكن يستطيع التـوقف عن قـول: ليحـفظنى الرب، لا أدرى كـيف أصـبـحت مـروجـاً للفوضـيـة؛ قـبل أسابيع لم أكن حتى قد سمعت من قبل عن مثل ذلك الهراء واليوم أبدو وكـأننى مقتنع به طول العمـر؛ قـد يكون امـراً مـضـحكاً لولم أكن أغـامـر بحياتى. وأخيراً، يختم حديثه إلى نفسه قـائلا: سأجـرب أن أبذل ما فى وسـعى ففـى نهـاية الأمـر يسـتوى الخطر سواء أحسنت أم أسـات، غيـر أننى إن أحـسن أنل ثقـة أولئك وهؤلاء. فـفكرة نيـل ثقـة الآخـرين دون أن يمنح ثقته أحداً كانت تعن له ذروة الحكمة.

(٥)

قال السيد براوليو حين سلمه أونوفرى بوفيلا أجر أول أسبوع:

- أنت إذن تعمل، فى المعرض العالمى، عظيم، عظيم جداً أيها الشاب. أنا مقتنع، وهذا ما قلته لزوجتى، التى لن تدعنى أكذب، بأن المعرض، ما لم يشأ الرب غير ذلك، سوف يضع برشلونة فى المكانة التى تليق بها.

- هذا نفسه ما أفكر فيه، يا سيد براوليو _هكذا أجابه أونوفرى.

إلى جانب السيد براوليو وزوجته، السيدة أجاتا، وديلفينا وبعلزبول، جعل يتعرف بمرور الوقت شخوصاً آخرين من ذلك العالم. كان عدد نزلاء البنسيون ثمانية أو تسعة أوعشرة، حسب الأيام. من هؤلاء أربعة فحسب دائمون: أونوفرى وقس متقاعد يدعى الأب بيثانثيو وقارئة طالع اسمها ميكائيلا كاسترو والحلاق الذى يعمل فى بهو البنسيون والذى يدعوه الجميع ماريانو فحسب وكان رجل بديناً ودموياً وخبيثاً لكنه بشوش فى سلوكه، وثرثار عتيد كذلك؛ ربما كان أول من اتصل بهم أونوفرى. روى له الحلاق أنه تعلم المهنة فى الخدمة العسكرية وأنه عمل فيما بعد بأجر فى عدد من محلات الحلاقة فى برشلونة إلى أن داخلته رغبة فى تحسين أحواله وهو على أعتاب الزواج فاستقل بنفسه. قال له إن الزفاف لم يتم قط. أردف: قبل أيام من يوم الزواج أجهشت هى بالبكاء فجأة. سألها ما بها فاعترفت له بأنها منذ وقت قريب كانت على علاقة برجل هام يحبها وقدم لها الكثير من الهدايا ووعدها بأن يشترى لها شقة؛ وهى لم تعرف طريقاً إلى مقاومة كل ذلك الإلحاف وكل ذلك الإطراء؛ وأنها، فى تلك اللحظة، لم تكن تستطيع الزواج منه دون أن تطلعه على حقيقة الموقف. أسقط فى يد ماريانو، ولكن: متى بدأت هذه العلاقة؟ كان الشىء الوحيد الذى تمكن هو من السؤال عنه. أراد أن

يعرف إن كان منذ أيام أم شهر أم أعوام؛ فقد عن له ذلك بالغ الأهمية. لكنها لم تكشف عن ذلك اللغز. وكانت من الارتباك بحيث إنها لم تستكنه ما يسألونها، بل جعلت تردد مرة وأخرى: يالتعاستى، يالتعاستى! فيما بعد ألح الحلاق فى استرداد الخاتم الذى كان أهداها إياه فى مناسبة الزواج لكنها رفضت إعادته ونصحه المحامى الذى لجأ إليه بألا يرفع الأمر إلى المحكمة: "أنت الخاسر"، حذره. والآن، بعد كل هذه السنين، يحمد الله على أن الأمور سارت على ذلك النحو. إذ راح يؤكد أن النساء معين مصروفات لا ينضب. أما عن حياته المهنية فكان يتحدث دائماً بحماس. وفى مناسبة أخرى حكى لأونوفرى:

– فى أحد الأيام وكنت أعمل فى محل حلاقة بحى الرافال سمعت صخباً عظيماً؛ أطللت وأنا أقول: ما الخطب؟ فيم كل هذا الدوى؟ فرأيت كتيبة من الفرسان تصطف أمام باب المحل. فى الحال ترجل ضابط ودخل المحل. مازالت أسمع صوت كعب حذائه ورنين مهمازيه على البلاط. حسناً، نظر إلى وقال لى: أين صاحب المحل؟ فأجبته: خرج فى التو. قال: ألا يوجد هنا من يقص الشعر؟ فأجبته: أنا خادمك، تفضل بالجلوس! قال: لست أنا، بل سيادة الجنرال كوستا إى جاسول. أتتخيل؟ كلا، بالطبع، أنت صغير السن ولا يمكنك أن تتذكره. لم تكن قد ولدت بعد. حسناً، كان أحد الجنرالات المؤيدين للأمير كارلوس ملكاً لإسبانيا والمعروفين بشجاعتهم وشراستهم، فبحفنة من الرجال وحدهم استولى على تورتوسا وأعدم نصف سكانها، ثم أعدمه إسبارتيرو الذى كان بدوره رجلاً عظيماً، أحدهما فى قامة الآخر إذا أردت رأيى، بعيداً عن السياسة، فأنا لا أدخل فى ذلك. ماذا كنت أحكى؟ آه، أجل، وإذا بى أرى كوستا إى جاسول بنفسه يدخل المحل تغطيه الميداليات من قدميه إلى رأسه ويجلس على المقعد وينظر إلى ويقول: الرأس والذقن. وأنا فى غاية الرعب أقول له: تمام يا سيدى الجنرال. المهم أننى فعلت ما أمرنى به وحين انتهيت سأل: كم الأجرة؟ وأنا قلت له: لسيادتك مجاناً يا سيدى

الجنرال! وهو لم يقل شيئاً وذهب. كانت هذه الطُّرَف تستمر عدة ساعات إلى أن يقطع شيء أو أحد فيض ثرثرته. وكسائر حلاقي ذلك الوقت كان ماريانو يخلع أسناناً كذلك ويحضر دهانات للجسم ويضع لصقات خردل ولبخات ويجهض النساء. وكان يحاول بيع مراهم شافية لعملائه القليلين. كان لديه وسواس من المرض ويعاني من النقطة والكبد ويرتدي دائماً ثياباً ثقيلة ويهرب، كأنما من الطاعون، من ميكائيلا كاسترو التي تنبأت له بميتة مؤلمة في وقت قريب. والعرافة كانت متقدمة في العمر وأحد جفنيها شبه مغمض، كانت جد منزوية عن الناس وتتحدث فقط لتتنبأ بالمصائب. كانت تعتقد اعتقاداً راسخاً في موهبتها التنبؤية، ومسألة ألا يحدث ما تنبأت به لم تكن تنال من إيمانها أو تقنعها بالعدول عن التنبؤ بالكوارث. اعتادت القول وهي تدخل الحجرة التي تعمل عمل حجرة الطعام: حريق مدمر سيأتي على برشلونة ولن ينجو أحد من آثار تلك النيران المرعبة. لم يكن أحد يعيرها انتباهاً وإن حاول كل واحد تقريباً أن يمسك بالخشب في مداراة أو يصنع بأصابعه تعويذة. لم يكن أحد يعرف كيف كانت تتخيل كل تلك الأشياء المرعبة أو حتى مرد ذلك. ستأتي فيضانات وأوبئة وحروب وسيقل الخبز - أعتادت أن تقول بلا تردد. وزبائنها، الذين كانت تستقبلهم في البنسيون نفسه، في حجرتها، بترخيص خاص من السيد براوليو الذي كان كريم النفس ويحبها كثيراً، من جميع الأعمار ومن الجنسين ومن مستوى اجتماعي جد متواضع. وجميعهم كان يخرج من تلك الجلسات وعلى وجهه علائم الأسى. لكنهم بعد ذلك بوقت قليل يعودون ليتلقوا جرعة أخرى من التشاؤم واليأس. كانت تلك الرؤى النحسة تنفح وجودهم الرتيب نحواً من الرفعة، ربما لذلك كانوا يختلفون إليها. وربما أيضاً لأن وشاكة أية مأساة تجعلهم يتحملون الحاضر الشديد والبؤس الذي كانوا يحيونه. على أية حال، فيما بعد، لم يكن يحدث أي شئ مما تنبأت به أو كان يقع خطب في نفس السوء لكنه مغاير. كان الأب بيثانثيو يعزمها من الطرف الآخر من

حجرة الطعام، ونظره مثبت فى مفرش المنضدة، مهمهماً خفيضاً. لم يجلسا قط معاً. وبما أن كليهما يحيا منغمساً فى عالم الروح كان كل منهما يحترم الآخر وإن حارب فى معسكر مختلف. فى رأى الأب بيثانثيو كانت ميكائيلا كاسترو عدواً يستحق أن يدرجه ضمن مهام عمله: كانت تجسيداً لإبليس. أما هى فكانت ترى فى الأب بيثانثيو نبع أمان لا ينضب، لأنه كان يعتقد فى ملكاتها وإن عزاها إلى الشيطان. والأب بيثانثيو الذى كان بلغ من العمر أرذله وكان خرفاً لم يكن يريد أن يموت قبل أن يذهب إلى روما كما يقول ويركع عند قدمى القديس بطرس. وكان يتوق كذلك إلى أن يرى بعينيه المبخرة الشهيرة بكاتدرائية سانتيجودى كومبوستيلا والتى كان يعتقد خطأ أنها فى الفاتيكان. وميكائيلا كاسترو كانت تنبأت له بأنه سرعان ما سيبدأ رحلته إلى روما ولكنه لن يقضى نحبه دون أن يستشرف المدنية المقدسة. كان رعايا الأبروشيات القريبة يلجؤون إلى الأب بيثانثيو (أبروشيات عذراء القربان والقديس حزقيال وعذراء الذكرى) عندما كانت أية طقوس هامة تستدعى رجال دين من خارج الهيئة أو عدداً أكبر فى كورال الدير: كما كانوا يستدعونه لكى يؤدى الغناء الجريجورى أو لكى يكون مغنى أنتيفونا أو مقرئاً فى الخورس أو مرتلاً للإنجيل أو مغنياً فى سداسي الخورس، أشياء فقدت الآن، لكن الأب بثيانثيو كان ضليعاً فيها وإن لم يكن له كبير موهبة فى أى منها. من ذلك ومن عائد عمله احتياطياً لآخرين كان يكسب نذراً من المال، القدر الذى يوفر له العيش بلا ضائقة. والقس والحلاق والعرافة وأونوفرى بوفيلا نفسه كانوا يقطنون حجرات الطابق الثانى. هذه الحجرات على الرغم من أنها لم تكن أرحب أو أفضل من الأخرى تميزت بمزية لا تقدر بمال وهى أن لها شرفة تطل على الشارع مما يجعلها بهيجة بغض النظر عن ثلم السقف وعدم استواء الأرضية وبقع الرطوبة على الحوائط والأثاث الجنائزى والمهترئ. كانت الشرفات تطل على الزقاق وكان المشهد من هناك كئيباً ولكنه يشرق أحياناً؛ وكان

بعض اليمام ذى ريش شديد البياض، - التائه احتمالاً أو الهارب - كان يأتى كل يوم من الأنحاء القريبة التى يعشش فيها ليحط على حديد الشرفة المشغول. وكان الأب بيثانثيو يقدم له خبزاً غير مختمر يذكر بخبز القربان الذى لم يباركه القس. لذا كان يجئ كل يوم. والغرف الأخرى، غرف الطابق الأول، بلا نوافذ أوشرفات على الخارج، كان يستخدمها النزلاء العابرون. وفى الطابق الثالث، تحت القرميد، مخدع السيد برواليو والسيدة أجاتا وديلفينا. كانت السيدة أجاتا تعانى خليطاً من مرض النقطة الشريانى ورشقها نقرس القدم فى كرسيها، فى حالة دائمة من النعاس. ولم يكن يبعث فيها الحياة سوى الحلوى والكعك؛ ولما كان الطبيب حرم ذلك عليها تماماً كان زوجها وابنتها يسمحان لها فقط بفتات الحلوى فى الأعياد الكبرى. ورغم أنها تكابد الآلام على نحو دائم لم تكن تشكو منها وليس لشديد عزمها بل لضعفها. أحياناً تدمع عيناها وتنساب دموعها على وجنتيها الملساوين الممتلئتين لكن وجهها يظل جامداً، خالياً من التعبير. هذه المصيبة العائلية لا يبدو أنها تخلف أثراً فى السيد براوليو. فقد كان دائماً معتدل المزاج ومستعداً للدخول فى جدل حول أى موضوع: كان يحب إلقاء النكات وسماعها؛ وكان يحتفى بها بضحكة مكبوتة وإن تكن مطولة مهما تكن النكتة سيئة، فكانت تمر الساعة وهولم يزل يضحك من النكتة التى حكيت له، فلم يكن هنالك جمهور متحمس للنكات مثله. كان دائماً نظيفاً وحليقاً طوال الوقت. وكان ماريانو يحلق ذقنه كل صباح، وفى بعض المناسبات مرة أخرى مساء. خارج موعد الواجبات، التى يكون فيه فى غاية هندامه، كان يكتفى بارتداء سرواله الداخلى كى لا يتجعد بنطلونه الذى كانت ديلفينا تقوم بكيه كل يوم فى غيظ شديد .كانت تربطه بالحلاق صداقة وطيدة وعلاقة طيبة بالقس وتحظى باحترامه العرافة التى لم يكن يجلس إلى جانبها كثيراً على المنضدة لأنها عندما تنتابها الحالة تفقد سيطرتها على حركاتها وتهدد هندامه. من أهم سمات السيد براوليو، فضلاً عن

أناقتـه، ميله إلى إصـابة نفسـه؛ فى يوم يظهر بهـالة زرقاء حول عينه؛ فى آخر، بقطع لافت فى ذقنه؛ فى ثالث، برضـوض فى عظمـة وجنتـه؛ وفى رابع، بخلع فى يده. لم يكن يمضى قط بلا ضـمـادة أوشـريط لاصق أو كمادة. فى شخص بمثل تلك الغيرة على مظهره، كان ذلك الأمـر يدعو إلى الغرابة. وحين كان أونوفرى يمعن الفكر فى الأمـر كان يقـول لنفسـه: هذا الرجل إما أن يكون أكثر من عرفتهم خرقاً من الرجال وإما أن يكون فى الأمـر شىء غـيـر طبيـعى. لكن ديلفينـا كانت بلا منازع أشـد أعضـاء الأسـرة غمـوضـاً وأكثر من يثير القلق فى أونوفرى الذى يشـعـر نحوها بانجذاب لا تفسير له لكنه متثام وهوسى تقريباً.

بلغ نجاح أونـوفـرى فى توزيع المنشـورات حد أنه وجب عليـه الذهاب إلى شـارع موسـجـو طلبـاً لمادة جـديـدة، سـداً للنقص؛ هناك، كـان يلتـقى دائمـاً ببـابلو؛ ومن كثـرة هذه اللقـاءات تولد شـبـه ألفـة بين المبشـر المحنك والمبـتـدئ المتـحـمس. الأول لا ينـى يشكو من الإحنة التى تتـعـقـبـه بهـا الشـرطة منذ أعوام وهو مـا يضطره إلى أن يحيـا حـيـاة المنفى تلك؛ فهو رجل حـركة وأقسى تعذيب له الخمـول أو هذا مـا يعتقده. كان مشـوشـاً ويحسـد أونوفـرى لإمكـانه الاتصـال اليـومى بجمـاهيـر العمـال، ويرى أن أونوفرى لا يستغل هذه الهبة التى لا تقدر بمال استغلالاً تاماً، وكان يعنفه لأى سـبب حقيقى أو وهمى. وأونـوفـرى، الذى جـعل يتعـرفه رويداً، كـان يدعه يتكلم فقد كان يدرك أنه فى منتهى الأمـر لم يكن إلا رجـلاً بائسـاً، وقود أية حـرب. كان بابلو سريع الغضب، وكان يعارضه من أجل المعارضة ويصـر دائمـاً على أن يكون على حق، ثلاثة أعـراض صـحـيـحـة لشـعف الشخصية. وكان فى حـاجة إلى صـحبتـه كذلك وخاصـة إلى موافقته له حتى لا يفقد عقله، فكان يعتمد على أونوفرى ليحيا فى عالم العقلاء. رغم هذه العيوب انتهت حياته نهاية حزينة لا يستحقها. فى ١٨٩٦، وكان سـجـيناً منذ أعـوام فى غـيـاهب قلعـة مـونجـوى، نكل به سـجـانوه عقب

حادث إلقاء قنبلة فى عيد القربان. فى صباح أحد الأيام أخرجوه من الحبس مكبلاً بإسارات جلدية تشل جسده حتى العظام ومعصوب العينين. لم يكن يشق عليهم مطلقاً حمله: فالمرارة والتعذيب كانا قضيا على جسده، فلم يكن يزن أكثر من ثلاثين كيلوجراماً. وحين رفعوا عنه عصابة عينيه ألفى نفسه على شفا هاوية، والأمواج تسوط صخور الجرف وعند انسحاب الماء كانت تظهر هوادى الجرف المسنونة كحد بلطة. كانوا تركوه مقيد اليدين على حافة إحدى شرفات القلعة وكعباه فى الهواء. أية دفقة هواء كانت تكفى كى يفقد توازنه وينتهى أمره. وهو داخله إغراء أن يترك نفسه يهوى بظهره ليضع حداً لكل ذلك التعذيب لكنه لم يرد أو لم يجرؤ. "لن يكون ذلك بإرادتى"، قال وهو يعض نواجذه. ملازم له سمت هزيل وبشرة زرقاء وهيئة جثة ضغط صدره بسن سيفه. حذره: ستوقع على اعتراف أو سأقتلك هنا؛ إذا وقعت من المحتمل أن تخرج من هنا فى يوم من الأيام. وأظهر له أقوالاً مكتوبة منسوبة إليه يقر فيها بأنه أحد المسؤولين عن مأساة عيد القربان وأن اسمه جاكومو بيمنتيلّى، إيطالى الجنسية. كان كل ذلك ضرباً من السخف لأنه إذا كان له عدة سنوات فى السجن فكيف له أن يكون شريكاً فى جريمة مثل المنسوبة إليه والتى ارتكبت فى الشارع قبل ذلك بأيام قليلة؟ وهو أيضاً لم يكن إيطالياً ولو من بعيد، وإن لم يكن أحد إلى تلك اللحظة تمكن من التوصل إلى اسمه الحقيقى أو موطنه الأصلى، فقد كان يكرر فى كل استجواب أن اسمه بابلو فقط وأنه مواطن من العالم، أخو كل البشرية المستعبدة. أعادوه إلى زنزانته دون أن يتمكنوا من انتزاع اعتراف منه. وهناك علقوه من رسغيه فى الباب ثمانى ساعات. ومن حين لآخر يقترب منه سجان يبصق فى وجهه ويعتصر أعضاءه التناسلية بوحشية. يومياً تقريباً كانوا يكررون معه بروفة الإعدام: فى بعض الأحيان يعقدون حبلاً حول رقبته؛ فى أخرى" يضعون رأسه فوق جذع شجرة ويصطنعون أنهم سيقطعون رقبته؛ وفى أخرى، يضعونه أمام طابور الرمى

بالرصاص. فى النهاية، خبت همته ووقع الاعتراف، أقر بذنب كان بشكل ما ذنبه لأنه فى تلك اللحظة كان يبغض كل إنسان وربما قتل كل من يراه لو سنحت له الفرصة. حينئذ أعدموه بالفعل، رمياً بالرصاص، فى خندق القلعة، كآخرين كثيرين، بناء على أمر صريح من مدريد. والرجل الذى أعطى ذلك الأمر البربرى كان السيد أنطونيو كانوباس دل كاستييو، الذى كان فى نهاية الأمر رئيس مجلس الوزراء للمرة الخامسة. بعد ذلك بعدة أشهر، فيما كان دون كانوباس دل كاستييو يستحم فى منتجع سانتا أجيدا أخبر زوجته أنه مر بشخص غريب، هو أيضاً أحد عملاء منتجع العيون المعدنية ذاته وأن ذلك الشخص حياه باحترام شديد. قال رئيس مجلس الوزراء: وددت لو عرفت من هو هذا الشخص. غامت عيناه بإحساس مشؤوم لم يرد أن يزعج زوجته بمشاطرتها إياه. كان كانوباس يرتدى دائماً ثياباً سوداء ويجمع لوحات وخزفاً وعصى التنزه وعملات قديمة، ومهذباً فى حديثه ويمقت كل ما يبدو مظهرياً كالذهب أو الحلى. وهو فى قلقه بشأن المشاكل الداخلية والخارجية التى تواجهها البلاد قرر أن يُقمع الفوضويون بيد من حديد. كان يفكر: تكثر علينا المشاكل بحيث إننا لا نستطيع أن نسمح لمثل هذه الشرذمة من الكلاب المسعورة بأن تأتى الآن وتصبح مشكلة إضافية. فقد تراءت له القسوة الوسيلة الوحيدة لتجنب الفوضى التى باتت تخيم على إسبانيا. أما الشخص الذى أثار قلقه فى ذلك الصيف، عام ١٨٩٧، فقد كان هذه المرة إيطالياً بالفعل ويدعى أنجوليلو؛ وكان سجل اسمه فى دفتر النزلاء مراسلاً صحفياً لجريدة "إل بوبولو"؛ كان شاباً ذا شعر أشقر ضارب إلى الرمادى، ومظهر متكلف على نحو ما ورقيق الطبع. فى أحد الأيام فيما يقرأ كانوباس الصحيفة على مقعد من الصفصاف المجدول فى حديقة المنتجع، فى ظل شجرة، دنا منه أنجوليلو وقال له: مت يا كانوباس، مت، أيها الجلاد، أيها الرجل الدموى والمخرف! وأخرج مسدساً من جيبه وأطلق عليه ثلاث طلقات عن قرب فقتله فى الحال. هاجمت زوجته فى

سورة غضبها، هاجمت القاتل بمروحتها المصنوعة من الصدف والتُّل والمعلقة فى رسغها. صرخت: أيها القاتل، أيها القاتل! وراح أنجوليلو يدفع عن نفسه ذلك الاتهام قائلاً إنه ليس قاتلاً بل كان ينتقم لرفاقه الفوضويين. أردف: ليس لى شأن بك يا سيدتى. فالرجال نادراً ما يفسرون شيئاً، وحين يفعلون، يالسوء تفسيرهم.

بلغ حجم المواد المستخدمة يومياً فى أعمال الإنشاء بالمعرض حد أن صحيفة من تلك الحقبة ذكرت: "لقد نفدت تقريباً كل أفران الطوب، وكذلك الأسمنت الذى يرد فى كميات كبيرة من العديد من أنحاء الإمارة ومن الخارج. ففى "قصر الصناعة" وحده يستهلك كل يوم ٨٠٠ قنطار منه. كما أن ورش الحديد الكبرى فى "لاماريتيما" و"دار جيرونا" تعمل بنشاط فى الهياكل والروافد المتعاقد عليها، شأنها شأن العديد من ورش النجارة التى تصنع فيها الآن تركيبات ذات أهمية". كانت مساحة أرض المعرض ٣٨٠٠٠٠ متر مربع. ورغم عدم اكتمالها ارتفعت بالفعل البنايات الأولى المنشأة خصيصاً للمعرض. أما بنايات القلعة القديمة الباقية فقد زينت. وهُدم الجزء الخاص بالأسوار القديمة وأنشئت بدلاً منه ثكنات جديدة فى شارع صقلية لنقل آخر ما له صفة عسكرية إلى هناك. لكن ليس معنى ذلك أن أعمال البناء كانت تتقدم. ففى واقع الأمر انقضى الموعد المبدئى لافتتاح المعرض: ثم حدد موعد آخر، "هذه المرة لا يمكن تأجيله"، الثامن من أبريل ١٨٨٨. ورغم أن القرار كان قاطعاً، كانت هنالك محاولة ثانية لتأجيل الموعد لكنها لم تفلح، فقد كانت باريس تعد معرضها الدولى لعام ١٨٨٩ وإقامة المعرض فى نفس موعد معرض باريس كان يساوى الانتحار. فتر الحماس المبدئى لدى صحف برشلونة: الآن كثر الهجوم. فقد رأى بعضها: "نقول إنه ربما كان من الأجدى توجيه كل هذا الجهد وكل هذه الأموال إلى أمور أكثر إلحاحاً وضرورية، وألا تبذل فى منشآت عامة على مثل هذا النحو من الأبهة على الرغم من

أنها ذات أثر لحظى ومنفعة عارضة إن كان لها نفع على الإطلاق". أما البعض الآخر فكانت له آراء أكثر قسوة: "بالنسبة إلى أى شخص على معرفة بالأمر، من الواضح والبديهى كضوء النهار أن معرض برشلونة الدولى كما يخطط له من وضعوا أنفسهم على رأسه إما أنه لن يقام أو ينظم فى هذه الظروف أو أنه سيضع برشلونة خاصة وقطلونيا عامة موضع الحرج، ويؤدى إلى خراب البلدية خراباً تاماً"، إلخ... فى تلك الظروف زار ريوس إى تاوليت الإنشاءات، يرافقه عدد كبير من الشخصيات، جميعهم يفعل ما فى وسعه، يقفز بين الألواح الخشبية، يجتاز حفرة، يتجنب أسلاكاً، يفر بجسده من أمام البغال التى تحاول قضم ذيل بذلته. كانوا يغطون أفواههم من التراب بقبعاتهم. أدخل ذلك المشهد السرور على العمدة، قال: لن أكون سعيداً حتى يصيبنا الدوار.

وأونوفرى بوفيلا بدوره كان يحرز تقدماً، فمن فرط شرحه مضمون المنشورات التى كان يوزعها تمكن هو نفسه من فهمه، أدرك إلى أى حد كان الثوار على حق فيما يطالبون به. أقل شرر بوسعه أن يشعل حريقاً. وهو كان يتحدث فى هذا جميعه مستخدماً المنطق أحياناً وأحياناً الخداع. بعض مستمعيه، عن اقتناع، ساعده فى نشر "الفكرة". فالعواصف التى حولت، فى أوائل سبتمبر، المتنزه إلى مستنقع، وظهور أعراض طفيفة للحمى التيفودية، وبعض التأخير فى دفع الأجرة اليومية بسبب تباطؤ مدريد فى سداد الدعم الهزيل الذى خصصته الحكومة فى النهاية للمعرض، دفعت تلك الدعوة إلى الأمام. وكان أونوفرى نفسه دهشاً لنجاحه. راح يفكر: فى نهاية المطاف، لى من العمر ثلاث عشرة سنة فقط. وبابلو سمح لنفسه بواحدة من ابتساماته المعدودة. قال: فى أيام المسيحية الأولى كان الصبية ينجحون فى تنصير الناس أكثر من البالغين؛ والقديسة إينس كانت فى نفس عمرك، ثلاث عشرة سنة، حين ماتت بحد السيف: والقديس فيتو راح شهيداً وهو فى الثانية عشرة من

العمر. ثم أردف: والأغرب من ذلك حالة القديس كيرثى، ابن القديسة جوليتا، ففى الثالثة من عمره صعق الوالى الكسندر ببلاغته فما كان من هذا إلا أنه ألقى بالصغير على سلم منصته ببالغ القوة حتى إنه شج رأسه وانتثرت كتلته الدماغية من جمجمته على الأرض وفوق منصة المحكمة. سأله أونوفرى:

- من أين عرفت هذه الأمور؟

- أقرؤها. ما عساى فاعل وأنا داخل هذا القفص سوى القراءة؟ فى القراءة والتفكير أقتل الساعات والأيام. أحياناً تكتسب أفكارى قوة كبيرة حتى إننى أصاب بالذعر وفى أحيان أخرى، يتملكنى كدر لا سبب له، ويبدو لى أننى داخل حلم فأصحو منه غارقاً فى كربى. وأحياناً، أجهش بالبكاء بلا مقدمات ويستمر البكاء ساعات فلا أستطيع كبحه - هذا ما قاله المبشر لكن أونوفرى لم يكن يسمعه لأنه بدوره كان نهباً لقلق عظيم.

الفصل الثانى

(١)

كلا، لا يمكن أن يكون هذا ما يسميه آخرون الحب؛ ومع ذلك، ماذا يحدث لي؟ - سأل نفسه. على امتداد صيف ١٨٨٧ وجزء كبير من الخريف جعل ينمو ما تثيره فيه ديلفينا من هوس. لم يكن تبادل معها كلمتين منذ الليلة التى ذهبت فيها إلى حجرته ومعها القط لتعرض عليه أن يعمل من أجل "الفكرة"؛ فيما بعد، لم يكادا يتبادلان نظرة مستطلعة أو إيماءة إذا التقيا فى دهاليز البنسيون. كل يوم جمعة يجد النقود على الفراش، نقود تبدو له الآن قليلة مقارنة بمجهوداته ونجاحاته، أى بقدراته. تلك المحادثة الليلية على ضوء شمعة هى الشىء الوحيد الذى لديه منها؛ والآن يحلل بإسهاب العبارات التى قالتها، على نحو متكرر ومنهجى، مجرياً استخراج معلومات منها، انتزاع أية معان محتملة. فى واقع الأمر كان كل ذلك يحدث فى خياله فقط، فلا شىء مما ود تذكره كان حدث حقيقة، فعلى أساس أجزاء من الذاكرة يبنى قصوراً. المحتمل أنه يمر بمرحلة الصحوة الجنسية دون أن يدرى إذ جعل يجرى تفسيراً عقلانياً لكل شىء معتقداً أنه بالفكر وحده قادر على حل أية معضلة. والآن ينتبه إلى أنه يسير بلا هدف. ماذا أفعل؟ - سأل نفسه. كان على يقين من أمر واحد: هى ذكرت أن لها خطيباً وهذا أصابه بما يشبه الجرح. ولم يكن يفكر إلا فى القضاء عليه. من أجل ذلك وجب عليه أن يتحرى أكثر مما كان يعرف: من هو؟ أين يلتقيان ومتى؟ وماذا يفعلان حين يلتقيان؟ إلخ. من رتابة البنسيون التى لا تتبدل ومن مسألة أن والدى ديلفينا يجهلان مغامرات ابنتهما استنتج أنهما يلتقيان فى ساعات غير معتادة، وربما ليلاً. وكان ذلك خارقاً للعادة فى تلك الحقبة. فحتى بعد دخول القرن العشرين بكثير وفيما عدا بعض الحالات المعدودة، كان كل نشاط يتوقف بُعيد غروب الشمس؛ وما لم يكن يتوقف كان ينعت

سلفاً بأنه غير معتاد أو مشبوه بلا خوف من الوقوع فى الخطأ. ففى الخيال الشعبى كان الليل حافلاً بالأشباح ومحفوفاً بالمخاطر، وأى شىء يفعل على ضوء شمعة يكتسى صبغة مثيرة وملغوزة. كما ساد اعتقاد بأن الليل كائن حى، له قدرة غريبة على اجتذاب الأشخاص، وأن من أوغل فى الليل بلا وجهة لا يعود أبداً. وفى كل شىء كان الليل أشبه بالموت، والفجر بالبعث. وكان الضوء الكهربى، الذى سيقضى على الظلمة فى المدن إلى الأبد، مازال فى مهده واستخدامه يثير كافة صنوف التحفظات. ذكرت صحيفة فى ١٨٨٦: "لا ينبغى للضوء الصناعى أن يبهر أو يتذبذب، بل أن يكون فياضاً دون أن يؤذى العين فالضوء الساطع لا يجب أن يستخدم مطلقاً إلا إذا ظللته شاشات من الزجاج المشطوف، بسبب تركز شدة الضوء فى خط سلك المصباح". فيما أكدت صحيفة أخرى صدرت فى نفس العام فى برشلونة: "يقول البرفيسور تشون دى برسلاو، علامة طب العيون، إن الضوء الصناعى سيكون مفضلاً عن غيره للقراءة والكتابة، على أن يكون ثابتاً وكافياً". هذا الأمر لم يكن خطر بعد على فكر أونوفرى. كان يتخيل ديلفينا غارقة فى أحلك ما فى الليل تبحث عن معشوقها وقد باتت كائناً مخيفاً وجذاباً فى آن. فهيئتها المنغلقة على نفسها وبشرتها الأشبه ببشرة عظاءة ومقلتاها الكبريتيتان وشعرها الخشن والقذر كمقشة تنظيف المداخن وملبسها المهلهل والغريب مما يجعل منها خلال النهار مسخاً مثيراً للضحك كانت تتحول فى سحر الليل إلى مظاهر حضور شبحى. فى إصراره على مباغتة العاشقين السريين قرر أن يسهر الليالى لهذا الهدف. منذ ذلك الوقت، حين يهدأ آخر أصوات البنسيون ويخبو ضوء آخر مصباح، يخرج من حجرته ويكمن فى بسطة السلم. إذا خرجت من حجرتها لابد أن تمر من هنا – فكر –، ستمر من أمامى دون أن ترانى وهكذا يكون بوسعى مراقبتها ومعرفة أين تذهب ولمه. بات سهر الليالى معتاداً له ولا ينتهى. كانت ساعات كنائس عذراء القريان والقديس حزقيال وعذراء الذكرى

تصرف الزمن فى بطء يثير الحنق. لا شىء يعكر رقاد البنسيون. فى الثانية فجراً تقريباً كان الأب بيثانيثو دائماً ما يخرج من غرفته إلى المرحاض ثم يعود منه بعد عدة دقائق وسرعان ما يسمع شخيره. وفى الثالثة تبدأ ميكائيلا كاسترو تكلم نفسها أو تكلم الأرواح، ويستمر هذا الابتهال حتى بزوغ الفجر. وفى الرابعة وفى الخامسة والنصف، يعاود القس زيارة المرحاض، فيما يرقد الحلاق فى صمت. من مكمنه راح يسجل أونوفرى بوفيلا هذه التفصيلات الصغيرة فى الذاكرة. فى سأمه أى شأن صغير يهيأ له عظيم الأهمية. أشد ما كان يثير قلقه القط، بعلزيول الغادر: ففكرة أن يقوم القط بالتجول فى المنزل بحثاً عن فأر أو إمكان أن تحمله ديلفينا معها فى خروجاتها الليلية كانت تبث فيه الرعب. وفيما ينصرم الليل كان يفكر فى طريقة آمنة للتخلص من القط دون إثارة الشكوك فيباغته الفجر غارقاً فى هذه الأفكار، متصلب الأطراف، متعباً، عكر المزاج. وقبل أن يستيقظ الآخرون يعود إلى غرفته فيأخذ حزمة المنشورات ويخرج فى طريقه إلى أرض المعرض فيما يقول لنفسه: سأعود إلى نفس المكان هذه الليلة؛ هذه الليلة وكل ليالى العام إذا لزم الأمر. لكن التعب، فى نهاية الأمر، كان يتملكه، ووسط فترة المراقبة يغمض عينيه ويغلبه النعاس رغماً عنه. صحا مذعوراً على حفيف ثياب. حبس أنفاسه وسمع وقع أقدام تهبط الدرج فى حذر. "أخيراً" – فكر. مقرفصاً على حافة السلم نفسها، شعر بمرور جسد على بعد سنتيمترات قليلة من وجهه. عطر كثيف أثار حيرته: لم يدر بخلده قط أن تقدم ديلفينا على فعل فيه تدلل كهذا، أن تتزين وتجرى للقاء رجل. قال لنفسه: هكذا تزينت من أجله! – ثم طفق يفكر –: هذا هو الحب إذاً! انتظر ثانيتين قبل أن يشرع فى الهبوط. على درجات السلم المصنوعة من الرخام الصناعى لا تكاد خطوات المطارد أو المطارَدة تحدث صوتاً. فكر وهو يزيد من حرصه: لو أنها توقفت لأى سبب لاصطدمت بى وحدثت كارثة. لاحظ أن المسافة الفاصلة بينهما آخذة

فى الاتساع فقال لنفسه: لو استمرت هكذا سأفقد أثرها، فهى تعرف المنزل شبراً شبراً كما أنها سارت فى هذا الطريق ألوف المرات فيما كنت أنا من الغباء بحيث لم أحتط للأمر فلم أعد درجات كل جزء من السلم. فى كل مرة يصل فيها إلى البسطة كان يخاطر بأن ينخلع أحد مفاصله. أفقدته هذه المشاكل التى لم يعمل لها حساباً وعيه بما حوله ففقد إحساسه بالزمان والمكان ولم يدر أهو فى الطابق الأول أم الأرضى؟ هل قضى لحظات أم ساعةً فى تلك المطاردة الرعناء؟ سمع صرير مفصلات الباب الخارجى. "يا إلهى، ها هى تفر من يدى حقيقة" - قال ذلك وهبط الدرج بأقصى سرعة فعثر حين بلغ البهو وسقط بركبته على البلاط لكنه واصل المطاردة وهو يعرج. كانت ليلة بلا قمر وكان الشارع معتماً مثل البنسيون. فى الهواء الطلق كان العطر يتلاشى على بعد خطوات. سار حتى المفترق، ونظر يميناً ويساراً. هبت ريح شرقية رطبة. هناك، لم يسمع صوتاً. سار على غير هدى إلى أن قرر أنه فشل فى مطاردته وعاد إلى البنسيون. هناك عاد إلى مكان المراقبة لكن الرطوبة تسللت إلى عظامه وكان يرتجف. قال لنفسه: كل هذا الذى أفعله لا معنى له. حاول جاهداً ألا يعطس وإلا انكشف حضوره هناك. أحس بأن قواه لا تحتمل مواصلة الانتظار فعاد إلى غرفته ورقد فى فراشه. حينئذ شعر بالشفقة على نفسه. فكر: لقد هزأت بى، هى الآن بين ذراعى آخر وكلاهما يسخر منى فيما أنا هنا، فى هذا الفراش، مريضاً. يبدو أنه نام، لأنه حين فتح عينيه رأى رجلاً هويته ليست غريبة عنه يتفحصه باهتمام. سمعه يقول: لم يمت منذ وقت طويل. من الواضح أنه كان يتحدث عنه. لم تنبعث منه رائحة بعد ومازالت مفاصله تحتفظ بمرونتها - أضاف ذلك الرجل. فراشة الضوء التى تنير المشهد ومضت على زجاج نظارته وعكست ظله مكبراً على الحائط. قال أونوفرى لنفسه: أعلم الآن من هو، ولكن، ما الذى يفعله هنا وإلى من يتحدث؟ خرج والد أونوفرى من منطقة الظل كأنما أراد إجابته إلى سؤاله واقترب من الرجل ذى

النظارة. سأله: هل ترى أنه سيكون على ما يرام؟ كان يرتدى نفس البذلة من الكتان الأبيض ولكنه إزاء مهابة الموقف خلع قبعته ذات الحافة العريضة. أجابه: اطمئن يا سيد بوفيلا، سنرده إليكم كأنكم لم تفقدوه قط حقيقة. قال أونوفرى لنفسه: لا ريب أننى أحلم. من قبل كان عاش مشهداً مماثلاً: فى صباح أحد الأيام وجدوا القرد الذى أحضره له أبوه من كوبا ميتاً. كانت أمه أول من يستيقظ وكانت هى التى اكتشفت جثته مقرفصاً فى القفص. لم تشعر قط بأى حنان تجاه ذلك الحيوان القذر والسريع الغضب والخبيث والذى لم يبد أنه يشعر بأية عاطفة تجاه الأشخاص الذين يطعمونه، لكنها حين رأته ميتاً لم تتمكن من كبح جماح شعور بالشفقة وسالت منها عدة عبرات. فكرت: أية ميتة، بعيداً عن ذويه، أية وحشة! ألفاها زوجها فريسة لشعورها بالسخط. قالت له: إنه ذنبك أنت، إذ أخرجته من أرضه. ثم أضافت: لحكمة ما أسكنه الرب هناك، لا أدرى إلى أين يحملنا كل هذا الكدح وكل هذا الطمع! وأونوفرى كان صحا من نومه وينصت لذلك الحوار بين أبويه. رد الأمريكى: ما أدراك بمصيره لو أننى لم أحضره إلى هنا. وبعد أن فندت حجج الطرفين صاح: لدى فكرة! - هذا ما قاله وهو يتوجه بحديثه إلى أونوفرى للمرة الأولى: أتحب زيارة باسورا؟ كان جوان بوفيلا كثير الذهاب إلى باسورا: أشيع أنه يستثمر هناك طرفاً من ثروته وأنه أودع بقيتها فى بنوك تلك المدينة. فى تلك المناسبات كان غيابه يدوم ثلاثة أيام أو أربعة: وبعد عودته لم يكن يحكى شيئاً عما فعل أو رأى أو عن سير الأعمال التى ذهب للإشراف عليها. فى بعض الأحيان فقط يحضر هدايا بلا قيمة: شرائط، حلوى، صابوناً معطراً، مجلة مصورة... فى أحيان أخرى يعود فى قمة الانفعال، لا يذكر مبرراً لحماسه لكنه على العشاء يبدو ثرثاراً على غير العادة. حينئذ يقول لزوجته إنه سيصطحبهما معه فى الرحلة القادمة وأنهما فيما بعد قبل العودة إلى القرية سيزوران برشلونة أو باريس. ثم تنتهى تلك الوعود التى قطعها

على نفسه بكل ذلك التشديد إلى لا شيء. ولكن فى تلك المرة، إثر موت القرد، ذهب أونوفرى ووالده إلى باسورا. كانت بداية الشتاء والطريق صالحة للسير لكنهما وصلا المدينة ساعة الغروب. هناك ذهبا أولاً إلى ورشة تحنيط حيوانات كان أحد رجال حرس البلدية قد أعطاه عنوانها. فى لفة كانا يحملان جثة القرد التى أثارت اهتمام المحنط. لم أحنط قرداً من قبل - قال وهو يتحسس بيدين خبيرتين جثة الحيوان. فى الورشة كان الضوء خافتاً؛ وعدد من الحيوانات موضوعاً إلى الحائط، كل واحد منها فى مرحلة ما من مراحل التحنيط؛ أحدها كانت تنقصه العينان؛ الآخر، القرنان؛ الثالث، الريش. من فتحة فى بطون أغلبها كان يرى هيكل من الأنابيب المضفرة يحل محل العظام؛ ومن هذه الضفيرة أطلت رؤوس من القش ونسيلات من القطن. التمس المحنط العذر لعدم وجود ضوء، قال لهما: تدعو الحاجة إلى إغلاق النوافذ بإحكام حتى لا يدخل الذباب والعتة. عند الرحيل سلم الأمريكى مبلغاً من المال - دفعة أولى عربوناً - للمحنط الذى سلمه بدوره إيصالاً. وأبلغهما كذلك بأنه لن يتمكن من الانتهاء من عمله قبل عيد "الملوك المجوس" (السادس من يناير). نحن فى قلب موسم القنص وأصبحت الموضة تحنيط القطع التى يصطادونها لتزيين صالة الطعام أو الصالون أو غرفة المعيشة بها - قال لهما. شرح لهما أن باسورا مدينة ذات ذوق رفيع. فيما كان الرجل يقول ذلك أراد أونوفرى أن يرى جثة القرد مرة أخرى. كانت للمنضدة التى وضعت عليها جثة الحيوان رائحة مطهر. موضوعاً على ظهره ويداه وساقاه متقلصة تراءى القرد كأنما تضاءل حجمه. دفقة من الهواء البارد حركت شعر ساقى القرد المسكين بلونهما الرمادى. قال له أبوه: هيا يا أونوفرى. لدى خروجهما إلى الشارع كان قد حل الليل والسماء حمراء كقبة الجحيم فى صور كتاب العقيدة الذى أراه له القس بعض المرات ليدخل إلى قلبه تقوى الله. الآن يفسر له والده أن ذلك السطوع تصدره أفران المسابك. قال: انظر يا بنى، هذا هو التقدم! وأضاف أنه رأى فى

أمريكا مدناً لا يسمح دخان مداخنها بنفاذ ضوء الشمس على الإطلاق. كان أونوفرى بوفيلا أكمل لتوه عامه الثانى عشر عندما اصطحبه أبوه إلى باسورا فى مناسبة موت القرد. قاما بجولة فى وسط المدينة. سارا فى شوارع مضاءة بمصابيح غازية ويرتادها عمال جيئة وذهاباً من منازلهم إلى المصانع. فى تلك اللحظة كانت تسمع صافرات المصانع لتعلن تغيير النوبة. وفى نهر الطريق يمر قطار على شريط ضيق تصدر قاطرته رماداً فى الهواء، ثم يسقط الرماد فوق المارة ويسود حوائط البنايات. وكانت وجوه الناس يلطخها السناج. وتمر دراجات وبعض العربات تجرها لاهثة أفراس بالغة القوة. فى الشارع الرئيسى كانت الإضاءة أشد والمارة أفضل هنداماً. كان جميعهم تقريباً من الرجال، فساعة النزهة كانت ولت والنساء كن عدن إلى منازلهن. كانت الطوارات ضيقة بعد أن غزتها المطاعم والمقاهى بمظلاتها التى من خلالها تمكن رؤية ظلال من يأكلون ويمكن سماع جلبة الزبائن. دخل أونوفرى ووالده مطعماً ولاحظ أونوفرى أن الناس تنظر باستخفاف إلى الأمريكى، فالبذلة البيضاء المصنوعة من الكتان والقبعة ذات الحافة العريضة والعباءة التى يتدثر بها من البرد تجذب الانتباه بقوة فى تلك المدينة الداخلية وفى أوج الشتاء. وكان الأمريكى يصطنع من عدم الاكتراث مما بدا منه كأنه لا يرى. عقد منديل الطعام حول عنقه وطفق يدرس قائمة الطعام قاطباً جبينه. طلب حساء وسمكاً فى الفرن وأوزاً بالكمثرى وسلطة وفاكهة وقشدة. كان أونوفرى فى قمة دهشته، فلم يكن جرب أياً من تلك الأكلات. أما الآن فإن هذه الذكريات تتعقبه بعد أن تحولت إلى كابوس صحا منه غارقاً فى عرقه. تأخر فى تعرف مكانه وساوره خوف لا تفسير له. فيما بعد تعرف غرفة البنسيون وسمع دقات ساعة كنيسة عذراء القريان. هذه التفصيلات المألوفة أعادت له سكينته. لم يكن حلم محنط الحيوانات هو الذى يثير قلقه بل فكرة مبهمة: أنه راح ضحية خدعة. أخذت هذه الفكرة تدور برأسه دون أن يتمكن من استكناه

مصدرها أو مبرر إلحاحها عليه. كلما راجع مرة أخرى أحداث تلك الليلة توطدت على نحو أعمق تلك الفكرة فى نفسه. فيفكر: بوسعى أن أقسم أننى كنت شاهداً على غياب ديلفينا عن المنزل، ومع ذلك، هنالك شئ فى كل هذا لا أجد له تفسيراً وإلا فإن ثمة سراً هنا أكبر مما كنت أتوقع. أراد أن يحلل الأحداث فى هدوء لكن رأسه أصيب بالدوار وكان صدغاه ينبضان بقوة وأخذ ينتقل من الحمى الخانقة إلى البرد الجليدى الذى تصطك له أسنانه. وإذا تمكن من مصالحة النوم يظهر له من جديد محنط الحيوانات ويعايش مجدداً وبدقة مؤلمة ملابسات تلك الرحلة إلى باسورا. وحين يستيقظ يغوص مرة أخرى فى المغامرة الليلية التى عاشها فى التو. وبدا أن كلا الحدثين على علاقة ما فيما بينهما. ساءل نفسه: ماذا حدث حينئذ؟ ماذا حدث حينئذ يمكنه أن يحل لغز ما حدث هذه الليلة؟ هذه التساؤلات حرمته الراحة. "سأفكر غداً، حين يصفو ذهنى" - قال لنفسه، لكن عقله أصر فى عناد على أداء تلك المهمة العقيم والمنهكة؛ وكانت كل ساعة عذاباً لا ينتهى.

قال الصوت الذى ظل يسمعه فى حلمه:

- أى بنى، لا تخش شيئاً، ها أنا هنا.

صحا أو اعتقد أنه صحا ورأى على مسافة شبر من وجهه وجه غريب يتفحصه فى قلق. لولا ضعفه لصرخ. أتى الشخص المجهول بإيماءة بفمه وظل يتحدث بعذوبة، كأنه يكلم طفلاً أو كلباً:

- خذ، اشرب هذا؛ إنه شراب من الأعشاب، به كينا. شراب ضد الحمى وسوف يفيدك - وقرب إلى شفتيه فنجاناً ينبعث منه دخان فشربه أونوفرى فى نهم - انتظر، تمهل، تمهل يا ولد، حتى لا تصيبك غصة.

تعرف أونوفرى الأب بيثانثيو، وهذا حين أدرك أنه يستعيد وعيه شيئاً فشيئاً أضاف:

– مازالت وطأة الحمى شديدة لكننى لا أعتقد أنها خطيرة. ظللت تعمل كثيراً وتنام قليلاً فى الآونة الأخيرة وفضلاً عن ذلك أصبت بزكام حاد، ولكن لا ينبغى أن تقلق. فالأمراض من مظاهر إرادة الله ويجب أن نتقبلها بصبر بل وبالشكر، فكأن الله سبحانه يتحدث إلينا على لسان ميكروباته ليعطينا درساً فى التواضع. أنا نفسى، وإن كنت أتمتع بصحة جيدة، وأحمده على ذلك، ملىء بالأمراض كما هو مفهوم فى مثل سنى وكل ليلة أضطر إلى الذهاب إلى الحمام ثلاث مرات أو أربعاً لأقضى حاجة مثانتى التى أصبحت أشد ما يمكن تمرداً؛ كما أننى أهضم النشويات بصعوبة بالغة ومع تغير الفصول تؤلمنى فقراتى، ها أنت ترى.

سأل أونوفرى:

– كم الساعة الآن؟

– الخامسة والنصف تقريباً!

ثم أضاف وهو يرى أونوفرى يجرب النهوض:

– هيه؟ ماذا تفعل؟

– لابد أن أذهب إلى المعرض.

– انسَ المعرض. عليه ألا يحسب حسابك. لست فى حالة تسمح لك بالنهوض أو حتى الخروج من المنزل. فضلاً عن أن الساعة ليست الخامسة والنصف صباحاً بل مساء. لقد أمضيت اليوم تهذى وتتكلم وأنت نائم.

– أتكلم؟ وماذا قلت يا أبانا؟

– قلت ما يقال دائماً فى هذه الحالات: لا شىء. على الأقل لا شىء يمكننى فهمه. نم فى سلام.

حين استرد عافيته وعاد إلى المعرض بما يحمله من منشورات انقلابية بدا له ذلك العالم المغبر والصاخب غريباً عليه، كأنه بدلاً من غيابه يومين، عائد من سفرة طويلة فى الواقع. قال لنفسه: هنا أضيع

وقتى كأبله. خطر له أن يكلم بابلو فى أمر هام، أن يطلب منه أن يكلفه بمهمة أكثر أهمية يرتقى بها السلم الثورى. مع ذلك سرعان ما أدرك أنه لا بابلو ولا الثوار الآخرون يتفهمون منطقية رغباته. فالقضية التى كانوا يدافعون عنها لم تكن شركة يدخلها سعياً وراء النجاح، بل مثل أعلى يضحى من أجله بكل شىء دون انتظار شىء فى المقابل، دون المطالبة بجزاء أو شكر. فكر أونوفرى: هذه المثالية الظاهرة هى التى تسمح لهم باستغلال الأشخاص دون التفكير فى مصالحهم الشخصية المشروعة ودون النظر إلى احتياجاتهم، فيرى هؤلاء المتعصبون أن كل شىء على مايرام مادام يخدم الثورة. وبعد أن قال ذلك أقسم أنه سيفعل ما فى وسعه للقضاء على الفوضويين ما إن تسنح له الفرصة.

هذا المقت وهذا الظمأ للانتقام حرمه إدراك إلى أى حد تأثر بطبيعة الفوضويين وإلى أى حد كان مترعاً بها. فعلى الرغم من أن أهدافه كانت فيما بعد جد مختلفة، بل على طرف النقيض، ظل دائماً يشاطر الفوصويين فرديتهم الشديدة وحب الحركة المباشرة والمخاطرة والنتائج السريعة والتبسيط. كما كان يشاطرهم أيضاً هياج غريزة القتل، لكنه لم يدرك ذلك ألبتة. بل على عكس ذلك، اعتبر نفسه عدواً لدوداً لتلك الغريزة. كان يصيح: هم رعاع يدعون إلى العدل فى حين أنهم لا يتورعون عن تعريضى لكل صنوف الخطر أو عن استغلالى بلا أدنى اعتبار: آه، ما أعدل أصحاب الأعمال لأنهم يستغلون العامل لكن بلا مواربة، ويثيبونه على عمله ويتيحون له فرصة الازدهار بالمثابرة وينصتون، وإن يكن رغم أنفهم، إلى مطالبه. قال العبارة الأخيرة لأن السخط كان يسود البنائين العاملين فى إنشاءات المعرض. كانوا طالبوا بزيادة اليومية نصف بزيتة وتخفيض مواعيد العمل ساعة، فرد المجلس بالرفض بزعم "أن الميزانية كانت أقرت وليس فى أيدينا تعديلها". كان هذا الرد المعتاد دائماً. وسرت شائعات باحتمال القيام بإضراب مما أثار قلق المجلس، فلم تكن الأمور تسير على ما يرام: كانت الأموال تتناقص

بسرعة لا تناسب تقدم الإنشاءات. ومن الملايين الثمانية التى وعدت بها الحكومة المركزية على سبيل الدعم وصل مليونان لا غير. فى أكتوبر من عام ١٨٨٧ سمح لبلدية برشلونة بإصدار قرض قيمته ثلاثة ملايين بزيتة لتغطية عجز المعرض. فى نفس ذلك التاريخ كان العمل انتهى تقريباً بالمقهى - المطعم، ومتقدماً جداً بقصر "الصناعة"، وبدأ العمل فيما سيكون قوس النصر. فى نفس ذلك الشهر نشرت صحيفة برشلونة هذا النبأ: "عرض على اللجنة الإدارية للمعرض مشروع مبنى على شكل كنيسة لعرض أغراض خاصة بالعقيدة الكاثوليكية فى نفس المكان. والمشروع ذوقه رفيع ويضطلع بفكرته المهندس المعمارى الباريسى م. اميل جويف من بيت شارلو وشركاه الذى سيتحمل النفقات، إلخ"، ثم نشرت بعد ذلك بأيام هذا الخبر: "بوسعنا أن نؤكد بكل يقين أن رجل الصناعة البرشلونى المرموق، السيد أونوفرى كابا، صاحب براءة اختراع تصنيع ملح نقى يحمل ماركة "الحمامة"، فى سبيله إلى عمل نموذج رائع وعجيب سوف يتقدم به إلى معرض برشلونة القادم، وهو نسخة طبق الأصل من "عين هرقل" من الملح الذى يبيعه بارتفاع عشرة أشبار؛ وتقع عين هرقل فى طريق "القديس خوان" القديمة". فى نهاية نوفمبر انخفضت درجات الحرارة على نحو غير مألوف. كانت موجة برد استمرت عدة أيام، نذير شتاء رهيب فى قسوته على الأبواب. واهناً بعد بسبب الحمى، نقهاً، كان ذلك البرد يؤثر على أونوفرى كثيراً. لأول مرة منذ أن جاء إلى برشلونة يحس بحنين إلى واديه وجباله. كان ترك وراءه ذلك العالم قبل ستة أشهر. إلى ذلك القلق تضاف حالة الاضطراب الدائمة التى غاصت به فيها ديلفينا دون أن تدرى. قال لنفسه: على أن أفعل شيئاً أو أشنق نفسى من فرع شجرة.

ذهب إلى أرض المعرض ككل صباح ومعه حزمة المنشورات المعتادة. فى ذلك اليوم من شهر نوفمبر كان يحمل أيضاً جراباً من الخيش ثقيل

الوزن قليلاً. خصص الساعات الأولى للتجول بالإنشاءات والتحدث إلى الناس. أخبروه بمطالب عمال البناء وبمشروع الإضراب وبالخلافات. قالوا له: هذه المرة سننجز الأمور على نحو طيب، هذه المرة "سنحمل القط إلى الماء". وهو كان يوافقهم على كل شىء لكنه بدلاً من أن يفكر فى الإضراب فكر فى قط ديلفينا، فكل شىء يراه أو يسمعه يحمله إلى التفكير فى ديلفينا أو فى شىء يتصل بها، كأن فكره مشدود إليها بجبل من المطاط يمط إلى حد معين ثم يعود إلى حاله الأولى من شدة واحدة. لكنه كان يومئ بالإيجاب دائماً. كان اكتسب هذه العادة التى ستلازمه طوال حياته: أن يقول نعم فيما هو فى داخله يعد أقسى المناورات والخيانات وحشية. حين ارتفعت الشمس وخف البرد جمع عدداً من العمال وطفق يدعو ككل الأيام. كان العمال متعبين من أى مجهود عضلى وينتظرون أى شىء يصرفهم عن العمل لذا تحلقوه. كان ينبغى أن يتحرك بسرعة، فالملاحظون قد يظنون أنهم يعدون لحركة جماعية ويبلغون الحرس المدنى.

قال بنفس نبرة الصوت، كأن الحديث يسير فى نفس الاتجاه المعتاد:

– ليس هذا ما أود أن أحدثكم فيه اليوم. فاليوم تحديداً جمعتكم لتشاركوا فى اكتشاف رائع بوسعه أن يغير حيواتكم على نحو مماثل أو يفوق إلغاء كافة أشكال الدولة الذى كنت أشرت إليه منذ أيام.

انحنى وفتح الجراب وأخرج منه قنينة مليئة بسائل عكر أراه لمستمعيه.

– هذا الدواء لعلاج الصلع ذو الكفاءة المجربة والنتائج الأكيدة لا أبيعه بريالين ولا حتى بريال واحد، إلخ...

تلك كانت بدايته فى عالم الأعمال. بعد ذلك بأعوام سيتحكم أى تبدل فى حالته المزاجية فى أسعار البورصة فى أوربا، لكنه الآن يبيع دواء لعلاج الصلع سرقه الليلة السابقة من كشك ماريانو حلاق البنسيون. من قبل، كان أنصت إلى الباعة الجائلين والمشعوذين فى "باب

السلام" وراح يحاول تقليدهم. بعد أن أنهى خطابه ساد صمت ذاهل، فقال لنفسه: أخشى أن أكون تجاوزت الحدود وأفرطت فى التفاؤل. لقد قامرت بمورد عيشى الوحيد على ورقة واحدة وخسرت، فالفوضويون لن يغفروا لى أبداً ما فعلت، والعمال سيشعرون بالمهانة وسيهشمون ضلوعى ركلاً، ومن المحتمل أن يسلمونى للحرس المدنى وأن يلقى بى فى غياهب قلعة مونجوى - هكذا فكر خلال تلك الثوانى التى ران فيها الصمت. فى الحال رفع واحد من الجمهور عقيرته قائلاً: أريد واحداً! كان المتحدث مارداً، أفطس الملامح، ذا جبهة غائرة، يشق طريقه دفعاً بمرفقيه، وبين أصابعه يحمل السنتيمات العشرة، قيمة المنتج. أخذها أونوفرى وسلم القنينة للمارد وسأل هل يريد أحد أخرى. أجابه كثيرون أن نعم. كانوا يمدون أيديهم بعملات من ذوات عشرة السنتيمات ويتزاحمون ويتدافعون ليحصلوا على واحدة. فى أقل من دقيقتين فرغ جراب الخيش. طلب من المجتمعين أن يتفرقوا. هو نفسه أعطى المثل وذهب ليتوارى فى الحارة التى تؤلفها الواجهة الغربية للبناية التى ستكون مقراً لمتحف مارتورل والجدار الذى يفصل المنتزه عن شارع "الصناعة"، حارة ضيقة لا يرتادها أحد إطلاقاً. أخرج النقود من جيبه ونظر إليها فى تلذذ. كان فى ذلك حين لاحظ انعكاس ظل على الجدار. عبثاً حاول إعادة النقود إلى جيبه. رأى نفسه وجهاً لوجه مع المارد الذى اشترى أول قنينة من دواء الصلع. كان لا يزال يحملها فى يده. قال: أتتذكرنى؟ كان حاجباه ولحيته ينفحانه مظهراً مرعباً لغول. كان شعره كثيفاً ويتصل شعر صدره بشعر ذقنه. قال أونوفرى:

- بالطبع أتذكرك، ماذا تريد؟

- أدعى إفرين، إفرين كاستلز. أنا من كاليا. ليس من كاليا دى بالافروجل بل من الأخرى، التى على الساحل. أعمل هنا أجيراً منذ شهر ونصف الشهر، لذا لم أرك قبل اليوم ولا أنت رأيتنى، لكننى أعرفك. تتبعتك لأسألك أن تعطينى بزيتتين.

أجابه أونوفرى مجرياً اصطناع مباغتة جريئة:

- ولم أعطيكهما، لو سمحت لى بالسؤال؟

- لأنك ربحت ربحاً بفضلى. لو لم أشتر أول قنينة لما كنت بعت واحدة. أنت تجيد التحدث لكن ذلك لا يكفى وحده للبيع. أعلم ذلك، كان جدى لأمى بائعاً متجولاً. هيا، أعطنى البزيتتين وسنكون شريكين. أنت تتحدث وأنا أشترى، بهذا نشجع الزبائن. وأنت لن تضطر إلى الحديث طويلاً وستبذل مجهوداً أقل ولن تعرض نفسك للخطر بهذه الطريقة. وإذا وقع خطب يمكننى الدفاع عنك، فأنا قوى، بوسعى أن أشج رأس أى شخص بقبضة يدى.

ظل أونوفرى ينظر إلى المارد ممعناً فى النظر إليه، أعجبه تعبير وجهه. من البديهى أنه كان شريفاً: كان مستعداً للرضى بما يطلبه كما كان مستعداً لشج رأسه. قال له إنه يعلم أنه فعلاً قوى الجسم، وأضاف: ما لم أعلمه هو لماذا لا تسلبنى البزيتات الأربع بدلاً من كل هذه التفسيرات. فهنا لا يرانا أحد؛ وأنا وإن أردت لا أستطيع أن أشكوك إلى الشرطة. ضج المارد بالضحك وحين انتهى قال:

- أنت ذكى جداً. ما قلته فى التو يؤكد كم أنت ذكى. أما أنا فحمقى فى مثل قوتى ومهما أعمل فكرى لا أصل إلى شىء. وإذا سلبتك الآن البزيتات الأربع فلن أكسب إلا أربع بزيتات. إلا أننى رأيت ما يلى: أنت ستبلغ شأواً بعيداً وأنا أرغب فى أن أكون شريكاً لك وفى أن تعطينى نصف ما تكسب.

قال أونوفرى لمارد كاليا:

- انظر، هذا ما سنفعله: أنت تساعدنى فى بيع دواء الصلع وعن كل يوم عمل أعطيك بزيتة واحدة، سواء أكسبت أنا كثيراً أم قليلاً أم لم أكسب شيئاً حتى. أما عما يتصل بما سنفعله فى المستقبل فسنتحدث حين تسنح الفرصة، موافق؟

فكر المارد وهلة وقال إنه موافق. قال لأونوفرى: اتفقنا! وأقر له بإنه

من حمقه لم يفهم جيداً عرض أونوفرى وإن يكن متيقناً من أن أونوفرى، بحذقه الفطرى، قد خدعه. قال: لكن من العبث المقاومة، فأنا أعلم جيداً قدر نفسى. تصافحا وختما فى نفس المكان شراكة ستستمر فيما بعد عشرات السنين. توفى إفرين كاستلز فى عام ١٩٤٣، بعد أن كرمه الجنرال فرانكو بلقب ماركيز جزاء لما أسداه من خدمات للوطن. وعلى الرغم من تدهور صحته بفعل السن والمرض، عند الوفاة ظل مارداً واضطروا إلى عمل تابوت على مقاسه. وخلف وراءه ثروة عظيمة من الأموال والعقارات ومجموعة من اللوحات لمصورين قطلونيين لا تقدر بمال، من هذه المجموعة أوقف جزءاً على متحف الفن الحديث الذى أقيم فيما بعد فى مكان الترسانة القديمة بالقلعة. هذا المبنى الذى أدخلت عليه ترميمات وتم تزيينه خصيصاً فى مناسبة المعرض العالمى ١٨٨٨ كان يقع على بعد خطوات من المكان الذى عقد فيه أول صفقة مع الشخص الذى سيكرس له حياة كاملة من الثقة العمياء والذى فى ظله سيبلغ الثروة ولقب الماركيز ويدخل عالم الجريمة.

(٢)

فى ذلك اليوم، لدى عودته إلى البنسيون، اشترى من محل العطارة مزيداً من زجاجات دواء الصلع ووضعها دون أن يراه أحد محل التى سرقها من الحلاق. كان مبتهجاً لكنه، بعد العشاء، وحيداً فى غرفته، راح يقدح زناد فكره بحثاً عن مكان يخفى فيه أرباحه. الآن تنتابه فجأة كافة صنوف القلق التى تصاحب امتلاك المال. لم يعن له أى مكان آمناً بما فيه الكفاية. وفى نهاية الأمر قرر أن يحمله معه دائماً. ثم فكر فى إفرين كاستلز. كان احتمالاً لم يطرقه. قال لنفسه: لا ينبغى أن أرفض الأمر الواقع. فالمارد يمكن أن يكون نافعاً له، ولديه دائماً وقت كى يتخلص منه إذا دعت الحاجة - هكذا فكر. كان بابلو يثير قلقه على نحو أشد: إن آجلاً أو عاجلاً سيصل مسامع الفوضويين ما يقوم به من أعمال تحت حماية القضية وضد مبادئها. لذا لم يكن يدرى كيف سيكون رد فعلهم. ربما توجب عليه منذ ذلك اليوم أن يهجر الدعوة للثورة وأن يكرس نفسه للبيع وحده، ولكن هل سيتقبلون هم هذا التغيير؟ كلا، فقد كان على علم بأشياء كثيرة، سيعتبرونه خائناً ومن المؤكد أنهم سيلجأون إلى العنف. فكر: كلها مشاكل! تأخر فى مصالحة النوم وصحا عدة مرات ورأى أحلاماً مزعجة فى منامه. رأى نفسه فيها مع والده فى باسورا من جديد. فيما بعد، كان إصرار تلك الذكرى مبعث دهشته. ساءل نفسه: لم تصير تلك الأحداث العادية أحداثاً مهمة الآن؟ ومن جديد يجرب تذكر كل ما حدث حينئذ. كان خلال العشاء حين ظهر فى ذلك المطعم ثلاثة من سادة باسورا. امتقع وجه والده حين رآهم يدخلون. هؤلاء السادة كانوا من نسل الذين بدأوا تصنيع قطلونيا فى أوائل القرن التاسع عشر. بجهدهم العملاق حولوا ذلك البلد الزراعى والخامل إلى بلد آخر، مزدهر ودينامى. أما خلفاؤهم فلم يكونوا مثلهم، رجال حقل أو ورشة، بل

درسوا فى برشلونة وسافروا إلى مانشستر ليألفوا أحدث ما توصلت إليه صناعة الغزل وإلى باريس فى سنى ازدهارها. وفى هذه المدينة المشرقة، عرفوا أنبل ما فيها كما عرفوا أحقر ما فيها؛ فقد زاروا مشدوهين "قصر العلم والصناعة" (حيث يُمكن الاطلاع على آخر المخترعات وأعظمها والتكنولوجيا الأرفع والأشد تعقيداً والذى كتبت على واجهته عبارة Enrichez-Vous) و"صالون المرفوضين" (حيث يعرض بيسارو ومانيه وفونتان لاتور وفنانون آخرون لوحاتهم الغامضة والشهوانية والمرسومة بذلك الأسلوب الذى أطلق عليه حينذاك "الانطباعية")؛ أما أكثرهم اهتماماً وحصافة فقد رأوا، هناك، فى "لاسالبترييـر" الدكتور الشاب "شاركوه" يؤدى عدة جلسات تنويم مغناطيسى بلا أدوات وسمعوا فى الحى اللاتينى فريدريش إنجلز وهو يعلن وشاكة ثورة البروليتاريا؛ واحتسوا الشمبانيا فى المطاعم الراقية والكباريهات؛ والأبسنتين فى الحانات الوضيعة؛ وبذلوا أموالهم بلا طائل فى تعقب العاهرات الشهيرات، تلك "الأفقيات العظميات" اللائى كان البعض يميز باريس بهن؛ وتنزهوا ساعة الغروب فى المراكب الجديدة ("العملاق" و"السماوى") فى نهر السين؛ وانتشوا من أعلى أبراج نوتردام بنسائم وأضواء تلك المدينة الساحرة التى اضطر آباؤهم إلى انتزاعهم منها بالوعد والوعيد. أما الآن فمن باريس تلك لم يبق شىء؛ إذ إن عظمتها نفسها ألبت عليها غيرة وجشع أمم أخرى؛ فالأنفة المفرطة زرعت بذرة الحرب؛ والظلم وعمى البصيرة ولدا البغضاء والفرقة. فكان نابليون الثالث، الهرم والمريض، يعيش فى إنجلترا منفياً إثر هزيمة سيدان المهينة، وكانت باريس تداوى جراحها بعد أحداث "الكومون" المأسوية. والآن كانت ذكرى باريس تلك التى لا يمكن استعادتها تحيا فى أولئك الممثلين للبرجوازية القطلونية العليا، الذين يحملون عرضاً "أناقة" الامبراطورية الثانية الغابرة.

صاح أحد السادة الثلاثة الذين دخلوا المطعم، فيما هما فى منتصف

عشائهما، بأعلى صوته:

- بحق الجحيم يا بوفيلا، اللعنة، أنت هنا، ما أصغر العالم: والأسرة؟ كلهم بخير؟

كان الآخران اقتربا من المائدة ويربتان على كتف الأمريكى الذى نظر فى حرج إليهما وإلى ابنه الذى وقعت عليه فى هذه اللحظة نظرات هؤلاء.

- وهذا الشاب، من هو؟ ابنك؟ ما أكبره! ما اسمك يا صغيرى؟

- أونوفرى بوفيلا، فى خدمتك!

حين قام لتحيتهم سقط كرسى الأمريكى على الأرض فضحكوا جميعاً وفهم أونوفرى أن أولئك السادة كانوا يعتبرون والده مسخاً، شيئاً مضحكاً.

قال الأمريكى:

- ابنى وأنا جئنا لأداء واجب أليم!

لكن سادة باسورا الثلاثة كانوا انصرفوا عنه تماماً.

قالوا:

- حسناً، لا نود أن نعطلكم. جئنا فقط لنحتسى شيئاً ونواصل الحديث فى أمور فى العمل. ثم إلى المنزل، والمعدة ملآنة لتحمل الأسرة بعض الوقت. ثم أضاف من كان يتحدث مشيراً إلى أحد رفاقه:

- إلا هذا، بالطبع، فبما أنه أعزب وغير مرتبط فسيخرج للقصف.

احمر وجه المعنى بهذه المزحة قليلاً. كانت ملامحه خليطاً غريباً من النضارة والتدهور، ويبدو كأنه مازالت عليه آثار الكحول والمخدرات التى تعاطاها منذ أعوام طويلة فى قاع مدينة باريس، كأن جسده لما يزل ضعيفاً من أثر اللمسات العذبة لواحدة من العاهرات الرفيعات. قال الآخران وهما على وشك الرحيل:

- هنيئاً مرئياً!

لبث الأمريكى يتناول عشاءه فى صمت، وتعكر مزاجه بلا تفسير.

حين خرجوا من المطعم هبت ريح متجمدة وعلى أرضية الشارع تكونت طبقة رقيقة من الجليد سرعان ما تطقطق وتتكسر إذا ديست. التف الأمريكى بالعباءة. همهم: الأوغاد، يعتقدون أننى سأرضخ لهم؛ ولأننى من الريف ولأننى على أرضهم يخالون أن بوسعهم السخرية منى. ما أحمقهم، سفهاء المدينة الذين ليس بوسعهم أن يميزوا حقل الكمثرى من حقل طماطم! لا تثق أبداً بأهل المدينة يا أونوفرى، أى بنى! - هذا ما أضافه بصوت عال متوجهاً إليه لأول مرة منذ مجىء السادة الثلاثة وقطعهم عشاءهما. "هم لا شىء ويعتقدون أن لا أحد فى مرتبتهم". راحت أسنانه تصطك بعضها ببعض من القر أو من شدة الغضب وكان يسير بخطا واسعة، وأحياناً يضطر أونوفرى إلى العدو ليلحق به لأنه تأخر عنه على غير رغبته. سأله: من هم يا والدى؟ هز الأمريكى منكبيه قائلاً: نكرات، ثلاثة سفهاء من الأقاليم، رجال مال، أسماؤهم: بالدريك وبيلاجران وتابيرا، كانت لى بعض الأعمال معهم. فيما يتحدث جعل ينظر إلى جميع الاتجاهات بحثاً عن النزل الذى حجز فيها غرفة لقضاء الليل. فى تلك الساعة خلت الشوارع إلا من نسوة وحيدات، لهن ملامح الجياع ولونهن ضارب إلى الرمادى، يتسكعن وترتعد فرائصهن من البرد فى الدائرة الشاحبة التى تعكسها مصابيح الغاز وحين يراهن كان الأمريكى يمسك بذراع أونوفرى ويعبر الطريق. فى النهاية وجدا حارساً ليلياً منتفخ الوجه أرشدهما الطريق إلى النزل. وصلا هناك متعبين، فالسير فى الشوارع المظلمة ليس كالسير فى الحقل. فى النزل استردا عافيتهما من البرد: فأنبوب السمندل الذى يعمل فى بهو النزل يجتاز الغرف من أسفل إلى أعلى مصدراً دفئاً ودخاناً ضارياً إلى الصفرة يتسلل من وصلات الأنبوب مخلفاً مذاقاً حمضياً فى الحلق. من البهو أو من منزل قريب انبعثت نغمات بيانو وجلبة أصوات مكتومة؛ ومن بعيد سمعا صافرة قطار؛ وفى الشارع صرير سنابك الخيل على بلاط الشارع. أويا إلى فراش زوجى وأطفأ الأمريكى المصباح. قبل النوم قال

له: اسمع يا أونوفرى، ثمة نساء يفعلن أشياء رهيبة لقاء المال، وحان الوقت كى تتعلم ذلك. مرة أخرى حين نأتى إلى هنا سأصطحبك إلى واحد من هذه الأماكن التى أحدثك عنها ولكن إلى أن يحدث ذلك لا تقل شيئاً من هذا لوالدتك. والآن، نم ولا تفكر فيما رأيت أو سمعت هذه الليلة!

والآن، ربما مر أكثر من عام ولمايزل يفكر فيما رأى وسمع تلك الليلة، يتذكر بكل دقة الوجه الباسم لأولئك السادة، ويرى أولئك النسوة الرهيبات والمجهولات اللائى ذكرهن أبوه واللائى يتخذن الآن فى مخيلته، بين الصحو والمنام، هيئة ديلفينا المثيرة للقلق، يراهن الآن يتعقبنه. فى صباح اليوم التالى، أضحى مرهقاً ويائساً لكنه رفع جراب الخيش إلى كتفه وعاد إلى أرض المعارض. لم يكن بوسعه أن يتراجع الآن فالضرر وقع بالفعل - هذا ما قاله لنفسه. فضلاً عن أنه إن لم يعطِ إفرين كاستلز البزيتة المتفق عليها فهو يعرض نفسه لخطر تلقى صفعة قد تكون مميتة. رغم كل شىء، حين ألفى نفسه فى المكان المعتاد وشرع يبيع دواء نمو الشعر كما فى اليوم السابق، استعاد اعتدال مزاجه، فتوقع الربح والشعور بأنه يعمل لحساب نفسه، من أجل منفعته هو، كانا خير حافز له.

كان البيع جد مربح فى الأيام التالية حتى إن الأمر الوحيد الذى أثار قلقه هو: أين يخبئ المال؟ فمسألة أن يحمله معه جعلت منه فريسة للذعر المتصل، ففى الحى الذى يرتاده نشالون ولصوص بالإكراه. جالت بخاطره فكرة فتح حساب فى بنك، واستقر فى وعيه أن البنوك لا تقبل سوى المال الشريف وهو لم يكن يعتبر ماله كذلك. ومع ذلك كان الأمر يستوى، فلكونه قاصراً لن يقبل أى بنك طلبه. فى آخر الأمر، انتهى إلى الحل التقليدى: سيخبئ النقود فى المرتبة ولكن ليس فى مرتبته هو بل فى مرتبة فراش الأب بيثانثيو. كان القس فقيراً كفأر ولا أحد، حتى هو نفسه، سيرتاب من أنه يرقد على ثروة، وإمكان أن تقوم ديلفينا بنفض

مرتبته لم يكن وارداً ويمكن استبعاده تماماً. فضلاً عن أن القس يخرج من البنسيون مبكراً كل صباح مما يتيح فرصة دخول حجرته. بعد التخلص من هذه العقبة يبقى الفوضويون. أخيراً جاء اليوم الذى استقبل فيه بابلو أونوفرى ببالغ الاهتياج. بلا مقدمات، لكمه بقبضة يده. سقط أونوفرى على الأرض فارتمى المبشر فوقه. كان يحاول ضربه فى وجهه وركله فى ضلوعه. أيها الوغد، أيها المرتد، يا يهوذا! - هكذا جعل يصرخ فيما يضربه بكل ما أوتى من قوة. وأونوفرى يحتمى من الضربات دون أن يحاول ردها، قائلاً: اهدأ يابابلو، اهدأ، ماذا ألم بك؟ أجننت تماماً؟ قال بابلو:

- آه، أنت تعلم جيداً ما بى أيها السافل! لا أكاد أقوى على الكلام. أخبرنى، ماذا كنت تفعل هذه الأيام، هه؟ تبيع دواء نمو الشعر، أليس كذلك؟ ألهذا ندفع لك، أليس كذلك؟

تركه أونوفرى ينفث غضبه ثم بدأ يتكلم. وفى النهاية راحا يضحكان من القلب. ففى شئ واحد على الأقل كانا متفقين، على هامش إيديولوجية كل: فكلاهما كان يحتقر المجتمع وأعضاءه: فعندهما أية خديعة مقبولة، وكل شئ مبرر أخلاقياً بسبب حمق الضحية. فقد كانا يعتنقان مذهب الذئب. فيما بعد أقنعه أونوفرى بأن بيعه إكسير نمو الشعر لم يكن سوى حيلة لإبعاد الشرطة، غطاء لنشاطه الحقيقى. قال له: لقد وزعت فى الشهور الأخيرة منشورات أكثر من أى شخص آخر، أليس فى ذلك برهان على ولائى للقضية؟ ثم تساءل: فى نهاية الأمر، من يعرض نفسه لكافة الأخطار؟ انتهى الحال ببابلو إلى الاعتذار للجوئه إلى العنف فى البداية. ردد مرة أخرى: أصابنى الحبس بالجنون! فهو لم يكن يود انتقاد أنشطة الآخرين، إذ إن ذلك فى رأيه مبتذل. وهو يود وضع قنابل لكنهم يحرمونه ذلك. وأونوفرى لم يكن يستمع له، كان أصابه السأم من بكائه، فضلاً عن أن موضوعات أخرى كانت تستحوذ على انتباهه.

منذ الليلة التى تبع فيها عطراً حتى الشارع ووقع خطا إلى أن هزمته الظلمة، كان أحصى ألف مرة عدد درجات سلم البنسيون وحسب زاوية كل جزء منه وحفظ الحواجز وجرب الهبوط فى العديد من المرات. كان يقول لنفسه: إذا مرت ديلفينا من جديد سأتركها تسبقنى ثم أتبعها بلا خوف من أن أفقد أثرها مرة أخرى. ثم يفكر مرتعداً: هذا فى حالة ألا يرافقها القط اللعين. فى إحدى المرات، سأل إفرين كاستلز كيف يقتل قطاً، فأجابه: الأمر فى منتهى البساطة، تدق عنقه حتى يموت، الأمر بلا تعقيد. وأونوفرى لم يعاود قط طلب أية نصيحة منه فى أى شىء.

وأخيراً، فى أحد الأيام، قبيل أعياد الميلاد، عاود سماع حفيف ملابس فى بسطة الدور الثانى فى البنسيون والوقع الخفيف لخطا صادر من أعلى. حبس أنفاسه وقال لنفسه: إما الآن وإلا فلا! ترك رائحة العطر تمر من جانبه وانتظر الوقت الذى ارتآه مناسباً ثم بدأ فى التحرك. بلغ بداية السلم حين فتحت المجهولة باب الشارع. كانت ليلة مقمرة هذه المرة، وارتسمت صورة امرأة فى فراغ الباب. هذه الرؤية لم تستمر إلا وهلة لكنها كفت كى يدرك أونوفرى أنه لم يكن يتتبع ديلفينا. وحين أدرك ذلك أصر على نحو خاص على ألا يفقد أثر تلك المرأة التى كان يرى ظلها المبهم فى ضوء القمر، أو بشىء من الدقة حين تمر أمام مشكاة، ففى تلك المشكاوات دائماً ما يوجد مصباح زيت مشتعل وضعه هناك أحد المريدين إكراماً للعذراء أو لقديس: ففيما عدا الشوارع الرئيسية، كانت هذه وسيلة الإنارة الوحيدة فى المدينة. كانت ليلة من ليالى شتاء عام ١٨٨٧ الرهيب اشتد فيها البرد. كانت المجهولة تخطر فى مشية هيفاء. ولا حتى الخطو المتردد لشخص يسير ليلاً أو وقع عصا حارس ليلى على حجارة الطريق شهدا حضوراً إنسانياً آخر فى الشوارع الموحشة. فكر: المرأة التى تسير وحدها فى هذه الساعة لابد

أنها مجنونة! أخذا يتوغلان فى مكان غريب؛ فقد كان ثمة منخفض فى ذلك الوقت يفصل سفح الجبل عن شريط القطار فى القطاع المسمى "موروت"، ولا يزيد نصف قطره عن نصف الكيلو متر ويقع جنوب السور القديم. وتعذر الوصول إليه إلا عبر شعب طوله مائتا متر وعرضه متران أو ثلاثة وارتفاعه ثمانية، والذى لم يكن شعباً فى الحقيقة بل كان مخزناً ضخماً للفحم المستورد من إنجلترا أو بلجيكا فى سفن ضخمة والمكدس هناك فى المنخفض فى انتظار نقله إلى مصانع مدينة برشلونة أو ضواحيها. كان يخزن هناك بعيداً عن المدينة، فقد كانت نسبة خطر احتراقه مرتفعة. وهكذا، على مقربة من البحر، من الأيسر إخماد أية بادرة حريق أو على الأقل محاولة إخمادها إذا كان الحريق سطحياً. فى المقابل، إذا بدأ الحريق فى قلب كومة الفحم فلم يكن من اليسير التنبؤ به إلا بعد أن يتخذ أبعاداً مأسوية. فى البدء تظهر فى بعض الأماكن أعمدة دخان صغيرة لها لون الحليب ورائحة خشنة شديدة السمية، ثم تؤلف الأدخنة سحابة تلف كل شىء، وويل لمن يستنشقها! ثم تظهر ألسنة اللهب: حينئذ يكون الوقت تأخر لإخماد الحريق، ويسمى لذلك حريقاً مدمراً. وكانت ألسنة اللهب تبلغ من الارتفاع عشرين أو ثلاثين متراً وتعكس فى الفضاء نوراً ضارباً إلى الحمرة يرى فى الليالى الصافية من طركونة ومن ميورقة. وكانت المراكب الراسية فى أرصفة الميناء تغادره لترسو فى البحر مفضلة بذلك المد على الحرارة والغازات المميتة الصادرة عن الحريق. تلك الحرائق، القليلة لحسن الطالع، كانت تستمر عدة أسابيع منذ بداية نشوبها وكانت تكلفتها لا تقدر: فإلى جانب فقدان كل الفحم المستورد يصاب كل نشاط صناعى بالشلل التام. لذا لم تكن الأنحاء المجاورة لمخزن الفحم مكاناً آمناً للعيش فيه. ولذلك أيضاً نشأ على الجانب الآخر من الشعب حى من أسفل درك، أسوأ حى صيتاً فى برشلونة. كانت هنالك مسارح تقدم عروضاً بذيئة وبلا أية ملاحة وحانات قذرة وصاخبة، وأماكن لتدخين الأفيون منحدرة المستوى،

وضيعة (أماكن تدخين الأفيون الجيدة كانت فى الجزء الأعلى، قريباً من فالكاركا) ومواخير نحسة. إلى هناك كانت تذهب حثالة برشلونة وحدها فضلاً عن بحارة هبطوا برشلونة تواً كثير منهم لن يعود إلى البحر أبداً. ولم يكن يسكن هذا المكان إلا العاهرات والقوادين واللصوص والمهربون والمجرمون. بقليل من المال كان يمكن استئجار فتوة وبنذر أكبر قليلاً تتعاقد مع قاتل. ولم تكن الشرطة تدخل المنطقة إلا فى وضح النهار وفقط من أجل التحدث فى مقايضة أو فى اقتراحها. كانت مثل دولة مستقلة، فقد بلغ الأمر حد إصدار سندات تتداول كأنها أوراق مالية حقيقية؛ وكان هنالك قانون من نوع خاص، شديد الصرامة وتطبق عدالة مقتضبة وشديدة الفاعلية؛ لم يكن غريباً العثور هناك، من حين إلى حين، على رجل مشنوقاً يتدلى من ساكف أحد محال اللهو.

حين رأى المكان الذى كان يقوده دون علمه إلى المجهولة طفق يقول لنفسه: إن لم تكن هذه البنت هى ديلفينا فيم يهمنى من تكون ولم أخوض نفق الفحم هذا الذى قد يظهر فيه أحد الأشرار فيقتلنى ويدفننى دون أن يدرى بى أو يلاحظ غيابى أحد؟ فقد كان معروفاً أن من يموتون ميتة عنيفة، إن لم يستفد منهم موعظة للعامة، يدفنون فى كومة الفحم، ويلبثون هناك إلى أن تأتى رافعة وتنقل الفحم إلى مركب أو عربة قطار أو عربة يجرها الخيل. فى بعض الأحيان، فيما يغذى المرجل بالفحم، رأى أحد الوقادين فردة حذاء أو أصابع خطافية أو جمجمة لم يزل بها أربع خرق شعر ملتصقة بمؤخرتها. كان على وشك التخلى عن تتبع المجهولة.

لكنه لم يتراجع. وهكذا ألفى نفسه عند مدخل ذلك الحى الشائن؛ كانت الشوارع تؤلف مربعاً منتظماً كما يحدث عادة فى التجمعات الحضرية الشديدة الفقر. فى الوحل الجاف والمتشقق رقد سكارى ملتحفين نفاياتهم ومحوطين بهالة من الروائح الخبيثة، ومن الحانات تناهت أصوات قيثارات وأغان. ورغم ما تحويه من شبق كانت هذه

الأغانى تشيع شعوراً ثقيلاً بالانكشاف والكرب. "كيف بلغ بى الأمر أن أحيا هذه الحياة؟"، يبدو أن ذلك هو ما أراد المغنون قوله بأصواتهم المخمورة والممزقة. "لم يكن هذا ما حلمت به وأنا طفل"، إلخ. وكان يسمع أيضاً صوت الصاجات ووقع خطا راقصة وصراخ وحطام أكواب وسقوط أثاث وجرى وشجار. كانت المرأة المجهولة تجوب تلك الشوارع بخطو حازم. مختبئاً فى إطار أحد الأبواب، رآها أونوفرى تدخل أحد هذه الأماكن ثم أغلق الباب الخشبى خلفها. قرر أونوفرى انتظارها فى الخارج ليرى إلام سينتهى كل ذلك. كانت تهب ريح باردة ورطبة ومالحة لقرب المكان من البحر فغطى فمه وأنفه باللفاع الذى كان من الحرص بحيث لم ينس إحضاره. لم يضطر إلى الانتظار طويلاً، فبعيد عدة دقائق خرجت المرأة من المكان ومن ورائها صخب كبير. تمكن من رؤيتها وجهاً لوجه للمرة الأولى، فى انعكاس الضوء، فى لمح البصر، لكن ذلك لم يحرمه تعرف الأنثى الشبقة. قال لنفسه: مستحيل، إننى أرى أوهاماً. كانت المرأة تستنشق مسحوقاً أبيض فى مظروف صغير وتغمض رموشها وتفتح فمها على اتساعه وتخرج لسانها وتهز كتفيها وردفيها وكل جسدها ينتفض. أطلقت عواء ككلب راض ثم توجهت إلى الحانة القريبة التى لها نافذة تطل على الشارع. كان الهواء الساخن بفعل مدفأة يتكاثف على الزجاج – الشديد القذارة بذاته – مؤلفاً غلالة تعرقل رؤية ما بالداخل لكنها تسهل مهمة التجسس دون أن يراه أحد، وهذا ما فعله أونوفرى بوفيلا. كان رواد الحانة من أشد الناس توحشاً. بعضهم يلعب الورق وأكمامه مكتظة بأوراق اللعب المخبأة ومديته متأهبة كى تغمد فى حنجرة أى غشاش؛ وآخرون يراقصون بغايا ضامرات لهن نظرة زجاجية على إيقاع أكورديون يعزفه ضرير. عند قدمى الضرير رقد كلب يصطنع النوم لكنه فجأة يجرب عض سمانة الراقصين. فى أحد الأركان كانت المرأة التى يتتبعها تناقش فتى جميلاً له شعر أكرث وبشرة نحاسية. هى كانت تحرك ذراعيها وهو جعل يقطب جبينه. رأى أونوفرى الفتى

الجميل يعاجل المرأة بلطمة. وهى أمسكت بشعر الفتى الجميل وشدته بقوة كأنما لكى تفصل الرأس عن الجذع. لكن الدهانات التى لطخ بها شعره حالت دون وقوعه فريسة لها. تمكن الفتى الجميل من تسديد قبضة لفم المرأة فارتدت إلى الخلف تتأرجح وحين سقطت جالسة على إحدى مناضد اللعب أسقطت زجاجات وأكواباً والأوراق التى كانت وزعت فركلها المقامرون فى كليتيها. تقدم الفتى الجميل بوميض قاتل فى نظرته وفى يده مدية مقوسة لمحترف جز صوف. كانت المرأة تبكى بكاء مراً ورواد الحانة يسخرون من الضحية والمعتدى على حد سواء. لكن المسؤول عن المكان وضع حداً للمشهد: توعد المرأة إن لم تغادر المكان فى الحال، إذ إن أحداً لم يكن يرتاب من أن المرأة كانت المسؤولة عما حدث، وأنها هى التى أثارت الفتى الجميل. مختبأ مرة أخرى فى إطار الباب، رآها تتعثر وهى تخرج من هناك. من أحد طرفى فمها انساب خيط من الدم استحال بنفسجياً لاختلاطه بمكياجها. تفحصت بأناملها أسنانها لعل سناً تهدد بالانسلاخ من اللثة ثم خلعت الشعر المستعار وجففت عرق جبهتها بمنديل به ثقوب وارتدت شعرها المستعار مرة أخرى وبدأت طريق العودة. كانت الريح قد توقفت، وكان الهواء فى هذه اللحظة وادعاً جافاً وشفيفاً وشديد البرودة بحيث يؤلم التنفس الصدر. لحق أونوفرى ها حين كانت تدخل الشعب، صرخ فيها:

– هيه، يا سيد براوليو، أنا أونوفرى بوفيلا، نزيلك؛ لا تخش شيئاً ن جانبى!

صاح صاحب البنسيون الذى كان بكاؤه مازال ينساب على وجنتيه:

– آى، يا بنى، أصابونى فى فمى وكانوا سيذبحوننى كخنزيرة لو لم كن من وضع قدمى فى الوحل! تلك الشرذمة!

– ولكن بحق الشيطان لم تجئ يا سيد براوليو إلى هذا المكان ير لكى يعذبوك؟ وفى زى امرأة! لا يمكن لهذا أن يكون طبيعياً!

هز السيد براوليو منكبيه واستأنف سيره. سحب سوداء كانت

حجبت القمر وتعذرت الرؤية تماماً. واستحال السير دون التعثر فى الفحم أو السقوط على الوجه والإصابة فى الركبة أو الوجه أو اليد. وانتهى الأمر بأونوفرى والسيد براوليو بأن استند كل منهما إلى ذراع الآخر حتى لا يسقط.

صاح السيد براوليو مرة أخرى بعد وهلة:

- آه، ألا تلاحظ يا أونوفرى؟ بدأ يسقط الجليد. كم عاماً مضى دون أن يسقط جليد على برشلونة؟

خلفهما أخذ يتنامى الصخب: سكان الحى الفاسد وزبائنه خرجوا إلى الشارع يحملون المشاعل والمصابيح لمشاهدة ذلك العرض النادر.

(٣)

كان ذلك الشتاء حقاً الأكثر برودة فيما يذكر فى برشلونة. سقط الجليد أياماً وليالى بلا توقف ودفنت المدينة تحت طبقة من الجليد سمكها أكثر من متر وتعطل المرور والأنشطة كافة وتوقفت المرافق العامة جميعها حتى العاجل منها؛ وانخفضت درجات الحرارة عدة درجات تحت الصفر؛ وهذا لا يعنى الكثير فى أرجاء أخرى بقدر ما يعنيه هنا فى هذه المدينة المنكشفة التى لم يتخذ فيها قط أى إجراء وقائى ضد هذا الاحتمال ولا الأشخاص كانت أجسادهم معدة لمواجهة البرد. سقط عدد من الضحايا. فى صباح أحد الأيام، عندما فتح أونوفرى، الذى كانت حياة الريف عودته الخشونة بحيث لم تكن شدة الطقس تمثل عائقاً له، عندما فتح شرفة غرفته ليشاهد منظر البيوت بلونها الأبيض، وجد يمامة ميتة. حين جرب التقاط جثتها سقطت فى الشارع وتفتتت كأنما صنعت من الخزف. والماء تجمد فانفجرت المواسير والمجارى وانقطعت المياه عن الصنابير وعيون الماء العامة. وقضت الضرورة تنظيم توزيع ماء الشرب فى عربية - برميل كانت تتوقف فى أماكن معينة من المدينة وفى أوقات محددة. وكان السائقون ينفخون فى قرون من الصفيح المذهب ليعلنوا عن حضور العربيات - البرميل. واصطفت طوابير أليمة فى الهواء الطلق فى ذلك القر الذى ينفذ من خلال الملابس ليعض الأجساد. اضطرت الشرطة إلى التدخل لمنع المشاحنات وأحداث تمرد حقيقية لبطء الخدمة. أحياناً تتجمد أطراف أحد الوقوف فى الصف فيضطرون إلى انتزاعه من الأرض بإلقاء ماء ساخن على حذائه أو بالقوة أى بمحاولة شده. وكان العديد من المواطنين يحصل على الماء بنقل قطع الجليد إلى المنازل وانتظار ذوبانها. آخرون كانوا يفعلون الشئ نفسه بقطع الجليد المتدلية من الأسطح. ووطد ذلك كله، مهما يكن مثيراً

للضيق، إحساساً بالمشاركة فى مغامرة، فآخى بين أهل برشلونة وكانت هنالك دائماً طُرَفٌ جديرة بأن تحكى.

كان وضع من يعملون فى الهواء الطلق مؤلماً للغاية. وكان عمال المعرض العالمى يعانون ما لا يقال داخل أرض المعارض المفتوحة على البحر والمنكشفة إزاء الريح. وبينما توقفت الأعمال مؤقتاً فى أماكن مشابهة، الميناء مثلاً، استمر العمل فى المعرض بإيقاع متنامٍ. كما أن مطالب عمال البناء لم تجد صدى مرضياً فقرروا الإضراب عن العمل. ثارت ثائرة بابلو الذى كان أونوفرى يطلعه على آخر الأحداث. قال: هذا الإضراب عمل أرعن! طلب أونوفرى من بابلو أن يفسر له لماذا قال ذلك فأجابه:

– انتبه يا ولد، هنالك نوعان من الإضراب: ما هدفه الحصول على مكسب محدد وما يهدف إلى زعزعة النظام القائم، المساهمة فى محاولة القضاء عليه. النوع الأول شديد الضرر للعامل، لأنه فى الواقع يميل إلى ترسيخ الوضع الظالم السائد فى المجتمع. هذا سهل الفهم ولا ريب فيه. الإضراب هو السلاح الوحيد فى يد البروليتاريا ومن الحمق أن نسيئ استخدامه فى تفاهات. كما أن هذا الإضراب يعيبه التنظيم، من حيث القاعدة ومن حيث الزعامات والأهداف النهائية. سوف يفشل فشلاً ذريعاً وستخطو القضية خطوة عملاقة لكن إلى الخلف.

كان أونوفرى يخالفه الرأى، ففى اعتقاده كان مرد غضب المبشر أن المضربين لم يأخذوا فى الحسبان على الإطلاق الفوضويين، فلم يطلبوا مشورتهم أو مشاركتهم فى العمل الجماعى بل ولم يفكروا مجرد التفكير فى أن يقود الفوضويون الإضراب. ومع ذلك تعلم أن الإضراب بالفعل سلاح ذو حدين وأن على العمال أن يستخدموه بحذر وأن أصحاب الأعمال لو استخدموه بحذق بوسعهم الخروج منه بفوائد جمة. فى تلك اللحظة اقتصر على متابعة الأحداث عن كثب محاولاً ألا يفوته شىء مما يحدث وألا يصيبه ضرر إذا تغيرت وجهة الأمور. وكما تنبأ بابلو انتهى

ذلك الإضراب إلى لا شىء؛ فى صباح أحد الأيام بلغ متنزه القلعة فألفى كل العمال تقريباً مجتمعين فى الباحة المركزية للمعرض القادم، وباحة الأسلحة للقلعة القديمة، فى مواجهة "قصر الصناعة". هذا القصر لم يكن بعد سوى هيكل رحيب من الألواح الخشبية فقد كان يشغل مساحة تبلغ سبعين ألف متر مربع وبلغ أقصى ارتفاع له ستة وعشرين متراً. فى ذلك الصباح، مغطى بالجليد، خاوياً ومهجوراً، لاح هيكلاً لواحد من حيوانات ما قبل الطوفان. لم يكن العمال المحتشدون فى باحة الأسلحة يتكلمون فيما بينهم. فمن شدة البرد كانوا يخبطون الأرض بأحذيتهم ويسوطون جنوبهم بأذرعتهم. لاحوا بحراً مضطرباً من القلنسوات. كمن لهم الحرس المدنى فى نقاط استراتيجية. وارتسم الظل الجلى للعباءات والقبعات المثلثة على الأسطح ومن خلفه سماء الصبح الصافية. دورية راكبة راحت تجوب المناطق المتاخمة للمتنزه. قال بعض العمال من ذوى الخبرة فى مناوشات سابقة:

- إذا هجموا تذكروا أنهم لا يستطيعون استخدام السيف إلا من الجانب الأيمن للجواد، أما من الجانب الأيسر فلا خطر منهم. ولكى يهدئوا المبتدئين أردفوا:

- وإذا لحقوا بكم انبطحوا أرضاً وغطوا رؤوسكم بأيديكم، الخيل لا تصيب مطلقاً جسداً ممدداً. هذا أفضل من الفرار ركضاً.

وهناك من قال أيضاً إن من الهين إصابة الجياد بالذعر فهى حيوانات حمقاء وجبانة، وذلك بهز منديل أمام عيونها. وقالوا إنها بذلك تجمح وإنها بشىء من الحظ ستطرح الفارس أرضاً. لكن الجميع كان يفكر فى داخله: فليجرب ذلك غيرى!

فى النهاية جاء الأمر بالتحرك. لم يعلم أحد من أين صدر. بدأ الجمع السير ببطء، يجرر الأقدام. أما هو، الذى كان يسير مع الجمع، وإن يكن على مسافة معقولة، فقد لفت انتباهه أمر: أن الجمع الذى كان قوامه فى البدء حوالى ألف شخص أو أكثر انخفض إلى مائتين أو

ثلاثمائة ما أن بدأ التحرك. والبقية اختفت. ومن تبقى راح يخرج من المتنزه عبر بوابة تقع بين "الصوبة" و"المقهى - المطعم" وأخذ شارع لابرنيثيسا بهدف بلوغ ميدان سان خايمى. لم تكن هيئته تهدد بالكثير. بل بدا أن الجميع كانوا يتوقون إلى وضع حد لما كانوا توقعوا أنه غير مجدٍ. وأن الشرف والتضامن وحدهما هما اللذان يبقيان على وحدتهم وحركتهم. لم تغلق محال شارع لابرنيثيسا أبوابها الحديدية وأطل الناس من شرفات المنازل لمشاهدة مرور المظاهرة. تتبعت فصيلة الحرس العمال بلا توقف وسيوفها مغمدة، لا يشغلها أى خلل محتمل فى الحياة اليومية بقدر ما يشغلها البرد. تابع أونوفرى المظاهرة وهلة ثم ولج حارة جانبية بهدف تجاوزها ولقائها فيما بعد. فى ميدان قريب باغتته كتيبة راكبة من الحرس المدنى وثلاث مدافع من عيار صغير مركية على عربات. وحين انضم إلى العمال كان يدرك أن الأمور لو خرجت عن نصابها فإن المظاهرة ستتحول إلى حمام دم. من طيب الطالع لم يحدث أى شىء خطير. وحين وصلوا إلى مفترق شارع مونكادا توقف المتظاهرون بناء على اتفاق عام. بدا أنهم يفكرون كما يلى: يستوى أن نتوقف هنا أو نواصل السير حتى يوم القيامة. تسلق عامل القضبان الحديدية التى تغطى إحدى النوافذ وألقى خطبة. قال إن المظاهرة كانت ناجحة. ثم احتل آخر المكان نفسه وقال إن كل شىء فشل تماماً بسبب انعدام التنظيم والوعى الطبقى وأهاب بالمتظاهرين أن يعودوا إلى أعمالهم بلا تأخير. ثم قال فى نهاية حديثه: ربما تمكنا من تلافى إجراءات انتقامية. استمع الحضور لكلا المتحدثين باهتمام واحترام كبيرين. أول المتحدثين، حسبما علم أونوفرى فيما بعد عن طريق إفرين كاستلز، كان أحد مرشدى البوليس؛ والثانى، عامل بناء شريف له بعض طموح نقابى. هذا الأخير فقد وظيفته فى أعقاب الإضراب ولم يُر فيما بعد قط فى متنزه القلعة. وكان هذا ملخص اليوم: فى منتصف النهار كان العمال قد عادوا إلى أعمالهم ولم يُستجبْ لأى من مطالبهم

والصحافة المحلية لم تلتفت حتى إلى الواقعة.

زمجر بابلو بنحو من الرضا فى عينيه الصغيرتين المحمومتين:

- لم تكن هنالك نتيجة أخرى محتملة. الآن لابد أن تمر أعوام قبل التفكير فى عمل جماعى آخر. أنا لا أدرى حتى إذا كان الأمر يستحق أن تستمر فى توزيع المنشورات.

وأونوفرى، الذى كان مذعوراً بعض الشىء لما رأى مورد دخله ذاك فى خطر، حاول تغيير الموضوع بحكى ما رآه عندما انفصل عن بقية المظاهرة. قال بابلو:

- بالطبع! ماذا كنت تعتقد؟ ما كانوا يخاطرون بأن تحقق حفنة من العمال هدفها وتؤسس بذلك لسابقة نحسة. فقط يسمح لها بالتحرك فى حدود الممكن. وتقوم دورية بالحفاظ على النظام وتنظيم المرور فيقول الناس: لا أدرى مما يشكون، إن لدينا حكومة غاية فى الطيبة. وإذا سارت الأمور على غير ما يرام فإن الدورية الراكبة تتدخل، وإن لم يكن ذلك كافياً "فالرصاص من أجل الشعب!".

سأل أونوفرى:

- إذن، لم يستمرون فى المحاولة؟ هم لديهم السلاح. لن يتغير شىء أبداً. لننصرف نحن إلى شىء آخر أكثر ربحاً!

أجابه بابلو وعيناه تائهتان فى أفق متخيل، أشد رحابة وضياء مما كانت تتيحه الجدران الرطبة والمتشققة للقبو الذى يعيش فيه:

- لا تقل ذلك أيها الصبى، لا تقل ذلك أبداً. صحيح أننا ضد السلاح ليس لدينا سوى كثرتنا. الكثرة والشجاعة اللتان يولدهما اليأس. لكننا يوماً ما سننتصر. سيكلفنا ذلك الكثير من الألم والدم لكن ما أبخسه من ثمن إذ نشترى به مستقبلاً لأبنائنا، مستقبل ستكون للجميع فيه نفس الفرص وسيغيب عنه الجوع والطغيان والحروب. من المحتمل ألا أرى ذلك اليوم؛ ولا أنت يا أونوفرى، أيها الصبى، على الرغم من أنك لازلت صبياً. لابد أن يمر الكثير من الأعوام وثمة ما لا يحصى من

الأعمال التى يجب أن ننجزها قبل ذلك: القضاء على كل ما هو موجود، فهو لا يساوى شيئاً؛ القضاء على القمع وعلى الدولة التى صنعته وتدعمه وعلى الشرطة وعلى الجيش وعلى الملكية الخاصة وعلى المال؛ على الكنيسة وما تقدمه الآن من تعليم، لا أدرى! لدينا هنا على الأقل خمسون عاماً من العمل، هأنت ترى ما أقوله لك.

لم يسلم البنسيون من القر الذى نجم عنه ذلك العدد من الضحايا فى برشلونة فى ذلك الشتاء. سقطت ميكائيلا كاسترو العرافة ضحية مرض عضال وأحضر الأب بيثانثيو طبيباً ليفحصها. كان طبيباً شاباً وظهر مرتدياً معطفاً أبيض ملطخاً ببقع حمراء. ومن حقيبة صغيرة أخرج قطعاً حديدية ملوثة وصدئة قليلاً راح يخبط وينخس المريضة بها. فهم الجميع أن الطبيب لا يفقه شيئاً فى الطب، وأدركوا أن بقع المعطف كانت من الطماطم ولكنهم اصطنعوا أنهم لم يلتفتوا إلى ذلك. والطبيب، على الرغم من جلاء عدم أهليته، بدا واثقاً من تشخيصه: ميكائيلا كاسترو تحتضر. لم يحدد المرض: الشيخوخة وتعقيدات أخرى ستودى بها، قال. وصف لها بعض المسكنات ثم ذهب. وحين خلا نزلاء البنسيون الدائمون والسيد براوليو إلى أنفسهم جلسوا للتداول فى الدهليز، حيث لبثت السيدة أجاتا وقدماها فى الطست. رأى ماريانو إخراج المريضة من البنسيون فى أقرب وقت. كان الطبيب قد قال إن مرض العرافة غير معد لكن الحلاق كان مبالغاً فى وساوسه. اقترح:

– فلننقلها إلى "المستشفى الخيرى"، فهناك سيعتنون بها إلى أن تقضى نحبها.

كان السيد براوليو يوافق الحلاق رأيه؛ والسيدة أجاتا لم تقل شيئاً كالعادة ولم تبد ما يشير إلى أنها كانت على علم بغرض الاجتماع؛ وأونوفرى أعلن أنه سيعضد رأى الأغلبية. أما الأب بيثانثيو فهو وحده الذى اعترض: فبصفته كاهناً كان زار بعض المستشفيات وعنت له

ظروف المرضى هناك غير مقبولة. قال: حتى لو افترضنا أن هنالك سريراً شاغراً فإن التخلى عن هذه المرأة المسكينة فى مكان غريب على مسؤولية مجهولين ووسط محتضرين مثلها سيكون عملاً قاسياً لا يليق بمسيحيين. وأضاف أن مرضها لا يستلزم رعاية من نوع خاص ولن تسبب أية مضايقة. قال:

- هذه المسكينة المخبولة لها فى هذا البنسيون أعوام طويلة. وهذه دارها. من العدل أن ندعها تموت هنا ونحن حولها، فنحن، على نحو ما، أسرتها وما بقى لها فى هذا العالم. - ثم أردف وهو ينظر إلى المجتمعين واحداً فآخر -: خذوا فى اعتباركم أن هذه المرأة تحالفت مع الشيطان وينتظرها عذاب جهنم وآلام أبدية. إزاء هذا المشهد الرهيب فإن أقل ما ينبغى لنا أن نحاوله هو أن نجعل مما تبقى لها فى الحياة الدنيا أقل بؤساً ما وسعنا ذلك.

شرع الحلاق فى الاحتجاج لكن السيدة أجاتا قاطعته، قالت بصوت أجش أشبه بصوت عامل مناجم: الأب بيثانثيو على حق! لم يكن أحد فيما عدا زوجها سمعها تتحدث قط وحسم تدخلها المقتضب القضية. هذا ما فهمه أونوفرى فى الحال وسارع بإعلان موافقته ما أن تحدثت السيدة أجاتا. أذعن الحلاق إذ لم يكن له مخرج آخر. وعد الأب بيثانثيو برعاية المريضة بحيث لا تكون عبئاً على أحد. انفض الاجتماع على نحو حميمى. ساعة العشاء خيم غياب ميكائيلا كاسترو على الحضور بسحابة من الكآبة فهى لن تعاود شغلهم بحالاتها.

فى النهاية انتهى عام ١٨٨٧. لمبررات شتى لاح للجميع أطول مما سبقه: ربما لأنه، كما يحدث أحياناً، لم يكن طيب الطالع. "لعل العام القادم يكون أفضل قليلاً"، هذا ما تمناه أهل برشلونة بعضهم لبعض. ومن المحتمل أيضاً أن البرد القارس فى الأسابيع الأخيرة منه ساهم فى ترك ذكرى نحسة لذلك العام. فالجليد فى الأماكن التى لم تنظف تحول

إلى ثلج وتسبب فى انزلاق الناس وإصابتهم بالكسور فقال الظرفاء منهم: "كأننا فى القطب الشمالى". وبالفعل لاح ميدان قطلونيا، بسبب أعمال الإنشاء وبما به من فتحات وأكوام وحفر، لاح موحشاً، مفازة جليدية. فى هذا الشأن نشرت صحيفة يومية نبأ صادماً، ففى إحدى حفر الميدان تم العثور على عدد من البيض كبير الحجم. وبعد تحليله فى المعمل تبين أنه بيض لطائر البطريق. من المؤكد تقريباً أنه نبأ كاذب وأن تلك الصحيفة كانت تعد لنشره فى "يوم السذج"* لكن الأمر اختلط عليها فظهر النبأ فى غير موعده. لكن هذا الفعل فى ذاته يشير إلى أى حد كان الطقس البارد ينهض بدور البطولة فى حياة المدينة وخاصة فى حياة من كانوا يفتقرون إلى وسائل تحميهم من هجماته.

على الشاطئ، حيث يحيا العمال وأسرهم بلا مأوى، تفاقم الوضع المتأزم إلى أقصى حد. فى إحدى الليالى، خوفاً على حياتهن، حملت النساء أطفالهن وشرعن فى السير. فضل الرجال ألا يتبعوهن، إذ كانوا على صواب حين رأوا أن حضورهم سيصبغ مسيرتهن بصبغة مختلفة. عبر النساء والاطفال الجسر الحديدى الذى يربط الشاطئ بمتنزه القلعة وساروا بين الأجنحة التى مازالت قيد الإنشاء حتى بلغوا "قصر الفنون الجميلة". ذلك القصر، الذى اندثر الآن، كان إلى يمين "صالون سان خوان" إذا دخلت من ناحية قوس النصر، عند رأس الزاوية الذى يؤلفه الصالون وشارع "التجارة"، أى خارج المتنزه لكنه داخل المعرض الدولى. كانت أبعاد قصر الفنون الجميلة: الطول: ٨٨ متراً، والعرض: ٤١ متراً، والارتفاع: ٣٥ متراً، فضلاً عن أربعة أبراج تنتهى بقباب متوجة بدورها بأربعة تماثيل تمثل "الشهرة". داخل القصر، إلى جانب القاعات والأروقة المخصصة لعرض الأعمال الفنية، ثمة قاعة رائعة، ٥٠م x ٣٠م، لعقد أهم أحداث المعرض. فى هذه القاعة أراد النساء والأطفال قضاء الليل. أبلغ ضابط الحرس المدنى المسؤول عن المتنزه السلطات المختصة

* ما يوازى ما نعرفه بـ "كذبة أبريل".

بالواقعة. أجابوه بأن يصطنع أنه لم يصل إلى علمه شيء. فرد الضابط:

- لكنهن أوقدن الخشب داخل القاعة والدخان يتصاعد من النوافذ!

- وماذا فى ذلك؟ فنحن لن نشعل الموقف بإطلاق الرصاص ثم تنشر النبأ الصحافة الأجنبية قبل أربعة أشهر من الافتتاح. تصرف كأن شيئاً لم يحدث وسوف نرى.

- حسناً، ولكننى أريد أمراً مكتوباً. وإن لم يصل هذا الأمر إلى يدى فى غضون نصف الساعة سآمر بإخلاء القصر بأى شكل: سأرتب لمذبحة وأخلى مسؤوليتى. ولتعلموا أن لدى مدفعاً رشاشاً على سطح "المقهى - المطعم" لكى أشرع فى قتلهن وهن يخرجن.

استلزم الأمر إرسال نائب من المجلس المحلى تحمل البرد وزلت قدماه فى الجليد لكنه بلغ مكان الحادث ومعه الأمر قبل أن ينفذ الضابط تهديده. فى اليوم التالى، تم التفاوض والتوصل إلى اتفاق تشغل بمقتضاه نساء العمال، وليس العمال أنفسهم، الثكنات الجديدة بشارع صقلية لمدة أسبوعين. هناك بوسعهن إشعال النار وكل ما يرغبن. التفاوض مع النساء لم يكن سهلاً. كان إفرين كاستلز باع لهن عدداً من زجاجات دواء الشعر فنبتت لبعضهن لحية. وألفى نائب المجلس البلدى الذى يمثل العمدة والذى ذهب إلى قصر الفنون الجميلة ألفى نفسه يتصدى للجنة مؤلفة من نسوة ملتحيات. لم يكن يتوقع ذلك، لذا نزل على جميع مطالبهن ولم يفده سوى قربه من دوائر ذات نفوذ لتجنب إعفائه من منصبه. وكل ذلك بسبب إفرين كاستلز الذى تسلبه النساء عقله. كان "ساتيرياً" حقيقياً: فبذريعة بيع دواء الصلع كان يدخل الأكواخ فيما يعمل الرجال فى إنشاءات المعرض، وهناك كان يشيع الدمار. كانت له هيئة ذكورية حازت إعجابهن جميعاً تقريباً، كانت طبيعته مرحة وكان يجيد مداهنتهن وينفق ببذخ بحيث لم يكن حظه فى مجال العاطفة قليلاً. لم يكن أونوفرى راضياً عن ميول شريكه: كان يقول له: يوماً ما، على غير انتظار، سنقع فى مأزق كبير بسببك. وكان إفرين كاستلز يرد:

– لا تخشَ شيئاً، فأنا أعرف الإناث جيداً فهن يخدعن أزواجهن لأقل سبب لكنهن قد يقتلن أنفسهن قبل أن يفكرن فى خيانة الرجل الذى يستميلهن. تسألنى: لماذا؟ كيف لى أن أعرف؟ ربما راقتهن المعاناة، هذا ما أقوله. إذا أردت أن تحميك امرأة لا تحسن معاملتها، خنها: لا شىء أفضل من ذلك! وأنا أفعل ما أفعله لأننى مغفل، وإلا، وأنا أعرفهن على هذا النحو، كان بوسعى أن أحيا على حسابهن بلا أدنى مجهود. لكننى لست من هؤلاء، ما حيلتى؟ فأنا ممن يفقدون عقولهم ويتركون أنفسهم يعصرون كالليمونة.

البزيتات التى كان يعطيها أونوفرى لإفرين مقابل عمله كان هذا يصرفها على غزواته. الظاهر أن على الإنسان أن يكون أريحياً ووغداً، هذا ما كان يفكر فيه أونوفرى. ولا ينتظر من الناس سوى ما بوسع المرء أن ينتزعه منهم. هكذا يكون البشر: مادة ضعيفة. هذه الأشياء وأشياء أخرى شبيهة كان أونوفرى يقولها لنفسه فى ليالى سهاده التى لا تنتهى فى مكانه ببسطة السلم بالبنسيون فيما يكمن لديلفينا. كان البرد ينخر عظامه وإن لم يكن قد سقط ضحية مرض عضال فمرد ذلك عنفوانه وطبيعته السليمة. لم يعد السيد براوليو إلى خروجاته الليلية، كان ينتظر مقدم الربيع ليرتدى الفساتين الشعبية ذات الكرانيش. لم يحك له أونوفرى أنه كل ليلة يكمن فى بسطة السلم ليضبط ديلفينا متلبسة مع خطيبها إذ اعتقد أن السيد براوليو لا يعلم شيئاً عن عبث ابنته ولا هى عنه.

فى إحدى تلك الليالى، فى حوالى الثانية، جاء صوت ليخرجه من شروده. كانت ميكائيلا كاسترو العرافة، تطلب ماء من حجرتها. والأب بيثانثيو الذى من المفترض أن يقوم على خدمتها كان يغط فى نومه أو ربما أصابه كبر السن بشىء من الصمم. مرت الدقائق ولم يلبِّ أحد نداءها. ألحت العرافة فى طلب الماء بصوت كان خفيضاً حتى إنه كان من الصعب تحديد مصدره. ذهب أونوفرى إلى المطبخ وأخذ كوباً من

الصوان وملأه ماء وحمله إلى ميكائيلا كاسترو. صدرت عن غرفة المريضة رائحة مثيرة للغثيان، كرائحة أعشاب بحرية معرضة للشمس. فى الظلام وجد أونوفرى يد العرافة الباردة ووضع كوب الماء بين أصابعها. سمع صوت الجرعات المتعطشة وبعد انتهائها استعاد الكوب فارغاً. همست المحتضرة بشىء غير مفهوم. اقترب أونوفرى بأذنه من رأس السرير. اعتقد أنه سمع: "جزاك الله يا ولدى"، ففكر: لا شىء، لم تقل سوى ذلك. لكن فكرة راحت تتقلب فى رأسه.

فى أوائل شهر يناير تحسن الطقس وخرجت المدينة من سباتها. فى أرض المعرض خلفت أكوام الجليد بعد ذوبانها أسيجة ومنصات كان البناؤون بحثوا عنها ولم يجدوها لعدة أسابيع. ومع ذوبان الجليد تكونت برك شاسعة ومثيرة للضيق وخطيرة فى المقام الأول لأنها كان يمكن أن تسبب بل وتسببت بالفعل فى حدوث هبوط طفيف فى الأرض أصاب بعض المنازل بتشققات زائدة عن الحد لدى استقرارها. كما حدث أيضاً صدع طفيف ولقى مساعد بناء مصرعه تحت الأنقاض. ولسبب قلة الوقت المتاح لم يتم العثور على جثته واضطروا إلى دك الأنقاض وإعادة بناء فوقها. لم يخرج الحادث إلى النور على المستوى العام ولم يعلم زائرو المعرض قط أن تحت أقدامهم دفنت جثة، وهو أمر كان يحدث دائماً فى المدن القديمة. ومع ذلك لم يكن كل شىء مأسوياً فى المتنزه. وقعت كذلك أحداث مضحكة مثل هذا الحدث: فمع ذوبان الجليد وصلت قبيلة من الغجر عن طريق الشاطئ، فخرجت نساء العمال إلى أبواب أكواخهن ومنعنها من الدخول فقد كان سائداً اعتقاد بأن الغجر يخطفون الأطفال الرضع ويحملونهم معهم. والحق أن تلك القبيلة كانت لا تسعى سوى إلى كسب قوت يومها بإصلاح الكسرولات وجز فروة الكلاب وقراءة الطالع وتعليم أحد الدببة الرقص. والعمال الذين لم يكن لديهم كلاب كانيش أو أدوات مطبخ أو رغبة فى معرفة ما يخبئه لهم المستقبل لم يكن يضحكهم سوى رؤية الدب وهو يرقص، حتى إن الحرس

المدنى اضطر إلى التدخل لطرد الغجر الذين كانوا نصبوا عرضهم فى باحة الأسلحة وراحوا يدقون طبولهم. وضابط الحرس المدنى، الذى رقى إثر واقعة قصر الفنون الجميلة، واجه الغجرى الذى يبدو الآمر هناك وأمره بأن يرحلوا فى الحال. رد الغجرى بأنهم لا يسيئون إلى أحد. فقال الضابط: أنا لا أجادلك فى ذلك، وإنما أقول لك: الآن سأذهب لأتبول، فإذا عدت وأنتم لازلتم هنا فسأعدم الدب وسأحكم عليكم بالأشغال الشاقة وسأحلق شعر نسائكم "زيرو". اختر ما يناسبكم! اختفى الدب والغجر كأنما بفعل السحر. لكن الجزء الكوميدى يأتى الآن: بعد يومين أو ثلاثة من انتهاء تلك الواقعة ظهرت فى أرض المعارض مجموعة أخرى عجيبة كالسابقة يرأسها سيد يرتدى سترة خضراء وقبعة من المخمل من نفس اللون. وكان لهذا السيد شارب مطلى بدهان الشعر وأسود كحجر السبج، يتبعه أربعة رجال يحملون فيما بينهم قاعدة عليها تمثال كبير الحجم مغطاة تفاصيله، إن وجدت، تحت قماش مطلى بالقار. والحرس المدنى، ما أن رأى الموكب يدخل، انقض عليه وأخذ يضرب الرجال الخمسة بمؤخرة بنادقه. ثم اتضح أنه أول مشارك فى المعرض الدولى، رجل يدعى جونتر فان إلكيسيرو، ومعه أربعة عمال جاءوا من مينز. ذلك المشارك المسكين كان أحضر مغزلاً كهربائياً من اختراعه وكان يسير تائهاً يسأل هذا وذاك بالألمانية والإنجليزية أين يمكنه أن يسجل اسمه وأين يمكنه وضع المغزل إلى أن يفتح المعرض أبوابه.

بهدف تلافى زحام الأيام الأخيرة ناشدت السلطات العارضين أن ينقلوا إلى برشلونة معروضاتهم قبل الافتتاح بفترة مناسبة. واستلزم ذلك تجهيز عدة مخازن لحفظها إلى أن يتم الانتهاء من الأجنحة التى ستعرض فيها. كانت عملية أعقد بكثير مما بدا أول وهلة. لم يكن لزاماً حماية المعروضات بعدم تركها مكشوفة أو بحمايتها من الرطوبة فحسب (إذ كانت أحياناً آلات دقيقة أو أعمالاً فنية أو مجرد معروضات دفينة

بسبب خامتها الهشة أو صناعتها) بل حمايتها كذلك مما تخلفه الفئران أو الصراصير أو الثرميت من أثر مدمر، إلخ.. ولزم أيضاً ترتيبها بحيث يتم التعرف عليها وتحديد أماكنها بلا مجهود زائد. أخذت السلطات فى حسبانها هذا الاحتمال، ولكى تجد حلاً له نشرت قبلها بوقت كاف تصنيفاً شاملاً لكافة المنتجات الموجودة فى العالم وتنويعاتها. لكل نوع رقم أو حرف أبجدى أو كلاهما معاً. هكذا لن تظهر أية مشكلة. درس أونوفرى بوفيلا بعناية فائقة واحدة من تلك القوائم التى سرعان ما وقعت فى يده. قال لنفسه: لم أحسب قط أن على ظهر اليابسة كل هذه الأشياء التى يمكن أن تباع وتشترى. أهاجه هذا الاكتشاف عدة أيام. فى النهاية، بصحبة إفرين كاستلز وبعد تخطى ألف خطر، دخل أحد هذه المخازن. كانا يحملان قنديلاً لينير لهما. من السقف إلى الأرض كانت هنالك صناديق وطرود من مختلف الأحجام. بعضها كبير للغاية بحيث يسع عربة بخيلها، وبعضها من الصغر بحيث يمكنك وضعه فى جيبك. وداخل كل طرد شىء. راجع أونوفرى القائمة على ضوء القنديل المختلج الذى كان يرفعه إفرين كاستلز عالياً. فى هذا الجزء من القائمة كان مسجلاً فيه: "أجهزة ميكانيكية مستخدمة فى الطب والجراحة وجراحة العظام؛ كراسٍ، أسرة، إلخ؛ أربطة لعلاج الفتق والدوالى، إلخ؛ أجهزة يستخدمها المريض؛ عكاز، أحذية طبية، عدسات، نظارات، سماعات للأذن، ساق خشبية، إلخ؛ أجهزة تركيب من البلاستيك أو ميكانيكية؛ أسنان، عيون، أنوف صناعية، إلخ؛ أعضاء صناعية مفصلية؛ أجهزة ميكانيكية أخرى للتركيب لم تذكر آنفاً؛ أجهزة متنوعة للتغذية الاضطرارية وغير المعتادة؛ قميص للمجانين، إلخ... صاح إفرين كاستلز: يا حفيظ، يا حفيظ! بناء على طلب أونوفرى تمكن مارد كاليا بقواه العملاقة من فتح واحد من الطرود الكبيرة بداخله مكبس من المستخدم فى كبس الورق.

ولما كان إفرين كاستلز مارداً طيباً حاز ثقة صبية الشاطئ، أبناء

النساء اللائى كان يغازلهن. كان يستغلهم فى إرسال وتلقى رسائل الغزل وتحديد المواعيد الغرامية. بين أونوفرى وإفرين تم تنظيم هؤلاء الصعاليك الصغار وتدريبهم. فى الليل كانوا يدخلون المخازن ويفضون الأغلفة بمهارة ويخرجون المعروضات ويحملونها إلى أونوفرى وإفرين. وهذان كانا يبيعانها أو يغاليان فى سعرها حسب طبيعة كل سلعة، ويدفعان للصبية مبلغاً معيناً عند تسلم السلعة. فى حالة إفرين كاستلز لم تكن الأرباح تدوم بأية حال؛ فى المقابل، لم يكن أونوفرى يصرف سنتيماً، وتراكمت فى مرتبة الأب بيثانثيو ثروة متواضعة. كان المارد يقول لشريكه: لا أدرى فيم رغبتك فى كل هذا المال؛ فإن أوفر أنا فلذلك مبرر، فأنا أحمق وعلىّ أن أفكر فى المستقبل، لكن أن توفر أنت ولديك كل هذه الحيل فهذا ما لا أفهمه. والحق أن أونوفرى لم يكن ينفق المال لأنه لم يكن يعرف فيم ينفقه ولم يكن قريباً من أى شخص يعلمه أو لديه دافع الإنفاق.

ديلفينا، حسبما تحقق أونوفرى بعد كثير تجسس، كانت تترك البنسيون ساعة أو تكاد كل صباح وتذهب للشراء فحسب. وظناً منه أن تلك ستكون لحظة مناسبة للاقتراب منها لم يذهب فى أحد الأيام إلى أعماله وتتبع الفتاة إلى السوق. اعتادت ديلفينا الخروج ومعها سلتان كبيرتان من الصفصاف المجدول وبرفقتها بعلزيبول، تسير بخطو حازم لكنها شاردة الذهن، كأنما تهيم فى الخيال. وبسبب هذا الشرود كانت تسير بقدميها العاريتين فى برك الماء الآسن وتطأ أكداس القمامة. والأطفال الذين يجوبون الحوارى كانوا ينظرون إليها وهى تمر فى شىء من التحفظ، فلولا القط الذى يخيفهم لكانوا ضايقوها وقذفوها بالحجارة وبالفضلات. وفى السوق لم تكن ديلفينا تحظى بتقدير البائعات. لا تشاركهن قط القيل والقال ولا تتهاون فى مسألة الوزن أو جودة السلع. فضلاً عن أنها تجادل السعر بخشونة. اعتادت شراء أشياء

فى حالة سيئة وكان هذا مبررها كى تحصل على تخفيض فى السعر. وإذا قالت لها البائعة إن الكرنب غير فاسد وإنه مازال يحتفظ ببعض طزاجته تجيبها ديلفينا بأن ذلك ليس صحيحاً وأن الكرنب له رائحة لا تحتمل وأن الأكلة تداعت إليه وأنها ليست مستعدة لدفع سعر مبالغ فيه لقاء هذا الشىء المزرى. فإذا واجهتها البائعة واحتدمت المناقشة قبضت ديلفينا على بعلزيزل من بطنه ووضعته على الطاولة. وفى الحال، يقوس القط ظهره وينفش شعره ويخرج مخالبه. هذه الخطة كانت تؤدى الغرض منها إذ كانت البائعة، المرتعبة، تتنازل لها فى النهاية وتقول: خذى، خذى، خذى الكرنب وادفعى لى ما يعن لك، لكن لا تعودى إلى هنا مرة أخرى فلن أبيعك شيئاً بعد اليوم، ها أنت سمعتنى! وديلفينا كانت تهز منكبيها لكنها تعود فى اليوم التالى لنفس الغرض، والبائعات كن يشحبن من الغضب ما إن يرينها وكن ذهبن إلى ساحرة تجوب السوق كى تعمل عملاً لها وللقط على نحو الخصوص. كل هذا توصل إليه أونوفرى بلا أقل صعوبة لأن البائعات ما إن شعرن بذهاب الفتاة والقط الشرير لم يدخرن تعليقاتهن. فى طريق العودة إلى البنسيون خرج أونوفرى للقاء ديلفينا. قال لها:

– كنت أتجول ورأيتك تأتين مصادفة. أيمكننى مساعدتك؟

– لست فى حاجة إلى أحد!

قالت ذلك وهى تسرع خطاها كأنما لتثبت أن وزن السلتين لا يثقلها.

– أنا لم أقل إنك لا تستطيعين حمل ما اشتريت يا امرأة. كنت أحاول فقط أن أكون مهذباً.

– لمه؟

– للاشىء. الإنسان يكون مهذباً بلا دافع. أجل، هنالك دافع، ليس فقط من قبيل التهذيب بل والاهتمام.

– تجيد الحديث أكثر مما ينبغى – قاطعته – اذهب وإلا سلطت عليك القط.

كان لابد من التخلص من بعلزيول بقتله. وكافة الطرق التى فكر فيها كانت جيدة لولا أنها تنطوى على صعوبات لا يمكن تجاوزها. فى النهاية توصل إلى واحدة تراءت له مجدية، وتتلخص فى دهان قرميد البنسيون بالزيت، وحين يصعد بعلزبول ليسير على القرميد كما تفعل كافة القطط ينزلق ويسقط. فكر أونوفرى أنه إذا سقط من الطابق الرابع على الأرض فسيموت مؤكداً. وكان هو نفسه على وشك أن يلقى حتفه وهو ينجز خطته. وحين انتهى من تزييت كل قراميد السطح دون أن يخلىّ فرجة جافة آب إلى حجرته واستلقى فى فراشه على ظهره. فى تلك الليلة لم يحدث شىء. فى الليلة التالية، بعد أن أوى إلى فراشه لأن طول الانتظار أصابه بالسأم (ساعة كنيسة القديس حزقيال كانت دقت الثانية صباحاً)، أيقظته أصوات. من الشرفة تناهت تأوهات ولعنات. خشى أن يكون بعلزبول سقط فوق أحد الساهرين. قال لنفسه: سيكون منتهى سوء الحظ! فتح الشرفة وأطل. فى ضوء القمر أصابه الذعر، فمن سياج الشرفة تدلى شخص يطلب الغوث فيما يجرب أن تنشب قدميه فى أية فتحة من فتحات واجهة المنزل. توسل حين رأى أونوفرى: أرجوك، مد لى يدك وإلا سألقى حتفى. أمسك أونوفرى الرجل بكلتا يديه ورفعه إلى أعلى وأدخله حجرته. ما إن وضع ذلك الشخص قدميه على الأرض انزلقتا وسقط جالساً. جعل يندب مرة أخرى: تكسرت مؤخرتى فى عشرين موضعاً! أمره أونوفرى بألا يرفع صوته. أوقد الشمعدان. ثم باغته: والآن قل لى ماذا كنت تفعل لتتدلى من شرفتى؟ فأجابه:

– أنى لى أن أعرف؟ لعل ملعوناً طلى القرميد بالشحم أو ما شابه. من حسن حظى أمسكت بالسياج الحديدى وإلا ما كنت جالساً الآن أحكى ما حدث.

– ماذا كنت تفعل على السطح فى هذه الساعة؟

– وفيم يهمك ذلك؟

– لا يهمنى فى شىء لكن ربما أراد أصحاب البنسيون والشرطة معرفة السبب.

– إيه، إيه، حذار، فأنا لست لصاً ولم أكن ارتكب فعلاً شريراً. اسمى سيسينيو. وأنا خطيب فتاة تعيش هنا.

– ديلفينا!

– هذا اسمها. والداها صارمان ولا يسمحان لها بإقامة علاقات مع أى رجل. ونحن نتقابل على السطح، ليلاً.

– يا للغرابة! وكيف تصعد إلى السطح؟

– عن طريق سلم يدوى. أضعه خلف البناية، هناك، حيث يرتفع مستوى الأرض وتقصر المسافة. أعمل نقاشاً.

بدا سيسينيو فى الخامسة والثلاثين. كان ضيق المنكبين وقليل الشعر وجاحظ العينين وغائر الذقن. كانت تنقصه سنتان ويصفر لدى الكلام. فكر أونوفرى فى يأس: هذا هو غريمى إذن!

– وماذا تفعلان فوق السطح؟

– هذا يعتبر سؤالاً زائداً عن الحد.

– لا تخشَ شيئاً، فأنا منكم، اسمى جاستون، بابلو سيحدثك عنى.

أجاب سيسينيو وهو يبتسم لأول مرة:

– آه، بالطبع!

وروى لأونوفرى أنهما فى الحقيقة لا يكادان يفعلان أى شىء، فيتحدثان فى موضوعات شتى، أحياناً قبلة ولا شىء أكثر، ففوق السطح لم يكن من السهل عمل أكثر من ذلك. كان سيسينيو اقترح الذهاب إلى مكان آخر أكثر لكن ديلفينا رفضت وقالت له: بعد ذلك لن تحبنى! وهما على هذه الحال قرابة العامين. قال سيسينيو: لا أدرى كيف تحملت حتى الآن، فسأله أونوفرى لم لم يتزوجا؟ قال:

– هذه حكاية أخرى. أنا متزوج بالفعل ولى ابنتان. هذا ما لم أقله بعد لديلفينا، تنقصنى الشجاعة كى أصيبها بالألم فالمسكينة لديها آمال

عريضة. لو أن زوجتى تموت سيحل كل شىء لكنها أقوى من سنديانة!

– وهى، ماذا تقول؟ أعنى زوجتك.

– لا شىء. تعتقد أننى أؤدى أعمالاً ليلية. قبل أن أدخل البيت أدهن نفسى بالطلاء جيداً، لأضللها.

– لا تتحرك، سأذهب وأبحث عن ديلفينا لئلا تصعد إلى السطح للقائك فتنزلق وتلقى حتفها.

خرج إلى الدهليز لحظة دخول الأب بيثانثيو غرفة الحمام. كانت العرافة تتأوه من الألم. قال أونوفرى لنفسه: والآن لا ينقصنى سوى أن أعثر بالسيد براوليو متنكراً فى شكل غانية رخيصة، أى مكان هذا الذى قادتنى إليه قدماى!

ما إن طرق أونوفرى الباب طرقة خفيفة ردت الفتاة بصوت له صفير. أفصح أونوفرى عن شخصه. اذهب وإلا أطلقت القط – هذا هو الرد الذى تلقاه. قال أونوفرى: جئت فقط لأقول لك إن سيسينيو وقع له حادث. فتح باب الغرفة فى الحال. فى إطار الباب التمعت عيون أربع. فح القط وتراجع هو وقالت الفتاة: لا تخف، لن يصيبك بأذى، ماذا حدث؟

– خطيبك سقط من السطح. هو موجود فى حجرتى. تعالى لكن لا تحضرى بعلزبول.

بدآ يهبطان الدرج وأمسك أونوفرى بذراع ديلفينا التى لم ترده ولم تقل شيئاً. لاحظ أونوفرى أنها تنتفض.

كان سيسينيو قد تمدد فى الفراش. فى ضوء الشمعدان بدا ميتاً، رغم أنه كان يحرك عينيه ويجتهد رسم ابتسامة. قال أونوفرى لديلفينا: أتركك معه. حاولى ألا يموت فى غرفتى، لا أريد مشاكل! سأعود مع بزوغ الفجر. هبط إلى الشارع وتردد ثوانى أمام البوابة، دون أن يدرى إلى أين يوجه خطاه. سمع مواء وسقط جسم ملامساً كتفه واصطدم بالأرض. بقضيب حديدى دفع جسم بعلزبول وتمكن من إلقائه من فتحة البالوعة. وهكذا، فى ليلة واحدة، فقدت ديلفينا عمادى أمانها.

(٤)

صاحب السعادة والنيافة السيد أسقف برشلونة كان زار روما وهو راهب مبتدئ. فى ميلانو، التى توقف فيها عدة أيام، رأى صاحب السمو الإمبراطورى الأرشيدوق فرانسوا فردينان دى أوستريا (نفس الأرشيدوق الذى راح ضحية حادث مأسوى فى سرايبفو بعد ذلك بعدة أعوام) وهو يستعرض الحرس الإمبراطورى. هذه الصورة ظلت فى مخيلة صاحب النيافة الأسقف حتى نهاية أيامه. والآن يتوقف العمال عن أعمالهم ويعتدلون ويخلعون قلانسهم عند مروره، وتدق أجراس كنيسة القلعة وتهدر آلات ترومبيت فرقة الخيالة المصاحبة لموكبه. اجتاز صاحب السعادة الأسقف وصاحب السعادة عمدة المدينة معاً قوس النصر، ثم السلطات الأخرى فى تدافع. ومن ورائهم، فى غير اكتراث كبير فيما عدا الاستثناء، السلك القنصلى. وعلى مقربة من الأسقف، شماس يحمل سطلاً أو قدراً من الفضة المشغولة ممتلئاً بالماء المقدس. كان الأسقف يحمل فى يده اليسرى عصاه الأسقفية وباليمنى يهز المرشة التى يغمسها من حين إلى حين فى القدر. فإذا تمكن من رش أحد العمال كان هذا يرسم علامة الصليب فى الحال. كان من المؤسى رؤية عباءة الأسقف العظيمة يلوثها الغبار. كان قصر الصناعة، الذى ستعقد فيه المراسم، لما يزل بلا طلاء لكن بعض المعلقات غطت هذا النقص ونفحت المكان هيئة مظللة. وفى مكان رفيع أقيم المصلّى، وفيه تمثال للقديسة "لوثيا" مرمم حديثاً وهو من الفضة المذهبة ويرجع إلى القرن الثامن عشر على الأقل. فى الجانب الأيسر من الصحن المركزى وقفت جوقة موسيقا البلدية لتعزف مارشاً عسكرياً ما إن دخلت السلطات. بارك الأسقف الأعمال. ثم ألقى كل من الأسقف والعمدة كلمته وفى إثرها انطلقت صيحات تهتف بحياة جلالة الملك وجلالة الملكة الوصية

على العرش. أما مفوضا مجلس إدارة المعرض، اللذان كانا ذهبا وعادا من مدريد ما يكفى بحيث يمكنهما أن يذكرا عن ظهر قلب أسماء كافة القرى الواقعة على امتداد الطريق، فقد أجهشا بالبكاء. اعتبرا أنفسهما، إن لم يكونا أبوى المعرض، على الأقل قابلتيه. والواقع أن دورهما كان نحساً: فالحكومة لم تقدم أموالاً كافية تحول دون إفلاس بلدية برشلونة ولم تمتنع عن تقديم المال بحيث يعتبر القطلونيون أنفسهم أصحاب كل الفضل فى إقامة المعرض. هذا ما لم يكونا يعلمانه أو هما كانا يدركانه لكنهما لم يتوقفا عن البكاء. دقت الأجراس مرة أخرى لتعلن ختام المراسم ثم استؤنف العمل فى الحال. كان يوم ١ مارس ١٨٨٨؛ كان باقياً على الافتتاح شهر وسبعة أيام.

أثار تنوع أعمال أونوفرى بوفيلا وتزايد حجمها، بخاصة بعد انضمام الأطفال - اللصوص ثم بعد اكتشاف حمولة مصنفة "شاى صينى وورقة بيرو وحشيش ونباتات أخرى للتدخين والمضغ" ومرسلة إلى جناح الزراعة (الكائن، مثله مثل قصر الفنون الجميلة، خارج المتنزه، أى، ملاصقاً للسور الشمالى، على طريق السيارات المتجه إلى سان مارتين وفرنسا، فيما بين شارعى روجر دى فلور وصقلية) بيعت بسعر مرتفع خارج المعرض بوساطة معلم مبيِّض شديد البهجة والنزوع إلى السقوط من السقالات والسلالم، أثار ذلك قلق بابلو الذى أخذ يلتفت إلى أن تلميذه، مهما اتخذ من أسباب الاحترام نحوه، كان يخدعه؛ ولم يكن يدرى ماذا يفعل ليتصدى لذلك الأمر. كان يعلم ما يتمتع به أونوفرى من صيت بين عمال المعرض. وهو لم يكن يجرؤ كذلك على أن يفصح لرفاق كفاحه عن الموقف العصيب الذى بلغه بسبب ضعفه هو، فلم يكن له أى اتصال بالعالم إلا ما يجود به عليه أونوفرى. كان دمية فى يديه.

ولما كان بابلو شرح له فى أكثر من مناسبة أن أول ما ينبغى تدميره فى قطلونيا مسرح "الليسيو"، أراد رؤية ذلك الشىء الذى كان على ذلك

الجانب من الأهمية. كان بابلو قال له: "الليسيو كالرمز، كالملك فى مدريد أو كالبابا فى روما. نحمد للرب على أننا فى قطلونيا ليس لدينا ملك أو بابا، لكننا لدينا الليسيو". دفع سعراً بدا له مبالغاً فيه وأدخلوه من باب الفقراء. دخل من حارة جانبية مليئة بسوق الكرنب. كان الأثرياء يدخلون عبر رواق شارع "الرملة" حيث ينزلون من عرباتهم التى تجرها الخيل. وكان ينبغى إنزال النساء بحملهن حملاً تقريباً. وكانت فساتينهن طويلة للغاية حتى إنهن بعد أن يختفين وراء الباب الزجاجى لما يزل ذيل فستانهن يخرج من العربة، كأنه أحد الزواحف ذاهباً إلى الأوبرا. اضطر إلى صعود أكثر من درج ووصل يلهث إلى مكان لم يكن به للجلوس شىء آخر سوى مقعد حديدى قديم يحتله عدد من عشاق الموسيقا منذ عدة أيام، كانوا ينامون متكئين على السياج المقابل، كأنهم حصر مبسوطة للتهوية، يأكلون كسرة خبز الثوم ويشربون نبيذاً فى قربة. كان ذلك مكاناً لتربية القمل. كانوا يحملون بقايا شمع لقراءة النوتة الموسيقية وكتيب الحوار فى عتمة المسرح. بعضهم فقد بصره وصحته فى الليسيو. أما بقية المسرح فهو جد مختلف إذ بهر أونوفرى: الحرير والموسلين والمخمل والعباءات المرصعة بالترتر والحلى وفرقعة زجاجات الشمبانيا بلا توقف وذهاب وإياب الخدم والهمس المتصل الذى يصدر عن الأثرياء عندما يجتمع الكثير منهم، كل هذا أثار فيه بالغ الإعجاب. قال لنفسه: هذا ما أريده لنفسى، حتى وإن تحملت فى سبيل ذلك هذه الموسيقا التى ليس لها مذاق ولا تنتهى أبداً. شاء سوء طالعه أن يستمع إلى "تريفون وكاسكانت""، أوبرا أسطورية ومتكلفة لم تعرض على مسرح الليسيو إلا مرة واحدة ومرات أخرى نادرة على مسارح العالم.

ساعة الإفطار اقتربت منه ديلفينا. حتى قبحها لم يخفِ آثار السهاد والكرب. سألته إن كان رأى بعلزيزل مصادفة. قال: كلا، كيف لى أن

أراه؟ قالت ديلفينا فى يأس: له عدة أيام مختفياً. فرد هو: لم نفقد شيئاً هاماً.

إفرين كاستلز كان ينتظره على باب أرض المعارض. وما إن رآه بادره: إن الأمور تسوء، منذ يومين وأنا أرى شخصين يبدو أنهما يراقبانك؛ فى بداية الأمر ظننت أنهما فضوليان، إلا أنهما يتماديان فى ذلك. أنا متيقن من أنهما لا يعملان هنا. أخذا يسألان عنك. قال أونوفرى:

– ربما كانا من الشرطة.

– لا أعتقد، ليس هذا أسلوب الشرطة.

– من هما إذن؟

– لا أعرف يا صديقى، لكن هذا الموضوع لا يعجبنى! لا أدرى إذا كان ينبغى لنا أن نأخذ إجازة؛ لقد قمنا بتصفية المكان تماماً.

هكذا كان الأمر. مسح أونوفرى ببصره تلك الإنشاءات الهائلة التى كان شاهداً على مولدها تقريباً. فحين جاء إلى المتنزه للمرة الأولى، قبل ذلك بعام واحد، لاحت أرض المعارض ساحة معركة. أما الآن فتبدو ديكور حكاية من حكايات الساحرات الطيبات. فهناك كل شىء زاهٍ وغير متجانس ومتفاوت. عندما قدم المجلس التقنى للمعرض مشروعه الأول إلى العمدة مزقه بيديه وزعق: هذا الذى أحضرتموه لى ليس سوى سوق كراكيب وما أريده أنا لوحة فنية. والآن مر عامان ونصف العام واضطروا إلى التنازل إزاء التعقل، ومع ذلك تحققت رغبات العمدة على نحو مُرضٍ. جلس أونوفرى ومارد كاليا على قطعتين من الحجر الجيرى فى مواجهةِ كوخ نباتات متسلقة أقامته شركة التبغ الفلبينية. مواطن فلبينى شبه عار كان يرتعد ويلف سجائر جالساً القرفصاء على باب ذلك الكوخ. كانوا أحضروه خصيصاً من باتتجا وأخبروه بألا يتحرك من مكانه إلى أن ينتهى المعرض. علموه أن يقول *au revoir* للزوار. فإذا تلبدت السماء نظر إلى أعلى فى هلع، خشية أن تطاله ذراع إعصار هو وكوخه فتلفهما وتعيدهما إلى باتتجا وهما يدوران حول أنفسهما

كالخذروف. فكر أونوفرى: كل هذا بلا طائل، فضلاً عن أنه بلا معنى؛ ونحن أيضاً كذلك تقريباً، أحلامنا، أعمالنا، لا شىء. أجابه إفرين كاستلز: كلا، هدئ من روعك يا صديقى. أنت ذكى جداً وسوف تجد للأشياء معنى.

دخل حجرة العرافة دون أن يطرق الباب. كانت المحتضرة راقدة فى الفراش مغمضة العينين تغطى نفسها بالبطاطين حتى ذقنها. التفت أونوفرى إلى أى حد كانت طاعنة السن على ضوء الشمعة المتراقصة داخل مزيتة حزينة مثبتة فى مسند الفراش. كان على وشك الإمساك بمقبض الباب لكى ينصرف حين قالت العرافة: أونوفرى، أهذا أنت؟ رد هو: واصلى النوم يا ميكائيلا، جئت فقط لأرى إن كنت تحتاجين شيئاً. همست العرافة: أنا لا أحتاج إلى شىء يا بنى بل أنت. تلوح غارقاً فى خضم الحيرة. سأل أونوفرى مذعوراً إذ إن العجوز لم تفتح عينيها حتى:

- كيف عرفت؟

- لا أحد يأتى لزيارتى ما لم يكن نهباً للحيرة يا ولدى. لا أحتاج أن أكون عرافة لإدراك ذلك. أخبرنى: ماذا ألم بك؟

- ميكائيلا، اقرئى لى المستقبل!

- آه يا ولدى، إن قواى منهكة الآن. لم أعد من هذا العالم.كم الساعة الآن؟

- الواحدة والنصف تقريباً.

-لم يبق لى وقت. سأموت فى الرابعة والثلث. لقد أبلغونى بذلك. إنهم فى انتظارى، أتعلم؟ سرعان ما سألحق بهم. طوال حياتى أستمع إلى أصواتهم والآن سأضم صوتى إلى خورسهم وشخص ما من هذا العالم سيسمع صوتى. كذلك الأرواح لنا دوراتنا. سأحل محل روح مكدود. سأحل محله ليتمكن هو فى منتهى الأمر من الراحة فى سلام الرب. أعلم أن الأب بيثانثيو يقول إن الشيطان ينتظرنى لكن ذلك ليس صحيحاً. الأب بيثانثيو رجل صالح لكنه شديد الجهل. أعطنى ورقى دون

أن نضيع الوقت. ستجده هناك، فى الصوان الصغير، فى ثالث رف من أعلى.

فعل أونوفرى ما قالته العجوز. فى الصوان كان هنالك ثياب سوداء مكورة، أغراض مختلفة وعلب من ورق الأرز ربطت بأشرطة حريرية. فى الرف المشار إليه وجد كتاب صلوات قديماً ومسبحة ذات حبات بيضاء وأسورة من الفل الطبيعى الفاسد، وكذلك ورق لعب فأخذه وسلمه للعرافة التى فتحت عينيها. قالت له: قرب هذا الكرسى يا بنى واجلس إلى جانبى، لكن، قبل ذلك، ساعدنى على الجلوس... هكذا، هكذا أفضل، شكراً. يجب أن نؤدى الأشياء جيداً لئلا نأتى بسخف ولئلا يسخروا منا حين يروننى أصل إليهم. بسطت غطاء الفراش وفوقه تسع أوراق إلى أسفل بحيث تؤلف دائرة. وقالت: دائرة الحكمة، واسمها "مرآة سليمان" كذلك. هذا مركز السماء وهنا المجموعات النجمية الأربع بعناصرها. بيدها كانت ترسم دوائر فى الهواء وهى تمد إبهامها. ثم وضعتها فوق ورقة. قالت وهى تقلبها: بيت التدابير أو الزاوية الشرقية. وأرى أنك ستعيش مديداً وستصبح ثرياً وستتزوج من امرأة رائعة الجمال وستنجب ثلاثة أولاد وستسافر، ربما، وستتمتع بصحة جيدة.

- حسناً يا ميكائيلا، لا ترهقى نفسك أكثر، هذا كل ما أردت معرفته.

- انتظر يا أونوفرى، لا تذهب. ما قلته لك فى التو أكاذيب. لا تذهب يا أونوفرى. الآن أرى ضريحاً مهجوراً، فى ضوء القمر. هذا يعنى ثروة وموتاً. وأرى ملكاً، الملوك أيضاً معناهم الموت، لكن معناهم السلطة كذلك، فهذه طبيعتهم. والآن أرى دماً: والدم رمز المال وكذلك الدم. والآن؟ ماذا أرى؟ أرى ثلاث نسوة. أونوفرى، قرب كرسياً واجلس هنا، عند رأس الفراش.

- أنا هنا يا ميكائيلا.

- أنصت إذن إلى ما أقوله لك يا بنى. أرى ثلاث نساء. واحدة فى

منزل العكوسات والكرب والآلام. هذه ستجعل منك رجلاً ثرياً؛ الأخرى فى منزل الأوقاف الذى هو أيضاً دار الأطفال. هذه سوف تصل بك إلى الذروة. الثالثة والأخيرة فى منزل الحب والمعارف البحتة. هذه ستسعدك. فى المنزل الرابع هنالك رجل، ارعه، فهو فى دار التسمم والنهاية المأسوية.

- لا أفهم شيئاً مما تحكينه يا ميكائيلا!

- آه يا ولدى، هذه حال النبوءات دائماً، صائبة ولكن فى غير دقة. هل تعتقد أنها لو كانت على نحو آخر كنت سأحتضر الآن فى هذا البنسيون الوضيع؟ ما عليك إلا أن تستمع وتتذكر. وحين يحدث ما أتنبأ به ستتعرفه فى الحال، ربما لا يفيدك كثيراً، لكنه يهدئ، على الأكثر. لكن، لنعد إلى الورق، فليتحدث الورق. أرى ثلاث نساء.

- هذا قلته بالفعل يا ميكائيلا!

- لم أنته بعد. واحدة ستجعلك ثرياً، الأخرى ستصل بك إلى القمة وأخرى ستسعدك. من ستسعدك ستتعسك: ومن ستصل بك إلى القمة ستجعل منك عبداً لها: ومن ستكون السبب فى ثرائك ستلعنك. من بين الثلاث، هذه الأخيرة أخطرهن، لأنها قديسة، قديسة معروفة. سيسمع الرب لعنتها ولكى يعاقبك سيسلط عليك رجلاً، الرجل الذى يتحدث عنه الورق، هذا الرجل تعيس. لا يعرف أن الله خلقه فى هذا العالم كى ينفذ انتقامه.

- وكيف سأتعرفه؟

- لا علم لى: نحن دائماً نتعرف هذه الأمور. على أية حال، لا تبديل للنتيجة، فالأمر سواء. مكتوب عليك أن يكون هو من يقضى عليك. من غير المجدى أن تواجهه فأسلحته وأسلحتك مختلفتان. سيكون هنالك عنف وموت. سيلتهمكما التنين معاً، لكن لا تخف، التنانين مخيفة لكن كل قوتها فى زئيرها وفى اللهب الذى يخرج من أفواهها. خذ حذرك من العنزة لأنها رمز الحقد والخداع ولا تنهكنى بالعمل فأنا متعبة.

هكذا ختمت حديثها. انزلقت الأوراق من فوق الغطاء وتناثرت على الأرض. وهى تركت رأسها يسقط على الوسادة وأغمضت عينيها. ظن أونوفرى أنها ماتت، رفع مصباح الزيت من مكانه وقرب ذبالته من وجه العجوز. اهتز اللهب، مازالت تتنفس. لملم الورق من الأرض ووضعه داخل الصوان. قبل أن يحفظه خلط الورق بعناية حتى لا يطلع شخص آخر على مستقبله. ثم خرج على أطراف أصابعه من حجرة العرافة المحتضرة وآب إلى حجرته. فى فراشه جعل يفكر فيما سمعه فى التو ويحاول أن يجد له معنى.

ظلت ديلفينا تذهب إلى السوق كل يوم. وحين يرينها قادمة بدون القط كانت البائعات يشعرنها بثقل حقدهن المتراكم خلال سنوات من الرعب: كن يرفضن أن يبعن لها أو كن يفعلن بعد أن تنتظر طويلاً؛ أو كن يتوجهن إليها بألقاب ساخرة، كن يدعونها "المتسكعة" أو لا يتحدثن إليها؛ أو يحتلن عليها فى الحساب فإن احتجت سخرن منها فى وجهها. فى إحدى المرات رمينها ببيضة فاسدة فى ظهرها فلم تفعل شيئاً لإزالة أثر البيضة من ردائها. ولم يعاود أونوفرى رؤية سيسينيو ولم يكن يعلم شيئاً عنه لكن انطباعاً توطد لديه بأن النقاش والخادم لم يعاودا اللقاء منذ ليلة موت بعلزبول. ميكائيلا كاسترو توفيت أيضاً فى نفس الليلة التى قرأت له فيها الورق. فى الفجر دخل الأب بيثانثيو حجرتها فوجدها ميتة. أغلق جفنيها وأحيا ضوء مصباح الزيت وأخبر أصحاب البنسيون وبقية النزلاء. دفنت فى اليوم التالى وصلّوا عليها فى كنيسة القديس حزقيال. فى صوان حجرتها وجدت عدة أوراق يعرف منها أنها فى الحقيقة لم تكن تدعى ميكائيلا كاسترو وإنما اسمها باستورا لويت ماديرو. ساعة وفاتها كانت تبلغ من العمر أربعاً وستين سنة. لم تُجدِ طريقة للتوصل إلى أى قريب لها ولم تترك إرثاً يبرر القيام بتحريات أدق. ديلفينا أبدلت ملاءات فراش الميتة بأخرى بنفس القذارة وشغل

الحجرة فى نفس ذلك اليوم شاب يدرس الفلسفة. لم يقل له أحد إن شخصاً مات على نفس الفراش قبل ذلك بساعات قلائل. بمرور الوقت هذا الطالب أصيب بلوثة لكن لأسباب أخرى.

بجوار أحد أبواب دخول المتنزه، من ناحية طريق الجمرك، كان هنالك جناح ليس كبير الحجم، مغطى بالقاشانى من الداخل والخارج، أطلق عليه "جناح المياه الأزوتية". انتهى العمل فيه فى أواخر يناير لكنه ظل خاوياً حتى منتصف شهر مارس. تمكن أونوفرى بوفيلا وإفرين كاستلز من الحصول على نسخة من مفتاحه. هناك راحوا يخزنون المسروقات. فى اليوم السابق كان الأطفال - اللصوص استولوا على طرد ساعات. واحتاروا ماذا سيفعلون بكل تلك الساعات. ساعات جيب عادية، ساعات للأبراج والمنشآت العامة، ساعات دقاقة، ساعات بعقرب ثوان مستقل، ساعات كرونومترية للجيب، للبحرية، ساعات ببندول ثوان، ساعات فلكية وكرونومترية للرصد الفلكى وعلمية، ساعات مائية، ساعات رملية، ساعات تنظيم، ساعات معقدة تشير إلى عناصر الدورات الشمسية والقمرية، ساعات كهربية، ساعات - مزاول خاصة، ساعات تقيس انقلاب الشمس، ساعات قطبية: ساعات أفقية، ساعات رأسية تحدد الجهات الأصلية، ساعات رأسية تحدد خط الزوال، بزوايا ميل؛ ساعات تحدد الجنوب، ساعات تحدد الشمال، بزوايا ميل أو بتحديد الزوال؛ عداد مسافات؛ عدادات مختلفة تستخدم فى البناء والصناعة والقاطرات وماكينات الجر، أجهزة لتنظيم حركة البؤر الضوئية عامة، أجهزة ترصد الظواهر الطبيعية وتثبتها وتسجل تفاصيلها، أجهزة دقيقة لتطبيقات متعددة، أجهزة للتجارة والأسعار، قطع غيار ساعات من كافة الأنواع والأنظمة، إلخ. هذا ما جاء فى القائمة. قال المارد:

- لا أدرى ما عسانا نفعل بكل هذه الساعات فيما عدا أن يصيبنا خبل من جراء كل هذا "التيك تاك" وكل هذه الأجراس.

(٥)

قبل الافتتاح بعدة أيام التزمت السلطات بتنظيف برشلونة من غير المرغوب فيهم. تقول صحيفة من ذلك الزمن: "منذ وقت قريب تظهر سلطاتنا إصراراً فريداً على تخليصنا من وباء المتسكعين والأوباش والفجار الذين إذ استحال عليهم مزاولة حيلهم الإجرامية فى القرى الصغيرة يبحثون عن حماية مؤقتة فى فوضى المدن الآهلة بالسكان؛ وإن لم تكن السلطات قد استأصلت بالفعل كافة أنواع هذا السرطان الاجتماعى، التى مازالت تنخر وتخرب هذه المدينة الرفيعة الثقافة فيما يصمها بالعار، فإنها بلغت مرحلة متقدمة جداً فى إنجاز هذه المهمة الوعرة". الآن، كل ليلة، ثمة حملات تمشيط. قال بابلو:

- لا تعد إلى هنا حيناً من الوقت، سنحل الجماعة مؤقتاً.

وأونوفرى سأله ما الذى ينوى فعله وأين سيختبئ الآن. هز المبشر منكبيه فلم يكن المنظور العام يرضيه، أضاف بقليل اقتناع: لا يداخلنك شك، سنعاود الهجوم بقوى متجددة. سأل أونوفرى: والمنشورات؟ زم المبشر شفتيه بازدراء: لا منشورات بعد اليوم! أراد أونوفرى أن يعرف مصير أجره الأسبوعى فأجابه بابلو بنبرة تشف:

- ستفقده. أحياناً تفرض الظروف بعض الضيق. فضلاً عن أن هذه قضية سياسية، ونحن لا نضمن الراتب لأحد.

أراد أونوفرى أن يسأل عن شىء آخر لكن المبشر أومأ إليه بأمر، كأنما يقول: اذهب الآن. اتجه أونوفرى صوب الباب، فلحق به بابلو قبل أن يفتحه وقال له: انتظر، قد لا نلتقى بعد الآن، سيكون الكفاح طويلاً... قال ذلك على نحو متسرع، الظاهر أنه كان يريد قول شىء آخر إذ إن شيئاً أهم كان يشغله فى تلك اللحظة ولم يرد الإفصاح عنه، خجلاً أو خرقاً، لذا لجأ إلى البلاغة المعتادة. أضاف:

- فى الواقع لا يمكن لهذا الصراع أن ينتهى. فالاشتراكيون، الحمقى، يعتقدون أنهم بالثورة سيحلون كل شىء؛ ويقولون ذلك لأنهم يظنون أن استغلال الإنسان للإنسان يحدث مرة واحدة، فما إن يتحرر المجتمع ممن يحكمونه الآن سيكون كل شىء قد حل. لكننا نعلم أنه طالما وجدت علاقة من أى نوع سيستغل القوى الضعيف. هذا الصراع، هذا الاحتضار الرهيب هو المصير الحتمى للإنسان.

بعد الانتهاء من هذه الخطبة احتضن أونوفرى قائلاً بصوت خنقه التأثر:

- قد لا نلتقى مرة أخرى إلى الأبد. وداعاً وليكن الحظ حليفك.

فى واحدة من حملات التمشيط تلك سقط السيد براوليو. كان خرج يرتدى زى راقصات الفلامنكو كى يتلقى "علقة" ساخنة على يد القوادين. لكنه فى تلك الليلة، من باب التغيير، تلقاها على يد الشرطة. ثم فرضوا عليه كفالة ليطلقوا سراحه. وهو قال: مستعد لأى شىء فى سبيل ألا يصل أى شىء من هذا إلى علم زوجتى المسكينة المريضة أو ابنتى التى مازالت صبية. لما كان لا يحمل مالاً أرسل صبياً إلى البنسيون يطلب قيمة الكفالة - التى حددها السيد القاضى - من ماريانو، الحلاق. أوصاه: قل له إننى سأردها فى أقرب وقت. فى البنسيون، زعم ماريانو ألا نقود معه. قال: "لا سيولة لدى"، وكان ذلك كذباً فاضحاً. عاد الرسول جرياً إلى قسم البوليس ونقل إلى السيد براوليو حرفياً رفض الحلاق. وحين رأى السيد براوليو نفسه فى طريقه إلى فضيحة بلا مفر انتهز عدم التفات رجال الشرطة الذين يحرسونه ورشق المشط الذى تتزين به راقصات الفلامنكو فى قلبه لكن دعامات الكورسيه الذى كان يرتديه جعلت أسنان المشط تنحرف عن مسارها فلم تصبه سوى بخدوش سال منها دم كثير فلوث تنورته وما تحتها ببقع الدم وكذلك أرضية قسم الشرطة. سلبه الحراس المشط وركلوه فى إليته وكليتيه وصرخوا فى وجهه: لعلك تتعقلين أيتها القذرة! عاود السيد براوليو إرسال الصبى إلى

البنسيون، قال له من "الدكة" الضيقة الراقد عليها متألماً ونازفاً: هناك، ثمة ولد يدعى بوفيلا، أونوفرى بوفيلا، اسأل عنه فى تكتم. لا أعتقد أن معه سنتيماً لكنه سيعرف كيف يساعدنى. وحين ذهب الرسول لتنفيذ المهمة قال لنفسه: إما أن يساعدنى هو وإما لا عون لى. أخذ يفكر فى أى شىء يمكنه استخدامه كى ينتحر مرة أخرى إذا لم يخرجه أونوفرى من هذه الورطة. جعل يكلم نفسه: كل هذا سببه رأسى الأخرق. فى البنسيون، كان أونوفرى بوفيلا يستمع إلى الرسول واعتبر أن الحظ حليفه. قال للصبى: أخبر السيد براوليو بأننى قبل الفجر سأذهب بنفسى إلى قسم الشرطة ومعى المبلغ، وألا ينفد صبره وكفاه حماقات اليوم. وبعد ذهاب الصبى ارتقى الدرج وطرق باب حجرة ديلفينا. وحين أفصح عن نفسه قالت هى: لا أرى مبرراً كى أفتح لك. وإزاء هذا الرد الجاف لم يتمكن أونوفرى من كبح جماح ابتسامة. قال بنعومة:

– من الأفضل أن تفتحى يا ديلفينا. والدك فى ورطة، الشرطة قبضت عليه فحاول الانتحار، ها أنت ترين خطورة الأمر.

فتح الباب وظهرت ديلفينا فى إطاره تسد الطريق إلى الداخل. كانت ترتدى قميص النوم المهترئ الذى رآها به مرتين سابقتين: حين ذهبت إلى حجرته تعرض عليه عملاً وحين ذهب هو إلى حجرتها بحثاً عنها ليقودها إلى حيث كان سيسينيو ينتظرها. من الحجرة المجاورة تناهى صوت السيدة أجاتا المتألم:

– ديلفينا، الطست.

حين سمعتها، أتت ديلفينا بإيماءة نفاد صبر. قالت لأونوفرى: لا تضايقنى، على أن أحمل الماء إلى أمى.

لم يتحرك أونوفرى من مكانه. فى عينى الخادم رأى الخوف مرتسماً فبث فيه الشجاعة. قال من بين أسنانه: فلتنتظر، أنا وأنت لدينا أمور أهم بين أيدينا. عضت ديلفينا شفتها السفلى قبل أن تتكلم: لا أدرى ماذا تريد.

– والدك فى خطر، ألم أقل لك ذلك؟ مـا بك؟ ألا تفـهـمين؟ هل أصابك بله؟

رمشت ديلفـينا عـدة مـرات، كـأنمـا هذا التـراكم غـيـر المتـوقع من الأحداث الفاصلة حرمها تكوين فكرة عامة على الوضع.

– آه، أجل، والدى – همست فى نهاية الأمر –، ما بوسـعى أن أفعل من أجله؟

– لا شىء – قالها أونوفرى بغطرسـة –، أنا الوحيد الذى يمكننى أن أمد له يد المساعدة فى هذه اللحظة، تتوقف حياته على.

شحب لون ديلفينا وخفضت عينيها. دقت ساعة كنيسـة القديس حزقيال عدة مرات. سأل أونوفرى: كم السـاعة الآن؟ فأجابته: الثالثة والنصف. لكنها، بلا تردد، أضافت: إذا كنت بالفعل تستطيع مساعدته لم لا تفعل؟ ماذا تنتظر؟ ماذا تريد منى؟ من الحجرة المجاورة لم تتوقف توسلات المريضة: ديلفينا، ماذا هنالك؟ لم لا تأتين؟ ما هذه الأصوات يا بنيتى، مع من تتحدثين؟ أتت ديلفينا بإيماءة كأنها تهم بالخروج إلى الدهليز، وهو انتهز هذه الحركة ليمسك بها من منكبيها ويضمها إليه فى عنف. لم تكن تحكم تصرفه الرغبة بل الوحشية، وطالما لم تتحرك هى ظل هو سـاكناً؛ ولكن بادرة الفرار التى بدرت من الخادم الآن يبدو أنها أنذرت ببداية معركة. الآن بدأ يشعر بجسد ديلفينا النحيل تحت قماش قميص نومها الثقيل. وهى لم تصارع، واستحالت نبرة صوتها متضرعة، قالت: دعنى من فضلك، من القسوة أن تجعل أمى تنتظر، قد تأتيها النوبة إن لم أخف إليها. لم يكن أونوفرى يلتفت إلى كلماتها، قال وهو يدفعها: ها أنت تعرفين ما عليك أن تفعليه إن أردت رؤية أبيك مرة أخرى حياً. دخلا معاً غرفتها وهو أغلق الباب بقدمه، فيما كان يحاول بيديه، على نحو أخرق، أن يجد أزرار القميص. قالت الخادم: أونوفرى، بحق الإله، لا تفعل هذا! وهو ضحك خفيضاً وقال متشفياً: لا جدوى من مقاومتك، الآن ليس لديك القط ليحميك، بعلزبول مات، سقط من فوق

القرميد وتهشمت ضلوعه على الأرض، أنا نفسى ألقيت ببقاياه المثيرة للغثيان فى البالوعة. ثم صاح: يا للشيطان! لم يتمكن من فك أزرار قميص نومها؛ لم يكن إلى ذلك الحين قد جرب التعامل مع ملابس النساء، والآن تنضم استثارته إلى قلة خبرته. وحين لاحظت الموقف المحرج الذى كان هو فيه، تهالكت هى مستلقية بظهرها على الفراش ورفعت قميصها حتى ردفيها وقالت: هيا، تعال.

حين نهض دقت ساعة كنيسة القديس حزقيال تمام الرابعة. قال: ستبزغ الشمس بعيد قليل، وعدت السيد براوليو أن أكون فى قسم الشرطة ومعى المبلغ قبل الفجر وأنا عند كلمتى، العمل هو العمل - أضاف وهو ينظر إلى ديلفينا. كانت الخادم تنظر إليه بعينين ملغوزتين. همست كأنما تحدث نفسها: لا أدرى لم حكت كل هذا، فأنا لا أستحق كل هذا المجهود. ضوء الفجر الواهى أخذ بلون جسد الفتاة، وفوق فوضى الملاءات بدت بشرتها خابية، شبه رمادية. فكر أونوفرى: ما أشد نحافتها! ذهنياً كان يقارن جسد ديلفينا بأجساد نساء عمال المعرض اللائى كان رآهن على الشاطئ يتخففن من قسوة الصيف بمعابثة الموج شبه عاريات. فكر: يا للغرابة، كم أراها مختلفة الآن! ثم رفع صوته قائلاً: تغطى! وهى غطت جسدها بطرف الملاءة. شعرها المجعد والمشعث رسم هالة حول وجه ديلفينا. سألته: أستذهب؟ وهو لم يقل شيئاً لكنه انتهى من ارتداء ملابسه فى عجلة. كانت السيدة أجاتا قد توقفت عن النداء. اتجه أونوفرى صوب الباب. هناك أوقفه صوت ديلفينا:

- انتظر، لا تذهب بعد. لا تتركنى هكذا. ماذا سيحدث الآن؟

انتظرت وهلة رد أونوفرى لكنه لم يفهم السؤال حتى. وهى غطت وجهها بيدها اليسرى ثم سألت بعد لحظة توقف:

- ماذا أقول لسيسينيو؟

حين سمع هذا الاسم أطلق أونوفرى قهقهة، قال:

- لا يجب أن تشغلى بالك به: لديه زوجة وأولاد، كان يخدعك طوال الوقت، إذا كنت تنتظرين شيئاً من هذا الوغد فما أخطأك!

حدجته ببصرها، همست فى نبرة هادئة:

- يوماً ما سأخبرك بشىء؛ يوماً ما سأكشف لك عن سر؛ والآن، اذهب!

هبط أونوفرى إلى الطابق الأول وانتظر مختبئاً إلى أن ذهب الأب بيثانثيو إلى الحمام وأخرج المبلغ المطلوب من مرتبة القس. وبذلك المبلغ أخرج السيد براوليو من قسم الشرطة ونقله إلى البنسيون فى عربة أجرة لأنه كان فى حالة إعياء بعد أن فقد دماً كثيراً. استقبلتهما ديلفينا بتقلصات ومغص شديد. كانت تقيأت وأصابتها نوبة إفرازات شديدة. كانت تخشى أن تحمل من أونوفرى بوفيلا فاستخدمت غسولاً صناعة منزلية له آثار مثيرة للغثيان، موضعياً وعن طريق الفم. لاحت فى النزع الأخير.

صاح السيد براوليو:

- ابنتى، ماذا ألم بك؟

- وأنت يا أبى؟ بهذه الملابس... ويغطيك الدم؟

- الدم والعار يا ديلفينا، يا ابنتى العزيزة، كما ترين. وأنت، ماذا فعلت؟

- الشىء نفسه يا والدى، فعلت مثلك.

- لا يجب أن تعلم أمك المسكينة بذلك، خاصة هى.

عندما دخلوا لرؤيتها كانت حالة السيدة أجاتا قد ساءت. وكان الأب بيثانثيو قد أصابه الفزع حين سمع التأوهات والنحيب الصادر من الطابق الثالث فصعد بقميص نومه ليرى إن كان بمقدوره أن يفعل شيئاً. اختبأ السيد براوليو فى صوان حتى لا يراه الكاهن فى زى متسكعة وأرسله أونوفرى ليحضر صديقه الطبيب ذاك الذى فحص ميكائيلا كاسترو. حين تخلصت من الكاهن انتحت به ديلفينا جانباً وقالت له:

- ارحل عن البنسيون ولا تعد. لا تتعطل لحزم أغراضك حتى. لقد حذرتك ولن أقول لك أى شىء آخر. وعليك أن تفعل ما يناسبك.

دون أن يتوقف ليفكر فيما يعنيه ذلك التهديد أدرك أونوفرى أن ديلفينا لم تكن تمزح وفر من البنسيون. كان لون السماء ضارباً إلى الحمرة وزقزقت العصافير والعمال كانوا متوجهين إلى أعمالهم وهم يحملون صغارهم بين أذرعهم كى يناموا نذراً أطول من الوقت، إلى أن يصلوا باب المصنع. هناك يوقظونهم ثم يتفرقون: البالغون إلى الأماكن الخطيرة وإلى الأعمال القاسية؛ والأطفال إلى الأعمال الأبسط.

حين بلغ متنزه القلعة رأى البالون المربوط يرتفع فوق قمم الشجر وصوارى المراكب. كان المهندسون يجربون تشغيله ويتأكدون من قوة أحباله. فلم يكن الأمر يحتمل أن يخلع البالون الأحبال فى أثناء انعقاد المعرض وينطلق مع الريح وسلته محتشدة بالسياح المرتعبين. كان الاهتمام "بالسائح"، كما كان يقال حينئذ، هو مركز كافة أنواع الرعاية فى تلك الأيام. لم تكن الصحافة تتحدث إلا عن ذلك، فكانت تقول: "كل واحد من الزوار عندما يعود إلى بلده يتحول إلى مبشر وداعية لما رأى وسمع وتعلم". والبالون الأسير كان يعمل على نحو رائع؛ إلا إذا هبت تلك الريح الشريرة المعروفة باسم "ريح جاريى"، فإنه يظهر سمتاً غاضباً ويقف على رأسه. هذا الصباح، حدث مرتين أن تدلى المهندس الذى يقوده من إحدى قدميه المشدودة إلى حبل والقلق ظاهر عليه. كانت تلك أشياء بلا أهمية، أعطال آخر لحظة، التى ينبغى أن نحسب دائماً حسابها. كان قوس النصر هو مدخل المعرض. هذا القوس، الذى يمكننا أن نشاهده إلى الآن، كان مشيداً من الآجر وعلى الطراز المدجن. نقشت على القوس شعارات المقاطعات الإسبانية وشعار برشلونة فى مفتاح العقد. وكان ثمة كذلك إفريز على الجانبين، وعلى الإفريزين نقوش تمثل هذين المشهدين: انضمام إسبانيا إلى معرض برشلونة العالمى (فى ذكرى

الخلافات التى حدثت) ثم برشلونة فى وضع تقديم الشكر لحضور الأمم الأخرى. فى كلا الإفريزين لم يكن الترميز دقيقاً. كان قوس النصر يؤدى إلى صالون سان خوان، طريق شديدة الرحابة، محفوفة بالأشجار ومغطاة بالفسيفساء ومزينة بمصابيح وكذلك بثمانية تماثيل برونزية ترحب بالزائر. فى صالون سان خوان أقيم قصر العدل الذى مازال قائماً؛ وقصر الفنون الجميلة وقصر الزراعة وقصر العلوم التى اندثرت. كان ثمة عمودان يدخل منهما إلى المتنزه نفسه. وعلى كل عمود مجموعة نحتية من الحجارة. الأولى تمثل التجارة والثانية الصناعة، كأنما يقولان: لا تنتظروا منا سوى نتائج. هذه الأيديولوجية ضايقت الحكومة المركزية الأميل إلى مواقف أكثر روحانية وربما أقنعتها هذه المواقف، إلى جانب نقص الأموال، بإسداء عون أكثر مادية للجهود المبذولة. هذان العمودان مازالت رؤيتهما ممكنة.

قال لنفسه وهو يتذكر أجزاء مما حدث قبل ذلك بساعات: كيف لإفرين، الحمار، أن يحصل على النساء بلا أدنى مجهود فيما أضطر أنا، الأذكى منه بكثير، إلى تكبد كل هذه المضايقات؟ لم يجد قط رداً شافياً على هذا السؤال. ولا هو عثر على إفرين كاستلز فى ذلك الصباح مهما ارتاد الأماكن المتفق عليها. سار على قدميه حتى بلغ الشاطئ. فرقة من العمال كانت تزحف الرمل لتزيل آخر آثار المعسكر الذى وجد هناك خلال أكثر من عامين. قطاع من الشاطئ تم تعميره وأقيمت فيه عدة أجنحة: جناح بناء السفن، وجناح شركة عابرة المحيطات، وكلاهما يمت بصلة إلى البحر؛ والجناح المخصص لعرض فحول الجياد التى يسمع صهيلها ما إن يخف صخب الموج. وهنالك مرسى به مطعم ينتهى فى البحر. كانت الشمس تومض على سطح الماء وتبهر عينى أونوفرى بوفيلا. لم يكن يعلم أين ذهبت النسوة والأطفال الذين كانوا يعيشون إلى وقت قريب على الشاطئ. هب نسيم ربيعى ومكثف ودافئ.

تلك الليلة عاد إلى البنسيون. كان المدخل خاوياً وصالة الطعام

كذلك. شاهد رأس ماريانو الحلاق يطل. سأله الحلاق: ماذا تفعل هنا؟ لقد أصبتنى بالذعر. فسأله أونوفرى بدوره: ماذا حدث يا ماريانو؟ أين ذهب الجميع؟ لم يستطع الحلاق تكوين الجمل. وكان من الذعر بحيث كانت بشرته بيضاء كأنه دهنها بالدقيق. قال:

- جاءت الشرطة وأخذت السيد براوليو والسيدة أجاتا وديلفينا. اضطرت إلى إخراج الثلاثة على نقالة. السيدة أجاتا لأن حالتها كانت سيئة جداً وفى النزع الأخير، والسيد براوليو وابنته لأنهما كانا ينزفان بلا توقف. ربما لم تلتفت إلى أن المدخل غارق فى الدم لأن المكان معتم. يبدو أنه يتجلط الآن. إنه دم الاثنين، الأب والابنة، مختلطاً. لا أدرى أسيحملونهما إلى السجن أم إلى المستشفى أم سيدفنونهما مباشرة. مجرد تذكر المشهد يثير غثيانى، أيها الصبى. مع أنى فى أدائى لوظيفتى رأيت الكثير. ومـاذا؟ ولماذا أخذوهم؟ كيف لى أن أعرف؟ فهم لم يجيئوا ليقدموا تفسيراً. سمعت شائعات، هذا صحيح. يقولون إن الفتاة، المسخ تلك، من جماعة الأشرار، أولئك الذين يدعونهم الفوضويين. لا أقول إن ذلك صحيح! بل ما سمعته. وطبعاً النساء، كما تعلم... الظاهر أنها كانت لها علاقات وتعاملات، من أى نوع؟ لا أدرى، مع رجل من الجماعة أيضاً، نقاش ومن الجماعة. عن طريق وشاية سقط النقاش ومن ورائه الفتاة والباقون.

- وأنا يا ماريانو، ألم يسألوا عنى؟

قال الحلاق بنبرة تشفٍّ:

- بلى، الآن أتذكر، أعتقد أنهم جاءوا يسألون عنك. فتشوا كل الغرف وغرفتك بعناية أكثر من غيرها. سألونا فى أية ساعة اعتدت العودة وأنا قلت لهم فى ساعة الغروب. لم أقل لهم إن بينك وبين الشغالة أمراً، لأننى فى الحقيقة لا علم لى بذلك. رأيت أشياء ولاحظت أشياء لكن، رسمياً، لنقل، لا أعلم أى شىء. الأب بيثانثيو قال لهم إنك لم تعد ترتاد البنسيون؛ وإنك رحلت عنه منذ أيام. ولأنه يرتدى مسوح الرهبان

صدقوا أكاذيبه لا حقائقى. لذا لم يتركوا أى حارس نوبة.

أطلق ساقيه للريح، وفيما يفر أخذ يفكر: ديلفينا بلا ريب هى التى وشت به، حقداً عليه، ولكى تنتقم من سيسينيو ومنه وشت بكل التنظيم. هى قالت له أن يرحل عن البنسيون دون أن يضيع الوقت، قالت له: اذهب دون أن تأخذ أغراضك ولا تعد. أرادت إنقاذه من الوقوع فى يد الحرس المدنى. فى المقابل كان سيسينيو فى ذلك الوقت رهين الحبس وكذلك بابلو نفسه، حتى ديلفينا نفسها. فكر: فى المقابل، أرادت ديلفينا إنقاذى مع أنى فى الواقع المتسبب فى كل هذه الورطة، يا لها من فوضى! على أية حال، ينبغى الاختفاء من برشلونة: بمرور الوقت ستعود المياه إلى مجاريها، وسيخرج الفوضويون من السجن إن لم يتم إعدامهم قبل ذلك، وهو أيضاً سيعود إلى أعماله وربما تمكن من لم شمل عصابة الاطفال - اللصوص بل ومن إقناع الفوضويين بأن من الافضل التفرغ للأنشطة المريحة وبأن الثورة التى يحلمون بها غير مجدية. لكن، الفرض، مؤقتاً، هو الفرار. بيد أنه، قبل ذلك، عليه أن يستعيد المال الذى لم يزل فى البنسيون، داخل مرتبة الأب بيثانثيو. المغامرة بالعودة إلى المنطقة خطر محقق. فلا ريب من أن ماريانو، الحلاق النذل، أبلغ الشرطة ما إن أولاه ظهره. لكن التخلى عن المال لا، - فكر - مستحيل. من طيب الطالع أنه يعرف كيف يتصرف: حصل من المعرض على سلم يدوى حمله إلى مكان قريب من البنسيون. اضطر إلى عبور نصف برشلونة وهو يحمل السلم لكنه لم يلفت انتباه أحد. بعد ذلك، فى جنح الظلام استند بالسلم إلى الواجهة الصماء للبناية، كما كان يفعل سيسينيو. ثم صعد إلى السطح، هناك كان يلتقى على مدار عامين سيسينيو وديلفينا. كان يعرف مكان الفتحة التى تؤدى إلى السطح، فمنها كان صعد إلى السطح لدهان القرميد بالزيت. كان الطابق الثالث خاوياً وشاغلوه فى السجن. لو أن هناك حرساً يكمن له فسيكون فى الدور الأرضى ينتظر رؤيته وهو يدخل من الباب لا من السطح. العتمة السائدة كانت مواتية لخططه، وهو

وحده كان يحفظ كافة أركان المنزل عن ظهر قلب، وفى وسعه أن يذرعه دون أن يتعثر. هبط الطابق الثانى ودفع باب غرفة الأب بيثانثيو وأنصت إلى تنفس القس النائم فاختبأ تحت الفراش وانتظر. حين دقت ساعة كنيسة عذراء القريان تمام الثالثة نهض القس وخرج من الغرفة. لن يتأخر فى العودة أكثر من دقيقتين ولا أقل من ذلك أيضاً: فى حدود هذا الهامش الزمنى كان عليه أن يتحرك. أدخل يده فى المرتبة واكتشف أن المال قد طار. ضيع الوقت فى تحسس قش المرتبة وتفتيشه فكان يتكسر بين أصابعه. لكنه كان يدرك أنه غير مخطئ: المال لم يكن هناك. سمع الأب بيثانثيو عائداً من الحمام. فكر فى التعلق برقبته وخنقه إلى أن يكشف له عن ما آل إليه ماله، لكنه تخلى عن فعل ذلك. فالشرطة إذا كانت هناك وسمعت أى صوت مشتبه فيه ستخف إليه ومعها المسدسات. لابد من الانتظار - قال لنفسه -، انتظار فرصة أسنح من هذه. اضطر إلى المكوث تحت الفراش ساعة وهو يختنق إلى أن عاد القس إلى الحمام. حينئذ خرج من تحت الفراش وجسده مخدر، بلغ الدهليز ثم السلم متسللاً ثم السطح فالشارع. عند الفجر رأى الأب بيثانثيو يمر فى طريقه إلى صلواته. بعد أن تيقن ألا أحد يتبعه خرج للقائه. صاح القس:

- أونوفرى، كم تبهجنى رؤيتك يا بنى. ظننت أننى لن أعاود رؤيتك مرة أخرى - واغرورقت عيناه فى تأثر صادق حين قال ذلك -، ها أنت ترى الأمور الرهيبة التى طرأت. كنت متوجهاً الآن تحديداً لأقيم قداساً من أجل المسكينة، السيدة أجاتا، التى هى أشد من يحتاجه؛ ثم قداساً من أجل السيد براوليو ومن أجل ديلفينا، كل شىء فى موعده.

- عظيم جداً يا أبانا، لكن أخبرنى أين مالى؟

- أى مال يا بنى؟

لا شىء كان يشير إلى أن جهل العجوز لم يكن صادقاً. فكر ربما كانت ديلفينا نفسها هى التى أخفت المال قبل الذهاب إلى الشرطة لتشى بهم؛ أو قد تكون الشرطة عثرت عليه وهى تقوم بالتفتيش؛ ومن المحتمل

حتى أن يكون الأب بيثانثيو قد وجده مصادفة وخصصه لأعمال الخير دون أن يدرك جيداً ماذا يفعل؛ ففى نهاية الأمر كيف لأحد أن يعرف أن هذا المال مالى؟ آه، ما أتعسنى حين لم أنفقه ما أن كسبته كما يفعل إفرين كاستلز!

فى طريقه إلى المعرض، الذى كان يتوجه إليه فى محاولة لإنقاذ جزء مما سرقه الصبية على الأقل، اضطر إلى الانتحاء جانباً كى يمر موكب جميل الهيئة: كانت ثيران المصارعة تنقل من محطة القطار إلى الحلبة كى "تُصرع" هناك خلال الاحتفالات على يد مصارعين مشاهير حينئذ: فراسكويلو، جيرّتيا، لاجارتيخو، كارا - أنتشا. كانت الحيوانات تهز رؤوسها وتطلق طعنات ضد الفضوليين وتتوقف لتتفحص بعيونها القصيرة النظر قاعدة أعمدة الإنارة. عند مرور الثيران* كان بعض الظرفاء يحل منديله ويحاكى بعض الحركات. وكان الفلاحون يضربون الثيران على رؤوسها وكذلك هؤلاء الظرفاء إن بلغوهم. حين وصل متنزه القلعة ذهب إلى الجناح الذى يخبئون فيه الساعات فألفاه خاوياً. فكر: هذه هى النهاية. حين خرج من الجناح احتل رجلان موقعيهما إلى جانبه، واحداً من كل جانب، وأمسكا بذراعيه. لاحظ أونوفرى أن أحد هذين الرجلين فائق الحسن. وفهم كذلك أن أية مقاومة لا نفع منها فترك نفسه لهما يقودانه فى سلاسة. وقبل أن يترك أرض المعارض ألقى بنظرة إلى الخلف: تم طلاء الأجنحة بين عشية وضحاها والآن تومض تحت الشمس؛ ومن بين ثنايا أغصان الشجر التى يحركها النسيم لاحت أكشاك وتماثيل، مظلات وشمسيات والقباب الصغيرة العربية الطراز التى تزين أماكن وأكشاك العرض. فى باحة السلاح، فى مواجهة الترسانة القديمة، مهندسون قادمون خصيصاً من إنجلترا كانوا يجربون "النافورة السحرية". حتى مختطفاه فغرا فاهيهما وهلة. كانت أعمدة

---

* يشار هنا إلى الثيران المخصية التى تقود ثيران المصارعة إلى داخل أو خارج الحلبة وليس إلى الأخيرة، والاختلاف هنا أن ثور المصارعة لا يضرب ولا يعاقب كى يحتفظ بنبله.

وأقواس الماء تغير أشكالها وألوانها دون تدخل ظاهر من أحد أو إضافة أية صبغات: كل ذلك كان من فعل الكهرباء. فكر أونوفرى وهو يترك نفسه لمصيره الذى قد يكون الموت: على هذا النحو يجب أن تكون دائماً الحياة. جعل يسأل نفسه: وإفرين؟ بعد كل هذه البزيتات التى أنفقتها عليه والآن حين أحتاجه لا أجده! أين ذهب؟ لم يكن يرتاب ولو من بعيد فى أن إفرين يتبعه، فى وفاء، عن كثب، من مكمنه.

حين بلغوا عربة قالا له:

- اصعد هذه العربة.

كانت ستائر نوافذ العربة مسدلة ولا يمكن تعرف من بداخلها إن كان بداخلها أحد. على مقعد السائق كان ثمة حوذى بلا زى، عجوز بعض الشىء ويدخن غليوناً. قال أونوفرى:

- أنا لن أصعد هذه.

كان أحد المختطفين فتح باب العربة وأحاط به الآخر. قال له: إلى أعلى دون أن تفتح فمك! وأونوفرى أطاعه. جالساً كان هنالك رجل وحيد. لاح فى الخمسين لكنه قد يكون أصغر سناً؛ كبير البطن والخبب لكنه نحيل المنكبين والوجنتين وله جبهة مستقيمة وعالية تنتهى بزاوية قائمة. هنا نمت فروة رأس لم تشب بعد إلا عند الصدغين وقلمت كالعشب. لم يكن له فودان. كان حليق الذقن من طرف الأذن إلى طرف الأخرى رغم أنه له شارباً كثاً وإلى أعلى، قريب الشبه من مارشالات فرنسا، كان السيد أومبرت فيجا إى موريرا، الذى كان سيعمل لديه لسنوات طويلة.

فى ذلك الحين، كان موكب أى ملك كثير العدد لمبررات ذات طبيعة عملية وأخرى رمزية، الأشد ثقلاً، كهذا المبرر: بما أن الملك يمثل الرب على الأرض فمن العيب أن يؤدى أية وظيفة بما فى ذلك رفع الملعقة إلى فمه؛ ولهذا المبرر الآخر: أن ملوك إسبانيا منذ عهود سحيقة لم يكونوا يستغنون عن أى ممن خدمهم وليكن لفترة وجيزة، فكل خدمة مؤداة

لقصر الملك تعنى الحصول على وظيفة مدى الحياة، ذكرت حالات لملوك فى سن النضج ذهبوا إلى الحرب ومعهم مرضعتهم العجوز، والمربية (لأن الملك لم يكن بوسعه أن يقول: لا أحتاج إلى شىء من هذا، وهو ما يعنى، من ناحية، حاجته إلى التوفير، ومن ناحية أخرى، اعترافه بأنه فى مرة من المرات احتاج إلى شىء) كأنهما القهرمان أو رئيس الخدم أو الحاجب، مما كان يخلق حوله متاهة أو زحاماً ويحول بينه وبين اتصال قادته العسكريين به فى حالة الحرب، ووزرائه فى حالة السلم. لذا لم يكن الملوك يغادرون البلاط قط. وجلالة الملك دون ألفونسو الثالث عشر، حفظه الله، كان عمره سنتين ونصف السنة فى عام ١٨٨٨، حين جاء إلى برشلونة فى رفقة والدته دونيا ماريا كريستينا، الملكة الوصية على العرش، وأخواته وحاشيته. أصيبت المدينة بالشلل. جهز للملك مقر إقامة حاكم القلعة القديم (وبذلك أيضاً يقيم داخل أرض المعارض ويتم تلافى إجراءات الدخول المحرجة، حيث كان سعر الدخول يومياً بزيتة واحدة، وخمساً وعشرين بزيتة لبطاقة الدخول الدائمة) والمبنى المسمى "الترسانة" للحاشية، أما الحجاب والنظار، الصيادون والسُّياس، القناصون وملاحظو الأعمال، الرماة وأمناء الخزانات والشماعون ومطرزو البُسُط وموزعو الصدقات والوصيفات والمضيفات والقهرمانات ووصيفات الشرف فقد تم تسكينهم على قدر المتاح. فحضور الملك والملكة والنبلاء وكبار الشخصيات من دول أخرى عقّد الأمور. وجرت وقائع طريفة ترضى كافة الأذواق، مثل هذه: اضطر حاكم مدينة ساكسونى إلى أن يتقاسم فراشاً مع فنان جاء لتوه من باريس يعمل فى سيرك الخيل، حسبما جاء فى الإعلان، لكنه فى اليوم التالى أعلن عن عرض للقطط المدربة؛ أو قصة المحتال الذى انتحل شخصية امبراطور المغول وتمكن من العشاء مجاناً وبوجهه الجميل فى عدة نُزُل ومقاه. والناس، أهل برشلونة، تفانوا فى إزالة العقبات من طريق الزائر وإن اضطروا إلى تكبد المتاعب والأضرار التى كانوا يتلقون فى مقابلها

نكراناً، كما هى العادة فى مثل هذه الأحوال. فالزائرون، عامة، كانوا يبدون ترفعاً ويجعدون أنوفهم لأقل سبب، وراحوا يقولون: يا للقرف، أى مكان هذا، ما أحمق هؤلاء الناس، إلخ... ظناً أن الازدراء هو الأنسب.

تم افتتاح المعرض الدولى، كما كان مزمعاً، فى يوم الثامن من أبريل. كانت وقائع مراسم الافتتاح كالتالى: فى الرابعة والنصف مساء دخل قاعة الاحتفالات بقصر الفنون الجميلة صاحب الجلالة الملك وحاشيته. اعتلى الملك العرش. كان يستند بقدميه، اللتين كانتا تبلغان الأرض، إلى مجموعة من الوسائد، وإلى جانبه أميرة أشتوريس، دونيا ماريا دى لاس مرثيديس والأميرة دونيا تيريسا. وإلى جانب الملكة الوصية على العرش، المتشحة بالسواد، دوقة أدنبره. ثم، بهذا الترتيب، دوق جنوة ثم دوق أدنبرة فالأمير روبرشت أمير بافاريا فالأمير جورج أمير ويلز. ومن خلفهم رئيس مجلس الوزراء دون براكسدس ماتيو ساجاستا والسادة وزراء الحرب والدعم والبحرية، ثم السادة وصفاء الملكين، عظماء إسبانيا الذين حضروا الاحتفال (محوطين بالحرس الملكى، حسب امتيازهم كلٌ، أو بدونهم إذا أرادوا التناوب على هذا الشرف) ثم السلطات المحلية (بحللهم المذيلة)، ثم السلك الدبلوماسى والقنصلى ثم المبعوثون فوق العادة والجنرالات والأدميرالات وقادة الأساطيل ومجلس إدارة المعرض وعدد لا يحصى من الشخصيات. كان ثمة خدم بكلسونات قصيرة فضفاضة، طراز "فيديريكا"، موزعون على المكان إلى حيث حملتهم الكتلة البشرية وكلفتهم بحمل شعارات الزائرين النبلاء أو المفتاح أو السلسلة النحاسية أو الشريط أو السوط أو الحربة أو الكيس الجلدى أو الرمح أو الجرس. حضر هذا الاحتفال خمسة آلاف شخص. بعد إلقاء الكلمات، حمل المربون الأطفال أصحاب السمو الملكى فيما زار الكبار بعض الأجنحة بدءاً بجناح النمسا، موطن صاحبة الجلالة الملكة. فى جناح فرنسا عزف لحن لشوبان وفى قصر الحاكم قدمت وجبة كانت تسمى حينئذ Lunch. حين انتهت الملكة من الـ Lunch كان آخر

الحضور مازال يدخل جناح النمسا. عدد غفير كان شاهداً على ذلك. ليلاً أقيم عرض خاص على مسرح الليسيو حضرته الملكة التى كانت ترتدى، إلى جانب الملابس، تاج قومس. ثم عرض "لونجران": مع بداية الفصل الثانى كان بعضهم لا يزال يتناول الوجبة. على وجه العموم، كان الافتتاح احتفالاً مهيباً ومنظماً. وأعمال المعرض لم تكن تقل عن مرتبة من زارها فى ذلك اليوم. بعض البنايات لم تكن انتهى العمل به بعد: والبعض الآخر، الذى كان اكتمل منذ فترة طويلة، ظهرت عليه مظاهر التلف المتقدم. تحدثت الصحافة عن "تشققات كبيرة" وعن "اضطراب بالغ". لكن المهم هو أن الناس أعجبت بما رأت. من منظور اليوم، أجنحة العارضين بتصميمها الصارم وأكاليل الزهور المنقوشة على الخشب والكريب الأسود والسقائف تلوح توابيت جنائزية، لكنها تنطبق على ذوق العصر ومفهوم الأناقة حينئذ. إذ ينبغى الحكم على الأمور من منظورها الصحيح. كانت وصلت ميناء برشلونة ثمانية وستين مركباً حربياً من عدة دول عليها تسعة عشر ألف رجل وخمسمائة وثمانية وثلاثون مدفعاً. هذا، الذى قد يبدو الآن كأنه تهديد، فسره البرشلونيون مظهراً جلياً من مظاهر اللياقة والصداقة. لم تكن اندلعت بعد الحرب الكبرى وكانت الأسلحة تحتفظ بشىء من مفهوم الزينة. فى قصيدة نظمت فى تلك المناسبة - يجمل فيديريكو راؤلا هذا المفهوم:

دوى مدافع مستمر
يرجف الأرض:
هى وحوش الحرب
تسجد للسلام.

نفس الفكر يعبر عنه ملتشور دى بالاو فى قصيدته: "نشيد لافتتاح المعرض"، حيث يقول أحد أبياتها:

ويرعد دون أن يجرح المدفع المخيف

استمرت أبواب المعرض العالمى مفتوحة للجمهور حتى يوم التاسع

من ديسمبر ١٨٨٨. كان حفل الختام أبسط من الافتتاح: قداس شكر فى الكاتدرائية ومراسم قصيرة فى قصر الصناعة. استمر مائتين وخمسة واربعين يوماً وزاره أكثر من مليونى شخص. تكلفة الإنشاءات بلغت خمسة ملايين وستمائة وأربعة وعشرين ألفاً وستمائة وسبعة وخمسين بزيتة وستة وخمسين سنتيماً. استخدمت بعض المرافق فى أغراض أخرى. باقى الدين كان باهظاً وأثقل كاهل بلدية برشلونة بالديون أعواماً طويلة. وبقى كذلك ذكرى أيام الازدهار وفكرة أن برشلونة، إن شاءت، يمكنها أن تعود مدينة كوزموبوليتانية.

الفصل الثالث

(١)

عن دون أومبرت فيجا إى موريرا نعلم القليل من الأشياء: ولد فى برشلونة حيث كان لأبويه محل متواضع لبيع المكسرات فى الرفال؛ درس تحت حماية رهبان تبشيريين؛ هؤلاء المبشرون كانوا توقفوا عرضاً فى برشلونة بعد أن تعرضوا لتقلبات سياسية فى أراض بعيدة، وقاموا بمهام تعليمية حتى لا يكونوا عبئاً مفرطاً؛ ثم درس القانون. تم زفافه متأخراً، فى الثانية والثلاثين من عمره. مهنياً حقق ازدهاراً كبيراً: فى الأربعين كان له واحد من مكاتب المحاماة الشهيرة فى برشلونة؛ ولكنها لم تكن سمعة طيبة، والآن سنرى لمه: على الرغم من أحداً فى منتصف القرن التاسع عشر لم يكن يرتاب من أن كل الناس سواء أمام القانون، كان الواقع جد مختلف، فالأشخاص المنتسبون إلى الأمن، أولاد الذوات، كانوا يتمتعون بحماية لا يتمتع بها رجل الشارع الذى كان يجهل حقوقه وإن عرفها لا يستطيع ممارستها، وحتى وإن تمكن من ذلك فإن من المشكوك فيه أن يعترف له القضاء بها، كان مصيره أن يخسر دائماً. فى هذا الصدد كان لدى القضاء أفكار قليلة لكنها غاية فى الوضوح. ففى ذلك العصر ساد الإيمان بالعلم، ولم يكن هنالك أمر أو ظاهرة لا ترجع إلى سبب محدد، هكذا كانوا يفكرون. فإذا تمكنا من تحديد سبب كل أمر على حدة سيكون بوسعنا صياغة قانون لا يتغير لكل الحالات المتناظرة، وبحفنة من القوانين التى لا تتغير بوسعنا التنبؤ بالمستقبل بلا خوف من الخطأ. هذا نفسه كان ينطبق على السلوك البشرى: إذ يبحثون له عن مبررات يمكن اختصارها إلى قوانين. فى هذا الحقل كانت هنالك نظريات لكل الأذواق: زعم البعض أن العامل الوراثى هو الحاسم والمؤثر فى كل ما يفعله الفرد طوال حياته؛ فيما رأى آخرون أنها البيئة التى ولد فيها؛ وبعض ثالث التربية التى تلقاها، وهكذا. وهنالك من تحدثوا عن

الجبر والاختيار، لكن حججهم كانت مفندة، فيقال لهم: بهذه النظرية لن نتقدم شيئاً. كان قانون الحتمية هو المهيمن إذ جعل ييسر الأمور على نحو كبير، خاصة لمن عليهم أن يحكموا على السلوك البشرى. ولم يكن القضاة يزدرون القضاء بل يطبقون العدالة على طريقتهم، فى الحال. لم يكونوا مستعدين للخوض فى التفاصيل: كانوا يلقون نظرة على المتهم وفى الحال يعرفون كيف يكونون فكرة عنه. فإذا ارتكب شخص رقيق وكريم المحتد والموارد جريمة يقولون: مبرر قهرى ربما دفعه كى يسلك مسلكه. ويبدون تفهماً عميقاً. فإذا كان مرتكب الجريمة من عامة الناس فلا يبحثون عن دوافع لسلوكه ولا يتعبون أنفسهم. فى رأيهم، ليس فقط الطبع المتوارث من الآباء إلى الأبناء يدفع بهم إلى الفوضى بل لأن هذه الميول لا يعضدها الدين ولا الضمير المتحضر ولا الثقافة كذلك. فى هذا كانوا يتفقون وعلماء الاجتماع. فإن دفع المتهم بظروف مخففة أو طلب العفو أجابوه بنبرة هازئة، قائلين: بوسع المتهم أن يسوق ما يحلو له من ظروف، فيا له من لئيم هذا المتهم، كلا، كلا، ارموه فى غيهب السجن! والغرض من السجن تأهيل السجناء، بيد أن النتائج لم تكن مرضية. بعد هذا كله، والأمور على هذه الحالة، كانت للسيد أومبرت فيجا إى موريرا، وكان من أصل متواضع، رؤية مغايرة، أكثر عملية، كان يقول: ما يحدث لهؤلاء المساكين الذين يجرمون هو أنهم لم يجدوا محامياً جيداً يخرجهم من ورطتهم. كانت تلك هى الحقيقة: ما كان لأى محام أن يضع موهبته فى خدمة أحد من العامة. كانوا جميعاً يرغبون فى خدمة علية القوم، البيوتات العريقة. ولما كان هؤلاء نادرين فإن المحامين الذين يكسبون قوت يومهم جيداً كانوا نادرين أيضاً. كان السيد أومبرت فيجا إى موريرا يقول لنفسه: فى الفقراء حقل فسيح لم يستغل؛ المشكلة ترتكز فى كيف نستغله، وبالطبع مادمت مغموراً ولا علاقات لى بوجهاء القوم فإن الجهد الذى أبذله فى شق طريق لى فى الدوائر العليا هو نفسه الذى سأبذله مع أهل القاع. بدأ يزور المعوزين، يقدم لهم مساعدته وعلمه، وطبع

بطاقات خاصة أسهل فى قراءتها من البطاقات المعتادة المطبوعة بخط قوطى. كان يقول للمعوز: "إذا أوقعت نفسك فى روطة تذكرنى"، ثم يعطيه البطاقة. كان الفقراء ينظرون إليه فى ارتياب؛ دون أن يعيروه انتباهاً، فيسخرون منه أو يسبونه. ثم إن بعضهم حين يقع فى ورطة بالفعل كان يتذكره ويبحث عن بطاقته، قائلاً لنفسه: ماذا سأخسر لو جربته؟ فإن ذهبت إلى السجن كما هو محتمل لا أدفع له وينتهى الأمر. كانوا يكلفونه بالقضايا الميئوس منها فيقبلها بصدر رحب ويعامل موكليه معاملة طيبة بلا استهزاء أو تفضل من جانبه ويعمل فى القضايا بجدية شديدة. فى مبدأ الأمر ظن القضاة وممثلو الادعاء أنه يقوم بذلك من قبيل فعل الخير فحاولوا تبصيره: لا تضيع وقتك، أيها الزميل العزيز، هؤلاء الناس من طينة خبيثة وهم مجبولون على الإجرام، هم "لحم سجن". كان ينصت إلى تلك المقولات باحترام لكنه لم يكن يأخذ بها، فهو فى الحقيقة متفق مع ما يقولونه لكن ما كان يهمه هو كشف الحساب. كان تعلم على يد المبشرين، فعلموه الصبر، أن يقول نعم دائماً، وعلموه فن الإقناع، ومعظم القضايا كان يكسبها ضد كل توقع؛ لا أحد مثله كان يعلم دخائل إجراءات التقاضى ويجد دائماً حيلة لتحقيق أغراضه؛ وأمام السخط العام يضطر القضاة والمستشارون إلى النزول على حجته ويلقى ممثلو الادعاء كتب القانون وأروابهم على الأرض، وتفر الدموع من أعينهم فيما يقولون: لا يمكن لهذا أن يستمر على هذا النحو فهم يجبروننا على التحكم فى القانون. كان ذلك صحيحاً: كان القانون سخياً فى الضمانات وكذلك فى الحيل، لأنه لم يوضع لتفيد منه العامة. باغتهم أن يضع محام مثلهم إمكانات القانون لخدمة أسوأ صنف من المجرمين. فى الأحكام التى كانوا ينطقون بها تجلت تلك الحيرة، يقولون: باغتونا فى موقف لا نحسد عليه لكن واجبنا أن ننطق بالبراءة وها نحن نبرئ... إلخ. حتى المجرمين المبرئين أنفسهم لم يكونوا يتمالكون أنفسهم من هول المفاجأة، ويسألونه بفضول خرافى حقيقى: لم تساعدنا أيها

السيد المحامى؟ ويخالون أنفسهم فى حضرة قديس. فيجيبهم: فى مقابل المال، لكى تدفعوا لى أتعابى. والمجرمون، بما هو معهود فيهم من وازع أخلاقى فولاذى، كانوا يسددون أتعابه فى الحال؛ لم يجادلوه قط، هكذا أصبح ثرياً. بعد عدة سنوات، فى ليلة من ليالى الشتاء، تلقى زيارة غريبة.

كان له مكتب فى شارع "سان بدرو" المنخفض: حيث يعمل معه مساعدا محام وسكرتيرة وساع، ويفكر فى التعاقد مع المزيد من المساعدين. فى تلك الليلة، كانوا قد ذهبوا جميعاً فيما عدا الساعى. وهو كان يراجع تفاصيل قضية ستنظر فى صباح اليوم التالى. سمع طرقاً على باب الشارع. فكر: غريب، فى هذه الساعة، من يكون؟ قال للساعى أن يهبط ويفتح لكن عليه قبل ذلك أن يتأكد من أن القادمين، مهما كانوا، حسنو النوايا، وكان التيقن من ذلك فى منتهى الصعوبة فلم يكن يختلف إلى المكتب سوى أشخاص مرعبين. هذه المرة، على العكس من ذلك، لم تكن ثمة مشكلة: فى الشارع كان ينتظر ثلاثة من السادة الوجهاء وشخص ذو مظهر غريب لكنه لا يدعو للقلق. كان السادة يضعون أقنعة على وجوههم، وهو ما لم يكن بأية حال غريباً على برشلونة فى ذلك الوقت. سأل الساعى الزائرين المقنعين:

- أقادمون أنتم بنية حسنة؟

أجابوه أن نعم ثم شقوا طريقهم بتنحية الساعى جانباً بمقابض عصيهم التى تخفى خناجر صغيرة. جلس المتنكرون الثلاثة إلى منضدة طويلة تتصدر إحدى قاعات المكتب. الشخص الرابع ظل واقفاً وتعرف دون أومبرت عليه بلا صعوبة على الرغم من مضى زمن طويل، كان واحداً من أولئك التبشيريين الذين اهتموا بتعليمه والذين يدين لكرمهم بأنه شق لنفسه طريقاً فى الحياة؛ والآن ها قد عاد ربما ليطلب منه صنيعاً لن يستطيع إلا أن يلبيه. حسبما علم فيما بعد، حمله ميله الفطرى إلى إثيوبيا والسودان؛ وهناك، نصر العديد، بيد أنه بمرور

السنين تحول هو نفسه إلى ديانة وثنية كان يحاربها؛ ثم عاد إلى برشلونة مبعوثاً من قبل الدراويش لكى يدعو إلى السحر. كان يرتدى زياً مدنياً لكنه يحمل فى يده اليمنى أنبوباً ينتهى بجمجمة بشرية، وحين يهز الجمجمة يسمع صوت حصى. سأل الوفد المريب:

- ما سبب تشريفكم لى بهذه الزيارة؟

تشاور المقنعون فيما بينهم بالنظر، ثم قال أحدهم:

- لقد تابعنا أعمالك باهتمام كبير، والآن جئنا لنقدم لك عرضاً. نحن من أصحاب الأعمال ومسلكنا لا تشوبه شائبة، لذلك تحديداً نحتاج إلى مساعدتك.

- لو أن بيدى..

- سرعان ما سترى أنها بيدك. كما قلت لك فى التو، نحن شخصيات معروفة، ونراعى بالغ المراعاة سمعتنا الطيبة. وأنت بدورك صنعت صيتاً مستحقاً بين حثالة المجتمع. خلاصة القول، نحن نريد أن يقوم أحد بدلاً منا "بالعمل القذر" على أن تكون أنت وسيطنا. ويسرنا أن نقول إننا لا نلتفت إلى التكلفة مهما تكن باهظة.

صاح: آه، لكن ذلك لا أخلاقى. عند هذه النقطة تدخل المبشر المرتد قائلاً: تنقسم الأخلاق إلى قسمين: أخلاق فردية وأخلاق اجتماعية؛ فيما يختص بالأولى لم يكن هناك مبرر للقلق لأن السيد أومبرت لم يكن يتسامح فى ارتكاب فعل شائن وإنما كان يلتزم بأداء وظيفته، بممارسة مهنته؛ وفيما يتصل بالأخلاق الاجتماعية، لم يكن لديه ما يعارضه: المهم هو الحفاظ على الأمن الاجتماعى، على حسن أداء المجتمع. قال له المرتد: أنت يا بنى أنقذت العديد من المجرمين من سجن مستحق؛ لذلك، فمن العدل الآن أن تدفع آخرين إلى الجريمة وإلى حبل المشنقة وبذلك توازن بين الأمور. كان المقنعون قد وضعوا على المنضدة كومة من النقود. قبل التكليف وسار كل شىء على خير مايرام. ثم انهمرت عليه تكليفات مماثلة. إذ كان يتقاطر كل ليلة سادة مقنعون وعدد ليس قليلاً من

السيدات. وكانت العربات تتسبب فى ارتباك حركة السير أمام بوابة مكتبه. ولما كان المجرمون الحقيقيون لا يخشون شيئاً كانوا يذهبون إلى مكتبه فى وضح النهار وبلا تكتم، فى ساعات الاستشارة العادية. قال لزوجه:

- ما أطيب النحو الذى تسير عليه أمورى كلها!

بمرور الوقت كان يحتاج إلى مزيد من الناس فى خدمته، وليس فقط إلى محامين ومساعدين وسكرتيرات، بل إلى أعوان قادرين على التحرك بطلاقة فى قاع المدينة. وكان يجند هؤلاء العملاء من أى مكان ودون أن يتوقف عند سوابقهم. قال لأونوفرى بوفيلا بعد أن ظل معه على حدة داخل عربته:

- قالوا لى إنك ماهر وإنك تجيد التحرك. ستعمل لحسابى.

- وما نوع هذا العمل؟

- أن تفعل ما أقول وألا تسأل عن شىء قبل الأوان. الشرطة على علم بنشاطك. بغير حمايتى لكنت فى السجن الآن. لا خيار لك إلا هذا: إما أن تعمل من أجلى أو تسجن عشرين سنة.

عمل لدى السيد أومبرت من عام ١٨٨٨ إلى ١٨٩٨، العام الذى فقدت فيه إسبانيا كل مستعمراتها.

كأول مهمة له وضعوه تحت إمرة ذلك الفرد الوسيم الذى اختطفه فى متنزه القلعة، شخص يدعى أودون موستاثا، من مواليد سمورة، فى العشرين من عمره. سلموه مدية وهرواة وزوجاً من القفازات الصوفية؛ وقالوا له ألا يستخدم الهرواة ما لم يكن ذلك ضرورياً وألا يستخدم المدية إلا فى المواقف العصيبة، وفى كلتا الحالتين أن يلبس القفاز قبل أن يمسك بالهرواة أو المدية لكى لا يترك عليهما بصمات أصابعه. قال له أودون موستاثا: الأهم هو ألا يتمكن أحد من الكشف عن هويتك، لأنهم إذا كشفوا هويتك سيكتشفون هويتى وإذا اكتشفوا هويتى

سيكشفون عمن يعطينى الأوامر وهكذا، من واحد إلى آخر كحلقات سلسلة، إلى أن يصلوا إلى الزعيم الذى هو السيد أومبرت فيجا إى موريرا. فى حقيقة الأمر، برشلونة جميعها كانت تعلم أن للسيد أومبرت فيجا إى موريرا تعاملات مع المجرمين وكانت طبيعة نشاطه سراً "معلناً"، ولكن بما أن السلطات والعديد من الشخصيات السياسية وأصحاب الأعمال كانوا متورطين فى هذا الموضوع لم يكن هنالك ما يخشى منه. كان علية القوم يحافظون على المسافة بينهم وبين السيد أومبرت فيجا إى موريرا، لكنهم، فى العلن، يعتبرونه من الشخصيات الهامة. وهو لم يكن يفهم ذلك الازدواج فى المشاعر وخال نفسه ينتسب إلى أرستقراطية المدينة وكان سعيداً. وفى مجده شارك على نحو غير مباشر أودون موستاثا وبقية العصابة، فإذا التقوا مصادفة عند الظهر بالقرب من شارع جراثيا يقول بعضهم لبعض: هيا بنا إلى شارع جراثيا كى نشاهد مرور السيد أومبرت. وهو كان يرى هناك كل يوم دون أن يتخلف يوماً على ظهر فرسه الشريشية الرفيعة الجمال. مرتدياً قفازه كان يحيى الفرسان الآخرين أو هو بقبعته العالية المخملية الخضراء الضارية إلى الزمردى يحيى السيدات اللائى يتنزهن فى عرباتهن التى تجرها "جذوع" رائعة. كان أودون موستاثا وأعوانه ينظرون إليه من بعيد، فى مداراة، حتى لا يمسوا صيته بدليل ملموس من مثل معرفتهم به. كان يقول لأونوفرى بوفيلا: لك أن تشعر بالفخر أيها الولد أن يكون رئيسك هذا الرجل الأكثر أناقة فى برشلونة والأقوى أيضاً. هذه الصفة الأخيرة كان مبالغاً فيها فلقد كان السيد أومبرت فيجا إى موريرا مغموراً حتى إنه فى مجاله كان هنالك من هو أقوى منه: السيد أليكساندرى كانالز إى فورميجا. لم يكن أحد يرى هذا الرجل متألقاً بوجهه الجميل فى شارع جراثيا على الرغم من أنه لم يكن يسكن بعيداً عنه، فلقد أمر بتشييد برج من ثلاثة أدوار، على الطراز المدجن العربى، فى شارع ديبوتاثيون، على بعد أمتار قلائل من الشارع الآخر الشهير. والمكتب الذى مات فيه

كان يقع فى شارع بلاتيريّا. وبين مكتبه ومنزله انصرمت حياته كلها. فقط أحياناً، كان يذهب إلى الأراجيح القائمة بجانب منزله فى أرض فضاء مصطحباً ابنه، المعتوه قليلاً. كان أنجب ثلاثة أطفال آخرين، بيد أنهم لقوا حتفهم جميعاً فى وباء الطاعون لعام ١٨٧٩.

فى البدء كلفوا أونوفرى بوفيلا بأعمال ضئيلة الأهمية ولم يتركوه قط يعمل وحده. كان يرافق أودون موستاثا إلى الميناء، ليراقب تفريغ البضائع؛ فى مرات أخرى كانا ينتظران على باب منزل، دون أن يعرفا السبب، إلى أن يقال لهما: حسن، الآن كل شىء على مايرام، بوسعكما الذهاب، إلخ. ثم كان عليهما أن يبلغا كل شىء لشخص يدعوه أودون موستاثا "مرجريتو"، واسمه فى الحقيقة أرناو بونثيا، وكان دخل فى خدمة السيد أومبرت فيجا إى موريرا قبل ذلك بأعوام كثيرة. كان واحداً من مساعديه فى البداية وازدهر فى ظله ثم تحول تدريجياً إلى واحد من أقرب معاونيه وحينئذ كان يراجع كل اتصالاته مع الأشرار وكل العمليات القذرة. كان قصير القامة وله مظهر مريض ويرتدى نظارة سميكة وشعراً مستعاراً فى مقدمة الرأس بلون السبج، وله أظافر طويلة وغير نظيفة؛ قليل الهندام وأميل إلى اللزوجة، كان متزوجاً ويقال إن له أبناء كثيرين، غير أن أحداً لم يكن يعلم ذلك علم اليقين لأنه كان منطوياً على نفسه ولم يكن له أى صديق حميم. كما كان دقيقاً ومتحرزاً وفطناً إذ لم يلبث أن أدرك قدرة أونوفرى الخارقة على تذكر تواريخ وأسماء وأرقام، وذاكرته المعجزة. فى هذا الصنف من النشاط الدقة هى الأساس - كان يقول ذلك لأبنائه الذين يحاول أن يمنحهم تعليماً مجتهداً -، لأن أى خطأ هنا قد يسفر عن كارثة. هذه الطريقة فى التفكير هى التى جعلته يلتفت فى الحال إلى مواهب أونوفرى بوفيلا. فيما بعد جعل يرى فيه خصالاً أخرى أثارت ريبته. فيما كان أونوفرى بمنأى عما يثيره من اهتمام فى الآخرين، يحاول ألا يلفت الأنظار إليه، ولا يعرف أن الذكاء كالغباء، من الوعر إخفاؤه ويظن

بالفعل أن أحداً لم ينتبه إليه. ولأول مرة كان يحيا الحياة.

كان أودون موستاثا متبجحاً من النوع الوسيم والخالع العذار والمحب للصحبة، فلم يكن فى برشلونة ولا فى ضواحيها مكان لهو لا يعرفونه فيه ولما كان فضلاً عن وسامته مرحاً ومسرفاً كانوا يرحبون به فى كل مكان. فى صحبة أودون موستاثا كون أونوفرى بوفيلا دائرة من الأصدقاء دون أن يدرى. من قبل، لم يكن حظى بشىء من هذا. كان انتقل إلى نزل أفضل قليلاً من الذى كان يديره السيد براوليو والسيدة أجاتا وهناك، لما رأوه يحتكم على دخل ثابت، راحوا يعاملونه باحترام كبير. كان يخرج كل ليلة تقريباً مع أودون موستاثا وفرقته، معاً يرتادون حانات برشلونة. هناك التقى العديد من النساء اللائى كن على استعداد لاستخراج ماله مقابل مفاتنهن، مقابل لحظات متعة؛ هذا التبادل لاح له عادلاً ومريحاً؛ يناسب طبيعته. أحياناً يتذكر ديلفينا فيقول لنفسه: كم كنت أحمق، أية مشقة وأى عذاب بلا ضرورة، مع أن كل شىء يسيرا كان يعتقد أنه برأ من لواعج الحب. مع مقدم الصيف كانوا يرتادون الشرفات الشهيرة ذات المظلات التى تعجبه على نحو خاص: الثريات والبسط وباقات الزهور الورقية والزحام والفرق الموسيقية المتصببة عرقاً، أريج العطور، الرقصات التقليدية فى مثل هذه الأماكن: "فالس الشموع" إلخ. إلى تلك الشرفات ذات المظلات كانت تذهب الفتيات فى ريعان الصبا، كن يذهبن جماعات، يمسك بعضهن بأذرع البعض ويضحكن لكل ما يرين، فإذا قال أحدهم شيئاً لواحدة منهن يضج بالضحك جميعهن ثم لم تكن هنالك طريقة لإسكاتهن فيضحكن لأقل سبب. من بين هؤلاء البنات كانت بائعات السمك الأكثر مرحاً وجرأة والخادمات الأكثر سذاجة والخياطات الأخبث والأخطر. كانوا يذهبون أيضاً إلى حى لابرثيلونيتا، إلى حلبة مصارعة الثيران. وبعد المصارعة يذهبون لاحتساء الجعة أو النبيذ الأحمر بالمياه الغازية فى الحانات المحيطة بالحلبة، وهناك يستمر السامر الصاخب حتى الصباح. فى

مناسبة أخرى رغب فى زيارة المعرض العالمى، حديث كل الناس حينئذ. برشلونة جميعها كانت فى عيد: فقد وجه نداء إلى أصحاب البنايات كى يرمموا واجهاتها، وإلى أصحاب العربات كى يعيدوا طلاءها وينظفوها، وإلى الجميع لكى يهتم بهندام الخدم. ولخدمة الزائرين الأجانب انتخبت البلدية مائة من الحرس البلدى من بين من لاح أكثر ذكاء وأجبرتهم على تعلم الفرنسية فى بضعة أشهر، والآن يغدون ويروحون بالمدينة كالأرواح المعذبة يلوكون عبارات غير مفهومة وكان الأطفال يتبعونهم ويطاردونهم مقلدين أصواتهم الحلقية ومطلقين عليهم اسم البصاق. ذهب وحده ودفع ثمن تذكرة الدخول. أعجبه أن يدخل أرض المعارض من الباب كالسادة. ترك نفسه إلى حيث يحمله الزحام ثم تناول وجبة فى المقهى - المطعم المسمى "قلعة التنانين الثلاثة" (الذى عمل فى إنشائه ١٧٠ رجلاً يعرف أغلبهم باسمه) ثم زار متحف مارتوريل وديوراما مونسرات والمقهى التركى و"الأمريكان سودا ووتر" ومحل عصير اللوز البلنسى وجناح أشبيلية، ذا الطراز العربى، إلخ. استخرج لنفسه صورة فوتوغرافية (فقدت) ثم دخل قصر الصناعة. هناك رأى جناح عرض ماكينات بالدريك وفيلاجران وتابيرا، أولئك السادة الثلاثة الذين رآهم فى باسورا، أعاد ذلك إليه ذكرى نحسة، وأحس بغليان الدم فى عروقه: أحس بالاختناق وفاق الزحام احتماله واضطر إلى الخروج من هناك بأقصى سرعة وشق طريقه إلى الخارج بمرفقيه. فيما بعد، فى الخارج، تراءى له ذلك العرض المبهر مزحة مشؤومة، فلم يكن فى وسعه فصله عن الصعاب والبؤس الذى كابده هناك قبل ذلك بشهور قلائل؛ لم يعد ثانية إلى المعرض ولم يرد أن يعرف عنه شيئاً.

فى المقابل، حياة الليل فى برشلونة القديمة، التى لم تتأثر بأبهة المعرض، التى تحيا حياتها على هامش كل شىء، كانت تثير حماسه، شعر نحوها بحماس ريفى. كلما استطاع ذهب وحده أو فى رفقة أعوانه إلى مكان اسمه لامبورى دى لاباتاكادا. هذا المكان كان صاخباً وكريه

الرائحة ويحتل بدروم منزل بشارع أويرتو دى لا بومبا. نهاراً كان كئيباً وموحشاً وصغيراً؛ فقط بدءاً من منتصف الليل زبائن أغلاظ ومتفانون هم وحدهم الذين يحيونه؛ فيبدو المكان لمن يراه كأنه بعث من جديد ونما حجمه، فهناك دائماً متسع لشخصين آخرين ومناضد للجميع. وعند الباب يقف دائماً ولدان مزودان بقنديل لإنارة الطريق وبندقية لردع المعتدين. وكان ذلك ضرورياً لأن المكان لم يكن يرتاده فقط الأشرار، الذين بوسعهم أن يدافعوا عن أنفسهم وحدهم، بل أيضاً شباب داعر من عائلات محترمة وآنسات برفقة صديق أو مغازل أو الزوج، يغطين وجوههن بغلالة كثيفة؛ هناك، كانوا يجربون انفعالات قوية ويتخففون من رتابة حيواتهم بالمفاجآت ثم كانوا يحكون ما رأوا بمبالغة فى التفاصيل. كان هناك رقص وفى ساعات محددة لوحات حية. هذه اللوحات الحية شاعت فى القرن الثامن عشر لكنها اختفت تماماً تقريباً فى نهاية القرن التاسع عشر. وتتلخص فى مشاهد ساكنة يقوم بها أشخاص حقيقيون، يمكن أن تكون مشاهد من "الأحداث الراهنة" (صاحبا الجلالة ملكا رومانيا يستقبلان السفير الإسبانى: الدوق العظيم نيقولا فى زى حامل رمح مع زوجته، إلخ...) أو ذات طابع "تاريخى"، أو "تعليمية" (انتحار أهل نومانثيا، موت تشوروكا، إلخ...) لكن الشائع منها كان "دينياً" أو "أسطورياً". هذا النوع الأخير من اللوحات الحية كان الجمهور يحتفى به أكثر من غيره لأن كل الشخوص أو أغلبهم من العراة. بالنسبة إلى أهل القرن التاسع عشر الخروج عارياً يعنى أن ترتدى الشخصية رداء ملتصقاً وبلون الجسم. لم يكن ذلك كذلك لأن الناس كانت أكثر حياء من اليوم بل لأنهم كانوا يعتبرون، وهم على حق، أن الممتع هو شكل جسم الإنسان وأن رؤية البشرة أو الشعر مباشرةً ليست إيروسية بقدر ما هى مَرَضية. فى هذا الحقل كانت العادات قد اعتورها تغير ملحوظ: ففى القرن الثامن عشر، وكما هو معروف، لم يكن يعطى أى اهتمام للعرى، فالناس كانت تتعرى جهاراً بلا أى اعتراض ودون أن ينال ذلك من

احترامهم، والرجال والنساء كانوا يستحمون أمام المدعوين ويبدلون ملابسهم أمام الخدم ويتبولون ويتبرزون فى الطريق العام، إلخ... وهذا مسجل بشكل ملح فى يوميات ومكاتبات تلك الحقبة، فيمكننا أن نقرأ فى يوميات دوقة***: "عشاء فى منزل***، مدام***، كالمعتاد، ترأس المائدة عارية. وفى موضع آخر نقرأ: حفل راقص فى منزل الأمير***، الجميع عراة تقريباً فيما عدا رئيس الدير*** المتنكر فى زى فراشة، حدث كثير من المزاح.

فى لامبورى دى لا بتاكادا كانت فرقة من أربعة موسيقيين تبعث البهجة فى الرقص؛ وكان الفالس قد حظى بقبول كافة طبقات المجتمع، أما الباسودوبلى والتشوتيس* فكانتا مقصورتين على العامة، ولم يكن التانجو قد ظهر بعد. فى الحفلات، استمر أبناء البيوتات يرقصون الريجودون والمازوركا والمينويه ورقصة حاملى الرماح؛ والبولكا والجاوا كانتا تلهبان حماس أوربا، لكن ليس فى قطلونيا؛ كما أن الرقصات الشعبية، مثل ساردانا ولاخوتا، إلخ، كانت محظورة فى أماكن مثل لامبورى دى لا بتاكادا. كان المكان شديد الحرارة فى شهور الصيف لذا كانت فترة ازدهاره فى الخريف، والعواصف تسوط الشوارع والبرد يدعو إلى الانزواء. ومع مقدم الربيع كانت شرفات المقاهى وحفلات الرقص فى الهواء الطلق تستأثر بجزء كبير من زبائنه. وسط ذلك الصخب الدائم كان أونوفرى بوفيلا يفعل ما فى وسعه كى يقضى وقتاً طيباً. أحياناً يتمكن من ذلك، لكنه عامةً ورغم ما يبذله من جهد ظل قلقاً ومتوتراً: لم يتمكن قط من التمتع تماماً بما يقدمه ذلك المناخ من تسلية، لم يلغ عقله قط لينغمس فى تلك الدوامة. وكان أودون موستاثا، الذى بدأ يكن له مودة عظيمة بل ويشعر إلى حد ما بأنه مسؤول عن راحته، قلقاً لرؤيته دوماً جاداً فيقول له: هيا يا ولد لم لا تدع جانباً الهموم وليكن للحظة قصيرة لا غير؟ لم لا تتسلى؟ انظر، هؤلاء الإناث، ألسن

* رقصتان إسبانيتان.

يذهبن بعقل المرء؟ فكان أونوفرى يرد على ذلك بعذوبة، مبتسماً: لا تحاول إجبارى يا أودون، فالتسلية ترهقنى كثيراً. هذا التناقض كان يثير ضحك أودون موستاثا: ما كان ليعى أن أونوفرى يقول الحقيقة. فالنأى عن أفكاره ولو لدقائق ربما تطلب منه جرعة هائلة من الطاقة، فبجهد خارق فقط يكون فى وسعه التخلص اللحظى من ذكرى ذلك الصباح الرهيب الذى حضر فيه إلى منزل والديه شخص غريب الأطوار. كان العم تونيت أحضره فى عربته من باسورا. كان يلبس سترة حائلة وصدارة من طراز قديم ونظارة وقبعة عالية. ويحمل أيضاً حافظة جلدية منتفخة. ويحاول تجنب أن يطأ حذاؤه برك الماء ويحاذى بعناية أكوام الجليد الثقيل والقذر الباقية فى كل مكان؛ كل شىء كان يثير خوفه؛ خفق جناحى طائر على غصن كان يبث فيه رعباً شديداً. قدم نفسه فى إطناب شديد ثم أسرع إلى الجمرات المتقدة فى المدفأة يدفئ نفسه. من الباب المفتوح، شمس فبراير دخلت حتى منتصف الحجرة. ذلك الضوء، المشرق رغم أنه لما يزل بارداً، نفح الأشياء صورة محددة، كأنما خطت بقلم رصاص حاد جداً. هذا الرجل بادر قائلاً إنه يتحدث باسم من أرسلوه، السادة بالدريك وفيلا جران وتابيرا. هو ليس إلا مساعد محام يعمل فى مكتب فى باسورا؛ ورجاهم ألا ينظروا إلى الأمر الذى سوف يعرضه عليهم على أى محمل شخصى. قال: لقد كلفت بهذه المهمة البغيضة ويؤسفنى أن اضطر إلى إنجازها، لكن مهنتى تتلخص فى تنفيذ الأوامر. أضاف ذلك بإيماءة شفقة لم يدر أحد إلى من يوجهها. أومأ الأمريكى إيماءة نفاد صبر بيده، كأنما يقول: من فضلك، لندخل مباشرة فى الموضوع. تنحنح مساعد المحامى وقالت والدة أونوفرى إن عليها أن تطعم الدجاج. أضافت وهى تنظر إلى عينى زوجها: سيرافقنى الولد وهكذا بوسعكما أن تكونا على راحتكما. فقال زوجها إن الأمر لا يستلزم ذهابهما. أضاف: من الأفضل أن تمكثا وتسمعا ما سيقوله هذا السيد. أخذ مساعد المحامى يفرك يديه بلا توقف كأن دخان الجمرات

أصاب حلقه. فى صوت جد خفيض، قد لا يسمع، أخبر الأمريكى أن من أرسلوه قرروا أن يرفعوا دعوى احتيال ضده. قال الأمريكى: هذا اتهام جد خطير، أرجوك فسر ما قلت. فسر مساعد المحامى الأمر بعبارات مرتبكة وخرقاء. يبدو أن جوان بوفيلا أوهم الجميع فى باسورا بأنه عاد من أمريكا واسع الثراء، وزار كل أصحاب الصناعات والمال فى المدينة بزيه الغريب وأبلغهم بأنه يبحث عن مشروع مضمون يستثمر فيه ثروته. بهذه الذريعة حصل على مقدمات وقروض كما حصل على هبات. وبما أن الوقت كان يمر وذلك الاستثمار الذى وعد به لم يتحقق فإن السادة بالدريك وفيلاجران وتابيرا، الذين بذلت مؤسستهم أكبر قدر من المال لمصلحة الأمريكى، قرروا إجراء تحرياتهم. قال مساعد المحامى فى الحال: أجريت هذه التحريات بكل الحرص والحذر الذى تتطلبه مثل هذه الحالة. هذه التحريات كشفت النقاب عما كان يرتاب فيه الجميع: جوان بوفيلا لم يكن يملك سنتيماً واحداً. أضاف مساعد المحامى: "وهذا احتيال بلا أدنى شك"، وفى الحال شحب لونه وأسرع يقول "إن هذا التأكيد القاطع لا ينطوى على أى حكم أخلاقى من جانبه". فهو لم يكن سوى أداة لإرادة الغير، وعاد يضيف: وليكن ذلك هو ما يعفينى من مسؤولية الضرر الذى قد أسببه لكم. كسرت الأم الصمت الذى تبع تلك الكلمات، قالت: جوان، عم يتكلم هذا الرجل؟ والآن جاء دور الأمريكى كى يتنحنح. وفى نهاية الأمر اعترف بأن كل ما قاله مساعد المحامى هو الحقيقة عينها. كان كذب على الجميع: فى كوبا، حيث أثرى حتى البُلهاء فى تلك الحقبة، لم يتمكن حتى من كسب ما يكفى ليعيش بلا ضائقة. قال فى خجل: والقليل الذى وفرته فى البداية، حين كنت أحتفظ بهمتى، أتت عليه مغامرة كولومبية. فيما بعد حصل على قروض استثمرها فى صفقات من قبيل أعمال النصب والاحتيال؛ فى نهاية الأمر اضطر إلى أداء أكثر المهن وضاعة، المهن التى يستنكف القيام بها العبيد الزنوج حتى. وأضاف على سبيل المثال: لم تكن هناك فى هافانا مبصقة لم

أنظفها ولا حذاء لم أمسحه ولا مرحاض لم أسلكه بآلات أو بدونها. خلال تلك الأعوام رأى مقدم مهاجرين يتضورون جوعاً وبعد عدة أشهر يرمون له عملات فى برك الماء فى الشارع ليروه وهو يلتقطها بذراعه حتى مرفقيه؛ هكذا كانوا يتسلون على حسابه. اضطر إلى أكل قشر الموز وبقايا السمك والخضار العفن وأشياء أخرى لم يرد ذكرها من باب اللياقة؛ وفى النهاية، قال لنفسه: كفى يا جوان، يكفيك هذا. استطرد:

- كان معى نذر من المال حصلت عليه على نحو مخز، فقد أعطانيه بحارة إنجليز مقابل وساطتى فى توفير أحط المتع لهم؛ بهذا المبلغ، ثمرة الحقارة، ابتعت البذلة التى أرتديها وقرداً محتضراً وتذكرة عودة فى جوف سفينة بضائع.

قبيل الرحيل ارتكب أواخر أعمال الاحتيال مدركاً أنه لن يضطر إلى رد شىء وركب السفينة ليلاً تحت وابل من المطر. كان تعرى ودهن جسده ووجهه بالقار حتى لا يتعرفه أحد من دائنيه إذا التقى به. بهذه الطريقة التى لا تتفق بحال وكرامة رجل أبيض - قال الأمريكى - ارتدت للمرة الأخيرة شوارع أرض المعاد تلك التى كانت لى نيراً وقيداً وهواناً. بعد أن أبحرت السفينة، لم يخرج من مخبئه إلى أن دخلت السفينة المياه الإقليمية الإسبانية. فيما بعد، عاش على ذلك المال وعلى عمليات النصب. أضاف: كنت أدرك دائماً أن الحقيقة ستظهر إن آجلاً أم عاجلاً؛ وهذا الاعتراف المؤلم الذى أدلى به فى التو أزاح هماً عن كاهله فى الحقيقة. كما أنه، فى الواقع، مبتهج لأنه وضع حداً لتلك السلسلة من الأكاذيب. وكل ما فعله لم يفعله من منطلق الحقارة أو الجشع بل الخيلاء. أضاف: الحق أننى فعلت كل ذلك من أجل ابنى. إذ ود لو أن ابنه عاش الحياة التى كان ينبغى أن يعيشها لو أنه كان ابناً لرجل آخر غير ذلك الأب العديم الفائدة الذى رزقه به الإله. فى آخر الأمر، لم يكن لذلك الأمر آثار لاحقة. فبعد أن تأكد بالدريك وفيلاجران وتابيرا من استحالة استعادة أموالهم تنازلوا عن الدعوى

القضائية؛ وفى المقابل، أجبروه على العمل لحسابهم على أن يقتطعوا نسبة مئوية من دخله لسداد الدين. والآن حاول أونوفرى أن ينسى هذه الأشياء فلم يستطع. كان يفرط فى احتساء الخمر وزبوناً مألوفاً فى عدة مواخير، ويبذل مالاً كثيراً فى شراء ملابس لافتة ومع ذلك لم يستدن قط وكان يهرب من لعب القمار كمن يهرب من الطاعون. كان توقف عن النمو، لم يكن مصيره أن يصبح رجلاً طويل القامة بل نما كتفاه وصدره: كان ربعة ومتين البنية وليس قبيح الوجه، ورغم سمته المحافظ، لطيفاً ويظهر صدقاً فى المعاملة، فيحظى بحب المتسولين والبغايا والقوادين وتجار المخدرات ورجال الشرطة والمرشدين واجتهد أغلبهم ليفوز بصداقته. وعلى غير رغبته رأوا فيه جميعاً صفات القائد. حتى أودون موستاثا نفسه، الذى كان أونوفرى مكلفاً بطاعته، وقع تحت تأثيره فكان يسمح له وحده بأن يبدى رأيه، وأن يقرر ما ينبغى عمله أو تلافيه، وأن يكون إذا لزم الأمر الذى يتفاهم مع أرناو بونثيا، ولقبه مرجريتو. وهذا ما أكد ظنون الأخير. كان يقول لنفسه: هذا الصبى سيثير الكلام؛ لم يمض عليه سوى عام معنا وأصبح ديك حظيرته، إن لم أحتط للأمر فإنه سيمر على جثتى ما إن أغفل عنه. ينبغى أن أقضى عليه ولا أدرى كيف. حتى الآن لما يزل بلا أية أهمية وسيفلت من بين أصابعه كالبرغوث، ولكن، بعد قليل، قد يكون الوقت تأخر لأنتهى منه. حاول كسب ثقته، وكلما تحدث معه طرق موضوع الملبس، وامتدح حلله الجديدة. فهو مثل أى شخص غير مهندم، شديد الحساسية لأناقة الغير. لم يكن أونوفرى يلتفت إلى أن مظهر محدثه مثير للغثيان، ويظن يحق أن كليهما معجبان بالملابس الجيدة التفصيل، بل كان يطلب مشورته فى شراء أربطة العنق والأحذية، إلخ. كان تحول إلى "داندى" حقيقى، ففى البنسيون الذى يقطنه يلتف دائماً بكيمونو منقوش حتى كاحليه. كان يذهب إلى شارعى فرناندو وبرينثيسا للشراء. أحياناً كان يمسك بخناقه كرب غير محدد. فى ليالى الصيف

الحارة واللزجة، حين يجافيه النوم، يروح فريسة للتوتر العصبى، فيضع فوق كتفيه الكيمونو المنقوش ويخرج إلى الشرفة ليدخن سيجارة، ويسأل نفسه: ماذا ألم بى؟ لكنه وإن اعتقد أن أفكاره واضحة لا يتمكن من إيجاد رد حقيقى على هذا السؤال. والواقع أنه، كأى شخص، لم يكن يستطيع أن يرى نفسه: كان يرى فقط انعكاس شخصيته وتصرفاته على الآخرين ومن ثم يكون عن نفسه مفهوماً خاطئاً تماماً. ثم إن هذا المفهوم لم يكن يصمد أمام أى تحليل أكثر دقة، إذ كان يصيبه بكرب غير محدد أيضاً فينبعث فيه القلق. وحينئذ تعود إليه ذكرى والده. ظن أنه يكرهه لأنه خان الرؤى التى غذاها فيما كان غائباً، لأنه خيب ظنوناً لم يكن لها وجود إلا فى مخيلته هو وحده ولكنه كان يعتبر أنه محق فى أن يحيا عليها. والآن يتهم والده بأنه سرق منه حقاً طبيعياً، ويعتقد أنه فر من جانبه لهذا السبب. كان يفكر: الحق أنه هو الذى دفعنى إلى المجئ إلى هنا، هو المسؤول الحقيقى عن كل ما بوسعى فعله. لكن تلك الكراهية كانت سطحية فقط؛ ففى أعماقه ظل يحتفظ بنفس الإعجاب الذى يكنه دائماً له. وبلا أى مبرر محتمل لموقفه، ودون أن يعى هو نفسه المبرر، كان يرى أن أباه فى الحقيقة لم يكن فاشلاً بل ضحية لمؤامرة كبرى. هذه المؤامرة الغامضة، التى أسفرت عن حرمان والده ظلماً من الثروة والنجاح اللذين يستحقهما، هى التى تخول له الآن الحق فى أن يستعيض مما حرم منه وأن يأخذ بلا مواربة ما يفترض، من باب العدل، أنه له. لكن هذه الأفكار غير المترابطة والخرقاء كانت تصطدم فيما بعد بطبيعة الأشياء المحيطة به: فالآن تحرر من الضوائق المالية وخرج من عالم البنسيون الفاحش وجعلت ذكرى ديلفينا تذوب فى انصرام الشهور؛ الآن، أصبح له أصدقاء، وصار يحصد النجاح وحين يتمكن من نسيان حقده العام يشعر بأنه مفعم بالحياة، وأنه سعيد تقريباً. فى ليالى الصيف، حين يخرج إلى الشرفة هرباً من خمود

الهمة، كان يسمع الأصوات المألوفة الآتية من الشارع: خبط الأطباق وأوانى الحساء ورنين الأكواب، والضحك والزعيق والشجار، وزقزقة طيور الحسون والكنارى الحبيسة، وبيانو بعيد، وارتعاشات صوت مبتدئة فى الغناء، ونباح متصل لكلب، وهراء سكارى ممسكين بعمود الإنارة، وتأوهات المتسولين المكفوفين يطلبون حسنة لله. كان يفكر حينئذ حزيناً وغير قادر على ترك مرقبه: بوسعى أن أقضى هنا الليلة كلها، الصيف كله، تهودنى أصوات هذه المدينة المجهولة. لكنه، من جديد، يسقط فريسة القلق. فمجاملة الأوباش المحيطين به لم تكن تكفى لكى تغسل الإهانة التى تعرض لها، المهانة التى تطارده ذكراها، الوسم الذى يعتقد أنه موسوم به فى جبهته. كان يقول لنفسه: لابد أن أصل إلى أعلى، لا يمكننى أن أظل هنا. إن لم أفعل شيئاً فإن حياتى هذه ستكون مكتوبة على، وسيكون مصيرى أن أصبح واحداً من الحرامية. فمهما أخذت بلبه حياة السوقة والبغايا، قال له العقل إن هذه الكائنات المهمشة تحيا فى الحقيقة حياة مزيفة، لأن المجتمع كان يغض الطرف عن وجودها لأنها ذات نفع له أو لأن مسألة تصفيتها نهائياً تبدو مكلفة للغاية، لذا يوقفها عند حدودها برصانة، ويحتفظ دائماً بحقه وقدرته على التخلص منها حين يعن له ذلك. وهم بدورهم، المهمشين، يحسبون أنهم أحرار لأنهم يحملون مدية فى خصرهم ولأن بعض الفتيات المبتذلات يصطنعن الإغماء إذا نظروا إليهن. ثم بعد ذلك لا يجد لديه الإرادة الكافية ليهجر تلك الجماعة البهيجة من المختالين وبنات الهوى، ليترك وراء ظهره تلك الحياة التى كان يشعر فيها بأنه كالسمكة فى الماء. وهكذا جعل يؤجل يوماً بعد يوم قرار تغيير نموذج حياته جذرياً. لم يكن يعلم أن مثل هذه التغيرات الجذرية تحدث لمبررات عاطفية فحسب، فبما أنه قرر ألا يقع مطلقاً فى غرام امرأة وألا يفقد عقله بسبب أى من النسوة، لم يجد كذلك أى مبرر يجعله يرغب حقيقة فى أى تعديل غير مريح لسلوكه. وهكذا، كان

بوسعه أن يستمر، أعواماً وأعواماً، بمنأى عن العالم، مثلما يحدث لكثيرين آخرين وأن ينتهى نفس نهايتهم: بطعنة من خصم أو فى السجن أو على سقالة الإعدام بعد أن أصبح قاتلاً محترفاً وسكيراً، إلخ...، لو لم يكن أرناو بونثيا، ولقبه مرجريتو، اعترض طريقه. فى نهاية الأمر، اضطر إلى إجراء التغيير لمبرر البقاء وحده.

(٢)

في تلك الأعوام، كانت الخيوط الخفية التي تحرك الحياة السياسية في برشلونة في يدي دون أليكساندري كنالز إي فورميجا. كان رجلاً ذا سمت قاس، قليل الكلام والإيماءات، ذا جبهة عريضة ولحية سوداء ومدببة، ويفوح منه أرقى صنوف العطور، شديد الأناقة في ملبسه، وكل صباح يذهب إلى مكتبه حلاق ومقلمة أظافر ومدلك، فتلك كن المتع الوحيدة التي يسمح لنفسه بها؛ وبقية اليوم، الذي يمتد إلى ما بعد حلول الظلام بكثير، فيكرسها لاتخاذ أخطر القرارات والتمهيد لأهم الإجراءات من حيث انعكاس نتائجها على المجتمع: يتحكم في نتائج الانتخابات ويبيع أو يشتري أصوات الناخبين، ويبني أو يقضي على مستقبل أي سياسي. لم يعرف التردد، وكان يكرس لهذه الأمور كل وقته وطاقته، فتراكمت له سلطة بلا حدود لكنه لم يكن يستخدمها بل يكنزها كما يكنز البخيل ماله. وكان الساسة وأصحاب النفوذ يخشونه ويحترمونه ولا يترددون في اللجوء إليه؛ ويقال عنه كذلك إنه الوحيد القادر على قيادة أية عاصفة نقابية يراها أحكم المراقبين في الأفق بلا محالة والسيطرة عليها إذا لزم الأمر. في هذا الصدد كان متحفظاً.

وإذا اضطر إلى استخدام العنف لتحقيق أغراضه لا يتردد في اللجوء إلى العنف. لهذا الغرض كانت لديه عصابة من القتلة والقناصين على رأسها شخص يدعى جوان سيكارت، له ماض مريب: فهو برشلوني الأصل لكنه نشأ وترعرع في كوبا التي كان هاجر إليها والداه، كما فعل والد أونوفري بوفيلا، بحثاً عن الثروة: كلاهما قضى نحبه ضحية الحمى وجوان سيكارت لما يزل في نعومة أظافره، وتركاه بلا أية حماية. سرعان ما انجذب إلى العنف وإلى النظام، أراد أن ينخرط في السلك العسكري لكنه لم يستطع، فبسبب إصابة طفيفة في الرئة لم تقبله

الأكاديمية العسكرية. عاد إلى إسبانيا وعاش فترة فى قادس حيث زُج به عدة مرات فى السجن وانتهى به المطاف فى برشلونة، على رأس أعوان دون أليكساندرى كنالز إى فورميجا، الذين كان يسوسهم بيد من حديد. كان ناتئ العظام، ذا ملامح حادة وعينين غائرتين فى محجريهما مما ينفحه سمتاً شرقياً، وكان له، على نحو غريب، شعر أشقر بلون التبن.

كان من المحتم أن يصطدم نشاط هذه المنظمة المخيفة بنشاط عصابة دون أومبرت فيجا إى موريرا، ولو على نحو عارض. حدثت بالفعل احتكاكات، لكنها حلت بلا صعوبة. إذ كان دون أومبرت فيجا إى موريرا وكذلك أرناو بونثيّا، ولقبه مرجريتو، رجلين معتدلين، وفى جميع الحالات كانا يفضلان التفاوض. فى لحظة ما، جربا عقد مفاوضات مع دون أليكساندرى كنالز إى فورميجا والتوصل إلى اتفاق نهائى لكنه، وهو يعلم أنه الأعلى سلطة، لم يرد أن يأخذ فى الاعتبار أى مقترح فاضطروا إلى الاستسلام، فتباين القوتين كان جلياً، إذ لم تكن قوات كنالز إى فورميجا أكثر عدداً فحسب بل وأفضل تنظيماً وبوسعها أن تؤلف فصائل مثل الميليشيا، تحت قيادة شخص واحد، وكان لديها خبرة فى فض الإضرابات وتفريق الاجتماعات. فى المقابل، لم يكن رجال دون أومبرت سوى عصابة من الأشرار لا تسد حتى فى مشاجرة فى حانة. لكن المدينة كانت من الصغر والفقر بحيث لا يمكنها أن تحتمل كلتا العصابتين اللتين لم تتوقفا عن النمو، وكان لابد من المواجهة عاجلاً أو آجلاً. هذا ما لم يرد أحد أن يعترف به على الرغم من أنهم جميعاً كانوا يدركونه.

انعقدت المقابلة يوم جمعة من شهر مارس فى آخر ساعات النهار، كانت الشمس تحتضر وراء الستر، والسماء صحواً وعلى شجر الميدان أطل الربيع. أزاح دون أومبرت الستر بظهر يده وأطل على الشرفة ونظر إلى الميدان واستند بجبهته إلى الزجاج. فكر: لا أدرى إن كنت أفعل

الصواب، الوقت يمر سريعاً ولا شيء يتبدل، أشعر بالحزن ولا أدرى السبب. تذكر المعرض العالمى، كان يفكر فى أونوفرى بوفيلا وتداعت له دون رغبة منه صورتان: المعرض والصبى الريفى الذى كان يحاول شق طريقه بكل الوسائل المتاحة له. كان المعرض أغلق أبوابه، ومن ذلك الجهد العملاق لم يبق شىء تقريباً: بعض البنايات الكبيرة للغاية حتى إنها عملياً لا تصلح للاستخدام وبعض التماثيل وأكداس من الديون لا تعرف البلدية كيف تزيحها عن كاهلها. فكر: كل المجتمع قائم على هذه الأعمدة الأربعة: الجهل والكسل والظلم والرعونة. فى مساء اليوم السابق كان زاره أرناو بونثيّا، وأخبره هذا بما تسبب فى بالغ قلقه: لم يكن للأمور أن تسير كما سارت حتى الآن. كان أرناو بونثيّا قال له:

- ينبغى أن ننتقل إلى العمل الفعلى أو نقنع بالقضاء علينا حتماً.

- كنا نعلم جميعاً أن ذلك سيحدث إن آجلاً أو عاجلاً لكننى لم أكن أتصور أن يكون بهذه السرعة. - قال هو. لاحت له الخطة فكرة جنونية إذ لم ير فيها أى إمكان للفوز ـ: كيف طرأ على ذهنك هذا الهراء؟

قال له الآخر إن المسألة لا تتعلق بالفوز بل تأكيد الثقة بالذات، المهم الخطوة الأولى ثم استئناف المفاوضات فى الحال. وأردف: لكى يرى أننا لسنا عاجزين وأننا لا نخاف، وهذه اللغة هى التى سيفهمها لأنه يزدرى العقل. سنفقد بعض الرجال فذلك حتمى.

- ولكن، ألن يحدث لنا شىء؟

فأجاب الرجل الثانى:

- نعم، لن يحدث. فى هذا الاتجاه لا خوف هنالك؛ لقد فكرت فى كل شىء بعناية وخططت للضربة باهتمام حتى أدق التفاصيل. فضلاً عن أننى منذ فترة وأنا أراقب الصبى: يساوى كثيراً فبوسعه فعل أى شىء على الوجه الأكمل. ومن المؤلم أن نضطر إلى التضحية به.

هو عادة رجل طيب القلب لكنه فى تلك اللحظات كان يهيمن عليه الحسد والخوف. دعا أونوفرى بوفيلا إلى مكتبه وقال له إنه سيكلفه

بمهمة بالغة الأهمية. أضاف مرجريتو: لنر كيف ستتصرف! من باب ذى مصراعين، عالٍ وضيق، دخل حينئذ السيد أومبرت فيجا إى موريرا. قال له: يقول أرناو بونثيًا إنك تساوى الكثير، لنر كيف ستتصرف! - أضاف ذلك دون أن يعلم أنه يكرر ما قاله الآخر فى التو. ثم عرضا عليه الخطة بكل عناية. جعل أونوفرى بوفيلا ينصت إليهما فاغراً فاه. فكر أرناو بونثيًا وهو يراه على هذا النحو: هذا لا يفقه شيئاً عن أى شىء: وكل ما نقوله له يبدو غريباً عنه مثل الحياة على القمر. حذره: أولاً وقبل كل شىء التكتم الشديد.

وحيداً، كرس أونوفرى بوفيلا عدة ساعات يفكر ثم راح يبحث عن أودون موستاثا. وحين التقى الفتوة قال له: أنصت إلى جيداً، هذا ما سنفعله. كان أونوفرى قرر التخلى عن الخطة التى عرضت عليه فى مكتب أرناو بونثيًا وأعد أخرى، لأنه قرر أن يتحرك من تلقاء نفسه. فكر: يكفينى الوقت الذى قضيته فى طاعة الآخرين حتى الآن! منذ زمن طويل وهو يعلم بوجود السيد أليكساندرى كنالز إى فورميجا وجوان سيكارت وجيشه المرعب من الأشرار. كان أودون موستاثا أطلعه على كل شىء، بل إنه كان فكر فى احتمال عرض خدماته على جوان سيكارت. لم يكن الغدر من طبيعته، وإنما كان يعلم فى أى الطائفتين تكمن القوة الحقيقية ولم يكن مستعداً لمساندة قضايا خاسرة. لهذا السبب كان يعلم أن مكمن قوة السيد أليكساندرى كنالز إى فورميجا فى جوان سيكارت، وأن كل المنظمة تدور حوله: وعلى أساس هذه المعلومات أعد خطته وفكر فى التفاصيل قبل أن يلتقى أودون موستاثا. قال له إن ضعفنا بالغ الوضوح حتى إن أحداً لن يأخذنا مأخذ الجد ونحن سنعتمد على هذه الميزة، إلى ذلك ينبغى أن نضيف السرعة والجرأة. لم يقل "والوحشية"، لكنه كان يفكر فيها. كان خلص إلى أن لديهم ما يكفى من إمكانات النجاح إذا تصرفوا على ذلك النحو. وكما فكر نفذ. لم تكن برشلونة رأت من قبل شيئاً من ذلك. وفيما احتدمت الحرب لاجت المدينة كلها كأنما تحبس

أنفاسها. من المحتمل أنه لو كانت القوى أكثر تساوياً لما تدخل بتلك القسوة.

فى نفس تلك الليلة بدأت الحرب. كان بعض رجال سيكارت مجتمعين فى حانة بشارع أركودى سان سيلفستري، بالقرب من ميدان سانتا كتالينا. فى هذه الحانة دخل عدد من رجال العصابات وعلى رأسهم أودون موستاثا، بدا كأنهم يريدون مشاجرة، لم يكن ذلك جديداً، لم يلتفت أحد إلى ذلك. كان أودون موستاثا معروفاً فى الوسط، وتقول النساء عنه: ما من أحد فى برشلونة فى وسامته أو فى قوامه. رجال سيكارت أخذوا الأمر مأخذ المزاح كأنما هم بهذا الموقف الساخر يقولون لهم: نحن أكثر عدداً وأفضل استعداداً. فرد أفراد العصابة الأخرى على ذلك الموقف المتجاسر بآخر، شهروا مداهم وانهالوا بطعناتهم على الأقرب إليهم ثم غادروا المكان عدواً قبل أن يفيق الآخرون من ذهولهم. وفى ميدان سانتا كتالينا كانت تنتظرهم عربة تجرها الخيل تمكنوا من الهروب فيها. ذاع الخبر فى قاع المدينة. فى أقل من ساعتين جاء الرد الانتقامى: دخل اثنا عشر رجلاً مسلحين بالبنادق فى "لامبورى دى لا باتاكادا" وشرعوا فى إطلاق النار وقطعوا "لوحة حية" عنوانها "قانية السلطان". وتركوا هناك قتيلين وستة جرحى، ليس من بين هذين أو هؤلاء لا أونوفرى بوفيلا ولا أودون موستاثا. ثم خرج من أطلقوا النار من المكان؛ حين رأوا أنفسهم فى الشارع المعتم والموحش أدركوا خطأهم جد متأخرين. فى الحال، اقتربت عربتان مغطاتان فى سرعة شديدة. أرادوا الفرار لكنهم فشلوا، فقد حاصرتهم العربتان بنيرانهما، فمن نوافذهما كانوا يطلقون عليهم النار بغدارات أمريكية سعة ست طلقات. كان فى وسعهم القضاء على حاملى البنادق الاثنى عشر لكنهم اكتفوا بالمرور عليهم مرتين فأصابوا سبعة منهم، أحدهم لقى مصرعه فى الحال واثنان بعد ذلك بعدة أيام. أمسى جوان سيكارت نهباً للحيرة، يقول

لنفسه: لا أدرى ماذا يريدون ولا أى مبلغ سيبلغونه، ما مبررهم وما غايتهم؟ فيما هو غارق فى تلك الأسئلة بلغه أن امرأة تريد رؤيته: لم ترد الكشف عن هويتها لكنها تقول إنها جاءت بالحل الذى يجتهد هو سدى فى إيجاده. من قبيل الفضول أمر أن يقودوها إلى مكتبه. لم يكن رآها من قبل، لكنه بما أنه لم يكن ممن يعرضون عن مفاتن المرأة استقبلها استقبالاً مهذباً. هى كانت تتحدث من وراء حجاب، بصوت خشن، وكان أول ما قالته: أرسلنى أونوفرى بوفيلا. فرد جوان سيكارت بأنه لا يعرف من هو أونوفرى بوفيلا. اصطنعت المرأة أنها لم تسمع الرد، أردفت: يريد أن يراك، هو أيضاً يشعر بالقلق ولا يدرى مبرر هذه المذبحة. كانت تتحدث كما لو كانت سفيراً يتحدث إلى رئيس حكومة أخرى، فلم يجد جوان سيكارت ما يرد به عليها. أضافت المرأة: إذا كنت مهتماً بإنهاء هذا الوضع السخيف اذهب لرؤيته أو استقبله هنا فى نفس هذا المكان، على أرضك: هو لن يرفض الحضور إذا أعطيته ضمانات. هز جوان سيكارت منكبيه.

– أخبريه بأن يحضر إن أراد، لكن ليحضر وحده وغير مسلح.

– أتعطينى كلمتك بأنه سيخرج من هنا سالماً؟

من خلال الحجاب الذى يغطى وجهها عكست عينا المرأة الحادتان قلقاً. فكر جوان سيكارت: قد تكون معشوقته أو أمه. والقلق الذى أثارته قوته فى تلك المرأة الجميلة نفحه شجاعة، ابتسم فى خيلاء، قال: لا مبرر للخوف. اتفقا على ساعة اللقاء وظهر أونوفرى بوفيلا هناك بلا تأخير. حين رآه جوان سيكارت عبس وجهه، قال له: الآن أعرف من أنت، شبل أودون موستاثا، لقد سمعت عنك، ماذا جئت تبيعنى؟ قال ذلك فى ترفع لكن أونوفرى لم يغضب. أضاف سيكارت بنفس السخرية: لا أحتاج إلى تجنيد أحد ولا أحتاج إلى جواسيس أو خونة. فى نهاية الأمر أصابه هدوء أونوفرى بوفيلا بالعصاب فراح يصرخ: ماذا تريد، لم جئت؟ من البهو كان أعوانه يسمعون صراخه ولا يدرون أيتدخلون أم يظلون

ساكنين. قالوا لأنفسهم: لو أنه يريدنا سيبلغنا بذلك. أخيراً قال أونوفرى بعد أن أفرغ سيكارت شحنة غضبه:

- إن كنت لا تريد الإنصات إلى ما جئت أقول لك، لم أرسلت فى طلبى؟ أنا هنا فى خطر وأغامر بوضعى.

اضطر جوان سيكارت إلى الرضوخ للمبررات التى ذكرها. كان يضايقه أن يحاوره صبى على قدم المساواة، ومع ذلك لم يكن فى وسعه تجنب الانطباع الشديد الذى خلفه فيه الهدوء والثقة التى كان يتوجه إليه بهما ذلك الصبى الأعزل. فى لحظة تحول من الازدراء إلى الاحترام الغريزى. قال لأونوفرى: حسناً، تكلم. وهذا فهم أنه كسب المعركة، فكر: ها هو يتراجع. قال بصوت عال إن الحرب التى اندلعت منذ وقت قصير ضرب من الهراء. ولا ريب فى أن سببها سوء فهم، لا أحد يعلم كيف بدأت لكنها الآن حقيقة واقعة، وتهدد بأن تتحول إلى كرة جليد يمكنها أن تقضى عليهم جميعاً، أضاف:

- من الواضح أنها تثير قلقك؛ أما أنا فتقلقنى على نحو أشد، لأننى قد أكون الضحية القادمة. ألا ترى أننا ينبغى علينا أن نضع حداً لهذا الوضع البغيض؟

صاح جوان سيكارت بقوة حين سمع ذلك:

- إيه، لم نكن نحن البادئين بالهجوم بل أنتم.

- فيم يفيد هذا الآن؟ المهم وضع نهاية للأعمال الانتقامية. - ثم خفض صوته وقال فى نبرة سرية: هذه الحرب ليست فى مصلحتنا، ماذا سنفيد منها؟ نحن أقل عدداً واستعداداً منكم، ونحن لن نستطيع أن نصمد أمامكم فى البداية حتى. فلكم اليد العليا جميعها. أقول لك ذلك كى لا ترتاب من صدق نيتى، فلا يحركنى أى غرض سرى، جئت فقط كى أهديك فرصة إحلال السلام.

كان لدى جوان سيكارت شك غريزى فى أونوفرى، لكنه، فى قرارة نفسه، يرغب فى تصديقه، فهو أيضاً كان يشعر بالغثيان من جراء تلك

الحرب التى لا معنى لها. فرجاله يسقطون صرعى بالرصاص وشلت تماماً كافة أنشطة الربح، وخيم على المدينة مناخ توتر، غير موات للتجارة والربح. لم تسفر المقابلة عن شىء، لكنهما اتفقا على اللقاء مرة أخرى بعد تمحيص الملابسات. بعد أن أقنعه أونوفرى بوفيلا بأن فى يده كل عوامل النجاح لم يلتفت سيكارت إلى أنه يسير فى طريق هلاكه: هو نفسه كان يحفر قبره. فى تلك الليلة كانت المواجهات المسلحة ستتواصل لولا أن المطر انهمر منذ غروب الشمس وحتى الفجر؛ فقط مجموعتان صغيرتا العدد التقيتا مصادفة فى أحد الأزقة المظلمة، وكلتاهما جعلتا تطلقان نيران غداراتهما وبنادقهما، التى يحملها الرجال الآن طوال الوقت، عبر ستار حقيقى من الماء. وكانت النيران تضئ دفقات الماء التى تسكبها أسطح الشارع. ظلوا يطلقون النار وأقدامهم غائرة فى الوحل حتى نفدت ذخيرتهم. وبفضل وابل المطر لم تكن هنالك خسائر. وقعت حوادث أخرى: صبى فى السادسة عشرة ينتمى إلى عصابة دون أومبرت فيجا إى موريرا لقى مصرعه حين هوى من أعلى سور كان تسلقه هرباً من المطاردة التى كان يتعرض أو يعتقد أنه يتعرض لها، وكان من نحس طالعه أن انزلق ودقت عنقه. كما قام شخص فى تلك الليلة الرهيبة بإلقاء جثة كلب ضخم من نافذة ماخور اعتاد أن يختلف إليه أودون موستاثا وأونوفرى بوفيلا وأعوانهما. لم يع أحد مغزى تلك الهدية المشؤومة. فى تلك الليلة، من باب الاحتياط، لم يذهب أحد إلى الماخور: الفتيات المسكينات لم يجربن النوم من شدة القلق خشية قيام غارة دموية. وحين دقت الساعة الثالثة صباحاً، صليت صلاة الفجر. شاع فى المدينة أن هنالك حرباً غير معلنة بيد أن الصحافة المحلية لم تجرؤ على تسجيلها.

فى اليوم التالى زارت المرأة الغامضة جوان سيكارت من جديد وقالت له إن أونوفرى بوفيلا يرغب فى لقائه مرة أخرى. لكنه من باب الحذر، لمبررات أمن شخصية، نظراً إلى ما آلت إليه الأمور، - أضافت

-: لا يريد المجئ إلى هنا. هو لا يرتاب منك، بل من رجالك ويخشى ألا تكون مسيطراً على رجالك تمام السيطرة، ويرفض أن يضع رأسه فى فم الذئب، ويقول لك أن تختار أنت مكاناً محايداً. هو سيذهب إليه وحده فيما بوسعك أنت أن تصطحب معك الحماية التى تعن لك. شعر جوان سيكارت بأن ذلك يمس كبرياءه فحدد موعداً فى أروقة الكاتدرائية. أحاط رجاله بالكاتدرائية وكمنوا فى كافة المصليات: من قبيل الحذر غض الأسقف الطرف عن وجود رجال مدججين بالسلاح فى مكان مقدس. فضلاً عن أن سيكارت كان يراقب كل عصابة دون أومبرت فيجا إى موريرا: لذا، كان يعلم أن أونوفرى ذاهب وحده للقائه. لم يستطع إلا أن يعجب بشجاعته.

- مازالت لدينا مهلة لتوقيع اتفاق السلام. - هذا ما قاله أونوفرى. كان يتحدث بصوت متأن، بوداعة، كأن المكان الذى يعقد فيه اللقاء يفرض عليه ذلك. بعد وابل الليلة السابقة، أينعت أحواض زهور رواق الكاتدرائية، فيما تألقت حجارة الجسر الداخلى التى غسلها المطر فبدت من المرمر. - ربما يكون غداً متأخراً إلى حد كبير. والسلطات لن تظل مكتوفة الأيدى إزاء هذا الوضع، فإن آجلاً أم عاجلاً سيضطرهم تقويض النظام هذا إلى التدخل وسيتدخلون فى الأمر شئنا أم أبينا، ومن المحتمل أن يعلنوا حالة الطوارئ ويحتل الجيش المدينة. وسيكون فى ذلك نهايتنا: رئيسك ورئيسى سينجوان، أما نحن فمآلنا حبل المشنقة، وسيكون مصيرنا خنادق "مونجوى". ولن يترددوا فى جعلنا عبرة وعظة للعامة. هم مرعوبون من قضية النقابات المرتقبة ولن يتركوا سانحة ليؤكدوا حزمهم وقوتهم. أنت تعلم أننى على حق؛ ومن المحتمل أن تكون لرئيسك يد فى كل هذا.

جعلت شكوك جوان سيكارت تزداد لكنه لم يكن يستطيع أن يفلت من تأثير أونوفرى بوفيلا، فحجج الأخير لها تأثيرها المباشر عليه رغماً عنه.

رد عليه فى صلف:

– ليس لدى أى مبرر كى أرتاب من رئيسى، دون أليكساندرى كنالز إى فورميجا.

– هذا يرجع إليك. أما أنا فلا آمن لأحد، ولن أضع يدىّ فى النار من أجل هذا أو ذاك.

فى نفس الوقت الذى راحت تزرع فيه بذرة الشك فى نفس سيكارت تمكنت المرأة المجهولة من الوصول إلى كنالز إى فورميجا نفسه. حاكت قصة غامضة من الخيوط العاطفية. ابتلع دون أليكساندرى الطعم وسمح للمرأة بالدخول فى حضوره. قبل أن تدخل عطر نفسه برشاشة عطر يحفظها فى أحد أدراج مكتبه، إلى جانب المسدس. وهى لم تشأ الكشف عن وجهها. فجأة، وبلا مقدمات، أخبرته أن لديها معلومات مؤكدة مفادها أن جوان سيكارت يستعد لخيانته. قالت فى صوت متقطع: سينضم إلى الأعداء إذا تفاقمت الحرب وفى أصعب لحظة ستكون بلا حماية. وهو أغرق فى الضحك، سألها: ما تقولينه محال يا امرأة، من أين تستنتجين هذه الأوهام؟ وهى أجهشت بالبكاء: إننى أتعذب من أجلك، أخشى أن يحدث لك شىء... وهو شعر بالغبطة وحاول تهدئتها، قال لها: لا داعى للقلق. قدم لها كأساً من الشراب الهاضم احتسته فى اضطراب ثم أضافت، عائدة مرة أخرى إلى الموضوع الذى يشغل بالها، أن جوان سيكارت اجتمع مرتين مع أعدائه: مرة فى مركز قيادة سيكارت نفسه، والأخرى فى أروقة الكاتدرائية. قالت له: اجر تحرياتك وستتيقن من أننى لا أكذبك. لو أن رجال أومبرت فيجا إى موريرا ليسوا متأكدين من تآمر سيكارت معهم كيف كانوا سيتورطون فى حرب سيخسرونها مسبقاً؟ فكر فيما أقوله لك يا أليكساندرى، سيكارت يتآمر مع أومبرت فيجا إى موريرا. لم يرد أن يناقش امرأة مجهولة تلك التأكيدات الشديدة الخطورة.

– اذهبى يا امرأة، اذهبى: الآن لدى أشياء أهم أفكر فيها بدلاً من

هذه الحكايات التى أتيتنى بها. - هذا ما قاله لها، لكنه ما إن ذهبت أرسل رسالة إلى الأسقف يطلب منه أن يؤكد له حضور جوان سيكارت فى الكاتدرائية. قال لنفسه: لا أصدق كلمة مما قالته لى هذه المجنونة، لكن لا ضرر مطلقاً من التزام شديد الحذر خاصة فى مثل هذه اللحظة. فى واقع الأمر خلفت زيارة المرأة الغامضة أثراً أشد مما كان هو نفسه مستعداً للاعتراف به. جعل يقول لنفسه: من كان يصدق، وأنا أحيا حياة راهب، أن امرأة بهذه الجاذبية تشتغل فى السر بأمنى. آه، آه، آه، أشتم رائحة خلاعة منذ وقت طويل: على أية حال، لا أستطيع أن أتجاهل تماماً المعلومات التى جاءت لتبلغنى بها؛ من الواضح أنها تبالغ، المحتمل أن تكون مخطئة؛ ولكن، ماذا لو لم تكن مخطئة؟ من مقر الأسقف أكدوا له حضور جوان سيكارت فى رواق الكاتدرائية، بمذكرة ترد على مذكرته. دعا دون أليكساندرى كنالز إى فورميجا جوان سيكارت للمثول أمامه وحاول جره إلى الكلام بالحيل. هذه الحيل لم تخفَ على جوان سيكارت الذى رأى كيف تزرع بذلك الريب التى حذره منها أونوفرى. على أية حال، اصطنع أنه لم يلاحظ شيئاً فى تصرف رئيسه كيلا ينكشف أمره. راح يفكر: ربما يفكر فى استبدالى ولا يعرف كيف يتخلص منى. كان لسيكارت معاون يدعى بويش، رجل قليل الفهم ووحشى الغريزة يحسد جوان سيكارت منذ زمن على رئاسته للعصابة. قال لنفسه: قد يكون دون أليكساندرى قد وضع عينه على بويش، قد يكون بويش قد توصل سراً إلى اتفاق مع دون أليكساندرى. خلال تلك المحادثة لاحظ كلاهما التحفظ تحت شعور الزمالة الظاهر. لكن ذلك لم يحل دون أن يتفقا على ضرورة القيام بهجوم مباشر ضد رجال دون أومبرت فيجا إى موريرا. ودع سيكارت رئيسه بوعد تصفيتهم. فيما بعد، وحده، فكر: قد يكون كل هذا جزءاً من نفس الخطة، طالما وجد أمامه عدواً، وإن يكن عدواً قليل الشأن مثل دون أومبرت، سيظل يحتاجنى؛ لكننى إذا قضيت على عصابة خصمه فما يمنعه من القضاء علىّ فيما بعد؟ كلا، من

الضروري أن أتوصل إلى اتفاق مع أونوفري بوفيلا، فالسلام يناسبني كما يناسبه ويبدو لي رجلاً متعقلاً: سوف ألتقي به وفيما بيننا سيعود كل شيء إلى مجراه. حين أمسى وحده، تهالك دون أليكساندري كنالز إي فورميجا في مقعده الجلدي وترك ذراعيه تسقطان على جانبي المقعد وكان على وشك أن يجهش بالبكاء. قال لنفسه: أوفى من يخدمني يهجرني، ماذا يكون من أمري؟ كان يرى حياته في خطر لكن أهم ما يشغله كان ما سيحدث لابنه. هذا الابن الذي يبلغ من العمر اثني عشر عاماً وكان ولد بتشوهات في العمود الفقري ويتحرك بصعوبة بالغة. في الصغر، لم يتمكن من المشاركة في اللعب أو في شقاوة الأطفال بل بدا مهتماً بالدراسة وأظهر مهارة خارقة في الرياضيات والحساب. كان طفلاً حزيناً، بلا أصدقاء. ولما كانت بقية الأبناء قضت نحبها في نفس الوقت تقريباً، في وباء ١٨٧٩، كان دون أليكساندري يشعر نحو هذا الطفل المعاق بحب لا حد له ويعطف لا نهائي، على عكس زوجته التي منذ المأساة المشار إليها كانت تشعر نحو من نجا بحقد يمكن تفهمه وإن يكن بلا مبرر. الآن، كان يفكر: إذا كان هؤلاء القساة يخططون لشيء هام فقد يفكرون في الاعتداء على ابني، فهم يعرفون أنهم بذلك يوجهون لي طعنة قاتلة. أجل، لا مجال للشك، سيفعلون ذلك إن لم أستبق خطتهم. في اليوم التالي، رحل ابن أليكساندري كنالز إي فورميجا، ويدعى نيكولاو كنالز إي رتابلان، في رفقة والدته ومربية وخادم، رحل إلى فرنسا حيث كان لوالده أصدقاء وكذلك ثروة كبيرة.

حين علم برحيل أسرة رئيسه، اعتقد جوان سيكارت اعتقاداً قاطعاً بأنه تعرض للخيانة. أرسل إلى أونوفري بوفيلا هذه الرسالة: جوان سيكارت يريد رؤيتك في الحال. أجابه أونوفري: هذه المرة وحدنا، أنت وأنا. قال سيكارت: كما تريد، قل أنت أين. أظهر أونوفري بوفيلا أنه يفكر وهلة على الرغم من أنه كان أعد لكل شيء ثم قال: في كنيسة القديس سيبيرو، قبل قداس السابعة بنصف الساعة. قال سيكارت: في

هذه الساعة تكون الكنيسة مغلقة. قال أونوفرى: سأكون قد جعلتهم يفتحونها. فى ذهاب وإياب هذه الرسائل استغرقا اليوم. لم تكن هنالك معارك، لكن شوراع برشلونة خلت من الناس، فالمواطنون لم يغامروا بالخروج من منازلهم إلا فى الحالات القصوى.

قبل أن تطلع الشمس احتل رجال جوان سيكارت مواقعهم بالشوارع المحيطة والأروقة ومخزن زيوت متاخم للكنيسة وخرائب قصر مهجور. من هناك كانوا يعتقدون أنهم سيرون أونوفرى قادماً لكنه استبقهم إذ قضى الليل فى الكنيسة، وكان هو نفسه الذى فتح لهم الأبواب فى الساعة المتفق عليها. اقتحم ثلاثة من أعوان سيكارت المعبد مشهرين أسلحتهم، تحسباً لأية خدعة يكون أونوفرى أعدها لرئيسهم، فوجدوا أونوفرى وحده إلى جانب الباب، أعزل، هادئاً، وقساً يرتجف خوفاً ويصلى فى بالغ الاضطراب أمام المذبح. كان خائفاً على حياته بل كان خوفه أشد من أن يدنسوا الكنيسة. شعر القناصة الثلاثة بشىء من الحرج. قال لهم أونوفرى فى عذوبة: هأنتم ترون ألا ضرورة لكل هذه الاحتياطات. لم يروا جبهته تتصبب عرقاً؛ أمسكوا بالقس وجروه جراً إلى الشارع حيث قادوه ليمثل أمام جوان سيكارت. قالوا له: الطريق آمنة، لكننا أحضرنا لك هذا القس حتى يؤكد لك ذلك بنفسه. واجه سيكارت القس قال له:

– أتعلم من أنا؟

– أجل يا سيدى!

– حسناً، ألديك فكرة عما سيحدث لك لو كذبتنى؟ ·

– أجل يا سيدى!

– قل الحقيقة إذن، من بداخل الكنيسة؟

– ذلك الصبى وحده

– أتقسم على ذلك بالله؟

– أقسم بالله وبكل القديسين.

– وأودون موستاثا؟
– ينتظر مع بقية العصابة فى ميدان الملك؟
– ولماذا فى ميدان الملك؟
– أونوفرى بوفيلا قال لهم أن ينتظروا هناك.
– حسناً! – قال جوان سيكارت ذلك وأشاح بوجهه عن القس.
هذا الحوار لم يبث فيه الثقة بل القلق. كان قضى الليل كله ساهراً يفكر ولم يكن فى ذلك أى خير له، والآن يواجه اختياراً حاسماً، فمن ناحية يريد التوصل إلى اتفاق مع أونوفرى بوفيلا والمحافظة على الوضع الراهن، ومن أخرى، شخصيته المناقضة للتفاوض: فهو كان محارباً وإمكان تحقيق النصر على العدو كان يعميه. ماذا يكلفنى إرسال رجالى إلى ميدان الملك للقضاء على أودون موستاثا ومن معه عن بكرة أبيهم؟ أنا نفسى بوسعى الإجهاز على ذلك الـ "بوفيلا" الذى ينتظرنى هناك فى الداخل كفرخ صغير؛ وفى عدة دقائق نكون محونا أعداءنا من المدينة لتكون برشلونة لنا. هذه الأفكار كانت تعارضها أخرى وهكذا أصابه التناقض بالشلل. طالبه مساعده بأن يفعل شيئاً. قال له:
– هيا، تحرك، ماذا تنتظر؟
ذلك كان بويش الذى يرتاب من ولائه. والآن، مع ذلك، كل ما بدا له فى الليل جلياً أخذ يزايله كما تتلاشى المشاهد فى كابوس. قال لبويش:
– ما إن ترنى أدخل الكنيسة تترك ثلاثة رجال على الباب وتأخذ بقيتهم وتذهب بهم إلى ميدان الملك؛ هناك ينتظر رجال أودون موستاثا: تخلص منهم ولا تدع واحداً منهم. وقبل كل شىء تذكر ذلك: ألا ينجو منهم أحد. سأنضم إليكم فى الحال.

(٣)

كانت الشمس قد طلعت حين دخل جوان سيكارت كنيسة القديس سيبيرو، وهى من طراز الباروك وأبعادها شائعة. راح يقول لنفسه: لا يكلفنى شيئاً القضاء عليه؛ هكذا نخرج إلى الأبد من هذا الوضع الخطير والسخيف. ما إن أقترب منه سأصفيه. أنا بالطبع أعطيته الأمان وهو إلى الآن احترم كلمته، ولكن، منذ متى وأنا أهتم لمسائل الشرف هذه؟ أبعد أن قضيت عمرى صعلوكاً تنتابنى الآن شكوك؟ كلا! لعدة لحظات حالت العتمة المخيمة على الداخل دون أن يميز شيئاً. سمع صوت أونوفرى بوفيلا الآتى من مذبح الكنيسة يقول له: تعال، يا سيكارت، أنا هنا، ليس هنالك ما تخشى منه. انتابت ظهره رعشة. فكر: كأننى مقدم على قتل ولدى الذى من صلبى. ما إن اعتادت عيناه الظلام تقدم وسط صفوف المقاعد. طوال الوقت كان يضع يده اليسرى فى جيبه حيث تقبض على المسدس. كان مسدساً صغيراً من تلك التى لا أثر لها إلا إذا استخدمت عن قرب وتطلق عياراً واحداً. هذه المسدسات، التشيكية الصنع، لم تكن معروفة بعد فى إسبانيا. ظن سيكارت أن أونوفرى بوفيلا يجهل وجود مثل تلك المسدسات مما لا يجعله يفطن إلى أنه يحمل واحداً فى جيب سراويله ليقتله ما إن يقترب منه. مسدس آخر مطابق تماماً للذى يحمله سيكارت الآن فى جيبه، وإن يكن من الفضة المرصعة بالماس والياقوت الأصفر، أهداه الإمبراطور فرانسوا جوزيف إلى زوجته الإمبراطورة إيزابل. وحتى لا يجرح شعورها، إذ لا تهدى السيدات أسلحة نارية خاصة إن كن عريقات المحتد، كلف الإمبراطور صناع السلاح بأن يعطوا المسدس شكل المفتاح. قال الإمبراطور: لا يجب أن يراه أحد؛ وأنت ضعيه فى حقيبتك تحسباً للظروف. فاليوم تكثر محاولات الاغتيال وينتابنى الخوف قليلاً عليك وعلى الأولاد. وهى لم

تكلف نفسها مؤونة الرد على لفتة التقرب تلك، فهى لم تكن تحب زوجها وكانت تعامله بازدراء واضح، حتى فى المراسم الرسمية وحفلات الاستقبال، بأقصى ما لديها من درجات البرودة، أى ببالغ البرود. مع ذلك كانت تحمل المسدس فى حقيبة يدها - كما أوعز إليها هو - فى ذلك الصباح النحس، صباح ١٠ سبتمبر ١٨٩٨، حين اغتالها لويدجى لوكينى وهى تعتلى ظهر مركب على رصيف مون بلون بجينيف. ظل يومين ينتظرها على باب الفندق الذى كانت تقيم فيه لكنهما لم يلتقيا قبل تلك اللحظة. ولما لم يكن لديه ما يشترى به مدية (وكان سعرها اثنى عشر فرنكاً سويسرياً) شرع هو نفسه فى عمل مدية صناعة منزلية لها نصل ومقبض من الصفيح. فى اليوم السابق كانت الإمبراطورة ذهبت لزيارة بارونة روتشيلد التى تكثر فى أملاكها الطيور النادرة وحيوانات أبو شوك أحضرت خصيصاً من جاوة. كانت الإمبراطورة إيزابل فى الواحدة والستين حين قضت نحبها، ولما تزل تحتفظ بجسد رشيق ومحيا بالغ الحسن، وتمثل كل ما تبقى فى أوربا من أناقة وكرامة علية. كانت تحب كتابة المرثيات. فقد انتحر ابنها، ولقى صهرها الإمبراطور مكسيمليان إمبراطور المكسيك مصرعه رمياً بالرصاص؛ ولقيت أختها حتفها فى حريق فى باريس؛ ومكث ابن عمها الملك لويس الثانى ملك بافاريا السنوات الأخيرة من حياته فى مصح عقلى. وحتى لويدجى لوكينى نفسه، الرجل الذى اغتالها، انتهى به الأمر إلى الانتحار بعد ذلك باثنى عشر عاماً، فى جينيف، حيث كان يقضى حكماً بالسجن مدى الحياة؛ كان ولد فى باريس ونشأ فى بارما. لو أن الإمبراطورة سيسى، كما كان يفضل رعاياها أن يطلقوا عليها، لجأت إلى المسدس الذى أهداه لها زوجها الإمبراطور فإن المؤكد أنها كان يمكنها أن تنجو من الموت، أن تتقدم على جلادها. قبل أن يهوى بطعنته النحسة ضيع لوكينى عدة ثوان: كانت كل من الإمبراطورة ومرافقتها، كونتيسة شتاراى، تحمل مظلة تقى وجهها من الشمس فاضطر إلى يطل برأسه تحت مظلة، لذا كان

محتملاً بعد أن انبهر بما رأى أن يرتكب خطأ يضعه موضعاً مخزياً أمام التاريخ. كان يفحص الظل ويهمس: أستمحيك العذر يا سيدتى. لكن المؤكد هو أن الأميرة نسيت تماماً أنها تحمل مسدساً فى حقيبة يدها أو تذكرت ذلك لكنها قررت أن تتساه، فقد كانت - كما اعتادت أن تقول - متعبة من الحياة. قبل ذلك بوقت قصير كتبت لابنتها تقول: "تثقل الحياة كاهلى إلى حد أننى كثيراً ما أشعر بألم عضلى وأعتقد أننى أفضل أن أكون ميتة". أما اليد الأخرى، التى لا يحمل بها المسدس، أظهرها جوان سيكارت أمام عينى أونوفرى، ممدودة، كأنما لكى تصافح يد أونوفرى بوفيلا. لكن هذا، حين أصبح جوان سيكارت على بعد عدة خطوات منه، دونما حاجة إلى النظر إلى ما يفعله الآخر بيده المختبئة، رفع كفيه إلى السماء وركع وصرخ:

- سيكارت، بحق والدتك، لا تقتلنى، مازلت صغير السن وأنا أعزل!

تردد سيكارت ثانيتين، آخر ثانيتين فى حياته، إذ خرج رجل من الظلمة وهجم عليه ودق عنقه. انفجر الدم من أنفه وفمه، حدث كل شىء ببالغ السرعة فلم يسعفه الوقت كى يخرج المسدس من جيبه فما بالك باستخدامه، كما حدث بعد ذلك بسنين للإمبراطورة نفسها. من قتله كان إفرين كاستلز، مارد كاليا، الذى كان أونوفرى أخفاه كل تلك الشهور دون أن يعلم أحد بوجوده ولكى يستعين به فى حالة الضرورة القصوى. الآن ترقد جثة جوان سيكارت أمام المذبح، تدنس المكان بالغ الدنس، لكن الضرر وقع. اجتاز أونوفرى وإفرين صحن الكنيسة الرئيس فى قفزات كبيرة وأغلقا الأبواب والرتاج. ارتاب الرجال الذين تركهم سيكارت للحراسة فى الشارع من أن خطباً وقع لزعيمهم وعبثاً حاولوا دخول الكنيسة.

فى أثناء ذلك كانت بقية رجال سيكارت توجهت إلى ميدان الملك. لحق الرجال الثلاثة ببويش وأبلغوه بما حدث، قالوا له: باب الكنيسة محكم الإغلاق لكن سيكارت لا يخرج. لكن بويش لم يلتفت كثيراً إلى

ذلك الخبر، فمنذ زمن وهو يتعطش بالفعل إلى زعامة العصابة ولم يكن احتمال أن يروح سيكارت ضحية عملية اغتيال يؤرقه فى شىء. أعماه طموحه حتى إنه قاد كل قوته إلى الميدان فنزلته فى اندفاع دون أن يرسل أولاً مقدمة أو يتخذ أى إجراء وقائى، وهو ما لم يكن سيحدث لو أن جوان سيكارت وليس بويش هو الذى يقود الهجوم. بويش نفسه التفت متأخراً جداً إلى ذلك التحرك الأرعن: كان الميدان خاوياً وطار رجال أودون موستاثا. التفت إليه رجاله كأنما يسألونه: ونحن، ماذا نفعل هنا؟ وهو نفسه، بلا عدو على مرمى البصر، أصيب بالحيرة. أما رجال أودون موستاثا، الذين تفرقوا وانتشروا فوق أسطح المنازل، رشقوهم بالرصاص. دارت معركة استغرقت ساعتين كان فريق بويش هو الخاسر دائماً رغم تفوقه العددى إذ إن تنظيمه كان سبب هزيمته: بعد اختفاء سيكارت وفشل بويش قائداً (الذى كان من بين أول من سقطوا) فى أعين أعوانه لم يدر أحد كيف يتصرف، فيما تحرك حرامية موستاثا فى ذلك الاضطراب كالسمك فى الماء، كان ذلك وسطهم المألوف. فى نهاية الأمر، تفرق رجال بويش وألقوا أسلحتهم وولوا هاربين، وأودون موستاثا تركهم يفرون، كان من المستحيل عليه أن يجمع قوات تطارد فلولهم.

عن تلك الهزيمة المخزية التى أصابت إمبراطوريته بضربة قاصمة لم يكن يعلم دون أليكساندرى كنالز إى فورميجا شيئاً بعد. فى تلك اللحظة كان رائق المزاج تماماً: كانت المدلكة قد ذهبت من توها ويساعده خادمه فى ربط رباط عنقه؛ كان يعلم أن ابنه فى باريس آمناً سالماً كما انه تخلص من زوجته التى لم تكن الحال على مايرام معها: كانت الشمس المشرقة تدخل من شرفة مكتبه حين أبلغوه بزيارة جديدة للمرأة الغامضة. استقبلها بلا تأخير إلا الضرورى كى يعطر لحيته. هذه المرة سمح لنفسه بضم خاصرتها بذراعه حين قدم لها مقعداً. قادها إلى أريكة من القطيفة بلون الكريز. قاومت المرأة هذه الجرأة فى وهن. كانت عيناها تنظران كل الوقت إلى الشرفة. وخلال المحادثة لاحت مراوغة،

غير متماسكة قليلاً. بعد برهة، حينما كان يعانقها بحرارة رأت ضوءاً يشع من سطح منزل قريب. بمرآة يدوية صغيرة تعكس أشعة الشمس كان أونوفرى بوفيلا وإفرين كاستلز يرسلان إليها إشارات يقولان فيها: انتهى كل شيء، تحركى الآن. ولكى تتحرك بحرية أكبر خلعت الحجاب والقبعة والشعر المستعار مرة واحدة. فغر دون أليكساندرى كنالز إى فورميجا فاه. وهى أخرجت من بين نهديها المستعارين مدية وأغمضت عينيها وهلة. قبل أن يسقط ميتاً على الأريكة سمعها تهمهم:

- ليغفر الله لى ما سأقدم عليه.

وقبل أن يموت كذلك أتيح له الوقت ليفكر فى ولده، قال لنفسه: حمداً له أننى أرسلته إلى مكان آمن. أما فيما يخصه فقد عنت له فكرة ساخرة: وأنا الذى اعتقدت أننى نجحت فى غزو امرأة! المرأة المزيفة كانت السيد براوليو، صاحب الفندق القديم الذى كان ينزل فيه أونوفرى بوفيلا الذى كان ذهب خصيصاً ليبحث عنه فى حى "لاكاربونيرا" ليؤدى هذا العمل. هناك كان يقضى جل وقته مجرباً نسيان أحزانه ووحدته بالتعاطى الدائم للمخدرات وتاركاً نفسه يضربه مخنثون ناقمون لكونهم كذلك، ويرغبون فى الشعور بأنهم شديدو الذكورة فيعاقبون نسوة زائفات. بعد أن اعتقل فى البنسيون للمرة الثانية، متهماً هذه المرة بالانتماء إلى خلية فوضوية، فى أعقاب البلاغ الذى تقدمت به ديلفينا، أطلق سراحه: لم يكلفه شيئاً أن يثبت براءته فى هذه القضية وأن يثبت للشرطة ولقاضى التحقيق أن أهواءه مغايرة. بعد إطلاق سراحه حاول أن يضطلع مرة أخرى بأمر البنسيون لكن المشهد الذى وجده هناك كان بالغ الكآبة: توفيت زوجته فى المستشفى، وكانت ديلفينا على وشك المحاكمة مع شركائها وكانت التهم الموجهة إليها فى غاية الخطورة، فمن ينج من الإعدام يحكم عليه بالسجن المؤبد. كان صاحب البنسيون يقول لنفسه: لن أرى ابنتى أبداً! وفى غيابها لم يهتم أحد بالعناية بالبنسيون: تراكم الغبار فى كل مكان وفى المطبخ بقايا طعام فى حالة متقدمة من

العفونة. أراد أن يصلح الأمر لكن عزيمته خذلته. بمعاونة الأب بيثانثيو والحلاق نشر إعلاناً في الصحف وسرعان ما عثر على من يرغب في إدارة البنسيون. بما حصل عليه من مال على هذا النحو غاص في حي لاكاريونيرا وجعل يهوى إلى أن أحس على خديه الشاحبين بتحليق الموت الذى كان يحوم حوله؛ كان هذا ما ذهب يبحث عنه هناك لكنه ما إن واجهه عاد فداخله الخوف. في إحدى الليالي، لدى خروجه من أحد أوكار الليل، اصطدم بأونوفري بوفيلا. ودون أن يدرى ماذا يفعل ارتمى بين ذراعيه متوسلاً: ساعدني، لا تدعني أموت هنا. فأجابه أونوفري: تعال معي يا سيد براوليو، انتهى هذا الأمر! منذ ذلك الحين راح يفعل ما يؤمر به دون أن يتساءل أهذا خير أم شر. الآن تخلص من القناع وخبأه وراء الأريكة التي عليها الرجل الذى قتله في التو. في ملابسه الداخلية توجه إلى الشرفة وبمرآة بودرة الوجه وجه إشارات إلى سطح المنزل حيث ينتظر أونوفري بوفيلا وإفرين كاستلز نتيجة تدخله. حين كان يشرح له تفاصيل مهمته كان أونوفري أكد له أن عليه إغلاق باب المكتب بالمفتاح وألا يفتح لأحد إلى أن يذهب لنجدته هو نفسه. والآن التفت إلى أنه بسبب التوتر العصبي المعتاد في مثل هذه الظروف نسى فعل ما قيل له. سمع وقع أقدام وأصوات في الدهليز: كانوا رجال دون أليكساندرى وقد خفوا لمساعدة رئيسهم. حاول أحدهم الدخول فكان السيد براوليو على وشك أن يفقد الوعي لكن شيئاً لم يحدث: دون أليكساندرى نفسه كان أغلق الباب بالمفتاح حتى لا تتمكن المرأة التي كان يفكر في غزوها من الفرار من مغازلاته؛ وهكذا، قبل أن يموت أنقذ حياة قاتله. فكر السيد براوليو حين رأى الباب مغلقاً: كلهم سواء، بذيئون! البقاء طويلاً في رفقة ضحيته حطم أعصابه. ألفاه أونوفري بوفيلا وإفرين كاستلز على حافة الانتحار؛ كان يعتزم أن يلقى بنفسه من الشرفة. شد إلى عنقه قارورة من البرونز شديدة الثقل تحسباً لئلا تكون المسافة من الشرفة إلى أرض الشارع كافية لقتله - هذا ما قاله. أونوفري وإفرين

كاستلز تحفظا على كافة الأوراق التى عثرا عليها فى مكتب دون أليكساندرى كنالز إى فورميجا. قال إفرين:

- بهذا يمكننا أن نجعل نصف المدينة ترقص على الإيقاع الذى يحلو لنا. بهذا سنقطع رؤوس الجميع.

فى مساء نفس اليوم ذهبا إلى مكتب أرناو بونثيّا وقالا له: تمت المهمة بنجاح. عرضا عليه الوثائق المتحفظ عليها فى مكتب دون أليكساندرى كنالز إى فورميجا فألقى أرناو بونثيّا نظرة عليها ولم يستطع أن يكبت صفير إعجاب، قال: بهذا سنقطع رؤوس الجميع. حين سمع هذه العبارة، نفس العبارة التى استخدمها هو من قبل، قهقه إفرين كاستلز. حينئذ اصطنع أرناو بونثيّا أنه لم يكن لاحظ حتى الآن وجود العملاق، مظهراً أنه لم يكن رآه. توجه إلى أونوفرى ليسأله من هذا الشخص، محاولاً بذلك أن يؤكد سلطته أمام جميع الحاضرين. فأجابه أونوفرى فى عذوبة أن العملاق يدعى إفرين كاستلز. قال: إنه صديقى وذراعى اليمنى، هو الذى قتل جوان سيكارت. حين سمع ذلك أصابت أرناو بونثيّا، ولقبه مرجريتو، رعدة، فقد فطن إلى أن امرأً نحساً على وشك أن يحدث له. فكر: إذا كان لا يهمهما أن أعرف هذه المعلومة فمعنى هذا أنهما سيقتلاننى. فيما يفكر فى هذا رفعه إفرين كاستلز من مقعده من إبطيه ثم حمله عالياً فى المكتب كأنه طفل وليس بالغاً، وهو راح يحرك ساقيه بلا جدوى. صرخ:

- ما معنى هذا المزاح؟ - لكنه رأى جلياً أن ذلك لم يكن مزاحاً، فسأل بصوت رخيم، لا يكاد يسمع: - إلى أين تحملاننى؟

أجابه أونوفرى بوفيلا:

- إلى حيث تستحق. أنت دبرت كل شىء لتقضى علىّ، أردت أن يقتلنى رجال سيكارت وأنا أرد لك الصنيع.

فتح باب الشرفة وقذف عملاق كاليا بأرناو بونثيّا من فوق سياج الشرفة. فى نفس هذه الشرفة كان دون أومبرت فيجا إى موريرا قضى

وقتاً يفكر فى معنى الحياة، قبل ذلك بعدة أيام. والآن فتح باب مكتبه على مصراعيه ودخل أونوفرى بوفيلا وإفرين كاستلز. قالا له إنهما جاءا ليبلغاه بنجاح العملية. تم القضاء على عصابة كنالز إى فورميجا، مساعداه سيكارت وبويش قتلا، كنالز نفسه قتل أيضاً، تم العثور على كافة الأوراق وهى الآن تحت يد أونوفرى بوفيلا، خسائر المعركة بلغت حداً أدنى: أربعة قتلى وحوالى ستة جرحى. يضاف إلى ذلك موت أرناو بونثيّا فى حادث أليم وغير مفسر. لم يدر دون أومبرت فيجا إى موريرا ماذا يفعل أو يقول: لم يكن يتصور أن الخطة التى حاكها أرناو بونثيّا يمكنها أن تسفر عن نتائج دموية إلى ذلك الحد. والآن يلوث ضميره دم رجال عديدين. كان سمع منذ لحظة صرخة أرناو بونثيّا الأليمة ووعى أن الأمور منذ تلك اللحظة ستكون مختلفة تماماً عما كانت عليه من قبل. زفر فى أعماقه: على أية حال ما باليد حيلة وعلى أن آلف الوضع. فكر: فى هذه اللحظة، المهم هو أن أنجو بحياتى من هذه المقابلة. بصوت عال، طلب بعض البيانات الإضافية غير ذات الأهمية، بلا مبرر آخر سوى كسب بعض الوقت: وأونوفرى أعطاها له على نحو مقتضب وهو يعلم أن دون أومبرت لا ينصت إلى ما يقول. ببادرة الاحترام تلك أراد أن يثبت حسن نواياه، وأنه مازال مستعداً لمواصلة العمل تحت إمرته. فأودون موستاثا ورجاله يكنون الإعجاب والحب لدون أومبرت وما كانوا سينساقون إلى خيانته وإن يكن من أجل أونوفرى بوفيلا. وهذا الأخير كان يعلم ذلك ولا يفكر فى مناورة فى هذا الاتجاه. فى نهاية الأمر، أدرك دون أومبرت ذلك وتحدثا معاً حديثاً مطولاً. كان دون أومبرت غارقاً فى خضم من الريب. جعل يقول لنفسه: المدينة كلها ملكى لكننى لست معداً لتحمل كل هذه السلطة على نحو مباغت، خاصة وأننى فقدت منذ لحظات أخلص مساعد لى، الذى ترقد جثته مهشمة هناك، أسفل، أمام عينى، ماذا سأفعل؟ أجاب أونوفرى بوفيلا على تلك الريب، فهو بالفعل كان فكر فى كل شىء. بلا صلف، لكن بجسارة لا تناسب

عمره أو درجة زعامته اضطر دون أومبرت إلى تحملها رغماً عنه، قال له إنه ينبغى أن يضطلع بأمر تنظيم الميت ولكنه أوضح ألا ينبغى ضمه إلى تنظيمنا. كان يقول "تنظيمنا" بتبجح مقصود. فى ظروف أخرى، كان دون أومبرت سيسوطه كما يعن له بسوط قريب منه دائماً ولكنه عدل عن ذلك لما يثيره فيه أونوفرى بوفيلا من خوف وللحضور المرعب لإفرين كاستلز فى مكتبه. فكر: إن ما يقوله ذلك الولد المغرور جد معقول؛ صحيح أنه لا يجب خلط الأمور، فأنا شىء وكنالز، يرحمه الله، شىء آخر. كانت المشكلة حينئذ، بعد موت أرناو بونثيّا، تتركز فى معرفة من سيتولى شؤون كنالز. قال أونوفرى بوفيلا إن لديه الشخص المناسب لذلك. لم يخف دون أومبرت فيجا إى موريرا حيرته. قال له: لن يكون أودون موستاثا أو ذلك الفتوة الذى لديك هنا! لم يستشعر أونوفرى إهانة فى ذلك، أجابه: كلا، كلا، ليس كذلك، فكل شخص ينفع لما ينفع له، والشخص الذى أحدثك عنه لديه موهبة فى هذه الأشياء ووفاؤه فوق الشبهات، هو بالمصادفة ينتظر الآن فى البهو: فإذا أذنت لى أود إدخاله إلى هنا لكى تتعرف إليه. بعد أن أذن له أدخل السيد براوليو. فكرة أنه قتل إنساناً بيديه أصابته بهوس حتى إنه لم يعد يفكر باتزان: ولم يعد قادراً كما كان من قبل على الفصل بين وجهى شخصيته: أحياناً يتحدث برصانة الرجل صاحب البنسيون الذى كانه وفجأة يخرج من جيبه صناجات ويشرع فى الرقص. قال لدون أومبرت حين قدم إليه:

- أنا رجل متناقض. حين يذهب عنى الهياج الجنسى لا أفكر إلا فى الانتحار. لحسن الحظ لم يكن الأمر خطيراً هذه المرة، لكننى فى المرة السابقة، لن تصدق: لطخنى الدم.

حك دون أومبرت فيجا إى موريرا رقبته فى وقار، دون أن يدرى ماذا يفعل مثل ذلك المسخ فى أمر على ذلك الجانب من الخطورة.

(٤)

مع مجئ الصيف من جديد عادت المياه إلى مجاريها: لم يعد أحد يتذكر تراشق النيران أو المعارك العنيفة التى زرعت الرعب فى المدينة قبل ذلك بعدة أشهر. وعلى الرغم من أن الجميع، فى بداية الأمر، كانوا مستائين، شيئاً فشيئاً جعلوا يتقبلون السيد براوليو مكان كنالز إى فورميجا؛ وراح السيد براوليو يتصرف بمقدرة رائعة، فقد كان جد محافظ ولم يكن يتجاوز الحد فى تحركاته ويمسك الحسابات بدقة كبيرة. كان أونوفرى بوفيلا قد حرم عليه أن يعود إلى سابق عهده، قال له: لا عودة إلى ارتكاب أية سفاهات فى حى لاكاربونيرا، لأننا الآن أناس محترمون: إذا أردت التسرية عن نفسك أو أردت عربدةً تدفع ثمنها وتحضرها إلى منزلك لأننا لا نكسب مالاً قليلاً؛ أما خارج المنزل فعليك بالجدية. أقام السيد براوليو فى الطابق الرئيسى فى بناية بطريق سان بابلو، وجعل مكتبه فى الدور السحرى. فى بعض الليالى كان الجيران يسمعون أغانى صادرة من بيته، وعزفاً على القيثارة وأصوات شجار وتحطم أثاث؛ فيما بعد، كان يذهب إلى الاجتماع برجالات برشلونة وجبهته مضمدة أو بهالة زرقاء حول عينيه، إلخ.. لكن الشىء الوحيد الذى ينخر أحشاءه هو أن ابنته ديلفينا لما تزل فى السجن. الآن لديه من السلطة ما يمكنه من إطلاق سراحها، فهو متخصص تحديداً فى مثل هذا النوع من الخدمات، فذلك كان عماد أعماله، لكن أونوفرى بوفيلا حرم عليه ذلك تحريماً قاطعاً. كان يقول له: إلى الآن لا نستطيع أن نتيح لأنفسنا عمل ذلك، فهذا الشكل من أشكال المناورة سيفتح الباب للقيل والقال وسيحرك الماضى؛ سيكون لدينا متسع من الوقت للاهتمام بأمر ديلفينا فيما بعد، حين يتعزز نفوذنا. كان صاحب البنسيون القديم المسكين يحب ابنته حب العبادة

لكنه يطيع أونوفرى ضعفاً. سراً، كان يرسل لها فى الزنزانه طروداً من الطعام والمربى وكذلك أغطية للفراش وملابس داخلية من أفضل الأنواع. لكن ديلفينا بلا كلمة شكر واحدة، كانت تعيد إليه الملابس ممزقة بأسنانها وبلا استخدام. مع السيد براوليو يعمل الآن أودون موستاثا بدلاً من الراحل جوان سيكارت. لم تكن لديه نفس الموهبة أو نفس الاستعداد لكنه يحظى بحب كل من يخالطه. ولما كان رجلاً شديد الجاذبية كان السيد براوليو يحتمل كل شيء من أجله. وفى المنصب الذى كان يحتله أودون موستاثا وضع أونوفرى بوفيلا نفسه كما تولى المهام التى اضطلع بها قبله أرناو بونثيّا. كافة هذه الترتيبات كانت تتم بمباركة دون أومبرت فيجا إى موريرا. كان سعيداً، وفى أفضل عالم: ألفى نفسه دون أن يسعى إلى ذلك معتلياً ذروة الحياة السرية فى برشلونة، ليصبح المسؤول عن أية دسيسة. لم يحلم قط بأن يبلغ ذلك المبلغ البعيد. كان رجلاً متناقضاً: خليطاً من الذكاء والحمق معداً بحكمة، من التهريج المحسوب والسذاجة الأصيلة، فكان ينجز أصعب المهام بنفس القدر من الجهل والرعونة والشجاعة، وبالتالى كانت النتائج مبهرة، وفيما بعد كان ينسب إلى نفسه كل الفضل. كان قليل الحذر وشديد الخيلاء بنفسه، يحيا فقط ليراه الناس، فمهما تكن خطورة الأمور التى بين يديه لم يتخلف قط عن الذهاب للتنزه بطريق جراثيا غنجاً يمتطى صهوة فرسه البلقاء الشهيرة. تلك الفرسة الشريشية التى دفع ثروة ثمناً لها كانت مدربة، فقد كانت تستطيع بل اعتادت أن تقطع كل المسافة بين شارعى كاسبى وبلنسية وهى تتخطى العربات الأخرى. لكن ذلك الاستعراض لم يكن ينتهى دائماً على خير، فالفرس كانت ضعيفة القوائم وكل يوم، فى لحظة ما من لحظات النزهة، تكبو على وجهها فيسقط الفارس على الأرض، لكنهما ينهضان فى الحال فتصهل الفرس وينفض هو عن سترته ما علق بها من روث، فيسرع متسول من الطوار مندفعاً بين عجل العربات وسنابك الخيل ليلتقط القبعة والسوط

من الأرض ويسلمهما لدون أومبرت بعد أن يعود إلى صهوة الفرس. وهو، رابط الجأش، كان ينفح ولاء الصبى عملة معدنية تتوهج فى شمس منتصف النهار وهكذا يحول الحادث إلى طقس من طقوس السيادة. كانت الطبقة البرجوازية العليا تحديداً هى التى تفسره على هذا النحو، ولما كانت تفتقر تماماً إلى حس الدعابة كانت تقدم إليه أفضل الابتسامات تكريماً له وجميعهم يقول: هكذا يكون السيد العظيم. وهو لكونه أحمق راح يظن أن مظاهر الاحترام تلك توازى قبوله فيما بينهم. لكن ذلك كان بعيداً عن الصواب، فلما كانت طبقة البرجوازية العليا تفتقر إلى الأصول النبيلة والصارمة التى لدى الطبقة الأرستقراطية لم يكن فى وسعها سوى أن تكون صارمة عملياً؛ كانت تحترم أموال دون أومبرت فيجا إى موريرا وخاصة طريقته فى إنفاقها، لكنها تعتبره على المستوى الشخصى متسلقاً وحديث نعمة؛ وفى ساعة الجد لم يكن أحد يأخذه فى اعتباره. لكن ذلك لم يكن يسترعى انتباهه، لأن خيلاءه، ككل خيلاء أصيلة، كانت بلا غرض، بل غاية فى ذاتها، فهو بتألقه لم يرغب فى دعم صيته ولم يفكر حتى فى مغازلة جمهور النساء الذى يتمتع بينه، دون أن يدرى، بشعبية كبيرة، فكل السيدات المتزوجات وغير القليل من البنات فى سن الزواج كن يتنهدن حين يرينه يمر. وهو لم يكن يلاحظ ذلك أيضاً. فى حياته الخاصة لم تكن الأمور تسير على نحو أفضل، فزوجته التى ترى فى نفسها قمة الجمال والذكاء والرقى تظن أن كل ما لديها قليل وأنها خسرت حين تزوجته وكانت تعامله بازدراء، والخدم، إذ رأوا ذلك، راح يعامله معاملة أشبه. وهو كان يخضع لتلك الإهانات دون أن ينبس ببنت شفة فلم يره أحد غاضباً قط إذ بدا كأنه يحيا فى عالمه الخاص. بعد أن اعتاد ألا ينصت إليه أحد كان يجول بالمنزل مصدراً أصواتاً غير واضحة بلا أمل فى الرد ومن أجل متعة سماع صوته. فى أحايين أخرى، حدث العكس، ظن أنه قال ما كان يفكر فيه فقط. هذا التعذر التام للاتصال لم يخلف أثراً فيه. كان

العمل يمتص طاقاته وتلك النجاحات الاجتماعية المحدودة ترضى غروره وتسد ابنته، التى يعبدها، حاجته إلى الحب.

فى تلك الفترة كان التصييف جد مختلف عما نعرفه اليوم. فالعائلات صاحبة الامتياز وحدها، محاكاةً للأسرة المالكة، تنتقل للإقامة فى مكان مرتفع، ذى مناخ أكثر جفافاً، مع بداية حر الصيف، على ألا تبتعد كثيراً عن برشلونة؛ فتقضى الصيف فى سارّياه أو بدرالبس أو بونانوفا، وهى الآن أحياء فى المدينة. أما بقية المواطنين فكانوا يقاومون القيظ بالمراوح وأباريق الماء البارد. وأخذ الاستحمام فى البحر ينتشر بين الشباب، المتفرنس، واستتبع ذلك الضجة المعهودة. ولما كان الجميع تقريباً لا يعرف العوم كانت نسبة الغرقى كل عام مرتفعةً. ثم كان القساوسة يستخدمون الإحصائيات الحزينة فى مواعظهم برهاناً على غضب الرب. ودون أومبرت فيجا إى موريرا الذى كان متأخراً فلم يقتن مسكناً صيفياً فى أحد الأحياء العتيقة اضطر إلى بناء مسكنه الصيفى فى ضاحية شمال النطاق الحضرى، وأطلق عليه لابودابييرا. هناك اشترى قطعة أرض غير مستوية تغطيها أشجار الصنوبر والقسطل والماجنوليا وشيد منزلاً متواضعاً. وكما هى عادة الكثير من المحامين، لدى شراء قطعة الأرض لم يتخذ أى نوع من الحذر. ثم كان عليه أن يكرس وقته وجهده وماله لحل مشاكل عقارية ترجع إلى قرون غابرة. الحق أنه وقع ضحية عملية نصب؛ كانت قطعة الأرض مظلمة وعالية الرطوبة ومرتعاً للناموس؛ وكان المكان قد فقد سمعته إلى حد أن جيرانه لم يكونوا إلا جماعة من النساك يعيشون فى كهوف غير صحية ويتغذون على جذور النبات ولحاء الشجر ويجولون فى الجبل كاشفين عن عوراتهم، وبمرور الأعوام فقدوا استخدام الكلام والعقل. كانت زوجته تقول له كل يوم: أحمق مثلك وحده يمكن أن يفكر فى شراء قطعة أرض فى مقلب النفايات ذاك! بل كانت تكرر ذلك أكثر من مرة فى بعض

الأيام. فهى كانت تود أن تذهب لتستحم فى أوكاتا أو مونتجات، وتتعامل مع خيرة شباب البرجوازية تأنقاً. لكن زوجها، لمرة واحدة، فرض رأيه، قال:

- لا أنت ولا البنت تجيدان السباحة ويمكن أن يجرفكما تيار: سمعت أيضاً أن فى قاع البحر أخطبوطاً وجلكا يقرصان ويمزقان المستحمين أمام أعين أقربائهم وأصدقائهم المرتعبة.

- هذا يحدث لهم لأنهم يستحمون عراة. فهم إذ يعرضون لحمهم يثيرون شهوة الحيوانات البحرية التى لا تفرق الحيوان عن الإنسان إلا من خلال الملبس.

حين قالت ذلك أومأت بفمها ساخرة، كأنما تشمت فى مصيبة من لا يجيد ارتداء الملابس كما ينبغى. كانت متيقنة من أن أى حيوان لن يقترب منها وهى التى مازالت ترتدى تنورة داخلية على شكل جرس لا تساير الموضة وتسحب وراءها ذيل فستان مبطناً طوله متران وتلبس الحلى بشكل مفرط طوال اليوم. كان زوجها يوافقها الرأى فى نهاية الأمر دائماً. إلى مقر الإقامة الصيفى هذا ذهب أونوفرى بوفيلا لزيارته فى صيف ١٨٩١.

ارتقى الجبل بجواده ركضاً وألفى نفسه تائهاً وسط الغابة. غطى الزبد الجواد الذى يمتطيه وتقطعت أنفاسه. قال أونوفرى لنفسه متوجساً: سيموت الجواد هنا بين ساقى وألبث أنا هنا غريقاً؛ غريب حقاً أن أكون أنا تحديداً من يضل طريقه فى الجبل، لقد أصبحت رجل مدينة. فى نهاية الأمر لمح منزلاً محوطاً بحديقة وارفة وبسياج منخفض من الحجارة الداكنة. من المدخنة ارتفع عمود دخان. ترجل واقترب ممسكاً بعنان الجواد وأطل من السياج عل أحداً يرشده. لاحت الحديقة خاوية؛ صاءت العصافير وطن الذباب والزنابير وحلقت الفراشات. عبر الشجر، على نحو غير واضح من جراء ومض ضوء راسى، رأى صبية

تمر. كانت ترتدى ثوباً من الأورجاندا البيضاء بكم قصير، مطرزاً بالدانتيلا ومزيناً بشرائط دقيقة من المخمل القرمزى. غطاء للرأس، أبيض كذلك، ومطوىّ ومزين بزهور صغيرة من القماش أتاح رؤية حواف ضفائر بلون النحاس. وغطاء الرأس والضفائر سمحا فقط برؤية أجزاء من الوجه؛ أرنبة الأنف، وجنة متوردة، منحنى الجبهة الطفيف، الذقن البيضاوية، إلخ. أصيب أونوفرى بالشلل، وحين أفاق تلاشت الرؤيا. سأل نفسه: آه، من تكون؟ وهل رأتنى؟ لا تبدو ريفية، كيف تسير وحدها، هنا، فى الريف، بلا رفقة... يا له من لغز! فيما يفكر فى ذلك ظهر خادم. أشار إليه وحين اقترب سأله هل هو المكان الذى يبحث عنه. حين رأى أنه نفس المكان بالفعل سلم الخادم لجام الحصان وأعلن عن حضوره. كان دون أومبرت فيجا إى موريرا حرم قطعياً أن يذهب أحد من رجاله إلى مقر إقامته الصيفى؛ فلم تكن لديه أقل رغبة فى أن يضايقه أحد هناك تحت أية ذريعة. ولم يكن كذلك يود أن تتورط أسرته فى أموره. وأونوفرى كان من الجرأة بحيث عصى هذا الأمر، فقد كان يختبر مدى احتمال دون أومبرت لعصيانه. قادته خادم إلى غرفة مسدسة فى الطابق الأول لها العديد من الأبواب. كان كل الضوء صادراً من كوة معتمة، هكذا يظل الضوء خافتاً داخل الحجرة فينتاب المرء شعور لطيف بالجو المنعش. سابحاً فى هذا الضوء الخافت ومض بياض المدفأة الصدفى: على رف المدفأة كانت هناك مرآة عالية فى إطار ذهبى وشمعدان برونزى وساعة من الطراز الإمبراطورى مغطاة بما يشبه الناقوس الزجاجى. وكل الأثاث فى الغرفة انحصر فى منضدة فى أحد الأركان من الخشب المطلى وفوقها تمثال رخامى لفينوس قائمة فى قوقعتها، وكذلك شمعدان من الطراز المورسكى وكومة من الوسائد من الساتان. أثار ذلك فى نفس أونوفرى بوفيلا إعجاباً جماً، فكر: ما أجمل البساطة، يا لها من أناقة أصيلة! صوت حاد خلفه جعله يلتفت. بحكم العادة اتجهت يده إلى جيبه الذى يحمل فيه دائماً الآن المسدس الذى

سلب جوان سيكارت إياه قبل ذلك بشهور. فتح أحد الأبواب دون أن يطرقه أحد، وهناك كانت الصبية التى كان لمحها قبل دقائق فى الحديقة؛ الآن خلعت غطاء الرأس وتقرأ كتاباً ذا غلاف أسود، كأنه كتاب صلوات، وهذا الحضور غير المتوقع لشخص غريب فاجأها فى المدخل. فتح فاه ليقول شيئاً لكنه لم يخرج أى صوت: وهى، ربما أقل خجلاً، أغلقت الكتاب، ثم أومأت إيماءة تحية مليحة حتى لمست بركبتها الأرض وهمست بشىء لم يفهمه أونوفرى بوفيلا الذى تمكن من قول:

– أستميحك العذر، كنت تقولين...؟

خفضت عينيها إزاء نظرته الحادة ونشبت نظرها فى شكل الأرابيسك الذى يؤلفه بلاط الحجرة، ثم قالت بصوت خفيض:

– باسم العذراء الطاهرة.

– التى حملت بلا خطيئة – صاح أونوفرى.

وهى كررت الانحناء دون أن تنظر إلى وجهه. قالت وقد احمر وجهها إنها لم تكن تعلم أن أحداً بالحجرة فلم تكن الخادم أخبرتها. قاطعها فى الحال:

– كلا، كلا، مستحيل، على العكس، أقدم اعتذارى لو أننى أخفتك...

قبل أن يتمكن من إنهاء عبارته كانت اختفت وأغلقت الباب وراءها. والآن، وحده، راح يذرع الحجرة قفزاً ويقول لنفسه دون أن تشغل باله مسألة أنه يكلم نفسه أم يتحدث بصوت عال أم أن أحداً يسمعه: أيها الحيوان، الأبله، المتوحش، كيف سمحت لنفسك بأن تدعها تذهب، والآن يعلم الله هل ستتاح لك فرصة أخرى لرؤيتها. لم يحدث قبل تلك اللحظة، فى مواقف أشد من هذا، أن تردد إزاء أية سانحة، إذ تمكن دائماً من استباق الأحداث. قال لنفسه: إما هذا وإما لن أحيا كى أحكى ما حدث! راح يئن راكعاً فوق الوسائد الوثيرة التى على الأرض؛ وأنا الذى كنت أظن نفسى فى مأمن من هذا العذاب! فى وضع التائب هذا واصل فكره: لكن، كلا، ما هذا الذى أقوله لنفسى، فهى لا تعدو كونها

طفلة، فإن حدثتها عن الحب ماذا عساها أن تفهم؟ سيصيبها الذعر، بل أسوأ من ذلك، ستسخر منى؛ ففى نهاية الأمر من أكون سوى حمار، فلاح حقير تحول إلى قاتل محترف لخدمة جماعة من الحرامية. أخذ يصارع لكى ينتزع من قلبه ذلك السهم الذى يبدو أن طالعه أصابه به؛ ويحاول حماية نفسه سدى من تلك الموجة التى تغشاه كمن يقيم سداً على الرمال لاحتجاز البحر. فى سورة غضبه أمسك بتمثال فينوس الرخامى وألقاه بكل قواه على مرآة المدفأة. أول ما سقط على الأرض كان التمثال الصغير الذى تناثرت أجزاؤه: أما المرآة فتشققت وظلت هكذا أعشاراً من الثانية، الوقت الكافى لكى تعكس وجه الصبية الخائفة وقد شوهته الشقوق وتحدب المرآة التى كانت تسقط فى دوى شديد؛ سقطت ست أو ثمانى شرائح كبيرة وتهشمت وتناثرت فى كافة أرجاء الحجرة فى شكل غبار زجاجى. وظل فى إطار المرآة لصوق من الزجاج والملاط. خلفه عاود سماع صوت: كانت هذه المرة صرخة مختنقة. كانت عاودت الدخول وتنظر مرتعبة فى تلك المرآة التى لم تعد تعكس شيئاً، كأن الحجرة ومن يحتلها لم يعد لهم وجود؛ فى تلك الصورة أدركت ما أراد هو أن يقوله لها، وجدت معنى فى ذلك الفعل البربرى. تركته يضمها إلى صدره وأحست بالنبض الغاضب لذلك الرجل المجذوب، قالت بما استطاعت أن تجمعه من أنفاس واهنة:

- لم يقبلنى أحد بعد.

- ولن يفعل أحد مادمت على قيد الحياة، إلا إذا أراد أن "أطير غطاء مخه"، - قبلها فى فمها بعد أن قال ذلك ثم أضاف: -"وغطاء مخك أنت أيضاً" - وهى قوست جسدها إلى الخلف؛ الرأس والرقبة والكتفين والظهر؛ شعرها النحاسى المنسدل الآن يغطى خط الخصر. تركت ذراعيها تسقطان بلا حركة إلى جانبى جسدها وبقدمها لامست بلاط الحجرة البارد، ثنت ركبتها فصارت معلقة من ذراع أونوفرى المحيطة بجذعها. من بين شفتيها صدرت زفرة طويلة، قالت: - نعم. -

هكذا، فى لحظة واحدة، جازفت بمستقبلها.

رفع أونوفرى عينيه، طرف بعينه، كان هنالك آخرون فى الغرفة. كان السيد أومبرت فيجا إى موريرا الذى دخل فى التو يرافقه سيدان آخران، أحدهما يدعى كوسمى بالبوينا، مهندس معمارى. فالسيد أومبرت، الذى كان أصابه ضجر قاتل، قرر إجراء أعمال توسعة فى المنزل واستغلال بناء قديم ملحق به كان حظيرة وبرج حمام. لإنجاز تلك الأعمال لم يكن هناك مفر من استخدام قطعة الأرض المجاورة. ذلك الاحتلال لشبرين من الأرض تسبب فى نزاع مع صاحب العقار المجاور الذى كان، من قبيل المصادفة، شريكاً للسيد أومبرت. وهذا، بسبب انشغاله الشديد بأمور أخرى أهم بحيث لم يكن لديه من الوقت ما يضيعه فى نزاعات قليلة الشأن على ذلك النحو، أحضر من برشلونة محامياً شاباً لكنه ذو سمعة طيبة للغاية. كان متخصصاً فى مثل هذا النوع من الأمور خاصة أمور الخدم. كان الرجال الثلاثة يكرسون اليوم بأكمله لتفقد المنزل والحديقة والحقول المحيطة. كان المحامى يرفع قياسات بحبل ويعرض مقترحات معمارية على المهندس الذى لم يكن يهتم حتى بسماعها. وهذا بدوره كان يقترح على السيد أومبرت طرقاً قضائية ممكنة لكسب القضية. كانوا يتناقشون، يحتدون، يستمتعون بوقتهم. وفيما بعد يجلسون إلى مائدة الطعام ويأكلون بشهية تثير الحسد. لم تكن زوجة السيد أومبرت تحتج على وجود هذين الطفيليين، لأنها رأت ابنتها تقترب من سن الزواج وكان الرجلان، المهندس والمحامى، أعزبين، ويبدو أن مستقبلاً متألقاً ينتظر كلاً منهما. كانت تفكر: على الأقل كل منهما متصل بدوائر مهنته، وليسا كزوجى الأحمق. وهو كان يرد على هذا التفكير فى بشاشة قائلاً: أية أمور هذه التى تعن لك يا امرأة، فالبنت أكملت عشر سنوات من عمرها منذ قليل فقط! أما الآن فلم يكن يدرى فيم يفكر. ومع ذلك لم يكن من الحمق بحيث لا يلتفت إلى انسحاب ابنته الواهن وإلى النظرة المتعطشة والجامحة فى

عينى تابعه، أو بحيث لا يعى أن أفضل ما يمكن عمله هو أن يصطنع أنه لا يعلم شيئاً عما حدث هناك. اقتصر على قول: حسن، حسن، أرى أنكما تعارفتما وأصبحتما صديقين: يعجبنى ذلك، يعجبنى ذلك! وهما تأخرا وهلة فى فض العناق واستعادة التوازن والاعتدال، فى ارتباك واضح. حتى أونوفرى بوفيلا نفسه، الذى كان قبل ذلك بدقائق يزدرى السيد أومبرت، أصبح الآن، وهو يرى فيه والد المرأة التى يحبها، مستعداً لأن يكن له بالغ الاحترام؛ ففى الحال، انتقل من حالة الغضب إلى حالة الخضوع. كان المهندس والمحامى يذرعان الغرفة لتقدير حجم الأضرار؛ قال المحامى:

- المهم ألا يصاب أحد بالزجاج المحطم!

عاد أونوفرى بوفيلا إلى برشلونة والشمس خلفه. من الأيك صدر صخب الجنادب وكانت السماء مرصعة بالنجوم. راح يفكر وعيناه معلقتان بتلك الخريطة السماوية: ماذا سيكون من أمرى؟ كان يعلم أنه، مادامت هى تبادله الحب، لن يخون السيد أومبرت فيجا إى موريرا.

قبل انتهاء الصيف طلب كل من المهندس والمحامى يد ابنة السيد أومبرت فيجا إى موريرا. تلك الخصومة وما يستتبعها من الحاجة إلى الاختيار أتاح لها أولاً، التسويف فى الأمر، ثم إعلان رفضها القاطع للزواج من أى من المرشحين. أحياناً كان هذا الرفض حاسماً، وفى أحيان أخرى، مشوباً بالندم، وفى أغلب الأحوال مصحوباً بالدموع وضرب الأرض برجليها؛ ونظراً إلى رقة تكوينها كانت تجرح نفسها إذا خبطت الحوائط برأسها أو الأثاث بيديها فكانت تغطيها الضمادات فى كل حين. هذه التصرفات والتهديد المستتر بإمكان أن يصيبها ما هو أخطر إذا لم تحترم إرادتها بدلا فى الحال إرادة أبيها. غير أن أمها حدست أن مرد تلك المقاومة التى لا تقهر لم يكن رفضها للمرشحين، اللذين لا يبدو أنها التفتت إلى وجودهما حتى، بل لأن هنالك سبباً أقوى. تذكرت تحطم

المرآة والتمثال، ومسألة أن ذلك الحادث المزدوج صادف الزيارة الغريبة التى قام بها أحد مرؤوسى زوجها لضيعة لابوداييرا، من هذه المعلومات خلصت إلى نتائجها الخاصة ثم سألت زوجها، وهذا انتهى إلى الاعتراف بأنه فاجأ ابنته بالفعل فى مشهد مع الصبى؛ وقال إن ذلك المشهد، الذى قلل كثيراً من تفاصيله وهو يحكيه لزوجته، قد يجعلنا نفكر فى أن الصبية تشعر بميل نحو ذلك الصبى. أرادت زوجته أن تعرف: ومن كان ذلك الصبى؟ قدم لها السيد أومبرت تفسيرات مبهمة لم تنصت إليها، لم تكن تهتم بما يمكن أن يقوله زوجها بل بما يحاول التستر عليه؛ ومن تردد السيد أومبرت تحققت أن أونوفرى بوفيلا أقل المرشحين مناسبة لابنتها. قالت: طيب، سنستبعد المحامى والمهندس، لكننا سنضع البنت فى مأمن من ذلك الجلف؛ وحين تنساه سنهتم بالبحث لها عن زوج يناسبها، فمازالت طفلة وفى وسعها إضاعة نصف دستة من الفرص. بناء على طلبها وضع السيد أومبرت ابنته فى مدرسة داخلية، ومع ذلك لم تعترض الصبية؛ فهناك كانت تشعر بأنها تخلصت من الخطاب. قالت لنفسها: على أية حال، هذا أفضل ما يمكن أن يحدث لنا. وهذا ما وعاه أونوفرى بعدما هدأ سخطه المبدئى. فكر: فى يوم من الأيام ستكون لى، أما الآن فعلينا بالصبر. أوصل إليها داخل المدرسة مئات الخطابات بوسائل لا تخطر على بال أحد. وكانت لذلك قيمة كبرى لأن أونوفرى بوفيلا إلى ذلك الحين لم يكن يجيد التوقيع باسمه تقريباً؛ ويمكن القول إنه تعلم الكتابة بطلاقة فى هذه الخطابات. وهى كانت ترد على خطاباته من حين لآخر محاولة اختراق رقابة الراهبات. قالت له فى واحد من تلك الخطابات: "قبل كل شىء، أحمد الرب باسم يسوع، لأن الله الذى يسبحه روحى شاهد كيف أفكر فيك دوماً وأسأله دائماً فى صلواتى، إن شاءت إرادته، أن يأتى يوم أصل فيه إليك، فأنا أهفو إلى رؤيتك". هذه اللغة، المنقولة حرفياً عن القديس بولس، كانت غريبة على طفلة محبة؛ قد يكون مبررها الخوف من أن تقع هذه الرسائل فى أيدى

الراهبات أو أيدى أبويها أو ربما كان إيماناً صادقاً من جانبها: ففيما بعد، حين تزوجت، بدت دائماً شديدة الإيمان. ومن عرفها وعاملها فى سنى نضجها أصدروا عنها فيما بعد أحكاماً متضاربة؛ مع ذلك، كثر نعتها بأنها هادئة ومهوّسة. رأى آخرون أنها وجدت عزاءها فى الدير لأنها كانت شديدة التعاسة فى حياتها بسبب أونوفرى بوفيلا.

فى ذلك الوقت كانت برشلونة تتأهب لاقتحام الخط الفاصل بين القرنين الفائت والحالى بحصاد تغلب فيه المشاكل على الآمال. كان كبار القوم يقولون فى هدوء الدوائر والمنتديات والصالونات المعتم: يبدو لى أن كل ما أنجزناه بعد كل هذا المجهود لم يكن سوى زهرة يوم واحد. استمر الكساد. وأغلقت المحلات الفخمة بشارع فرناندو أبوابها، واحداً بعد الآخر؛ وبدلاً منها كانت تفتح أبوابها، فى شارع لاس رامبلاس وفى شارع جراثيا، المحلات الكبرى، حدث جديد رحب به أهل برشلونة فى تحفظ. رأت إحدى الصحف، فى عنوان لها: "المحلات الكبرى: أهى مصباح علاء الدين أم مغارة على بابا؟" لم تكن سياسة الحكومة الاقتصادية تساهم فى تحسين الأوضاع. إذ صمت أذنيها إزاء مبررات وتوسلات القطلونيين المقيمين فى مدريد لهذا الغرض، أو بعض القشتاليين من ذوى البصيرة أو المدفوع لهم لذلك، وألغت كل الإجراءات الحمائية التى ترعى الصناعة الوطنية، ألغتها جميعاً أو ألغتها تقريباً: فبعد اختفاء الرسوم الجمركية، أغرقت المنتجات الأجنبية، الأفضل والأرخص والأسهل استخداماً من المنتجات الوطنية، أغرقت سوقاً ضامرة أساساً. تداعى إلى إغلاق المصانع والتسريح الجماعى وغير المتوقع ظهور الأوبئة التى كمنت فى طبقة العمال. فضلاً عن ذلك، كانت هنالك حرب قائمة فى كوبا ومليلة. وفى كل أسبوع يبحر إلى أمريكا وأفريقيا مئات الشباب، كثير منهم لم تنبت لحيته. على رصيف الميناء أو محطة القطارات كانت ترى مشاهد تمزق نياط القلوب. واضطر الحرس

المدنى فى الكثير من المرات إلى شن هجمات على الأمهات اللاتى يحاولن منع نقل القوات ممسكات بأحبال المراكب لإيقافها أو باعتراض طريق القاطرات. من هؤلاء المئات والألوف الذين رحلوا إلى الجبهة لم يعد إلا القليل: ومن عاد عاد مصاباً أو مريضاً بمرض خطير. هذه الأحداث كانت تهيج حقد الشعب الذى كان متأججاً بالفعل. والجماعات العمالية التى أرقت من قبل الراحل كنالز إى فورميجا راحت تكتسب قوة، خاصة الفوضويين. كان هنالك فوضويون من أنصار فوسكارينى أو دى ويرد أو زعماء آخرين ظهروا فيما بعد. كل هذه الجماعات كانت تعقد اجتماعات على نحو عارض للدعوة إلى إضرابات عامة لم تحقق قط الغرض منها. وإذ دب اليأس فى نفوس الناس من جراء كل ذلك الفشل وكل ذلك الإصرار غير المجدى، وهم يرون أن الأمور لا تتبدل بل تسير من سىء إلى أسوأ، قرر بعضهم الانتقال إلى العمل المباشر. بعد أن شجعهم نموذج زملائهم فى الكفاح من الإيطاليين والفرنسيين وخاصة الروس، اختاروا - حسب مقولة واحد منهم -: "قطع رؤوس هيدرا، مهما يكن عددها، وكلما كان العدد كبيراً كان ذلك أفضل". هكذا استهلت عقود العنف السوداء؛ فلم يكن يمر احتفال عام أو عرض أو موكب أو استعراض لا يحدث فيه انفجار مخيف فى دوى ذلك الانفجار الذى يصم الآذان ووسط الدخان الذى يعمى البصر كان الناجون يبحثون بين الضحايا عن أقاربهم أو أصدقائهم فيما يفر آخرون فى كل اتجاه زائغى البصر وملابسهم ملطخة بالدماء دون أن يتوقفوا ليتيقنوا هل إصابتهم مميتة أم أنهم لم يصابوا فى الاعتداء. وحيثما اجتمع الموسرون يشدد الفوضويون، بحقد أكبر، ضرباتهم ليشعروهم بثقل حنقهم ويأسهم. وكلما وقع حادث من هذا النوع تذكر أونوفرى بوفيلا بابلو والنظريات الفوضوية التى كان يدافع عنها وتذكر نفسه وهو يساهم فى نشرها رغماً عنه. أحياناً تساوره الشكوك فى أن يكون بابلو هو الذى ألقى القنبلة على الجنرال مارتينث كامبوس أو فى الليسيو، ذلك الحادث

الذى مازالت أصداؤه ماثلة فى الأذهان حتى الآن فى ليالى الافتتاح، فى مقصورات وكواليس هذا المسرح الشهير. بيد أنه لم يكن يطلع أحداً على هذه الأفكار، فلوضعه الحالى ولمبررات أخرى عاطفية أراد إخفاء أنه فى زمن آخر كان شريكاً للفوضويين. بل إنه، على العكس من ذلك، أوعز لخطيبته وللأشخاص الذين كان يتعامل معهم مهنياً بأنه شاب من عائلة عريقة أجبرته محنها الاقتصادية على القيام بأعمال غامضة كالأعمال التى يكلف بها السيد أومبرت فيجا إى موريرا. لم يعد أحد يتذكر اشتراكه فى الأيام الدامية التى قضت على إمبراطورية الجريمة وعلى حياة السيد كنالز فورميجا. فهو كلما واتته الظروف كان يجانب العنف ويناصر الضرب بيد من حديد على أيدى الفوضويين الذين لم يكن يتردد فى نعتهم بالكلاب المسعورة ويشيد بالسياسة الدموية التى تنتهجها الحكومة لإقرار الأمن. وكان لابد لهذا الموقف أن يجد صدى مواتياً بين أعضاء البرجوازية العليا الذين كان متصلاً بهم على نحو هامشى. بعد أن تهددت ثرواتهم وكذلك حيواتهم كان هؤلاء وقعوا هدنة فى خلافهم الأزلى مع مدريد. فمهما يكن الضرر الناجم عن موقف الحكومة تجاه المصالح التجارية لقطلونيا لا يمكن مقارنته بحرمانها من الحماية المسلحة فى ذلك الصراع، هذا ما كانوا يفكرون فيه. فيما بعد، فيما بينهم، كانوا يتحسرون لأنهم اضطروا إلى السقوط إلى ذلك الدرك، فقد كانوا يقولون: من المحزن أن نضطر إلى أن نلقى بأنفسنا فى حضن واحد من هؤلاء الجنرالات فيما أعطت قطلونيا للجيش الإسبانى أشرس أسدها. وهم بهذه الاستعارة كانوا يشيرون إلى الجنرال بريم، بطل المكسيك والمغرب؛ وإلى الجنرال ويلير الذى كان فى تلك السنين يقلم أظافر المتمردين الكوبيين. لكن أكثر ما كان يشغل المتشائمين منهم هو أن يكسب القوميون القطلونيون - الذين كانت قوتهم آخذة فى الازدياد - أية انتخابات وأن تغضب الحكومة المركزية لذلك، إذ كانوا يعتقدون أنهم يدينون بحياتهم لترفقها بهم. هكذا ازدهرت الأعمال

التى كان يديرها السيد براوليو. وأونوفرى بوفيلا، وحده، كان يشعر بالتفاؤل. بعد ذلك بسنين سيقول: لقد اعتقدت دائماً أن مرض إسبانيا يكمن فى أن المال فى أيدى شرذمة من الجبناء من غير المتحضرين والقساة. والحكومة بدورها اقتصرت على قطف ثمار ذلك الوضع وعالجت بلا حماس قضية قطلونيا الداخلية كأنها مستعمرة أخرى؛ كانت ترسل إليها عسكريين من عهد ساكنى الكهوف انحصرت معرفتهم فى لغة السونكى وأرادوا فرض السلام بقطع رقاب نصف البشر. كان أونوفرى يفكر وهو يرى ما يجرى حوله: آه، ما أروع هذا الزمن لمن لديه شىء من الخيال ومال وفير وكثير من الجرأة: وأنا لدى الكثير من الخيال ومن الجرأة، لكن المال، من أين لى بالمال؟ لكننى، على أى حال من الأحوال، لابد أن أحصل عليه، لأن فرصاً سانحة كالفرصة الحالية يجود بها الدهر مرة واحدة فى العمر وأحياناً لا يجود بها أبداً. ومسألة أن تكون له خطيبة لم تفعل سوى أنها ألهبت حماسه، ومسألة ألا يستطيع رؤيتها كان يفت فى ساعده، فلم يعد يخرج للقصف مع أودون موستاثا وأتباعه، ويفضل ألا يراه أحد فى مكان عام مع رجال العصابات. أما ما كان يتيحه لنفسه من المتع الصغيرة فكان يمده بها السيد براوليو وإفرين كاستلز. فى تلك الأيام أعلنت الصحف عن اقتراب مذنب سارجون من الأرض وكان قطره يقدر بخمسين ألف كيلومتر؛ لم نعدم عرافين تنبأوا بنهاية العالم وأن أعمال العنف والكروب السائدة لم تكن سوى مقدمة لها وإحدى علاماتها. وساد شعور منطقى بالضيق لكن شيئاً، فى نهاية الأمر، لم يحدث.

الفصل الرابع

(١)

من يزر برشلونة للمرة الأولى يلاحظ فى الحال أين تنتهى المدينة القديمة وتبدأ الجديدة. فالشوارع الضيقة الملتوية تصبح مستقيمة وأعرض؛ والطوارات أكثر راحة وتظللها على نحو بهيج أشجار موز فارعة؛ والبنايات أكثر فخامة، بل وهنالك من تداخله رهبة معتقداً أنه انتقل إلى مدينة أخرى بفعل السحر. بقصد أو بغير قصد، يمارس البرشلونيون أنفسهم هذا "الالتباس"؛ بالانتقال من قطاع إلى آخر يبدو أنهم يتبدلون جسداً وسلوكاً وهنداماً. هذا لم يحدث دائماً على هذا النحو، فهذا الانتقال له تفسيره وتاريخه وأسطورته.

على مدار تاريخ برشلونة الطويل والممتد عبر القرون، لم تحل أسوارها دون تعرضها للغزو والنهب؛ وفى المقابل، حال ذلك دون نموها. فبينما، فى الداخل، ازدادت كثافة السكان وزادت من صعوبة الحياة؛ فى الخارج، امتدت البساتين والأراضى البور. لدى حلول المساء أو فى الأعياد كان سكان القرى المجاورة يرتقون الآكام (التى أصبحت الآن أحياء بوتشيت وجراثيا وسان خوسيه دى لامونتانيا، إلخ) ويشاهدون، باستخدام منظار من الصفيح أحياناً، أهالى برشلونة: كانوا يغدون ويروحون محمومين، منظمين، متشددين؛ يحيى بعضهم بعضاً ثم يضلون فى متاهة الأزقة ثم يعودون فيلتقون ويحيى بعضهم بعضاً من جديد ويسأل كل عن صحة وأعمال الآخر ثم يتفرقون إلى المرة القادمة. كان سكان القرى يستمتعون بذلك العرض: ومنهم، لسذاجته، جرب أن يضرب أحد البرشلونيين بحجر فكان ذلك مستحيلاً، أولاً: لبعد المسافة؛ ثانياً: بسبب وجود السور. كان التكدس يهدد الصحة العامة، فأى مرض يتحول إلى وباء، فلم تكن هنالك وسيلة لعزل المرضى. وكانت تغلق أبواب المدينة لتجنب استشراء الوباء، وكان سكان القرى يشكلون نقاط مراقبة

ويجبرون الفارين على العودة بالعصا ويرجمون المتراخين ويضاعفون ثلاث مرات سعر الغذاء. كما كانوا يتعدون قواعد اللياقة. يحكى رحالة فى كتابه "نزلت فى نزل امتدحه أحدهم فى مبالغة فاكتشفت أننى سأقتسم غرفة من ستة أمتار مربعة مع ستة أشخاص، بل أنا وخمسة آخرين: منهم شخصان اتضح أنهما حديثا الزواج وفى رحلة شهر العسل، وما إن رقدا وأطفأ الضوء أنعشا الليلة بفيض من اللهاث والأنين والضحك. وكل هذا بسعر مبالغ فيه، ومع ذلك شكراً!!!" وفى اقتضاب أكبر يكتب الأب كامبوثانو: "القليل النادر من أهل برشلونة ذلك الذى لم يحط علماً قبل أن يكتمل نموه العقلى وبرسم توضيحى بالطريقة التى أنجب بها". وأسفر عما ذكر سلفاً تراخى العادات وانتشار الأمراض الجنسية وانتهاك العرض ورذائل أخرى، وفى بعض الحالات، كما فى حالة خاثينتو أو خاثينتا بيوس، الخلل النفسى: "من كثرة ما رأيت والدىّ وإخوتى وأخواتى وأعمامى وأخوالى وعماتى وخالتى وأجدادى وجداتى وأولاد العم والخال والخدم عراةً فى البيت بلغت حد أننى لم أعد أعرف الرجال من النساء ولا إلى أى منهما يجب أن أنتمى". كان مشكلة المسكن مخيفة، فأسعار السكن الفلكية تأتى على الجانب الأساسى من دخل الأسرة. وقد يفيد هنا بعض الأرقام التى يسهل تصورها. فى منتصف القرن التاسع عشر كانت مساحة برشلونة ٤٢٧ هكتاراً. فى نفس تلك الفترة كانت مساحة باريس ٧٨٠٢ هكتاراً وبرلين ٦٣١٠ ولندن ٣١٦٨٥. بل إن مدينة صغيرة على نحو جلى كمدينة فلورنسا كانت تحتل مساحة قدرها ٤٢٢٦ هكتاراً من الأرض، أى عشرة أضعاف مساحة برشلونة. والكثافة السكانية لكل هكتار كاشفة كذلك: ٢٩١ فى باريس، ١٨٩ فى برلين، و١٢٨ فى لندن، مقابل ٧٠٠ نسمة لكل هكتار فى برشلونة. لم لم تهد الأسوار؟ لأن الحكومة لم تسمح لأحد بذلك، وتحت ذرائع استراتيجية واهية خنقت المدينة وحالت دون نمو برشلونة من حيث المساحة ومن حيث القوة. واصطنع ملوك وملكات إسبانيا والأوصياء على

عرشها على التوالى أن لديهم قضايا أهم، واتخذت الحكومات مواقف متثاقلة إن لم تكن ساخرة من مثل: "إذا كانت تنقصهم الأرض فليحرقوا أديرة أخرى"، إشارة إلى الأديرة التى أحرقها الدهماء فى الاحداث الدامية فى تلك العقود العصيبة وإلى مسألة أن تلك الأديرة استخدمت فيما بعد كفضاءات لخدمة المجتمع: ميادين، أسواقاً، إلخ.. فى النهاية، هدمت الأسوار فقال أهل برشلونة: بوسعنا الآن أن نتنفس. لكن الواقع لم يكن تغير، إذ ظلت المدينة على حالها، ضيقة كما هى، بأسوار أو من غيرها، فعاش الناس محشورين فى حجرات صغيرة، فى مخالطة كريهة الرائحة وغير لائقة؛ يعيشون فى تكدس بعضهم فوق بعض ومعهم جميعاً الحيوانات المنزلية. أتاح اختفاء السور رؤية الوادى الممتد حتى سفح سلسلة جبال كولسيرولا، أتاح رؤيته فى كل ساعة فعزز ذلك الشعور بالتكدس، إذ كان المواطنون يقولون: سحقاً، كل هذا الريف بلا أحد ونحن هنا كالجرذان فى جحر! ثم يتساءلون: أمن العدل أن يعيش الخس أفضل منا؟ فى مثل تلك المواقف كانت أعين الشعب تتجه صوب العمدة.

ولم يكن عمدة برشلونة نفس الشخص الذى أنجز خطة المعرض العالمى بعد ذلك بعدة سنوات، بل آخر، قصير القامة، بطيئاً. وكان شديد التدين فكل يوم يحضر القداس ويتلقى القربان المقدس. وفى دقائق الاعتكاف تلك يحاول ألا يفكر فى مشاكل البلدية، بل يكرس كل اهتمامه لمعجزة تحول مادة القربان إلى جسد المسيح ودمه. لكن قضية التعمير التى يرزح تحتها كانت تتسبب فى شروده. كان يقول لنفسه: لابد من عمل شىء ولكن ما هو؟ كان درس توسعات مدن أوربية أخرى: باريس، لندن، فيينا، روما، سان بطرسبرج. تلك الخطط كانت جيدة لكنها مكلفة فضلاً عن أن أياً منها لم يكن يأخذ فى الاعتبار خصوصية برشلونة. فحين تعرض عليه خطة توسعة باريس كان العمدة يرد دائماً بأنها خطة عظيمة "لكنها لا تأخذ فى اعتبارها خصوصيات مدينة برشلونة". كان يقول الشىء نفسه عن خطة توسعة فيينا، وهكذا. كان مقتنعاً بأن على

برشلونة أن تبحث لنفسها عن خطة توسعة مناسبة وأن تنفذها دون أن تسقط فى شراك التقليد.

فى أحد الأيام، بعد أن انتهى من تلقى القربان المقدس، رأى تلك الرؤيا: كان جالساً على كرسى العمدة، فى مكتبه، فدخل عليه حامل صولجان ليعلن عن مجئ زائر، سأل العمدة نفسه: هل هو عضو فى المجلس أم فى وفد؟ قطع حامل الصولجان هذه التخمينات: "يقول إنه أحد السادة من أولوت". وفى الحال دخل الزائر وخرج حامل الصولجان. صعق العمدة، كان الزائر يصدر أشعة وتحوطه هالة من نور. لاحظ العمدة فى غرابة أن جلد الزائر مفضض، كأنما طليت بشرته بالفضة. أما شعره الذى يصل حتى منكبيه فكان من خيوط الفضة. حتى عباءته كان لها انعكاس كاب، كأنما الزائر بأكمله قُدَّ من سبيكة خارقة. حرص العمدة على ألا يطلب أية تفسيرات فى هذا الصدد بل سأل فقط عن مرد تلك الزيارة الكريمة، فقال الزائر: لقد لاحظنا منذ فترة شرودك وأنت تتناول القربان المقدس. اعتذر العمدة قائلاً: مبرر ذلك انشغالى وليس قلة إيمانى، والسبب هو خطة التنظيم العمرانى التى أتت بى إلى شارع المرارة؛ لا أدرى ماذا أنا فاعل؟ أجاب الزائر: غداً، مع أول صياح ديك تكون أمام الباب الغربى القديم؛ هناك، ستشاهد مقدم المختار؛ لكن، لا تقل له إننى ظهرت لك! استيقظ العمدة مذعوراً، كان فى الكنيسة، على كرسى الركوع، ولم يزل على لسانه القربان المقدس. دام كل ما حلم به غمضة عين.

فى اليوم التالى، فى الساعة المحددة، كان العمدة فى النقطة التى سيقوم فيها فيما بعد، بالمصادفة، قوس النصر، مدخل المعرض الدولى. كان يمر أشخاص ودواب وعربات. حتى لا يتعرفه أحد ارتدى العمدة عباءة بسيطة وقبعة عالية. فى إناء من الفخار وضع جبن ماعز أبيض وجعل يصب عليه زيتاً ويرش الزعتر، كما رأى جديه يفعلان فى منزلهما الريفى وهو صغير. هكذا لبث حتى انصرم النهار. كل من مر به كان

يتحدث عن الفوضى السائدة فى المدينة لغياب العمدة الذى يجرى البحث عنه سدى منذ الصباح حين لم يظهر فى الكنيسة التى يحضر فيها القداس على نحو ثابت يومياً. كانوا يقولون إن سنتيماً واحداً لم ينقص من الخزينة العامة وهو الشىء الصادم فى رأى الجميع. فى المساء تحولت الشمس إلى قرص أحمر مترامى القطر. رأى العمدة كائناً غريباً قادماً. حرق أصيب به طفلاً احتفظ بالجانب الأيسر من وجهه مصقولاً وبلا شعر: فيما كان الجانب الآخر مخدداً بالتجاعيد وله نصف شارب ونصف لحية بالغة الطول، لأنه عائد من الحج إلى سانتياجو على قدميه أو هو متأهب فى التو لبدء الرحلة. اسمه أو قال إن اسمه أبراهام شلاجوبر، أى "قشدة" بالألمانية: وقال إنه ليس يهودياً رغم اسمه بل مسيحى قديم يحج وفاء لنذر لم يرد الكشف عن سببه، وإنه أيضاً يبنى منشآت. قاده العمدة فى الحال إلى مبنى البلدية وعرض عليه خرائط برشلونة وضواحيها ووضع تحت تصرفه كافة الوسائل كى يخطط لمشروعه. قال له أبراهام شلاجوبر: ستكون هذه مدينة الرب التى يحدثنا عنها القديس يوحنا، أورشليم الجديدة. فبعد أن هدمت أورشليم التى لن تقوم فى مكانها من جديد أبداً لأن الرب أمر بألا يبقى فيها حجر على حجر، ينبغى أن تحل محلها مدينة أخرى مركزاً للمسيحية. وبرشلونة كانت على نفس خط عرض القدس وعلى البحر المتوسط، وكل شىء يعزز أن تصبح المدينة المختارة. معاً قرآ الكلمات المنزلة "وأنا رأيت المدينة المقدسة، أورشليم الجديدة، نازلة من السماء، من عند الله، مهيئة كعروس مزينة لرجلها. وسمعت صوتاً عظيماً من السماء قائلاً هو ذا مسكن الله مع الناس وهو سيسكن معهم وهم يكونون له شعباً والله نفسه يكون معهم إلهاً لهم. وسيمسح الله كل دمعة من عيونهم والموت لا يكون فيما بعد ولا يكون حزن ولا صراخ ولا وجع فيما بعد..." (سفر الرؤيا، إصحاح ٢١، أعداد ٢ - ٤).

تم الانتهاء من إعداد المشروع فى ستة أشهر اختفى بعدها أبراهام

شلاجوير دون أن يخلف أثراً. هنالك من يؤكد أن ذلك الشخص لم يكن له وجود قط وأن العمدة نفسه هو الذى أعد الرسومات. ويرى آخرون أنها شخصية حقيقية بيد أن اسمه لم يكن كذلك، كما لم يكن حاجاً أو مهندساً معمارياً بل كان مغامراً أدرك حالة العمدة الشاذة فقرر الإفادة منها وأنه نجح بدهاء فى نقل رؤى حاميه إلى الورق وبينما كان يستكمل عمله عاش على حساب البلدية وهو ما ليس جديداً. حين انتهى إعداد المشروع تماماً وجده العمدة مرضياً وعرضه على الجلسة العمومية.

واليوم لا وجود للمشروع الأصلى، فإما يكون قد مزق عن قصد وإما يكون دفن بلا رجعة فى أضابير أرشيف البلدية الذى لا يسبر غوره. وصلتنا فحسب اسكتشات جزئية، لا يمكن الوثوق بها، وأجزاء من مذكرة تبريرية. ووحدات قياس الأطوال المستخدمة فى المشروع هى: البراثا(١) والفرسخ والذراع(٢) والاستاديو(٣)، مما كان سيرهق العمال لو شرعوا فى البناء. من ما نسميه اليوم "التيبيدابو" إلى البحر كانت ستشق حسب المشروع قناة صالحة للملاحة تتفرع منها يميناً ويساراً اثنتا عشرة قناة أخرى (بعدد قبائل بنى إسرائيل) أضيق وأقل عمقاً، كانت ستصب فى اثنتى عشرة بحيرة صناعية من حولها أحياء أو تجمعات شبه دينية وشبه إدارية يحكمها نائب للعمدة وأحد الشمامسة. ولا يذكر فى أى مكان من أين يخرج الماء الذى ينبغى أن يغذى القناة وفروعها وإن تكن هنالك إشارات مستترة إلى أجباب فى أحياء "فالفيدريرا" و"فلوريستا" و"سان كوجات" و"لابلاناس". فى قلب المدينة القديمة (التى طبقاً للمشروع ينبغى هدمها فيما عدا الكاتدرائية و"سانتا ماريا دل مار" و"البينو" و"سان بدرو دى لاس بويّاس") كانت ستقام خمسة جسور فوق القناة تمثل الفضائل اللاهوتية الخمس: وبدلاً من مقر البلدية ومجلس

(١) مقياس طول يساوى ١,٦٧ م.

(٢) تساوى ٥٧٤ مم.

(٣) يساوى ١٢٥ خطوة.

المقاطعة ومقر الحاكم المدنى تقام ثلاث كنائس تمثل قوى الروح الثلاث. واشتمل المشروع على إنشاء "سوق القناعة" و"سوق تقوى الله"، إلخ... مظاهر أخرى من المشروع لم تصل إلينا ولن نعرف أبداً كيف كانت. لبثت الجمعية العمومية فى حيرة من أمرها؛ فى نهاية الأمر قررت الموافقة على المشروع، وساندت البلدية بالإجماع وبلا تحفظات. لكن مجلس البلدية أشار إلى ضرورة استيفاء الإجراءات التى ينص عليها القانون المعمول به: ينبغى للمشروع الذى وافقت عليه الجمعية العمومية أن يرفع إلى وزارة الداخلية التى تتبعها كافة المجالس البلدية فى إسبانيا. غضب العمدة، صاح: هل من المعقول أن تمر إرادة الرب هى الأخرى بمدريد؟ فأجابه أعضاء المجلس البلدى فى ارتياح: إنه القانون! فقد كانوا يصطنعون التضامن مع العمدة فى حين أنهم فى الحقيقة أرادوا إلقاء الكرة فى ملعب مدريد لكى تنقذهم من ذلك الوضع المحرج. كانوا يفكرون: كلما سنحت لهم الفرصة فى مدريد تمكنوا من إيذائنا لكنهم، هذه المرة، من قبيل التغيير، سيقدمون لنا صنيعاً رائعاً برفضهم المشروع.

جاء رد مدريد على النحو التالى: رداً من صاحب السعادة وزير الداخلية على خطة توسعة مدينة برشلونة، يرفض السيد الوزير أخذها فى الاعتبار حيث إن طريقة عرضها غير مطابقة للشروط المنصوص عليها فى التشريع. بالفعل، لأن القانون ينص على التقدم بثلاثة مشاريع يحتفظ الوزير بحقه فى اختيار واحد منها. شعر العمدة بأنه على حافة الجنون، فيما بينهم تمكنوا من تهدئته: لندعُ إلى مسابقة ثم نرسل إلى مدريد مشروعنا ومعه اثنان آخران ولن يستطيع الوزير تجاهل مشروعنا، فسيرى بلا شك أنه الأفضل. لم يستطع العمدة الاعتراض على ذلك، إذ يعتقد أن مشروعه هذا بوحى من الرب ولا يفوقه ولن يفوقه آخر، لذا، تركهم يدعون إلى مسابقة وانتظر بنفاد صبر أن تقدم المشروعات وتصنف وتصفى ويختار الأفضل طبقاً للمواعيد المحددة فى شروط المسابقة بل ووافق على تقديم مشروعه من بين الأخرى المتقدم

بها مقتنعاً بأنه سيختار، تماماً كما حدث أثناء هذه العملية، وبما أن المشروعات المتقدم بها حتى تلك اللحظة كانت قليلة، دار مشروع العمدة من يد إلى يد وتناولت الألسن خصائصه فى مآدب عشاء المستيرين فى المدينة لم يكن أحد يتحدث عن شىء آخر. فى نهاية الأمر، أرسلت المشروعات الثلاثة الفائزة إلى مدريد. هناك حجزها الوزير قدر استطاعته دون أن يقدم تفسيراً لذلك، أما العمدة فلم يكن يحتمل الحياة. كان يستيقظ فى منتصف الليل فزعاً ويسأل: أهناك أنباء من مدريد؟ وكان خادمه الخاص يضطر إلى دخول مخدعه ليهدئه، فالعمدة لم يكن متزوجاً.

فى نهاية الأمر جاء رد الوزير. كان له وقع قنبلة: قرر صاحب السعادة وزير الداخلية عدم اختيار أى من المشروعات الثلاثة المتقدم بها إذ رأى أن أياً منها لا تجتمع له المميزات الكافية. فى المقابل، رأى أن يأخذ فى الاعتبار ويوقع بالموافقة على مشروع آخر لم يتقدم به إلى المسابقة أو أنه تقدم به إلى المسابقة لكن هيئة التحكيم رأت أنه دون المستوى. والآن يعاود ذلك المشروع الظهور تحت مظلة قرار بقانون، وهو ما سمى فيما بعد "خطة سارداه". فضل العمدة أن يأخذ الأمر مأخذاً حسناً. كتب للوزير: "أنا مقتنع بأن سعادتكم أردتم أن تمزحوا معنا بإقرار مشروع لم يكن مدرجاً فى القائمة التى قدمناها لسعادتكم فى حينه وحسب بل ويرفضه كل أهل برشلونة". هذه المرة كان رد الوزير صاعقاً: "سيضطر أهل برشلونة، يا صديقى، إلى الرضوخ إذا أنجزت "خطة سارداه" يوماً ما كما وافقت عليها أنا: أما فيما يتصل بك، أيها العمدة المحترم، دعنى أذكرك أنه لا يدخل فى اختصاصك تحديد متى يمزح أو لا يمزح أى وزير. فليقتصر عملك على اتباع تعليماتى حرفياً ولا تجعلنى أذكرك بمن هو رئيسك فى نهاية الأمر، إلخ..".

دعا العمدة مجلس البلدية إلى الانعقاد من جديد. قال: تلقينا صفعة، وهذا ما نستحقه لأننا رضخنا لأوامر مدريد بدلاً من أن نتحرك

بطريقتنا الخاصة وبما يسمح به قدرنا ويتطلبه شرفنا؛ والآن بسبب خنوعنا تعرضت برشلونة للإهانة ولتكن هذه عبرة لمن يعتبر. ضج المكان بالتصفيق. فرض العمدة الصمت وتحدث من جديد، وتناوبت أصداء صوته فى جنبات "قاعة المائة"، قال:

- الآن علينا أن نرد، فهذا دورنا. ما سوف أقترحه قد يبدو حاسماً بيد أننى أتوسل إليكم ألا تتخذوا أحكاماً سابقة لأوانها. فكروا وسترون ألا مخرج آخر لدينا. وما أقترحه هو ما يلى: بما أن مدريد ترفض الإنصات إلى مبرراتنا، وبغطرسة وازدراء تريد أن تفرض علينا وجهة نظرها، على كل واحد منا، كممثلين لشعب برشلونة، أن يتحدى موظف الوزارة الموازى له فى السلم الوظيفى ويقتله فى مبارزة أو يموت دفاعاً عن حقه وكرامته بنفس الطريقة التى ألقى بها، الآن وهنا وعلى رؤوس الأشهاد، قفازى على أرض هذا الحرم التاريخى وأتحدى صاحب السعادة، السيد وزير الداخلية لكى يدرك دفعة واحدة، هو ومن معه من البيروقراطيين الأوغاد أنه من الآن فصاعداً إذا لم يرد الحق لقطلونى فى أحد المكاتب فإنه سيأخذه بيده فى ساحة الشرف.

وألقى على الأرض قفازه الرمادى المصنوع من جلد الجدى والذى اشتراه فى اليوم السابق فى "كان كوميلا"، ثم سهر طول الليل أمام مذبح كنيسة سانتا لوثيا. انطلقت هتافات الحضور وحيوه بتصفيق لا ينتهى: من كانوا يحملون قفازات حذوا حذوه فيما ألقى الآخرون قبعاتهم وأربطة أعناقهم وحتى أحذيتهم. العمدة المسكين راح يبكى من التأثر، لم يكن يدرى أن هؤلاء أنفسهم الذين تلقوا بكل ذلك الحماس مقترحاته لم تكن لديهم أقل نية فى تأييدها، بل إن البعض أرسل بالفعل خطابات إلى مدريد يعبر فيها عن تأييده للوزير ويعرب عن استهجانه للهجة غير المقبولة الصادرة عن العمدة الذى يؤكدون أن لديهم شكوكاً خطيرة فى سلامة قواه العقلية. جاهلاً كل هذا، أرسل العمدة إلى مدريد خطاب تحدٍ أعاده إليه الوزير ممزقاً فى ظرف

مختوم بالشمع كتب عليه بخط يده: "تهريج معى، لا".
اقترح أعضاء المجلس البلدى على العمدة ألا يستمر فى الأمر، إذ لم يكن هنالك ما يمكن عمله، وليأخذ إجازة. فى نهاية الأمر التفت إلى أنهم تركوه وحده. تخلى عن منصبه وأقام فى مدريد وجرب استرعاء انتباه البرلمان إلى الأمر. اصطنع بعض النواب الاهتمام به لأسباب تتعلق بالاستراتيجية السياسية؛ فبعضهم اعتقد أنه بذلك يكسب هكذا تعاطف القطلونيين فيما انتظر آخرون تحقيق مكاسب مادية إذا تدخلوا. وحين كانوا يدركون أن العمدة السابق ليس إلا مخبولاً يعمل لحساب نفسه كانوا يشيحون عنه فى استياء. لجأ العمدة السابق إلى رشوة أكثر المرتشين منهم وأضاع فى ذلك ثروته وكانت طائلة. بعد ثلاثة أعوام، مفلساً ومحطم القلب، عاد إلى برشلونة وصعد إلى "مونجوى" ونظر إلى السهل؛ من هناك، رأى التخطيط الجديد للشوارع، والخنادق التى سيمر فيها القطار والبنائين ومجارى العيون. قال لنفسه: ليس معقولاً أن تقف عقبة بيروقراطية فى وجه إرادة الرب! كان اليأس بلغ به مبلغاً عظيماً حتى إنه ألقى بنفسه من أعلى الجبل ولقى حتفه. وذهب روحه مباشرة إلى الجحيم حيث شرحوا له أن الزيارة التى تلقاها فى الحلم لم تكن فى الحقيقة سوى من جانب الشيطان نفسه. صاح العمدة السابق فريسة لتأنيب ضميره لأنه كان على ذلك القدر من الحمق: آه، أيها المخادع الملعون، حقاً لقد خدعتنى بقولك إنك ملاك. فرد إبليس: إيه، إيه، توقف، أنا لم أقل قط ذلك، ويجب أن تعلم أننا نحن الشياطين بوسعنا أن نتخذ الشكل الذى يناسبنا أكثر كى نغوى الفانين، لكن ليس هيئة قديس أو ملاك وبالطبع لا نستطيع أن نتخذ شكل الرب أو أمه المقدسة؛ لذا قلت إننى "سيد من أولوت"، الذى هو أقرب شىء أعرفه إلى جسد سماوى؛ أما البقية فقد كانت ثمرة خيلائك وقلة بصيرتك، وسوف تعانى أنت وبرشلونة من عواقبهما الوخيمة أبد الآبدين. ثم انفجر فى قهقهة عالية ومرعبة.

اضطلعت السنون بإثبات أن من بين كافة أبطال هذه الواقعة، باستثناء الشيطان، الذى له هدف محدد، كان العمدة وحده على حق. فالمشروع الذى فرضته الوزارة، رغم كل جوانبه الإيجابية، كان عملياً بشكل مفرط، وغير معقول على نحو مبالغ فيه: لم يكن ينص على ترك مساحات لإقامة المناسبات الجماعية، أو إقامة نصب تذكارية أو معالم أثرية ترمز إلى العظمة التى تحب كافة الشعوب أن تنسبها إلى نفسها بمبرر أو بدونه، أو حدائق أو طرق محفوفة بالأشجار لتشجيع الرومانسية أو الجريمة، أو شوارع مزينة بالتماثيل أو جسور أو قناطر. بل كانت مجموعة من المربعات المتصلة التى لا فارق بينها، تحير الأغراب وأهل المدينة على حد السواء، صممت لتحقيق سيولة نسبية فى مرور المركبات والأداء السليم لأشد الأنشطة ابتذالاً. ولو أنه أنجز طبقاً لفكرته المبدئية لجعل من برشلونة على الأقل مدينة تسر النظر ومريحة وصحية؛ لكنه، بعد انتهائه، لم يحقق لها حتى تلك المزايا. ولم يكن للأمر أن يسير إلا على ذلك النحو، فأهل برشلونة لم يرفضوا المشروع بنفس الطريقة التى تنبأ بها العمدة العراف لكنهم لم يعتبروه كذلك شيئاً خاصاً بهم، لأنه لم يكن صدى لخيالهم ولم يوقظ فيهم أى شعور وطنى. لذا عزفوا عن شراء الأرض وشيدوا المنازل فى برود وخمود ورغبوا عن الإقامة فى ذلك الحيز الذى تاقوا إليه وطالبوا به قروناً؛ ثم راحوا يعمرونه رويداً تحت وطأة الضغوط الديموجرافية وليس بدافع الرغبة فى تحقيق أمل. وإزاء عدم الاكتراث العام، وبالتواطؤ مع من كان فى وسعهم تعطيل المشروع (أولئك الذين كانوا يرسلون خطابات من وراء ظهر العمدة المجنون إلى الوزير ليحتفظوا بمزاياهم)، آلت الأراضى إلى أيدى المزايدين الذين احتالوا على المشروع الأصلى وحولوا ذلك الحى النبيل والصحى مدينةً صاخبةً ومثيرةً للغثيان، فى نفس زحام برشلونة القديمة التى أراد المشروع تحديداً معالجة مساوئها. وفى غياب أية أيديولوجية (من صنف تلك التى أوحى حب الله وشراك إبليس بها إلى

العمدة) ظلت برشلونة بلا مركز حيوى حقيقى (فيما عدا تقريباً طريق جراثيا البورجوازى والمزهو بنفسه، وإن يكن فاعلاً إلى الآن لمبررات تجارية بحتة) يمكن أن تعقد فيه احتفالات وإضرابات واجتماعات سياسية ومراسم تتويج وإعدام. وأجريت التوسعات المتتالية للمدينة بلا نظام أو فكر، بل كيفما اتفق، وبغرض واحد هو إيجاد أى مكان لأولئك الذين لا مكان لهم فى القطاعات المشيدة حتى تلك اللحظة واستخراج أكبر فائدة مادية من هذه العملية. وانتهى الأمر بالأحياء إلى الفصل بين الطبقات الاجتماعية إلى الأبد وبين الأجيال كما أصبح تدهور كل ما هو قديم المؤشر النوعى الوحيد للتقدم.

(٢)

كان العم تونيت تقدم فى العمر وضعف نظره لأنه يعانى من طوله، لكنه ظل يقود عربته يومياً أو شبه يومى من سانت كليمنت إلى باسورا ومن باسورا إلى سانت كليمنت. فى أحد الأيام، بعد أن أتمت ثمانية عشر عاماً من عمرها، أصبحت الفرس التى يستخدمها ميتة فى الاصطبل؛ لم تكن تثنت ركبتها قط للاستلقاء أو الراحة ثم وجدوها وأرجلها إلى أعلى وقوائمها متخشبة كأنما تتنزه فى أنحاء مغايرة تماماً. أشترى العم تونيت فرساً أخرى بدل أن يتقاعد وهو ما كان عليه أن يفعله. الفرس الجديدة لم تكن تعرف الطريق، فأية فرس مهما تبلغ درجة ذكائها تستغرق أعواماً فى اعتياد طريق فى طول وتعقيد تلك الطريق. وبين اختلاط الأمر على الفرس وضعف بصر الحوذى ضلا فى العديد من المرات، إحداهن كانت خطيرة، ففى تلك المرة حل الليل عليهما وهو لا يتمكن حتى من تخمين أين هما. من قبل كان يعرف النجوم، لكنه الآن أمسى يشق ضباباً تشتد كثافته كل يوم. عوت الذئاب ورفضت الفرس خائفة التقدم إلا تحت قرع السوط. فى نهاية الأمر لمحا ناراً فاقتربا. كان العم تونيت يأمل أن يكونوا رعاة، على الرغم من أن المكان البرى تماماً لم يكن يناسب أى نوع من الماشية. كان فى الواقع معسكراً لقطاع الطرق، معسكر كورنيت وعصابته. وكانوا من بين من بقى من الحروب الكارلية، وبدلاً من إلقاء السلاح والاستسلام للمنتصر وانتظار العفو عنهم اختاروا الفرار إلى الجبال. قال كورنيت لرجاله الذين تمكن خلال تلك الحملة الدموية من كسب ثقتهم بل وإيمانهم به: لو استسلمنا لقطعوا رؤوسنا بحد السيف وأنا أعرض عليكم أن نصبح قاطعى طريق؛ وبما أننا محكوم علينا بالموت فإن كل ما نحياه سنكون اقترضناه من الدنيا وسيكون بوسعنا المخاطرة بحياتنا من أجل أتفه

الأشياء. بعد أن اقتنعوا بهذه المبررات أظهروا تهوراً لا يحتمله عقل. فلقد أفلتوا من الفرق المسلحة المرسلة لتعقبهم وحازوا شهرة فى كافة أنحاء الإقليم: كانوا قاطعى طريق رومنسيين. كان الفلاحون والرعاة يسمحون بوجودهم؛ لا يحمونهم إذ أرهقتهم عدة قرون من المناوشات المستمرة على أعتاب منازلهم، لكنهم لا يشون بهم كذلك ولا يصطادونهم بالرصاص لو سنحت لهم الفرصة. وقاطعو الطرق، الذين كانوا يحسبون أنهم سيعيشون قليلاً وسيموتون ميتة كريمة وأسلحتهم فى أيديهم، انتهى بهم الأمر إلى التقدم فى العمر فى الجبال وقد نسيتهم السلطات. وحين بلغ العم تونيت المعسكر لم يجد سوى جماعة من العجائز المعتلى الصحة الذين لا يكادون يستطيعون رفع بنادقهم إلى أكتافهم. قال: كنت أعتقد أنكم انقرضتم منذ أعوام، وأنكم لستم إلا أسطورة. أعدوا له عشاء وسمحوا له بقضاء الليل فى صحبتهم. لم يقولوا له شيئاً تقريباً فلم يعتادوا الحديث إلى أغراب، وفيما بينهم كانوا قالوا كل شىء. كانوا يعرفون العم تونيت بالنظر، إذ راقبوا ذهاب وإياب عربته الوف المرات، لكنهم لم يهاجموه قط لأنهم يعرفون أنه يحمل أشياء لا غنى عنها لأهل القرى. فى صباح اليوم التالى، وضعوه على الطريق الصحيحة وأعطوه قطعة خبز و سجقاً. قبل أن يرحل اصطحبوه كى يرى الجبانة الصغيرة التى دفن فيها بقية قاطعى الطرق الذين ماتوا بمرض فى الجبال: كان عدد الموتى مقارباً عدد الأحياء. فوق المقابر كان هنالك دائماً زهور برية ووفرة من الأصلبة لأنهم جميعاً شديدو الإيمان. حدث هذا قبل ذلك الحين بزمن، لأن الفرس أصبحت تعرف الطريق كلها تقريباً والعم تونيت أصبح لا يرى إلا لماماً. بعد أن انتهى من سرد هذه الحكاية على المسافر الذى استأجره فى باسورا ذلك المساء قال له:

– مع ذلك، مع ذلك أقول، إن صوتك ليس غريباً على، ليس الصوت فى الحقيقة بل جرس الصوت. – ظل المسافر صامتاً؛ فى النهاية، أطلق العم تونيت قهقهة –: أجل، بالطبع، أنت أونوفرى بوفيلا! لا تقل لا! –

وأونوفرى لم يقل نعم أو لا فعاد العم تونيت يضحك سعيداً -: لا يمكن أن يكون على نحو آخر. جرس صوتك مألوف لى، لكن هذا الصمت الغاضب لا يدع لى مجالاً للشك، فأنت مثل أبيك المجنون، الذى عرفته حق المعرفة. حين رحل إلى كوبا أنا حملته فى هذه العربة نفسها إلى باسورا، لا أدرى كم كان عمره حينئذ، لكنه لن يكون أكبر بكثير مما أنت عليه الآن، أجل، وكان بالفعل يتخذ هذه الهيئة المتعالية نفسها، كأنما الآخرون يخرجون من أنوفهم عصيدة عدس، كأن عصيدة العدس تخرج فى فقاعات من جيوبنا الأنفية. حين عاد من كوبا أنا أحضرته مرة أخرى إلى داره. واحتشد كل الناس أمام الكنيسة، مازلت أراه بعينى المسكينتين غير النافعتين هاتين: كان والدك جالساً فى هذا المكان نفسه، الذى تجلس فيه أنت الآن وظهره مخدر، يرتدى حلة بيضاء من الكتان وقبعة من القش المضفر من تلك المسماة "قبعة بنما"، على اسم البلد. لم يقل كلمة طوال الرحلة. كان يتصرف كالأغنياء على الرغم من أنه لا يحتكم على ريال واحد، لكن فيم أحكى لك عن ذلك؟ بدلاً من المال، أتعلم ماذا أحضر؟

– قرداً.

– قرداً مريضاً، أجل يا سيدى، أرى أن ذاكرتك قوية!

قال العم تونيت ذلك وهو يحث الفرس التى توقفت لتأكل عشباً على حافة الطريق ثم قال:

– هيا، "فارسية"، لا تأكلى الآن وإلا أصبت بعسر الهضم – طرقع بسوطه فى الهواء – تسمى "فارسية"، اشتريتها بهذا الاسم. فيم كنا نتحدث؟ آه، نعم، فى غرور أبيك، كان أبله إن أردت معرفة رأيى. إيه، أيها الولد، هل تجرؤ على ضرب عجوز شبه ضرير؟ بالطبع، يُرى بما فيه الكفاية أنك تجرؤ على ذلك: حسن، حسن، سأكون معتدلاً فى كلماتى وإن لم يغير ذلك طريقة تفكيرى فى شىء. أعلم أن الأشخاص هكذا: لا ترغبون فى أن يقال لكم ما يزعجكم سماعه؛ وتريدون فقط سماع ما

يعجبكم مع علمكم بأن ما تسمعونه ليس ما يفكر فيه الناس. آه، ما أقل ذكائكم. لكن لا تظن أننى أستاء أو أستغرب ذلك حتى، فمنذ سنين تعلمت قياس خيلاء البشر، تعاملت مع كثيرين ثم كان لدى وقت للتأمل. كلما قمت بهذه الرحلة بلا ركاب أنتهز الوقت لأتأمل. الآن أعرف ماهية الأمور. وأعلم كذلك أننى مهما أفعل لن أغير الأشياء وأننى لا أستطيع ولا أملك الوقت كى أغيرها ولا أنا على يقين من رغبتى فى تغييرها حتى وإن أتيحت لى القوة والزمن لفعل ذلك. هنالك أشخاص تمتلئ عيونهم بحساء الثوم، يفتحون أعينهم ولا يرون إلا حساء الثوم. أما أنا فلا. كان بوسعى أن أكون مثلهم لكننى لست مثلهم.

على هذا النحو أطلق الحوذى العنان لشروداته، فى هلوسة الأشخاص من كبار السن والمجانين التى تؤخذ أحياناً مأخذ الحكمة. وأونوفرى بوفيلا لم يكن يسمعه، كان مضطراً إلى سماع صوت الحوذى لكنه لم يكن ينصت إليه. كان يتأمل تلك الطريق التى قطعها منذ ثمانى سنوات فى الاتجاه المعاكس. كان رحل من هناك فى صباح أحد أيام فصل الربيع مع بزوغ الفجر. فى اليوم السابق كان أخبر والديه بخطته للذهاب إلى باسورا: هناك، كان ينوى لقاء السادة بالدريك وفيلاجران وتابيرا؛ قال لهما إن هؤلاء السادة بكل تأكيد سيوفرون له فرصة عمل فى واحدة من شركاتهم، على هذا النحو سيسهم فى سداد ديون الأمريكى. وهذا ود الإعراب عن اختلافه فى الرأى، فقد كان هو المسؤول عن ذلك الوضع المتدهور ولم يكن يسمح لابنه بأن يضحى... لكن أونوفرى أسكته. كان الأمريكى فقد كل سلطته فالتزم الصمت. قال لوالدته إنه سيمكث فى باسورا الوقت اللازم لجمع المال الذى يحتاجون إليه. قال لها: ستكون مسألة شهور، أو عام على أكثر تقدير، وسأكتب لكما فى الحال - هذا ما وعد به - وعن طريق العم تونيت سأعلمكما بما يحدث. فى حقيقة الأمر، كان فكر فى الذهاب إلى برشلونة وبلا رجعة. حينئذ كان يفكر فى أنه لن يعاود رؤية أبويه مرة أخرى ولن يطأ

أرض البيت الذى شهد مولده وعاش فيه حتى ذلك اليوم. حين صعد إلى العربة ناوله والده الصرة التى بها ملابسه ووضع تلك الصرة بعناية داخل العربة فيما ربطت أمه لفاعة حول عنقه. ولما لم يتفوه أحد بكلمة صعد العم تونيت إلى مقعد الحوذى وقال: إن كنت مستعداً هيا بنا. وهو أومأ برأسه أن نعم، حتى لا يصدر عنه صوت غريب فيكتشف الآخرون تأثره. طرقع العم تونيت سوطه فتحركت الفرس لتغوص سنابكها فى الطين الناجم عن ذوبان الجليد. قال الحوذى: ستكون هذه الرحلة شاقة. لوح الأمريكى بقبعته وقالت أمه شيئاً لم يسمعه. ثم راح يشاهد الطريق ولم ير والديه يبتعدان. اجتازت العربة طريق النهر، وطريق المغارة المسحورة، وطريق صيد الطيور، وطريق صيد السمك التى لم تكن طريق النهر نفسها، وطريق جمع عيش الغراب: لم يكن فكر فى أن هنالك كل تلك الطرق. وحين تلاشى الوادى فى ضباب الصباح ظل يرى برج الكنيسة. التقيا بقطيعين من النعاج. ودعهما الرعاة، رفعوا عصيهم وضحكوا. كانوا يلفون ذقونهم فى لفاع ويرتدون سترة من فرو الصوف وقلنسوة. هؤلاء الرعاة كانوا يعرفونه منذ يوم مولده. فكر: من الآن لن ألتقى بأحد يعرفنى هكذا. بقية الطريق، جعلا يشاهدان "ماسيّا" مهجورة. بفعل البرد والمطر انخلعت الأبواب ودرف الشبابيك من مفصلاتها ومن خلالها يرى داخل تلك المنازل بلا أثاث، مليئاً بأوراق الشجر ومن بعض منها خرجت طيور. كانت منازل من نزح إلى باسورا بحثاً عن عمل فى المصانع، كانوا تركوا نار مدافئهم تخبو، كما كان يقال فى ذلك الوقت. والآن مرت ثمانى سنوات وفى أثناء تلك السنين كان أونوفرى بوفيلا أقدم على أشياء كثيرة وتعرف إلى العديد من الأشخاص، أغلبهم غريب الأطوار، وجميعم أشرار تقريباً، قام بتصفية بعضهم دون أن يدرى جيداً لمه، ومع البعض الآخر عقد تحالفات مستقرة تقريباً. الشجر، لون السماء وهو يرى من خلال أوراق الشجر، وجيب الريح فى الغابة، رائحة الريف تبدو له الآن أشياء مألوفة. لاح له أنه لم

يخـرج قـط من ذلك الوادى، وأن مـا عـدا ذلك حلم. حتى ابنة أومـبـرت فيـجـا إى مـوريرا، التى يكن لهـا حبـاً جـارفـاً، تعن له الآن زائلة، كـومض البـرق فى مـخيلته. كان عليـه أن يبذل مجـهـوداً ليـتـذكـر مـلامـحـهـا جـيـداً وليس كـشـىء بلا خـصـوصـيـة. أحـيـانـاً، فى ذاكـرته، كـانت هـذه الملامح تتداخل فى أخـرى؛ مـلامـح ديلفينا التعسـة، التى لما تزل فى السـجن بعد مـرور كل ذلك الوقت أو مـلامـح صـبـيـة قـامـت بينه وبينهـا صلة عـابرة ومبـتـذلة قبل ذلك بأسبوع، تبادل وإياها أربع عبارات، تنتسب إلى فرقة مسـرح عرائس كان هـو حضر عـرضها بمحض المصادفة، وكانت أعجبته لأنهـا دون أن تكون قبيحة كان لها وجه كلب؛ كانت صـغيـرة السن للغاية حتى إنه اضطر مسبقاً إلى مفاوضة والديها والدفع مقدماً وحال ذلك دون الحوار فيما بينهما بعد أن تم الاتفاق. الشىء الوحيد الذى قاله لها كانت عبـارة لطيفة قبل ذهابها صباح اليوم التالى، كما نفحها إكرامية عظيمة. فقد كان اكتسب عادة إعطاء إكراميات مبالغ فيها حين يلاحظ سلامة الطوية فيمن يقوم على خدمته؛ فى هـذه الحالة كان راضياً تماماً وأعـرب عن ذلك بسـخـاء. والبنت أخذت المال بإيماءة شـاردة، فكانت جد صـغيـرة لكى تدرك قيمـة كل تلك النقـود، كأن هـذه المكافـأة، فى الواقع، وكذا الطريقـة التى استـحـقـتهـا بها تخـصـان شـخـصـاً آخـر. وهـى فقط نظرت إليه على نحو غـريب جعل يتذكـره الآن فى قلق. فى تلك اللحظة كان العم تونيت يقول:

– أتسألنى مم أشكو؟ أأشكو من الضباب الذى يلفنا؟ كلا، يا سيدى. أأشكو من الطقس؟ كلا يا سيدى. أأشكو من حالة الطريق السيئة؟ كلا يا سـيدى، فـأنا لا أشكو من حالة الطريق السيئة. مم أشكو إذن؟ أشكو من الحـمق الإنسـانى الذى يعد والدك مثـالاً عظيمـاً له كـمـا كنا نقـول؛ ولماذا أنتقده بكل هـذا الحقد؟ أجل يا سيدى أنا أنتقده بكل هذا الحقد من قبيل الحسد المحض.

حين توقـفـا عند بوابة الكنيـسـة كـان جن الليل. سـألـه الحـوذى هل

والداه على علم بزيارته. قال أونوفرى: لا! قال العم تونيت: آه، تريد أن تفاجئهما. قال أونوفرى: لا، أنا فقط لم أبلغهما! قال العم تونيت: أبلغهما تحياتى. لا أعلم عنهما شيئاً منذ سنوات، مع أنى، فى وقت ما، كنت صديقاً عزيزاً لوالدك؛ أنا حملته إلى كوبا حين داخله جنون الهجرة، ألم أحك لك ذلك بعد؟ ترك الحوذى فى الميدان يتلمس طريقه إلى الحانة وشق طريقه إلى داره.

كانت أمه بالباب؛ كانت هى أول من رآه يصل. كانت خرجت مصادفة تشاهد الليل، وهو ما لم تفعله فى السنوات الأخيرة. منذ غاب أونوفرى اعتادت، على غير وعى منها، أن تترصد بباب منزلها مع غروب الشمس كل يوم إذ كان موعد عودة العربة، إن عادت. فيما بعد تخلت عن الوقوف بالباب دون أن تتحدث فى ذلك مع زوجها، فقد وعت أن أونوفرى لن يعود ولم ترد التدخل فى حياة ابنها بتلك العادة السخيفة. حين رأته يصل قالت: سأعد العشاء. سأل هو: وأبى؟ أشارت إليه أن أباه فى الداخل. من النظرة الأولى رآه أكبر سناً مما توقع. كانت السنون قد مرت أيضاً على والدته، لكنه كان لما يزل غضاً ليدرك أن أمه لا تقر لها حال.

كان أبوه يرتدى حلة الكتان نفسها، بالية، منسلة الأطراف، حائلة اللون من فرط غسلها، مشوهة بفعل ما لا يحصى من عمليات الرفو والرتق. حين رفع عينيه عن المائدة التى كان نشب فيها نظراته اغرورقت عيناه. لم يتغير تعبير وجهه، كأن من الباب لم يدخل أى شىء غير معتاد. انتظر إلى أن يكسر ابنه الصمت، لأن من البديهى أنه جاء لمبرر قوى ولكن لما لم يقل شيئاً، قال هو عبارة مطروقة: كيف كانت الرحلة؟

أجابه أونوفرى: طيبة. ساد الصمت من جديد تحت نظرة الأم المنتبهة. قال الأمريكى:

– ترتدى حلة أنيقة.

– لا أنتوى إعطاءك مالاً!

شحب لون الأمريكى. قال من بين أسنانه:

- لم تكن لدى أية نية لطلبه منك يا بنى. كان مجرد كلام.

قال أونوفرى بجفاف:

- صه، إذن!

فطن الأمريكى أنه فى نظر ابنه أمسى شيئاً سخيفاً بلا رجعة. نهض فى خفة وقال: سأذهب إلى الحظيرة لأحضر بيضاً. وخرج من المنزل حاملاً كرسياً منخفضاً. لم يقل فيم يحتاج ذلك الكرسى فى الحظيرة. حين صار وحيداً مع أمه جال بصره بالمنزل؛ كان يعى أنه سيجده أصغر مما كان يتذكر، فباغته أن يراه بائساً وواهن المظهر إلى ذلك الحد. رأى فراشه القديم، إلى جانب فراش أبويه، لم يزل مرتباً كأنه استخدم الليلة السابقة. استبقت أمه سؤاله، قالت فى نبرة معتذرة: حين رحلت أحسسنا بوحشة كبيرة. تهالك أونوفرى على كرسى بعد أن أرهقه اهتزاز العربة؛ وحين جلس آلمه خشب الكرسى. قال: أى أن لى أخاً إذن! خفضت الأم نظرتها، ثم قالت على نحو معتذر: لو أننا علمنا إلى أين نكتب لك... سأل أونوفرى: أين هو؟ كأنما أراد أن يقول: فلننته دفعة واحدة من هذه المهزلة. قالت الأم إنه لن يتأخر فى العودة. ثم أضافت بعد وهلة:

- إنه عون كبير لنا، أنت على علم بمشقة العمل فى الحقل. وأبوك لا جدوى منه فى ذلك؛ لم يصلح قط للعمل فى الحقل، حتى عندما كان شاباً وأظن أنه ذهب إلى كوبا لهذا السبب. - واصلت الحديث بلا توقف كأنما تحدث نفسها -: يعتقد أن ذنب رحيلك يقع كله على عاتقه هو. حين أدرك أن الشهور تمر وأنت لم تعد أجرى تحريات، قالوا له إنك لست فى باسورا وأغلب الظن أنك فى برشلونة. حينئذ اقترض مالاً وراح يبحث عنك فى برشلونة. إلى ذلك الحين لم يكن عاود الاقتراض. مكث فى برشلونة شهراً يبحث عنك فى كل مكان ويسأل الناس عنك؛ فى النهاية اضطر إلى العودة. شعرت بالحسرة عليه. لأول مرة أرى ما يعنيه

الفشل عنده. حينئذ رزقنا بالولد، ستراه فى الحال. لا يشبهك، هو صموت مثلك لكن ليست له شخصيتك، فى ذلك هو أشبه بوالده.

سأل أونوفرى:

- ماذا يفعل الآن؟

قالت:

- كان يمكن للأمور أن تسير على نحو أسوأ مما سارت عليه.

كانت تدرك أنه يشير إلى والده، فمنذ وهلة تلاشى اهتمامه بالأمر الآخر.

أضافت:

- أولئك السادة من باسورا الذين كانوا على وشك الزج به فى السجن، أتتذكر؟، أسندوا إليه عملاً ليكسب منه قوت يومه: أنا أعتقد أنهم فى هذا الشأن أحسنوا معاملته، فى نهاية المطاف سلموه حقيبة وأرسلوه إلى القرى و"الماسيا" ليبيع وثائق تأمين، شىء جديد. ولما كان أمره انتقل من فم إلى فم فى كل المنطقة، كانوا يعرفونه فى كل مكان. كان الناس يقتربون حين يرونه قادماً ببذلته البيضاء، بعضهم يسخر منه لكنه من حين إلى آخر يبيع وثيقة. بين ذلك وما نخرجه من الأرض والحظيرة نمضى فى الحياة على نحو ليس سيئاً.

اقتربت من الباب وحدقت الظلمة بعينيها، ثم قالت دون أن توضح عمن تتحدث:

- من الغريب ألا يعود الآن.

انقشع الضباب وفى ضوء القمر ترى الخفافيش تحلق.

- ما يقلقنى الآن صحته، لقد تقدم فى السن وهذه الحياة لا تريحه. فعليه أن يسير كيلومترات كثيرة فى البرد والقيظ: يشعر بالتعب ويسرف فى الشراب ويأكل قليلاً وعلى نحو سىء. ومن سوء الحظ أنه منذ أربعة أو خمسة أعوام فقد قبعته، طيرتها دفقة ريح وألقت بها فى حقل قمح، ظل يبحث عنها إلى أن جن الليل. حاولت إقناعه بشراء قلنسوة لكن بغير

فائدة... آه، ها هو عائداً!

قال الأمريكى وهو يدخل - لم يعد يحمل الكرسى -:

- ذهبت لأحصل على بصل وقليل من النعناع.

- كنت أحكى لأونوفرى عن القبعة - قالت هى.

وضع ما أحضره على المنضدة. جلس سعيداً لأنه وجد موضوعاً للحديث ثم قال:

- خسارة لا تعوض، لا يمكن أن تجد شيئاً مشابهاً هنا، ولا فى باسورا ولا فى برشلونة. قبعة بنما أصيلة!

قالت الأم:

- حكيت له كذلك عن جوان.

احمرَّ وجه الأمريكى حتى منبت شعره، قال:

- أتذكر عندما ذهبنا أنت وأنا إلى باسورا لتحنيط القرد. لم تكن ذهبت من قبل إلى أية مدينة وبدا لك كل شىء...

لبث أونوفرى ينظر إلى الطفل الذى بالباب. لم يجرؤ على الدخول. فقال له هو نفسه: ادخل واقترب من الضوء لأراك. ما اسمك؟

- جوان بوفيلا إى مونت، فى خدمة الرب وخدمة حضرتك.

- لا تقل لى "حضرتك"، أنا أخوك أونوفرى. كنت تعلم، أليس كذلك؟

قال الطفل "بلى" برأسه فقال له أونوفرى: لا تكذب علىّ أبداً!

قالت الأم:

- اجلسا إلى المائدة، سنتناول عشاءنا؛ أونوفرى، اتلُ أنت صلاة الشكر.

تناول أربعتهم العشاء فى صمت. بعد العشاء قال أونوفرى: لا تظنوا أننى جئت لأبقى. لم يجبه أحد فحقيقة الأمر أن أحداً لم يفكر فى ذلك. كان يكفى النظر إليه لإدراك أن الأمور ليست على ذلك النحو. قال متوجهاً إلى أبيه:

- جئت لكى توقع لى هذه الأوراق.

وأخرج من جيب سترته وثيقة تركها مطوية على المنضدة. مد الأمريكى يده لكنه لم يأخذ الوثيقة. توقف عن ذلك وخفض بصره. قال أونوفرى:

– إنه رهن هذه الدار والأرض. أحتاج إلى مال للاستثمار ولا أرى كيف أحصل عليه إن لم يكن من هنا. لا تخشوا شيئاً. فى وسعكم مواصلة العيش فى الدار وفلاحة الأرض. فقط إذا ساءت أمور سوف يطردونكم لكنها لن تسوء.

قالت الأم:

– لا تقلق، والدك سيوقعها، أليس كذلك يا جوان؟

والأب وقع دون أن يقرأ حتى العقد الذى قدمه له أونوفرى. وما إن وقعه نهض من الكرسى وخرج من الحجرة. تابعه أونوفرى بنظره ثم نظر إلى أمه التى أومأت له بإشارة إيجاب برأسها. خرج أونوفرى إلى الحقل وظل يبحث عن الأمريكى. فى نهاية المطاف ألفاه جالساً تحت شجرة تين، على كرسى ذى ثلاث أرجل من تلك التى تستخدم فى حلب الماشية. كان الكرسى الذى أخذه من قبل. دون أن يقول له شيئاً استند إلى جذع شجرة التين. من هناك رأى ظهر الأمريكى وقفاه وكتفى والده المحنيتين، وهذا طفق يتحدث دون أن يطلب منه ذلك. قال وهو يشير إلى نقطة غير محددة لأنه فى الواقع أراد أن يضم بهذه الإيماءة كل ما ينيره القمر حتى الأفق:

– طول عمرى وأنا أفكر أن هذا الذى نراه كان دائماً هكذا، كما نراه الآن تحديداً، وأن هذا كله نجم عن دورات طبيعية لا تتبدل وعن تغيرات موسمية تأتى من عام إلى عام بانتظام. تأخرت أعواماً فى الالتفات إلى أننى كنت مخطئاً، فالآن أعلم أن كل شبر من هذه الحقول وهذه الغابات قد حرث بالفأس والمعول ساعة بعد ساعة وشهراً بعد شهر وأن آبائى وأجدادى وأجداد أجدادى الذين لم أعرفهم، وآخرين وآخرين من قبلهم خاضوا صراعاً مع الطبيعة لكى نتمكن نحن الآن وهم من قبلنا من

العيش هنا. الطبيعة ليست حكيمة كما يقولون بل غبية وحمقاء وقاسية قبل كل شيء. لكن الأجيال راحت تحول أمور الطبيعة هذه: مجارى الأنهار، مكونات المياه، نظام المطر، موضع الجبال؛ استأنست الحيوانات وأبدلت نظام الشجر والغلال والنبات على وجه العموم: كل ما كان من قبل مدمراً أصبح منتجاً. ونتيجة ذلك الجهد الضخم الذى قامت به عدة أجيال هو ما لدينا الآن هنا. وأنا لم أعرف كيف أرى ذلك من قبل، فقد اعتقدت أن المدن هى الأهم وأن الريف، فى المقابل، لا يساوى شيئاً؛ لكننى اليوم أرى العكس تماماً تقريباً. لكن ما يحدث هو أن العمل فى الحقل يحتاج إلى الكثير من الوقت ويجب أن ينجز شيئاً فشيئاً، بخطواته المحسوبة، كل خطوة فى موعدها الدقيق، لا قبل ولا بعد، وهكذا يبدو لنا أنه لم يحدث فى الواقع تغيير كبير، وهو ما لا يحدث لنا فى أية مدينة فى العالم؛ فهناك العكس هو المعتاد: فبمجرد رؤيتها نأخذ فى حسباننا المساحة والارتفاع والعدد الذى لا يحصى من الطوب المستخدم فى الارتفاع بها عن الأرض، غير أننا فى ذلك نخطئ أيضاً لأن أية مدينة يمكن الانتهاء من إقامتها فى عدة سنوات. لذا فإن أهل الريف مختلفون: أكثر صمتاً، أكثر قناعة. لو أننى وعيت هذه الأمور من قبل، ربما سارت حياتى على نحو آخر لكننى كُتِبَ علىّ الا تكون كذلك، لأن هذه الأشياء تجرى فى الدم منذ المولد أو لابد من تعلمها بمرور السنين والاستفادة من الأخطاء.

قال أونوفرى:

– لا تشغل بالك الآن يا والدى. كل شىء سيكون على ما يرام كما قلت لكم وسأعيد إليكم المال فى زمن جد قصير.

– لا تظن أن القلق يساورنى بشأن الرهن يا ولدى. فإلى الآن لم أكن أعلم أن هذه الأرض يمكن رهنها. لو كنت علمته ربما قمت برهنها أنا نفسى منذ أعوام لأعمل بالتجارة؛ فى هذه الحالة كنا سنفقدها لكنها وهى معك سيكون كل شىء مختلفاً، أنا على يقين من ذلك.

- لا مجال للفشل.

- لا تفكر كثيراً فى الأمر واذهب للنوم فغداً ينتظرك سفر طويل. أليس من الأفضل أن تمكث معنا يوماً أو يومين؟

- كل شىء مقرر.

فى اليوم التالى خرج أونوفرى من جديد فى طريقه إلى برشلونة. لدى مروره بباسورا وثق العقد. كان قضى الليل فى فراشه القديم أما جوان الصغير فنام مع والديه. لدى رحيله، أكثر اطمئناناً، جعل يتأمل الطبيعة. كان يقول لنفسه: فى المرة السابقة كنت أظن أننى أرى هذه الحقول للمرة الأخيرة؛ أما الآن فأعى أننى لن أتخلص من رؤيتها. على أية حال، الأمر سواء. لكننى إذا كنت سأراها كثيراً ليكن للإفادة منها. كانت تلك هى كل فلسفته حينئذ: البيع والشراء، الشراء والبيع.

(٣)

سار نمو توسعة برشلونة، تلك التوسعة المثيرة للجدل التى أخرجتها وزارة الداخلية فى أحد الأيام من عباءتها، سار فى بداية الأمر فى مجرى منطقى على نحو ما: أولاً، تعمرت المناطق التى تم تقسيمها من من قبل فى الوادى والتى بحكم موقعها تتمتع بشكل أفضل بخدمة المياه، على سبيل المثال، تلك الواقعة إلى جانب قاع جدول أو نبع أو ضفة نهر (مثل شارع بروك الحالى، الذى كان صالحاً للملاحة حتى وقت قريب حتى التقائه بشارع أراجون) أو بالقرب من آبار ماء صالح للشرب أو لقربه من المحاجر، وهو ما كان يقلل كثيراً من تكلفة البناء، ومن أماكن السكنى الجيدة أيضاً، تلك التى يصل إليها خط الترام أو يمر بها القطار، إلخ. وهناك حيث تبدأ فى الارتفاع، لهذه المبررات، بعض البنايات كان سعر الأرض يرتفع فى الحال، فلا يوجد فى الغرب شعب جماعى كالقطلونى ساعة اختيار مقر السكنى: إلى حيث يذهب شخص واحد للإقامة يريد الجميع الذهاب. وكان الشعار حينئذ: إلى أى مكان، لكننا جميعاً معاً. بهذه الطريقة كانت المزايدة على الأرض تحتذى النموذج نفسه: يشترى أحدهم أكبر عدد ممكن من قطع الأرض فى منطقة يراها مناسبة ويبنى فى واحدة من قطع الأرض هذه مبنى سكنياً أو مبنيين على الأكثر ثم ينتظر إلى أن تباع جميع شققهما ويشغلهما أصحابها الجدد، حينئذ يعرض بقية القطع للبيع بسعر أعلى بكثير من ذلك الذى اشتراها به. أما أصحاب هذه الأراضى الجدد، الذين دفعوا فيها سعراً أعلى بكثير من سعرها الأصلى، فيعوضون خسارتهم من خلال النظام التالى: يقسمون كل قطعة أرض إلى جزئين متساويين، يبنون جزءاً ويبيعون الآخر بنفس سعر شرائهم للقطعة قبل تقسيمها جزئين. وبالطبع، من كان يشترى هذا الجزء كان يتصرف بنفس

الطريقة، أى أنه يقسمها جزئين وهكذا. لهذا السبب تكون مساحة المبنى السكنى الأول أرحب، والتالى أقل وهكذا حتى نصل إلى بنايات ضيقة للغاية حتى إنها لا تقبل إلى شقة واحدة فى كل طابق وحتى هذه فإنها تكون هزيلة ومعتمة ومواد بنائها من أردأ الأصناف وبلا تهوية أو وسائل راحة أو خدمات. تلك الجحور (التى مازالت ترى إلى اليوم) كان سعرها بالطبع أغلى خمسة وعشرين أو ثلاثين أو حتى خمساً وثلاثين ضعفاً عما تكلفته فى حينه المنازل الواسعة والمشمسة والصحية المبنية فى بداية الأمر. وأخذت تتردد هذه المقولة: "كلما كان المنزل صغيراً ومثيراً للغثيان كان غالى الثمن". تأكيد زائف بلا شك. فما يحدث حقيقة هو الآتى: يسارع أصحاب تلك المنازل المتميزة، "منازل الخبزة الأولى"، كما كانوا يصفونها، ببيعها ما إن تغلق الدائرة، أى ما إن يتحدد السعر الأدنى لشقة ما بدءاً بالسعر الأعلى، أى سعر الشقة الصغيرة والسيئة، كان سعر الشقق الكبيرة والجيدة يتجاوز سعر الشقق الصغيرة بأربعين أو خمسة وأربعين أو خمسين ضعفاً. وما إن يتم الانتهاء من بيع "منازل الخبزة الأولى"، تعرض للبيع منازل "الخبزة الثانية" المبنية على نصف مساحة قطعة الأرض الأصلية، ثم التالية والتالية إلى الانتهاء من بيعها جميعاً. أحياناً، لم تكن تتوقف هذه العملية إثر بيع كافة الشقق، بل تبدأ جولة جديدة لإعادة بيعها، أو جولتان أو ثلاث أو أربع. فكلما كان هناك من هو مستعد للشراء كان ثمة من هو مستعد للبيع والعكس. ولفهم هذه الظاهرة، هذه الحمى، ينبغى تذكر أن أهل برشلونة من عرق تجارى على نحو بارز وأنهم اعتادوا منذ قرون أن يعيشوا فى تكدس كالقمل: إذ لم تكن السكنى فى حد ذاتها تثير فيهم أقل اهتمام، ومن أجل أبهة عصر الحريم لن يخطو خطوة واحدة؛ فى المقابل، كانت تثيرهم فكرة ربح المال فى وقت قصير، كانت كفناء الحوريات لديهم. ولهذه المزايدة الجامحة لم يكن يتفرغ فقط من أمنوا حياتهم أو من لديهم "فائض" معين يمكنهم "تشغيله"، كما كان يقال حينئذ، بل عدد كبير من الأشخاص الأقل حظاً،

وهؤلاء كانوا يخاطرون بالأساسى والضرورى فى محاولة الإثراء. كان الفريق الأول يشترى ويبيع قطع أرض وبنايات وشققاً (ويشترون ويبيعون كذلك عقود إيجار مع أولوية البيع وعروض مزايدة وحقوق استرداد ويعقدون عقود رهن عقارى ويؤجرون الحكر، ويتناقلون ويقايضون ويرهنون الحقوق والأسهم والرسوم والضرائب والإيجارات والإتاوات) ولكنهم يعيشون فى منازل أو شقق مؤجرة، لأنهم حينذاك عدّوا الحمق كل الحمق أن يعيش المرء "جالساً فوق رأسماله".. فيقال: فليعطل ماله آخر، أما أنا فأسدد الإيجار شهراً بشهر ومالى "أشغله". أما أصحاب الفريق الثانى، فكانوا يتعرضون لمواقف رهيبة: كأن يضطروا إلى بيع منازلهم فى أسوأ الظروف والخروج إلى الشارع بأسرهم وخدمهم وأمتعتهم ويبدأ رحلة البحث بطرق الأبواب واحداً فالآخر للعثور على مكان يقضون فيه الليل أو يتركون فيه القريب المريض أو الطفل الرضيع ومن ترضعه. كان من المبكى رؤيتهم وهم يجوبون شوارع برشلونة فى ليالى الشتاء أو تحت المطر، وأثاثهم وشوارهم مكدس على عربة يد وأطفالهم المرتعدين بين أذرعتهم وهم لا يزالون يحسبون حساباتهم بصوت خفيض: استثمرت كذا وسأربح كذا ويمكننى أن أستثمر مرة أخرى كذا، إلخ..

الأكثر تعقلاً منهم، لأسباب شخصية، كانوا يفضلون ألا يبيعوا إن لم تكن الفرصة مواتية، فيفضلون أن تفوت الفرصة ليحافظوا على صحتهم واحترام أسرهم: ولكن، من كان سيسمح لهؤلاء بأن يسلكوا هذا المسلك ويوقفوا عجلة المزايدة المشدودة إليها المدينة بأكملها. وبالتالى كانت هنالك أسر تغير مسكنها سبع أو ثمانى مرات فى العام الواحد.

مما قيل من قبل لا ينبغى أن نستنتج أن من يستثمر أمواله فى تلك اللعبة يثرَ على السواء أو على نحو آمن لأنها ككل استثمار غرضه الربح كانت تنطوى على مخاطرة. فلكى تأتى الرياح بما تشتهى السفن لابد من أن يباع أول مبنى شيد فى المنطقة بسعر جيد؛ وقبل كل

شىء، أن يطبع أصحابه الجدد أو مستأجروه الذين سيسكنونه المنطقة بشىء من التميز يجعلها منطقة جذب بحضورهم. كانت هنالك عائلة واسعة الشهرة بحيث يكفى ظهورها لرفع قيمة السكنى بحى بأكمله أو خفضها، مثل عائلة اسمها - أو لقبها - جاتونث، يبدو أن أصلها من إقليم لامانشا. لم يتضح قط ماذا كانت تفعل أو لا تفعل هذه العائلة، الكبيرة العدد، غير أنها ما إن تحل بمسكن حتى ينخفض سعره ويقل الطلب على المساكن المجاورة له. وبما أن أصحاب هذه المساكن، المهتمين ببيعها، لم يكن فى وسعهم منع من باعها لآل جاتونث أو إلغاء عملية البيع، كان عليهم أن يلجأوا إلى الطريقة الباهظة المتمثلة فى تعويض آل جاتونث كى يرحلوا أو شراء المنزل منهم بالسعر الذى يحلو لهم تحديده. العكس من ذلك كان يحدث مع زيجة من العجائز لها اسم أجنبى، خاصة أى قنصل سابق فى برشلونة من قناصل إحدى القوى الكبرى. وكان يحدث كذلك أن ينتفى أحد مبررات تشجيع نمو قطعة أرض عن أخرى، كأن تجف بئر الماء بها أو أن تغير هيئة السكك الحديدية رأيها بعد أن تكون أعلنت عن مد خط فرعى إلى هذه الضاحية أو تلك، وبذا تترك هذه الضاحية فى عزلة مؤسية. وهكذا تضيع ثروات. ولما كان بعض هذه العوامل عارضاً وبعضها عكس ذلك، كان الحصول على معلومات سريعة وموثوق بها عن الأخيرة فى غاية الأهمية. أما فيما يتصل بالعوامل الأخرى، العارضة، فلم يكن بالأمر حيلة، وإن لم يكن يغيب من يحاول اختراق أسرار الطبيعة وقد أعماه الجشع؛ واعتاد مثل هؤلاء الأشخاص الوقوع فى براثن عرافين يوهمونهم بأنهم يرون ما فى باطن الأرض ومحتالين بلا ضمير يغشونهم ويقودونهم إلى الخراب الاقتصادى. ولم نعدم كذلك نصابين يؤكدون أن لهم أصدقاء أو أقارب فى هذه أو تلك من هيئات الخدمات العامة أو فى البلدية أو فى المجلس الإقليمى، وكان هؤلاء النصابون يتلقون مبالغ مالية كبيرة لقاء أوهام وحيل باطلة. تلك السوق المضطربة والمترعة بالخدع دخلها أونوفرى بوفيلا بحذر فى

حوالى شهر سبتمبر ١٨٩٧.

بما حصل عليه من مال رهن الأرض الزراعية تمكن من شراء قطعة أرض للبناء متوسطة الأبعاد فى مكان لم يكن فى مظهره يوحى بأى حافز أو أفق متوقع. ما إن حصل عليه عرضه للبيع. قال له دون أومبرت فيجا إى موريرا الذى كان من التهذيب بحيث طلب مشورته:

- لا أدرى من سيشترى منك هذا المكان المضحك؟

من قبل أعطاه عدة نصائح لكن أونوفرى لم يأخذ بأى منها. أجابه: سنرى.

مرت ستة أسابيع وذهب إليه فقط مشتر واحد وعرض عليه نفس السعر الذى اشترى به الأرض. عبس أونوفرى بوفيلا، وقال له:

- سيدى، أنت بلا ريب تريد السخرية منى. هذه القطعة تساوى فى الوقت الحالى أربعة أضعاف سعرها المبدئى والسعر يرتفع يوماً بعد يوم. إن لم يكن لديك عرض أفضل أرجوك ألا تضيع وقتى!

متحيراً إزاء كل تلك الثقة رفع المشترى نذراً قليلاً سعر عرضه الأول، فغضب أونوفرى وأمر إفرين كاستلز بطرد المشترى بطريقة سيئة. وهذا خرج من هناك وهو يظن أن ما قاله أونوفرى ربما كان حقيقة. فكر: ربما تساوى بالفعل كل هذا الثمن لسبب لا أعرفه. ولكى يقطع الشك باليقين أجرى تحريات متكتمة ولم يلبث أن سمع شائعة حرمته النوم. تقول: إن دار "ورثة رامون مورفيم، شركة محدودة" اشترت قطعة الأرض المتاخمة للتى يبيعها أونوفرى بوفيلا: بل إن دار "ورثة رامون مورفيم، شركة محدودة" انتوت نقل مقرها إلى هناك تحديداً فى فترة لن تزيد على سنة. قال لنفسه: بحق الشيطان، هذا الماكر يعلم ذلك، لذا لا يريد أن يبيع بالسعر الذى أعرضه عليه، ولكن، لو أن هذا النبأ صحيح فإن سعر الأرض لن يساوى أربعة أضعاف بل عشرين ضعفاً لقيمته اليوم. ألن أقدم له عرضاً جديداً؟ ولكن إن لم تتأكد الشائعة، لو أن دار "ورثة مورفيم" لم تنتقل، كم ستساوى قطعة الأرض؟ لا شيء، أقل

القليل. آه، المزايدة العقارية، يا لها من لعبة رهيبة من ألعاب الحظ! هذا ما جعل يقوله المشترى المسكين، ولم يجانبه الصواب، فلو تأكدت شائعة انتقال دار "ورثة رامون مورفيم، شركة محدودة" لوجب التفكير ملياً فى أن المدينة أخيراً ستتغير، فلم تكن فى برشلونة فى نهاية القرن مؤسسة تفوقها شهرة، ولا أى شىء أهم أو أكثر احتراماً من محل حلويات للطبقة الراقية: هناك، أن تقدم لك خدمة لم يكن أمراً هيناً، والانضمام إلى قائمة العملاء قد يتطلب حياة كاملة من الإلحاح واستثماراً مالياً ضخماً ونفوذاً ليس بالقليل. حتى وإن تحقق ذلك، على الرغم من الانتماء إلى هذه الدائرة من الصفوة، للحصول على كعكة جيدة لابد من الحجز قبل الموعد بأسبوع: وصينية حلوى مشكلة تحجز قبلها بشهر؛ وكعكة سانت جوان قبلها بثلاثة أشهر أو أكثر، أما حلوى لوزية أعياد الميلاد فلابد أن تحجز قبل الثانى عشر من يناير من نفس العام. على الرغم من أن محلات الحلويات الراقية لم يكن بها مناضد أو كراس ولا تقدم الكاكاو أو الشاى أو المشروبات الباردة لعملائها، كان لجميعها بهو رحيب وأنيق ومن طراز بومبى عامة. هناك، صباح أيام الأحد، بعد حضور القداس، تلتقى صفوة المجتمع فى كل حى. يتحدثون بعض الوقت ويستعدون للغداء العائلى الذى كان يمتد عادة من أربع ساعات إلى ست. وعادة يكون الجو خانقاً لقرب أفران الحلوى، والهواء متكاثفاً ولزجاً. أخذ يقول الرجل لنفسه: أى أنه إذا انتقلت دار "ورثة رامون مورفيم، ش. محدودة" من شارع الكارمن فإن شارع الكارمن والحى بأكمله سيذهبان إلى الجحيم و"البلادى بوكيريا" لن يصبح كما هو الآن، المركز الحيوى للمدينة. لكن، لو لم يكن هذا صحيحاً، إذا لم تغير دار "ورثة رامون مورفيم، ش. محدودة" مقرها، فإن كل شىء سيظل على حاله... ثم أخذ يرثى لحاله: والأسوأ أننى لا أستطيع أن أفعل شيئاً للتأكد من هذه الشائعات أو لاستبعادها، لأن الخبر إذا انتقل من فم إلى فم: وداعاً للصفقة، يا له من احتضار! فى النهاية تغلب الجشع على صواب الرأى

واشـتـرى بمـا أراد أونوفـرى. بعـد الانتـهـاء من عـقـد الصـفـقـة، هـرول إلى محل الحلويات بشـارع الكارمن وطلب التـحـدث إلى صـاحـبـيـه، وهـذان استقبلاه ببالغ التهذيب، كانا دون ثيسار ودون بومبييو، وريثى رامون مورفيم الأسطورى. كلاهما قطب جبينه الذى بيضه الدقيق لدى سماع ما كان يسأل عنه المشترى التعس، قالا: مـاذا! ننتقل، نحن؟ كلا، كلا، مطلقاً، هذه الشائعات التى سمعتها يا سيدى لا أساس لها مطلقاً، لم تكن لنا قط نية الانتقال من هنا، خاصة إلى ذلك الحى الذى تذكره، فلا توجد منطقة فى "التوسعة" أشد قبحاً وإزعاجاً وأقل مناسبة لمحل حلويات؛ لو فعلنا لسمعنا صرير عظام أبينا فى قبره. حينئذ ذهب إلى أونوفرى ليلغى الصفقة. جاء مشعث الشعر وخيط من لعابه يسيل من شفته السفلى. قال له: أنت أطلقت تلك الشائعات البالغة الزيف؛ والآن، أنت مدين لى برد اعتبار. وأونوفرى تركه ينفث غضبه ثم طرده. ولم يتعد الأمر ذلك، لأنه لم يجد أية طريقة يثبت بها أنه أطلق تلك الشائعات. على الرغم من أن كل الناس كانوا على يقين من ذلك. ذاعت واقعة "ورثة رامون مورفيم" وتناقل العامة لفترة عبارة: "حدث له ما حدث لمشترى أرض ورثة رامون مورفيم" للدلالة على من يعتقد أنه أذكى من الآخرين ويشترى بسعر عال ما لا يساوى ذلك أو لا يساوى شيئاً. قال له دون أومبرت فيجا إى موريرا:

– خذ حذرك، إذا ساءت سمعتك لن يتعامل معك أحد.

– سنرى! – كان هذا رد أونوفرى.

بما حصل عليه من تلك الصفقة المشبوهة اشترى قطعاً أخرى فى مكان آخر. قال خبراء هذا النوع من الأعمال: لنر كيف سيتصرف الآن. بعد عدة أسابيع، لما رأوه لم يفعل شيئاً، انصرفوا عنه، قالوا فيما بينهم: ربما كانت نيته حسنة هذه المرة. كانت قطع الأرض فى مكان قليل الجاذبية، جد بعيد عن وسط المدينة، هو اليوم ملتقى شارعى روسيّون وجيرونا. تساءل الناس: من يريد الذهاب ليعيش هناك؟ فى أحد الأيام

وصلت هذا المكان عربات محملة بقضبان معدنية طويلة، وعكست الشمس الومض المعدنى الذى رآه البناؤون الذين كانوا يقيمون أبراج كاتدرائية "العائلة المقدسة"، ليس بعيداً عن هناك. كانت قضبان الترام. بدأ فريق من العمال يشق خنادق فى الأرض الصخرية لشارع روسيّون فيما بدأ فريق آخر، أقل عدداً، فى تلك الناحية نفسها فى إقامة مبنى مستطيلاً له قبة أسطوانية: كان المزود الذى ستستعيد فيه بغال الجر قواها، لأن الترام إلى ذلك الوقت كان يعمل بدواب الجر. قال الناس: لا شك هذه المرة فى أن هذا القطاع يسير إلى أحسن. وفى ثلاثة أيام أو أربعة تخطفوا قطع الأرض من يدى أونوفرى بوفيلا بالسعر الذى حدده. قال له دون أومبرت فيجا إى موريرا: هذه المرة كان الحظ إلى جانبك أكثر مما تستحق، أيها الوغد! وهو لم يقل شيئاً لكنه حين يختلى إلى نفسه كان يضحك. فبعد مرور يومين آخرين نفس العمال الذين كانوا بدأوا فى مد شريط الترام قاموا بخلعه وحملوه على نفس العربات وذهبوا به. هذه المرة، اضطرت الدوائر التجارية المالية بالمدينة إلى الاعتراف بأن المناورة لم تخلُ من ذكاء. وقابلوا بكاء من اشتروا بإيماءة ساخرة. قالوا لهم: كان بوسعكم سؤال شركة الترام هل الأمر جاد أم لا. قال الذين اشتروا: كيف كنا نتخيل أنه ليس جاداً يا رجل؟ لقد رأينا الشريط والمزود فاعتقدنا... رد عليهم الآخرون: كان عليكم ألا تعتقدوا؛ لأنهم الآن، فى مقابل مبالغ طائلة، أعطوكم أرضاً لا تصلح مقلباً للنفايات ومزوداً غير مكتمل البناء سوف تضطرون إلى هدمه على نفقتكم. تلت هذه العملية - التى أطلق عليها "عملية شريط الترام" لتمييزها عن "عملية ورثة رامون مورفيم" - عمليات أخرى كثيرة. وعلى الرغم من أن كل الناس أخذوا حذرهم منه تمكن دائماً من بيع الأراضى التى يشتريها فى فترة جد وجيزة وبأرباح طائلة: فلقد وجد دائماً طريقة يخدع بها الناس فيخلق آمالاً عظيمة فى ضمير المشترين ثم تنتهى هذه الآمال إلى لا شىء، إذ هى سراب من لدنه هو. وفى حوالى عامين كون

ثروة كبيرة. وفى تلك الأثناء، ونتيجة لذلك، سبب أضراراً جسيمة للمدينة، لأن ضحايا حيله وجدوا بحوزتهم أراضى لا تساوى شيئاً دفعوا فيها مبالغ طائلة. والآن كان عليهم أن يفعلوا شيئاً بتلك الأراضى. فى الوضع الطبيعى كانت هذه الأراضى ستخصص لبناء مساكن منخفضة السعر ليقطنها المهاجرون المساكين ونسلهم. لكن بما أن سعرها المبدئى ارتفع إلى ذلك الحد خصصت لبناء شقق راقية. راقية على نحو خاص جداً: فالعديد منها لم يكن به ماء جار أو كان يصله ماء قليل بحيث يجرى فى صنبور واحد إذا أغلقت كل صنابير ذلك القطاع؛ وعدد آخر كان قائماً على قطعة أرض غير متوازية الأبعاد فكانت تكثر بالشقق الممرات والغرف الخلفية لتبدو فى النهاية كالجحور. ولاستعادة جزء من رأس المال الضائع بخل أصحابها بأموالهم على بنائها فكانت موارد البناء رديئة وخلط الأسمنت بالرمل وبالملح حتى إن عدداً ليس قليلاً منها سقط بعد افتتاحه بأشهر قليلة. وكذلك بنيت مساحات من الأرض كانت فى الأساس مخصصة للحدائق والمتنزهات وأماكن انتظار العربات والمدارس والمستشفيات. ولتعويض تلك الكارثة وجهوا بالغ العناية لواجهات المساكن. وببياض المصيص وجص الزخرفة وقطع الفسيفساء اعتادوا رسم يعاسيب وقنبيط تصل من الطابق السادس إلى مستوى الشارع. وألصقوا بالشرفات أعمدة هزلية على هيئة امرأة ووضعوا أشكالاً لأبى الهول وتنانين تطل من الأسطح ومن أعلى الشرفات وملأوا المدينة بحيوانات خرافية مرعبة ليلاً على ضوء المصابيح الضارب إلى الخضرة. ووضعوا كذلك فى مواجهة الأبواب ملائكة رشيقة وخنثى تغطى وجهها بأجنحتها لا تناسب مسكناً بقدر ما تناسب ضريحاً، ونساء مسترجلات بخوذات ودروع يحاكين الوالكيريا، التى كانت موضة ذلك الوقت، واختاروا لطلاء الواجهات الألوان الفاقعة أو ألوان الباستيل. أى شىء من أجل استعادة الأموال التى سرقها منهم أونوفرى بوفيلا. على هذا النسق أخذت تنمو المدينة، بسرعة كبيرة، بغرض الربح المحض. وكل

يوم تقلب ألوف الأطنان من الأرض تنقلها طوابير متصلة من العربات لتكدسها وراء تل مونجوى أو تلقى بها فى البحر. وكانت تنقل كذلك، مختلطة بذلك الطين، بقايا مدن أقدم، أطلال فينيقية أو رومانية، هياكل عظمية لبرشلونيين من حقب أخرى وبقايا أزمنة أقل اضطراباً.

(٤)

في صيف ١٨٩٩ أصبح أونوفرى رجلاً مكتمل الرجولة. كان فى السادسة والعشرين من العمر وصاحب ثروة كبيرة لكن إمبراطوريته الناشئة كان بها صدوع. فالمقايضات الانتخابية التى كان يعقدها بوساطة السيد براوليو لم تكن تؤتى ثمارها أو تؤتيها على حساب جهود جبارة. كانت معالم البلد تغيرت بعد نكسة ٩٨، ورفع سياسيون آخرون أصغر سناً راية التجديد، وتوجهوا صوب إلهاب حماسة الجماهير وأرادوا تجديد شباب الهيكل الاجتماعى القديم. وعى أونوفرى أن الوقوف أمامهم فى ذلك الوقت سيكون مضيعة للوقت وقد يؤدى إلى عكس ما يرجوه؛ وفضل أن ينفصل عن الماضى وأن يظهر أنه من أنصار التيارات الجديدة والمبادئ الجديدة. لذا أحال السيد براوليو إلى التقاعد بعد أن تحول إلى رمز للفساد. وكان هذا يعنى كذلك انفصاله عن أودون موستاثا الذى كان يحبه حباً أعمى. أجهش بالبكاء وراح يبحث فى الحال عن طريقة للانتحار. ثم ترك ذلك المشروع خوفاً على أمن الرجل الذى يحبه. فلم يكن أودون موستاثا شديد الذكاء، ولم يتأقلم مع نمط الحياة الجديد. ظل على حاله، فتوةً: لأتفه سبب يخرج مسدسه. وظلت النساء يفقدن عقلهن مفتونات به وفى مناسبات عديدة اضطر إلى اللجوء إلى "السلطات المرتشية" لتهيل التراب على أمور فاضحة، وإلى إخفاء جثة ورشوة العدالة. لفت أونوفرى بوفيلا نظره عدة مرات، قال له: ليس فى وسع الأمور أن تسير على هذا النحو يا أودون، نحن الآن رجال أعمال. فيقسم البلطجى بأنه سوف يتبدل لكنه كان يعود إلى سوء السلوك. ظل يضمخ شعره بالطلاء ويرتدى ملابس صارخة الألوان وعلى الرغم من أنه كان يأكل ويشرب بلا حساب ظل نحيفاً. أحياناً يربح ثروات فى القمار، حينئذ يدعو أى شخص يقابله؛ فى هذه الظروف، كان قصفه

أسطورياً؛ فى أحيان أخرى، يخسر كل شىء ويستدين أموالاً باهظة ويلجأ إلى السيد براوليو بحثاً عن معونة، فيعنفه فى شدة لكنه لم يكن يحتمل أن يرفض له طلباً. كان يغطى كل مخالفاته والآن يخشى أن يحل عليه غضب أونوفرى بوفيلا إذا لم يحمه.

هذه المرة صعد إلى بيت لا بودابيرا فى عربة مغلقة على الرغم من شدة القيظ. كان كلف حائكاً شهيراً محله فى شارع جران بيا، بين مونتانير وكازانوفا، بأن يحيك له حلة من الصوف الأسود بصفى أزرار. وظل يذهب إلى هناك فى هذا الصيف ليقيسها. وهو الآن يدشنها ويضع فى عروة السترة زهرة غردينيا. كان يشعر بالسخف، لكنه كان فى طريقه إلى طلب يد ابنة دون أومبرت فيجا إى موريرا. كان اشترى خاتماً من محل ذهب بشارع الرملة. كان رآها هى فى مرات معدودة لدى خروجها من الدير فى طريقها إلى لابودابيرا لقضاء الصيف مع والديها. ولما كان غير مسموح له بدخول المنزل كان يلتقى بها وسط الحقول، فى مناسبة قيامها برحلة ومحوطة دائماً بالناس وللحظات شديدة القصر. حكت له أموراً صغيرة مما يحدث لها فى الدير. بعد أن ألف الثرثرة الشبقة للبغايا اللاتى يختلف إليهن، تراءت له تلك الشؤون الساذجة لغة الحب الحقة. هو أيضاً لم يكن يدرى ماذا يقول لها. جرب إثارة اهتمامها باستثماراته العقارية لكنه سرعان ما فطن إلى أنها لا تفهمه. افترقا فى ارتياح وتعاهدا على الإخلاص. خلال تلك السنين كلها لم تتوقف الرسائل أيضاً. هو الآن ثرى وهى هجرت الدير كى يتسنى تقديمها إلى المجتمع فى ذلك الخريف. كانت احتمالات أن يتقبلها مجتمع برشلونة، لكونها ابنة دون أومبرت، ضئيلة ولكن لا ينبغى استبعاد هذا الاحتمال: أن تسلب مفاتنها شاباً فى سن الزواج ينتصر على معارضة أهله ويتزوجها؛ بذلك يكتسب وضعها الشرعية ووضع والديها كذلك، على نحو غير مباشر. أراد أونوفرى بوفيلا درأ هذا الخطر مقدماً بطلب

يدها. إذ لم يكن لديه شك من أن جمالها يوفر لها أسباب النجاح فى الصالونات. أسر إلى إفرين كاستلز:

- إذا وطأت قدمها الليسيو سأفقدها.

فى تلك الأعوام كان مارد كاليّا قد تغير، فلم يعد يسير كالزورق الجانح خلف أية تنورة. فقد تزوج من خياطة صغيرة السن، رقيقة الحاشية فى التعامل بيد أنها ذات شخصية حازمة، وأنجب طفلين وصار رجل بيت ومسؤولاً. على الرغم من أنه مستعد لفعل أى شىء يأمره به أونوفرى بوفيلا، يفضل الأنشطة الجادة والمشروعة. كان أنجز بعض الصفقات حاذياً حذو أونوفرى وتعلم كيف يوفر ويستثمر مرة أخرى بنجاح؛ فى ذلك الوقت أضحى يتمتع بموقف مالى مريح. قال لأونوفرى:

- تحدث إلى دون أومبرت. هو مدين لك بالكثير. سينصت لك، وإذا كان رجلاً شريفاً، كما أظنه، سيعترف بأنك أولى بيد ابنته من غيرك.

أدخلوه قاعة صغيرة وسألوه، من فضله، أن ينتظر. قال له رئيس الخدم الذى لم يكن يعرفه: السيد فى اجتماع. شعر بالاختناق فى القاعة الصغيرة. فكر: هنا، درجة الحرارة على الأقل تساوى درجة الحرارة فى برشلونة وأشعر بجفاف شديد فى حلقى، لو أنهم على الأقل قدموا لى شراباً بارداً! لمَ يعاملوننى بقليل من الاحترام اليوم تحديداً؟ فى نهاية ما عدَّه وقتاً طويلاً خرج من القاعة وذرع الدهليز الذى طليت حوائطه بالجير. ولدى مروره بأحد الأبواب المغلقة سمع أصواتاً تعرف من بينها صوت دون أومبرت فيجا إى موريرا فتوقف وأنصت. أخيراً، بسبب اهتمامه بما يقال وناسياً تقريباً مبرر وجوده فى ذلك المنزل، فتح الباب فجأة ودخل فيما تبين أنه مكتب دون أومبرت الذى كان مجتمعاً بسيدين، أحدهما من الولايات المتحدة ويدعى جارنيت، بدين، كثير العرق، خائن لوطنه، كان يخدم المصالح الإسبانية فى الفلبين إبان الحرب الأخيرة إلى أن أوحت إليه نتائجها بالاختفاء من هناك لفترة؛ والآخر قشتالى ضعيف

البنية، لوحته الشمس، له شارب أشيب، يدعوه الآخرون "أوسوريو" فقط. كلاهما يرتدى بذلة من القطن المخطط وقميصاً أبيض ذا ياقة من السليلوز وبلا رابطة عنق، على الطراز الكولونيالى، وحذاء خفيفاً مصنوعاً من نبات الحلفاء. وفوق ركبهما استقرت قبعتان، كلتاهما "قبعة بنما" ذكرتا أونوفرى فى الحال بأبيه؛ إلى ذلك الحين لم يكن رفع بعد رهن أرض الأسرة. قطع دخوله المفاجئ المحادثة التى كان يجريها ثلاثتهم. وتركزت النظرات فيه. أضفت بذلته السوداء وزهرة الغردينيا فى عروة سترته ومغلف محل الذهب الأنيق لمسة غريبة على المكان. قدمه دون أومبرت إلى محدثيه وواصل جارنيت يروى كيف أنه عشية المعركة البحرية التى قامت فى شهر مايو من العام السابق فى الفلبين التقى بالأدميرال ديوى، قائد أسطول العدو، لينقل إليه عرض الحكومة الإسبانية: مائة وخمسون ألف بزيتة لو سمح للسفن الإسبانية بإغراق السفن الأمريكية. وكان مسرح ذلك اللقاء حانة فى سنغافورة أو سينجابور، التى كانت حينئذ مستعمرة إنجليزية. فى بداية الأمر ظنه الأدميرال ديوى مجنوناً؛ قال له: أنت تعلم أن القطع البحرية الإسبانية من التفاهة بحيث يمكن لسفن الحربية أن ترسلها إلى قاع البحر دون أن تتعرض حتى لقذائفها. هز جارنيت رأسه يوافقه ثم قال: أنت تعلم ذلك وأنا أيضاً لكن خبراء البحرية الإسبانية أكدوا لجلالته عكس ذلك تحديداً، فإذا غرق أسطول لا أرمادا تخيل خيبة الأمل. رد ديوى: هذا ما لا أستطيع تجنبه!

قال دون أومبرت ما إن انتهى الأمريكى من حكايته:

– على هذا النحو فقدنا آخر مستعمراتنا والآن تزدحم أبوابنا بالعائدين.

كانت تصل يومياً بالفعل سفن تعيد إلى إسبانيا الناجين من حروب كوبا والفلبين، الذين حاربوا لعدة سنوات فى الغابات الفاسدة، وعلى الرغم من كونهم فى مقتبل العمر بدوا شيوخاً. عاد جميعهم تقريباً

مصاباً بحمى الثلث. ولم يرد أهلهم استقبالهم خوفاً من العدوى، لم تتح لهم كذلك أية فرصة عمل ولا أية وسيلة أخرى للعيش. كانت أعدادهم غفيرة حتى إنهم كى يستجدوا الصدقة اضطروا إلى الوقوف صفوفاً. لم يكن الناس يعطونهم سنتيماً، وكان يقولون لهم: لقد تركتموهم يطأون شرف الوطن والآن لديكم من التبجح ما يأتى بكم تطلبون شفقة. الكثير منهم استسلم للموت من الهزال على النواصى، بلا رغبة فى شىء. والآن تمر الاستثمارات فى المستعمرات السابقة عبر وسطاء من أمثال جارنيت الذى كان من رعايا الولايات المتحدة. وتبين أن المدعو أوسوريو ليس إلا الجنرال أوسوريو إى كليمنتى، حاكم لوثون السابق وواحد من أكبر أصحاب الأراضى فى الأرخبيل. كان دون أومبرت فيجا إى موريرا يحاول التوصل إلى وفاق فى مصالح كليهما ووضع الضمانات الضرورية.

حين ذهبا، بقى المحامى وأونوفرى وحدهما، فشرح هذا مبرر زيارته فى توتر مفترض فى مثل هذه الحالات. ودون أومبرت أظهر هو أيضاً أمارات الحرج. كان تحدث من قبل إلى أونوفرى فى الموضوع، ودون أن يلتزم بشىء، بعبارات مستترة، أوعز إليه أنه بات يعده صهراً له. والآن بدا أنه يبحث عن أقل الكلمات قسوة ليرجع بها عن عبارات الموافقة تلك. وفى النهاية اعترف:

– إنها زوجتى. أعيتنى الوسيلة كى توافق. أصررت حتى بح صوتى، لكن تظل هذه الأمور عندها على النهج نفسه؛ وفى هذه الأمور، كما سترى أنت بنفسك حين تنجب أطفالاً، تأمر وتنهى النساء. لا أدرى ماذا أقول لك: ستضطر إلى قبول ذلك والبحث فى مكان آخر. صدقنى، إنى لآسف.

سأل أونوفرى:

– وهى، ماذا تقول هى؟

– من؟ مرجريتا؟ حسن، هى ستفعل ما تقول لها أمها وإن شق عليها. من الحب تعانى النساء كثيراً لكنهن لا يخاطرن بمستقبلهن. أرجو

أن تفهم ذلك.

دون أن يجيب أخذ علبة الجواهر وخرج من البيت يخبط كل الأبواب التى وجدها فى طريقه. أخذ يهمهم بدافع من الحقد: ما أحمقهم إن كانوا يفكرون أن أحداً سيقع فى غرام هذه العبيطة؛ يوماً ما ستأتين تبحثين عنى راكعة ستطلبين الصفح، لكننى لن أغفر لك، لأن أشقى بغايا حى لاكاريونيرا تساوى ألفاً مثلك! ولكن مع اهتزاز العربة بسبب حجارة الطريق ذهب غضبه ووصل برشلونة غارقاً فى أعمق حزن. اعتكف فى منزله ورفض رؤية أحد لمدة خمسة عشر يوماً. كانت ترعاه خادم استخدمها قبل ثلاث سنوات ويدفع لها أجراً غير معقول كى يضمن ولاءها. أخيراً، وافق على استقبال إفرين كاستلز. وهذا، قلقاً لحال شريكه، الذى لم يره من قبل على تلك الحال، أجرى تحرياته والآن جاء يخبر أونوفرى بوفيلا بنتائجها.

لم تكن امرأة دون أومبرت فيجا إى موريرا غبية، كانت على يقين من أن أى شاب من أسرة عريقة لن يرتكب حماقة الزواج من ابنتها مرجريتا، لكنها أيضاً لم تكن مستعدة لتسليمها بلا مقاومة لصعلوك مثل أونوفرى. بعد أن اعتصرت ذهنها ليل نهار بلا توقف توصلت فى النهاية إلى المرشح المناسب ليد ابنتها. للوهلة الأولى يبدو اختياراً جنونياً. ذلك المرشح لم يكن سوى نيكولاو كنالز إى راتابلان، ابن دون أليكساندرى كنالز إى فورميجا الذى طعنه السيد براوليو فى مكتبه قبل ذلك بثمانى سنوات بأمر من أونوفرى بوفيلا. منذ ذلك التاريخ ونيكولاو كنالز وأمه يعيشان فى باريس: هناك، قام والده، مثل آخرين كثيرين من الرأسماليين القطلونيين "بتشغيل أمواله" فى شركات فرنسية. تلك الأسهم، التى تبلغ ثروة صغيرة، ستنتقل إلى حوزة نيكولاو كنالز ما إن يبلغ سن الرشد. إلى ذلك الوقت أدارت أمه أملاكه برصانة بل ونمتها من خلال صفقات سديدة عقدتها جيداً. كانت الأم وابنها يقطنان فندقاً

صغيراً، رحباً ومريحاً، لكنه غير لافت للنظر، بشارع ريفولى، بمعزل عن العالم.

فى الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة على الأكثر، كان صبياً حزيناً، وبعد ذلك الوقت كله الذى مر لم يبرأ من حزنه على والده الذى كان يبجل ذكراه. فى المقابل، لم يكن قط على وفاق مع والدته دون أن يكون ذنب أى منهما فمن جانبها كان موت ولديها الكبيرين المفاجئ صدمة لم تشف من وقعها بعد؛ وبلا مبرر ألقت بالنائحة على زوجها الذى كفت عن الشعور نحوه بأية عاطفة على نحو مباغت؛ هذا النفور امتد إلى ابنها الوحيد على قيد الحياة، وكان ذلك موقفاً ظالماً لم تتمكن من تجاوزه رغم وعيها به. وفوق هذا وذاك، تراءى لها عيب نيكولاو كنالز الخلقى، ذلك العيب فى نخاعه الشوكى الذى جعله ينمو مشوهاً بعض الشىء والذى على مدار الأعوام لم يشتد أو يضعف، تراءى لها لوماً على قلة حنانها. ففى صغره حاولت أن تراه أقل وقت ممكن وعهدت برعايته إلى المرضعات والحاضنات والمربيات. والآن تجبرها الظروف على العيش بمعزل عن الجميع، بلا صحبة أخرى سوى ذلك الصبى الذى لم تحبه قط بل وتعتمد عليه الآن قضائياً واقتصادياً، لأنه يمتلك حتى الخبز الذى يأكلانه، طبقاً للقانون. وهو، الذى يحس بشكل ملموس بما يسببه لها حضوره من تعاسة ولم يعلق آمالاً على أى حنان تكنه له، عمد إلى تجنب أى اتصال بها. محروماً من جراء عيبه الجسدى من عقد صداقة مع من كانوا زملاء دراسته، كان يعيش فى وحدة شبه تامة. لم يكن له فى هذا العالم سوى باريس. حين فرا إليها من برشلونة بدت له مدينة عدائية وبدا له أهلها وحوشاً ضارية. فيما بعد، على غير وعى منه، اعتاد كل شىء تدريجياً ثم انتهى إلى حبها بجنون، بعشق حقيقى. والآن أضحت باريس كل سعادته، التنزه فى الشوارع، الجلوس فى الميادين، التجول فى الأحياء والحدائق، مشاهدة الناس والضوء والمنازل والنهر. أحياناً، فى أثناء واحدة من هذه النزهات، يتوقف فجأة بلا سبب

معروف عند ناصية شارع وينظر حوله كأنما يشاهد كل ذلك – الذى يعرفه شبراً شبراً – للمرة الأولى؛ حينئذ يغلبه تأثر شديد حتى إنه لا يتمكن من كبح جماح الدموع التى تخف إلى مقلتيه. فإذا أمطرت السماء أغلق مظلته كى يستحم بمطر باريس. حينئذ كانت صورته المجهولة والمشوهة التى أرجفها البكاء وأغرقها المطر تهز مشاعر المارة الذين يجهلون أنه، فى الحقيقة، يبكى من السعادة. فى أحيان أخرى، فى مثل تلك الظروف نفسها، يتبع رعبه سعادته عن كثب؛ يفكر: كيف ستكون حالى لو أننى يوماً فقدت باريس، لو أننا اضطررنا لأى سبب إلى الرحيل عن باريس؟ كان يدرك أن باريس لم تكن فى الواقع مسقط رأسه وكان ذلك يسبب له إحساساً شبه جسدى بأنه بلا جذور: فبين أم لا يستطيع تجنب إقصائه عنها ومدينة بالتبنى لا يمكنه أن يطالبها بأى حق سارت حياته فى كرب متصل. لم يكن يدرى إلى أى حد كان لهذة المخاوف ما يبررها.

كتبت زوجة دون أومبرت فيجا إى موريرا إلى أرملة دون أليكساندرى كنالز إى فورميجا رسالة مطولة ومتبجحة، تدخل فيها فى موضوع الرسالة خلف إسهابات واضحة: "أستمحيك العذر يا صديقتى العزيزة جرأتى التى تدفعنى إلى التوجه إليك بهذا الشكل البعيد عن البروتوكول، غير أنى مقتنعة بأنك بقلب الأم سوف تضعين نفسك فى مكانى فى الحال، وستتفهمين سبب جرأتى حين تقرئين هذه الجمل الخرقاء التى كتبتها بوحى من أطيب الأمنيات وحدها." ثم راحت تعرض عليها، بلا مواربة، خطتها. أى أن تتزوج ابنتها، مرجريتا فيجا إى كلارنسا، من نيكولاو كنالز إى راتابلان. ثم أسرعت توضح أن كليهما الابن الوحيد والوريث الأوحد بالتالى لثروة عائلتيهما. ثم أوعزت بأن كليهما شبه مرفوضين من قبل المجتمع الراقى فى برشلونة. وأى مصير ينتظره نيكولاو كنالز فى هذا الصدد فى باريس التى سيظل فيها إلى الأبد أجنبياً ومهمشاً اجتماعياً؟ يقول خطابها:

بهـذا الـزواج الذى أحـتـفـل به فى قلبى مـقـدمـاً سنتـمم أهدافنا ومصالحنا المشتركة التى وحدت دائماً بين سلالتينا". وأخيراً، اختتمت قـائلة: "على الرغم من أن مـرجـريتـا ونيكولاو لم تتح لهـمـا فـرصـة التعارف أو التعامل، ما من شك لدى من أنهما، لكونهما شابين وذكيين وصحيحى البدن والشخصية، سرعان ما سيتبادلان الاحترام والحنان اللذين تقوم عليهما السعادة الزوجية". الله وحده أعلم كيف وصلت إلى عنوان أرملة دون أليكسـاندرى كنالز إى فـورمـيـجـا وأرسلت إليـهـا الخطاب. بعد ذلك أبلغت زوجها بما فعلته وأرته نسخة شبه حرفية من الخطـاب. لم يكن دون أومـبـرت يصـدق عينيـه. أخـيـراً، تمكن من قول:

- يا للفظاعة يا امـرأة، كيف بلغت بك الجـرأة؟ عـرض ابنتنا كأنها سلعـة... ليسـت لدى كلمـات... هذه الوقـاحـة! وتعـرضـين عليـهـا كـذلك الزواج من ابن خصمى القديم، الذى لا أعدم شخصاً يلقى ببعض تبعة قتله على. يا للخزى! وفى أية سـاعـة مشؤومة خطر ببالك أن تقولى إن ذلك التعس "صحيح البدن"؟ ألم يصل إلى علمك أن الصبى المسكين ولد مسـخاً؟ مـعـيـباً؟ أعاود قـراءة الرسـالة وأحس بأننى سـوف أمـوت من الخجل!

أخذت زوجته تقول له دون أن تخرج عن هدوئها:

- اهدأ يا أومبرت!

كانت تدرك سخف ما فعلته لكنها تؤمن بالحظ، فيما تلقت أرملة كنالز الرسالة وجعلت تقرؤها فى تفكر فى الضوء الخافت للفندق الكائن بشارع ريفولى وتقول لنفسها: عجباً، مؤكد أن هذه اللصة تخبئ كرامتها فى مكان من جسدها أنا أعلمه! فى ظروف طبيعية كانت مزقت الرسالة إرباً. كانت على وشك إتمام أربعين عاماً وتحتفظ بجمالها القديم بتناغم هادئ يمكن للمـرارة أن تبـدله فى لحظة؛ فـحـيـاتهـا، فى سـاعـة تقـيـيم الأشـيـاء هـذه، بدت لهـا سلسلة من الآمـال المحـبطة؛ هـمـسـت: "حـيـاة

ناقصة(١). تركت الرسالة على المنضدة الملاصقة للفراش وروحت عن نفسها بريشة نعامة. حين فعلت ذلك رنت أساورها. من الشارع جاء الصخب الدائم للعربات. قالت لوصيفتها: "أنابيس، هلا تكرمت وأغلقت النافذة وأحضرت لى شالى الحريرى المطرز"(٢)؛ كانت امرأة زنجية من جزيرة المارتينيك تربط رأسها بمنديل أصفر.

كانت، قبل عام، تعرفت إلى شاعر من أصل غامض يدعى كاسيمير، لم يتجاوز الثانية والعشرين، دعاها بلا حسابات أو تحفظات إلى مطاعم مونبارنس حيث يجتمع البوهيميون لتلاوة الشعر واحتساء شراب الأسبنت. معاً حضرا العام السابق جنازة ستيفان مالارميه: مع ذلك، قاومت هى، بوعى منها بفارق السن والثروة، الاستجابة إلى إلحاحه. وهو كان يرسل إليها زهوراً مسروقة من المقابر وسونيتات متوقدة عشقاً. فى أعين كل الناس كان الوضع شاذاً ويطلق ألسنة الخبثاء. وهى كانت تفكر: وأنا، فيم يهمنى؟ كنت تعسة طول حياتى، والآن بعد أن ترك لى القدر هذه الهدية ببابى، أأرفضها خوفاً مما سيقولون؟ فضلاً عن أننا لسنا فى برشلونة - قالت لنفسها محاولة الانتصار على مقاومتها -، نحن فى باريس، وأنا هنا لا يعرفنى أحد، أى، أنا حرة. هكذا كانت تفكر لكنها لم تكن تفعل شيئاً نظراً إلى وجود ابنها، العقبة التى تقف فى طريق سعادتها. لو كانت صارحته بالوضع لكان تفهمه وقبله، ولا شك فى أنه كان سيساند أمه فى كل شىء، سعيداً لأنه تمكن فى النهاية من أن يفصح لها عن شعوره وتضامنه كشخص بالغ، لكن أعواماً وأعواماً من المباعدة والملامة تقطع عليهما الآن أى طريق للاتصال الصادق. فبعذاب الضمير أخذت تتدبر الطريقة التى تتخلص بها من ذلك الشاهد المثير للضيق. فى هذه اللحظة كانت تفكر فى محتوى الرسالة التى تلقتها فى التو. كانت الفكرة مغرية، لكن كل ما فيها يحرضها على رفضها، فوراء

(١) بالفرنسية.

(٢) بالفرنسية.

عـرض الزواج الموحى ذاك ثمـة ولا ريب تدبير شـيطانى. قـالت لنفـسـهـا: فى نهاية الأمر من سيـرتضى نيكولاو، ابنى المسكين، صـهـراً له: فهـو قليل الشـأن ومشـوه وعـبيط، ماذا بوسـعـهم أن يروا فيـه إلا المال؛ أجل، لابد أن هذا هـو السـبب. فـى هـذه الحـالة، سـتكون حـيـاة نيكولاو فـى خطر، فـإذا كـان ذلك الوغـد أمر بقـتل زوجى رحـمـه الله، فـلا مبـرر الآن لئـلا يخطط لقـتل وريثـه أيضـاً. ومن المحـتـمل أن يكون ضـربـاً من الانـتـقـام الوحـشى، واحدة من عـمليات القـتل الجماعى التى ترتكب منذ قرون بشكل طقسى فى اسطمبول. فى أحد الصـالونات كـانت تعرفت سفيـر "عـبد الحـمـيد الملعون" فـى فـرنسـا، السلطان العـجـوز الذى قـدر له أن يتـصـدر السـقـوط النهائى للإمبـراطورية العثمـانيـة، التى أطلق عليـهـا طيلة عقـود "مـريض أوريا". ذلك السـفـير، أحـد أتباع "أنور بك" وبالتـالى "الشـبـاب الأتراك"، لم يكن يضيع فرصـة لينقض الدولة التى يقول إنه يعمل لحسـابها والتى كان يتـقـاضـى منهـا راتبـاً رائعـاً. فى واقـع الأمـر كـان ذلك الرجل مـثـالاً حـيـاً للتـدهـور والتـردى الأخـلاقى اللذين يحـاول هـو ورفـاقــه فـى الكفــاح إصـلاحـهمـا مع أنه يعتقد العـكس. رعدة مفـاجئـة جعلتها تحتمى بالشـال الذى وضعته وصيفتها على كتفيها. جذبت الحبل. عندما ظهرت أناييس سـألتها هل ابنها موجـود فى المنزل فأجابتها: نعم يا سيدتى*. فقالت لها: قـولى له إذن إننى أريد أن أتحـدث إليـه، أسـرعـى. أرادت أن تكون لطيـفـة مـعـه أن تفكر مـعـه على قدم المسـاواة، لكنهـا عـبـست مـا إن رأتـه يدخل القاعة الصغيرة. قالت بنبرة صوت حادة شيئاً مـا:

– كيف! أمازلت إلى هذه الساعة ترتدى الروب دى شامبر؟

اعـتـذر نيكولاو مـتلعـثـمـاً، قـال: لـم أكن أنوى الخـروج. كان قـرر قـضـاء الليل فـى القـراءة لكن إذا كـانت هـى تقـتـرح شـيـئاً آخـر... قـالت هـى: كلا، كلا، الأمر على مـايرام هكذا، هيا، اذهب، لدى صداع رهيب، ولا أريد أن يضـايقنى أحـد حتى الصـبـاح. أغلقـت عليـهـا باب حـجـرة المكتب بالمفـتـاح وظلت تمـلأ وتمزق مسـودات حتـى سـاعة متأخرة. أخيـراً، عثرت على نبرة

لاحت لها المناسبة، كتبت: "أثار فى خطابك، يا صديقتى المحترمة، مزيجاً من العرفان والحيرة أنت خير من يتفهمه. كنت دائماً من أنصار الرأى القائل بأنه فى مسائل الزواج على صاحبى المصلحة وحدهما يقع عبء القرار بوازع من شعورهما قبل أى شىء آخر، ولسنا نحن الأمهات المنوط بنا فرض وجهة نظرنا مهما تكن وليدة أخلص الأمانى، إلخ... قرأت زوجة دون أومبرت فيجا إى موريرا ذلك الخطاب وفهمت أن لديها كافة أسباب النجاح فى يدها. فالخطاب، وإن يكن مراوغاً، يؤسس للغة مشتركة ويفتح مجرى للحوار والمفاوضة. بخيلاء لها ما يبررها أرت زوجها الخطاب. فقرأه ولكنه لم يفهم شيئاً وكان كل ما تفوه به:

- تقول هنا إنه لن يتم الزواج ولا فى الأحلام!

أجابته هى ساخرة:

- أومبرت، لا تكن أحمق، مجرد ردها على يعنى موافقتها وإن ردت لتقول لا. هذه حيل امرأة.

ونيكولاو كنالز إى راتابلان واجهته أمه بالأمر الواقع. وهو، الذى لم يكن يرتاب فى شىء، ولم يكن شهد تكون العاصفة، لم يكد يرتجل اعتراضاً واهياً. قاطعته أمه بخبط "الباركيه" بكعب حذائها:

- هيا، هيا، ماذا تدرى أنت عن الحياة؟ أما أنا فلى خبرة وعانيت كثيراً وأنا أمك وأعرف ما يصلح لك.

ثم أضافت باقتناع زائف وواضح:

- ما يناسبك هو أن تذهب إلى برشلونة وتتزوج من هذه الصبية. لا شىء يمنعكما من أن تكونا سعيدين.

- لكنك تعلمين من هم يا أمى - غمغم - هم أنفسهم الذين دبروا مقتل أبى.

- هراء. وعلى أية حال لم تكن تلك الصبية هى التى أقدمت على ذلك. ففى ذلك الوقت لم تكن إلا طفلة رضيعة أو أصغر من ذلك. فضلاً عن أن ما فات فات، ومضت سنون عديدة منذ ذلك الوقت، ولا يمكننا أن

نحيا دائماً ونحن نحمل الماضى على كتفينا، ماذا تقول؟

ظل يجول بالشوارع ثم عاد إلى الفندق الكائن بشارع ريفولى مع حلول المساء. دخل مباشرة ليرى والدته وحين وجدها قال لها:

- لا أريد الزواج يا أمى. لا من هذه الفتاة، التى لا أشك فى شيمها، ولا من أخرى. ولا أريد أيضاً أن أذهب لأعيش فى برشلونة. ما أريده هو أن أبقى هنا معك، فنحن هنا، فى باريس، سعيدان، أليس كذلك يا أمى؟

وهى لم تواتها الشجاعة لتقول له: نعم؛ نعم، لم تكن سعيدة بسببه هو، بسبب وجوده تحديداً. اقتصرت على قولها: لا علاقة لذلك بما تحدثنا فيه من قبل. لم تعد صغيراً كى تظل ملتصقاً بذيل ثوب أمك. حينئذ انتابته ومضة من الحقيقة ففتح ذراعيه فى إيماءات موافقة. قال:

- إذا كانت إقامتى معك هى التى تضايقك يمكننى الذهاب لأقطن طابقاً علوياً فى مونبارنس.

بعد إلحاح كثير توصلا إلى اتفاق: يقوم نيكولاو كنالز إى راتابلان بسفرة إلى برشلونة ليتعرف إلى مرجريتا فيجا إى كلارنسا وحينئذ فقط، بعد معرفة كاملة بالموضوع، يُتخذ قرار نهائى. ويظل فى يده خيار العودة إلى باريس إن أراد. وهذا فى رأيها كان استسلاماً لكنها لم تجد فى نفسها القوة كى تجبره على شىء آخر. كان لابد من تلك القسوة التى كانت تعتبرها ضرورية لكى تلتفت إلى مدى التصاقها بابنها رغم كل شىء: كانت تتوق إلى التحرر منه ولكن اقتراب رحيله الآن أترعها بالحزن وعادت تساورها أكثر الأفكار شؤماً. فى أثناء ذلك، وصلت هذه الأمور كلها إلى مسمع أونوفرى بوفيلا الذى أخذ يدبر، من محبسه الاختيارى، استراتيجية تبدل ذلك الوضع الذى لم يكن من مصلحته.

(٥)

كأحد التدابير المبدئية بحث عن أوسوريو، مالك الأراضى فى لوثون، وجارنيت، عميله الأمريكى فى الفلبين، اللذين تعرف إليهما مصادفة فى ضيعة لا بوداييرا فى ذلك المساء النحس الذى ذهب فيه لطلب يد مرجريتا فيجا إى كلارنسا، وتتبع خطواتهما. وهكذا علم أن الأمريكى ينزل فى جناح بفندق كولون، الذى كان موقعه حينئذ ميدان قطلونيا، متاخماً لشارع جراثيا، وأنه كان يعد فى الفندق كل الوجبات ولا يغامر بالخروج من الفندق إلا فى عربة مغلقة مؤجرة تقله مرتين فى الأسبوع - يومى الثلاثاء والخميس - من الفندق وتتركه عند باب مقهى لتدخين الأفيون فى حى فالكاركا. كان يقضى الليل هنالك. وفى الصباح تقله العربة المؤجرة نفسها إلى الفندق. ارتاد هذا المقهى الشهير، آخر ما وجد منها وذاع صيته فى برشلونة، سادة وعدد غير قليل من الطبقة الراقية؛ وكانت ترتاده أيضاً خياطات ومبتدئات فى تلك المهنة. لم يكن أحد يعلم بعد أن الأفيون ومشتقاته تربى عادة ولم يكن تعاطيه محرماً أو معيباً. فيما بعد، كان الكثير من تلك البنات يسقط فى ممارسة البغاء للحصول على متعة لا تسمح مواردهن المحدودة بالحصول عليها بشكل منتظم. عامة كان الأشخاص الذين يديرون أماكن تدخين الأفيون يديرون كذلك مواخير سرية لم يكن من العسير أن تجد فيها قُصَّراً. كان جارنيت يقتل بقية الوقت حبيس جناحه فى الفندق يقرأ مغامرات شرلوك هولمز، غير المعروفة إلى ذلك الحين فى إسبانيا وذات الشعبية الكبيرة فى إنجلترا والولايات المتحدة، حيث كانت تصله عن طريق "الأمريكان أكسبريس". أما أوسوريو إى كليمنتى فأجر شقة فى شارع إسكودييرس. فى ذلك الشارع، الراقى فى ذلك الوقت، كان يحيا تقتصر خدمته على خادم واحد فلبينى وصحبته كلب لولو بومرانى. وفى كل صباح يذهب إلى

القداس فى كنيسة سان خوستو إى باستور. وفى المساء، يرتاد منتدى لمشجعى مصارعة الثيران يضم فى الأساس عسكريين محالين إلى التقاعد مثله، وكبار الموظفين المنتقلين إلى برشلونة ورجال شرطة من أعلى الرتب. فى ذلك المنتدى كانوا يلعبون الورق أيضاً. قرر أونوفرى بوفيلا الاقتراب من جارنيت.

ذهب إلى الفندق للقائه وعرض عليه نواياه بلا موارية. قال له: صار أوسوريو منتهياً، متقدماً فى السن، والطقس الاستوائى لا يرحم كبار السن. فإذا حدث له شىء خطير يمكنك المناورة بحيث تنتقل كافة أملاك أوسوريو، المسجلة فى الوقت الحاضر باسمه، إلى يدى مثلاً بدل أن تنتقل إلى أيدى ورثته. قلب الأمريكى جفنيه. كان يحتسى على جرعات صغيرة مزيجاً من الليمونادة والروم وماء الصودا. قال أخيراً:

– قانوناً، المسألة أكثر تعقيداً مما تبدو.

رد أونوفرى وهو يريه مجموعة الأوراق المنسوخة:

– أعلم ذلك، لقد حصلت على نسخة من العقود التى وقعتماها أمام المحامى فيجا إى موريرا.

قال جارنيت وهو يتفحص العقود:

– أجل، بالطبع، يجب أن نحسب حساب معاونة دون أومبرت.

– سأضطلع أنا بهذه المهمة.

– ومن سيضطلع بأمر أوسوريو؟

– أنا أيضاً.

قال الأمريكى إنه يفضل ألا يواصل الحديث فى ذلك الموضوع. قال لأونوفرى: تعال لمقابلتى بعد ثلاثة أيام أو أربعة؛ لابد من أن أفكر فى الأمر. بعد مرور المدة التى حددها جارنيت عاودا اللقاء. فى هذه المرة أفصح الأمريكى عن مخاوفه: إذا حدث أمر لأوسوريو... أمر خطير، أعنى إذا حدث له أمر خطير، أليس من السهل أن يميل كل شىء إلى توريطى أنا فى تلك المصيبة؟ ابتسم أونوفرى بوفيلا قائلاً:

– لو لم تطرح هذا الاعتراض أنا نفسى كنت سألغى الاتفاق. أما الآن فأرى أنك حكيم ودرست جيداً تفاصيل الحالة. سأشرح لك خطتى.

حين انتهى من الحديث أعرب الأمريكى عن رضاه قائلاً: والآن فلنتحدث عن النسب. اتفقا على ذلك أيضاً. قال أونوفرى بوفيلا وهو راحل:

– وبالطبع، لن يسجل أى شىء ممل قلناه هنا كتابةً.

– فى مرات سابقة تعاملت مع أشخاص مثلك وأعلم أننى تكفينى المصافحة باليد.

تصافح كلا الرجلين ثم قال أونوفرى:

– أما فيما يختص بالصمت...

– أعرف ما يساويه. لن أتحدث إلى أحد.

فى أثناء ذلك كان إفرين كاستلز، لكى يخدم أونوفرى بوفيلا، قد عاد إلى ممارسة ملكاته غازياً قلوب النساء من وراء ظهر زوجته، هكذا تمكن من مغازلة وصيفة تعمل فى منزل دون أومبرت فيجا إى موريرا، ومنها اطلعا على ما يجرى خلف الأبواب، وتابعا عن كثب الطريق الملتوية التى تؤدى إلى زواج الابنة من نيكولاو كنالز إى راتابلان. وكما توقع دون أومبرت من قبل، تغلبت إرادة الأم على مشاعر الابنة. كانت مرجريتا تحاول التمرد لكن ما يمكنها عمله كان قليلاً ضد حيل ومكائد والدتها. فهذه، بدل أن تطرح عليها الأمور دفعة واحدة، كما فعلت لبنتها مع ابنها، راحت تنتزع منها تنازلات تدريجية. فى هذا المضمار، كانت تلعب بمزية: كانت على علم بعلاقة الحب بين مرجريتا وأونوفرى، لكن ابنتها، التى تجهل ذلك، لم تجرؤ على طرح هذه العلاقة سبباً لنفورها من خطط الأم؛ كانت تخشى أن تصيب أونوفرى بضرر كبير لو أنها أقدمت على ذلك. لذا لم تكن تستطيع ذكر أى مبرر حقيقى لرفض كل تلميحات الأم، التى حافظت على ذلك الالتباس كل الوقت، وكان يجب أن ترد بالموافقة.

وهكذا وافقت أولاً على أن يتبادل أبواها وأرملة كنالز إى فورميجا الرسائل ثم تحول الأمر رويداً إلى سلسلة من التنازلات فى مسألة الزواج. ثم بعد أن خطبت كتابة اضطرت إلى قبول إقامة حفل الزفاف. شيئاً فشيئاً راحت تسمح لهم بالتحكم فى مصيرها. كانت أمها تقول لها كلما أظهرت بوادر رفض شىء:

- لا تأتينى الآن بأعذار فهذا لا يجبرنا على شىء ومن الأدب أن نفعله.

- آه يا أمى، هذا ما قلته لى المرة السابقة وما قبلها. وهكذا، دون أن أفعل شيئاً، كما تقولين، أنا أمام المذبح تقريباً.

- هراء، يا طفلتى. أى شخص يسمعك سيظن أننا فى العصور الوسطى. الكلمة الأخيرة لك، يا عبيطة: لن يجبرك أحد على فعل ما لا تريدينه. لكننى لا أرى أى مبرر الآن للرد بجفاء على كل مظاهر الاهتمام التى خصتنا بها هذه السيدة الساحرة وابنها، الشاب الذكى والشريف والغنى.

- والأحدب.

- لا تقولى ذلك إلى أن تريه، فأنت تعرفين كم يبالغ الناس فى عيوب الغير. ثم فكرى فى أن جمال الجسد ممل فى النهاية. لكن جمال الروح، ما أدرانى؟ أظن أن الإعجاب به يزداد كل يوم، ولا تجعلينى أواصل الحديث، لأن كل هذا المجهود يرهقنى كثيراً.

كانت تسير فى الدهليز وتدق ناقوساً ليخف إليها الخدم، كانت تطلب طستاً بها ماء وخل وقطع قماش من الكتان كى تخفف ألم جبهتها وصدغيها ثم تقول:

- ستقضون علىّ جميعاً، يا لنكران الجميل، يا إلهى!

ومرجريتا لم تكن تدرى بأية حجج ستتصدى لذلك الوضع. وإفرين كاستلز كان يطلع أونوفرى بوفيلا هذه على المشادات. فى النهاية قال أونوفرى بوفيلا:

- حسن، جاءت لحظة التحرك.

فى الليلة المتفق عليها وجدا الباب مفتوحاً؛ قامت الوصيفة بمهمة رشوة البواب والبستانى وحارس الغابة؛ وكانت الكلاب مكممة. كان إفرين كاستلز يحمل سلماً يدوياً ارتفاعه خمسة أمتار، وكل ثلاث خطوات يضطر إلى التوقف ليكتم ضحكته بالمنديل. سأله أونوفرى بوفيلا: هل من الممكن معرفة ماذا بحق الشيطان يحدث لك؟ رد مارد كاليّا بأن ذلك الموقف الغريب يذكره بزمن آخر، "عندما كنا أنا وأنت نسرق ساعات وأشياء أخرى من مخازن المعرض العالمى، أتذكر". فرد عليه أونوفرى: هيا، من يتذكر ذلك الآن! مرت إحدى عشرة سنة على ذلك وما يفعلانه فى هذه اللحظة ضرب من العبث. أحست الكلاب بذلك النقاش فبدأت فى النباح. فى شرفة الطابق الأول ظهر دون أومبرت ملتفاً فى روب حريرى. سأل: ماذا يحدث هناك؟ خرج البواب من كشك الحراسة وخلع قلنسوته: لا شىء يحدث يا سيدى، إنها الكلاب، أغلب الظن أنها رأت بومة.

ما إن دخل دون أومبرت واصل أونوفرى وإفرين كاستلز سيرهما. قال المارد: حسن، أما أنا فيخيل إلىّ أن ذلك كان البارحة. كانت الوصيفة تنتظرهما قرب سور المنزل. أمام خلفية من النباتات المتسلقة برز مئزرها وغطاء رأسها. أشارت إلى النافذة ورفعت كلتا يديها مضمومتين إلى خدها لتقلد وضع النوم. سند إفرين كاستلز السلم إلى السور وجرب توازنه وثباته. قال أونوفرى: أنتما انتظرانى هنا، لا تتحركا من هنا إلى أن أنزل. أمسك مارد كاليّا بالسلم فيما كان الآخر يصعد. بمرور الاعوام فقد رشاقته، لم يرد النظر إلى أسفل كيلا يصيبه دوار. فكر: اللعنة، أنا أيضاً يخيل إلىّ أن ذلك كان البارحة! خبطة فى عجزه أخرجته من هذه الأفكار: عند مروره ارتطم خلف مسدسه برافدة. أخرجه من جيبه وصفر. وحين نظر إفرين كاستلز إلى أعلى ألقى

بالمسدس فالتقطه المارد فى الهواء. ثم انتهى من ارتقاء السلم حتى النافذة التى كانت مغلقة فلا ارتفاع درجات الحرارة ولا الاعتبارات الصحية التى تنشرها الصحف فى تلك الآونة أقنعا مرجريتا بالنوم والنافذة مفتوحة. اضطر إلى النداء عدة مرات حتى أطل وجهها كليلاً ومتحيراً. صاحت: أونوفرى! أنت! ماذا يعنى هذا الظهور غير المتوقع؟ أومأ أونوفرى إيماءة نفاد صبر قائلاً: افتحى الشباك ودعينى أدخل، أريد أن أتحدث إليك! من أسفل همس لهما المارد والوصيفة محذرين: إيه، أنتما أخفضا صوتكما! بهذا الصياح ستوقظان جميع النيام. فتحت الشباك شبراً وقربت وجهها من فرجة الشباك: كان شعرها الطليق ينسدل على كتفيها وتباين لونه الضارب إلى النحاسى وبياض بشرة العنق، وألصق الحر والنوم بعض خصائلها بجبهتها، لم يتذكر أنه رآها قط على ذلك الحسن. قال لها بنبرة مشوبة بالانتشاء:

– دعينى أدخل!

رمشت عيناها فى حيطة، قالت هامسة: لا أستطيع. كانت مرت عليهما سنون دون أن يلتقيا، لا يتصلان إلا من خلال الخطابات، والآن، وجهاً لوجه، يصعب عليهما الاتصال بالكلمات. أحس أونوفرى بدمه يغلى مثلما حدث ذلك المساء الذى حطم فيه المرآة بالتمثال الرخامى. سألها بنبرة عدائية أصابتها بالذعر:

– هل صحيح أنك سوف تتزوجين من أحدب؟

لأول مرة وعت حجم ما كانت أمها سترتكبه فى حقها، همهمت:

– يا إلهى، يا ربى، ماذا بوسعى أن أفعل، لا أدرى كيف أمنعها!

ابتسم أونوفرى، قال:

– دعى هذا الأمر لى؛ أخبرينى فقط، هل تحبيننى؟

ضمت يديها ثم شبكت إصبعى الوسطى والسبابة من كل يد، ثم رفعت يديها فوق رأسها كأنما تتوجه إلى السماء، ثم أغمضت عينيها وعادت برأسها إلى الوراء، كما كانت فعلت قبل ذلك بأعوام، حين ضمها

بين ذراعيه أول مـرة، وقالت بصوت أجش كأنما نبت من أعماق صدرها: آهٓ، نعم، نعم، نعم يا حبيبى، أى حياتى، ورجلى الحبيب! وهو ترك السلم الذى كان ممسكاً به ومن الفرضة الضيقة للنافذة الموارية أدخل ذراعيه وبأصابعه مزق قميص نومها ليكشف عن منكبيها الأبيضين. بسبب هذا الفـعل العنيف كـان على وشك أن يفـقـد توازنـه، وهى فطنت إلى هذا الخطر فأمسكت به من ذراعيه وجذبته نحوها، وبقوة اليأس الوحشية تمكنت من حمله فى الهواء وإدخاله من النافذة. ثم وجدا نفسيهما، دون أن يعرفا كيف، فى مخدعها متعانقين. أحست بلهاثه فى كتفيها العاريتين فأسلمت له نفسها فى يأس ولكن بلا حزن، وفيما هما يتمان حتى الفجر ذلك العـشق الذى تأخـر كل ذلك الوقت، وصل القطار، الذى يحـمل نيكولاو كنالز إى راتابلان إلى برشلونة، وصل مـحطة بورت بو. هناك، اضطر جميع الركاب إلى النزول لتغيير القطار لأن عرض شريط القطار مختلف فى فرنسا عن إسبانيا. سأل كم تستغرق المناورة وقيام القطار الآخر فقيل له: نصف الساعة وربما أكثر. قرر السير على رصيف المحطة ليحرك رجليه وينشط جسده. فمن باريس وحتى الحدود اضطر إلى اقـ[illegible]ـم عربة النوم مع شخص قال أولاً إنه تاجر ثم قال إنه من السلك القنصلى، أزعجه بدايةً بحديثه ثم بشخيره. قال لنفسه مستسلماً: على أية حال لم يكن سيغمض لى جفن! ترك خلفه مبنى المحطة وبلغ رصيفاً يرى منه البحر المتوسط وهو يستحم فى ضوء الفجر الشديد والصريح. كان يطأ قطلونيا بعد غياب طويل وأحس بالغربة: من برشلونة لم يكن يحتفظ سوى بذكرى والده الجلية، والأمسيات التى كان والده ينحى فيها جانباً أعماله ويصطحبه ليركب الأراجيح المنارة بمصابيح ويجرها جواد عجوز، لعبة صغيرة ومتسخة كانت تبدو له حينئذ وإلى الآن أبهى لعبة فى العالم. فكر وهو يتأمل ذلك الصباح الناصع والمحدد فى أنه أضحى قريباً من نهاية أيامه وأنه لن يعود أبداً إلى باريس الغائمة والمطيرة التى أحبها كل ذلك الحب. انتابته رعدة أولاً

ثم هز منكبيه. ولما كان بطبيعته أميل إلى الوسواس المرضى، اعتاد مثل هذه الأحاسيس المقبضة ونوبات الحزن المباغتة وتعلم أن يقلل من أهميتها. عندما تحرك القطار كانت الشمس أشرقت، وراح إفرين كاستلز ينظر إلى النافذة فى توتر. جعل يفكر: سرعان ما ستبدأ الحركة فى المنزل وسنصبح فى أكبر ورطة فى العالم؛ وماذا سنفعل؟ كان قضى الليل فى المراقبة فى الحديقة، إلى جانب الوصيفة، ولم يستطع كبح جماح غريزته. قال: إن أريج الياسمين وبشرتك الناعمة هما السبب. كانت الوصيفة تبكى الآن عارية خلف أيكة، وفى اضطرابها لم تتمكن حتى من ارتداء زيها جيداً. لم يكن ذلك البكاء غير مبرر، فبعد ذلك الهذيان حملت وفقدت وظيفتها، فذهبت إلى إفرين كاستلز وطلبت مساعدته؛ وهذا، خشية أن يصل الأمر مسامع زوجته، طلب مشورة أونوفرى بوفيلا. فنصحه: ادفع لها ما تطلبه وقل لها أن تلتزم الصمت. وولد فى موعده طفل ورث قامة وقوة والده وحين كبر لعب فى نادى برشلونة لكرة القدم، الذى تأسس تحديداً فى العام الذى حملته فيه أمه، إلى جانب ثامورا وساميتيير وألكانترا. حاول إفرين كاستلز إعادة المسدس الذى ألقاه إليه أونوفرى من السلم لكنه رفض قائلاً: من الآن فصاعداً لن أحمل سلاحاً معى أبداً: ليحمله آخرون بدلاً منى.

أقام نيكولاو كنالز إى راتابلان فى غرفة رحيبة ويغمرها الضوء من غرف "جران أوتيل دى أراجون". كان يتناول إفطاره فى الشرفة، وهو يشاهد تحت قدميه الحركة الدائبة والملونة بشارع الرملة، ويتنفس مزيجاً من شذى الزهور ويسمع غناء الطيور المتنوع، فاستعاد اعتدال مزاجه. جعل يفكر: سأقضى هنا عدة أيام بهيجة ثم أعود إلى باريس؛ أى تغيير قصير يفيد دائماً؛ عند عودتى سأقبل على باريس بمتعة أكبر ومن المحتمل، بعد غيابى، أن تستقبلنى أمى بحنان. ولاحت له الخوالج النحسة التى انتابته فى محطة بورت بو، لاحت له الآن من بنات الأرق. لكنه فى آخر تخميناته لم يبتعد عن الصواب، إذ إن والدته ندمت على

أنها تركته يرحل. فبعد انصرام أيام من رحيله راحت تبحث عن كاسيمير واصطحبته معها إلى فندق شارع ريفولى. وقالت له: هنا ستكون على مايرام، سأرعاك بحيث تتفرغ للكتابة. فى منتصف الليل استيقظت ولم تجده إلى جوارها. ارتدت مئزراً فوق قميص نومها وخرجت من مخدعها بحثاً عنه. ألفته فى القاعة الصغيرة إلى جانب النافذة، بدا ينظر إلى النجوم فى عته، سألته:

- ماذا تفعل يا صديقى العزيز؟

ولما لم يرد اقتربت منه وأخذت يده بين يديها فى حنان. لاحظت أن يد الشاعر الشاب ملتهبة: وعت أنها فى وقت قصير فقدت ابنها وعشيقها. فى اليوم التالى كتبت خطاباً إلى نيكولاو تقول له: "عد إلى باريس، فما نفعله خطأ وجنون. ولك أن تعلم يا نيكولاو، أى بنى، أننى منذ فترة لى عشيق يدعى كاسيمير، لم أجرؤ قط على الحديث معك عنه لأننى كنت أخشى ألا تفهمنى، فى هذا أيضاً كنت دائماً أظلمك. أردت أن أجبرك على قبول هذه الخطبة التى تثير غثيانك كما تثير غثيانى، بيد أننى فعلت ذلك بوازع من أنانيتى، لأننى أردت استعادة حريتى برحيلك. والآن يحتضر كاسيمير منهكاً، وسأصبح وحيدة تماماً. تثقلنى السنون وأحتاج إليك إلى جانبى، إلخ... هذا الخطاب، الذى كان سيسعد نيكولاو فى ظروف أخرى، جاء متأخراً للغاية.

كانت عائلة دون أومبرت فيجا إى موريرا عادت من ضيعة لا بوداييرا حين كتب إليهم يبلغهم بوصوله برشلونة. أرسل مكتوباً إلى زوجة دون أومبرت يضع نفسه فيه تحت قدميها. كان المكتوب مصحوباً بباقة زهور، فقالت:

- لا يمكن نفى أن الصبى صاحب ذوق راق.

فى اليوم التالى أرسلوا إلى نيكولاو دعوة لتلك الليلة نفسها للقاء فى الاستراحة، فى مقصورة دون أومبرت حيث ستقدم وجبة خفيفة باردة. بذل جهداً فى حدس أن الدعوة تشير إلى الجران تياترو الليسيو وإلى

حفلته الافتتاحية التى كان من البديهى أنه سيحضرها. اضطر إلى سؤال أحد السعاة كى يشترى له تذكرة "صالة" وإصدار أمر إلى خدمة الفندق بكى بذلته "الفراك" على جناح السرعة. نظراً إلى هيئته الجسمانية بُذل جهد كبير فى تفصيل هذه البذلة المذيلة: أما الآن فمهما يبذلوا من جهد فى كيها ستظل دائماً كالخرقة.

عندما وصل باب مسرح الليسيو وجده محاصراً بثلاثة صفوف من رجال الشرطة. ظن أنه تعرض لهجوم كالذى ارتكبه قبل ذلك بخمس سنوات سانتياجو سلبادور فى نفس هذا المسرح، فقد سمع كثيراً عن ذلك الاعتداء على ألسنة الكثير من القطلونيين الذين زاروا عرضاً فندق شارع ريفولى، عند مرورهم بباريس. فى واقع الأمر، هذه الليلة كان يزور المسرح سمو الأمير نيقولا الأول، أمير الجبل الأسود الذى تكرم وشرف بحضوره هذا العرض الأول الذى يتوج أعياد "لاميرثيد". تمكن من احتلال مقعده وأنوار الغاز آخذة فى الخفوت فيما راحت الظلمة تغزو المسرح الفخم تدريجياً. فى تلك الليلة تحديداً، افتتحت فى مسرح الليسيو أوبرا عطيل لجوزيبى فيردى. فى باريس، فى السنوات الأخيرة، كان تابع بحماس أعمال كلود ديبوسى الذى يعده أعظم موسيقى فى التاريخ باستثناء بيتهوفن؛ كان حضر أوائل عروض كافة أعماله فيما عدا أول عرض "بيليه ومليسوند"، إذ أجبرته انفلونزا غير مواتية على البقاء فى الفراش عدة أيام؛ فى تلك المرة لم يهدأ له بال إلا عندما خرجت أمه إلى الشارع، رغم الصقيع السائد، وحصلت له على نوتة "بيليه ومليسوند" التى أمتعت قراءتها فترة نقاهته. الآن تراءت له موسيقى فيردى صاخبة ومفرطة البلاغة. فكر: ما كان على أن أجئ إلى هنا. عندما أضيئت الأنوار تأهب لأداء الواجب الاجتماعى الذى التزم به مضمراً لجهله بكل ما يتصل بحياة مجتمع برشلونة. اضطر إلى السؤال فى الدهاليز عن مقصورة عائلة فيجا إى موريرا؛ وكلما اقترب منها انتابه الغضب والخجل. ماذا أفعل بحق الشيطان وأنا ذاهب لأكل فى يد

قتلة أبى؟ علق أمله على أن تكون المقصورة مزدحمة بحيث لا يلتفت أحد إلى حضوره. بيد أنه، أمام المقصورة، لم يكن هنالك سوى دون أومبرت وزوجته ومرجريتا وخادم يرتدى زياً من طراز فردريك الأعظم ملك بروسيا ويحمل بكلتا يديه صينية عليها "بسكويت" و"بيتى فور". لم يكن يعلم نيكولاو أن دون أومبرت أرسل دعوات كثيرة وتلقى اعتذارات بعدد الدعوات. وفى تلك اللحظة كانوا وحدهم. فى خرق، حاول قول عبارات البروتوكول التى يتطلبها الموقف. قالت السيدة وهى تأخذ الصينية من يد النادل وتقدم له بنفسها قطعة حلوى:

– مقارنة بباريس قد يبدو لك كل هذا ريفياً جداً!

رد شاكراً لفتة الحميمية تلك من قبل مضيفته:

– كلا يا سيدتى، على الإطلاق، على العكس تماماً، صدقينى!

قدم لهم النادل شمبانيا وشربوا نخب إقامة سعيدة للشاب نيكولاو فى برشلونة. قلبت السيدة جفنيها بخبث قائلة: إقامة نأمل أن تكون سعيدة وطويلة على السواء. فكر نيكولاو: هو أحد الرعاع خدمته الظروف؛ وهى سمّاكة لها تطلعات؛ وابنتهما لعوب يحاول والداها تزويجها بأعلى سعر. دق حينئذ الناقوس معلناً استئناف العرض فى الحال؛ بهذا العذر بدأ يحييهم قبل أن يرحل. لكن دون أومبرت أمسك به من ذراعه، قال له:

– مستحيل، ابق هنا فى المقصورة. ها أنت ترى أن هناك أماكن كثيرة شاغرة وهنا ستكون مرتاحاً أفضل ألف مرة من مقعد الصالة. هيا، هيا، لن تفيد فى شىء أعذارك، لا رجعة فى ذلك.

لم يكن أمامه حل آخر سوى الرضوخ، واحتل المقعد الذى خلف مقعد مرجريتا. عندما أطفئت الثريا والشمعدانات وارتفع الستار، تمكن من رؤية منحنى منكبيها الذى انعكس عليه ضوء الشموع وانحسر عنه ثوب السهرة. كان شعرها إلى الخلف معقوصاً فى "كعكة" عريضة ومشبوكاً بتاج من اللؤلؤ الصغير لكنه منتظم ومتساو فى الحجم، مما

يتيح رؤية رقبتها وجزء صغير من ظهرها. نشب نظرته فى منكبيها وأسلم نفسه للموسيقى وغاص مع الشمبانيا فى وخم لذيذ. فيما بعد، فى الفندق، أخرج إلى الشرفة المنضدة ومقعد من الصفصاف المجدول الذى اعتاد أن يتناول إفطاره عليهما وأخذ ورق كتابة وأشعل المصباح واستنشق هواء شارع الرملة الفاتر فى تلك الليلة من أوائل الخريف. من حين إلى حين، كانت أواخر عربات الأجرة المارة تقطع الصمت. كتب: "هذه الليلة، فيما كنا نستمع إلى "عطيل" فيردى فى مقصورة أبويك المحترمين، شعرت بإغراء الانحناء إلى الأمام وتقبيل كتفيك. لو فعلت لكان ذلك خطأ غير مقبول، أعلم ذلك، لذا لم أقدم عليه. ولكان كذلك الطريقة الوحيدة التى بها قد تحبيننى ذات مرة؛ ولكن من أجل ذلك كان ينبغى أن أكون أنا مختلفاً عما أنا عليه، أن أكون قادراً على أن أتبع اندفاعى بدلاً من تخاذلى ساعتها ومن جبنى الآن وأنا أعترف بذنبى فى خطاب. لكننى الآن لا أهتم كذلك إذ أعترف لك بكل الحقيقة: فيما يتصل بمشروع رباط الزوجية الذى أعد ضد رغبتك، كما أعلم بكل يقين، أعطيت موافقتى وأنا فى أقصى درجات النفور؛ حين فعلت ذلك لم أكن أتصور أننى، هذه الليلة، فيما نستمع إلى عطيل فيردى، سأقع فى غرامك كما حدث لى، دون أن يكون لإرادتى أى دخل فيه". توقف، رفع يد ريشة الكتابة إلى شفتيه، أخذ يفكر وهلة ثم واصل الكتابة: "وهذا يعقد الأمور كثيراً بدءاً من الآن". ترك ريشة الكتابة، نهض، أخذ المصباح، دخل الغرفة، اجتازها فى خط زاوٍ، رفع المصباح إلى أعلى، إلى أقصى ارتفاع وصلت إليه ذراعه: عكست صفحة المرآة صورته: مازال يرتدى بذلة الفراك. لأول مرة شعر بالحسد ممن لم تكن فيهم عيوب جسدية ظاهرة. لم يشعر تجاه نفسه بالحسرة بل بالغضب. قال بصوت خفيض للصورة التى يراها فى المرآة: انظر إلى نفسك، يا له من منظر، كم يبدو أنك بلت لتوك فى سراويلك... عاد إلى الشرفة والتقط الريشة وواصل الكتابة: "الآن أعلم أننى لن أعود إلى باريس أبداً".

عندما انتهى على نحو غير مرتب من نسخ الأفكار والأحاسيس التى ازدحمت فى رأسه احتلت الرسالة عدداً كبيراً من الصفحات. كانت لحظة الفجر واضطر إلى ارتداء برنس الحمام ليحتمى من الطل والندى. كان المارة يسيرون بشارع الرملة حينما انتهى، فى الثامنة إلا ربعاً، من خطابه فطواه دون أن يعاود قراءته ووضعه فى ظرف. دخلت فتاة ومعها طعام الإفطار. سألته:

- أيريد سيدى أن يتناوله فى الشرفة كالعادة؟

- لا عليك، يمكنك تركه فى نفس المكان. سأتولى أنا أمر كل شىء. من فضلك، أرسلى هذا الخطاب إلى العنوان المكتوب على الظرف وتأكدى من أن يسلم ليد صاحبه.

- لقد وصلت رسالة لسيدى كذلك.

أخذها ظاناً أنها من والدته. كفته نظرة ليعلم أن مرسلتها مرجريتا. قال للفتاة: هلا تركتنى! فسألته: والخطاب يا سيدى؟ قال: أنا نفسى سأسلمه فى "الاستقبال".

كانت رسالة مطولة كذلك. فكر: هى أيضاً لم تنم هذه الليلة. كانت تعتذر مبدئياً لأنها تجرأت وكتبت إليه وتعترف له بأنها كان ساورها شك فيما يخص صدق نواياه لكنه، فى تلك الليلة، فى مقصورة مسرح الليسيو، بدا لها شخصاً مهذباً وحساساً وطيباً، لهذا السبب جرؤت على أن تتوسل إليه أن يساعدها، قالت: "منذ سنين وأنا أحب رجلاً يحبنى أيضاً" أضاف الخطاب: "هو من أصل متواضع لكننى أسلمت له، سراً، قلبى وشيئاً آخر ليس فى وسعى أن أخبرك به."، وأن الوضع الذى حملتهم إليه أمها، بأفضل نواياها ولا ريب، كان خاطئاً ولا يمكن أن يسفر إلى عن حرج كبير. "وإذا لم تساعدنى فى هذه اللحظة العصيبة ستكون حياتى قد انتهت فلا أستطيع وحدى أن أتصدى لمصيرى، فذلك لا تحتمله قواى". ثم ختمت رسالتها قائلة: "أستفعل ذلك من أجلى، يا صديقى العزيز؟". مزق الخطاب الذى ظل يكتبه طوال الليل وكتب آخر

أقصر شكر لها فيه ما أظهرته من صدق ورجاها أن تعتبره دائماً وبدءاً من تلك اللحظة "صديقاً مخلصاً وبلا غرض. لذا امنعك من أن تستخدمى معى نبرة التوسل لأننى لا يمكننى بأية حال أن أعدَّ نفسى أهلاً لذلك. بل أنا الذى أرجو منك أن تتوقفى عن ذلك الموقف المستسلم والقدرى. فنحن جميعاً من واجبنا المقدس أن نكون سعداء، وإن اضطررنا أحياناً إلى ممارسة العنف ضد الظروف". أعاد قراءة الخطاب فألفاه قريباً إلى الصلف وبعيداً عن الصدق. محاولات أخرى لم تعطه نتائج أفضل. اغتسل وارتدى بذلة عادية وهبط إلى بهو الفندق. قال لموظف الاستقبال: قم بإرسال علبة حلوى وبطاقتى إلى هذا العنوان. خط عدة عبارات مهذبة يشكر فيها لعائلة فيجا إى موريرا حفاوتها معه فى الليلة السابقة فى مقصورتها بالليسيو. ثم طلب عربة أقلته إلى مقابر سان خيرياسيو. كانت بعيدة عن المدينة وكان الهواء رطباً وخانقاً حين وصل إلى هناك، فى منتصف الصباح. هناك، اضطر إلى السؤال عن مقبرة أبيه، فحين مات لم يحضرا جنازته لدواع أمنية: فى واقع الأمر، لم يغادرا باريس التى كانا وصلا إليها قبل عدة أيام. فى تلك اللحظة كان يفكر: أنا لا أعرف حتى من قام على جنازته. تصور قاتليه أنفسهم يقومون بإجراءات الدفن. أعطى إكرامية للحاد الذى رافقه والذى بلا مواربة كان يقضم شطيرة زنخة. لم يكن أفطر فأحس بوخز الجوع؛ فكر فى إعطاء نقود للحاد مقابل إفطاره الخشن الذى كان يلتهمه فى تجهم ثم شعر بالخجل لأن هذه الفكرة عنت له فى مثل ذلك المكان، أمام قبر أبيه الذى يزوره فى تلك اللحظة لأول مرة: اغفر لى يا والدى لكننى لا أستطيع تجنب ذلك - همس أمام ضريحه الذى يقرأ على بابه بحروف من البرونز: "عائلة كنالز". أضاف بغصة فى حلقه: أحب امرأة حباً يائساً. ظل اللحاد إلى جانبه. سأله مشيراً إلى الضريح:

- كم شخصاً يسع؟
- أى عدد.

هذا الرد هدأ من روعه بلا سبب معروف. فكر فى أن العلامات التى تلقاها فى محطة بورت بو للقطارات قبل أيام لابد وأنها ستتحقق فى القريب، نفس العلامات التى كان عقله استبعدها حينئذ. ارتقى العربة المؤجرة التى كانت تنتظره فى مكان مكشوف. لم يسقط المطر خلال أسبوعين وراح حذاؤه يغوص فى تراب بيّضته الشمس. حين عاد إلى الفندق تسلم رسالة أخرى. هذه بالفعل كانت من والدته، كانت تلك التى كانت تعلمه فيها بوجود كاسيمير وبمرضه، الرسالة التى تتوسل إليه فيها أن يعود إلى باريس. رد على الرسالة فى نفس اليوم: "فى الوقت الحاضر، تجبرنى الظروف على تأجيل عودتى لأجل غير محدد". فى خطابه أعرب عن خير آماله فى الشفاء التام والعاجل لكاسيمير الذى لم يتشرف بمعرفته. "آمل أن أتمكن من تصحيح هذا الخطأ فى القريب وأفكر مثلك فى ضرورة أن تقدم له كافة أنواع الرعاية التى يتطلبها مرضه بغض النظر عن النفقات." وأضاف: "تصرفى يا أمى فى كل أموالى التى هى أموالك أيضاً". ثم اختتم رسالته قائلاً: "لكن لا تطلبى منى مؤقتاً أن أعود إلى باريس: سوف أتم عشرين عاماً بعد قليل وحانت الساعة لأبدأ حياة مستقلة". فى ذلك المساء نفسه استقبل فى الفندق زيارة دون أومبرت فيجا إى موريرا، الذى قال له صراحة:

- جئت لأراك يا صديقى العزيز محامياً وأباً: الصفتان معاً. إذا كانت نواياك مع ابنتى جادة ولا أشك فى ذلك، هناك أمور شتى لابد أن نطرقها فيما يتصل بوضعك وثروتك.

نظر نيكولاو كتالز إى راتابلان إلى محدثه فى شرود. من داخله راح يفكر: هذان النذلان فطنا إلى الأثر الذى خلفته فى ابنتهما ويحاول الأب الآن رفع سعر البضاعة. لو لم يخش أن يفقدها إلى الأبد لأظهر، فى رضا، ازدراءه لهما. فكر: بإرضاء هذين الأبوين الحقيرين والجشعين فحسب بوسعى أن ألمح بصيصاً من الأمل. مع ذلك، لم يكن هذا ما يريده. فضعف شخصيته الذى يمنعه من التخلى عن ذلك الحب

والذهاب إلى باريس بلا تأخير هو نفسه الذى يمنعه من امتلاكها بالطريقة التى يرى أنها لا أخلاقية. فكر: إذا أحببتها كما تستحق هى لن أتردد فى أن أبيع نفسى للشيطان. كان الاختيار يخيفه فقرر أن يرد على كل شىء بمراوغة، ليكسب الوقت. لم يكلفه شيئاً اصطناع سذاجة كانت حتى يوم أمس أصيلة فيه. قال:

– كنت أظن أن أمى وزوجتك توصلتا إلى تفاهم فى هذا المجال. وأضاف أنه، على أية حال، لن يتمكن من فتح الموضوع قبل أن يعقد سلسلة من اللقاءات مع رجال البنوك التى يتعامل معها فى برشلونة. أسرع دون أومبرت يلملم ما بعثره، قال: فى الواقع، لقد جئت إلى الفندق كى أسلم عليك منتهزاً فرصة أننى كنت قريباً من هنا، كنت أريد أن أشكر لك شخصياً ما تفضلت بإرساله من حلوى وأن أتأكد من أنك لا تحتاج إلى شىء. فيما يتحدثان، كان أونوفرى بوفيلا، الذى كان على علم بكافة خطوات خصمه، على وشك تطبيق خطته عملياً. قبل يومين كان تلقى رسالة مشفرة من جارنيت، العميل الأمريكى لحاكم لوثون السابق، يقول فيها: كل شىء على أهبة الاستعداد: انتظر تعليمات. هز أونوفرى بوفيلا ناقوساً. خف إليه سكرتير وسأله:

– أدعانى السيد؟

– أجل، أريد منكم أن تبحثوا عن أودون موستانا وتحضروه.

فى صباح اليوم التالى أيقظت ضجة نيكولاو كنالز، ودون أن يقول له أحد شيئاً أدرك أن ما يسمعه هو صوت طلقات نارية. بعدها، سُمع وقع أقدام وصياح؛ دام الهرج عدة ثوان لا غير. قفز من الفراش ووضع البرنس على منكبيه وخرج فى تهور إلى شرفة الفندق. رجل مطل من الشرفة المجاورة حكى له ما جرى:

– قتل الفوضويون شرطياً؛ فى هذه اللحظة يحملونه فى عربة يد.

هبط الدرج بأقصى سرعته وخرج إلى الشارع لكنه لم يتمكن إلا من

رؤية جماعة الفضوليين تتحلق بركة دم. كان جميعهم يتحدث معاً لكنه لم يفهم شيئاً من الروايات غير الواضحة والمجزأة. تلك الواقعة خلفت فيه بالغ الأثر: فبدءاً من تلك اللحظة شعر لأول مرة بأنه جزء من حياة المدينة. في مساء ذلك اليوم نفسه ذهب إلى حائك بشارع آنشا يدعى تينيبروس وكلفه بتفصيل عدداً من الحلل؛ وفي متجر قمصان روبرتو ماس بشارع ليبرتاريا ابتاع عشرات القمصان والملابس الأخرى، كل شيء كان يوحي بأنه يستعد لقضاء الشتاء في المدينة. لدى عودته إلى الفندق وجد دعوة: السيد فيجا إي موريير والسيدة حرمه يرجوان حضوره مأدبة العشاء التي ستقام في منزلهما السبت التالي، إذ هم يقيمون الآن بشارع كاسبي. فكر مرة أخرى: لا يجب أن أحضر، هذه هي آخر فرصة تسنح لي كي أحدد موقفي بوضوح من هذا الموضوع الشائك على نحو لا يحتمل الخطأ. لكنه كان يتذكر كتفيها ويظن أنه سيموت كمداً. رد في الحال مؤكداً حضوره. وكهدية أرسل قفصاً مذهباً وبه عصفور أكدوا له أنه من نوع نادر جداً وغالي الثمن جاءوا به من اليابان ويغني أغاني ساحرة مترعة بالحنين.

(٦)

فى هذه الأيام نفسها تلقى أوسوريو الشرير، حاكم لوثون الأسبق، ووصمة عار طبقة العسكريين، تلقى طرداً بريدياً، يحتوى على سلحفاة ميتة؛ وكان ذَنَبُ السلحفاة مطلياً بطلاء الشفاه. شحب وجه الخادم الفلبينى حين رأى السلحفاة. اصطنع أوسوريو الازدراء أمام الخادم لكنه فى ذلك المساء نفسه تحدث إلى المفتش ماركيس، رجل البوليس الذى يرتاد منتدى مشجعى مصارعة الثيران. قال له: هذا عند القبائل الماليزية يعنى الانتقام. رد رجل الشرطة:

- من المحتمل أن يكون أحداً ممن يحملون ذكرى سيئة من أيام حكمك.

- هراء يا صديقى العزيز، هراء. ففترة حكمى لا غبار عليها. صحيح أننى لدى أدائى مهام منصبى ربما كسبت بعض العداوات، لكننى أؤكد لك أن ليس لأىّ ممن ضايقتهم بأداء واجبى ما يكفى تكلفة سفرة إلى برشلونة.

- وليكن، لكننا لا نستطيع اتخاذ أى إجراء لمجرد أنك تلقيت قاذورة بالبريد.

بعد عدة أيام تلقى الحاكم السابق طرداً ثانياً، يحتوى على دجاجة ميتة نتف ريشها وتحمل شريطاً أسود حول عنقها. صاح خادمه:

- علامة الموت. كأننا متنا يا سيدى الجنرال، لا جدوى من أية مقاومة.

قال المفتش ماركيس:

- تحدثت مع رؤسائى عن موضوع السلحفاة الشهير ذاك، وكما قلت لك، رفضوا التدخل فى الأمر. يقترحون عليك أن تأخذ الأمر من جانبه الطيب؛ لكن، ربما، الآن، إذا أضفنا إلى السلحفاة مسألة الدجاجة... لا أدرى.

قاطعه الحاكم السابق:

– أيها الصديق، فى المرة الفائتة لم ألق بالاً إلى ما اعتبرته مزحة سخيفة لكن مع مسألة الدجاجة، صدقنى، أصبح الأمر خطيراً. أرجوك أن تلفت انتباه واهتمام رؤسائك إلى هذه الحالة، فإن لم يكن من أجل هذه الحالة فليكن من أجل ما يستوجبه شخصى من اهتمام.

حين عاد المفتش برد رؤسائه وجد الحاكم السابق ممتقع الوجه، يرتعد، فقال له: من يرك يظن أن أرواح المطهر زارتك. فأجابه الحاكم:

– دعك من الهزل فالأمر بدأ يتخذ أبعاداً بالغة الخطورة.

فى ذلك الصباح كان تلقى الطرد الثالث والأخير بداخله خنزير ميت يلبس ما يشبه القميص من الساتان بلون البنفسج الداكن. كان الطرد من ثقل الوزن بحيث اضطروا أن يحملوه إلى شارع اسكودييرز، حيث يعيش الحاكم وخادمه، على عربة. عن هذه الخدمة غير المعتادة اضطر إلى دفع رسم إضافى وإلى الاحتجاج على ذلك قائلاً: إن رسوم الشحن تغطى نقل الطرد إلى منزل المرسل إليه: فردوا عليه بقولهم: بالطبع، لكنها لا تغطى استخدام العربة.

حين رأى الخنزير فقد أية رغبة فى مواصلة النقاش، دفع ما طلبوه منه وأحكم إغلاق الأبواب والنوافذ. أخرج من صندوق مسدسه المرخص وعمره بالطلقات ووضعه مستعرضاً فى حزامه، على النسق الكولونيالى، ثم صفع الخادم الذى بال فى زيه. قال له: كن شجاعاً! فرد عليه: اعتبر سيادتك مفترساً. على الرغم مما بذله من مجهود كان هو أيضاً مذعوراً. يعلم بالتجربة أن الماليزيين أهل طيبة وبهجة وكرم من نوع غريب، ويعلم أيضاً أن فى وسعهم أن يكونوا من أرباب العنف والقسوة. فى أيام ولايته حاكماً، اضطر إلى رئاسة طقوس أقرتها العاصمة حتى لا تقف ضد رغبة زعماء القبائل: هناك، رأى أفعالاً وحشية من أكلة لحوم البشر وراح حينئذ يتذكر المحاربين المطلية أجسادهم بالأصباغ وهم يتجشأون بعد تلك المأدبة الدنيئة. وها هو يتخيلهم خلف شجر الموز

بشارع الرملة أو على أبواب المنازل الأنيقة بشارع إسكوديبرز والخنجر الفلبينى الرهيب بين أسنانهم. هذا ما أخبر به المفتش ماركيس الذى وعد بنقل كلمات الحاكم السابق حرفياً إلى رؤسائه. لم يكن يجرؤ على إخباره بأن رؤساءه لا يلتفتون إليه على الإطلاق، إذ إنه أوحى إلى كل أعضاء المنتدى بأن مكانته فى جهاز الشرطة أعلى من الحقيقة.

لم يكن نيكولاو كنالز يأكل أو ينام ويشعر فى كل ساعة بألم غير محدد لا ينفع معه دواء أو تسلية. يوم السبت وصل أمام منزل دون أومبرت فيجا إى موريرا فى حالة من الهزال الشديد. فتح باب العربة خادم يرتدى زياً تعاقدوا معه لهذه المناسبة، وعاونه فى الهبوط. اشتبكت عصاه بين ساقيه فعثر عند وضع قدمه على سلم العربة واضطر الخادم إلى حمله بين ذراعيه حتى الطوار ثم التقاط قبعته من الأرض. وهو سلمها مع العصا والقفازين لوصيفة فى المدخل. هذه الوصيفة هى نفسها التى راودها إفرين كاستلز عن نفسها وكانت تشعر حينئذ بأوائل أعراض الحمل. فكرت وهى تأخذ الأشياء التى كان نيكولاو كنالز إى راتابلان يمد إليها يده بها: كل هذا يحدث لى بسبب عديم الفائدة هذا. كلهم ينظرون إلى كما لو كنت مسخاً غريباً - هذا ما فكر فيه عندما لاحظ نظرة الوصيفة المترعة بالمغزى - كأننى ظاهرة فى مولد. كان أول من وصل: احترامه الأوربى للمواعيد لم يكن تلوث بعد بقلة الاحترام الإسبانية. حتى صاحبة البيت نفسها لم تكن استعدت؛ فمن مخدعها كانت تصدر الأوامر وعكسها للخادمات والخياطة ومصفف الشعر وتقرعهم بالسباب بلا مواربة. احتفى دون أومبرت به فى صالون تبين أنه أكبر كثيراً من أن يسعهما وحدهما. اعتذر نيابة عن زوجته بكل طبيعية: أنت تعرف النساء فى مثل هذه الحالات. لم يتمكن من كبح لهفته فسأل إن كانت مرجريتا ستتأخر هى أيضاً. قال دون أومبرت: أوه، هذا المساء كانت متوعكة، ولا تدرى إن كان بوسعها حضور العشاء،

رجتى أن أعتذر لك عن عدم حضورها. مع علمه بأنه يرتكب خطأ لن يغتفر، أجهش بالبكاء. ودون أومبرت، الذى لاحظ حالة ضيفه المحرجة ولم يكن يدرى كيف يتصرف، اصطنع أنه لم يلتفت إلى شىء. قال: تعال معى، مازال أمامنا وقت، أريد أن أريك شيئاً سيثير بلا ريب اهتمامك.

قاده إلى مكتبه وأراه تليفون آلياً أدخله فى بيته حديثاً. ذلك التليفون كان بدائياً ولم يكن يفيد إلا فى الحديث مع الغرفة التى فى الطرف الآخر من الفناء الداخلى: وقوامه سلك مزود ببوق فى كلا طرفيه. فى كل شباك استبدلت قطعة من زجاجه بلوح من خشب التّوب رقيقة جداً يمر فى مركزها السلك؛ وكل لوح ينقل الصوت إلى اللوح المقابل له: فإذا كانت المسافة طويلة ولابد أن يمر السلك بزاوية كان من الضرورى ألا يلمس أشياء صلبة وإلا حالت دون نقل الصوت؛ فى مثل هذه الأحوال، يعلق السلك فى الهواء بحبل. حين عادا إلى الصالون كانت صاحبة المنزل ظهرت مرتدية ثوباً طويلاً وعدداً مفرطاً من الحلى وتتعطر بعطر "الخيوى" النافذ. كانت لا تزال تحتفظ بجمالها العدوانى - القاطع الآن - الذى شقت به طريقها فى الحياة. وهى الآن تتفجر نعومة لدى رؤية نيكولاو كنالز إى راتابلان: بدت لماحة وعفيفة لأنها أرادت أن توقعه فى أحابيل الإغواء، فأخذت تدعوه بـ "ابنى" وأسرفت فى إظهار حنان مسرحى ولزج. جعل يفكر هو: كل هذه المهانة ورغم ذلك لن أراها حتى، هذه الليلة. وكان يقاوم حتى لا تخف الدموع مرة أخرى إلى عينيه. أخرجه مجيئ ضيوف آخرين من ذلك الموقف الشائك. هذه المرة كان دون أومبرت فيجا إى موريرا قد أخذ فى الحسبان التأكد من حضور بعض الأشخاص فى بيته. كان قال لزوجته: إنه شاب صغير وقضى حياته فى الخارج ولن يلتفت إلى شىء. هؤلاء المدعوون هم: عضو بلدية فاسد يدين له بمنصبه، المنصب الوحيد الذى كان فى وسعه أن يشغله بلا عقاب نظراً إلى موهبته المحدودة، وزوجه؛ وماركيز مشتبه فى صحة لقبه ومفلس اشترى دون أومبرت ديونه فى القمار قبل أعوام فى لحظة

إلهام ومنذ ذلك الحين وهو يفيد منه في إضفاء رونق على اجتماعاته، وزوجه، السيدة إولاليا "تيتي" دي روسالس؛ والأب فالتورتا، رجل دين سكير ذو حاجبين كثيفين؛ وأستاذ في الطب يدفع له دون أومبرت في مقابل تزييف الفتاوي والشهادات، وزوجه. كان مجتمع برشلونة قد حصر دون أومبرت في هذه الدائرة الحزينة. رد نيكولاو كنالز على العبارات التي خصه بها الآخرون بكلمات قصيرة فما كان سيقوله لم يكن يهم أحداً، كما أن أحداً لم يعتبر اقتضابه غير مهذب. في الحال انتشر الحديث وتركوه في سلام. صاحبة الدار وحدها كانت تشجعه على أن يأكل أكثر. ترك في الطبق اللحم اللذيذ المقدم له. بعد العشاء انتقلوا جميعاً إلى الصالون مرة أخرى. كان هناك بيانو أفقي. بعد إلحاح من المضيفة التي كانت على معرفة بميوله الموسيقية وافق على عزف بعض القطع. كان يعلم ألا أحد يلتفت. راح بلا رغبة يعزف بعض قطع لشوبان من الذاكرة. حين انتهى من العزف صفق له الحضور بحماس، فالتفت ليشكر لهم ذلك التصفيق غير الصادق في رأيه فتجمد الدم في عروقه حين أدرك أنها كانت هناك. كانت ترتدي ثوباً بسيطاً من الأورجانزا مشدوداً إلى حزام عريض قرمزي اللون. وكل زينتها كانت مشبكاً من الفضة المشغولة وتنتهي فتحة الصدر بزهرة. وكان شعرها النحاسي معقوصاً في ضفيرة. دنت من البيانو وهمست بعبارات اعتذار عن عدم تمكنها من حضور العشاء: كانت شعرت بدوار خفيف في منتصف المساء، لم تكن تشعر بقواها حتى تلك اللحظة. وهو كان يثق في كل ما تقول ثقة عمياء. قالت له:

- كنت أستمع إليك وأنت تعزف. لم أكن أعلم أنك فنان.

رد هو وقد احمر خجلاً:

- بل هاو متواضع. هل هناك قطعة بعينها تريدين أن أعزفها؟

انحنت فوق البيانو واصطنعت أنها تقلب النوتة. شعر لصق ظهره بدفء جسدها، أمَرَّت إلى جانب خده ذراعها العارية، ومن رغبته في

تقبيل ذراعها أحس بجفاف لحظى فى حلقه. سمعها تهمس فى أذنه: ألم تتلق خطابى؟ قل لى بحب الإله، ألم يسلمـوك فى الفندق الخطاب الذى أرسلته إليك؟ بطرف عينيه لاحظ نظرة الفتاة المتوسلة وأظهر أنه يركز اهتمامه فى لوحة المفاتيح. أخيراً، رد: بلى! فقالت هى: إذن ما ردك؟ أبوسعى أن أعول على كرمك؟ تجشم مجهوداً خارقاً ليتكلم: لا أتحكم فى أفعالى، لا أنام، لا آكل؛ لست على ما يرام فى أية ساعة؛ حين لا أراك أحس بألم عميق فى صدرى، لا أجد هواء، أختنق، وأعتقد أننى سوف أموت. أصرت هى: إذن؟ ما ردك؟ فكر هو: بحق السماء المقدسة، لم تنصت إلى كلمة واحدة مما قلته لها الآن.

أصيب الجنرال المتقاعد أوسوريو إى كليمنتى، حاكم لوثون السابق، بثلاثة أعيرة مسدس أطلقت عليه من عربة مسدلة الستائر لدى خروجه من سماع القداس فى كنيسة سان خوستو إى باستور. كان نزل لتوه آخر درجة من سلم المعبد وخر صريعاً على بلاط الميدان. من شرفة العربة ألقى أحدهم بباقة من الزهور البيضاء على مقربة من الجثة. فيما بعد راح شهود العيان يحكون أغرب ما فى الحادث: عندما سمع خادم الميت صوت أول طلقة انطلق يعدو صوب أحد أطراف الميدان؛ هناك، فعل شيئاً مفاجئاً، جلس القرفصاء وأخرج من جيبه عصا محدبة طولها ثلاثين سنتيمتراً وأدخلها فى ثقب فى الأرض وهكذا تمكن من رفع الغطاء المعدنى المؤدى إلى شبكة المجارى واختفى من خلاله إلى الأبد. قالت الشرطة فيما بعد إن ذلك السلوك يثبت تورطه فى الجريمة وتآمره مع سبق الإصرار فيما قال أشخاص آخرون إنه بدأ يخطط للهرب منذ أن تلقى سيده السلحفاة فقد عثر على أماكن وجود الغطاء المعدنى فى طرف المدينة الذى اعتادا ارتياده وحفظها عن ظهر قلب، وكان يحمل معه دائماً العصا المحدبة التى حصل عليها بنفسه.

قبل أيام من وقوع هذا الحادث كان السيد براوليو أحس فجأة بهاجس أثار قلقه دون أن يتمكن من معرفة سببه. قال وهو ينظر إلى نفسه فى المرآة: أحس بهاجس نحس. فى الأعوام الأخيرة زاد وزنه؛ والآن، كلما تنكر بدا كأنه قابلة فضلاً عن أنه أطلق شارياً قصيراً على الطراز التوتونى نفحه مظهراً مخنثاً ليس شهوانياً بقدر هزليته. وحتى من كانوا، فى زمن آخر، يضحكون من أماليحه صاروا يوجهون له آراء قاسية. آخرون رأوا فى سلوكه أعراض شيخوخة، أعراض ما كان يسمى حينئذ "لين الدماغ". أرجع البعض هذا "اللين" إلى ضربات تلقاها فى ليالى القصف. كان الجميع يفكر فى حالة الملاكم الدانماركى أندرز سن الذى كانت الصحف تتحدث عنه باستفاضة فى مناسبة زيارته الأخيرة لبرشلونة. على مدى عدة أعوام تحدى هذا الملاكم أبطال فرنسا وألمانيا والمملكة المتحدة وانهزم دائماً ونال ضرباً مبرحاً. والآن يحملونه من مدينة إلى أخرى وفى برشلونة عرضوه على منصة من العيدان وقماش الخيام مقامة فى باب النصر كحالة تستحق الاهتمام العلمى، هذا ما جاء فى الإعلانات. فى واقع الأمر، خلف هذا الاهتمام العلمى المفترض، استغل بعض من لا ضمير لهم مصيبته. كان كأنما عاد إلى الطفولة: يهز "شخشيخة" بيديه الكبيرتين ويشرب اللبن فى رَضّاعَة. وبريال واحد يمكن الدخول وسؤاله أسئلة، وببزيتة واحدة يمكن منازلته فى مباراة ملاكمة وهمية. كان لا يزال مفتول العضلات وعريض الصدر وذا ساعدين عملاقين، لكن حركاته جد بطيئة ولا تكاد ساقاه تتحملان ثقل جسده وشبه كفيف على الرغم من أنه فى الرابعة والعشرين من عمره. بالطبع لم تكن تلك حال السيد براوليو، الذى يتمتع بصحة ممتازة، كل ما هنالك أن مظهره الخارجى استقر بتقدم العمر والتقاعد الاضطرارى الذى فرضه عليه أونوفرى بوفيلا؛ فى نفس الوقت تعززت لديه نزواته وضعف إرادته وتغير حالته المزاجية المفاجئ. الآن كان قلقاً بشأن أودون موستاثا. فبعد أن أصبح بلا عمل وبما معه من مال وفير انغمس فى

حياة داعرة. وحين يؤنبه يجيبه: يا لسفهك، أبعدما أمضيت عمرك فى حى لاكاربونيرا تعرض نفسك تأتينى اليوم بمواعظ؟ فيرد عليه صاحب الفندق السابق: هكذا فقدت امرأتى وابنتى، اضطرت المسكينتان البريئتان إلى دفع ثمن جنونى!

تعانق الشريكان فى تأثر وربت كل منهما على ظهر الآخر على نحو مسموع. قال أودون موستاثا: لم يرَ بعضنا بعضاً منذ قرون، فمنذ أصبحت برجوازياً لم تعد هناك وسيلة لرؤيتك. آه، أحبب بذلك الزمن، أتتذكر حين واجهنا جوان سيكارت؟ تركه أونوفرى يتحدث، كان يستمع إليه باسماً. وحين سكت عن الكلام قال له: لابد أن نعود إلى الحلبة يا أودون. الآن، أضاء وجه الفتوة بابتسامة، قال: حمداً لله، كانت آلتى على وشك الصدأ، ما الأمر؟ خفض أونوفرى بوفيلا صوته حتى لا يسمع أحد ما يدبران. ترصد كل من حارسيهما عند ركن. قال: الأمر بسيط، لقد فكرت فى كل شىء، سيعجبك!

فى اليوم المحدد خرج أودون موستاثا إلى الشارع مبكراً، وأجر عربة وتوجه إلى الضواحى، ولدى وصوله إلى مكان بعينه واجه الحوذى بمسدسه وأمره بالترجل. خرج رجل من وراء شجرة وكبل الحوذى من قدميه إلى رأسه بحبل ثم ملأ فمه بقطعة من القماش وكممه. عصبوا عينيه بقطعة من القماش وعاجلوه بضربة فى مؤخرة الرأس فأفقدته الوعى. ارتدى رجل العصابة الذى خرج من وراء الشجرة عباءة الحوذى وصعد إلى مكانه. عاد أودون موستاثا إلى العربة وأسدل الستر، وخلع اللحية المستعارة والعدستين السوداوين اللتين وضعهما على عينيه حتى لا يتعرفه الحوذى لو ساءت الأمور. كانت حيلته مكتملة. فى شارع الرملة اشترى باقة من السوسن كما قال له أونوفرى بوفيلا. تضوعت العربة المغلقة بعبق الزهور النفاذ حتى إنه ظن أنه سيغشى عليه. فكر: سوف أتقيأ؛ فيما يجرب حالة مسدسه. كانت ساعة الكنيسة تدق عندما دخل الميدان. خرج من القداس عدد قليل من الناس لأنه كان يوم عمل. أزاح

الستر قليلاً وأخرج من الفتحة ماسورة المسدس، وحين رأى الحاكم السابق يرافقه خادمه الفلبينى صوب نحوهما فى هدوء. تركه حتى هبط درجات السلم وأطلق ثلاثة أعيرة نارية. الفلبينى وحده كان له رد فعل لحظى. تحركت العربة مرة أخرى. حينئذ تذكر الزهور فنقر سقف العربة كى يتوقف الحوذى، ثم التقط باقة السوسن من مقعد العربة وقذفها بكل قوته من النافذة. فى تلك اللحظة سُمع صياح وعدو، كان الجميع يحاول أن يبحث عن مكان آمن.

بعد عدة أيام ألقت الشرطة القبض عليه عند خروجه من ماخور قضى الليل فيه. كان يعلم أنه ليس مشتبهاً فيه فلم يقاوم الشرطة. عامل رجال الشرطة ببالغ التهذيب حتى إنهم التفتوا إلى سخريته. قال له عريف الشرطة: اهزأ كما تشاء، فأنت هذه المرة ستكفر عن كل ما أرتكبته معاً. وهو كان يصنع بفمه قبلاً ويرسلها إليه كأنه بغىّ وليس رجل شرطة، مما أثار حنق الأخير. أما الشرطيون الآخرون، الذين يعرفون شهرة موستاثا، فلم يرفعوا أعينهم عنه وصوبوا نحوه بنادقهم فيما كانت هرواتهم جاهزة لتنهال عليه. بعضهم كان صغير السن للغاية، وقبل أن ينضموا إلى الجهاز كانوا سمعوا عن أودون موستاثا، الفتوة المخيف؛ وفى تلك اللحظة، يقتادونه سجيناً ومكبل اليدين ليمثل أمام القاضى، وحين سأله هذا أين كان فى يوم كذا ساعة كذا رد بكل شجاعة، وتلا عليه سلسلة الأكاذيب التى أعدها مع أونوفرى بوفيلا والحجة التى أعدها تحديداً تحسباً لمثل هذه الأسئلة. كان القاضى يكرر الأسئلة مرة وأخرى فيما يخط الكاتب نفس الأجوبة التى كان القاضى يقرؤها فيما بعد متعجباً. فى النهاية قال له: أتريد أن تسخر منى أنا كذلك؟ فرد عليه الفتوة:

- ليحتفظ عدالة القاضى بهذه الحيل للصوص والاشتراكيين والفوضويين والمخنثين. أنا أودون موستاثا، محترف ولى أعوام طويلة من الخبرة: ليس عندى ما أقوله غير هذا.

بعد قليل، فيما يرى التحقيق يبدأ من جديد كأنما تحدث من قبل إلى أصم أو أبله، أضاف: أتريد عدالتكم أن تشتهر على حسابى؟ اعلم إذن أن كثيرين جربوا ذلك من قبل، جميعهم أراد أن يكون القاضى الذى وضع أودون موستاثا وراء القضبان، وحلموا برؤية أسمائهم وصورهم فى الصحف؛ وجميعهم جعل نفسه عرضة للسخرية.

ذلك القاضى كان اسمه أثيسكلو سالجادو فونسيكا بينتوخو إى جاموثا، فى الثانية أو الثالثة والثلاثين من العمر، منحنى الظهر، غليظ الرقبة، كث اللحية، شاحب الوجه. يتحدث فى تمهل ويرفع حاجبيه كلما قيل له أى شىء، كأنما يفاجئه كل شىء. كرر: قل أين كنت يوم كذا ساعة كذا؟ فقد أودون موستاثا أعصابه، صرخ فى المحكمة غير مهتم بأن يسمعه المقبوض عليهم الآخرون:

- لننته من هذه الكوميديا الهزلية، ماذا تريد منى؟ أتريد مالاً؟ لأننى لا أنتوى إعطاءك ريالاً واحداً. اعلم ذلك جيداً منذ الآن يا عدالة القاضى. فأنا أعرف اللعبة، إذا أعطيتك مائة اليوم فستطلب ألفاً غداً. ليس لديك ما تفعله، ليس لديك أدلة أو شهادات شهود، وحجتى تامة. فضلاً عن أن الجميع يعلم بأن أوسوريو الحاكم السابق قتله فلبينيون.

رفع القاضى حاجبيه متحيراً، سأل: أى حاكم سابق؟ أى فلبينيون؟ تأخر أودون موستاثا فى فهم أنهم لا يتهمونه باغتيال الحاكم أوسوريو بل بقتل شاب يدعى نيكولاو كنالز إى راتابلان لم يكن سمع عنه من قبل. ففى صباح يوم الحادث مر رجل يرتدى عباءة وقبعة ذات حافة عريضة من أمام طاولة استقبال الجران أوتيل دى أراجون بسرعة شديدة حتى إن موظف الاستقبال لم يتمكن من اعتراض طريقه. وحين أرسل فى إثره عدداً من موظفى الفندق وشرطيين كانا يقومان بدورية فى ذلك القطاع من شارع الرملة فى تلك الساعة التى يكثر فيها الناس، كان الدخيل اختفى فى الطوابق العليا ولم يتم العثور عليه قط. قال البعض إنه هبط من واجهة الفندق وإنه كان يحمل تحت العباءة حبلاً ينتهى بخطاف

ساعده فى النزول فيما قال آخرون، يستندون إلى أن أياً من المارة لم ير أى شىء من ذلك، إنه اشترى عدداً من موظفى الفندق. وفى مروره العارض بالفندق لم يترك أثراً سوى جثة نيكولاو كنالز إى راتابلان بعد أن سدد إليه ثلاث طعنات أى منها كانت كافية لقتله حتماً. فى اليوم التالى، دفن فى ضريح العائلة إلى جانب رفات والده الذى قتل غدراً هو الآخر. لم تحضر أمه الجنازة. كان آخر أفراد ذلك الفرع من أسرة كنالز. فى تلك اللحظة كان القاضى يريه القبعة والعباءة. فيما كان هو فى الماخور، قامت الشرطة بتفتيش منزله ووجدت تلك الملابس وكذلك مدية ذات أربعة يايات تمكن ملاحظة آثار دم عليها على الرغم من أنها غسلت. ظل ينفى الدليل وهو فى حيرة من أمره. جعل يردد فى إصرار حكاية السلحفاة والدجاجة والخنزير. ذكر القاضى فيما بعد فى محضر التحقيق أن المتهم كان يهذى بكل وضوح. أجبروه على ارتداء القبعة والعباءة وعلى المثول على ذلك النحو أمام موظف الاستقبال بالفندق الذى أمر القاضى باستدعائه. تبين أن قطعتى الملابس من مقاس موستانثا نفسه وأكد موظف الاستقبال بأنه الشخص نفسه الذى مر من أمام طاولة الاستقبال فى لمح البصر. مقابل وعد بالرشوة تمكن من إرسال خطاب إلى السيد براوليو عن طريق ضابط فى المحكمة يقول فيه: لا أفهم شيئاً مما يحدث، أشتم رائحة مكيدة فى ذلك. توجه السيد براوليو إلى أونوفرى بوفيلا فقال هذا: سنوكل له أفضل محام جنائى فى إسبانيا. سأل السيد براوليو: أليس من الأفضل أن نحل هذه المشكلة بمعرفتنا قبل أن تتخذ صفة رسمية؟ كان اسم المحامى الذى تولى الدفاع إيرموخينيس باييخا أو باييخاه ويقول إنه من أشبيلية وإنه انتهى من الاشتراك فى نقابة المحامين ببرشلونة حيث يريد أن يفتح مكتباً، لكنه فيما بعد لم يفعل. الجزء الأكبر من الشهود الذين طلب محامى الدفاع شهادتهم لم يدل بشهادته، كن من محترفات البغاء واختفين حين ذهبت الشرطة القضائية للبحث عنهن، فلم يكن يحملن وثائق وكن معروفات

فحسب بما أطلق عليهن من ألقاب ويكفيهن تغيير محل الإقامة واللقب لمحو أى أثر لماضيهن. أما الثلاث الوحيدات اللاتى أدلين بشهادتهن فقد خلفن فى الجلسة انطباعاً بالغ السوء. قلن إن ألقابهن هى: "الخنزيرة" و"الضرطة" و"رومـوالدا مجرية القضبان": وفى القاعة لم يتورعن عن الكشف عن سيقانهن والغمز بأعينهن للجمهور واستخدام لغة بذيئة وإطلاق الضحكات لأتفه سبب. وكن يتوجهن إلى ممثلى الادعاء بعبارات من مثل: "أجل يا حبيبى"، "كلا يا حياتى" وهكذا. واضطر رئيس الجلسة أكثر من مرة إلى لفت نظرهن. صرحن جميعاً بأنهن كن مع المتهم صباح يوم الجريمة، لكنهن حين ووجهن بأسئلة ممثل الادعاء بل وأسئلة الدفاع نفسه تراجعن وانتهين إلى الاعتراف بأنهن غير متيقنات من تاريخ اليوم أو من الساعة أو من الشخص نفسه. أودون موستاثا، الذى لم يكن رأى من قبل تلك النفايات وكان يعتقد أن تدخلها له تأثير عكسى، أراد أن يتحدث إلى محاميه لكن الأخير بدعوى أن لديه أعمالاً أخرى لا تحتمل التأخير لم يذهب لرؤيته فى سجن "قصر العدل" الذى نقل إليه فترة المحاكمة. قصر العدل ذاك، الذى افتتح فى العقد السابق، كان مقره أرض المعرض العالمى حيث كان أودون موستاثا تعرف بشكل مباغت إلى أونوفرى بوفيلا الذى يعلق عليه الآن الأمل فى إنقاذ حياته؛ بيد أن الأخير لم يظهر أياً من علائم القلق، فحين كان السيد براوليو، الذى لم يكن يحيا، ويتابع يومياً وقائع المحاكمة بين الجمهور الذى تغص به القاعة، يذهب للتشاور معه كان يختلق أى عذر كيلا يستقبله فإذا استقبله عرج بالحديث على موضوعات أخرى. طالبت النيابة بالإعدام للمتهم فى حيثياتها المبدئية والتى رفعتها فيما بعد بحيث تكون نهائية. فى آخر الأمر نطقت المحكمة بالحكم فحكمت بالإعدام على أودون موستاثا. قال له المحامى: صبراً، سنستأنف. هذا ما فعله لكن بعد تجاوز المهل التى حددها القانون أو بتقديم طلبات استئناف بشكل بالغ السوء حتى إن الهيئات العليا رفضتها لأخطاء فى الإجراءات. منعزلاً فى

زنزانته، كان الفتوة يشعر باليأس. امتنع عن الأكل وعز عليه النوم وحين يصالح النوم يروح نهباً للكوابيس ويستيقظ وهو يصرخ. كان حراس السجن الذى عاد إليه يسكتونه ويهزأون بمخاوفه وأحياناً يدخلون الزنزانة ويوسعونه ضرباً. فى النهاية اعتراه تحول: وعى أن عليه أن يدفع بتلك الجريمة التى لم يكن ارتكبها ثمن العديد من الجرائم التى لم يعاقب عليها. ورأى فى ذلك يد الله القدير، ومن الكفر والخيلاء انتقل إلى الورع والتواضع. ألحف فى طلب قس السجن واعترف له بآثامه التى لا تحصى. كانت ذكرى حياته الماضية، وحل الرذيلة الذى انغمس فيه كل تلك الأعوام، تجعله يبكى بلا عزاء. وعلى الرغم من أنه تلقى الغفران على يد قس الاعتراف لم يكن يجرؤ على المثول بين يدى الخالق الأعظم. قال له القس: ثق برحمته الواسعة. فى ذلك الوقت كان يرتدى دائماً زياً بنفسجى اللون وحبلاً رمادياً يتدلى من عنقه.

ذهب السيد براوليو مرة أخرى ليرى أونوفرى بوفيلا. وعندما مثل أمامه غرس ركبتيه فى البساط واتخذ بذراعيه وضع الصليب. سأله أونوفرى: فيم هذا الهزل؟ فأجابه: لن أتحرك من هنا إلى أن تسمعنى. ضغط أونوفرى جرساً وقال للسكرتير الذى أطل برأسه: لا أحد يضايقنا! حين أغلق السكرتير الباب أشعل سيجارة واتكأ على مقعده:

– أخبرنى يا سيد براوليو.

– أنت تعلم سبب مجيئ. إنه لشرير لكنه صديقك كذلك، فى الظروف العصيبة وقف دائماً إلى جانبك. وأنت لم تعرف رجلاً أوفى منه وأنا لم أعرف مثله رجلاً فى حسنه – أضاف بصوت ممزق.

– لا أرى سبباً لهذه المقدمة.

– أفهم أنك أردت أن تلقنه درساً قاسياً. أنا متيقن من أنه اتعظ تماماً. من الآن فصاعداً أنا مسؤول عما يفعل.

– ماذا تريدنى أن أفعل؟ استخدمت أفضل محامى إسبانيا، قلبت الدنيا رأساً على عقب، أنا مستعد لطلب العفو من جلالته...

قاطعه السيد براوليو:

– أونوفرى، لا تحاول خداعى، فأنا أعرفك منذ أعوام طويلة. كنت طفلاً حين حضرت إلى بنسيونى يداً إلى الوراء ويداً إلى الأمام. أنا أعلم أنك نظمت هذه المهزلة لأنك شرير، لأنه لا يوجد شىء أو شخص لا تكون مستعداً للتضحية به فى سبيل حصولك على غرضك ولأنك فى الحقيقة حقدت دائماً على أودون موستانا. لكنك هذه المرة جاوزت الحدود وعليك أن تصلح الأمر شئت أم أبيت. انظر إلى حالى: جئتك جاثياً أستعطفك أن تنقذ حياة ذلك الشقى؛ قلبى "كعذراء الآلام" مخترق بسبع مدى؛ افعل ذلك من أجله أو افعله من أجلى.

بعد أن رأى أونوفرى لا يحرك ساكناً ترك ذراعيه تسقطان فى يأس ونهض عن الأرض، قال: حسن، كانت هذه إرادتك. أنصت لى: هذه الأيام قمت ببعض التحريات: وأعلم أنك وجارنيت، بمعاونة دون أومبرت فيجا إى موريرا، رحتما تستخدمان التوكيلات التى وقعها أوسوريو لمصلحتكما وأن كافة ممتلكات أوسوريو فى الفلبين أصبحت الآن تقريباً ملكاً لك. وأعلم أيضاً أن أشخاصاً استأجرتهم اشتروا مؤخراً سلحفاة ودجاجة وخنزيراً وأنهم شحنوا بالبريد طروداً كبيرة الحجم. كافة هذه المعلومات لن تنفى التهمة المنسوبة إلى أودون موستانا؛ بل على العكس، سينتهى أى تحقيق فى مصرع أوسوريو إلى إدانته، لكن لا يمكن قتل نفس الشخص مرتين وأودون يعتبر الآن فى حكم الموتى. فى المقابل يمكن أن يتورط آخرون إن سقط. ثم اختتم حديثه بقوله: ها أنت تدرى إلام أشير. لم يتوقف أونوفرى عن الابتسام وتدخين سيجاره على مهل، ثم قال فى النهاية:

– لا تنفعل هكذا يا سيد براوليو. قلت لك إننى فعلت من أجل صديقى أودون موستانا ما وسع البشر. لسوء الطالع لم تسفر مجهوداتى عن النتيجة المرجوة. فى مقابل ذلك، أسفر السعى من أجل حرية سجين، وذلك من قبيل المصادفة البحتة، عن تحرير سجين آخر. فههنا فى هذا

الدرج قرار العفو عن ابنتك ديلفينا. لا تحسب أن ذلك لم يكلفنى نفوذاً ومالاً للحصول عليه، إذ إن السلطات رفضت منح هذا العفو بدعوى وجود مبررات تتعلق بالأمن العام أنا شخصياً أتفق معها. لكن الأمر الآن لحسن الطالع أصبح محلولاً. ألن يكون من المحزن ألا تستكمل إجراءات قرار العفو هذا؟

أمام مثل هذا الاختيار نكس السيد براوليو رأسه وخرج من المكتب دون أن يقول شيئاً: على خديه فاضت دموعه.

فى المصلى المخصص للمحكوم عليهم بالإعدام وضع عضوان من جماعة "طريقة دم المسيح عيسى الطاهر" وضعا "صليب الجماعة" تنيره ست شموع. وطبقاً لتعاليم الطريقة، كانوا يرتدون مسوحاً وغطاء للرأس ونطاقاً من الجلد الأسود ومسبحة وشعار الطريقة مخيطاً فى الصدر كعلامة مميزة. هذه الجماعة، المنوطة بها مساعدة المحكوم عليه فى ساعاته الأخيرة ثم الاضطلاع فيما بعد بشأن الجثة إذا لم يكن له أقارب يطالبون بها، أقيمت فى برشلونة فى عام ١٥٤٧، فى كنيسة السانتييمو ساكارامنتو، والمعروفة لدى العامة باسم "مذبح الدم" فى كنيسة "عذراء الصنوبر"، وكان مقرها بالفعل، إلى وقت قريب، رقم واحد بميدان الصنوبر. كان أودون موستاثا يصلى مقوس الظهر وجبهته تلامس الأرضية الباردة والمبتلة. كان فى ركن منعزل من السجن، منفصلاً الآن عن العالم الخارجى: فقط السلطات المختصة سمح لها بزيارته، وكذلك طبيب السجن والكهنة وأعضاء الطريقة، وموثق العقود، بناء على نص صريح فى القانون "فى حالة ما إذا أراد المحكوم عليه أن يكتب وصيته أو أن يملى شيئاً شفاهة". فكر: تبدو كل دقيقة دهراً، لكن الدقائق والدهور يبدو أنها تمر بنفس السرعة. كان الصمت يسود السجن؛ حرم الخروج إلى حوش السجن وكافة الأنشطة الداخلية "التى قد تعكر صفو جو العزلة المفروض". فى الفناء تجمع الأشخاص الذين سيحضرون الإعدام:

السكرتير القضائى وممثلو السلطات الحكومية والقضائية ومأمور السجن ومن يعنيهم من موظفيه والكهنة وأبناء الطريقة التى تساعد المحكوم عليه وثلاثة من المواطنين يختارهم العمدة وإذا تطوعوا للحضور". توقفت عمليات الإعدام العلنية قبل ذلك التاريخ بعدة سنوات، بمقتضى المرسوم الملكى الصادر فى ٢٤ نوفمبر ١٨٩٤. أثار ذلك الإجراء انتقادات حادة. نقرأ: "بذلك فقد الإعدام فى إسبانيا كونه عبرة بلا أية مزية أو تعويض، لأن التقارير الصحفية لا تثير الفضول وحسب بل تحيط المجرم بهالة ضارة". الآن يراقب المواطنون الثلاثة الجلاد وهو يجرب تشغيل كرسى المشنقة، وكانت هذه الآلة تتكون من كرسى مزود بمسند عال تخرج منه ذراع تنتهى بطوق من الفولاذ على هيئة حبل مشنقة، هذا الطوق يشد إلى رقبة المحكوم عليه ويضغطها حتى يسبب له الموت خنقاً. وكان جلالة الملك فرناندو السابع، بالمرسوم الملكى الصادر فى ٢٨ أبريل ١٨٢٨، ""احتفالاً بالذكرى العطرة لعيد ميلاد الملكة السعيد"، قد ألغى الإعدام بالمشنقة وقرر أن يتم الإعدام منذ ذلك الحين بطوق الشنق المعتاد للمحكوم عليهم من العوام، وبطوق الشنق المهين للمحكوم عليهم فى جرائم مخزية وبطوق الشنق النبيل للمدانين من النبلاء". وكان المحكوم عليهم بالإعدام بطوق الشنق العادى يُقتادون إلى منصة الإعدام على متن دابة كبيرة، أى بغل أو جواد، ويرتدون عباءة – غطاء للرأس ملتصقة بالرداء. وغطاء الرأس – العباءة ذاتها كان، كما يشير اسمه، صنفاً من العباءات له غطاء رأس وذيل توضع فوق ملابس المحكوم عليه الأخرى وتستخدم عادة فى الحداد. أما المحكوم عليهم "بالإعدام المهين" فيقتادون إلى منصة الإعدام على متن دابة صغيرة: أى على متن جحش، أو جراً، حسب حكم المحكمة، وبغطاء الرأس محلولاً. أما المحكوم عليهم "بالإعدام النبيل" فكانوا يقتادون على متن خيل مسرجة وجل أسود. كل هذه المميزات كانت قد فقدت كل معنى لها بعد أن توقفت عمليات الإعدام العلنية. حين فتح الباب لم يرد أودون

موستاشا أن يرفع رأسه عن الأرض. أريع أيد رفعته من إبطه. همس صوت: إلهى، ارحم روحى. كان يردد العبارة آلياً كى لا يفكر. عندما خرج إلى الخلاء فتح عينيه. كان يسير أمامه أبناء الطريقة ومريدوها يحملون تمثال المسيح الذى ظل إلى تلك اللحظة فى المذبح. شاهد ضوء الفجر الضارب إلى البياض ليوم بلا غيوم. فكر: فيم يهمه أن تطلع الشمس أو لا تطلع فى ذلك اليوم أو غيره من الأيام التالية. فى نهاية الفناء رأى طوق الإعدام ومجموعة الشهود والجلاد، منزوياً قليلاً عنهم. ألقى أحد الشهود السيجارة التى كان يدخنها وسحقها بحذائه. إلى جانب السور رأى تابوتاً من الخشب الداكن وغطاءه مستنداً إلى السور. ارتخت ركبتاه لكن الحارسين اللذين يمسكان به من إبطيه حالا دون سقوطه على الأرض. فكر: كى لا يقال فى حقى شىء. مد قامته ورفع رأسه. أراد أن يقول: "يمكنكما تركى" لكن صوته لم يخرج، بل أطلق شخيراً صادراً من أعماق صدره. عابث نفسه قائلاً: فى مثل هذه الظروف هذا أقصى ما عندنا. كل خطوة يخطوها دون أن يسقط اعتبرها نصراً. كان يجر ثوب الإعدام على الأرضية الحجرية للفناء، وكانوا ألبسوه ثوب الإعدام ذاك ليلة الإعدام. طبقاً للقانون كان لون ثوب الإعدام أسود؛ وفى حالة اغتيال شخصية ملكية أو أحد الوالدين يرتدى المحكوم عليه ثوباً أصفر وقلنسوة من نفس اللون بكليهما بقع حمراء. كان ثوب الإعدام أشبه بثياب الرهبان، وحين رأى نفسه قبل ساعات يرتدى الثوب استشعر مهانةً. مازح سجانيه: اعتدت دائماً اختيار ملابسى بنفسى. ولو أنهم تأخروا عدة أشهر قبل إعدامه لما كان لديه مبرر للشكوى لأن ثوب الإعدام ألغى بقانون صدر فى ٩ أبريل ١٩٠٠. جلس على الكرسى وتركهم يوثقونه برباط. عضو الطريقة الذى كان يحمل الصليب قربه من شفتيه. أغمض عينيه وضغط الصليب بشفتيه. لم ير شخصاً يصنع إيماءة خفيفة بيده. فيما بعد، تم عمل محضر مقتضب بوقائع تنفيذ الحكم طبقاً للوائح وقع عليه كل الحضور. رفع أفراد الطريقة الجثة

لدفنها. فى التابوت تركوا يديه فى وضع الصليب فوق صدره ووضعوا فى يديه مسبحة من المعدن المطلى بالفضة. أغمضوا عينيه وأصلحوا هيئة شعره الذى شعثته الريح. حين رآه أفراد الطريقة على ذلك النحو تهامسوا: لم يكن فى برشلونة حقاً رجلاً أبهى منه.

فى نفس تلك الساعة، على الطرف الآخر من المدينة، فتح الباب الجانبى لسجن النساء لتخرج منه ديلفينا. كان السيد براوليو ينتظرها فى عربة مسدلة الستائر متوقفة أمام الأسوار المعتمة. حين رآها تعبر عتبة السجن هبط من العربة بصعوبة. دون أن يقولا شيئاً تعانقا وهما يبكيان. قال السيد براوليو بعد برهة:

– ما أنحفك الآن يا ابنتى!

– وحضرتك يا أبى، أترتعد؟ أأنت بخير؟

– لا شىء يا ابنتى، قد يكون التأثر، تعالى، اصعدى إلى العربة، هيا بنا إلى المنزل ولنخرج من هنا فى أقصر وقت. ما أنحفك! حسن، لا يهم، سأعتنى بك، سيدهشك كم تغيرت.

بعد شهر من إعدام أودون موستاثا طلب أونوفرى بوفيلا مرة أخرى من دون أومبرت فيجا إى موريرا يد ابنته مرجريتا فأجيب هذه المرة إلى طلبه فى الحال وبلا تحفظات.

الفصل الخامس

(١)

ولد القرن التاسع عشر على يد نابليون بونابرت فى الثامن عشر من الشهر الثانى فى التقويم الفرنسى عام ١٧٩٩، والآن ينتهى على فراش موت الملكة فيكتوريا. خارج غرفة النوم الملكية، فى شوارع أوربا، طرقعت سنابك خيل "الحرس الإمبراطورى": ودوت المدافع فى أوسترليتز وبورودان وواترلو وفى ميادين معارك أخرى شهيرة كذلك. أما الآن فلا نسمع إلى صوت اهتزاز الأنوال وهدير وفرقعة المحرك الذى يعمل بالوقود. بمقارنته بغيره، كان التاسع عشر قرناً قليل الحروب لكنه ثرى بالأحداث: قرن معجزات. والآن تجتاز البشرية عتبة القرن العشرين فيما تنتابها رعدة. لم تكن أشد التغيرات قد طرأت بعد لكن الناس أرهقتهم كثرة التحولات وشدة جهلهم بما يخبئه لهم اليوم القادم. فهم الآن يرون أى تحول بحذر وأحياناً بخوف. لم نعدم "متبصرين" تخيلوا ما سيكون عليه المستقبل وما يحفظه لمن سيكتب لهم رؤيته. كانت الطاقة الكهربائية والإذاعة والسيارة والطيران والتقدم فى علوم الطب والصيدلة، فى طريقها إلى تغيير كل شىء جذرياً: الاتصالات والنقل ومظاهر أخرى كثيرة من مظاهر الحياة؛ والطبيعة سوف تنفى إلى مناطق معينة، وسيستأنس النهار والليل والبرد والحر؛ وسيتحكم العقل البشرى كما يريد فى قانون الصدفة، ولن تكون هنالك حواجز تقف فى وجه ما يخترعه الإنسان فهو سيتحكم فى حجمه وفى جنسه وسيتمكن من الانتقال فى الفضاء على سرعات لم يسمع بها أحد ويصبح غير مرئى حسبما يتراءى له ويتعلم لغة أجنبية فى ساعتين ويحيا ثلاثمائة عام أو أكثر، وستأتى كائنات غاية فى الذكاء قادمة من القمر ومن الكواكب ومن أجسام سماوية أخرى قصية، لزيارتنا ولمقارنة أجهزتها بأجهزتنا ولترينا لأول مرة أشكالها العجيبة. فى أحلامهم، تخيلوا عالماً

من مثل أركاديا يعمره الفنانون والفلاسفة، حيث لن يضطر أحد للعمل. آخرون تنبأوا بتعاسة وطغيان ولا شيء أكثر. ولم تتوقف الكنيسة الكاثوليكية عن تذكرة كل من أراد أن يستمع لها بأن التقدم لا يسير بالضرورة في الدروب التي اختارتها إرادة الله المبنية بجلاء في ظهوراته المتعددة والمبلغة إلى الحبر الأعظم الذي تم إعلانه معصوماً من الخطأ في التاسع عشر من يولية ١٨٧٠. في مقتها للتقدم، لم تكن الكنيسة الكاثوليكية وحدها، فقد كانت غالبية ملوك العالم وأمرائه تشاطرها مخاوفها، فهم كانوا يرون في هذه التغيرات الصدع الذي سوف يتسلل منه قلب كافة المبادئ والنذير الذي يعلن نهاية عصرهم. القيصر وحده كان على خلاف ذلك، كان يشاهد، طرباً، المدافع ذات الخمسين طناً فأكثر وهي تخرج بلا توقف من مصنع "كروب" ويقول لنفسه: بارك الرب التقدم إذا أتاح لي قصف باريس! في مثل هذه الاعتبارات، وأخرى مشابهة، راحت تتصرم السنون. في مساء أحد أيام شهر أغسطس من عام ١٩١٣ كان أونوفري بوفيلا يفكر تحديداً في عرض الحياة وهو في ميناء برشلونة. كان ذهب إلى هناك لكي يشرف على عمليات تفريغ طرود معينة لا ينطبق محتواها على بيان الشحن. تم إبلاغ الجمارك وشراء تصريح السلطات بما يوازي وزن الطرود ذهباً لكنه لم يشأ أن يخلف وراءه ثغرة. فيما ينظر شارداً رسو السفينة راح يتذكر اليوم الذي جاء فيه إلى هذا الميناء يبحث عن عمل. حينئذ كان أغلب المراكب شراعياً وهو كان طفلاً. الآن يرى المداخن والصواري تتأرجح في نعومة في انعكاس الضوء الشفقي لذلك المساء في نهاية الصيف، فيما أوشك هو على إتمام عامه الأربعين. عابساً ووحيداً شاهد السفن الراسية هناك. اقترب منه كاتب يتشح بسواد صارم ليقول له إن الطرود على وشك الخروج من جوف السفينة. أأصاب التغليف تلفٌ؟ – سأل شارداً. من المعلومات الواردة من طرق مختلفة استنتج أن حرباً ستقوم في القريب؛ فإذا حدث ذلك وصدقت توقعاته فإن من يكون في ظروف

تمكنه من توريد أسلحة للسوق سيربح ثروة ضخمة فى وقت قصير. والآن يهرب إلى إسبانيا نماذج أولية من البنادق والمدافع والقنابل اليدوية وقاذفات اللهب، إلخ. وعملاؤه يحومون بالفعل حول مقار وزراء خارجية أوربا. هذه الفكرة لم تكن قاصرة عليه: ينبغى أن يعقد تحالفات جديدة ويكسب عداوات ويتجنب الإغراءات ويحطم منافسيه؛ كما أن عليه أن يضع فى الاعتبار جواسيس الدول المتنازعة مستقبلاً والذين كانوا بدأوا بالفعل فى التسلل إلى برشلونة وإلى كافة مدن الكرة الأرضية. فكر: لم أفعل كل هذا؟ فقد تبين أن ابنه البكرى أصيب بالبله؛ فعلى الرغم من أنه ولد فى أفضل رعاية سرعان ما اتضح أنه لن يصبح طفلاً عادياً ألبتة. والآن يحيا نباتياً فى جبال البرانس ناحية ليريدا فى رعاية مؤسسة دينية يمولها بسخاء لكنه لم يشأ أن يضع قدمه على أراضيها الشاسعة. طفل ثان له ولد ميتاً فأنجب طفلتين. وحبه لزوجه، الذى انتصر من قبل على العديد من الاختبارات، الذى حمله إلى القيام بالعديد من التجاوزات، لم يتمكن من تجاوز ذلك الفشل المتوالى. فقد أصيبت هى بالبدانة، إذ كانت تتعزى من الشعور بالإهمال الذى تحياه بتناول الحلوى والشيكولاتة فى أية ساعة؛ فلم تكن تعدم قط من يهديها أشد الحلوى إغراء معتقداً بذلك أنه يكسب وده هو. فى هذه الهدايا وفى هذا التملق المتصل الذى كان يتعرض له كانت ترى ثروته وسلطته فيما عدا ذلك ظل فى عداد المهمشين. كان محط إعجاب رجالات المدينة ليس للطريقة التى جمع بها أمواله بل لتلك التى يبذل بها الأموال. فالمال عندهم غاية فى ذاته ولم يكن قط، فى أيديهم، وسيلة للوصول إلى السلطة ولم يدر بخلدهم مطلقاً استخدامه للتحكم فى مقاليد الحكم ورسم سياسة الحكومة طبقاً لمبادئهم. وإذا كانوا ذات مرة وافقوا على الدخول فى عالم سياسة الحكومة المركزية فقد فعلوا ذلك مكرهين، ربما نزولاً على إلحاح من التاج، فى مثل تلك الحالات، أدوا واجبهم كرجال إدارة متميزين، بكفاءة، بلا غرض، ضد مصالح قطلونيا

التى كانوا من قبل يدافعون عنها، بل وضد مصالحهم هم. فعلوا ذلك ربما لأنهم يعتبرون أنفسهم دائماً عالماً على حدة، منفصلاً عن بقية إسبانيا التى لم يرغبوا، مع ذلك، فى التخلى عنها أو هم لم يعرفوا أو لم تترك لهم فرصة ذلك. وربما لأن الأمور سارت على نحو بالغ السرعة فلم يتح لهم وقت للترسب كطبقة، للنضج كهوية اقتصادية. والآن كانوا على وشك الاندثار قبل أن يضربوا بجذورهم فى التاريخ، قبل أن يغيروا مجرى التاريخ. أما هو فقد كان يبذل المال بملء يديه، بنزق؛ هذا النزق وتناقضات أخرى زرعا القلق والحيرة. هو الآن ينصت إلى حفيفِ أحبال السفينة وصرير خشبها وصوت تلاطم الماء الخفيف على السفن الراسية. كثير من هذه السفن كان ينقل أو يحضر البضائع من القلبين ومن أصقاع أخرى؛ بعضها أيضاً كان ملكاً له. لكن ذلك جميعه لم يكتب له الخلاص من أصوله الغامضة فى عين المجتمع. كانوا يلجأون إليه لأنهم فى حاجة إليه، لكنهم فيما بعد يصطنعون أنهم لم يتذكروه، فلا يظهر اسمه فى قوائمهم.

قبل ذلك بعام حدث ما يلى: ذهبت لزيارته جماعة من كبار رجال المجتمع على رأسها أحد معارفه القدامى، ماركيز "أوت"، وأعلنت عن حضورها ببالغ التفخيم، وبعد الكثير من المواربة عرضت عليه مبرر تلك الطقوس العديمة الفائدة، فأغلب الحضور كان له تعامل معه من قبل، تعامل غير مشروع فى الغالب، وكان رهن إشارته، والآن يصطنعون من جديد النسيان، يؤدون تمثيلية البروتوكول. سألهم:

- فيم تشريفكم لى؟

راحول يتبادلون قواعد اللياقة فى ترك كل مقعده للآخر، ويسرفون فى عبارات التهذيب التى لا تنتهى، من نوع: تفضل حضرتك؛ كلا، كلا، مستحيل، تفضل حضرتك، تكلم أنت، فأنت أفضل منى. وهو انتظر فى صبر متفرساً وجوههم: بعضهم كان عضواً فى "مجلس إدارة المعرض العالمى ؛ وكانوا من أصحاب النفوذ حين كان هو يتسلل مع بزوغ الفجر

إلى أرض القلعة القديمة ليوزع منشورات الدعاية إلى الفوضوية ويبيع دواء نمو الشعر الذى كان من اختراعه. مع ذلك، كان أغلبهم قد مات: توفى ريوس إى تاوليت فى ١٨٨٩، بُعيد ختام المعرض العالمى: وتوفى مانويل جيرونا إى أجرافل فى ١٩٠٥، وكان المفوض الملكى للمعرض، وكان تبرع من ماله الخاص لعمل الواجهة الجديدة للكاتدرائية، كما كان مؤسس "بنك برشلونة" الذى أدى إفلاسه حينئذ إلى هدم عدد كبير من الأسر ومزق الطبقة المتوسطة القطلونية: وتوفى مانويل دوران إى باس فى ١٩٠٧، إلخ. من ظل على قيد الحياة كان تقدم به العمر؛ لم يدر بخلد أحد أن ذلك الرجل الذى يراقبهم الآن فى سخرية وازدراء رآهم يمرون وهو طفل صغير مختبئاً خلف أكياس الأسمنت كأنه يحضر مرور موكب بعيد المنال. قالوا له:

– جئنا لأن لدينا دلائل كثيرة على حبك لبرشلونة، هذه المدينة التى يشرفها وجودك وأنشطتك، وكذلك لما نعرفه عنك من كرم شديد.

سألهم بسخرية:

– أخبرونى بالمبلغ!

قالوا دون أن يحركوا ساكناً، فقد كانوا جميعاً تماسيح عجائز:

– الموضوع هو أننا تلقينا مذكرة من وزارة الشؤون الخارجية تقول إن شخصاً من دم ملكى، أحد أفراد الأسرة المالكة سيزور المدينة فى وقت قريب. زيارة خاصة، لذا فلا ميزانية لها من الناحية الرسمية، وأنت تفهمنا. من ناحية أخرى، ليس فى وسعنا أن نسمح، وهذا نفسه أوعزت إلينا به الوزارة، نزولاً على شعور صاحب الجلالة الملك، حفظه الله، ليس فى وسعنا، نكرر، ليس فى وسعنا أن نسمح بأن تمر هذه الزيارة السامية بلا تكريم. الخلاصة: مصاريف إقامة وتسلية هذه الزيارة السامية ومرافقيها، أو هذا على الأقل ما فهمناه، سنتكفل نحن بها من جيوبنا.

سأل أولاً من تكون تلك الشخصية. بعد تردد طويل، وفى أقصى سرية قالوا إنها الأميرة أليكس دى هيس، حفيدة الملكة فيكتوريا،

المعروفة الآن أكثر باسم أليكساندرا فيودوروفنا، زوج صاحب السمو الإمبراطورى القيصر نيقولا الثانى. هذه المعلومة لم تترك به أى أثر؛ لم يكن يهتم أقل القليل لأسرة رومانوف التى اعتبر أفرادها من الطفيليين؛ لكنه، فى المقابل، كان يتابع بفضول تحركات المتآمرين الماكسماليين، لينين وتروتسكى وآخرين الذين كان مرشدوه فى لندن وباريس يوافونه بخطواتهم حيث كانوا يجتمعون هناك فى ذلك الوقت، والذين كان فكر أحياناً فى تمويل مشروعاتهم الجنونية وهو يعد لاستثماراته المستقبلية. عنت له المقابلة سخيفة. فكر: أية أهمية فى أن أستجيب لما يطلبه هؤلاء الأشخاص؟ فيم يفيدنى كسب ودهم؟ كان يعلم أنهم ليسوا من الحمقى؛ على العكس تماماً، فالعديد منهم كان من بين أشجع رجال المال. لكنهم جميعاً فيما عداه كانوا يجهلون ما أصبح قرب أنوفهم، ما يحدث خارج حدود مكاتبهم؛ كانوا يجهلون عالم البؤساء والمجانين والمكفوفين ذاك الذى يحيا ويتكاثر فى عتمة الأزقة. وهو كان يعرف ذلك العالم جيداً؛ فى الزمن الأخير أحس بنبض الثورة المخيم. قال:

- دعوا لى هذا الأمر، سوف أتكفل بكل شىء.

وهم يهبطون الدرج كانوا لا يزالون يتشدقون بآيات الشكر. طابور طويل من العربات كان ينتظرهم لينقلهم إلى قصورهم بطريق "جراثيا". مطر خفيف عكس ألق غطاء العربات وواقى زند الخيل. وحول مصابيح العربات التى تعمل بالغاز أو تضيئ بالشموع تكونت هالة ضارية إلى الصفرة. من الباب رد سلامهم بإيماءة من يده. راح يفكر: كل ثروتى وشهرتى سترثها ابنتاى والقوادون الذين سيضاجعونهما؛ أستحق ذلك لأننى تزوجت من غبية. فى تلك اللحظة كانت زوجة القيصر ومرافقوها يهبطون سراً عند "باب السلام". والمطر الذى بدأ الهطول مساء المقابلة كان توقف قبل ساعات. فى برك الماء انعكست قمم شجر الموز الوارف الذى حرك أفنانه نسيم رطب وعكر. همهم ماركيز "أوت": يوم سئ لاستقبال صاحبة السمو الإمبراطورى!

كلاهما كان يدخن فى عربة الأخير، من طراز بروغمان ويجرها أربعة جياد إنجليزية. خلفهما كان ينتظر جيش من العربات من طراز "سيمون" و"جوندولا" المستأجرة لتنقل الموكب إلى غرفه التى تم حجزها فى فندق "ريتز". لم يرد على تعليق الماركيز. قبل يومين كان تلقى رسالة عليها توقيع جوان بوفيلا. كان يعتقد أن والده أرسلها لكنه وهو يقرؤها اكتشف أن من كتبها كان أخاه الذى أسقط هو وجوده فى خضم النسيان. فى ذلك الخطاب كان يقول له إن أباه يرقد على فراش الموت. قال له: أسرع إذا أردت أن تراه حياً. لم يكن رأى أباه منذ زيارته القصيرة لمنزله فى خريف ١٩٠٧ فى مناسبة جنازة والدته. فى وقت العزاء لاحظ غياب جوان الصغير. قال له والده إنه يؤدى الخدمة العسكرية فى إفريقيا حيث النزاع قائم دائماً مع المغاربة. عند العودة من المقابر تركهما الجيران للمرة الأولى وحدهما. قال الأمريكى: لا أدرى ماذا سيكون من أمرى الآن؛ وهو لم يقل شيئاً. مسح الأمريكى بعينين متفرستين الغرفة غير المرتبة بسبب تواتر الزوار كأنه ينتظر رؤيتها وهى تظهر وراء قطعة أثاث. قال بعد وهلة: لم أكن أشك حتى فى أن تكون مريضة، كانت تسير محنية قليلاً وتأكل بلا شهية مؤخراً لكننى لم أتمكن من ملاحظة أية أعراض أخرى إن وجدت؛ فى مساء أحد الأيام عدت إلى المنزل فوجدتها ميتة على ذلك الكرسى الذى اعتادت استخدامه أمام النار وماء القدر لم يصل بعد درجة الغليان، أى أنها لم تكن ماتت منذ وقت طويل، ومع ذلك، حين أخذت يدها كانت باردة كالثلج. فيما كان الأمريكى يتحدث راح هو يفتح أبواباً ويتفحص كل شىء. كغالبية نساء الريف لم تكن والدته تتخلص من أى شىء، كان المنزل مخزناً لأشياء غير ذات نفع: وجد قطع من أغطية فراش قديمة، أوعية مطبخ مثقوبة، فلكة مغزل مكسورة ومتآكلة. الآن يتذكر الحرمان الذى كانا يكابدانه معاً حين ذهب أبوه إلى كوبا وتركهما وحدهما. قال بصوت مسموع: ثمة أمور مهمة تستدعى وجودى فى برشلونة، ينبغى أن أذهب فى التو. حين هبط

فى محطة "باسورا" سأل فى سذاجة عن العم تونيت، الحوذى. وأخيراً، قال له أحدهم إن الحوذى قضى نحبه منذ أعوام طويلة. استأجر عربة كانت فى تلك اللحظة تنتظر أمام منزله وسط الديكة والدجاج. ردد: حانت ساعة الرحيل. واصل الأمريكى حديثه بشكل طبيعى: أتدرى، لقد كنت أفكر... قرقرة الدجاج وطنين الدبابير راح يعزز الصمت كلما توقف عن الكلام. أضاف وهو يرى أن ابنه لا يحثه على الاستمرار: لقد كنت أفكر فى أن بوسعى الرحيل معك إلى برشلونة. أنت تعلم أن حياة الحقل لم ترقنى قط بما يكفى فأنا على الأحرى رجل مدينة، والآن، بعد أن أصبحت وحيداً... نظر أونوفرى إلى ساعته والتقط قبعته وعصاه واتجه ناحية الباب والأمريكى فى إثره. قال: تعلم أننى شخص مجرب نوعاً ما، لست قروياً بسيطاً، وأنا على يقين من أن فى وسعك أن تجد عملاً لى وأن بإمكانى إسداءك العون فى أعمالك، بكل تواضع فإذا عملت فلن أكون عبئاً على أحد. خرج من المنزل ونظره معلق بالعربة. نهض الحوذى، الذى لاح ينعس تحت سحابة من الذباب فى ظل شجرة تين، حين رآه يخرج وركض نحو العربة. لم يكن حل لجام الحصان بل كان متأهباً للرحيل. قال: تحت إمرتك! كان رجلاً عريض المنكبين وذا رأس مستدير وحليق: حارب فى كوبا فى صفوف الجنرال ويلر. قال الأمريكى: لديك العديد من المشاغل حقاً، يمكننى أن أكرس كل اليوم للأطفال. قال أونوفرى وهو يصعد إلى حافة العربة: أنا متأكد من أن جوان لن يتأخر فى العودة من إفريقيا، وحين يعود سيعود كل شىء إلى طبيعته، وأنا سوف أحرك أصحاب النفوذ فى مدريد كى ينهوا خدمته العسكرية بلا تأخير. أطلق الحوذى العنان وفك مكبح العربة ورفع سوطه. تمسك الأمريكى فى قوة بساق ابنه: أونوفرى، بحق أغلى من تحب، لا تتركنى وحدى؛ لا أستطيع الحياة وحدى، لا أعرف كيف أعتنى بنفسى، لن أحيا شتاء بأكمله جالساً إلى جانب النار لا أجد من أحادثه، أرجوك من فضلك. وضع أونوفرى يده فى جيب سترته الداخلى وأخرج كل ما كان

معه من مال، ومد يده به إلى الأمريكى دون أن يقوم بعده، ثم قال له: بهذا المال فى وسعك أن تحيا فى رغد إلى أن يعود جوان. رفض الأمريكى أخذ المال. فأضاف بصبر نافد: هيا يا أبى، خذه، سأصرف غيره ما إن أصل إلى باسورا. أطاعه الأمريكى وترك ساقه التى كان يمسك بها بكلتا يديه ليأخذ النقود. أومأ أونوفرى للسائق بحزم ورحلت العربة ركضاً. أطل وجه أضاءه قنديل زيت من نافذة عربة الماركيز أوت. قال:

– سيد أونوفرى، هلا تفضلت بالحضور وهلة؟ ضبطنا شخصاً يحوم حول المكان.

سأل الماركيز: ماذا يحدث؟ والرجل، الذى كان من عملاء بوفيلا بلا أدنى شك، لم يشأ الرد. قال أونوفرى للماركيز:

– ابق أنت فى العربة فقد تهبط صاحبة السمو. أنا سأذهب لأستطلع الأمر وسأعود فى الحال.

انطلق فى إثر الرجل الذى كان يحمل القنديل عالياً لينير له الطريق، وراحا يتجنبان بكرات من الأحبال ويقفزان بين برك الماء. وصلا إلى حيث تقف جماعة، خمسة رجال يحيطون بسادس، وهذا فقد نظارته الطبية فى المعركة. أمرهم: اتركوه. من هو؟ فأجابوه: لا نعرف، لقد فتشناه لكنه لا يحمل سلاحاً، يحمل مطواة فقط. واجه أونوفرى بوفيلا المتسلل وسأله كيف تمكن من دخول رصيف الميناء. رد عليه الآخر فيما يجرب أن يصلح من أمر سترته بصفعات قوية:

– ليس أمراً وعراً، ثمة حراسة زائدة عن الحد!

من لكنته كان واضحاً أنه ليس أجنبياً، غير أنه لم يكن كذلك لا بلشفياً ولا عدمياً ولا أى فرد يهمه فى شىء إيذاء القيصرة. سأله من هو وماذا يفعل فى ذلك المكان فقال إنه صحفى وذكر اسم الصحيفة التى يعمل لحسابها، ذكر:

– كنت أتنزه بشارع الرملة فلاحظت الاستعدادات. افترضت أن

أحداً مهماً أو خطراً على وشك الوصول، فخدعت الحراسة واختبأت خلف بعض الطرود. من سوء الطالع أنهم اكتشفونى وأساءوا معاملتى. ماذا ستفعلون معى؟ - أضاف بنبرة متحدية.

- أوه، لا شىء، لا شىء على الإطلاق، فى حقيقة الأمر، لم تقدم سوى على أداء واجبك الإعلامى. فى هذه الحالة، مع ذلك، أود أن أوجه إليك رجاء حاراً بألا تكشف عن شىء مما رأيت. أنا مستعد لتعويضك مما أصابك من الضرر الذى سببه لك هذا الحادث المؤسف بالطبع.

فيما يقول ذلك أخرج من جيب سترته الداخلى عدة أوراق مالية، ثم عد ثلاثة وهم بإعطائها للصحفى الذى رفضها، صائحاً:

- أنا لا أقبل رشاوى يا سيدى.

- ليست رشوة، إنها لفتة صداقة بسيطة. إن لى مصلحة شخصية فى هذا الموضوع.

قال الصحفى فى نبرة تهديد:

- سأسجل ذلك فى تحقيقى!

اقتصر أونوفرى على الابتسام فى تسامح:

- سأترك الأمر لك. وددت لو تفاهمنا بشكل أفضل. فأنا اعتدت التفاهم جيداً مع الصحفيين، أنا أونوفرى بوفيلا.

- آه، أستميحك العذر يا سيد بوفيلا، كيف لى أن أرتاب...؟ فقدت نظارتى فى حادث عارض... اغفر لى ما قلت وتيقن بالطبع من صمتى التام.

فى سبتمبر ١٩٠٣ تحدثت الصحافة عن أعماله للمرة الأولى والأخيرة، وذلك فى أعقاب عمليات نزع ملكية غامضة وإصلاحات لا تحصى لميناء برشلونة لم تتم قط؛ فقد حقق بعض الأشخاص من هذا الأمر أرباحاً لا تفسير لها. وحين قرأ المقال أرسل إلى الصحفى رسالة يقول فيها: "وددت لو تبادلت بعض الانطباعات معك". فرد عليه الصحفى برسالة شديدة الاقتضاب: "حدد حضرتك بنفسك المكان

والساعة، على الا تكون فجراً فى سان سيبيرو". كان يشير بذلك على نحو جلى إلى الشرك الذى كان أعده لجوان سيكارت قبل ذلك بأعوام فأودى بحياته. وأونوفرى بوفيلا لم ير فيها إهانة له، أجابه: لست على هذا القدر من الأهمية، زرنى فى مكتبى، فأنا مقتنع بأننا سنصل إلى اتفاق. فى اليوم التالى، ظهر الصحفى فقال له ما إن رآه أمامه: ضع سعراً لصمتك، ليس لدى وقت أضيعه. قال له الصحفى بابتسامة خفيفة: من قال لك إننى للبيع؟ فقال أونوفرى: أنت تعرفنى جيداً وتعلم ما يمكن أن ينتظر منى، فلو أنك لا تعلم ما جئتنى. رسم الصحفى أرقاماً فى ورقة: كان رقماً باهظاً الهدف منه إثارة غضب الآخر، استفزازاً حقيقياً. قال له أونوفرى بوفيلا مبتسماً: ما أقل تقديرك لنفسك، أنا كنت توقعت مبلغاً أكبر، خذه. وأخرج من درج ظرفاً منتفخاً وسلمه للصحفى. وهذا ألقى بنظرة على محتوى الغلاف ولاذ بالصمت ثوانى ونهض دون أن ينبس ببنت شفة وارتدى قبعته وخرج من المكتب. حين بلغ ناصية أول شارع هاجمه أربعة رجال فسلبوه المظروف وماله الخاص، الذى كان خرج به من منزله لقضاء احتياجات اليوم. فيما بعد كسروا ساقيه. بعد أن ذهب الصحفى، شاء أونوفرى العودة إلى عربة ماركيز أوت، لكن الموكب فى تلك اللحظة بدأ التحرك. جعلت تمر من جانبه العربات من طراز "جوندولا" فى صرير يشبه تحطم الزجاج أو احتكاك الحديد. اضطر إلى اللوذ بملجأ بين البالات المكومة على رصيف الميناء لئلا تدهسه تلك العربات المكتظة. عنزات أطلت برؤوسها من نافذة عربة وحكت وجهه بذقونها واشتم تماماً رائحتها الخبيثة. سأل رافعاً صوته فوق ثغائها المؤسى. قدم له الخادم الذى كان يرعاها تفسيرات لم يفهمها. فى نهاية الأمر صاح فى وجهه شخص ذو ملامح منتفخة يرتدى زى فرسان المجر، صاح فيه بفرنسية رديئة أن صاحب السمو ولى العهد، الذى يرافق والدته فى هذه الرحلة، لم يكن يثق بالحليب الذى يقدم له مع الشاى فى الدول الأخرى. حتى الأعلاف المخصصة للعنزات جاءت

فى بالات من سهول بعيدة. أحضروا كذلك الأثاث المفضل للقيصرة: فراشها، صواناتها ذات المرايا، دواوينها، البيانو، مكتبها، مائة وستة صناديق للملابس وعدداً مماثلاً من الصناديق للأحذية والقبعات. اضطر إلى الانتظار حتى تنتهى القافلة من المرور كى يتمكن من ترك ملجأه المرتجل. أخيراً، ألفى نفسه وحيداً. أثناء تلك الجلبة، سهواً أو عن قصد، لم ينتظره أحد. كان الطين يغطى حذاءه وواقيه وأسفل سراويله، بل بلغت البقع سترته. وجد قبعته غائصة فى كومة روث فتركها فى مكانها. فى شارع الرملة استقل عربة أجرة حتى منزله: هناك، استبدل ملابسه بأقصى سرعة فيما أعدوا له أسرع عربة "تلبورى" فى اصطبلاته. مع ذلك وصل فندق ريتز عندما كانت المأدبة التى نظمها وقام على تكلفتها هو، كانت قد بدأت. هرول ناحية المائدة الرئيسية، حيث تُرى القيصرة وولى العهد والأمير يوسوبوف وضيوف آخرون رفيعو المقام يحوطهم مضيفوهم القطلونيون. حين وصل المائدة أدرك عدم وجود كرسى شاغر ولا أدوات طعام محجوزة له. حين أدرك حيرته نهض ماركيز أوت وهمس فى أذنه: ماذا تفعل هنا كالأبله؟ مكانك هناك، على المائدة الثالثة. احتج بصوت خفيض: لكننى أريد أن أجلس هنا، بجوار القيصرة! همس الماركيز والقلق ظاهر على سمته: كف عن الهراء، أنت لا تنتمى إلى النبلاء، أتود إهانة صاحبة السمو الإمبراطورى؟ كان يتذكر تلك المشاهد فيما تقوم الأوناش برفع مدافع الهوتزر الألمانية المخيفة ومدافع هائلة لم تر إلى ذلك الحين فى أى من ميادين المعارك ومدافع مضادة للطائرات تمكن من إخراجها من ثكنات أركان الحرب الفرنسية لقاء مبالغ باهظة. الآن وهو يرى هذه المخلفات الشاذة أحس برعدة رضا. ففى الزمن الأخير لم يعد يستشعر مثل هذه الأحاسيس إلا فى النادر، أما بقية العام فهو نهب للملل. ففى الليل، فى منزله، فى غرفة المكتبة، محوطاً بمئات الكتب التى لم يفكر فى قراءتها أبداً، يدخن السيجار ويتذكر فى شجن ليالى القصف البعيدة التى كان هو وأودون

موستاثا، الذى يأسف لموته الآن، يشاهدان الفجر من خلال زجاج النوافذ الذى يغطيه بخار منزل بغاء، يحوطهما زجاجات فارغة وبقايا طعام وورق لعب وزهر ونساء عاريات يرقدن مقرفصات لصق الحوائط وثياب منثورة فى أنحاء الغرفة، متعبين وسعيدين، فى دهشة الشباب البريئة.

(٢)

في مدريد، كان صاحب السعادة محمد تورّيس يتصبب عرقاً. بعد أن اعتاد نسيم الأطلنطي الذي يلطف جو الأفنية الزاهرة في قصره بطنجة، ها هو يختنق الآن في "قصر الشرق" الذي توقف فيه أثناء رحلة العودة من باريس ليلتقي بكليمنصو. كان المسك الذي يتعطر به يثير غثيان دون أنطونيو ماورا. حتى ذلك الوقت كان السلطان قد حافظ على استقلال عصيب بفضل الخصومة بين إنجلترا وفرنسا: والآن، تزمع ألمانيا إقامة قواعد بحرية لها على السواحل المغربية وفتح أسواق لبضائعها: وإزاء ما استجد كانت القوتين المتخاصمتين أبرمتا معاهدة في أبريل ١٩٠٤ والآن تخطط فرنسا للاستيلاء على المغرب والاستهانة بالسلطان والوزير الأكبر وتحويل المغرب إلى امتداد للجزائر. رأى صاحب الجلالة، ألفونسو الثالث عشر، وهو ينصت باهتمام لشكاوى وزير خارجية السلطان، أن حل المشكلة غاية في اليسر.

- يا ولد، لا تتركهم يفعلون ذلك.

قال رسول عبد العزيز:

- ما أرشد جلالتكم، لكننا لا نستطيع أن نتنازل عن حماية دولة كبرى دون أن يشكل ذلك خطراً كبيراً على التاج بل وعلى رأس سيدي، صاحب الجلالة السلطان عبد العزيز.

قال الملك متوجهاً إلى رئيس مجلس الوزراء في ذلك الوقت:

- ما رأيك يا دون أنطونيو؟

ودون أنطونيو ماورا ألفى نفسه إزاء معضلة: فالإصرار على الوجود الإسباني في إفريقيا كان يعني مواصلة العيش فوق عش الدبابير، مغامرة رعناء لبلد في حالة فقر وخسارة بعد النكسات الأخيرة في المستعمرات، أما التخلي عنه فيساوي خسارة آخر ما تبقى من سمعة له

بين الأمم. هكذا عرض المعضلة بشكل مقتضب على جلالة الملك. رد هذا قائلاً:

- جميعها خسائر!

انتحى به دون أنطونيو ماورا جانباً فيما يشاهد محمد تورّيس بإعجاب لوحة مزدوجة أثرية تتدلى من الحائط تتنافس فيها جوديت وسالومى فيما بينهما، وتبدوان كأن كل واحدة منهما ترى الثانية غنيمتها الدموية، ومن ثغرى المعمدان وهولوفرين الضاربين إلى الزرقة يتدلى لساناهما المتورمان. تذكر أن الإسلام حرم تصوير الأشخاص. كان الملك ورئيس مجلس الوزراء عائدين بعد التشاور فيما بينهما. قال الأخير:

- جلالته كان من أنصار ترك المغرب لمصيره، لكننى تمكنت من إقناعه. لكن تفهم جلالته يفوق الوصف - أدى وزير شئون خارجية السلطان إيماءة التحية ثلاث مرات -، كما أننى أطلعت جلالته على الأوجه الأخرى للموضوع. بالفعل، بعد أن خسرنا كوبا، ليس أمام الجيش ما يفعله والعسكريون المتوقفون عن النشاط هم دائماً مكمن خطر: يصيبهم الضجر ولا يترقون ويستمرون فى مناصبهم أكثر من اللازم. حدثت جلالته كذلك عن الاستثمارات الإسبانية وعن حقوق استغلال المناجم هناك.

رفع الوزير يده اليمنى ناحية قلبه. وصاحب الجلالة دون ألفونسو الثالث عشر، الذى كان فى نهاية الأمر يبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً، ربت على كتفه، قال:

- سوف نعطى رايسولى درساً لا ينساه.

والآن، بعد خمس سنوات، عادت أمهات المجندين المرتحلين إلى إفريقيا إلى التظاهر كما كن فعلن أيام حرب كوبا. فى محطة السكك الحديدية كن يجلسن على الرواقد ويعطلن قيام القطار. وراحت سيدات جمعية كاثوليكية ذهبن إلى هناك ليوزعن أصلبة بين القوات، رحن يشجعن قائد القاطرة والوقاد على المرور بالقطار فوقهن. فردا عليهن:

لا نعـرف هل سيـعـجب الأولاد رؤيتنا ونحن نمزق أوصـال أمـهـاتهن! والجميع راح يهتف: يحيا ماورا! أو: يسقط ماورا. كان يوم اثنين لزجاً من شهر يولية ١٩٠٩. نظراً إلى النحو السئ الذى تسير عليه الأمور حضر ماركيز أوت بشخصه إلى منزل أونوفرى بوفيلا. كان مشعث الشعر، بلا طلاء، ورباط عنقه محلولاً، صاح:

- ضعنا، الحاكم المدنى يأبى فرض الأحكام العرفية ويسيطر الرعاع على الشوارع، والكنائس تحترق ومدريد - كعادتها - تركتنا وحدنا.

قدم له أونوفرى بوفيلا علبة من الجلد المنقوش مليئة بالسيجار. رفض الماركيز العرض بملاحة. قال أونوفرى:

- لا يحدث شىء، لا تهتم. أسوأ ما قد يحدث هو أن يضرموا النار فى قصرك. الأسرة فى الريف؟

- تصيف، فى سيدجس.

- والقصر؟ أهو مؤمن عليه؟

- بالطبع!

- حـسـن، ها أنت ترى، أنصت إلى: اذهب واقضِ عـدة أيام مع زوجتك والأولاد.

- كنت فكرت فى ذلك لكننى لا أستطيع: غداً، لدى مجلس إدارة.

فكر الماركيز ثم قال:

- الآن، أدرك أننى ارتكبت حماقة ببقائى.

صب أونوفرى بوفيلا كأسين من النبيذ الأصهب. قال: ممتاز لتهدئة الأعصاب، فى صحتك! من الشارع تناهى دوى طلقة مدفع. فكر: أمن الممكن أن تكون الثورة؟ تذكر تلك الأيام البعيدة التى كان يعلن فيها عن مقدم الثورة هذا بين عمال المعرض العالمى. حينئذ كان شاباً وشديد الفقر ويأمل فى ألا يتحقق مطلقاً ما كان يدعو له أما الآن فهو ثرى ويشعر بأنه عجوز لكنه لم يكن فى وسعه أن يتجنب أن يضيئ روحه وهج أمل. فكر: أخيراً. الآن، علينا أن ننتظر ماذا سيحدث حقيقة. قال

الماركيز وهو يرفع كأسه:

– فى صحتك.

احتسى النبيذ جرعة واحدة وتجشأ ومسح شفتيه بظهر يده. كان أونوفرى يحب ذلك السلوك المرح. فكر: هو غير محتاج إلى أن يثبت شيئاً. سأل الماركيز: ما رأيك؟ فأجابه وهو يشعل سيجاراً ويستنشق الدخان بمتعة ظاهرة:

– ماذا ترى؟ ليس لدى مجلس ومع ذلك لم أرحل. أنا لا أفكر فى الخروج من برشلونة. ماذا تنتظر أن يحدث؟ – أضاف وهو يرى ملامح الماركيز تحتقن – إنهم أربعة تعساء، ليس لديهم سلاح أو زعماء. دعهم يلهوا. فليس لديهم أية ورقة رابحة سوى خوفنا.

الآن تذكر تلك المظاهرة التى اشترك فيها قبل عشرين عاماً، تذكر الحرس المدنى والجياد والسيوف والمدافع المملوءة شظايا حتى فوهاتها. ولم يشرك الماركيز فى تلك الذكريات. واصل حديثه فيما ينظر من الشرفة:

– افترض وهلة أنهم نجحوا.

فى سماء ذلك المساء الصيفى الشديدة الزرقة ارتفع عمود من الدخان الأسود. ذهنياً، حدد موقع الحريق فى حى الرافال، ربما فى سان بدرو دى بويياس أو سان بابلو دل كامبو (كانت هذه الكنيسة الأخيرة هى التى تحترق)، أردف:

– أتدرى ما يمكن أن يحدث؟ سيضطرون إلى اللجوء إلينا طلباً للمعونة ففى غضون ساعات ستعم الفوضى وسيحتاجون إلينا أشد مما هم الآن. تذكر نابليون.

اضطر الماركيز إلى الضحك رغماً عنه أما هو فابتعد عن الشرفة من باب الحرص فقد رأى سرية من الجنود تمر مسرعة وبنادقهم على أكتافهم، بعضهم يحمل جاروفاً والبعض الآخر معولاً، فقد كانوا من كتيبة الأشغال. تساءل إلى أين هم ذاهبون على ذلك النحو؛ كان العمال هم

الذين يقيمون المتاريس. أضاف وهو يجلس من جديد فى مقعده:

- لم يحن الوقت بعد لكنه سيحين يوماً يا أمبروسى، ولن يكون بعيداً بحيث لا نراه أنت وأنا. فى ذلك اليوم ستندلع الثورة العالمية وسيختفى النظام الراهن للأمور القائم على الملكية والاستغلال والهيمنة ومبدأ السلطة البرجوازية والمذهبية، لن يبقى حجر على حجر، أولاً فى أوربا ثم فى بقية العالم. على صرخة "السلام للعمال والحرية لكل المظلومين والموت للحكام والمستغلين ولرؤساء العمال من كل نوع" سوف يدمرون كل الدول والكنائس فضلاً عن كافة المؤسسات والقوانين الكنسية والقضائية والمالية والشرطية والجامعية والاقتصادية والاجتماعية كى يصبح كافة هؤلاء الملايين من البشر من المكممين والمسخرين والمعذبين والمستغلين، أحراراً من مرشديهم وأولياء نعمتهم الرسميين وشبه الرسميين، وكى يتمكنوا فى النهاية من التنفس بملء حريتهم، هيئات أم أفراداً.

كان الماركيز ينظر إليه وعيناه خارج محجريهما، سأله: ما هذا الذى تقوله؟ ضحك أونوفرى بوفيلا، قال:

- لا شىء، قرأت هذا فى منشور وقع فى يدى منذ زمن. لى ذاكرة غريبة فأنا أتذكر حرفياً كل ما أقرأ - ثم أضاف بالنبرة نفسها -، امرأتى والطفلتان فى ضيعة لا بودابيرا، فى منزل حموى: ابقَ للعشاء، فعلى أية حال لن تستطيع الذهاب اليوم إلى النادى.

كانا يتناولان عشاءهما عندما باغتهما دوى متنام: ارتجفت الأرض واهتزت الثريات ورنت قطع الكريستال ورقصت أدوات المائدة. عاد رئيس الخدم، الذى أرسلاه ليستطلع الأمر، قائلاً إن فرقة من الفرسان بدروعهم البيضاء وقنازعهم السوداء وسيوفهم المشهرة مستندة إلى وسائد صغيرة.

همس رئيس الخدم:

- أخرجوا إلى الشارع الخيالة الثقيلة، قد يكون الأمر أخطر مما

توقعه سيدى!

قال للماركيز الذى أومأ بالإيجاب:

- ستضطر إلى البقاء هنا هذه الليلة، بوسعى أن أترك لك قميصاً من قمصانى، لعله يناسبك.

أجابه الماركيز وهو ينظر بطرف عينه إلى الخادم التى ترفع العشاء:

- لا تكلف نفسك، فأنا ألتمس الدفء على طريقتى.

طوال الليل سمعت من بعيد طلقات المدافع ونقر الرشاشات والطلقات المتفرقة التى يطلقها القناصة. فى صباح اليوم التالى، حين التقيا فى غرفة الطعام لتناول الفطور، كانت تحيط بعينى ماركيز أوت هالتان سوداوان. لم تكن وصلت بعد الصحافة اليومية. أبلغهما رئيس الخدم بأن المحال التجارية لم تفتح أبوابها، فلقد أصيبت المدينة بالشلل وانقطعت كافة وسائل الاتصال بالعالم الخارجى. قال:

- لن يستمر هذا الوضع. ألدينا خزانة المؤن عامرةً؟

- أجل يا سيدى.

صاح الماركيز:

- يا للفظاعة! يحاصرنا الأوباش وأنا ليس لدى سوى ما أرتديه - رشق عينيه فى الخادم التى تقدم القهوة فاحمر وجهها وتجنبت النظر؛ ثم سأل بوفيلا -: أيمكنك أن تقرضنى مالاً؟

- كل ما تحتاج إليه، لم تريده؟

- لأكافئ هذا المخلوق اللذيذ - وأشار بإصبعه إلى الخادم -، وشىء آخر: اقترح عليك أن تطردها اليوم نفسه.

- لمه؟

- فاترة فى الفراش!

قرأ أونوفرى بوفيلا أشد حالات الكرب على وجه الخادم. لا يزيد عمرها عن خمس عشرة سنة؛ جاءت من توها من القرية، لكنها كانت رقيقة الملامح والطباع لذا عينت لخدمة الطعام وليس للمهام الأكثر

مشقة. والآن تعلم أنه إذا فعل ما اقترحه الماركيز فليس أمامها سوى الماخور أو الجوع. سألها ما اسمك؟ فكانت الإجابة: أوديليا، فى خدمتك. سأل هو: أأنت على ما يرام فى هذا المنزل يا أوديليا؟ فقالت هى: أجل يا سيدى، على ما يرام تماماً. قال هو متوجهاً بحديثه إلى الماركيز:

– فى هذه الحالة، سنفعل ما يلى: أنت توفر على نفسك المكافأة، بما أنك لم تجد ما يرضيك وأوديليا ستبقى فى المنزل وأنا أضاعف لها راتبها، ماذا ترى؟

لم يفعل ذلك كرماً. كما لم يفعله لغرض ما، لأنه لم يكن يثق بالعرفان البشرى، كان يرغب فقط فى أن يظهر لضيفه أنه فى منزله يفعل ما يحلو له. نظر كل منهما إلى الآخر وهلة. فى نهاية الأمر انفجر الماركيز ضحكاً. هكذا انصرم ذلك الأسبوع، الذى سينعت فيما بعد بـ "المأسوى"، يلعبان الورق ويثرثران مطولاً، فكان الماركيز متحدثاً جذاباً ومصدراً لا يقدر بمال للمعلومات عند أونوفرى بوفيلا، فلم تكن هنالك عائلة نبيلة لا تكون بينها وبين ماركيز أوت علاقة مصاهرة أو لا يعرف أسرارها. لم يكن صعباً حثه على الكلام فلم يكن يحب شيئاً بقدر حبه لحكى الأحداث البسيطة بكل تفصيل. فى كتاب الطرائف ذاك رأى أونوفرى منفرجات يقف منها على لمحات من ذلك العالم المغلق والمغبر والحزين شيئاً الذى غُلّقت دوماً أبوابه فى وجهه. فيما بعد، ليلاً، بعد العشاء، كانا يرسلان رئيس الخدم إلى السطح فإذا عاد يقول إنه لا خطر هنالك يصعدان لتدخين السيجار واحتساء الكونياك مرتقفين حاجز السياج ومشاهدة وهج الحرائق. وفى نهاية الأمر، مكدودين من جراء تلك الرتابة، أرسلا مذكرة باسمه للحاكم المدنى: ضع نهاية لهذا الوضع فلقد أوشك ما لدينا من سيجار على النفاد. كان أسبوعاً بالغ الرضا اعتقد فيه أنه استعاد ما لا يقارن من أواصر الصداقة مع الرجال. والآن وهو يرى الماركيز جالساً إلى المائدة الرئيسية، إلى جانب القيصرة، كان يدرك أنه كان

حلماً قصيراً.

على المائدة وضعت مظلة صغيرة من الحرير الأحمر متوجة بشعار أسرة رومانوف. وغطيت الحوائط كذلك ببطانة من الحرير، وفى كل ركن وضعت فوق رفوف متنقلة أربع مجموعات نحت من الجبس اختيرت خصيصاً من أجل هذه المناسبة. ومن السقف تدلت ست ثريات ذوات دوائر ثلاث من الشموع، وبإضافة الشمعدانات، كانت تضئ ذلك الصالون أربعة آلاف شمعة من شمع النحل؛ أما أدوات المائدة فقد كانت من الفضة الخالصة على جميع الموائد ومن الذهب على المائدة الرئيسية وأما الأطباق فكانت من بورسلين سيفر. وهو يرى ذلك الألق جميعه والذى يعرف تكلفته بكل دقة تذكر "الأسبوع المأسوى". شارداً وسط هذه الفكر، بمنأى عن الاحتفال، باغته الصوت العميق لمن يجلس بجواره إلى المائدة، سمعه يقول: تفكر فى الثورة يا سيدى. تأمله للمرة الأولى، كان رجلاً فى حوالى الأربعين، طويل القامة، نحيفها، ذا ملامح خشنة، ريفية، غير منفرة، ذا لحية متشابكة تصل حتى القص، يرتدى غفارة ذات لون نيلى تجعله يبدو أطول قامة وأنحف مما كان وتنبعث منه رائحة نفاذة هى مزيج من الخل والبخور ورائحة النعاج. من مظهره العام ونظرته النافذة والهذيانية استنتج أنهم أجلسوه إلى جانب واحد من أولئك الرهبان الجهلة، الأفظاظ، الخبثاء، المشعوذين، المتعصبين والمتذللين إلى درجة الحقارة، الذين اعتادوا الالتصاق بموكب أصحاب السلطة. ثم علم فيما بعد أنه جريجورى يفريموفيتش راسبوتين، الذى كان حينئذ يتمتع بحماية القيصرة لأنه أبرأ القيصر الصغير من الهيموفيليا عندما فقد الأطباء الأمل. كانت تحكى عنه أشياء فائقة الوصف: أن لديه قدرات على التنويم والتنجيم، أنه يقرأ الأفكار ويصنع المعجزات حسبما يريد. ومنذ تلك اللحظة سوف يزداد نفوذه ويهيمن على البلاط إلى أن يتحول إلى طاغية حقيقى، وبمرور الوقت سوف يتحكم فى توزيع المناصب

والألقاب، وفى مستقبل قريب سيبنى ويدمر مستقبل رجال وثروات إلى أن يروح فى ١٩١٦ ضحية مؤامرة على رأسها ذلك الأمير يوسوبوف نفسه الذى يستمتع الآن فى فندق ريتز بمذاق الثريد القطلونى ولحم القدر القطلونى. بعيد ذلك بقليل، وكما كان تنبأ هو، ستندلع الثورة التى تنذر بنهاية أسرة رومانوف فى قلعة إيكاترينبرج، غير أنه حينئذ، عندما كان رفقة القيصرة أثناء رحلتها إلى برشلونة، كان فى بداية ذلك النفوذ. حكى لأونوفرى بوفيلا، جاره على المائدة، كيف كان شاهداً قبيل سنوات على ذلك الأحد الدامى النحس الذكرى: كان يطل من شرفة الطابق الثانى بقصر الشتاء يحمل بين يديه الدوقة أناستازيا العظمى، الوليدة تقريباً، ويمسك بيده القيصر الصغير ومن الشرفة المجاورة كان الدوق الأكبر سيرجى يلاطف الطفلين ويقول له من حين إلى حين: راسبوتين، دثرهما جيداً، فالبرد شديد. كان فى ذلك الوقت أقوى رجل نفوذاً لأنه يحظى بثقة القيصر نيقولا التامة. فى شهر فبراير من ذلك العام نفسه ألقى فوضوى يدعى كاليائيف قنبلة عند مرور العربة التى يستقلها ولم يبق من العربة والجياد والدوق الأكبر سوى كومة من الأنقاض يتصاعد منها الدخان. من شرفة الطابق الأول كان الدوق الأكبر فلاديمير يقرر دقيقة تلو الأخرى، بالتشاور مع أركان حربه، ما يجب عمله. قال: لنتحرك بذكاء. حين صبت المظاهرة فى الميدان تركها تتقدم. سأل القيصر: بماذا يطالبون؟ فأجابوه: بالدستور يا صاحب السمو. رد القيصر: آه! أمر الدوق الأكبر فلاديمير بفتح النار على المظاهرة، وفى عدة دقائق تفرقت المظاهرة. قال: أعتقد أننا أدينا مهمة ناجحة هذه المرة. فى الميدان مكث ما يربو على الألف جثة. والآن يأسف الراهب المجنون على أنه لم يتمكن من قيادة الأحداث ذلك اليوم. قال: أنا أعرف كيف أتجنب "الثورة". كان يأكل بشراهة، كأنه غول. أظهر أونوفرى بوفيلا اهتماماً. وكلما تقدما فى الحديث تعزز لديه انطباعه الأول، على أن شخصية الراهب كانت تجتذبه بلا تفسير.

- أونوفرى بوفيلا، حضرتك؟

نظر إلى الرجل الذى اعترضه على الرصيف: وجه ريفى، متيبس، مخدد بتجاعيد مبكرة، عينان غائرتان، شعر خفيفٌ. قال: نعم. فقال الآخر: أنا جوان. تصافح الأخوان ببرود. كان جوان بوفيلا فى السابعة والعشرين حين رآى أونوفرى للمرة الثانية، التقيا فى جنازة والدهما المتوفى قبل ذلك بليلة واحدة. قال له: من المحزن أنك لم تصل قبل رحيله، لم يتوقف عن مناداتك حتى اللحظة الأخيرة. لم يجب. المحارب القديم فى كوبا الذى يقود الآن عربة تجرها الخيل، الحوذى نفسه الذى أقله من المحطة إلى منزله قبل أعوام، حين توفيت والدته، جاء الآن للقائه: قال له إنه لم يزل يتذكره على الرغم مما مر من أعوام وإنه أراد أن يكون أول من يعرض عليه خدماته. قال جوان: سنسير على أقدامنا، نحن على بعد خطوتين. نفح أونوفرى الحوذى إكرامية وقال له: لذاكرتك القوية. راقب جوان هذه اللفتة شزراً. وضع النعش فى مصلى الراهبات اللائى يدرن دار المسنين فى باسورا، وكانت تحتل بناية راسخة ذات حوائط حجرية وقرميد من الإردواز، كافة النوافذ ذات قضبان والحديقة محاطة بسور حجرى عال. على جانبى الدار قام المبنيان السكنيان. أطل نزلاء الدار من النوافذ ليروه وهو يجتاز ممر الحديقة.

قالت رئيسة الدير التى ذهبت لتستقبله عند الباب الحديدى:

- لا أدرى كيف اكتشفوا أنك قادم، فى هذه الأماكن لا أسرار هنالك؛ لا تتعجب لكل هذا التوقع - أضافت فى نبرة سرية - لم يكن والدك المسكين، فى لحظات الوعى القصيرة، يتحدث إلا عنك للجميع. بوسعك أن تسأل الأخت سوكورّو التى قامت على خدمته منذ دخوله هذا المركز: أليس كذلك أيتها الأخت؟ قالت وهى تلتفت إلى راهبة صغيرة لها محيا بيضاوى وبشرة شديدة البياض، شفافة تقريباً، انضمت إليهم فى الدهليز المعتم.

خفضت الراهبة الشابة نظرتها فى حضور أونوفرى وأخيه جوان؛ فتحت فمها لكنها لم تقل شيئاً. واصلت رئيسة الدير حديثها:

- حينئذ كان يردد دائماً نفس الحديث: أنك ستأتى لتبحث عنه؛ فلقد كان لديه اعتقاد راسخ بأنك على وشك المجيئ. كان يقول إنك حين تأتى سيذهب معك إلى برشلونة وهناك ستتمعون بكافة وسائل الرفاهية والرغد. هذا ما دفع بعض العجائز إلى الغيرة منه لفرط سذاجتهم والحقد عليه. لاح أنهم يرون فى سلوكه ضرباً من التعالى، لكن ذلك، كما أقول لك، كان يحدث أحياناً لا أكثر. كان والدك رجلاً قوى الخيال، وربما أجترئ على وصفه بالخيال المريض.

فيما تتحدث كانوا يجتازون ممرات رحيبة، خالية. على جانبى تلك الممرات كانت هنالك أبواب مغلقة. نظافة بلاط الأرضية كانت لافتة فيعكس الأشخاص كأنه بحيرة هادئة. عند اجتياز منعطف عثروا براهبة مفتولة العضلات تمسح البلاط جاثية. فوق ثياب الرهبنة كانت ترتدى مئزراً رمادياً، وصدرت عن الأرض التى نظفت تواً رائحة حريفة. عندما وصلوا إلى حيث جثمان والده المسجى نظر أونوفرى فى قنوط إلى ذلك الوجه الشاحب الذى يراه الآن فى التابوت تضيئه شعلة مهتزة لشمعتين، ذلك الوجه الخالى من التعبير والمهترئ الذى يلغى كافة ذكرياته الماضية. قال: يمكنكم إغلاق التابوت.

قالت رئيسة الدير:

- أثناء إقامته بيننا، وعلى الرغم مما حكيته لك الآن، عقد صداقات مع بعض المسنين. الآن ودوا لو حضروا الصلاة، لو أنك سمحت لهم بذلك.

أحضرت راهبتان جماعة من العجائز تجرر أقدامها لدى السير. لم يكن جميعهم تعرف الأمريكى فى حياته لكنهم انضموا الآن إلى القطيع الحزين بالحيل كى لا تفوتهم هذه التسلية غير المنتظرة. كان جميعهم يرتدى أسمالاً. قالت رئيسة الدير: نعتمد على البر، من ثم حالتنا المالية

العصيبة. بعد انتهاء الطقوس، حين كانوا يتأهبون للخروج إلى المقابر، جذبته الأخت سوكورو من كمه. همست: تعال، سأريك شيئاً. ترك لها القياد إلى أن بلغا باباً صغيراً مطلياً بالأزرق. فتحت الراهبة الصغيرة الباب بمفتاح ضخم كان يتدلى من شريط من ملابسها. كان الباب يؤدى إلى خزانة مؤن معتمة. دخلت الراهبة الصغيرة الخزانة وعاودت الظهور وفى يدها خليط من الصفصاف المجدول. قالت له:

- نعلم المرضى عمل سلال. صنع والدك هذا، لم تكن لديه مهارة يدوية ولم يتعدَ ذلك. الحق أن صحته كانت متأخرة حين أحضره أخوك، منذ حوالى العام، هو دفع ثمن الصفصاف لذا فهو يخصكم.

عند العودة من المقابر اصطحب أخاه ليتناولا الغداء فى نفس المطعم الذى التقى هو ووالده فيه، قبل أعوام، مصادفة، ببالدريك وفيلاجران وتابيرا. احتسى الأخوان الحساء من صمت. فيما ينتظران الطبق الأول قال أونوفرى: كانت لدى نية المجئ لكن ذلك كان مستحيلاً. كنت مدعواً على العشاء مع القيصرة، لا أقل. رد جوان:

- لا أعرف ماذا تعنى "قيصرة": وأنا لا ألومك على شىء، فلا توجه لى اعتذاراً.

- بديهى أن كل المصروفات التى بذلتها سأتكفل بها.

- كنت أفكر فى بيع الأرض، لذا سأحتاج إلى موافقتك كتابةً - حدج أونوفرى ببصره، ومن صمته استنتج أنه ينتظره أن يكمل حديثه قبل الإدلاء برأيه فأردف فى عجلة وهو يرى أخاه يهم بالحديث -: ثم سأرحل إلى برشلونة، لا تقل شيئاً.

تعرف أونوفرى فيه تعبيراً مميزاً لوالدته. فيما بينهما أتيا على طبق الحساء وإن لم يكن أونوفرى احتسى حسوتين. قال له:

- لا تصرخ، فهنا نحن معروفان، والجميع منتبه لنا.

صاح جوان:

- لا يهمنى فى شىء!

قال أونوفرى باسماً:

- أترى؟ لست ذكياً كما تظن. اهدأ وأنصت للخطة التى جئت خصيصاً لأعرضها عليك - صفق بيديه وطلب من النادل الذى خف إليه طبق حساء آخر -، أعرف جيداً فيما تفكر لكننا على الرغم من أن بعضنا لا يكاد يعرف الآخر لا يمكننا أن نكون شديدى الاختلاف. علينا أن يفهم بعضنا بعضاً رغم أنفنا. أنت تعبت من العمل فى الأرض، أليس كذلك، تعبت من الريف. كيف بوسعى مخالفتك الرأى؟

قدم له طبق الحساء، لاحظ أن جوان يحتسيه آلياً، وكلما واصل شرب الحساء خف ومض عينيه الغائرتين. أردف:

- لا تدر الأرض شيئاً، هذا أعرفه جيداً. الثروة فى الغابات. هذا ما سوف نكرس له نفسينا بدءاً من الآن، الغابات. والغابة لا تحتاج إلى تعب، فتنمو وحدها. كل ما هنالك أن علينا مراقبة ألا يأتى آخر قبلنا ويستولى على الخشب. مقابل الخشب تدفع ثروات حقيقية فى المدن، لكن شخصاً ما يجب أن يبقى هنا، يراقب الغابات، مصدر ثروتنا.

- لا أدرى من الذى ترغب فى خداعه بهذه الأوهام، فالغابات للجميع ولا أحد يمكنه الاستيلاء عليها.

خفض صوته، لم يكن بوسعه هو أيضاً أن يهرب من تأثير أونوفرى بوفيلا؛ الآن يبدو أن حقده المتراكم طيلة تلك الأعوام لم يصبح بذات الأهمية وهو ينظر إلى أونوفرى وجهاً لوجه: ضد إرادته، هزمه خليط من الفضول والجشع. قال أونوفرى:

- حتى الآن كانت للجميع، أى، بكل دقة، لم تكن لأحد، لكن إذا تحول الوادى بأكمله إلى هيئة حكومية، بدلاً من المشاع تحول إلى بلدية، فإن كافة الأراضى التى ليست ملكية خاصة، كل الأرض المشاع ستغدو ملكاً للبلدية وستخضع لإدارة البلدية، أى، للسيد العمدة... تحب أن تصبح عمدة يا جوان؟

- كلا!

- عليك من الآن أن تبدأ في تغيير رأيك!

تلك المحادثة، ذلك الإصرار غير المفسر لكسب أخيه، الذى لا يكاد يعرفه والذى قرأ في عينيه حقداً وحشياً، كلفته مالاً طائلاً وإجراءات لا حصر لها راح يتذكرها الآن. أثار ذعره الظهور المباغت لاثنين من رجال الحرس المدنى على رصيف الميناء. بعد أن أدركا أثر حضورهما رفعا يديهما حتى واقى القبعة، قالا: نستميحك العذر يا سيد أونوفرى، لم نقصد إلى إصابتك بالذعر، نبحث عن رسائل تبغ مهربة. لم يكن رأى جوان منذ يوم الجنازة، فلم يكن حاضراً حين تولى منصب العمدة ولا يدرى شيئاً عما يفعله: على نحو دورى كانت تصل مخازنه فى بويبلونويبو الأخشاب والفلين اللذين كانت جبال تلك المنطقة غنية بهما. والآن يفكر: ومع ذلك ليس لى أسرة أو صلة رحم سوى جوان وطفل معتوه وبنتين متكبرتين. فكر: الحمقى وحدهم يجتثون جذورهم نهائياً.

(٢)

افترق عن أخيه ما إن انتهيا من غدائهما. برودة لقائهما ظلت على حالها بيد أنهما كانا توصلا إلى اتفاق. والآن يمشى وحيداً فى شوارع باسورا. أما جوان فقد بدأ رحلة العودة إلى بلدته فى الثانية والنصف مستغلاً ما تبقى من ساعات الضوء: وأما قطاره هو فلن يقوم قبل الثامنة مساء. وتلك المدينة التى بهرته طفلاً تلوح له الآن متبذلة وقبيحة: فالجو كريه الرائحة والمارة الذين يلتقى بهم بذيئون. فكر: استقر السناج فى عقولهم. بلا غرض، على غير وعى منه، قادته خطاه إلى شارع على جانبيه بواك، فدخل منزلاً وصعد إلى الطابق الأول ودق الجرس: لبت النداء امرأة ذات سمت طيب وخجول فسألها إذا كان عاش هناك أى محنط حيوانات. وهى دعته إلى دخول دهليز منزلها. قالت له: أجل. فقد كان محنط الحيوانات ذاك الذى يتحدث عنه هو والدها تحديداً، وهو فى حقيقة الأمر مازال على قيد الحياة وإن تقدم به العمر كثيراً ولم يعد يمارس المهنة - هذا ما أضافته. والآن يعيش كلاهما، الأب والابنة، على ما أدخره، يعيشان على نحو متواضع لكن بلا ضوائق. سأل محنط الحيوانات الذى قادته هى إليه إذا كان يتذكر أنه حنط قرداً منذ أعوام طويلة فأجاب فى التو أنه فعل وقال إنه فى حياته العملية لم تكن أتيحت له من قبل فرصة تحنيط قرود غير ذلك القرد، وذكر أنه كان عملاً شاقاً لأنه لم يكن يعرف شيئاً عن تشريح القرد فضلاً عن صغر حجم ذلك النوع وهشاشة عظامه البالغة، لذلك السبب نفسه اجتهد فى تحنيطه فكرس له ساعات طويلة، لكن النتيجة فى نهاية المطاف كانت جد مرضية، هو نفسه أقر بذلك بلا تواضع زائف. فيما بعد مرت الشهور دون أن يعاود صاحب القرد الظهور؛ كان يتذكره هو أيضاً بكل دقة على الرغم من انصرام عشرات السنين: يرتدى حلة بيضاء وقبعة من القش وفى يده عصا من الخيزران ويرافقه طفل. اختتم محنط الحيوانات

العجوز حديثه قائلاً: هأنت ترى أننى مازلت أحتفظ برأسى صافياً وأنا فى هذه السن. قالت المرأة: أبى، لا تجهد نفسك. على حدة، شرحت لأونوفرى بوفيلا أن والدها تثار أعصابه بسهولة وفيما بعد يجافيه النوم حتى ساعات متأخرة من الليل. دون أن يلتفت إلى توسلات الابنة سأله: وماذا حدث للقرد؟ بذل العجوز جهداً ظاهراً ليتذكر. كان حفظه وقتاً طويلاً داخل صوان بمنأى عن الغبار: فيما بعد، متيقناً من أن أحدا لن يطالب به وضعه على رف الورشة، كشعار. وفيما بعد؟ قال: لا أتذكر ما جرى له فيما بعد. انبرت الابنة تعاون أباها، قالت: بلى يا أبى، اشتراه السيد كتاسوس، ألم تعد تتذكر؟ رد محنط الحيوانات: آه، بلى. السيد كتاسوس وصهره كانا يحضران إليه حيوانات قنص لكى يحنطها، كانا أفضل عملائه. قال: ليس أقل من أيل وأحياناً خنزير برى. كانا رأيا القرد فأعجبهما بالغ الإعجاب، وكان القرد هناك فوق الرف منذ سنوات فلم يجد أية غضاضة فى إهداء القرد إلى عميلين بذلك التميز.

كانت أسرة كتاسوس تعيش الضواحى، فى منزل قال المحارب القديم فى كوبا، الحوذى الذى عثر عليه فى موقف العربات المجاور لمحطة القطارات، إنه يعرفه جيداً. حين وصل إلى هناك سلم الخادم بطاقة. وهو ينتظر فى الدهليز، فكر فى أنه يرتكب حماقة. قال لنفسه: للقرارات السخيفة عواقب وخيمة، ربما كان أفضل أن أترك هذا الهراء العاطفى الآن قبل أن يفوت الأوان. خرج كتاسوس نفسه للقائه: ناهز الستين، مكور، بهيج، بشوش. قال: بوفيلا، أى شرف لى! كان سمع الكثير عنه وكان لهما معارف مشتركون كما كان بلغه نبأ المأدبة التى أقامها قبل أيام على شرف القيصرة. أقر ضاحكاً فى سماحة: هذه الأمور فى المقاطعات لها دائماً صدى عظيم، ولكن، فيم شرف هذه الزيارة؟ أجابه أونوفرى: مسألة خاصة. شرحها فى كلمات قليلة ثم أنهى حديثه قائلاً: قد يبدو لحضرتك من العبث أن أظهر الآن كل هذا الاهتمام بذلك القرد. أجابه كتاسوس فى ظرف: كلا، على الإطلاق،

لكننى يؤسفنى ألا أتمكن من تحقيق مطلبك كما كنت أتمنى. روى له كيف أن صهره، ويدعى إسكلاسانس، صاحب معمل تقطير، بعد أن رأى القرد فى منزل محنط الحيوانات، طرأت عليه فكرة تسمية شراب عرق باسم "عرق القرد"، ونجح فى أن يهديه محنط الحيوانات القرد الذى كان يزمع استخدام صورته إعلاناً للمنتج حين كتب له محاميه الذى يدير أعماله فى برشلونة ليبلغه بأن ذلك الاسم التجارى تم تسجيله من قبل، فمن قبيل المصادفة البحتة كان بالأسواق نوع من شراب الأنيسون يحمل ذلك الاسم. وخلال ردح من الزمن انتقل القرد ليكون لعبة أطفال وحين كبر هؤلاء أودع مخزن الأشياء القديمة ليلقى به فى نهاية الأمر، بعد أن أكلته العث وتمزق، فى القمامة. قال كتاسوس فى ختام حكايته:

– مع ذلك، من اللافت أنك بعد ما فات من زمن أستطعت أن تستعيد مسيرة ذلك القرد كاملة – نظر إلى ساعة الحائط ذات البندول كأنه يريد فى تلك اللحظة نفسها أن يتخلص منه ولا يعرف كيف. هو أيضاً كأن يبحث عن صيغة تسمح له بمغادرة ذلك المنزل –، لكننى أرى أننا مازال أمامنا ساعتان حتى يتحرك قطارك ونحن على مسافة خطوتين من المحطة، كما يقال. تفضل، من فضلك، وددنا لو شاركتنا وجبة خفيفة متواضعة. كما ترى، لدينا اجتماع أسرى صغير.

تركه يقوده إلى قاعة طعام رحبة، سقفها مبطن بالخشب وأثاثها من خشب السنديان، بها حوالى اثنى عشر أو ثلاثة عشر شخصاً. قام كتاسوس بتقديمهم دون أن يبدى هو سوى اهتمام عارض. بعض الحضور كان من أبناء كتاسوس وزوجاتهم، والآخرون أقارب مختلفى درجات القرابة. فى النهاية قدم له شخص عجيب الهيئة ذكر كتاسوس أنه يدعى سانتياجو بلتال. وكل ما ذكره كتاسوس تقديماً له كان:

– سانتياجو مخترع.

من نبرة السخرية التى اعتقد أنه لاحظها فى صوته ومن نظرات التواطؤ الباسمة التى راح يرسلها الحضور استنتج أنه واحد من أولئك

الأقارب الفقراء أو التعساء، من ذوى المظهر الغريب وربما السذج الذين تؤول بهم الحال إلى أن يصبحوا مهرجى دائرتهم على غير إدراك منهم، سانتياجو بلتال، الذى سيرتبط اسمه بحياته من الآن وإلى الأبد، كان يبلغ من العمر ثمانية وعشرين عاماً لكنه يبدو فى ضعف هذه السن: كان يبدو عليه هزال وإرهاق شخص هجر الطعام والنوم بسبب هوس ما، وكان له شعر مسترسل بلون التبن، وملوث بالشحم ومترهل وعينان جاحظتان ورطبتان وأنف طويل وفم كبير وشفتان رقيقتان وأسنان كبيرة تعزز مظهره المضحك؛ كما أن سترته الصوفية القديمة والمرفوة، ورباط عنقه المتسل والفاقع اللون، وسراويله الشديدة القصر، وحذاءه المصنوع من القنب، لم تكن تشجع على احترامه. على الرغم مما بدا واضحاً من أنه يحيا على بر الآخرين، لم يكد يتذوق الحلوى والمربى القريبة منه على المائدة. نظر كل منهما إلى الآخر وقتاً طويلاً. للحظة ظن أنه أمام ذلك الفتى الآخر المجنون، الذى لم يتمكن من معرفته جيداً قط، الذى هاجر إلى كوبا ورأسه مشحون بالخيال وعاد بعزيمة محطمة لكن بخياله على حاله. الآن، فوق تلك الصورة، ظهرت لحظياً صورة ذلك الحطام الحزين الذى انتهى فى التو من حضور جنازته. مرت برأسه هذه الفكرة غير المنطقية: جئت أبحث عن قرد لا وجود له دون أن أدرى لم أفعل ذلك: والآن، يهدينى طالعى هذا الأحمق بدلاً منه. قبل أن يتمكنا من تبادل العبارات المتعارف عليها شرع كتاسوس يحكى حكاية القرد. قاطع أحد الحضور الحكاية ليؤكد أن القرود حيوانات ذات ذكاء من نوع غريب. أردف أنه قرأ فى كتاب رحلات أن قدماء المصريين، على الرغم من أنهم لا يؤمنون بالله، كانوا يعبدون القرود. قال سيد آخر إنه يعلم من مصادر علم اليقين أنه على خلاف ما يحدث فى مصر - حسب رواية الآخر - يأكل الناس فى الصين واليابان لحم القرود الذى يعتبر من ألذ أنواع اللحم. ذكر ثالث أن ذلك لا يقارن بما يحدث فى منطقة أمريكا الجنوبية حيث يأكل لحم التمساح والثعبان. قال أحدهم إن ذلك ربما يحدث فى

شيلى، لإن إحدى عماته تزوجت من تاجر أصواف وهاجر كلاهما إلى شيلى. صححت زوجه ما يرويه قائلة إنهما لم يهاجرا إلى شيلى بل إلى فنزويلا. علقت على ذلك بقولها إن من المحزن أن تكون هى من تتذكر ذلك رغم أنهما ليسا من أقاربها، بل أقارب زوجها. والذى كان تدخل للحديث عن الثعابين ذكر طريقة إعدادها: بعد قتل الثعبان كانوا يقطعونه بمنشار إلى أجزاء طول كلٍّ حوالى شبر، ثم يخيطونه بإبرة وخيط من طرفيه ويقلونه فى الدهن أو الزيت كأنه سجق الخنزير، وذلك إلى جانب الفلال الغذاء الأساسى لسكان تلك المنطقة من أمريكا الجنوبية. قالت سيدة إن بقعاً بيضاء ظهرت فى جلدها فنصحتها أخرى بأن تستحم فى مياه "كالداس دى بوى" المعدنية. أضاف صبى أنه سمع أن شوارع باريس مزدحمة بالسيارات وأنه من المألوف رؤية كلاب وقطط وحمير ميتة بعد أن صدمتها السيارات. علق رجل متقدم فى السن امتنع إلى تلك اللحظة عن الاشتراك فى الحديث قائلاً إن موضة السيارة ستجلب المصائب على عائلات كثيرة. قال كتاسوس إنه حتى لو كان الأمر كذلك لا يمكن لأحد أن يحارب التقدم خاصة فى المجال العلمى. على هذا النحو راح ينصرم المساء. أونوفرى بوفيلا لم يقل شيئاً. كان يحدج ببصره سانتياجو بلتال الذى لم يقل شيئاً هو أيضاً؛ لكنه، على خلاف أونوفرى، لم يبذل أى مجهود لإظهار اهتمامه بما يقال. كان يفكر فى أموره؛ أحياناً تشتعل عيناه بحماس غير متوقع، حينئذ يبدو خطراً، لكنه بما أن أحداً لا يلتفت إليه لم يكن أحد ينتبه إلى ذلك؛ فى أحايين أخرى، تظلم جبهته ويرتسم فى عينيه الحزن، هذا أيضاً لم يكن يلحظه أحد. وبين تعبير وآخر تفصل لحظات يمكن أثناءها قراءة التعب على محياه. وهو بدوره كان بمنأى عن ذلك التحليل الذى أخضعه له خفية الوافد تواً. بغتة قطع هذا الموقف دخول طفل قاعة الطعام. جرى هذا الطفل، الذى كان فى الثالثة أو الرابعة من العمر ومازال يرتدى ياقة مطرزة بأكاليل زهور، جرى ليخفى رأسه فى حجر والدته وانفجر فى بكاء

مرتفع وحار. فى النهاية تمكنت أمه من تهدئته ومن جعله يفصح، بين فواق وعويل، عن مبرر ذلك البكاء. قال:

- ماريا ضربتنى.

بيده الممتلئة أشار إلى الباب الذى تركه مفتوحاً عند دخوله. على الجانب الآخر من الباب كانت ثمة قاعة دائرية خالية من أى أثاث وتنيرها فتحة فى السقف. فى وسط تلك القاعة رأى من مجلسه طفلة ضامرة وغير مهندمة. كانت ترتدى قميصاً قصيراً وحائلاً يظهر ركبتيها السقيمتين اللتين يغطيهما جورب متسخ ومرفو. فى الحال عرف من هى. حين أدركت أن أحداً يراقبها بذلك الاهتمام وجهت إليه نظرة تحد. على الرغم من وجود مسافة، رأى أن لها عينين مستديرتين وبلون الكاراميل. كان سانتياجو بلتال نهض وفى قفزات معدودة قطع المسافة التى تفصله عن ابنته. ودون مراعاة للياقة نهض هو كذلك ومكث عند الباب. هناك، حاول الإنصات إلى الحوار بين المخترع وابنته. احتل كتاسوس مكانه خلفه. قال:

- لا تقلق يا بوفيلا، هذا يحدث كلما جاءا إلى هنا، بلا تغيير. ليس كل الذنب ذنبها. ماريا فى السابعة من عمرها وبدأت تعى الكثير من الأمور. هذه سن وعرة فى ظروف فى مثل ظروفها.

سأل: والأم؟ هز كتاسوس كتفيه وقلب جفنيه، كأنه يوعز: من الأفضل ألا تفتح هذا الموضوع. صوت حاد جعلهما يلتفتان. كان بلتال قد صفع ابنته. فكر: رجل عنيف. كانت الصبية تجتهد لحفظ توازنها وخاصة كيلا تبكى. فكر أيضاً: لكنها تعبده، ربما كان هذا هو السبب. فكر: العنف هو نقطة ضعفه. كان المخترع عاد إلى قاعة الطعام. كان بالغ الشحوب، وانبرى يتمتم باعتذار غير مفهوم ولا ينتهى، كان يتلعثم فى كلماته فأثار ذلك ضحك المنصتين إليه. وضع أونوفرى بوفيلا، الذى كان إلى جانبه، يده على كتفه وفى راحة يده شعر بعظام ترقوته. همس فى أذنه: اذهب وخذ طفلتك. وجه إليه المخترع نظرة مشحونة بالوحشية

رد هو عليها بابتسامة هادئة كأنها تقول: اهدأ، أنت لا تثير ضحكى كما أنك لا تثير خوفى، بوسعى أن آمر بقتلك لكننى أفضل حمايتك. أسقط فى جيب سترته بطاقته. لم يلتفت بلتال إلى ذلك، تخلص من يده فى عنف وأخذ طفلته واتجه إلى الباب المقابل للقاعة المستديرة يشدها شداً ودون اعتبار لأحد. استغل هذه الواقعة ليرحل هو نفسه كذلك بعد أن شكر لهم كرم الضيافة. فى طريقه إلى محطة القطارات، تخطت العربة التى كان يستأجرها المخترع وابنته. كانا يتحدثان فى حماس. على يقين من أن أياً منهم لن يلحظه، نظر إلى الخلف ولبث يراقبهما إلى أن اختفت العربة خلف منعطف. الآن عدة ملايين من الرجال كانت على أهبة الاستعداد لقتل بعضهم البعض فى خنادق فيردون ومارن وهو كان يحاول ألا يعدموا الوسائل لتحقيق ذلك، عام كان انصرم منذ ذلك اللقاء، فلم يعد يتذكر سانتياجو بلتال أو ابنته. كانت الروافع قد أنزلت المدافع فوق العربات، وربطت فى حلقاتها الجانبية الأحبال التى شد إليها القماش السميك الذى يغطيها. أربعة أزواج من البغال جرتها حتى "بوجاتل". عدد من الرجال يحملون المشاعل تقدم المسير، عدد آخر قاد البغال بسحبها من قيادها، عدد ثالث اضطلع بحماية "القول" مشهرين غداراتهم.

(٤)

لم تعد السيارات تسير فى كل شوارع باريس، كما قال ابن أخى كتاسوس بل خيم عليها الظلام والصمت المشؤوم. كانت الحرب لم تزل مستمرة فى أوربا منذ أربع سنوات، وتمت تعبئة الرجال جميعاً فيما أضحت المصانع ساكنة ولم يعد أحد يزرع الأرض وحتى آخر رأس ماشية نحر لتغذية القوات. لولا إمبراطورياتهم الاستعمارية والإمدادات الصادرة من الدول المحايدة لاضطرت الأطراف المتناحرة إلى وضع السلاح واحداً بعد الآخر وقد هزمهم الهزال، لكى يتمكن الأخير، الذى يستطيع أو يوفر لنفسه لأطول وقت الذخيرة والمؤن، من أن ينصب نفسه سيداً للعالم. فى برشلونة، استلذ الكثير ذلك الوضع النحس.

فكل من لديه ما يباع يصبح من الأثرياء بين عشية وضحاها، ويصير مليونيراً فى غمضة عين، دفعة واحدة. كانت المدينة تفور وتمور، منذ الفجر إلى أن تبزغ شمس اليوم التالى، بلا توقف، فى حى "لونخا" أو "بورنى"، فى القنصليات والمفوضيات، فى المكاتب التجارية وفى البنوك، فى النوادى وفى المطاعم، فى الصالونات، فى غرف الملابس وفى أروقة المسارح، فى صالات القمار والكباريهات والمواخير، فى الفنادق واللوكندات، فى حارة مشؤومة أو فى فناء موحش بكنيسة أو فى مخدع بغى معطر ولاهث، تبودلت العروض وحددت الأسعار جزافاً وحصلت المزايدات والتلميح بالرشوة وأطلقت التهديدات ولم تترك كبيرة من الكبائر لم يلجأ إليها لإنهاء صفقة؛ هكذا تدفق المال من يد إلى يد فى بالغ السرعة وبالغ الغزارة حتى إن الذهب حل محله الورق، ثم الكلمة محل الورق فالخيال الحر محل الكلمة؛ فقد اعتقد كثيرون أنهم ربحوا أموالاً طائلة واعتقد آخرون أنهم أنفقوها دون أن يؤكد الواقع تلك الظنون، وعلى موائد "البوكر" أو "البكاراه" أو "الشومان دو فير" انتقلت

ثروات حقيقية أو زائفة من صاحب إلى صاحب عدة مرات فى ساعات قليلة؛ وما لذ وطاب من الطعام (أشياء لم تكن ترى إلى ذلك الوقت فى إسبانيا) كان يستهلك بلا طقوس (ثمة من كان يطعم الثيران شطائر كافيار) ولم يكن هنالك مغامر أو مقامر أو امرأة لعوب لا تكون برشلونة وجهتهم فى تلك السنين. أونوفرى بوفيلا وحده لاح بمنأى عن ذلك الرخاء، فلا يكاد يظهر فى الأماكن العامة، وحينئذ دارت حوله أكثر الشائعات هراء، فقال بعضهم إنه من كثرة ما جناه من أموال فقد عقله، وبعض آخر إنه مصاب بمرض عضال. بعض الشائعات الأخرى كانت أوسع خيالاً فقد ذكر فى جدية تامة أنه كان يتابع الحرب خطوة خطوة وأنه عرض على إمبراطور هبسبرج شراء عرشه إذا خسرت النمسا الحرب، كما كان يعتقد هو. وقيل كذلك إنه مول الثورة التى أطاحت بقيصر روسيا، وإن ألمانيا بسبب هذه المناورة وضعت باسمه فى أحد بنوك سويسرا مائة كيلوجرام من سبائك الذهب ومنحته لقب أرشيدوق. لم يكن أى من ذلك صحيحاً. جيش خاص من العملاء والمخبرين كان يطلعه على حقيقة الوضع فى ميادين القتال ومراكز القيادة، فى الخنادق وفى مؤخرة الجيش: كان يعرف الكثير ولم تعد الحرب تحظى باهتمامه؛ مع ذلك، كان يشعر بما بالأفق من سحب سوداء. كان يقول إن الأسوأ لم يأت بعد قاصداً بذلك إلى الثورة والفوضوية. فى الخرائب التى يتصاعد منها الدخان التى تحولت إليها أوربا كان يرى بعين الخيال ظهور جماهير جائعة ومتعطشة للانتقام، متأهبة لإعادة بناء المجتمع على أساس النظام والنزاهة والعدالة فى التوزيع. كان يعتبر الحضارة الغربية ملكاً له ويقض مضجعه أن يتخيل القضاء عليها. داخله هاجس أنه مدعو للحيلولة دون حدوث ذلك. ظن أنه اختير لذلك المصير التاريخى الفريد. طفق يقول لنفسه: ليس من المعقول أن تكون حياتى سلسلة من الأحداث غير العادية بلا غرض. كان بدأ فى أحلك الظروف وبجهده صار أغنى رجل فى إسبانيا وربما واحداً من أغنى أغنياء العالم. كان يخال نفسه مدعواً

لأداء رسالة أسمى، واعتبر نفسه مسيحاً جديداً. فى هذا المعنى بالفعل كان يمكن القول إنه فقد رجاحة عقله. ترك أعماله تزدهر وحدها، بمحض القصور الذاتى وكرس الأيام والليالى لإعداد خطة لإنقاذ وجه اليابسة من الفوضى. لتحقيق تلك الغاية كانت لديه أمواله وطاقته التى لا تروض وغياب أى وازع عنه والخبرة المكتسبة طوال حياته. لم يكن ينقصه سوى فكرة تصل بين تلك العناصر المشتتة. وبما أن تلك الفكرة صعبة المنال ازداد غضبه: كان يضرب بعصاه مرؤوسيه لأقل سبب؛ ولم تكن زوجه وبنتاه يرينه إلا لماماً. فى النهاية، فى السابع من نوفمبر ١٩١٨، قبل يومين من إعلان جمهورية ويمار، تبلورت أمام عينيه الفكرة التى ما انفك يطاردها فى أحلامه على نحو غير منتظر.

استعاد السيد براوليو المسكين صحته المفقودة بسبب موت الرجل الذى أحبه. كان تقاعد عن كل نشاط ويحيا مع ابنته فى بيت متواضع من طابقين وحديقة كائن فى شارع هادئ من شوارع قرية جراثيا القديمة التى يضمها الآن النطاق الحضرى لمدينة برشلونة بعد أن احتواها تقريباً فى توسعته الأخيرة. لم يكن أى منهما يخرج من المنزل إلا فى مناسبات محدودة. تخرج ديلفينا كل يوم إلى سوق "الحرية" وهناك تقوم بالشراء فلا تكاد تفتح فمها فتشير بإصبعها إلى ما تريد وتدفع ما يطلب منها بلا أية بادرة اعتراض، والبائعات، اللائى كن يجهلن الرعب الذى كانت تزرعه قديماً فى سوق أخرى، اعتبرنها زبونة مثالية. فيما بعد، عند المغيب، يظهر الأب وابنته يأخذ كل بذراع الآخر فى ميدان "الشمس" فيطوفانه بخطا وئيدة، تحت أشجار السنط، ويعودان إلى الدار دون أن يتحدثا إلى أحد أو حتى فيما بينهما، يصطنعان عدم الانتباه إلى عبارات التحية التى يوجهها إليهما بعض الجيران مدفوعين من ناحية بروح الود، ومن ناحية أخرى، بالرغبة فى الحديث حديثاً بسيطاً معهما يسمح لهم بإماطة اللثام عن السر الذى يكتنفهما. وبعد انتهاء النزهة يغلقان الباب الحديدى بالسلسلة والقفل، ومن الشارع

تمكن رؤية ضوء فى نوافذ المنزل بعد ذلك بساعات، حتى العاشرة تقريباً إذ تنطفئ هذه الأنوار. لا يستقبلون زواراً أو خطابات وليسا مشتركين فى أية صحيفة أو مجلة. كما أنهما لم يضعا قدميهما فى الكنيسة مرة واحدة. تلك العزلة المفرطة أسفرت حتماً عن أقاويل: من المعروف أن السيد براوليو ذو دخل كبير سيكون بلا شك من نصيب ابنته كاملاً ما إن يرحل السيد براوليو عن الدنيا فلن يعمر طويلاً، وبذا تصير ديلفينا مكسباً طيباً، فريسة ينشدها صائدو الدوطة. على أن من حاول منهم فى البداية الاقتراب منها اصطدموا بحاجز من عدم الاكتراث والصمت وسرعان ما أحجموا عن ذلك. والآن تنقضى السنون من عمرها فى بطء قاس وبارد كأنه جبل من جليد؛ وشاع القول فى مجالس الثرثرة إنها تنتظر أن يقضى أبوها نحبه لتدخل الدير وإنها ستهب ذلك الدير دخلها دوطةً وأنهم، ما إن تغلق خلفها أبوابه، سيفوتهم إلى الأبد إمكان معرفة من هى وأية مأساة حطمت حياتها.

فى أواخر أكتوبر ١٩١٨، اختفى ذلك الثنائى الذى ود الفضوليون فض مغاليق أسراره فلم يعد يظهر فى ميدان الشمس. بعد انقضاء عدة أيام اشتعلت الأقاويل الخابية أعواماً. قالوا: مسكين ذلك الرجل، إنه مريض. تنبأوا بأنه سرعان ما سيلقى ربه فقد لاحظوا تدهور حالته الصحية فى المرة الأخيرة التى خرج فيها للنزهة، قالوا: بدا الموت على سمته. أما الآن فراحوا يشخصون حالتهما بأثر رجعى؛ أوعز أحدهم بأن المريضة قد تكون هى. هذا الإمكان ألهب فضول الحى. فى عربة "كابريوليه" جاء طبيب. ذهبت ديلفينا بنفسها إلى البوابة الفولاذية لتفتح القفل، فقال الفضوليون: آه، إنه هو المريض إذن، كما توقعنا. ثم زار البيت طبيبان آخران، فاستنتجوا: يقيمون "كونصولتو" له. ذلك "الكونصولتو" كان إيذاناً بتوافد سيل لا ينقطع من الإخصائيين والممرضات والممرضين. ظلت ديلفينا تذهب إلى سوق "الحرية" كل صباح وكانت البائعات يسألنها عن حال أبيها ويدعين له بالصحة وهى كانت

تشير بإصبعها إلى ما تريد وتدفع الحساب وتذهب دون أن تقول شيئاً.
مر شهر أكتوبر والأسبوع الأول من شهر نوفمبر فى ظل تلك الحيرة. رتابة جديدة ومشبوية حلت محل الرتابة القديمة والهادئة للدار وقاطنيها. وأخيراً كوفئ الفضوليون على انتظارهم الطويل. وسط ذلك التوقع ظهرت سيارة فارهة. تعرفوا فى الحال الرجل الذى نزل منها والذى رأوا صورته فى الصحافة على نحو متصل. والآن يتساءلون ما نوع الصلة التى يمكنها أن تربط رجل المال المتربص والمتغطرس ذاك بذلك الشائى المنعزل والمتهيب. قال أحدهم: هى أرسلت فى طلبه. لكن أحداً لم يعره التفاتاً إذ ذهب جميعهم لمشاهدة السيارة: المقاعد من الجلد الأحمر، بطاطين الرحلات من السمّور، الأبواب والمصابيح من الذهب الخالص، الميكانيكى الذى يقود السيارة بواق رمادى له ياقة من فرو استراخان، الخادم بسترته الخضراء ذات الأشرطة الذهبية.

من الباب الفولاذى لم تكن ترى الدار، فلا أحد شذب الأشجار أو اقتلع الحشائش الضارة. فى الحديقة تنمو نخلة وشجرة غار وعدد من أشجار السرو وشجرة لوز تجاوزت المائة عام متكلسة تقريباً. إلى يمين شجرة اللوز ثمة بركة ماء آسن وفوق البركة درفيل متشقق ومسوّد ومغطى بالأعشاب الضارة ولم تعد تخرج من فمه نقطة ماء واحدة. هناك حلق سرب من اليعاسيب مختلف ألوانه. فى تباين مع الحديقة، لاح المنزل نظيفاً بلا زخارف أو لوحات على الحوائط أو ستائر فى النوافذ الموارية. كل شىء يلمع، غير أن ذلك المظهر كان زائفاً فما كان الضوء الخافت يسمح برؤيته هو وحده كان نظيفاً ومرتباً أما فيما وراء ذلك الحيز المحدود الذى كان يحدده الضوء الخافت المتسلل من المنفرجات والشيش فقد كان كله غباراً وتدهوراً. فقد غزت خيوط العنكبوت كافة الأركان وأتت العثّ على الملابس المتسخة والمثيرة للغثيان وأُتخمت الصراصير على عفن بقايا الطعام فقد كانت تتكاثر يومياً

بالألوف فى الرطوبة. كان ذلك التباين المرعب انعكاساً لديلفينا، تمثيلاً لما أصابها من تدهور. صدر صوتها من الظلمة:

– لم أكن أنا من دعوتك بل أبى. كان يرغب فى أن يراك للمرة الأخيرة.

كانت ذهبت لتفتح البوابة الحديدية تغطى وجهها بغلالة كثيفة. لم تكن تريد أن يرى وجهها بعد، قبل أن تكشف له عن الحقيقة. فى تلك اللحظة، داخل المنزل، لاح شبحاً. أسِفَ أونوفرى بوفيلا لأنه لم يكن يحمل سلاحاً ولأنه ترك الخادم فى السيارة وهو الذى يحمله بدلاً منه. كانت تلك أول جملة يسمعها لكنه تعرف فى الحال صوت الخادم المميز. أضافت:

– لكن أحداً لم يجبرك على الحضور. أنتِ وحدك تعلم لمَ جئت.

لم يعرف بماذا يجيبها على ذلك. أردفت:

– اصعد لتراه ولا تخف؛ هنالك ممرضة معه وأنا أنتظرك هنا.

ارتقى جزءاً من السلم، فى عدد من الدرجات خلع الرخام وأظهر تحته العرق الخشبى يغطيه البول. استرشد بضوء فوسفورى وتقدم حتى الباب الوحيد المفتوح فى البسطة. دخل فرأى فراشاً بستائر حيث يرقد السيد براوليو. على الكومودينو، أشاع مصباح يغطيه حاجز من الشاش ضوءاً بنفسجياً، فى هذا الضوء اكتسى وجه الراقد على الفراش بياضاً كبياض بتلات الزهور. فى مقعد كانت الممرضة تغط فى نومها. لم يكن فى حاجة إلى الاقتراب كثيراً من الفراش ليدرك أنه ميت منذ ساعات. تجول بالحجرة: فى الطرف المقابل للفراش كان هنالك صوان زينة من اللاكيه المطعم بالعاج. وجد فوقه عدداً من علب الكريمات والمساحيق والطلاء والمشابك ومموجاً للرموش ومجموعة من الأمشاط والفرش. من إطار المرآة البيضاوى تدلى شال أسود مطرز. فى أول درج عثر على مشط زينة من العظم. فى الأعوام الأخيرة من حياته، كان السيد براوليو اعتاد أن يتيه فخراً بأنه كان موديل إيسيدرو نونيل عندما رسم لوحاته

الشهيرة التى تمثل صور غجريات. حينئذ كان نونيل قد انتقل إلى الرفيق الأعلى ولا سبيل إلى التأكد من صحة ذلك الزعم الباطل. إلى جانب مشط الزينة كان ثمة مدية شديدة المضاء فبين الحلم والعنف انقضت حياته التعسة. أحس بيد على كتفه وكان على وشك إطلاق صرخة. قال بأنفاس مضطربة: لم أسمعك وأنت تدخلين. ديلفينا لم ترد. "كان ميتاً حين طلبت حضورى، أليس كذلك؟ هذا ما أراد معرفته لكنه لم يتلق جواباً كذلك. "وهذه المرضة، ماذا أعطيتها؟"، عاد يسأل. هزت ديلفينا منكبيها وانبرت تقول:

- المرة الأخيرة التى التقينا فيها أنذرتك بأننى سأكشف لك يوماً عن سر، والآن بوسعى فعل ذلك لأننا لن نلتقى مرة أخرى، فبعد موت أبى لا مبرر لذلك.

قال هو بجفاف:

- لا أدرى أى سر هذا الذى تتحدثين عنه.

تبعت ذلك فترة صمت طويلة. ذلك السر الذى شغل أفكار ديلفينا كلها خلال سنوات محبسها الأليمة ثم طوال معتزلها الاختيارى كان الشيء الوحيد الذى أبقى على حياتها. والآن ها هى تكتشف أنه لا يتذكر السر ولا يداخله فى أية لحظة أقل فضول لمعرفته. فمن بين ردود الفعل المحتملة التى بنتها فى خيالها ثم أبدلتها وعدلتها - حتى خلقت بالفعل أدباً حقيقياً لكنه غير مكتوب قوامه المغايرات اللحظية - لم تكن حسبت حساب ذلك الاحتمال. الآن انزلقت تلك الأعوام جميعها سدى. فى الصمت المخيم على الحجرة استعادت مرة أخرى تلك الصورة الوحيدة التى قضت معها كل حياتها، رأت للمرة الأخيرة تلك الصورة الحائلة: أحست بشكل آلى كيف يمزق هو قميص نومها المنسل الذى كانت تغسله وتقوم بكيه يومياً من أجل تلك المناسبة، رأت من مرقدها على المرتبة جسده العارى والمتصبب عرقاً، كيف ومض فى عينيه بريق الشر فى الضوء الواهن لذلك الفجر من ربيع عام ١٨٨٨ الذى يعلن الآن

عن نفسه عبر الزجاج المغبر لنافذة الغرفة العليا للبنسيون. كانت تنتظر تلك الزيارة قبل حدوثها بشهور والآن يتلخص السر بكل بساطة فى معلومة بلا أهمية. كانت أحبته منذ اللحظة نفسها التى رأته فيها يعبر بهو البنسيون. وطيلة تلك الشهور أنصتت إلى خطاه المتسللة على بسطة الدور الأسفل، واستيقظت كل ليلة وخرجت من مخدعها عاجزة عن النوم وعن احتمال ذلك الانتظار الذى لا ينتهى، واضطرت إلى الاختباء فى كل مرة خرج فيها والدها للقصف. الآن تعيش من جديد لحظة أن أحاطت يداه بخصرها، وحك شفتيه وخشونتهما، وإغمائها حين رشق فيها أسنانه؛ ثم رأت فى السجن كيف أن مرور الزمن جعل يمحو من نهديها آثار العض، والكدمات من فخذيها وسمانتى ساقيها: حينئذ، ظنت أنها سوف تموت من الرغبة وأيضاً من الحنين واليأس. كان السر يتلخص فيما يلى: كل الحيل التى حاكها ونفذها لتكون هى له لم تكن ضرورية: هى كانت ستسلم نفسها له لو أمرها بذلك. لذلك ألقت هى بقطها الشرير بعلزبول من نافذة الغرفة العليا؛ بذلك الفعل القاسى والأليم أزالت العقبة التى كانت تبعده عنها. والآن اختارت هى هذه اللحظة كى تبوح له بالسر: فيما بعد ستكون له من جديد، خلال لحظة. فيما بعد، كانت تفكر فى التخلص من حياتها فقد كانت تحمل فى جيبها سماً زعافاً. كانت تفكر: بذلك أضع حداً لحياتى البائسة، بما أننى لم أحظ بلحظة سعادة واحدة سأنهى أيامى فى ضرب من التناظر الوعر. الآن هدمت هذه الخطة بعبارة واحدة. فى المرة الأولى أرادت أن تستسلم للرجل الذى تحبه فاكرهت على الأمر بوحشية، سرق رغبتها فى أن تسلم نفسها إليه؛ والآن، بعد انصرام ثلاثين عاماً، للمرة الثانية، وأدت لا مبالاته حاجتها إلى إظهار مشاعرها له قبل أن ترى النور. قبل أن تتكلم رفعت الحجاب الذى كان يغطى وجهها بكلتا يديها، قالت:

- لم تتغير.

بذلك أسقطت ما كان عليه من دين لها. لكنه لم يعرها اهتماماً،

فقد كانت هنالك أمور خطيرة تستوجب ذلك الاهتمام: كانت ألمانيا على وشك إعلان استسلامها، ذلك البلد الذى رجحت كفة ميوله نحوه كان يرقد وسط الخراب. قتل أكثر من مليونى ألمانى فى الحرب، وأصيب أربعة ملايين وأصبحوا عاجزين عن أداء أية وظيفة. قبل أيام تمرد بحارة قاعدة كييل وأعلنت جمهورية مستقلة فى بافاريا وزرعت روزا لوكسمبورج وأتباعها السبارتاكيون الفوضى وربَّتْ سوفييت فيما كان المعتدلون يتفاوضون على الهدنة من وراء ظهر القيصر الذى لجأ إلى هولندا. كانت "الإمبراطورية المقدسة" ترقد ميتة على فراشها كالسيد براوليو. هو وحده لديه من النبض والوسائل الضرورية لبعث تلك الجثة الروحية، ضحية تاريخها نفسه، وضحية لوثة البطولة لدى زعمائها. وهو يواجه ذلك الوضع عن له تردد ديلفينا مثيراً للغضب: ففى تلك التوقفات المسرحية لم يكن يرى شيئاً، وذكرى تلك الليلة السعيدة التى تتحول الآن إلى رماد بين أصابعها لم تكن تساوى لديه قدر إشارة مبهمة وطريفة. هذا ما أراد أن يقوله لها حين لمح فى عينيها بريق مقلتيها الهذيانى بلونهما الكبريتى واللتين قرأ فيهما الكارثة والفحش لذلك الدافع المكبوت الذى لم يدركه: استعاد لهفة تلك الليالى البعيدة الآن حين كان قلبه يجمح من عشقه لها. فى تلك اللحظة تبلورت فكرته. انتهى إلى نزع حجابها بصبر نافد، فسقط التُّل على الأرض بلا عجلة. على ضوء المصباح الكهربى المهتز إلى جانب المتوفى، تفحص وجهها فى لهفة. بأصابع مرتعشة طفقت تحل أزرار ردائها. عندما بقيت تنورتها الداخلية رفعت عينيها لترى ماذا يفعل فوجدته غارقاً فى أفكاره. لم يعد جسدها يثير فيه أية رغبة. سألت: ماذا تريد أن تفعل بى؟ اقتصر على زم شفتيه. قبل عدة أعوام زاره ماركيز أوت فى بيته دون سابق إنذار ليقترح عليه اقتراحاً غير مألوف: أتريد أن يبول عليك قرد؟ كانت إحدى ليالى الشتاء الباردة والمتقلبة: كان المطر متقطعاً والريح العاصفة تسبب دوى المطر على الزجاج. لجأ إلى المكتبة كما اعتاد أن يفعل. فى المدفأة

اشتعلت عدة جذوع. وميض ألسنة اللهب زاد حجم ظل الماركيز الذى دنا من النار ليدفئ عظامه التى جمدتها الرطوبة. كان يرتدى حلة مذيلة وكانت أزرار قميصه من المرجان. أجابه:

- حسن، امنحنى عشر دقائق وسأكون مستعداً.

فى الشارع، كانت تنتظر عربة الماركيز. جابا المدينة من أقصاها إلى أقصاها تحت المطر إلى أن بلغا باحة مثلثة يصب فيها شارعان. كانت باحة سان كاييتانو، لم يكن بها مارة والمنازل التى غلقت نوافذها بسبب المطر والبرد لاحت مهجورة. قفز السائق الذى يتقدم دائماً عربة الماركيز على جواد أبيض قفز على الأرض، وسقط بحذائه فى بركة ماء. توجه وهو يمسك بعنان الجواد صوب باب خشبى وطرقه بمقبض سوطه. بعد لحظات انفتحت عين سحرية فخرجت حزمة ضوء. قال السائق شيئاً فسمع الرد فأشار ناحية العربة. ترجل ماركيز أوت وأونوفرى بوفيلا وركضا ناحية الباب الخشبى محاذيين برك الماء ودفقات الماء التى تضخها مزاريب المطر فى الميدان. حين وصلاه انفتح أمامهما وما إن دلفا منه أغلق من جديد تاركاً السائق فى الخارج. تلثم الرجلان بعباءتيهما لإخفاء هويتهما قبل أن يخلعا قبعتيهما. كانا فى دهليز تضيئه مشاعل: على الحوائط المطلية بالجير كانت هنالك بقع من أثر الرطوبة ومزق معلقة كانت فى الأصل رايات ورقية. فوق الفتحة التى تؤدى فى نهاية الدهليز إلى ممر معتم ثمة رأس ثور ضخم: جلده يلمع بفعل الرطوبة أما الرأس فتنقصه واحدة من عينيه الزجاجيتين وأما الشريط المميز للسلالة فلم يكن سوى قطعتى قماش باليتين مثبتتين بمسمار. من فتح لهما الباب كان رجلاً فى حوالى الخمسين من العمر، يعرج فى مشيته كأن إحدى ساقيه أقصر من الأخرى غير أنها فى الحقيقة ترجع إلى حادث عمل فقد كسرت آلة ردفه قبل ذلك التاريخ بأكثر من عشرين عاماً. والآن، بعد أن عجز عن العمل، يكسب رزقه بشتى الطرق. قال فى مهابة لا تطل منها أقل نبرة سخرية: وصل السيدان فى الموعد، نحن

على وشك البدء. وراءه، توغلا فى الممر المظلم وبلغا قاعة مربعة الشكل تضيؤها أقباس مائلة إلى الزرق تنبت من مبازل غاز على الأرض، هذه المبازل تؤطر مساحة شبه دائرية، ما يشبه المسرح، وتلك الأقباس تعمل عمل أضواء المسرح. كان هنالك عدد من الرجال فى القاعة، جميعهم ملثم، أرسل بعضهم خفية إشارات ماسونية رد عليها الماركيز بالاستتار نفسه. قفز الرجل الداعر فوق اللهب وتوسط المسرح، ونظراً إلى عرجه كان على وشك أن يحترق واقى ركبته. أثارت هذه الحادثة ضحكات عصبية وسط الحضور. نبس الداعر ليسود الصمت ويلتفتوا إليه، وحين تحقق ذلك قال: أصحاب السعادة، إن لم يكن لديكم مانع، نبدأ. وبعد العرض ستقدم بناتى مرطبات - أضاف ذلك قبل أن يتخطى ثانية سياج ألسنة اللهب ويختفى وراء ستائر. بعد ثوان، خفتت الأضواء وغاصت القاعة فى الظلمة. بعد وهلة اخترق شعاع ضوء رصاصى القاعة من ركن إلى آخر وراح ليصطدم بالحائط الجيرية. على تلك الحائط، الكائنة فى الطرف الذى به المسرح المرتجل، ظهرت فى انعكاس شعاع الضوء أشكال غير محددة الملامح. لاحت مستنسخات من بقع الرطوبة فى الدهليز. ثم جعلت تلك البقع تتحرك وسمعت همهمات وسط الجمهور، وشيئاً فشيئاً راحت تأخذ أشكالاً يمكن تعرفها فرأى الحضور أمامهم كلباً فوكس تريير عظيماً فى حجم الحائط تماماً حتى إنه لاح يراقبهم بنفس الفضول الذى كانوا ينظرون به إليه. كان مثل صورة فوتوغرافية لكنها تتحرك كما يتحرك كلب حى: فيخرج لسانه ويحرك أذنيه وذنبه. بعد مرور عدة ثوان وقف الكلب بجانبه نحو القاعة ورفع إحدى قدميه الخلفيتين وراح يبول. هرع الحضور صوب الباب كى لا يبتلوا. فى الظلام الدامس الذى عاد يلف القاعة انتهى الأمر بالقطيع المفزع إلى اصطدام الأجساد والرؤوس والسقوط على الأرض. فى نهاية الأمر عاد الضوء فأعاد الهدوء. الآن وقفت على خشبة المسرح بنات الرجل الداعر الثلاث: ثلاث صبيات صغيرات فى بالغ الحسن يرتدين

فى تلك المرة ثياباً تكشف أذرعاً مدورة وكواحل رشيقة. لاقى ظهورهن علامات استحسان معتدل فالعرض أثار أولاً توقع السادة ثم أحبطه، فلا حسنهن ولا جرأة ثيابهن يكفيان لإنجاح الليلة إذ قل استهلاك المشروبات وانخفض عائد السهرة عامة.

نسب اختراع السينما، مثله مثل العديد من الاختراعات المتقدمة المعاصرة، إلى أكثر من أب. وتريد اليوم عدة دول أن تكون مهد ذلك الاختراع البالغ الشعبية. على أية حال، كانت خطواته الأولى مبشرة. ثم جاء الشعور بالخيبة. ومرد ذلك الشعور سوء فهم: فلم يخلط أول من حظوا بحضور عرض سينمائى بين ما يرون على الشاشة وبين الواقع (كما تزعم الأسطورة التى اختلقت فيما بعد) بل إنهم تخيلوا شيئاً أفضل: تصوروا أنهم سيرون صوراً فوتوغرافية تتحرك. وحملهم ذلك على التفكير فى الآتى: بفضل آلة العرض سيمكن تحريك أية صورة. فنقرأ فى مجلة علمية عام ١٨٩٩: "قريباً، أمام أعيننا المشدوهة، ستدب الحياة فى فينوس ميلو وكنيسة سكستينا، على سبيل ذكر مثالين اثنين". ويذكر خبر مشكوك فى صحته ظهر فى صحيفة فى شيكاغو فى نفس العام ما يلى: "حينئذ أقدم المهندس سيبمسون على فعل لا يصدق: باستخدام "الكنتسكوب"، الذى أشرنا إليه على نفس هذه الصفحات ألف مرة ومرة، تمكن من بث الحركة فى ألبوم صوره العائلية، وما أشد فزع الأصدقاء والأقارب وهم يرون العم جاسبرز، الميت والمدفون فى مقابر الكنيسة القريبة منذ سنين طويلة، وهو يسير بهدوء على مائدة غرفة الطعام، بمعطفه وقبعته، أو ابن العم جيريمى الذى استشهد ببطولة فى معركة جتيسبرج". فى شهر أغسطس من عام ١٩٠٢، أى بعد ثلاثة أعوام من تلك الأنباء الحمقاء، نقلت صحيفة مدريدية شائعة تقول إن رجل أعمال من تلك العاصمة توصل إلى اتفاق مع متحف البرادو لكى يتمكن من تقديم فى عرض "فاريتيه" لوحة "الأميرات" لبلاثكث و"الدوقة العارية" لجويا. ولم يحل التكذيب الذى أوردته الجريدة نفسها فى اليوم

التالى دون سيل الخطابات المؤيدة والمعارضة لتلك المبادرة، فى جدل استمر حتى مايو ١٩٠٢. مع ذلك، إلى تلك الفترة، هذا ما كانت تمثله السينما عند العامة: منتج متفرع من الطاقة الكهربية، شيء مثير للفضول لا نفع منه فى أى مجال. وخلال عدة سنوات عاشت السينما حياة شبحية إذ نفيت إلى أماكن كالذى فى ميدان سان كييتانو، إلى حيث اصطحب ماركيز أوت أونوفرى بوفيلا، لم يكن لها من وظيفة سوى جذب زبائن منشغلين فى الأساس بوسائل تسلية أخرى. ثم سقطت تماماً من اهتمام الناس والأماكن النادرة التى فتحتها قلة من أصحاب المال المهووسين فى برشلونة سرعان ما أغلقت أبوابها بعد عدة شهور، فلم يكن يرتادها إلا متشردون ينتهزون العتمة لينالوا قسطاً من النوم تحت سقف.

احتمى الرجل المشوه بإطار بوابة المنزل من المطر الذى اشتد هطوله فى الساعات الأخيرة. كان يمسك فى يده اليمنى بقنديل يرفعه بين الفينة والفينة فوق رأسه ويؤرجحه. أضاء برق ميدان سان كييتانو حيث يوجد محله فرأى الشجر تطويه الريح ونهر الشارع غارقاً فى سيل قاتم من الماء. رأى كذلك، وسط الميدان، جوادين يكدفان فى ذعر من دوى العاصفة. كانت الظلمة والرعد قد حالا دون التفاته إلى وصولهما، والآن ها هما هناك. نزل من العربة رجلان أفسح لهما الطريق. أنار المشوه الدهليز والممر بالقنديل وقادهما إلى نفس القاعة التى عرض فيها قبل أعوام فيلم الكلب المتبول. الآن آلة العرض تلك، التى كان اقتناؤها وليد النزوة لا رجاحة العقل، لبثت رهينة النسيان فى قبو المنزل، ولم يكن ينفض الغبار عنها إلا ليشاهد بعض الأفلام المثيرة للضجر جاءت يعلم الله من أين كانت تحوز رضا الماركيز وآخرين من محبى الجديد والتى كان هو وهم يصفونها بـ "البناءة". فى واقع الأمر كان ذلك الصنف من الأفلام بذيئاً ومتردياً.

عادت صالة العرض إلى مظهرها الأصلى: أريكة من مخمل أحمر قان وثريا ذات حبات من الزجاج المموج الألوان ومقاعد جلدية ومناضد أركان من الرخام وبيانو رأسى عليه شمعدانات من البرونز. كانت بكرية الرجل الداعر، التى حولتها السنون إلى جمال هادئ ومترهل، تعزف على البيانو بأنامل متثاقلة وممتلئة وأظهرت الوسطى مواهب خاصة فى عمل الحلوى ولم تكن الصغرى تجيد عمل شىء غير أن ملامحها احتفظت بطزاجة الصبا. قال الرجل المشوه:

- الليلة رهيبة، لن أعجب إن حدثت فيضانات، ككل عام. لقد أوقدت التدفئة، فى عشر دقائق ستستعر حرارة الغرف. وإن شئتما، بوسعى أن أقدم لكما شيئاً غير مسبوق، ابنتى الوسطى أخرجت لتوها من الفرن كيلوجراماً من الحلوى.

رفض أونوفرى بوفيلا العرض، لكن رفيقه لم يبدُ بذلك الترفع إذ أشار بإيماءات وبأصوات حلقية أثارت الذعر فى الرجل المشوه إلا أنه يقبله، وفيما يرضى نهمه هرع المشوه مرة أخرى حين سمع طرقاً غاضباً على باب المدخل. سمعاه يقول فى نهاية الممر: تفضل حضرتك هذان السيدان وصلا بالفعل. سيدٌ ثالث تعرفه أونوفرى فى الحال من هيئته ومشيته دخل القاعة ملتفاً فى عباءة.

طفق أونوفرى يقول:

- أيها السادة، بما أننا لا ينقصنا أحد، أعتقد أن بوسعنا أن نكشف عن وجوهنا، وأنا أضمن تكتم كافة الحاضرين.

ولكى يعطى المثال فك ياقة العباءة وألقى بها على الأريكة. قلده الآخران: كانا ماركيز أوت وإفرين كاستلز، مارد كاليا. بذلوا فى تبادل التحيات وقتاً طويلاً ثم قال لهما أونوفرى بوفيلا:

- سمحت لنفسى أن أدعوكما فى ليلة الجحيم هذه لأن ما سأعرضه عليكما يمت بصلة إلى ذلك. وإلا فإن...

قاطعه إفرين كاستلز ليقول له ألا يدير رأسه بإسهابه، وهدده: إما

ندخل فى صلب الموضوع وإما آكل كيلوجراماً آخر من الحلوى ثم أذهب لتناول عشائى. هدأه أونوفرى بابتسامة حميمية، أكد لهما:

- ما سأعرضه عليكما شىء جد عملى غير أنه يحتاج إلى مقدمة. سأحاول أن أختصر. لا يخفى عليكما الوضع الأليم الذى عليه أوربا...

ورسم لهما بعض الخطوط الثاقبة للمشهد المؤسى الذى ظل يقض مضجعه فى الزمن الأخير. اعترض ماركيز أوت على ذلك فما قد يحدث لبقية أوربا لا يحظى باهتمامه ولو اختفت فرنسا وإنجلترا بكل سكانهما من على وجه البسيطة سيكون أول من يحتفل بذلك. حاول أونوفرى أن يوضح له أن عهد النعرات الوطنية المتعصبة قد انتهى وأن الزمن تغير. غضب الماركيز. أأنت تريد الآن عمل دعاية للاشتراكية الدولية؟ - سأله. حين رأى أن المناقشة تحتد تدخل إفرين كاستلز. وفمه ملئ بحلوى اللوز والصنوبر لم يكن يُفهم ما يقوله لكن خطورته لم تكن تقبل رداً، إذ هدأت النفوس فى الحال. حين تمكن من الكلام مرة أخرى واصل أونوفرى بوفيلا شرح وجهة نظره:

- ودليل ذلك، سأشير فقط إلى ما يلى: الآن تنتهى الحرب فماذا يكون مصيرنا؟ أقمنا صناعة حربية لكنها، بين يوم وليلة، كما يقال، لن يكون هنالك عليها طلب. ماذا يعنى هذا؟ يعنى إفلاس الشركات وإغلاق المصانع وطرد العمال، وذلك دون ذكر مساوئ مثل هذا الوضع: الشغب فى الشوارع وعمليات الاغتيال. ستقولان لى إننا واجهنا مشاكل مشابهة فى السابق وتمكنا من حلها. وأنا أقول لكما إن الأمور فى المرة القادمة ستتخذ أبعاداً غير مسبوقة. فلن تظل هذه الظاهرة داخل حدود دولة بعينها بل ستكون حركة عالمية. ستكون تلك الصورة التى سمعنا عنها كثيراً.

كانت بكرية المشوه جلست إلى البيانو، وراح ماركيز أوت يغفو على إيقاع أغنية للبحارة. الابنة الصغرى كانت متكئة على الأريكة، ووضعت قدميها على المنضدة القريبة فانحسرت تنورتها عن ركبتها تقريباً

وأظهرت فى عدم اكتراث وجه حذائها وجوربها الحريرى. سقط فك إفرين كاستلز عندما رأى ذلك. سأل:

- هل اخترت هذا المكان تحديداً لتفشى لنا بهذه التنبؤات؟

ابتسم أونوفرى بوفيلا ولم يرد، كان يعلم أن الماركيز ما كان سيسمح بأن يفاجئه أحد مع صحبة كتلك إلا فى مكان كذاك، وإلا لما تمكن ألبتة من عقد هذا اللقاء معهما. قال للمارد:

- بوسعك التغيب الآن إن شئت، لدينا ما يكفى من الوقت.

أومأ إفرين كاستلز إلى الصبية واختفى كلاهما خلف ستارة ذات حبات خشبية تغطى باب المخدع الخافت الضوء. رنين اصطدام هذه الحبات كان كافياً لإيقاظ الماركيز الذى سأل عن كاستلز أونوفرى بوفيلا أشار إلى الستارة وغمز بعينه. تمطى الماركيز وقال: وماذا نفعل أنت وأنا إلى أن يعود؟ أجابه أونوفرى:

- بوسعنا أن نتحدث. وحين يعود سأطلعكما على خطة أعددتها. من المهم أن يوافق إفرين كاستلز على كل شىء فهو الذى سيتحمل كل مخاطر الأمر دون أن يدرى. لذا علينا نحن الاثنين أن نصطنع أننا موافقان، أن يصدق هو أن ثلاثتنا متحد فى هذه المهمة، وألا يرتاب فى أنه مجرد أداة فى أيدينا. إذا طرأ خلاف سنحله فيما بعد أنت وأنا على حدة، كما فعلنا دائماً.

قال الماركيز الذى يستشعر ميلاً قديماً إلى التآمر:

- مفهوم، ولكن أية خطة شيطانية هذه؟

- سأشرحها لكما فيما بعد.

فى تلك اللحظة نفسها عاود مارد كاليا الظهور تتبعه الصبية. نهض الماركيز فى الحال. نبس من بين أسنانه: "أعود فى التو"، وأخذ الصبية من ذراعها وجرها فى اتجاه الستارة. تهالك إفرين كاستلز فى مقعده وأشعل سيجارة. سأل وهو يشير بذقنه إلى المقعد الذى تركه الماركيز شاغراً من توه:

- لماذا دعوت هذا الأحمق المخنث؟
- مشاركته أساسية لضمان تنفيذ خطتنا. أنت عليك أن تظهر أنك معى فى كل ما أقترحه، لأنه إذا وجدنا متحدين لن ينبس ببنت شفة، إذا طرأ خلاف سنحله فيما بعد أنت وأنا كما فعلنا دائماً.
- لا تخش شيئاً، ولكن هذه الخطة الشهيرة فيم تتلخص؟
قال بوفيلا وهو يشير بنظره إلى باب المخدع الذى تخفيه حبات الخشب:
- صه! إنه هنا.

كان قداسة الباب ليون الثالث عشر قد قرر أن يأخذ بزمام الأمر والتصدى لتيارات رأى بعينها ولبعض المواقف الأخلاقية التى ازدهرت فى ظل العصر الحديث والتى شجعها سلوك سلفه، قداسة البابا بيوس العاشر. بهذه الغاية فى ذهنه اعتزل فى مقر إقامته. قال لقائد الحرس السويسرى المكلف بحراسته تلك الليلة: لا يزعجنى أحد! ظل يكتب حتى الفجر لينفح العالم منشوره البابوى Immortale Dei. حدث ذلك فى عام ١٨٨٥؛ والآن، بعد ثلاثين عاماً، كان أونوفرى بوفيلا يتذكر يوم الأحد ذاك من طفولته الذى أنصت فيه إلى تلاوة ذلك المنشور فى كنيسة سان كليمنتى. ونظراً إلى أهمية النص، قرأ أولاً باللاتينية. رعايا الأبروشية وكل سكان الوادى، رجالاً ونساء، كباراً وصغاراً، أصحاء ومرضى، أنصتوا إلى تلك التلاوة وقوفاً وقد خفضوا رؤوسهم وشبكوا أيديهم فى حجورهم. ثم رسموا علامة الصليب وجلسوا على أرائك خشبية، وكان ذلك يحدث دائماً صخباً عظيماً، لأن تلك الأرائك الخشبية لم تكن مثبتة إلى الأرض، وأرجلها لم تكن متساوية فيما بينها. بعد استعادة الصمت، قرأ القس، السيد سيرافى دالماو ذاك الذى تلقى أونوفرى بوفيلا على يديه ماء التعميد، قرأ نص المنشور البابوى المعصوم من الخطأ بالقشتالية (لم تكن اللغة القطلونية قد أدخلت من جديد بعد فى

الطقوس الكنسية، كثير من الناس فى قطلونيا اعتقد بالتالى أن القشتالية واللاتينية شكلان للغة واحدة ذات أصل إلهى) وفيما بعد جرب بلا نجاح وإن يكن بإسهاب، استخلاص معناه. كانت والدة أونوفرى تجلس إلى جواره. لحضور ذلك القداس ارتدت ثوب الخروج الوحيد لديها: ثوب أسود، منقوش، عليه زهور شديدة الصغر ظن الآن أنه يراها تتداخل مع أنباء الحرب الواردة من جبهة القتال فى الغرب والتى كانت تحيطه بالخسائر التى تكبدتها الغواصات الألمانية فى مياه الأطلنطى وبدخول الولايات المتحدة الأمريكية الحرب الأوربية. لمس يدها وسألها - حين التفتت إليه - ما هذا؟ قالت له والدته: شىء يكتبه البابا لنا كى نطيعه فى كل ما يقول. عاد يسأل: خطاب؟ وإزاء الإيماءة الإيجابية من والدته سأل: أأحضرها العم تونيت؟ همست الأم: بالطبع، وإلا فمن؟ سأل مرة أخرى بعد وهلة بعد أن استحضر الفكرة: أويرسلها لنا وحدنا؟ فردت: لا تكن عبيطاً، يرسلها للعالم أجمع. ثم أردفت: لا يدرى أى شىء عنا ولا حتى أننا موجودان. قال أونوفرى: "ومع ذلك هو يحبنا"، مردداً ما علمه له القس وهو يربت على كتفه. ردت الأم: من يدرى؟ كان زوجها قد رحل إلى كوبا قبل تسع سنوات، لكن لم يكن ذلك فى تلك اللحظة (ولا الآن بالطبع، فى الذكرى) ما يشغل عقل أونوفرى بوفيلا. كان يعلم أن البابا يقيم فى روما وبدءاً من ذلك لم يكن هنالك بد من إبدال المعارف الجغرافية بالخيال، فكان يعتقد أن روما مكان بالغ البعد، قلعة أو قصر لا سبيل إلى دخوله، أقيم على جبل أعلى ألف مرة من الجبال المحيطة بالوادي، ولا يمكن الوصول إليه إلا باجتياز الصحراء على ظهر واحدة من هذه الدواب: الحصان أو الجمل أو الفيل. كان مصدر هذه الصور رسومات كتاب "التاريخ المقدس" الذى كان القس يستخدمه أساساً لتعاليمه. مسألة أن يرسل البابا من ذلك المكان العجيب فى زمن بهذا القصر رسالته إلى كنيسة سان كليمنتى المتواضعة هى التى ملأته حينئذ بالدهشة. والآن وهو يتذكر ذلك الحدث عاودته نفس الدهشة.

هكذا تكون القوة! هتف بصوت خفيض وهو يدرى أنه وحده فى حجرة مكتبه. هذه القوة الكلية الحضور وحدها يمكنها أن تتصدى للقوى الانقلابية التى تهدد العالم. لكن تلك القوة نفسها كانت مقصورة تماماً على الكنيسة والكنيسة يبدو أنها نائمة فى أكاليل الغار، تمزقها خلافات داخلية، بلا هدف أو قائد. ومع ذلك، فإن الكنيسة وحدها بوسعها ولوج حتى الأماكن الخفية، حتى أصغر ركن فى أقصى المنازل انعزالاً؛ وحتى فى أشد أكواخ الكرة الأرضية بؤساً هنالك أيقونة معلقة على حائط أو دعاء يعنى القبول والطاعة. جعل يقول لنفسه متعجباً: وكل هذا فعله السيد المسيح قبل عشرين قرناً ومعه صيادون بؤساء من الجليل. وهو لم يكن يعرف بعد، مع كل ما يمتلكه من معلومات حينئذ، أين الجليل، حتى وإن توقفت كل ثروته على تحديد موقعها على خريطة العالم لما تمكن من ذلك. وكان ذلك مبعث قلقه. فيما بعد، جرب آخرون تطبيق تلك الخطة: يوليوس قيصر، نابليون بونابرت، فيليب الثانى... وحصد جميعهم أشد ضروب الهزيمة والفشل مهانة، لأنهم وثقوا بقوة السلاح وحدها وازدروا القوة الروحية القادرة على خلق صلة غير مرئية، ربط ألوف الملايين من الجزيئات التى وجدت كى تنتشر فى اتجاهات شتى وتتوزع على الفضاء اللانهائى ويصطدم بعضها ببعض. لكنه الآن، هو، أونوفرى بوفيلا، قال، سوف يعيد صوغ نفس الخطة، وانطلاقاً من بذرة روحية سينبت شجرة قوية ذات أغصان وجذور لا نهائية.

كانت الابنة الصغرى للرجل المشوه تبكى فى المطبخ. خلال تلك الليلة اضطرت أربع مرات إلى تلبية رغبات الماركيز الفاجرة، وتسع مرات إلى تلقى هجمات إفرين كاستلز العملاقة. وأصابها ذلك بنزيف خفيف وآلام حادة، واضطرت أختها الكبرى إلى ترك البيانو لتحل محلها فى الفراش. والآن تساعد أختها فى إعداد الحلوى التى أكل منها المارد إلى تلك اللحظة أربعة عشر كيلوجراماً على الرغم من أن الصنوبر، كما يقول، يصيبه بنوبات حادة من الانتصاب المتصل بلا شهوة. فى إطار النافذة

كانت تمكن رؤية بزوغ الفجر وسماء رصاصية محملة بالمطر. هالات سوداء ظهرت حول عينى الماركيز. على الرغم من التوقفات، تمكن أونوفرى بوفيلا من عرض خطته عليهما. لا هو ولا مارد كاليّا فهما تلك الخطة ولا ما ينتظر منهما فيما يختص بها أو بتنفيذها. وكانت لكليهما شكوك جادة حول صحة صديقهما العقلية. ومع ذلك، لم يجرؤ أى منهما على قول شيء، فكانا يخشيان أن يثير أى تعليق من جانبهما من جديد ذلك السيل من الهراء المهيب الذى خضعا له على مدى ساعات لا تنتهى. فيما كان أونوفرى بوفيلا يبتسم: لا يبدو أن السهاد كان له أدنى أثر على مزاجه المعتدل. والآن بدأ التفاوض متيقناً من أنه سيحقق ما يريد. بذلك بدأ أشد مشروعات حياته طموحاً؛ وكذلك أكبر فشل. فكل شيء سار على نحو سيئ منذ البداية، كل شيء سار دون أن يحالفه الحظ. وفى نهاية الطريق أعرض عنه أصدقاؤه وحلفاؤه وألفى نفسه وحيداً.

(٥)

اصطف طابور السيارات فى الزقاق، وومضت على مبرد السيارات شمس الشتاء، ومر عدد من السحب الوحيدة فوق الرفارف التى تعكس صفحة السماء. كانت السيارات تتقدم أمتاراً قليلة ثم تتوقف وتلبث وهلة ساكنة لتعاود التقدم عدة أمتار أخرى. وعند بلوغها آخر الزقاق تنعطف إلى اليمين لتدخل زقاقاً أضيق وأحلك لم تدخله الشمس قط. هناك، على بعد عدة أمتار من المنحنى، كانت تتوقف فى النهاية أمام بوابة حديدية عليها قنديل غازى صغير، مطفأ الآن لأن الوقت منتصف النهار. هناك، يفتح حارس يرتدى سترة وقبعة عالية وأزراراً مذهبة باب السيارة ويخلع قبعته عند نزول من يستقلها وينحنى ويغلق الباب ويعاود لبس القبعة العالية ويحمل إلى شفتيه الصفارة وينفخ فيها. بهذه الإشارة يتحرك السائق بالسيارة لتحتل التالية لها فى الطابور مكانها أمام البوابة، وهكذا على التوالى. وحين تصل السيارة التى تحركت فى التو إلى نهاية الزقاق الثانى تنعطف مرة ثانية إلى اليمين، كما فعلت من قبل، لتدخل زقاقاً آخر يصب فى ميدان. هناك، تنتظر السيارات التى مرت أمام الحارس وأنزلت من بها أمام البوابة، تنتظر تحت شجر السنط إلى أن تستدعيها الصفارة من جديد. أخرجت حانة بناصية الميدان مناضد وكراسى على الطوار ومظلات ذات خطوط زرقاء وصفراء وحمراء. حرك النسيم أطراف المظلات. هناك تقدم الجعة والنبيذ بماء الصودا للسائقين، وإذا هم شاءوا يقدم لهم الزيتون المحشو وأنشوجا فى الخل والبطاطس المسلوقة مع الفلفل والسردين المخلل، إلخ. وكلما نما عدد السيارات فى الميدان زاد عدد السائقين الذين يتناولون المشهيات فى الحانة. فى الثانية عشرة والنصف كان الميدان مزدحماً بالسيارات ولا مكان لسيارة أخرى. من حسن الطالع وصل كل من كانوا سيصلون

بسياراتهم، وبعد أن هبطوا منها بمساعدة الحارس المراعى للطقوس قادتهم من البوابة الحديدية إلى مقاعدهم آنسات كان لابد أن يلفت مظهرهن انتباههم بشدة. ليس لأنهن لسن صغيرات السن أو مليحات بل لأنهن يرتدين ثياباً مستقيمة، تنزل من أكتافهن كالأسطوانة مشدودة إلى حمالات كالحبال، دون أن تبرز الصدر أو الخصر؛ وهى من الترتر الأبيض وتنتهى فوق الركبة بسنتيمتر واحد أو سنتيمترين؛ وعلى هذا فإنها تكشف ليس عن أذرع الآنسات، من الكتف إلى الأظافر، فحسب بل وعن سيقانهن، سيقان طويلة ومفتولة ونافرة، أجدر بساقى متسابق دراجات منها بساقى سيدة تستحق هذا الاسم. أضف إلى ذلك الشذوذ طلاء وجه فاقعاً، كأنه ملطخ، وشعراً قصيراً ومترهلاً، مشدوداً بشريط حريرى عرضه سنتيمتران. راح السادة يرسمون علامة الصليب ويقولون: أرأيت حضرتك مثل هذا المسخ؟ بهذه المناظر لا يعرف المرء أهن ذاهبات أم آيبات، حفظنا الله افى يومنا هذا لا سبيل إلى معرفة إن كن نساء أم رجالاً؛ إذا استمر الأمر على هذه الحال، سأتحول إلى الفرع المائى؛ وماذا تريد يا صديقى؟ إنها الموضة؛ حسن أنا سأقول لك ما يلى: إذا رأيت ابنتى يوماً فى هذه الأسمال فإننى من الصفعة الأولى سأصنع لها وجهاً جديداً. هذا الأمر لن ينتهى عند هذا الحد، وإلا سيثبت الزمن ما أقول. بداية سيئة: كان هذا هو الحكم. والآن يشعر ماكيز أوت بالندم لأنه ضمن بما له من سمعة مثل هذا العرض، لأنه جعل أونوفرى بوفيلا يقنعه بإصراره. أى منهما لم يكن محتملاً رؤيته فى القاعة فى تلك اللحظات. كان إفرين كاستلز رسمياً هو من دعا هؤلاء السادة للحضور، من يواجه الأمر. فمارد كاليّا يتمتع بسمعة طيبة بين سادة برشلونة، فهو بالغ الجدية فى أنشطته وحصيف فى مبادراته، وفى السداد دقيق وصارم. لم يتورط قط فى أية فضيحة، لا اقتصادية ولا من أى نوع، ويعتبر مثالاً لرب الأسرة. عرفت عنه علاقات عابرة وضرب به المثل فى حبه للسيقان وثارت شائعات حول منجزاته فى هذا الحقل، لكن أحداً لم

يرجع ذلك سوى إلى غزارة طبيعته. كان سخياً بلا تبذير مما أثار الإعجاب به، ويقوم بأعمال البر بلا مباهاة، وأصبح من هواة جمع لوحات التصوير الأذكياء الذين يحظون باحترام النقاد والفنانين والتجار. والآن يقامر بسمعته الطيبة أمام من يحافظون عليها. همس الماركيز: لا أحب أن أكون فى مكانه الآن. لم يعارضه أونوفرى بوفيلا. راقب كلاهما ما يحدث فى القاعة من مقصورة، من خلف ساتر. كانت مقاعد القاعة قد شغلت تقريباً. والآن يدرك الكثير من الحضور أنه يجلس فى صالة مسرح دخله من الباب الخلفى، من مدخل الفنانين. طفقوا يتساءلون: ماذا نفعل هنا؟ عرض خاص؟ وفى عز الظهر؟ ما هذا بحق الشيطان؟ بؤرتا ضوء أنارتا خشبة المسرح. وأمام الستار المسدل وقف إفرين كاستلز. فى ذلك المكان البارد وببذلته المذيلة بدا أضخم مما هو. شرع أحد الظرفاء فى الغناء:"مارد (بى) الآن يرقص، الآن يرقص "* وحياه جميع الحضور ببالغ الضحك. تمتم الماركيز من مرقبه: ستكون مهزلة بلا نهاية، لو كنت مكانه لمت من الحرج. ابتسم أونوفرى قائلاً: جلده أخشن مما تتصور. تذكره وهو يطلب شراء دواء نمو الشعر الذى كان أونوفرى نفسه يبيعه ثم يعطيه بزيتة لقاء مشاركته. فكر: والآن يحدث الشيء نفسه، يحدث الشيء نفسه دائماً. بفضل صوته الجهورى فرض الصمت بلا صعوبة عندما ألفى أنهم كلّوا من الغناء، إذ لم يجدوا طريقة يواصلون بها الدعابة وكانوا متأهبين لسماعه. انبرى يقول:

– أصدقائى الأعزاء ! اسمحوا لى وأنا أكلمكم أن أرفع الكلفة بيننا، فأنا رجل بسيط كما تعرفوننى، فليس من بينكم أحد بوسعه أن يقول عكس ما يأتى عنى: فى تعاملاته فضل دائماً الصداقة على الربح. لم أدعكم هنا كى أطلب منكم مالاً – الآن راحوا جميعاً ينظرون بعضهم إلى بعض. أونوفرى بوفيلا غمز بعينه للماركيز وقال: قلت لك إنه سيعرف كيف يصارع هذا الثور. فأجابه الماركيز: المهم أن يتمكن من قتله من أول

* بالقطلونية فى الأصل.

محاولة. – ولا أود كذلك أن تضيعوا وقتكم الثمين فى كلام فارغ. لست بليغاً وأفضل دائماً أن أستخدم معكم لغة الإخلاص البسيطة والعملية. لا أطلب منكم سوى لحظة من الانتباه. سأريكم شيئاً لم تروه قط قبل الآن. شيء لم تروه قط قبل الآن! – كرر ليسكت النكات التى أثارتها هذه التورية فى الجمهور – لكن ما سترونه بعد لحظات قصيرة للمرة الأولى سترونه فيما بعد ألوف ومئات وعشرات المرات.

قال الماركيز:

– فى أى حرج يضع نفسه.

قال أونوفرى: لا يجيد استخدام الأرقام، دعه على طبيعته!

واصل كاستلز حديثه:

– اليوم ستنالون شرف هذا السبق، وأنتم تعلمون ماذا يعنى ذلك فى عالم التجارة، لا داعى لأن تشكرونى. ولن أطيل عليكم أكثر من هذا؛ الآن، ستطفأ الأضواء. لا تخشون شيئاً، فلا شيء هنالك، وليظل كلّ فى مقعده. وأنا سأعود مرة أخرى إلى هنا لأفسر لكم ماهية الأمر، أشكر لكم انتباهكم!

فيما يخرج من خشبة المسرح، انزاح الستار الذى يعمل بمحرك كهربى. وحين رفع الستار تماماً لوحظ أن قلب المسرح مغطى تماماً بشاشة ضخمة بلا وصلات ظاهرة، صنعت من مادة لا هى معدنية ولا هى من القماش بل خليط من كليهما، كأنما هى "إسبستوس". ثم انطفأت الأنوار كما أعلن إفرين كاستلز وسمع هدير آلة وعزف بيانو يقوم به شخص خلف الشاشة. صاح صوت وسط الجمهور:

– اللعنة !سيعرضون علينا فيلماً!

بهذا التحذير بث الرعب. صرخ شخص: لو هو فيلم الكلب سأرحل. خنقت الأصوات عزف البيانو. على الشاشة بدأت تتضح المشاهد الأولى. ويبدو أن المشهد المعروض أخذ على نحو جلى فى منزل متواضع، كان على الأكثر كوخاً آيلاً للسقوط على ضوء الشمعة المغاير. فراش

ضيق وغير مرتب ملتصق بحائط فى نهاية الغرفة؛ وفى الوسط، منضدة وأربعة كراس، وفوق المائدة، صندوق خياطة وكرات خيط وبكرات خيط ومقصات وفضلات قماش. يوحى المجمل إلى المشاهد بحياة من الحرمان والبؤس، مما أثار ضحكاً شديداً فى الجمهور. والآن، ثمة امرأة تتشح بالسواد تجلس إلى المنضدة وظهرها إلى المشاهدين. من الواضح أنها امرأة فى منتصف العمر، ممتلئة قليلاً. كانت كتفاها تهتزان، وراحت سلسلة من التشنجات تعصف بجسدها البدين، واهتز شعرها المشعث، بذلك أرادت أن تنقل للجمهور الإحساس بالألم. صاح أحدهم: أعطوها تيليو! أطلقت هذه المزحة قهقهة عامة. نبس الماركيز: احمنا يا رب! قال أونوفرى بوفيلا بجفاف: سكوت! على الشاشة، كانت المرأة ترفع ذراعيها ناحية سقف الكوخ، كانت تظهر أنها ستنهض لكنها كانت تتهالك على الكرسى، كأنما لا تستجيب لها مفاصلها أو تضعف إرادتها أو الأمران معاً. فى الصالة كان الضحك يزداد ولم تأت المرأة بإيماءة لا تزيد من ضحك الجمهور، الذى لم يكن مبرر على الإطلاق. اقتحم إفرين كاستلز المقصورة ذات الساتر التى جلس بها أونوفرى بوفيلا وماركيز أوت؛ حتى فى الظلمة المهيمنة كان يمكن تمييز عينيه وهما خارج محجريهما. راح يئن:

– أونوفرى، بحق أعز من تحب، قل لهم يوقفوا العرض فى الحال!

قال أونوفرى وهو يعض نواجذه:

– من يفعل ذلك سآمر برميه بالرصاص.

– ولكن، ألا ترى كيف يضحكون، الأوغاد؟

وكامرأة الفيلم، انتفض جسده من البكاء. أمسك أونوفرى بياقة بذلته المذيلة وحاول هزه بما يسمح به اختلاف قوتيهما. صاح فى وجهه: منذ متى فقدت شجاعتك؟ اصمت وانتظر! حينئذ أدركا أن الضحك يقل. ذهبا إلى المقصورة واتجها بنظرتهما المتلهفة إلى الشاشة؛ الآن، المرأة المضطربة نهضت أخيراً من الكرسى والتفتت، ويملأ وجهها الآن

الشاشة. صمت الجمهور بالفعل؛ فكما أعلن إفرين كاستلز من قبل، كان الجمهور يرى فى تلك اللحظة لأول مرة ما سيراه العالم أجمع بدءاً من الآن وعلى مدار أعوام طويلة، كل ساعة وفى كل مكان؛ وجه أونيستا لابرو الحزين.

لم يكن فى وسعها أن تكون أقبح جسداً. ففى ذلك الوقت الذى خبا فيه جمال الفتاة الملكية، المبالغة والملتوية، وبدأت موضة الفتاة الخنثى، النحيفة والضعيفة البنية، كانت هى تعرض جسداً مفتولاً، ثقيلاً ورجولياً، وملامح مبتذلة وإيماءات مصطنعة وتعبيرات مفرطة وخبيثة وتملقاً معسولاً. كان ملبسها مبتذلاً. كل شىء فيها كان مبتذلاً ورديئ الذوق. مع ذلك، فيما بين ١٩١٩ و١٩٢٣، عندما اعتزلت السينما، لم يكن يمر يوم لا تنشر فيه الصحف صورتها أو تتحدث عنها. وجميع المجلات المصورة كانت تعلن عن تحقيقات صحفية (لم تعط هى تصريحاً بها قط) ومقابلات (لم تجرها مع أحد) لتضاعف مبيعاتها. وتضمنت العشرين كيلوجراماً من الخطابات التى تتلقاها يومياً تصريحات حب وعروض زواج، وكذلك توسلات ممزقة وتهديدات مشؤومة وبذاءات تثير الغثيان وقسم بالانتحار إذا لم يحظ المرسل بكذا وكذا، ولعنات وافتراءات وابتزازاً... إلخ.

ولكى تتجنب حصار المعجبين والمرضى السيكوباتيين كانت تغير مسكنها دائماً ولم تكن تحضر قط فى أى مكان عام؛ وفى واقع الأمر، لم يكن أحد، فيما خلا من هم من دائرتها الخاصة، يستطيع أن يتباهى بأنه رآها، إلا على الشاشة. سرت شائعة بأنها حبيسة، تحت رقابة مشددة أربعاً وعشرين ساعة يومياً، وأنهم لا يسمحون لها بالخروج إلى الشارع إلا للذهاب للتصوير فى الاستديو، فجراً، مكبلة اليدين ومكممة، وعلى رأسها غطاء كى لا تعرف هى نفسها حتى، على وجه التحديد، أين تقطن أو ما خطواتها. كانوا يقولون: ثمن الشهرة. هذه الهالة من الغموض التى

تلفها، والسرية التى تحيط بهويتها الحقيقية وبماضيها كانتا تسهمان فى إضفاء صدق على أفلامها الروائية الاثنين والعشرين التى قامت ببطولتها خلال مشوارها القصير والمتألق. من هذه الأفلام لم يصلنا إلا أجزاء فى حالة سيئة. ويبدو أنها جميعاً كانت مماثلة لأول فيلم. وذلك، بدلاً من إقصاء الجمهور عنها، كان مبعث رضاه، لأن أى مغاير يتلقاه الجمهور فى الحال، فى الصالة، بمظاهر من الغضب، وأحياناً، من العنف المادى. وإذا كان هنالك أى تقدم فى فنها السينمائى فقد تلخص ذلك فى ترد تدريجى نحو التكلف. ممثلة رديئة، ترنحت، أومأت على أسوأ نحو فيما يخسر ماركو أنطونيو بسببها معركة أكتيوم وتتهيأ حية كفردة جورب كى تنفث سمها فى صدرها الضخم، فيما يحتضر عشيقها بمرض الصدر ويدس لها جماعة من الصينيين الأشرار المخدر فى كأسها لبيعها لحريم سلطان مخنث وكالبهلوان؛ فيما يسوطها زوجها المدمن للخمر والمقامر بالحزام بعد أن يعلن لها أنه راهن عليها وخسر شرفه على مائدة اللعب؛ فيما يكشف لها رجل من الجاوتشو*، لحظة شنقه، أنها هى والدته وليست المرأة الشريرة التى كانت سبب خروجها من الدير. فى تلك الأفلام كل الرجال قساة وكل النساء بلا إحساس وكل الكهنة متعصبون وكل الأطباء ساديون وكل القضاة لا يرحمون. وهى كانت تغفر لهم جميعاً فى لحظات احتضارها المسولة والتى لا تنتهى.

- ولكن من سيهمه هذا الهراء؟ - هذا ما سأله ماركيز أوت عندما قرأ عليهما خطة سيناريو أول فيلم روائى طويل سوف تكررها استوديوهاتهم فيما بعد حتى الغثيان. كان أغلق عليه باب مكتبه وظل يعمل هناك وحده ليل نهار. كان كل شىء اكتمل فى مخيلته: المواقف، المشاهد، الديكور، الملابس، ولم تفته أية تفاصيل. وبعد عدة أيام، أرادت زوجه معرفة ما يفعله، ذهبت إلى حجرة المكتب فوجدت الباب مغلقاً. انتابها القلق فطرقت الباب: أونوفرى، هذه أنا، أأنت على ما يرام؟ لم لا

* رعاة البقر فى الأرجنتين وأورجواى.

تردد؟ ولما لم يجبها سوى الصمت راحت تضرب الباب بقبضتيها، بعصبية، فهرع إلى هناك الخدم على صوت الجلبة. حين رأت نفسها محوطة بالخدم صرخت: أونوفرى، افتح وإلا سآمرهم بأن يخلعوا الباب! إزاء ذلك التهديد سُمع صوت هادئ قال لهم جميعاً: فى يدى الآن مسدس وسأطلق النار على أول من يعاود إزعاجى. أصرت وهى تعلم أن بوسعه تنفيذ تحذيره: ولكن، يا أونوفرى، لك يومان بلا أكل أو شرب. أجابها: لدى كل ما أحتاجه. طلبت خادم إذناً كى تتكلم فلما أذن لها قالت إنها بأمر السيد نقلت إلى حجرة المكتب مؤناً وماء كافيين لأسبوعين. قالت أيضاً إنها وضعت هناك ملابس داخلية وكافة المباول التى كانت لدى بائع الفخار فى الحى. كان السيد أمرها بألا تخبر أحداً بشىء من ذلك، وأنه لا يريد أن يزعجه أحد لأى سبب. وهى عضت شفتيها واقتصرت على قول: كان يجب أن تخبرينى من قبل. تخيلت أنها لمحت فى صوت الخادم نبرة معينة، والآن تعتقد أنها قرأت فى عينيها السوداوين ومضة تحد. فكرت: لا يتجاوز عمرها خمس عشرة أو ست عشرة سنة وهى تعاملنى كأنما هى السيدة وأنا الخادم. كانت تحيا على اقتناع أن كل الناس يهزأون بها، من وراء ظهرها وأمامها كذلك. فكرت: مؤكد أنه يخوننى مع هذه؛ مؤكد أن رائحتها ثوم وقشدة وهذا يعجبه؛ يفضل هذه الروائح على العطور الفرنسية وأملاح الحمام التى أستخدمها كل يوم؛ مؤكد أنهما يرقدان فى الفراش ويغطيان رأسيهما بالملاءة لينتشيا برائحة جسديهما التى تفوح منهما بعد أن ظلا يطرقعان كقاطرتين. وسيفعلان ذلك عدة مرات كما فى تلك الليلة الى دخل فيها غرفتى من النافذة بعد أن تسلق حائط منزل والدى؛ مؤكد أنه حكى لها ذلك، وأفشى سر تلك الليلة الأولى فراح يحكيه لكل من امتلكهن فيما بعد؛ وبهذه الحكاية ظللن يضحكن على حسابى كما يحلو لهن حتى الفجر. فكرت: على أن أطردها بلا أية اعتبارات. لكنها لم تكن تجرؤ على ذلك. فكرت: ستعتبرها الخادم إهانة بها وستفطن إلى المبرر

الحقيقى لطردها وستسبنى أمام بقية الخدم وسوف تقول لنفسها: لم يعد هنالك ما أخشاه، وتمعن فى سبى، وستحكى كل شىء للخدم وستجعل منى أضحوكة. ثم ستحكى له ما حدث؛ وهو سيحترم إرادتى ولكنه سيعد لها شقة وسيذهب كل مساء ليراها، وبأى عذر سيمكث هناك ليقضى الليل كله معها ثم يقول لى إنه اضطر إلى سهر الليل كله فى العمل، كما فعل فى العديد من المرات. وهى تفكر على هذا النحو لم تكن تدرك أن هذا الجبن نفسه هو أول أسباب خسارتها لحبه. فهذه الخادم نفسها قالت لها بعد مرور أسبوعين على ما حدث إن السيد بدأ يخرج من محبسه. كانت تتناول وجبة خفيفة عصراً مع ابنتها ومع الخياطة عندما دخلت الخادم بالنبأ. كانت نسيت غيرتها وحقدها وفكرت حين رأتها: إن هذه الصبية لشديدة الوفاء، يجب أن أفعل شيئاً لأكافئها! أرادت بهذا التصرف غير المنطقى أن تبين للجميع أنها ليست وضيعة بل كريمة. كانت ابنتها والخياطة كذلك من ذوات الوزن الثقيل. والآن، راحت أفراس النهر الثلاث يهرولن بالممرات وعندما بلغن باب حجرة المكتب كان هو خرج فى التو. خلال الخمسة عشر يوماً تلك لم يكن اغتسل أو حلق ذقنه أو مشط شعره، لم يكن نام إلا ساعات قليلة ولم يكد يقرب الطعام كما أنه لم يغير ملابسه. ظهر عليه الهزال ولم يكن يتحرك بثبات، كأنه صحا من توه من حلم عميق ومؤثر أو عاد إلى نفسه بعد نوبة غيبوبية. فاحت من حجرة المكتب رائحة عفونة لا تطاق. هذه الرائحة العفنة تجوب الممرات الآن كأنها نفس معذبة تبث الذعر فى الخدم.

قال لرئيس الخدم:

- أجوستى، أعد لى الحمام!

لم يبدُ عليه أنه انتبه إلى حضور زوجه وبنته والخياطة. كان يمسك بيده حزمة أوراق مكتوبة مليئة بالشطب والتصحيحات. بإيماءة آمرة استوقف بعض الخادمات اللائى ذهبن إلى مكتبه لإعادته إلى طبيعته

ومعهن دلاء وقماش للتنظيف، قال: لا حاجة إلى أن تنظفن، سننتقل من المنزل. الآن، أعطت أونيستا لابرو من شكلها وتعبيرها لذلك السيناريو، كانت تجسد الخيالات التى أثارت شكوك ماركيز أوت. ثارت ثائرته حين قال له الماركيز إنه يجهل من سيهتم بذلك الهراء، كان رده القاطع: كل الناس!

بالفعل، فالآن يبكى الجمهور. رجال الأعمال أولئك، الشديدو الاعتدال، عجزوا عن كبح دموعهم. فيما بعد قالوا إن رد الفعل غير المسبوق ذاك ما كان ليحدث لولا سحر أونيستا لابرو. لن نعرف أبداً فيم تلخص ذاك السحر. يؤكد بابلو بيكاسو أن تأثير تلك المرأة كان يكمن فى نظرتها، فى عينيها السمريتين. وربما يجئ هذا الرأى ليؤكد ما شاع وذكره مترجموه من أن بيكاسو عرفها شخصياً وأنه من شدة انبهاره بها خطفها فى عربة مغسلة (بالتآمر مع جاوما سابارتس ومساعدته)، وأنه اصطحبها معه إلى قرية غوسول، فى برغيدا، ثم أعادها سليمة آمنة إلى الاستديوهات بعد ذلك بيومين أو ثلاثة رسم خلالها عدداً من الاسكتشات وبدأ لوحة زيتية، ومن هذه الأعمال خرجت لوحاته التى لا تقدر بثمن المنتسبة إلى "المرحلة الزرقاء". وأقل من ذلك الغرام احتمالاً ما نسبته إليها مجلة من مغامرة عاطفية، قبل ذلك بأعوام، مع بيكتوريانو أويرتا. ذلك الجنرال الماكر، الذى كان سطا على رئاسة المكسيك بعد أن أمر باغتيال فرانثيسكو ماديرو وبينو سوارث، عاش فيما بعد زمناً فى برشلونة، حين أجبرته الثورة التى قادها بنوستيانو كرّانثا وإميليانو ثاباتا وبانتشوبيّا على التنازل عن الحكم والفرار. حينئذ كان يجوب حانات الحى الصينى ثملاً ومعربداً، وحين يثوب إلى رشده يتآمر ويخطط للعودة. عملاء ألمان كانوا يخططون لمناورة تضليلية تحول أنظار الولايات المتحدة عن الحرب فى أوربا، لذا أرادوا استخدام أويرتا طُعماً. أعطوه الخطة التى كان يبحث عنها، وبالأموال المكدسة التى جمعها خلال شهور فترته الرئاسية القصيرة، المودعة الآن فى قبو بنك

سويسرى، اشترى أسلحة وذخيرة من أونوفرى بوفيلا. وهذا قبض المبلغ وأرسل البضاعة المطلوبة غير أنه سرب كذلك نبأ الشحنة إلى الحكومة الأمريكية. وفى ميناء فيراكروث، تم ضبط الشحنة: ولإنجاز ذلك تم إبرار عناصر من البحرية الأمريكية مما تسبب فى سقوط العديد من الضحايا من بين المدنيين. وبعد أن وضع السلاح تحت تصرف أونوفرى بوفيلا أعاد بيعها إلى كرّانثا الذى كان حينئذ يحارب ضد ثاباتا وبّيا، حليفيه القديمين. وطبقاً لما ذكرته المجلة، كانت أونيستا لابرو، قبل أن تتجه للسينما ولكنها كانت تعمل لحساب بوفيلا، قد رقصت فى إحدى الليالى من أجل أويرتا الذى فتن بها فى الحال وعرض عليها أموالاً لا تحصى ووعدها بأنه حيال رجوعه إلى المكسيك سيقيم الحكم الملكى مرة أخرى كى يتوجها إمبراطورة، مثل كارلوتا الراحلة: بلا جدوى. وتقول المجلة إن هذا المشهد جرى فى جناح فندق انترناثيونال الذى يقطنه ذلك الخائن. ذلك الفندق كان هو نفسه الذى أقيم فى فترة لا تصدق لم تتجاوز ستة وستين يوماً ليستقبل زائرى المعرض العالمى عام ١٨٨٨. لوحظ على سقف وحوائط الجناح الذى يحتله أويرتا آثار أعيرة نارية، ووجهت إدارة الفندق إنذاراً شديد اللهجة إليه لهذا السبب؛ فضلاً عن أنه يعامل طاقم الفندق معاملة سيئة قولاً وفعلاً ولم يكن يسدد تكاليف إقامته. يقولون إنه فى ليلة الحب تلك كان يسير حافياً، تاركاً سرواله مفتوحاً، وإنه تحت قميصه المفتوح كذلك كان يرتدى فانلة مصفرة وبها ثقوب؛ بذلك المنظر كان من العسير على أحد أن يصدق وعوده. من المحتمل أن تكون هذه الحكاية وكذلك حكاية بيكاسو، من المحتمل أن تكون كلتاهما زائفة. ففى واقع الأمر أن بيكاسو ذهب إلى غوسول لقضاء عدة أشهر فى عام ١٩٠٦ وأن بيكتوريانو أويرتا مات فى عام ١٩١٦ مدمناً الخمر فى سجن فى الباسو، تكساس. وفى ذلك الوقت لم تكن أونيستا لابرو قد اشتهرت على يد أونوفرى بوفيلا ولا حتى اخترع اسمها الفنى، كانت لم تزل تحيا مع السيد براوليو حبيسة منزل متواضع

بحى جراثيا، تنتظر موت أبيها لكى تسلم نفسها للمرة الثانية والأخيرة لرجل حياتها ثم تنهيها بيدها.

أقنعها بالعدول عن ذلك الفعل الميلودرامى تحديداً نفس الرجل الذى كان سبب تفكيرها فى القيام به، والذى تسبب تدخله، قبل ذلك بأعوام طويلة، فى بلوغها ذلك الحد البعيد، ليس بالكلام بل بتلك النظرة الشريرة والقاسية نفسها التى أسرتها وأرعبتها لأول مرة فى الدور الأخير من البنسيون والتى دفعتها بلا مبرر إلى ارتكاب أحقر الجرائم. فى تلك الليلة نفسها توفيت والدتها وتم القضاء على خلية الفوضويين التى كانت تنتمى إليها وقضى أغلب أفرادها نحبه فيما بعد فى أجباب مونجوى. بذلك غاص ضميرها فى الدم. والآن يقرأ ذلك الألم وذلك العذاب فى عينيها الكبيرتين: فلم يفت ذلك على أونوفرى بوفيلا الذى كان يدرك أيضاً أنه بدءاً من النصف الثانى من القرن التاسع عشر، عندما ظهرت ثمار الثورة الصناعية، تغير مفهوم الزمن تماماً. قبل ذلك لم يكن زمن عمر الإنسان محدداً؛ فطبقاً لما تقتضيه أو تسمح به الظروف كان أى شخص يعمل أياماً وليالى كاملة بلا توقف ثم يظل بلا عمل لفترات مماثلة. وبالتالى فإن أوقات اللهو كانت تدوم لفترات تبدو لنا اليوم مفرطة: فعيد جمع العنب أو الحصاد كان يدوم أسبوعاً أو أسبوعين. على هذا النحو، أى عرض مسرحى أو رياضى أو أية مصارعة ثيران أو أى احتفال دينى أو موكب أو عرض، كان بوسعه أن يدوم خمس ساعات أو عشر أو أكثر؛ ومن يشارك فى مثل هذه الاحتفالات كان بوسعه البقاء طول الوقت أو الرحيل أو الرحيل ثم العودة، كما يشاء. لكن فى ذلك الوقت، كان كل ذلك تغير: ففى كل يوم يبدأ العمل فى ساعة محددة ويتوقف فى ساعة محددة، إلخ. لم يكن الأمر يحتاج عرافاً لمعرفة على أى نحو ستسير حياة الإنسان، بالأيام والساعات، منذ طفولته إلى شيخوخته، كان يكفى أن نعرف أين يعمل وما حرفته. وجعل ذلك الحياة

أرغد إذ قضى على عدد كبير من الأمور المفزعة، أزاح كثيراً من الأمور الغامضة؛ وكان بوسع الفلاسفة الصياح قائلين: جدول المواعيد هو مصيرنا. في المقابل، كان ذلك يتطلب تعديلات مهمة؛ الآن لابد أن يكون كل شيء منتظماً، فلا مجال للجزافي أو وحي اللحظة. ذلك الانتظام لم يكن ممكناً بدوره دون احترام الوقت. من قبل لم تكن دقة المواعيد موجودة، فكانت "الآن "هي كل شيء. فالآن كان يجب أن نسوط جواداً متعباً أو كبح جماح آخر ثارت حميته كي تصل العربة في موعدها المحدد، لا قبل ولا بعد، كانت تعطى أهمية بالغة لدقة المواعيد حتى إن بعض السياسيين كانوا يقيمون على أساسها دعايتهم الانتخابية: "انتخبوني وسأكون دقيقاً في مواعيدي"، هذا ما كان يقوله للناخبين. والدول الأجنبية لم يكن أحد يتحدث عن مناظرها الطبيعية أو تحفها الفنية أو بشاشة أهلها بل عن ما يظهرونه من دقة في المواعيد، دول لم يكن أحد من قبل يزورها راحت تعاني من سيل الزوار التواقين إلى التيقن بأنفسهم من دقة المواعيد التقليدية في مواطنيها ومنشآتها ووسائل نقلها العامة. ولم يكن من اليسير إجراء هذا التغيير على نطاق واسع إلا بمعاونة الطاقة الكهربائية لتلك الشعوب: فذلك التيار المتصل والثابت كان ضماناً للانتظام والدقة في كل شيء. أي ترام يعمل بالطاقة الكهربية لم يعد يعتمد على الصحة أو حتى على الاستعداد الطيب لبعض البغال كي يكمل مساره في موعده الدقيق، بل إن ركاب الترام حينئذ كانوا يستمتعون بالتفكير كما يأتي: بمعرفة كم الساعة يمكنني تحديد ما يبقى من وقت على وصول الترام. كما أن هذه التغيرات لم تكن ستحدث في لحظة بل على نحو تدريجي: أولاً، الأشياء المهمة، ثم الأخرى. لذا فإن وسائل التسلية واللهو تأخر دورها إلى النهاية: مصارعة الثيران ظلت على حالها تدوم عدداً كبيراً من الساعات، فإذا خرج الثور إلى الحلبة حازماً أو لئيماً، إذا راح يقتل كل الجياد ما إن تقن له في الحلبة، فإن مصارعة الأحد قد تمتد إلى ما بعد عدة ساعات من

يوم الاثنين. وفى عام ١٩١٦، فى قادس، جرت مصارعة شهيرة بدأت يوم الأحد وانتهت يوم الأربعاء دون أن يتحرك الجمهور من حلبة المصارعة. ونتيجة لذلك فقد عمال ترسانة قادس وظائفهم وحدثت إضرابات وشغب وحرق عدد من الأديرة واسترد العمال وظائفهم غير أنه بات واضحاً أن الأمر لا يمكن أن يستمر على ذلك النحو. هذا ما كان أونوفرى بوفيلا يعلمه جيداً.

قبل عودته إلى لقاء ديلفينا، وقبل أن تخلع رداءها وترتمى بين ذراعيه وتنظر إليه بتلك العينين الكبريتيتين اللتين غيرتا مجرى أفكاره، كانت جالت بذهنه عدة مرات فكرة أن السينما بوسعها أن تكون تلك التسلية الجديدة التى راحت البشرية تبحث عنها. فالسينما تجمع بين ثلاث مزايا تجعلها مناسبة: كانت تعمل بالطاقة الكهربية، ولا تسمح باشتراك الجمهور، ومحتواها لا يتغير مطلقاً. كان يفكر: آه! كيف نتمكن من تقديم عرض مطابق تماماً دائماً، يبدأ دائماً فى نفس الساعة وينتهى فى الساعة المحددة! وأن يجلس الجمهور، فى الظلام، فى صمت، كأنه نائم، كأنه يحلم، فى طريقة لتحقيق حلم جمعى! كان ذلك مثله الأعلى. غير أنه فكر: كلا، إنها غاية رائعة أكثر مما ينبغى، لا يمكن أن تتحقق! كان رأى فيلم الكلب وفيلمين آخرين، وبالقوة كان عليه أن يتفق مع المتشائمين. بالفعل، فلا أحد كان يذهب ليشاهد فيلماً ما لم يكن بعده شىء آخر، إن لم يتبع العرض رقص الساردانا أو سباق للأجولة، ما لم يطلقوا بقرة صغيرة لمصارعتها أو ما لم تشوَ على الفحم فى المكان نفسه ريش اللحم. فكر حينئذ: هكذا لن نحقق أى شىء. فى الواقع، ما كان يفكر فيه فكر فيه آخرون فى الوقت نفسه. فى عام ١٩١٢ ولنفس هذا الغرض تم فى إيطاليا تصوير فيلم أريد له أن يكون عرضاً ضخماً. كان عنوان الفيلم "إلى أين؟ *" وطوله ٥٢ بكرة ومدة عرضه ساعتان وربع

---

*بالـلاتينيـة ?Quo vadis، وهى عبارة السيد المسيح الشهيرة حين ظهر للقديس بطرس وهو يفر من روما.

الساعة ولم يتم عرضه فى إسبانيا قط لمبررات فى غاية الغرابة حتى إنها لتستحق بالفعل شيئاً من الإسهاب.

فى عام ١٩٠٦ ظهرت لأول مرة على مسرح منوعات بباريس راقصة نالت فيما بعد شهرة دولية: كانت هولندية وتدعى مارجريتا جرترويدا زيلى، لكنها ادعت أنها كاهنة هندية واتخذت اسم ماتاهارى. وككل راقصات ذلك النوع، كانت تتلقى عروضاً كثيرة، ولكن أياً منها لم يكن فى فرادة ذلك الذى تلقته من أحد السادة فى ليلة من ليالى صيف ١٩٠٧. قال لها وهو يمسد شاربه اللامع: ما أطلبه منك شىء خاص قليلاً، شىء ربما لم يطلبه منك أحد قط. أطلت ماتاهارى برأسها من وراء الساتر الذى تخففت خلفه من ثوبها المصنوع من الأورجانزا والحزام الفضى المرصع بالجمشت والفيروز، وكانا كل ما ترتديه. أجابته بفرنسية مطعمة بنبرة هولندية: لا أدرى إن كان بوسعى أن أكون ساحرة بما يكفيك، يا حبيبى. رفع السيد عدسته إلى عينه اليسرى عندما خرجت هى من وراء الساتر. سبقت زيارته باقة ورد (٧٢ وردة) وعقد من الماس. والآن ترتدى العقد علامة على موافقتها وكيمونو مرسوم على ظهره تنين مشغول من الأسود والذهبى. هكذا جلست إلى مرآة خوان زينتها المستديرة التى رأى على صفحتها أمراء وأصحاب بنوك وقادة عسكريون رأوا انعكاس عيونهم التى جعلها الشبق تتقد مثل جمرات النار. بإيماءة خابية راحت تخلع خواتمها المفترض أنها مقدسة لكونها جزءاً من زينتها الكهنوتية وتضعها فى علبة من خشب الصندل، بعض تلك الخواتم كانت على هيئة جمجمة بشرية. قالت فى دلال: وهذا الذى تنتظره منى، يمكن أن يقال؟ فأجابها: فى أذنك. دنا منها للغاية حتى إن طرف شاربه ترك على خدها ندبة صغيرة. فى عينيه لم تلتمع الرغبة بل برود الحسابات الذهنية. همس: أمثل الحكومة الألمانية وأود أن أعرض عليك أن تصبحى جاسوسة. هذه المحادثة وصلت فى الحال إلى علم جهاز المخابرات الإنجليزى والفرنسى والأمريكى. وسرعان ما جاوزت شهرة ماتاهارى

كجاسوسة صيتها كراقصة، فانهالت عليها العقود من كافة أنحاء العالم وفاق أجرها أجر سارا برنار، وهو ما لم يدر ببال أحد قبل ذلك بأعوام. وكانت الخصومة بين النجمتين أضحوكة باريس كلها وقتاً طويلاً إلى حد أن سارا برنار عندما اضطروا إلى بتر ساقها فى ١٩١٥ يقال إنها صاحت قائلة: أخيراً، بوسعى أن أرقص الآن بملاحة ماتاهارى. قدمت ماتاهارى ذات مرة عرضاً فى برشلونة على خشبة "التياترو ليريكو "ولم تنجح على مستوى النقاد بقدر نجاحها على المستوى الجماهيرى. فى النهاية، قررت مخابرات الحلفاء التخلص منها فنصبوا لها شركاً. مثل ضابط شاب من ضباط أركان الحرب أنه وقع فى شباكها كآخرين كثيرين من قبله وأغرقها بالهدايا وشوهدا معاً فى كل مكان: على متون الخيل فى "بوادى بولونى"، يتناولان الغداء والعشاء فى أفخم المطاعم، فى مقصورة فى الأوبرا، فى مضمار خيل "لونشان"، إلخ. لم تسأله قط كيف بوسعه أن يغطى تكاليف حياة كتلك براتب الضابط المتواضع؛ ربما اعتبرت أن لديه دخلاً إضافياً من ثروة شخصية كبيرة، وربما بادلت حبه الزائف حباً أصيلاً، فعلى هذا النحو وحده يمكن تفسير أن تبتلع طعماً شائعاً كهذا جاسوسة فى خبرتها. فى إحدى الليالى، حينما كانا يرقدان على الفراش الذى تعرض مجرى الحرب إلى شتى التقلبات بين ملاءاته قال لها بغتة إن عليه أن يتغيب أسبوعاً أو أسبوعين. قالت هى: لن أحتمل الحياة دونك، لا تذهب إلى أى مكان. قال لها: الوطن يطالبنى بذلك. ردت هى: وطنك هنا، بين ذراعى. انتهى به الأمر إلى الكشف عن طبيعة المهمة التى تنتزعه تلك اللحظة من عش الحب ذاك: عليه أن يذهب إلى "إنداى". هناك عليه أن يعترض فيلماً يحاول البلغار توصيله إلى يد العملاء الألمان المزروعين فى سان سباستيان. فحين يصل هؤلاء إلى إنداى سيكون هو سبقهم: سيكون قد حصل على الفيلم وسيتم القبض على العملاء وقتلهم على رصيف محطة القطارات. لم يكد ينتهى من حديثه حتى عاجلته بضربة فى رأسه بتمثال شيفا، الإله القاسى،

المبدأ المدمر، فسقط الضابط الشاب على الأرض ووجهه غارق فى دمائه. ظنت ماتاهارى أنها قتلته فارتدت فوق قميص النوم معطفاً "رونار أرجنتيه"، ولبست "كاسكيت"* وحذاء برقبة واستقلت سيارتها الرولزرويس السوداء ذات الأربعة والعشرين حصاناً (وكانت تمتلكها إلى جانب ثلاث سيارات أخرى ودراجة نارية ٢ سلندر). وكان ذلك كله هدايا من شخصيات كبرى فى الحياة العامة فى فرنسا ودول أخرى، من أموال دافعى الضرائب. وما إن خرجت نهض الضابط برشاقة وخفَّ إلى الشرفة ومن هناك أرسل إشارة إلى العملاء المختبئين أمام المنزل. لم يكن ميتاً أو جريحاً حتى، فقد احتاطت المخابرات الفرنسية للأمر وأبدلت كافة الأشياء الثقيلة فى الغرفة بنسخ من الكاوتشوك وأمدت الضابط بعدد من الكبسولات من الحبر الأحمر لاصطناع النزيف. الآن، تشق الرولزرويس السوداء حقول نورماندى الجليدية. كان شريط القطار يمتد بمحاذاة طريق السيارات. عن بعد ميزت عمود دخان رأسياً: كان القطار المتجه إلى "إنداى " بأقصى سرعته. تابع تلك المطاردة من طائرة الضابط الوسيم وثلاثة من عملاء المخابرات الفرنسية. كانت السيارة تسير بسرعة شبه انتحارية وتمكنت من اختصار المسافة إلى أن اقتربت من عربة القطار الأخيرة. كانت الجاسوسة الجسور تقف على عتبة السيارة، كانت مزقت قميص نومها وربطت بقطع القماش عجلة القيادة حتى لا يتغير اتجاه السيارة بشكل مباغت ووضعت حجراً التقطته من حافة الطريق على بدالة السرعة. بقلم أحمر الشفاه كتبت على زجاج السيارة الأمامى: وداعاً أدمون! هكذا يدعى الضابط الذى اعتقدت أنها ضحت به فى سبيل الواجب. قفزت من عتبة السيارة وتشبثت بإحدى يديها بالسياج الفولاذى الذى تنتهى به آخر عربة فى القطار. من هناك شاهدت السيارة الرولزرويس وهى تواصل سيرها المسعور وتخرج عن الطريق ثم تتوقف داخل الحقول. تلك السيارة الرولزرويس التى نجت

*بالفرنسية.

بأعجوبة ولم تصب بأى أذى خلال تلك المغامرة لم تزل مشاهدتها ممكنة فى "متحف الجيش" الصغير فى روان. داخل عربة البضاعة، على ضوء كشاف خافت، جربت العثور على الفيلم الذى كان حدثها عنه. حسبت أنها ستعثر على نيجاتيف طوله شبر أو شبران، قوامه اثنتا عشرة صورة على الأكثر، لكنها عثرت، بدلاً منها، على شرائط فيلم "إلـى أيـن؟" الاثنين والخمسين. حين اقتحم رجال المخابرات عربة البضائع ألفوها محنية ويداها ممزقتان. طيرت الريح التى دخلت من الباب المفتوح قبعتها ونفشت شعرها المجعد: تمكنت من إلقاء عشرين بكرة من الاثنتين والخمسين على شريط القطار وراح الجليد يغطيها. لذا لم يصل هذا الفيلم قط إلى وجهته ولم يعرض على شاشات السينما الإسبانية. كانت الحرب شلت حركة الإنتاج فى كل أوربا ولم تنتج أفلام كذلك الفيلم: حينئذ صار فى يد أونوفرى بوفيلا بعث صناعة السينما لكنه لم يكن يعرف كيف، إلى أن شاء الطالع أن تعبر ديلفينا طريقه من جديد.

(٦)

هطل وابل المطر مجدداً، مصحوباً بصدى بروق بعيدة؛ راح يسوط صفوق النوافذ ويقرع زجاج فتحة السقف التي تغطي فناء المطبخ. هناك، غشى النوم بنات الرجل المشوه الثلاث، متكئات على الحائط الدافئ، متعانقات في حنان؛ فيما يواصل ثلاثة الرجال نقاشهم في القاعة. قال له:

- أنت مجنون!

كان وحده الذي يجرؤ على أن يقول له أشياء كهذه؛ لم يكن يغضب. لامس بأنامله الصور الفوتوغرافية التي كان أخرجها من جيب سترته وبسطها على المنضدة كي يراها محدثاه. قال لهما: يجب أن أوضح لكما أن الصور لا تظهر جمالها. لقد التفت إلى ذلك أنا نفسي في البداية. جعلتها تزيد وزنها عشرين كيلوجراماً لعل مظهرها يتحسن قليلاً، لعلها تتحسن قليلاً في... لا أدري ماذا أقول؟... من حيث حضورها الجسدي، ربما.

نقلها إلى ضيعة أليبا التي أجرها خصيصاً لهذا الغرض، وكانت تلك الضيعة تناسب خططه لأنها محوطة بسياج بالغ الارتفاع والكثافة من أشجار السرو المشذبة. قالت له إنها عانت الكثير. قال لها: ما يلائمك الآن هو أن تستريحي؛ رعيت والدك رحمه الله أعواماً طويلة والآن حانت اللحظة لكي يهتم أحد بك. لم يكن لديها مبررات أخرى تتصدى بها لهذه المبررات. كانت قضت أعواماً طوالاً في السجن ثم عاشت فيما بعد في عزلة مطلقة ترعى بالفعل والدها المعتل الصحة بدنياً وعقلياً. كانت تعودت ألا تتصرف في حياتها ولم تكن تتصور مخرجاً من الطاعة العمياء إلا الموت، ولم يدر بخلدها خيار آخر. حين اصطحبها إلى المنزل كان ينتظرهما هناك سائق سيارة وطاهية وخادم. لم تتعجب لوجود

سائق وعدم وجود سيارة أو لأن الخدم يحتلون غرف طابق السادة فيما خصصت لها غرفة فى الطابق العلوى المعرض لتقلبات الطقس. قال لها: هم أهل ثقة تماماً، لقد أعطيتهم تعليمات، وهم يعرفون ما عليهم أن يفعلوه، ليس عليك أن تنشغلى بشىء، عليك أن تفعلى ما يقولونه لك فحسب. وهى تمكنت من التلفظ بعبارة شكر. وراحت فى داخلها تفكر: لعلنا كالمتزوجين، يبدو أن هذا أقرب شىء إلى الزواج من رجل كهذا.

خلال شهور اقتصرت على توجيه الشكر لمن يتوجه إليها بالحديث. فى الصباح توقظها الخادم وتقدم لها فى الفراش إفطاراً ثقيلاً: عجة سجق خنزير وكافة أنواع السجق، وبوريه البطاطس وخبز توست بالزيت ولتراً حليباً ساخناً. فيما بعد تساعدها فى ارتداء ملابسها وتتركها فى الحديقة جالسة فى كسل فى مقعد وثير من الصفصاف المجدول، فى ظل شجرة "الست المستحية"، وتغطيها بشال من صوف أنجورا لونه أصفر فاقع حتى إنه يجتذب الفراشات والنحل. ثم تتناول غداءها وتنام لتستيقظ والشمس على وشك الغروب، حينئذ يقدمون لها شاياً أو كاكاو وبسكويتاً. فى هذه الساعة تتنزه فى الحديقة يتبعها السائق على مسافة مناسبة. فى البداية، فى أحد الأيام الأولى، حاولت الحديث إلى السائق. سألته: ألم يقل أونوفرى إنه سيأتى لزيارتى؟ نظر إليها السائق من أعلى إلى أسفل قبل أن يرد ثم قال بنبرة معينة: أتقصدين إلى السيد؟ لم يعتد السيد أن يطلعنى على خططه ولا أنا أقول للسيد ما يجب أن يفعله. فكرت هى: وضعنى فى مكانى. شكرته وواصلت نزهتها. فى مرة أخرى شاءت أن تزيح شجر السرو الذى يحيط بالمنزل لترى الشارع لكن السائق دفعها. لكن ذلك لم يشغل بالها بقدر ما شغلته معرفة هل سيزورها أم لا. والحق أنه لم يكن يذهب لزيارتها لأنه كان حبيس غرفة مكتبه يكتب سيناريو الفيلم الذى ستقوم هى ببطولته، وفيما هو يفعل واصل أعوانه تسمين ديلفينا. ليلاً كانوا يدسون لها منوماً كى تنام ساعات طويلة بلا انقطاع. وهى لم تلتفت إلى أنها تفرط فى تناول الطعام ففى السجن

كانت عانت كثيراً من الجوع حتى إنها نسيت الإحساس بالتناسب أو بالاعتدال. فإذا هم قدموا لها الآن قطعة خبز وقليلاً من الجبن القديمة وسمكة رنجة أو قطعة من سمك البقلاه المملح سيبدو لها أمراً طيباً؛ ومآدب الطعام المفرطة التى كانوا يجعلونها تزدردها بدت لها أمراً طيباً كذلك. لم تكن تعى أن فى الدنيا اختيارات وأن فى وسع الأشخاص أن يمارسوها من حين لآخر، فقد ألغيت إرادتها. ربما كان ذلك أيضاً هو مبرر حبها له. فى نهاية الأمر قررت أن تكتب له رسالة، لتقول له فيها ما لم تقدر على قوله فى حضور والدها. حين انتهت من كتابتها سلمتها للخادم برجاء أن تضعها فى صندوق البريد فى أقرب وقت. فى تلك الليلة شرع الخدم فى قراءة الرسالة، ولم يفهموا فحواها. كانوا ثلاثة من الحرامية وكانوا يؤدون المهمة الموكلة إليهم على نحو سئ هو اقصى ما فى وسعهم. فواحد أو اثنان منهم كانا دائماً ثملين إن لم يكونوا الثلاثة معاً. وعلى الرغم من أنهم يمقتون بعضهم بعضاً كانوا دائماً معاً، فلا قدرة لهم على ألا يكونوا فى صحبة. كان السائق يضاجع الطاهية والخادم بالتناوب؛ وأحياناً، حين يفرطون فى الشراب، يضاجعهما معاً. فى مثل هذه الحالات، تتنازعه المرأتان، فتشد أحدهما شعر الأخرى وتخريشها وتعضها فى وحشية. وكان الصياح والجلبة المصاحبان لليالى القصف البهيمية تلك يوقظان ديلفينا؛ وبما أنها تكون بعد تحت تأثير المنوم لا تستعيد إحساسها بما حولها تماماً، حينئذ كانت تظن أنها لم تزل فى السجن حيث كانت توقظها كل ليلة صرخات مرعبة. هناك أيضاً، بعد مرور سنوات، تمكنت من مجاوزة ما كانت تلك الصرخات تسببه لها من كرب فى بداية الأمر إذ أدرجتها مدرج أحلامها، وها هى تلتفت إلى ذلك الآن. كتبت له فى الرسالة التى لم تصل قط يده: "فى تلك الليلة أردت أنا أيضاً أن أصرخ لكننى توقفت. وتلك الصرخة ظلت بداخلى ومازلت أسمعها كل ليلة منذ ذلك الوقت. لا أقول ذلك كى أعاتبك فهى ليست صرخة ألم وحسب بل هى صرخة سعادة بلا حدود.

فهى على أية حال تنتزع منى السلام الذى يمكن للنوم أن يضفيه على حياتى، فأنا لا أنتظر راحة سوى راحة الموت. لكن كلا، كلا، لا أريد أن أظهر شجاعة غائبة عنى، فليس بوسعى أن أكذب عليك، مررت فى حياتى بلحظات صعبة، وأحياناً فكرت فى التمرد على عظمة مصيرى، أى على أننى أحبك. هذا الذى قلته الآن ليس عتاباً كذلك. لأننى فكرت دائماً فى أنك لو لم تكن على ما أنت عليه، لو أنك سلكت مسلكاً آخر، لاختلفت حياتى عما سارت عليه، ولا شىء يمكنه أن يسبب لى أشد الحزن أو أشد الرعب مثل الفكرة التالية: أن تكون لحظة من حياتى بشكل آخر، لأن ذلك يعنى أننى فى تلك اللحظة لم أحبك كما أحببتك. لا أشعر بالغيرة من أحد ولن أستبدل نفسى بأحد، لأن أحداً لن يكون قد أحبك كما أحببتك". عند قراءة هذه الرسالة سقطت قطرات من النبيذ على الورق فقالوا: اللعنة، يا لسوء الأمر، ماذا سيقول السيد أونوفرى إذا رأى هذه البقع؟ ولكى لا ينكشف أمرهم ألقوا بالرسالة فى النار.

قال ماركيز أوت: أنا مضطر إلى الذهاب. نهض بصعوبة فقد تأثرت مفاصله بفعل السهاد والمطر. قال أونوفرى بوفيلا: أليس لديك ما تضيفه؟ نظر الماركيز إلى ساعته وقطب جبينه. ثم فكر فى أن لا شىء يتطلب حضوره فى أى مكان فبسط جبينه. قال وهو يطلق زفرة: إذا كنا وصلنا حتى هنا فبوسعى البقاء حتى النهاية. ابتسم أونوفرى ابتسامة امتنان قائلاً: اجلس وقل لى ماذا يقلقك. لامس الماركيز خديه فوجدهما خشنين ثم قال فى نهاية الأمر:

- هنالك شىء لا أفهمه.

كان يتحدث ويشد الكلمات شيئاً ما، فالأفكار كانت تراوغه أحياناً وحرمه التعب التركيز وهو شىء وعر عليه حتى فى أحسن حالاته. والآن اعترته حالة من الذهول وهو يشاهد صورة ديلفينا: قابلة مبهرجة واقفة أمام خلفية من شجر السرو، تعتمد المظلة، تنظر إلى الفضاء نظرة خالية

من التعبير. ترك الصورة الفوتوغرافية وتلمظ بشفتيه وطرقع بأصابعه في نفس الوقت. قال أونوفرى بصبر:

– لنرَا!

– ما شأنى أنا فى هذا الموضوع؟

ربما لو علم كل رجال الأعمال أنهم إن آجلاً أم عاجلاً سيموتون لشُلّ النشاط الاقتصادى فى العالم. من حسن الطالع لم تكن تلك حالة ماركيز أوت، فالماركيز، الماسونى، الماكر، الخالع العذار، فى قرارة نفسه، متحدث لا يرحم، فكونه بلا رأى تماماً كان له ثقله المهم فى أشد الدوائر رجعية فى القطر. تلك المجموعات الصغيرة، التى قوامها الأرستقراطية وأصحاب الأراضى الزراعية وبعض عناصر الجيش والكنيسة، كانت تمارس على الحياة السياسية للأمة نفوذاً حاسماً على نحو معكوس: لم يكونوا يتدخلون فى شىء إلا لمنع حدوث أى تغيير، إذ يقتصرون على إثبات أنهم موجودون وعلى تحذير الرأى العام مما سيحدث (ودائماً يكون مأسوياً) إذا ما تعكر جمودهم المتطرف. كانوا مثل ليوث نائمة فى حظيرة. فى حقيقة الأمر، لم تكن لهم أية أيديولوجية، وكل محاولة لاستيعاب موقفهم تقابل بعداء، فمعنى ذلك أنها – من وجهة نظرهم – تشكك فى كل ما هو مستقيم، وذلك تحديداً ما يناسب هذا المسلك، أن يكون فجوة فى المنظومة الطبيعية للأشياء. كانوا يقولون: على الآخرين أن يبرروا أفعالهم، أما نحن فلسنا فى حاجة إلى ذلك، لأن الحق معنا. وكل تجديد، مهما اتفق ومصالحهم، يصيبهم بالذعر، وقبوله يبدو لهم كالانتحار. فى هذا الحقل، كل نقاش مع أى واحد منهم يعتبر مستحيلاً. هذا ما كان أونوفرى بوفيلا يعرفه بالتجربة؛ أحياناً، أوعز للماركيز بضرورة إدخال إصلاحات طفيفة فى هذا القطاع أو ذاك بهدف وحيد وهو تجنب تدهور الأمور. إزاء هذه الفكرة كان الماركيز يفقد السيطرة على أعصابه، ويرد: لماذا بحق الشيطان تريد أن تغير العالم يا رجل؟ من تظن نفسك، الله القادر على كل شىء؟ كلا، كلا، أليست الأمور على ما

يرام هكذا؟ أنت ثرى وفى نهاية الأمر مازالت أمامك سنون طويلة، اهتم أنت بأمورك وعلى من يأتى بعدنا أن يغيرا كانت حججه واهية، لكن لم تكن هنالك قوة فى العالم تجبره على أن يتنازل عنها. ومسألة أن تأتى تلك المقترحات الانقلابية من أونوفرى بوفيلا لم تسفر إلا عن تمسكه بمبادئه، فكان يقول له: فى نهاية الأمر، أنت خرجت من العدم، فأنت فلاح سمح له بكسب المال بالقفة، والآن أنت منتش بدخان الثراء وتعتقد أن لك حقاً فى الصوت والتصويت وتريد شمعة فى هذه الجنازة (تطالب بنصيبك فى هذا الأمر)، أليس كذلك؟ كان هذا، من وجهة نظره، أدل على أن عليه من الآن فصاعداً أن يتوخى الحذر فى كل خطوة يخطوها، وأن يكون أكثر دقة. ومما يثير إعجاب أونوفرى بوفيلا وحسده أن يجرؤ الماركيز على التوجه بمثل تلك الوقاحة إلى صديقه الذى لم يرفض قط ضيافته الكريمة والذى يدين له بصنائع كثيرة وبمبالغ باهظة. وهو أيضاً لم يكن يغضب منه، بل يقتصر على الرد بعذوبة قائلاً: لماذا أنتم بهذه الخشونة؟ فأنتم بعدم مرونتكم تسعون إلى تدمير أنفسكم. وكان الماركيز يرد على ذلك بالصياح والحركات كالمجنون، محذراً من أن صبره يكاد ينفد، وأنه إذا استمر الحديث فى هذا الاتجاه سيجد نفسه مضطراً إلى إرسال كفيليه إلى أونوفرى بوفيلا (لتحديد موعد ومكان المبارزة). فى مثل تلك اللحظات لم يكن الماركيز سيتردد فى قتله بلا أدنى اعتبار. وبما أن الماركيز وفريقه يرون أن النظام القائم هو الطبيعى فإن أى خلل هو بالضرورة خارج عن النظام ويجب تصفيته بأية طريقة. فى مثل تلك الحالات يلجأون دائماً إلى مثل العضو الفاسد والرائحة الخبيثة والبتر: استعارة غامضة لا يفهمها لا علماء الاجتماع ولا الجراحون.

قال أونوفرى بوفيلا بنية إشاعة الحيرة فى محدثه، من قبيل العتب وليس لسبب آخر:

- هذا ما قاله لويس السادس عشر حين ذهبوا يطلعونه على ما يجرى فى شوارع باريس.

لكن الماركيز رد عليه فى جلاء بأن جميع الفرنسيين أبناء لأم فاسقة وأن ما قد يلم بهم لا يهمه فى أى شىء. فعاود أونوفرى الهجوم:

- حتى الملك؟

قال الماركيز وهو يقف على قدميه:

- لا، لا، هذا لا. لن يذكر أحد أسرة أورلين بسوء فى حضورى، لو استمر الحديث فى هذا المجرى سأجد نفسى مضطراً إلى إرسال كفيلىَّ إليك. وأنت أدرى بما تفعل.

مع ذلك، سارت الأمور الآن على نحو مغاير، فلم يكن بوسع أحد أن يأخذ ما حدث فى روسيا مأخذ الهزل، ولا فى النمسا والمجر ولا فى ألمانيا نفسها. تغيير عميق وجرئ هو وحده الذى يسمح بأن تستمر الأمور على ما كانت عليه.

قال الماركيز:

- أو يتلخص التغيير العميق والجرئ فى هذا؟ فى عمل أفلام بطولة هذه الفقمة؟

ظل أونوفرى بوفيلا مبتسماً، مصالحاً، فلم يكن مستعداً أن يحكى بعد للماركيز عن الهدف الحقيقى لخططه. قال له:

- ثق بى. وهذا ما أطلبه منك: ألا تخرجوا القوات إلى الشوارع وأن تقنع فريقك بأننى لست مخبولاً ولا أعمل بنية الغدر. أعطونى فترة سماح وسأثبت لكم ما أنا قادر على فعله، ولكن من الحتمى أن يكون هنالك هدوء فى صفوفكم طوال فترة السماح، وإذا حدثت أعمال شغب صغيرة، اتركوا الجماهير تستمتع، واصطنعوا أنكم لم تلتفتوا إليها: كل شىء يدخل فى خطتى.

- لا أستطيع أن ألتزم بكل هذا - قال الماركيز، كان التعب قد حمله على اتخاذ موقف المدافع وكان غريباً عليه.

- ولا أنا أطالبك بأن تفعل، بل بأن تتحدث إليهم فى ذلك وحسب، أستفعل ذلك باسم صداقتنا القديمة؟

- دعني أفكر في الأمر!

لم يكن ممكناً طلب المزيد منه فلم يصر أونوفري. الآن، كان المسرح ممتلئاً بأنصار ماركيز أوت، وهذا وأونوفري وإفرين كاستلز كانوا يراقبون ردود أفعالهم من وراء ساتر المقصورة. قال مارد كاليّا:

- يبدو أن الأمر يسير على ما يرام.

أتى أونوفري بوفيلا بإيماءة حازمة: لم يكن محتملاً أن يسير على نحو آخر - هذا ما قاله لنفسه. مرة أخرى يصدق حدسه. عندما أخذوها إلى استديو السينما لم تقاوم ديلفينا ولم تبد فضولاً، وكان بوسعهم أن يأخذوها إلى أي مكان آخر. استديو السينما ذاك كان أقيم في أرض فضاء تقع بين سان كوجات وسابادل، غير بعيدة عن موقع بنايات جامعة برشلونة المستقلة الحالي. تكلف بناء الاستديو مبالغ باهظة لأن كافة المعدات الفنية تم استيرادها من عدة دول. اشترك في تلك العملية اثنان من كبار رواد صناعة السينما في قطلونيا: فركتووسو جيلابر وسيجوندو دي تشومون؛ مع هذا، رفض كلاهما إخراج الفيلم الذي فكر فيه أونوفري بوفيلا، فقد لاح لهما المشروع جنونياً. في النهاية تم التعاقد مع مصور قديم لا يعمل، رجل من وسط أوربا، أقرع وفج الطباع، يدعى فاوستينو زوكيرمان. كان الاختيار صائباً فقد تواءم هذا الرجل مع المشروع في يسر. كان طاغية مع ديلفينا ولم تكن تمر جلسة تصوير دون أن يدفعها إلى البكاء بمبرر وبدونه. وكان مدمناً للخمر وتباغته نوبات من الغضب لا يمكن التحكم فيها. في تلك الحال، يتركونه وحده ويفرون من جانبه حتى لا يتلقى المرء خبطة بنية الإيذاء، ففي إحدى المرات كسر ثلاث أصابع لخياطة وفتح رأس ساع بعد أن قذفه بكرسي. كان أونوفري بوفيلا يحب المناخ السوقي الذي يخلقه ذلك الشخص وغيره من المشابهين له، فقد كان يدرك أنه ستخرج منه أشد الزهور رقة وأطيبها عطراً. لكن النتائج تأخرت، إذ فشلت المحاولات الأولى. فقد كان التخلف التكنولوجي في هذا الحقل في برشلونة مازال

شـديداً. فـقـد تـأخـر أول فـيلم تم تصـويـره ثلاثة أشـهـر لكى يخـرج من المعامل، فبعد تحميض الشريط وجدوا أنهم لا يستطيعون استخدامه: كانت بعض المشاهد مظلمة وبعض المشاهد ذات ضوء مبهر حتى إنها قد تؤذى عين المشاهد وتظل مطبوعة فى شبكة عينه عدة ساعات: وفى مشاهد أخرى تتقافز بقع معتمة غير محددة الشكل؛ فى بعض المشاهد انقلبت الحركة بلا تفسير، كل شىء يسير على نحو عكسى، فالأشخاص يسيرون إلى الخلف ويملأون كؤوسهم بسوائل يخرجونها من أفواههم، إلخ، وفى أخرى يسير بعض الناس على السقف فيما تسير بقيتهم على الأرض. لم تفت تلك الكارثة فى عضد أونوفرى بوفيلا. أمر بحرق الشرائط التى لا نفع منها واستئناف التصوير، فى تلك اللحظة نفسها أجابوه بأن فاوستينو زوكيرمان لم يكن فى حالة تسمح له بالتصوير، وأنه لا يستطيع أن يقف على قدميه، فرد: فليُخرج وهو جالس. بعد ذلك قلده عدد كبير من المخرجين المشاهير. من أجل التصوير للمرة الثانية اضطروا إلى عمل كل شىء من جديد. لأن ديكورات وملابس التصوير السابق حرقت أيضاً. كان أونوفرى بوفيلا هو الذى أصدر أمراً صريحاً باتخاذ ذلك الإجراء حتى لا يعرف أحد من الخارج ما يحدث داخل الاستديو، فقد كان الحفاظ على ذلك السر أمراً جوهرياً. وتعرض العاملون فى الاستديو لتهديدات رهيبة، فى مقابل ذلك كانت المكافآت مرتفعة للغاية. فى النهاية أبلغوه أن الفيلم الثانى أصبح جاهزاً، فإذا شاء يمكنه مشاهدته فى قاعة عرض بنفس الاستديو. حين سمع ذلك ترك كل ما فى يديه تلك اللحظة واستقل سيارة ذات زجاج معتم حتى هناك. ذلك الفيلم كان نفسه الذى ينتزع الآن دموع أفراد الطبقة الحاكمة المجتمعين فى المسرح بفضل وساطة ماركيز أوت. حين انتهى ذلك العرض الأول، استدعى فاوستينو زوكيرمان. انبعثت من المصور العجوز رائحة لا تحتمل من النبيذ الأحمر والبصل النيئ: بدا نَفَسه صادراً من مركز الأرض.

قال له:

- أهنئك. كل ما أردته موجود هنا؛ فى هذه النظرة يوجد كل شىء: أحلام البشرية ورعبها.

اقتمته عينا فاوستينو زوكيرمان الحمراوان اللتان كانتا تحدجانه بإصرار ثمل بنجاحه. فكر: كلاهما يناسب الآخر، نفس اللهفة ونفس اليأس. بعد قليل هذا الوهج الذى مازال يشرق فى عمق نظراتها سيخبو، سيصبح جمرة أولاً ثم كومة من الرماد البارد، لكن تلك اللحظة الأخيرة ستكون ثبتت إلى الأبد على الشريط.

الفصل السادس

(١)

كان الرجل الذى خرج للقائه قد تجاوز السن التى يكون المظهر فيها انعكاساً لظروف لا علاقة لها بحساب السنين. لم تكن لديه شعرة واحدة برأسه المستدير والذى بلون الطين الداكن، وكانت ملامحه دقيقة ولون عينيه أزرق شديد الصفاء. كان يرتدى سروالاً مخططاً مشدوداً إلى خصره بحبل وقميصاً من الصوف حائل اللون وحذاء من القنب. كان يتكئ فى سيره على عصا ذات عقد ويحمل تحت الحبل الذى يعمل عمل الحزام مطواة كبيرة للغاية حتى إنها بدت غير مخيفة، ويلتصق بكاحليه كلب كبير الرأس ومثير للغثيان له ذنب بالغ القصر وأرجل واهنة، ولا يحول عينيه عن صاحبه الذى يلتفت إليه بعينيه بدوره من حين إلى حين كأنما يطلب موافقته على ما يقول. الآن وضع الرجل قلنسوته على رأسه من جديد واستدبر أونوفرى بوفيلا قائلاً:

– اتبعنى من فضلك يا سيدى من هنا. الطريق وعرة قليلاً، أظن أننى نبهتك إلى ذلك.

سار أونوفرى بوفيلا فى إثر الرجل والكلب. هم السائق الذى أحضره إلى ذلك الفضاء المفتوح فى الغابة باتباعهم لكنه منعه بإيماءة. قال له:

– ابقَ هنا ولا تقلق إذا تأخرت فى العودة.

جلس السائق على عتبة السيارة وترك إلى جانبه قبعته وراح يلف سيجارة فيما يتوغل الرجلان والكلب فى أحد دروب الغابة الذى ما لبثت الأعشاب أن أخفته فى الحال. على الرغم مما يحمله على كاهله من سنين، كان الرجل يتقدم بطلاقة كبيرة بين الشجيرات والحجارة والأعشاب الضارة. فى المقابل، اضطر أونوفرى بوفيلا إلى التوقف كثيراً لأن غصناً من شجرة عليق شبك فى قماش سترته. فى حالات كهذه كان

الرجل يتقهقر ويقص الفرع بمديته ويعتذر ألف مرة لأونوفرى بوفيلا الذى اعتبر ألا نفع يرجى من بذلته.

بلغت صناعة السينما التى كان أنشأها فى ١٩١٨ أوجها بعد ذلك بعامين، فى أواخر ١٩٢٠؛ كانت تلك فترة ازدهاره، ذروة تألقه؛ فيما بعد بدأت الأمور تحيد عن ذلك الطريق. وسط الذهول العام فى عام ١٩٢٣ تنازل لإفرين كاستلز، شريكه منذ البداية، عن نصيبه فى شراكتهما وأعلن أنه منسحب منها ومن كافة أعماله الأخرى. من كانوا يعرفونه جيداً أو - فى غياب من يجرؤ على الزعم بأنه يعرفه جيداً - من كان بينهم وبينه تعامل متصل لم يندهشوا كثيراً لذلك القرار الذى لاحت نذره، فى رأيهم، قبل ذلك مع إعلانه المفاجئ بأنه يفكر فى الانتقال إلى منزل آخر. والآن يتذكرون تلك اللحظة: لم يعتبروا تزامن ذلك مع انطلاق أشد مشروعاته طموحاً محض مصادفة، فقد رأوا فى ذلك اقتناعاً عميقاً، ربما فى اللاوعى، بأن خططه العظمى لابد وأن تبوء بالفشل.

قال الرجل:

- كان هذا مدخل الخدم القديم، أستميح سيدى العذر إذ أتيت به من هنا، لكنه المكان الوحيد الذى يمكن استخدامه، الوحيد الذى يتيح لنا الدخول دون أن نقفز فوق السور.

فى بحثه الدؤوب، كان رأى مئات المنازل، لكن أياً منها لم يوح له بما كان سيجده هنا . فذلك القصر، الكائن فى الجزء الأعلى من بونانوفا، كان ينتمى لأسرة لقبها روسيل وأحياناً روسيلى. تم إنشاؤه فى أواخر القرن الثامن عشر، وإن لم يبق من البناية الأولى إلا القليل بعد أن خضعت إلى أعمال توسعة فى ١٨١٥. وترجع الحديقة إلى ذلك التاريخ أيضاً. كانت مساحة هذه الحديقة، ذات الطراز الرومنطيقى والأسلوب الشاذ فى تنفيذه، حوالى أحد عشر هكتاراً. فى الضلع الجنوبى من الحديقة، إلى يسار المنزل، هنالك بحيرة صناعية يغذيها "مجرى عيون"

على الطراز الرومانى يحمل الماء مباشرة من نهر يوبريجات: وتصرف البحيرة الماء بدورها فى قناة تسير بمحاذاة الحديقة وتمر من أمام المنزل ويمكن الإبحار فيها فى زورق أو مركب صغير مسطح القاع، فى ظل أشجار الصفصاف والكريز والليمون التى تنمو على ضفتيها. وثمة عدة جسور فوق القناة: الجسر الرئيسى، وله ثلاث عيون، وهو مصنوع بالكامل من الحجر، ويصل إلى مدخل المنزل نفسه: والجسر المسمى "جسر النيلوفر"، الأصغر قليلاً من الأول، وله سياج من الرخام الوردى؛ و"جسر ديانا "الذى سمى هكذا لوجود تمثال هذه الإلهة، ومصدره أطلال أمبورياس، يتصدر الجسر؛ و"الجسر المغطى"، وهو من الخشب الهندى؛ و"الجسر اليابانى "الذى إذا أضيف إلى انعكاسه فى الماء يكون دائرة تامة، إلخ. وكانت زرعت فى البحيرة والقناة أسماك شديدة التنوع والجمال، كما جلب من أمريكا الوسطى وحوض الأمزون عدد من الأنواع النادرة من الفراشات التى تمكن من أحضرها، بمجهودات ضخمة وبما أظهره من معارف لم تكن متاحة فى قطلونيا فى ذلك الوقت، أن يجعلها تتأقلم من الطبيعة النباتية والمناخية للإقليم. فيما بعد فى ١٨٣٢، بعد سفرة إلى إيطاليا حيث كان السفر إلى هناك فى أوجه، وحيث كان موطن الأسرة أو محل إقامتها فى عهد هيمنة قطلونيا على صقلية ومملكة نابولى (إذ إن من المحتمل أن يكون لقب الأسرة قد تعرض هناك لذلك العدد من التغيرات المشار إليها) وإلى حيث كان أبناء العائلة المقيمة فى برشلونة يذهبون بصفة دورية كلما حانت ساعة التفكير فى زوجة (ولم يكن ذلك من قبيل النزوة أو الهوى بل من قبيل الرغبة الصريحة أو الاستراتيجية الواضحة أو المتكررة والتى مردها عدم الارتباط بعائلات قطلونية لأن ذلك من وجهة نظرهم سيؤدى إن آجلاً أم عاجلاً إلى تقسيم ثروتهم)، أضيفت إلى الحديقة جبلاية (مغارة) كانت مثار الإعجاب حينئذ، وتنقسم إلى جزئين أو حجرتين، الأولى رحيبة ولها قبة بارتفاع عشرة أمتار وتكوينات مثيرة من الصواعد والهوابط صنعت

بتألق من جص الزخرفة والخزف؛ والثانية، وهى أكثر إبهاراً، وأقل حجماً وعارية من الزخرفة لكنها بجانب البحيرة وتحت مستوى الماء الذى تمكن من هناك رؤية قاعه من خلال حائط صخرى استبدل قطاع منه بزجاج سمكه ٥٠ سم؛ هناك، عندما يسبر ضوء الشمس قاع البحيرة، كانت تمكن مشاهدة الأعشاب والمرجان وأسراب السمك وزوج من السلاحف الضخمة جلب من غينيا الجديدة واستقر فى بيئته الجديدة وعاش، كعادة نوعه، عمراً مديداً، حتى بعد مطلع القرن العشرين، لكنه لم ينجب.

قال الرجل:

- كان أبى صياداً فى خدمة أسرة روسل: فيما بعد، حين فقد السمع، انتقل إلى وظيفة حارس غابة. ويمكن القول يا سيدى إننى ولدت فى خدمة أسرة روسل.

إلى جانب تلك الروائع، كان بالحديقة منعطفات وأجنحة ومقاصير ومعابد وصوبات زجاجية، وطرق سرية ذات تصميم غامض عن قصد، يمكن لمن يتنزه بها أن يسير على غير هدى ولكن بلا خوف وأن يعثر فى منعطفاتها بتمثال للإمبراطور أغسطس راكباً أو بملامح سينيكا أو كوينتيليانو الجادة كل على قاعدة تمثاله، وأن يسمع من بين ثنايا أسيجتها صدى أحاديث خفية، ولقاءات غرامية مباغتة وقبلات حارة مراقبة فى ضوء القمر. وفى المروج الممتدة فى سبع شرفات مدرجة حتى سفح الجبل كانت ترعى أزواج من الطواويس والكراكى المصرية.

- لكن أول عمل لى على ما أذكر هو خادم للآنسة كلارابيّا، وأنا فى السادسة من عمرى. فى ذلك الوقت كانت الآنسة كلارابيّا فى الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمرها، إن لم تخننى الذاكرة. وعلى الرغم من أنها تتقن عدة لغات كانت تتحدث إلى الخدم بالإيطالية، ولم نكن نفهم قط الأوامر التى تمليها علينا. فيما عدا ذلك، لم تكن وظيفتى تنطوى على أية صعوبة، كنت المسؤول عن إخراج سبعة كلاب "حجر"

كانت لديها. سبعة كلاب من سلالات أصيلة يا سيدى، كل مختلف عن الآخر، كان يجب أن تراها.

كان المنزل من ثلاثة طوابق، كل منها مساحته ألف ومائتا متر مربع؛ وكانت بالواجهة الرئيسية، المتجهة إلى الجنوب الشرقى، لتطل على برشلونة، إحدى عشرة شرفة فى كل واحد من الطابقين العلويين، وعشر نوافذ والباب الرئيسى فى الطابق الأرضى. وفيما بين الشرفات والنوافذ وكوات الضوء والزجاج المعشق والشرفات العلوية والأبواب، استخدمت ألفان وست قطع زجاج مما جعل مهمة تنظيفها عملاً متصلاً. والآن، تحطم ذلك الزجاج ودمر داخل المنزل وتحولت الحديقة إلى غابة. وهدمت الجسور وجفت البحيرة وأصبحت الجبلاية طللاً، والكائنات الحية النادرة كلها التهمتها الهوام والجرذان التى تسود الآن الضيعة؛ والزوارق والعربات صارت كومة من الخشب المتشقق فى حظائر بلا أبواب، وأما شعار أسرة روسل فلا يعدو الآن كونه بروزاً طفيفاً على إفريز البوابة الرئيسية، بعد أن تآكل وغطته الطحالب. قال أونوفرى بوفيلا:

- احكِ لى ما حدث.

كانا عبرا بشىء من الخطر الجسر وبلغا باب المدخل. على أسد حجرى بلا رأس وبلا ذنب جلس الرجل. استلقى الكلب عند قدميه. استند الرجل بذقنه ويديه المتقاطعتين إلى عصاه وتنهد. أدرك أونوفرى بوفيلا أنه سيستمع إلى حكاية أخرى طويلة وغريبة.

بدأ الرجل قائلاً:

- على الرغم من أن عائلة روسل حافظت على تقليد عدم الزواج من قطلونيا، كما هو معروف يا سيدى، وعدم مصاهرة مواطنيها، مما أثار أحقاداً كان مسألة أن نولد على نفس الأرض وتحت نفس الشمس تعطى البعض الحق فى التحكم فى حياة الآخرين الخاصة أو حتى العاطفية أو الحكم عليها، على الرغم من ذلك، كما أقول لك يا سيدى، لم تكن

منزوية أو تزدرى الناس بل على العكس من ذلك تماماً. لذا لم يكن يمر يوم دون أن أعثر بزائر عند غروب الشمس، عند عودتى بعد قضاء الساعتين الإجباريتين فى التنزه مع الكلاب، كما أمرونى، حتى فى شهور الحر، فى المرج الذى كان هناك يا سيدى، الذى كان أول ما يستقبل ظل أشجار الحور هذه، الأعلى الآن كثيراً عنها حينئذ بالطبع، فقد مرت سنون طوال منذ ذلك الحين، يا سيدى، حتى إن الشجر الذى شاهد نزهاتى حينئذ، ذلك الشجر نفسه الشاهد على أحلام طفولتى مات هو أيضاً.

كان يستخدم جملاً طويلة قليلاً، كأنما يشق عليه أن يتذكر أو يحكى لغريب ما يتذكره؛ ففى بعض اللحظات يصمت، أو يشرد، فيحمر وجهه كتلميذ وتكتسى بشرته، الضاربة إلى الحمرة أساساً، لوناً داكناً، شبه نيلى. وبعد أن تمر تلك اللحظة العصيبة، يهز رأسه ويطلق يداً من فوق مقبض عصاه الذى كان يقبض عليه بقوة ليشير إلى تلك الحقول البرية كأنما بتعويذة ذاكرته ستتحول هذه الحقول إلى المراعى المشذبة فى زمن آخر، ويعتقد أنه يرى الناس سائرين والعربات وهى تمر.

واصل حديثه:

- حينئذ، كان يصعب على أن أوقف الكلاب وهى تجذبنى من إساراتها عابثة ومتحمسة. ولم يكن غريباً أن تتغلب فى النهاية على مقاومتى، وعلى الرغم من صغر حجمها - أنا أيضاً كنت صغيراً وقليل الخبرة - كانت تجررنى على العشب وهى تنبح وتتقافز فيما أبكى أنا متعةً للزائر الذى يمر فى تلك اللحظة ويشاهد ذلك المشهد البهيج قبل أن تواجه عربته الجسر ويفتح الباب الرئيسى على مصراعيه لتدخل الضيعة.

ترك الرجل وحديثه ودخل الدهليز. كان الضوء يدخل ساطعاً من النوافذ التى بلا صفوق أو ستائر. أوراق شجر يابسة غطت الأرضية. بعض أشياء لا رابط بينها وعارضة بقيت بعد عمليات السلب: كرة ملونة،

قارورة من البرونز، كرسى، إلخ. غياب الآخرين كان جلياً ومؤلماً: كم من الأشياء يتطلبها تجهيز منزل؟ بعض هذه الأشياء مكون من أجزاء عديدة يحتاج تركيبها إلى عناية كبيرة. فإذا ترجمنا ذلك إلى ساعات عمل فإن ذلك القصر يفترض تكريس عدد من الحيوات بأكملها، ويحول هدمه هذه الحيوات إلى استثمار باطل، تبذير - هكذا فكر بعقلية رجل المال. أخرجه صوت الرجل من هذه الأفكار، وكان لحق به فى صمت: والآن يكمل حكايته بعد أن نبه إلى ذلك:

- والحفلات، يا سيدى! وأعياد القديسين والمآدب!

بطرف العصا أبعد أوراق الشجر وكشف عن قدم وبداية ربلة ساق نسائية فى الفسيفساء. لو واصل التنظيف لكشف يقيناً عن مشهد أسطورى برحابة البهو بأكمله لكن ذلك يحتاج عدة ساعات من العمل. تخلى عن الفكرة واستأنف وصفه المفصل للحفلات والسهرات فيما يجتازان قاعات وصالونات. قال إنه، كما هو مفترض، لم يكن مسموحاً له بحضور تلك الحفلات الليلية عامة، ولكنه كان يهرب من غرفته بقميص نومه وحافياً، رغم الطل، ويختبئ فى أى مكان ينعم فيه بالرؤية دون أن يراه أحد. وكان يسهل عليه الهرب بسبب الهرج والمرج الذى تثيره الحفلات، ففى هذه الحالات يكون كل الخدم فى غاية الانشغال ولا أحد يلتفت إلى طفل صغير مثله. عشش السمام فى السقف الخشبى لصالون المرايا وركضت الجرذان داخل النقوش الخشبية. بدا ذلك المشهد كأنه يزيد أحزانه. صمت وهلة وحين عاود الحديث فعل ذلك مسرعاً كأنما يود إنهاء تلك الزيارة فى أقصر وقت فقد بات جلياً أنها تؤلمه، ربما لأنه فى رفقة غريب لأول مرة منذ زمن طويل. قال:

- فى أحد أيام الصيف، فى يوم رهيب من أيام الصيف، لدى عودتى من نزهتى المسائية مع الكلاب، وجدت المنزل وقد تحول إلى دوامة ووجدت الناس هناك مذهولين ومتحيرين، مما جعلنى أفكر، لأول وهلة، أنهم يحضرون لحفلة جديدة كبيرة، غير أن ذلك لم يكن محتملاً لأننا

أقمنا حفلتين كبريين قبل وقت قصير وهما عيد القديس يوحنا وزيارة فرقة سان كارلو المسرحية القادمة من نابولى، التى دعاها السيد روسل، مستغلاً عطلتها الصيفية، لتقدم لأسرته وأصدقائه عرض "زواج فيجارو "للسيد موزار، وهو ما تطلب أداء مجهود ضخم، نظراً إلى ما تحتم من تسكين والقيام على راحة المغنين والكورال والأوركسترا وبقية العاملين فى المسرح، أى أربعمائة شخص، فضلاً عن الآلات والملابس، والتى من بعدها لاح أننا لن نقيم مثل ذلك الصخب العظيم إلا بعد مضى موسم طويل، ولكن يبدو أن الأمر لم يكن كذلك، فهأنذا، لا أصدق عينى، وسط كتيبة من البنائين والنجارين وعمال الزخرفة والنقاشين، أى المطلوب والضرورى، فى نهاية الأمر، لبدء التحضير لحفل من الحفلات الكبرى. أثارنى ذلك العرض غير المتوقع فركضت إلى داخل المنزل تتبعنى كلابى السبعة بحثاً عن أى شخص يخبرنى ماذا يحدث أو ماذا سيحدث فعثرت بواحدة من المسؤولات عن خزينة الأطعمة أعتقد أننى تربطنى بها صلة رحم، فلم يكن غريباً الزواج بين الخدم العاملين فى منزل واحد، مما كان يخلق مواقف شديدة الغرابة، كأن تكون خالتى غير الشقيقة ابنة عمتى أو أن يكون خالى، فى الوقت نفسه، هو ابن أخى، إلخ. على هامش ذلك، لأنه خارج موضوعنا، أقول إن هذه المرأة التى كانت تربطنى بها صلة رحم ما، والتى من المحتمل أن تكون، كما أفكر الآن، من المحتمل أن تكون أمى، ذلك لأن أبى، فى المرات النادرة التى كان يغادر فيها الغابة، كان يواقعها، ذلك بالطبع لا يثبت شيئاً، أقول، فى النهاية، إنها كانت تنتف ريش تدرج انتهت من توها من قطع رأسه بمضاء بفأس صغيرة كانت لا تزال فى حجرها، فى حجر المرأة التى من المحتمل أن تكون أمى، وحكت لى أنه فى ذلك المساء نفسه، حضر فارس يلتف فى عباءة ويرتدى قبعة مثلثة من اللباد غير مألوفة فى ذلك الوقت، وقفز من صهوة جواده قبل أن يتوقف عن ركضه الجامح، دون أن يشغل باله بربط الجواد أو تسليمه للسائس الذى أثار وقع سنابك الجواد على الجسر

قلقه فخفف لمساعدته، لكن الحصان اغتنم الفرصة ليغوص فى القناة، وهمس لرئيس الخدم بكلمة السر التى فتحت له فى الحال أبواب المنزل وأتاحت له اللقاء العاجل بالسيد روسل الذى أيقظوه من قيلولته بلا أية اعتبارات فى تلك المناسبة التى أعطى أوامره بعدها بالاستعداد لإقامة حفل راقص كبير فى تلك الليلة نفسها (فى نفس الليلة!) على شــرف صيف كبير لم يكشف عن اسمه للخدم. رحل الرسول فى الحال وفى إثره رسل يحملون الدعوات صياحاً – هذا ما قالته المرأة التى من المحتمل أن تكون أمى. "لكن من سيحضر؟"، سألتها بفضول سنى الصغيرة الذى لا يشبع. فقالت ماما إنها لا تستطيع أن تخبرنى، لأنه سر، وإنها وإن قالت اسمه فلن يخرجنى من شكوكى، لأن ذلك الاسم الذى سمعته هى نفسها بالتصنت خلف الأبواب وبالتقاط مقاطعه التى جلبتها الريح كان غريباً تماماً على، كما قالت، لكننى رحت ألح عليها بحق مشاعر الأم، فى حالة وجود صلة حقيقية تبررها أو وجود هذه المشاعر لديها، فوافقت فى نهاية الأمر على أن تخبرنى بأن الشخص الذى تجرى الاستعدادات على شرفه لم يكن إلا الدوق أرتشيبالدو ماريا، الذى تساند أسرة روسل طموحاته إلى عرش إسبانيا منذ أعوام طويلة.

لم تصل الطابق الأول أوراق شجر كثيرة: هناك، كانت القذارة أشد، فلاحت صادرة من الأشياء نفسها. فكر أونوفرى بوفيلا: كيف يمكن أن تتراكم هذه القذارة كلها! لا أدرى ماذا سيحدث لو أن كل الناس أو كل الناس تقريباً تخلوا عن التنظيف قليلاً كل يوم ذلك الجزء من الكوكب الذى يحتلونه! ربما كان هذا بالفعل هو مصير الإنسانية، ربما وضع الله الإنسان على الأرض لكى يحافظ على نظافتها وشكلها، وربما لهذا السبب يكون ما عدا ذلك باطلاً.

أضاف الرجل:

– لم يكن اختيار المرشح للعرش من ثمار الهوى أو ميلاً قليل الشأن من قبيل تفضيل مصارع ثيران على آخر كما يحدث الآن، بل كان موقفاً

سياسياً ملتزماً. له عواقبه الوخيمة إذا جاءت الحروب الأهلية لهذه الأسباب بنتائج عكسية.

ثم بعد فترة صمت:

- حسن، ذلك المرشح للعرض، ذلك الذى تم الإعلان عن زيارته لنا، كان التزم فى وثيقة لا تفسير لها، مزيج من الطرح الايديولوجى والخطاب العسكرى والبرنامج السياسى، تسمى دون أن أدرك السبب "مرسوماً"، صدرت فى مونبلييه، بمنح قطلونيا استقلالاً محدوداً أو شيئاً من هذا القبيل، نظام حكم يبدو منسوخاً من ذلك الذى كان ولايزال يربط الهند بالتاج البريطانى. فى سبيل ذلك الوعد المبهم وضعت أسرة روسل حياتها وثروتها على المائدة. والآن ههو المرشح يعلن فجأة عن زيارته ليضع المنزل أمام خيار صعب، فمن ناحية، يجب تكريم الضيف طبقاً لما تتطلبه حضرته الملكية أو المحتملة؛ ومن أخرى، لابد من المحافظة على السرية التامة التى تجرى فيها الزيارة بأى شكل وخاصة أن السلطة القائمة والجماعات المنافسة له اتفقت على المطالبة برأسه، تلك الصعوبات وضيق الوقت كانت تحدياً لخيال ورقى وخبرة الأسرة.

الآن، الأرضية مغطاة بقطع متناثرة من الخزف تصر تحت أقدام الرجلين. التقط قطعة وقربها من عينيه فأدرك أن جميع القطع كانت أطقماً ماركة سيفر أوليموج قوام كل ليس أقل من مائتى قطعة دون حساب أطباق الحساء والسلطة والفاكهة والسلطانيات. سأل: إذا كانت قاعة الطعام فى الطابق الأرضى كيف وصلت إلى هنا هذه الأطباق؟ وكان سيسأل كذلك، لو أنه عثر على من يجيبه،: من حطمها؟ تائهاً فى ذكرياته، لم يجبه الرحل. قال:

- حين رأيناه أدركنا أن ذلك الرجل لم يكن فى وسعه سوى جلب المصائب إلى هذا المنزل. كان الدوق أرتشيبالدو ماريا يبلغ من العمر أربعين أو خمسة وأربعين عاماً ويعيش دائماً فى المنفى. تلك الحياة الخفية والمرتحلة جعلت منه رجلاً خليعاً ولا أخلاقياً. لدى عبور الجسر

سقط عن الجواد من جراء حالة السكر التى كان عليها. لا أعتقد أنه لاحظ حتى الزوارق التى كانت تشق القناة وفيها الخدم يرفعون إلى أعلى الشمعدانات والشموع لعمل دائرة ضوء متحركة. قفز ياوره، شخص لقبه "فليتان"، له هيئة غجرى، قفز من سرجه بخفة لاعب سيرك وساعد الدوق على النهوض وجره جراً حتى سياج الجسر فانكفأ بصدره عليه وتقيأ صاحب السمو فيما جثت الآنسة كلارابيّا، طبقاً لما تلقته من تعليمات والدها وللإيماءات التى ظلت تتدرب عليها طيلة المساء تحت إشراف معلم الرقص، على ركبتيها فى أجمل تحية احترام وقدمت له على وسادة صغيرة من الحرير المنقوش على هيئة شطرنج نسخة من مفتاح المنزل من الذهب الخالص أو من معدن آخر مذهب وزنبقة بيضاء... لا أدرى هل قلت لك، يا سيدى، إنها كانت ليلة صيف قائظة، ليلة رهيبة. لم يكن الدوق حلق ذقنه لعدة أيام أو استحم لعدة شهور، وانطلقت من ملابسه رائحة حريفة، وتدلى من منخاريه مخاط كثيف وحين يضحك، على نحو لم يكن مبتهجاً بقدر كونه وحشياً، كان يكشف عن أسنان حادة ومتآكلة. لم تعرف أية عائلة ملكية أسوأ منه ممثلاً لها. عاير بإيماءة رضا وزن المفتاح ثم أعطاه لياوره وأسقط الزنبقة على الأرض وقرص خد الآنسة كلارابيّا التى احمرت خجلاً فى الحال وكررت التحية آلياً ثم استدارت وركضت لتختبئ خلف والدتها.

صعدا إلى الطابق الثانى عن طريق سلم لم يبق من سياجه سوى بعض الألواح الخشبية المتشققة البارزة من درجات السلم بشكل رأسى. حين وصلا إلى أعلى، استدار الرجل، الذى كان حتى تلك اللحظة يتجول فى المنزل بتثاقل ويجر قدميه ويتحرك فى كسل فى كل حجرة، استدار ووقف فى مواجهة أونوفرى بوفيلا كأنه يقطع عليه الطريق. راح يشرح بلا مبرر، فحتى تلك اللحظة لم يكن شرح أى شىء عن توزيع غرف المنزل:

– هنا كانت غرف النوم بالمنزل، أعنى غرف نوم السادة – أضاف فى

الحال كأنما وقع فى خطأ - أما الخدم فقد كان ينام أعلى، فى السطح بالطبع، وكان أشد أجزاء المنزل قيظاً فى الصيف، وأشدها برودة شتاءً، لكن، فى مقابل تلك المضايقات التى لا تذكر، كان يتمتع بأفضل منظر على الضيعة بأكملها. هناك، كنت أنام أنا أيضاً. كانت غرفتى منفصلة عن الغرف الأخرى... ولا أقول ذلك لأعطى لنفسى أهمية، فى الواقع كنت أنام مع كلاب الآنسة كلاريّا السبعة، لكن أحداً من الخدم لم يكن يشاطرنى الغرفة كما كانت العادة، مما كان يقينى من المزاح والجلد والعلاقات الشاذة، ليس تماماً، بالطبع، لكننى كنت فى مأمن أغلب الأيام؛ وبوسعى أن أقول إننى طوال حياتى هنا لم أتعرض إلى المزاح والجلد واللواطة إلا مرة فى الأسبوع تقريباً، وهذا ما لا يحلم به آخرون فى ظروفى. أما بقية الوقت فقد كانوا يتركوننى لحالى. حينئذ اعتدت الجلوس على إفريز الشرفة وقدماى تتدليان للخارج لأشاهد النجوم؛ فى أحايين أخرى، أنظر إلى اليسار، إلى برشلونة، بأمل رؤية أى حريق وإلا فإن المدينة تلبث قابعة فى ظلام دامس إذ كان من المحال التكهن من مرصدى بوجود أية مدينة مزدحمة. فيما بعد، دخل الضوء الكهربى وتبدلت الأشياء لكن أحداً لم يعد يسكن هذا المنزل. تعال يا سيدى - قال على نحو مفاجئ وهو يجذب أونوفرى من كمه - لنصعد إلى السطح وسأريك أين كانت غرفتى، تلك التى أحدثك عنها ولنترك هذه الغرف التى ليس لها أقل أهمية، صدقنى.

كان سقف السطح قد تهاوى فى أكثر من موضع، ومن هناك ترى السماء. ومن خلال الفتحات تخرج وتدخل فى خط زجزاجى الخفافيش التى تقطن السطح، بعضها يحلق وبعضها ينام متدلياً من عروق الخشب ورأسه إلى أسفل. على الأرض تركض فئران كبيرة الحجم، جلدها متيبس كالشوك، بوسعها أن تواجه قطاً بل وأن تقضى عليه. أخذ الرجل كلبه بين ذراعيه من قبيل الاحتياط. واصل حديثه كأنه لم يقطعه فى أية لحظة:

– فى تلك الليلة لم أنم، وتناهت إلى حجرتى موسيقى الجوقة الموسيقية التى تحى الحفل الراقص. كنت أنظر من النافذة كما اعتدت. أسفل، على الجانب الآخر من الجسر، فى الأرض الفسيحة الممتدة هناك، كان بوسعى رؤية العربات التى حضر فيها المدعوون من النخبة، فى الضوء الخابى للألوف المؤلفة من النجوم التى تزين سماء تلك الليلة الرهيبة يا سيدى، وكلهم من أعتى أنصار الدوق، فهذا من نافلة القول، وفيما وراء ذلك، على سفوح الجبل، عدد لا نهائى من الأنوار راح يتحرك فى بطء، كسرب من اليراعات الكسول، على أنها لم تكن يراعات بل الكشافات التى تستخدمها فى الإنارة قوات الجنرال إسبارتيرو الذى وصلته وشاية من خائن بحضور الدوق فأعطى أوامره بمحاصرة الضيعة. ومن سخرية القدر ألا يفطن أحد لهذه الخدعة سواى أنا، الطفل البرئ، الذى كيف له بسنواته الست أن يدرك قواعد الخيانة والحرب؟ أمهلنى ألتقط أنفاسى يا سيدى وفى الحال أستأنف حكايتى.

فعل ما قال ومسح عينيه بمنديل كبير منقوش. بعد ذلك، وبلا ومقدمات، مسح عينى كلبه الذى ابتعد برأسه، ثم وضع منديله فى جيبه وقال:

– كنت أستمع إلى الموسيقى وحين غلبنى النعاس عدت إلى غرفتى. لا أذكر كم كانت الساعة حين استيقظت مذعوراً. كانت الكلاب التى تنام معى استيقظت قبلى وراحت تذرع الغرفة فى قلق، وتخريش الأبواب وتعض الحصيرة التى تغطى الأرضية وتئن كأنما تشم فى الهواء رائحة خطر غير محدد. فى الخارج، كان الظلام حالكاً. نظرت من النافذة ولاحظت أن العربات رحلت وأن الأنوار التى كانت من قبل تسلينى انطفأت. أشعلت شمعة وخرجت إلى الممر بقميص نومى وحافياً وأغلقت غرفتى على الكلاب حتى لا تهرب وتركض فى أنحاء المنزل الذى لاح نائماً. على هذا الدرج نفسه نزلت يا سيدى إلى الطابق الثانى، ولا أدرى لم ذهبت إلى هناك. بغتة أمسكت يد بذراعى وأخرى سدت فمى

لتمنعنى من الهرب أو طلب العون. سقطت الشمعة منى على الأرض فالتقطها شخص فى الحال. بعد أن تمالكت نفسى من الرعب رأيت أن من يكبلنى لم يكن سوى الدوق أرتشيبالدو ماريا وأن من التقط الشمعة التى تضئ الآن وجهه الشيطانى كان فليتان البربرى الذى يمسك خنجراً بأسنانه، مما أصابنى ببالغ الحيرة. سمعت الدوق يهمس فى أذنى ويلفح وجهى بنَفَسه اللزج والمشبع بالكحول حتى إننى خفت أن يغشى على: لا تخف، أتدرى من أنا؟ فرددت عليه بهز رأسى هزة خفيفة. نال ذلك الرد رضاه: إذا كنت تعلم من أنا عليك إذن أن تطيعنى فى كل شىء. فلما أومأت بالإيجاب سألنى هل أعرف طريق مخدع الآنسة كلارابيّا. أثار ردى الإيجابى فى الرجلين تبادلاً سريعاً للنظرات والابتسامات لم أفهم منه أى شىء. قال الدوق: خذنى إذن إلى هناك دون مضيعة للوقت لأن الآنسة كلارابيّا تنتظرنى. ثم أضاف بعد وهلة بكلمات مصحوبة بقهقهة وقحة احتفى بها ياوره: علىَّ أن أبلغها رسالة. أطعته بالطبع، وأمام باب مخدعها أعادا لى الشمعة وأمرانى بالعودة فى الحال إلى غرفتى. حذرنى الدوق: نم فى الحال ولا تحك لأحد ما حدث وإلا سأقول لفليتان أن يقطع لسانك. عدت إلى غرفتى بأقصى سرعة دون أن ألتفت ورائى مرة واحدة. توقفت أمام باب حجرتى، فقد خلف ذلك اللقاء فى نفسى قلقاً لم أجد له تفسيراً. فى نهاية ممر السطح، حيث كنت واقفاً، كانت ترقد المرأة المسؤولة عن خزانة الطعام التى قد تكون وقد لا تكون أمى. تسللت إلى غرفتها التى كانت تتقاسمها مع خادمات أخريات، كما ذكرت لك من قبل، واقتربت من فراشها وهززتها. وهى فتحت عينيها ونظرت إلىّ غاضبة وقالت: ماذا تفعل هنا بحق الشياطين، أيها الأبله البائس؟! قالت ذلك من بين أسنانها، وأنا خفت ألا تكون على أية حال أمى، فى تلك الحالة لم يكن منتظراً سوى أن أتلقى علقة ساخنة. لكننى أجبتها: أنا خائف يا ماما. فقالت هى بعد أن تخلت عن سلوكها الغاضب: حسن، ابقَ هنا إن شئت، لكن ليس فى فراشى، ألا ترى أن هنالك الليلة من

يرافقنى؟ أردفت وهى ترفع سبابتها إلى شفتيها وتشير بعد ذلك إلى رجل علا شخيره إلى جانبها ولم يكن بهدة المناسبة أبى، حارس الغابة، وهو ما لا يثبت شيئاً كذلك، بالطبع، وإزاء ذلك الوضع تمددت على الحصيرة، بجانب الفراش، ورحت أعد المباول التى كنت أراها من مرقدى. صحوت مرة أخرى بعنف، كانت أمى تهزنى. وكانت كل الخادمات وكل الرجال الذين كانوا فى الغرفة لأسباب لا أحد يعلمها يركضون من هنا إلى هناك بحثاً عن ملابسهم فى الضوء الضعيف الصادر من كوة فى السقف. سألت ماذا هنالك فعاجلتنى أمى بلطمة كانت التفسير الوحيد الذى تلقيته. قالت: لا تسأل كثيراً، لنذهب بسرعة. وضعت فوق قميص نومها منديلاً وهكذا خرجت من الغرفة تسحبنى سحباً. صرت السلالم وتقوست بنزول الخدم المتسارع عليها لكى يتجمعوا فى القبو. هناك، ألفينا السيد والسيدة روسل. كان لا يزال يرتدى بذلة السهرة أو ربما عاود ارتدائها وأحاط بذراعه اليسرى كتفى السيدة روسل كأنه يحميها، وكانت تبكى على صدره. كانت ترتدى روباً من القطيفة الزرقاء. عندما مررت من جانبه سمعت السيد يهمس: مسكينة قطلونيا*. نظرت فى كل اتجاه أبحث عن الآنسة كلارابيّا وسط ذلك الفرار المذعور، لكن قصر قامتى الملحوظ حال دون ذلك. سمعت أيضاً ممن كانوا يحوطوننى أن قوات الجنرال إسبارتيرو عبرت الجسر ولن تتأخر فى اقتحام بوابة الدخول. سمعت طرقات عنيفة فى الطابق الأرضى كأنها تؤكد الخبر، فوق رؤوسنا تحديداً. وأنا خبأت رأسى فى غابة السيقات التى تلفنى. قال السيد روسل بصوت هادئ: أسرعوا، أسرعوا، لا تتباطؤا وإلا قضى علينا. جعلنا ندخل جميعاً فى مخزن حيث رأيتهم دائماً يحفظون اللوبيا والعدس والحمص فى براميل خشبية فاتحة اللون وذات أطر حديدية. لم يكن بوسعى أن أتمالك نفسى من الذعر، فلم أكن أتخيل أن يسع مكان ضيق كذاك كل هؤلاء الناس. لكننى

[1] بالقطلونية.

حين دنوت منه أكثر فهمت ما يجرى: فى أرضية المخزن كان هنالك بالفعل فتحة تغطيها البراميل عامة بيد أنها كانت مفتوحة فى تلك اللحظة ويدلف منها كل من يدخل المخزن. كانت تلك الفتحة تؤدى إلى سرداب سرى لم يكن يعرفه سوى أصحاب الضيعة ويمكن الفرار عبره إذا حوصرت الضيعة بلا منفذ كما كانت حالتها حينئذ. أشارت أمى إلىّ بيدها كأنما تقول لى: لا تتخلف عنهم، هيا، اجر. وأنا يا سيدى كنت سأتبعها لولا أننى تذكرت فجأة الكلاب السبعة المحبوسة فى غرفتى منذ ساعات حين خرجت فى أول استكشاف انتهى بلقاء الدوق. كان على أن أذهب لإحضارها وإلا غضبت الآنسة كلارابيّا. دون أن أفكر فى الأمر مرتين، استدرت وصعدت جرياً الطوابق الأربعة الفاصلة بين القبو السطح.

أطل أونوفرى بوفيلا من النافذة ونظر إلى أسفل. تحت الشجيرات وجذوع الشجر حدود الضيعة، فالآن تمتد كتلة خضراء من أسفل الضيعة وحتى حدود المدينة. هناك، ترى بوضوح حدود القرى التى التهمتها المدينة: ثم "التوسعة " بأشجارها وطرقها ومنازلها المترفة، وخلفها المدينة القديمة التى لايزال يتماهى معها رغم مرور السنين. وأخيراً رأى البحر. على جانبى المدينة، أطلقت مداخن مصانع المنطقة الصناعية دخانها فى سماء المساء القاتمة. فى الشوارع، بدأت تضئ المصابيح على إيقاع مشعلى مصابيح الشارع الهادئ. قال بجفاف متوجهاً إلى الرجل بنظرة حازمة من فوق كتفه:

– لا تهمنى بقية الحكاية. سأشترى المنزل.

(٢)

من قبيل المصادفة المحضة أو من قبيل التناغم المتعمد، اتفق انهيار إمبراطورية أونوفرى بوفيلا السينمائية وانتهاؤه من إعادة بناء القصر الذى اشتراه. بإصرار لا ينضب معينه ودون أن يلقى بالاً إلى الوقت أو الطاقة أو النفقات، أمر بهدم داخل المنزل وإعادة كل شىء إلى مكانه أو إلى الوضع الذى كان عليه فرضاً. من أجل ذلك لم يكن لديه لا وصف للمنزل ولا رسومات ولا شىء آخر يرشده إلا ما يمليه المنطق والذاكرة المشوشة للرجل صاحب الكلب. وبصبر لا ينفد استمع إلى آراء المعماريين، وعلماء التاريخ ومهندسى الديكور والنجارين والفنانين والهواة والمتشدقين الذين كانوا يذهبون إليه بهدف حل المشاكل المحددة التى كانت تطرأ بلا توقف، وحول كل مسألة يصدرون أحكاماً متناقضة. بعد سماع تلك الفتاوى، التى كان يدفع مقابلاً رائعاً لها، كان يتخذ القرار الذى يراه الأمثل دون أن يطلق العنان لما يفضله هو. هكذا راح يرى كيف يبعث المنزل والحديقة تدريجياً، والاصطبلات والحظائر والبحيرة والقناة والجسور والأجنحة وأحواض الزهور والبستان. داخل المنزل، جرت عمليات ترميم الأسقف والأرضيات كلما سمح بذلك ما تبقى منها أو كانت تخترع فى الحالات الذى تدخل فيها الزمن فى عمل الإنسان حتى غيره تماماً. وزع على عملائه قطع الخزف والكريستال وأرسلهم إلى كافة أرجاء المعمورة بحثاً عن توائم لها، نفس العملاء الذين جابوا تلك المدن قبل ذلك بسنوات قليلة يعرضون بيع أسلحة ومدافع لمن يدفع أكثر يدقون الآن نواقيس معلقة فى سواكف أقبية رطبة يقطنها صاغة وبائعو عاديات. وأحضر إلى برشلونة مصورين ونحاتين من كافة الورش والمراسم، وخبراء ترميم من كافة متاحف العالم. قطعة من قارورة ليست أكبر من راحة اليد سافرت مرتين إلى شنغهاى. وأمر بإحضار جياد من

الأندلس وديفونشاير وزينها وعلقها في عربات هي نسخ من عربات قديمة صنعت خصيصاً في ألمانيا. لذا اعتقد الجميع أنه جن، أو فقد عقله، ولا أحد فطن إلى مبرر خوضه تلك المغامرة المجهولة العاقبة. ولكن أحداً لم يكن يجرؤ على مخالفته الرأى فى هذه النقطة، فلا المصلحة أو الراحة أو الجدوى الاقتصادية تؤخذ فى الاعتبار، بل إن كل شيء ينبغى أن يكون كما كان من قبل، فى عهد عائلة روسل، التى لم يفكر قط فى اقتفاء أثرها. وحين يظهر أحد دهشته ويسأله: كيف له، وهو الذى يحاول أن تحل السينما محل عقيدة الأجداد، يتمسك الآن بإعادة صوغ شيء يخاصم التقدم، شيء خلفه التقدم وراء ظهره بلا رجعة؟ كان يقتصر على الابتسام وقول: هذا هو المبرر تحديداً. لم تكن هنالك وسيلة تخرجه عن صمته. دام هذا العمل العملاق عدة سنوات.

فى أحد الأيام، وهو يزور الضيعة، تحدث إلى مهندس الديكور فقال له هذا إنه فشل فى بحثه عن تمثال صغير من الخزف المطلى لا قيمة له، لكنه أثناء البحث سمع من يقول إنه ربما يجده فى باريس، فى متجر بعينه، على أنه فضل الإقلاع عن البحث عن تمثال لا تتناسب قيمته فى رأيه والوقت والجهد والمال المستثمر فيه.

حصل أونوفرى بوفيلا على عنوان المتجر فى باريس وطرد مهندس الديكور وركب السيارة التى كانت تنتظره عند الجسر وقال للسائق: إلى باريس! لم يكن خرج من قبل من إقليم قطلونيا ولم يكن ذهب حتى إلى مدريد التى يتحدد فيها مصير قدر عظيم من الشؤون. أثناء الرحلة نعس فى مقعده. عند عبور الحدود، ونظراً إلى برودة الطقس، أراد أن يشترى بطانية رحلات ليغطى بها ركبتيه لكن أحداً لم يرد أن يبيعه إياها لأنه لم يكن يحمل عملات فرنسية. واصل السفر دون بطانية حتى بربنيان، وهناك أقرضه أحد البنوك كل ما كان يحتاج إليه وسلمه خطاباً يسمح له بسحب أية مبالغ مالية فى أى مكان يقصده. عند مغادرة بربنيان هطل المطر الذى لم يتوقف طوال الرحلة. قضيا الليل فى قرية

عنت لهما مع غروب الشمس. فى الصباح التالى استأنفا السير. حين وصلا باريس اتجها مباشرة إلى العنوان الذى أعطاه لهما مهندس الديكور غير الكفء. هناك وجد بالفعل التمثال الخزفى فاشتراه بثمن زهيد. بعد أن أصبح التمثال فى حوزته ذهب إلى أقرب الفنادق الكبرى ونزل فى "الجناح الملكى". كان فى البانيو حين دخل مدير الفندق مرتدياً بذلة مذيلة، ويحمل زهرة غردينيا فى عروة سترته. جاء ليسأل مسيو بوفيلا إذا كان يرغب فى أى شىء على نحو خاص. أمر بأن يحضروا عشاءه إلى جناحه وأن يوفروا للسائق، الذى كان ينزل فى غرفة أخرى فى طابق آخر، صحبة نسائية. قال: غداً ينتظره يوم شاق. قال المدير: وسيدى؟ ألا يحتاج هو كذلك إلى شىء من الصحبة؟ رد أونوفرى: كتوماً وخدوماً. قال ذلك وهو يتخيل ماذا كان سيفعل صديقه ماركيز أوت فى هذا الموقف. رفع المدير يديه صوب السقف وصاح بالفرنسية: إنه تخصصنا! تدعى نينت. عندما بلغت نينت فيما بعد الجناح ألفته مستقلياً فى الفراش، مرتدياً ملابسه ومستغرقاً فى النوم. خلعت حذاءه وحلت صداره وياقة قميصه وغطته بغطاء السرير. حين همت بإطفاء النور رأت على الكومودينو مظروفاً كتب عليه: من أجلك. داخل المغلف وجدت رزمة أوراق مالية. أعادت المغلف والمال إلى مكانهما على الكومودينو وأطفأت النور وخرجت من الجناح دون أن تحدث صوتاً.

فى اليوم التالى، فكر: السفر مضجر ولا يعلِّم كما يقولون. اقترح عليه المدير أن يقصر زمن الرحلة بالسفر جواً إلى برشلونة فى طائرة. أشار المدير إلى أنه إلى تلك اللحظة لم تكن هناك رحلات منتظمة بين المدينتين لكن، لو أن المال ليس عائقاً فإن كل شىء له حل فى هذا العالم. ذهب إلى المطار وتعاقد مع طيار بلجيكى على تأجير طائرة. غادر السائق باريس بالسيارة إلى برشلونة واستقل أونوفرى والطيار الطائرة. رياح معاكسة حملتهما إلى جرنوبل. من هناك تمكنا من الوصول إلى

ليون، حيث تزودا بالوقود واحتسيا عدداً من كؤوس الكونياك فى حانة المطار ليدفآ. لدى عبور جبال البرانس كانا على وشك التعرض لحادث خطير. فى نهاية الأمر هبطا بمطار سابادل سالمين معافين. بدهشة بالغة لاحظ أن إفرين كاستلز وماركيز أوت ينتظرانه عند مهبط الطائرة. قال:

- عجباً، كم أشكر لكما حضوركما!

هما كانا يصرخان بشىء لكنه لم يكن يسمع شيئاً فقد أصابه طيران عدة ساعات بالصمم المؤقت. كما كان يتأرجح فى سيره، فكان مارد كاليًا يحمله حملاً تقريباً. أردف:

- ما لا أفهمه هو كيف علمتما بمجيئ اليوم هنا!

كانا جعلا يفتشان عنه فى كل مكان. ومن خلال البنوك اقتفيا أثره حتى باريس، ومن هناك أبلغهما مدير الفندق تلغرافياً بتحركاته، فكتب: التحفة اقتنيت السيد استحم نينت فشلت السيد طار.

والآن يستقل ثلاثتهم سيارة إفرين كاستلز فى طريقهم إلى برشلونة. جالساً على المقعد الاحتياطى حث إفرين السائق على الإسراع. سأل عن مبرر تلك العجلة، قال: ماذا حدث؟ قال إفرين: أمر مهم، فقدنا وقتاً لا يقدر بمال بسبب غيابك الأرعن. قال هذه الكلمات بصرامة لا تناسب مزاجه. قال الماركيز:

- لنرتد الأقنعة.

ومن تحت المقعد أخرج صندوقاً مستطيلاً من الخشب المطعم وأخرج منه ثلاثة أقنعة سوداء على شكل مخروط طويل مدبب مزينة بصليب مالطة. والآن كان عليهم أن يخفضوا رؤوسهم كى لا تنثنى الأقنعة عندما تصطدم بسقف السيارة. وهذه أنهت سيرها المجنون عند سفح جبل "التيبيدابو"، أمام قصر من الطوب الأحمر ينتهى بأبراج مزيفة وشرفات ومآزيب. رجلان يحملان بندقيتين على كتفيهما فتحا البوابة الحديدية وأغلقاها بعد مرور السيارة. هبطوا منها أمام البوابة

الرئيسية للبناية وارتقوا درجات السلم اثنتين اثنتين ودخلوا البهو الدائرى ذا السقف الشاهق والذى رجع صدى خطاهم المتسارعة. لدى سيرهم كانت تفتح وتغلق أبواب. خدم يرتدون سراويل قصيرة وتغطى وجوههم أقنعة من الساتان الأبيض كانوا يؤدون لهم تحية الاحترام ويشيرون إلى الطريق التى عليهم أن يسلكوها، إلى أن صبوا فى قاعة تحتل مركزها مائدة طويلة عرضها قليل، يجلس إليها عدد ممن يرتدون أغطية للرأس مثلهم. فى ثلاثة من مقاعد الرهبان جلس أونوفرى بوفيلا وماركيز أوت وإفرين كاستلز. سأل من يرأس الجلسة بصوت واهن: أحضر الجميع؟ فأجابه على سؤاله همسٌ بالإيجاب. فقال راسماً علامة الصليب: فلنبدأ إذاً. قلده الجميع ثم قال الرئيس: يحضر هذا الاجتماع الطارئ ممثلون لأخوتنا فى مدريد وبلباو فيشرفنى ويسعدنى أن أرحب بهم فى برشلونة. تبع هذا الإجراء الشكلى لغط فخبط الرئيس المائدة بمطرقة صغيرة مواصلاً حديثه:

– أحسبكم جميعاً تقفون على حقيقة الموقف.

فى عام ١٩٢٣ تدهورت الأوضاع الاجتماعية حتى إن البعض وصفها بأنها بلغت "نقطة اللاعودة". أونوفرى بوفيلا وحده لم يكن يتفق وذلك التشخيص المتشائم. فكان يقول: عشنا دائماً وضعاً اجتماعياً متأزماً؛ هذا هو بلدنا ولا جدوى من تقليب الأمر على أوجه أخرى. كان يرى أنه على الرغم من كل شىء، لم يكن هنالك شىء خطير فى واقع الأمر، فكان يقول: لندع الأمور فى مجراها، فهى وحدها ستنصلح بطبيعتها، بلا عنف غير الضرورى جداً. كان يرى أن تظل الأشياء كما هى، فالأمور المضطربة أو المعقدة كانت تبدو له طيبة. فلم يكن تسلق عبثاً المكانة التى يحتلها الآن مستغلاً تلك الأمور. فى المقابل، كان ماركيز أوت وأنصاره يرون العكس تماماً؛ كانوا ورثوا هذه المكانة ويعيشون على الخوف الدائم من فقدها، أى إجراء متطرف يبدو لهم طيباً لو أن هدفه ضمان

استقرارهم. كان شبح البلشفية يقض مضاجعهم. كان أونوفرى بوفيلا يصيح حين يواجه هذا الاحتمال فى أية مناقشة: آه، إن نجحت البلشفية هنا كما نجحت فى روسيا فأنا سأكون لينين. إذ كانت لديه ثقة بلا حدود فى قدرته على مواجهة أى ظرف معاكس والإفادة من أى معوق. مع ذلك، لم يكن فى وسعه أن يفصح عن ذلك لا لماركيز أوت ولا لرفاقه الذين يجتمع بهم فى تلك اللحظة. اقتصر على قول:

– لابد للإنسان أن يكون بالغ الغباء كى يترك الأمور حتى تصل إلى هذا الحد الذى لا رجعة فيه.

رفع ماركيز أوت صوته عالياً وهو يرد:

– إن الوضع الراهن لأشبه بحكاية زيز الحقل والنملة، تطالب الطبقات السفلى بشىء فنعطيها إياه، فى اليوم التالى تطالب الطبقات السفلى بشىء فنعطيها إياه كذلك وهكذا حتى ينتهى الأمر بالرعاع إلى التفكير: عجباً! فى ذلك اليوم سيحملون السلاح ضدنا ويذبحوننا ويعلقون رؤوسنا فى طرف قصبة، وفوق هذا وذاك ستفوح من الجميع رائحة السردين.

لاقى هذا التحليل للوضع صدى من الهمس الذى استحسنه. أضاف الشخص المقنع الجالس إلى جوار إفرين كاستلز أن العامل تجاوز حدوده ولم يعد يقنع بالمطالبة بكل شىء. قال: ما يريده الآن هو أن يقطع رؤوسنا ويغتصب بناتنا ويحرق كنائسنا ويدخن سيجارنا. خبط جميع المقنعون المائدة بقبضة اليد. دام هذا الصخب وهلة وحين توقف عاد أونوفرى بوفيلا فأخذ الكلمة. قال فى نبرة عذبة:

– أنا أعلم ما يريده العمال. ما يريدونه هو أن يصبحوا بورجوازيين. وما عيب ذلك؟ لقد كان البورجوازيون دائماً خير عملائنا.

ارتفع همس لا يوافقه الرأى. لم يكن مصير طبقة العمال يهمه فى شىء، لكنه لم يكن يعجبه أن يخالفه أحد الرأى فقرر أن يدخل المعركة على الرغم من علمه بأن القرار الأخير اتخذ مسبقاً وبلا رجعة. قال:

- انتبهوا. أنتم تظنون أن العامل نمر متعطش للدماء، ويربض متحيناً اللحظة التى يعض فيها رقابكم، أو حيوان ينبغى أن نحتفظ به بعيداً عنا بكافة الوسائل. وأنا أقول لكم، فى المقابل، إن الواقع ليس كذلك؛ ففى حقيقة الأمر هم أشخاص مثلنا. إذا كان لديهم شىء من المال سيسارعون إلى شراء ما يصنعونه هم أنفسهم وسيزداد الإنتاج على نحو رهيب.

قاطعه أحد المقنعين فى هذه النقطة ليقول إنه سمع فى مناسبة أخرى عن هذه النظرية الاقتصادية. قال: لم أفهمها ومع ذلك لاحت لى مشؤومة؛ فيما بعد علمت أنها جاءت من إنجلترا وهذا يوضح كل الأمر. أشار أحدهم إلى أنها لم تكن لحظة الدخول فى نقاش أكاديمى. قال: فى وسع كل فرد أن يعتقد فى النظرية الاقتصادية التى تعجبه، لكننا يجب أن ننجز ما ينبغى علينا أن ننجزه. وأضاف ماركيز أوت أن الوضع شبيه بحكاية زيز الحقل والنملة. ثم أضاف بعد وهلة حين لم يعد أحد يسمعه: أو ربما أشبه بحكاية حمار الزمّار. تدخل أونوفرى بوفيلا مرة أخرى، قال:

- مازال الوضع فى أيدينا كاملاً، إذا استجبنا لمطالب العمال فى حدود المعقول سيأتى العمال ليأكلوا فى يدنا، ولكن إذا لم نظهر أية مرونة فأى ضمان لدينا بأن رد فعلهم لن يكون عنيفاً أو متجاوزاً الحدود؟

قال مقنَّع آخر لم يكن شارك فى النقاش حتى تلك اللحظة:

- ضمان الجيش.

كان يتحدث بنبرة صوت لزجة لم يكن أونوفرى بوفيلا يجهلها. أضاف:

- إن الجيش موجود تحديداً للتدخل فى اللحظات الحرجة، عندما يكون الوطن فى خطر، على سبيل المثال.

ترك أونوفرى بوفيلا القلم الرصاص الذى كان يعبث به تركه يسقط

وحين انحنى ليلتقطه اغتنم الفرصة كى ينظر تحت المائدة. وهكذا رأى أن من كان يتحدث يرتدى حذاء ذا رقبة عالية. فكر: أمر نحس، الآن أعرف من هو. واصل المتحدث كلامه:

– وحين تعم الفوضى ينبغى على الجيش أن يفرض النظام والانضباط لأن الفوضى خطر حقيقى على الوطن، وواجب الجيش المقدس هو تلبية نداء الوطن حين يحتاج إليه.

كانت هنالك نبرة اقتناع معينة فى صوته وكذلك إصرار كحولى جعل مبرراته لا تفند. أردف:

– ليكن شعارنا: ضد الفوضى: الانضباط، ضد الشغب: النظام، ضد ضعف الحكم: النظام والانضباط.

بهذا الهتاف أنهى حديثه الذى تبعه صمت موقّر. قال فى نهاية الأمر أونوفرى بوفيلا:

– أظن أننا سنضطر إلى أن "نهرش "جيوبنا!

من سلم عربة القطار التفت الجنرال ليحيى المقنعين الذين ذهبوا لتوديعه بمحطة القطارات. حين رأى رصيف المحطة مكتظاً بالمقنعين فرك عينيه وأومأ إيماءة من لا يصدق. فكر: لا يمكن أن يكون هذا "الهذيان المرجف*"، لا، ليس بعد. ثم تذكر ما يفعله هناك ومبرر حضور المقنعين. شد قامته وفى الوقت نفسه انطلقت صافرة القطار. قال بصوت مهيب:

– أيها السادة، إما يفرمون لحمى وإما أحكم إسبانيا غداً.

من تحت طراطيرهم المخروطية البالغة الطول ابتسم المقنعون فقد أبرقوا إلى بنوكهم ولم يكن لديهم شك فى نجاح الانقلاب العسكرى. على رصيف المحطة لم يكن هنالك مسافرون أو حمالون، فقد كانت المحطة تحت حراسة قوات المشاة فيما قامت قوات راكبة بعمل دوريات

* عبارة لاتينية فى الأصل.

فى المدينة. فى الأحياء العمالية والمرافق الحيوية تمركزت المدافع الرشاشة وقطع المدفعية الخفيفة، وساد برشلونة الصمت. لدى الخروج من محطة القطار طلب من إفرين كاستلز أن يقله إلى منزله فليس معه سيارة. تردد عملاق كاليّا قبل أن يجيبه ثم قال فى النهاية:

- بالطبع، هذا أقل ما يجب، اصعد.

تنفس أونوفرى بوفيلا الصعداء فلم يكن يفضل أن يقتلوه على سلم المحطة هدفاً مباشراً وسهلاً، وفى السيارة استشعر أماناً نسبياً. اعترف لإفرين كاستلز: ظننت للحظة أنك ستتركنى فى الشارع. فأجابه المارد: نحن صديقان. خلعا قناعيهما ونظر كل منهما للآخر. شعر بوخزة ألم فى صدره: تذكر ذلك الدب الملتحى الذى تعرف إليه فى المعرض العالمى، وهو يرى الآن الملامح المترهلة لرجل المال الأصلع الذى أدركته الشيخوخة مبكراً. فكر فيما يمسد بأنامله خصائل شعره: ينبغى أن ترى شكلى أنا كذلك. بمعزل عن تلك الذكريات، أشار إفرين كاستلز إلى أنه من المناسب أن يختفى عدة أيام. سأله: أتعتقد أنت أيضاً أن حياتى فى خطر؟ أومأ إفرين كاستلز برأسه موافقاً. قال إنه ليس بالغ الذكاء، لكنه يرى عدم استبعاد ذلك الاحتمال. أضاف:

- بريمو * ليس دموياً، ولن تراق الدماء بناء على رغبته. ومن المرجح أن يسير كل شىء على ما يرام وألا يُلاحَظ الفارق حتى. ولكن يمكن أن يحدث - أضاف العملاق بوجه مظلم ليس قلقاً بقدر كونه تعباً من إعطاء مثل هذا التفسير المطول -، ويمكن جداً أن يحدث أن يجد مقاومة عندما يصل مدريد، وليس من قبل المدنيين بل من قبل عسكريين يطمحون إلى السلطة. وأنت واسع السلطة والنفوذ ويعلم بريمو أنه لا يحوز ولاءك بلا تحفظات، - ثم راح يؤنبه - لقد أظهرت اليوم القليل من الحصافة، لا أدرى لم قلت ذلك الهراء.

*يشير هنا إلى الجنرال بريمو دى ريبيرا الذى قام حينئذ بالانقلاب العسكرى فى إسبانيا وحكم البلاد حكماً مطلقاً طوال عشرينيات القرن الفائت.

– لأننى أرى ذلك – قال أونوفرى وهو ينظر إلى صديقه نظرة رقيقة
– ولأننى لم أعد أستطيع وأنا فى هذه السن أن أواصل النفاق. ولكن، مهما يكن الأمر، معك حق هذه المرة، سأذهب إلى فرنسا. تعرفت باريس فى التو، تبدو لى مكاناً فظيعاً لكننى سأتأقلم إذا دعت الضرورة.

– لن يدعوك تعبر الحدود.

– الطائرة التى جئت فيها لن تعود قبل الفجر، فإذا أوصلتنى بعد المرور بمنزلى إلى سابادل ولم تقل شيئاً لأحد عن ذلك تكون أديت لى صنيعاً كبيراً.

– حسن، ولكننى سأقلك إلى سابادل مباشرة، فليس يناسبنا إضاعة الوقت. فى هذه الساعة قد يكون بريمو أو آخر يبحث عنك بالفعل.

– ربما، لكننا، أولاً، سنمر بمكتبى، ينبغى أن ننتهى من بعض الأمور، كلانا.

وحين قال له إفرين كاستلز إنها لم تكن اللحظة المناسبة أجابه: ليس هنالك لحظة أخرى. عند باب منزله هبط من السيارة واستوقف إفرين كاستلز كى لا يهبط هو كذلك، قال له: اذهب وأحضر حماى، أخرجه من فراشه وأحضره جراً لو اقتضى الأمر. صار غير محتمل لكننا نحتاج إلى محام.

دخل المنزل بحذر شديد، لم يرد إيقاظ زوجه أو بناته فتخيل وداع دامع كان يثير أعصابه مسبقاً. فكر وهو يتحسس المكان بحثاً عن حبل الجرس: والأسوأ أن يصررن على أن يتبعننى إلى المنفى. جذب الحبل فظهر رئيس الخدم فى قميص وقلنسوة النوم. قال له: لا داعى لأن ترتدى الزى، أشعل مدفأة المكتب. هرش رئيس الخدم قفاه: المدفأة يا سيدى؟ مازلنا فى أوائل سبتمبر! فيما كان رئيس الخدم يضع قطعاً من الخشب فى المدفأة ويشعل فيها ثقاباً، خلع سترته وشمر عن ساعديه وأخرج مسدساً من الدرج وتأكد من أنه مشحون. بعد ذلك وضعه على المائدة وأمر رئيس الخدم بالذهاب: أعد لى قهوة، ولكن تأكد من عدم

إيقاظ أحد؛ لا أريد أن يقاطعنى أحد. ثم قبل أن يذهب استوقفه: آه، بعد قليل سيصل دون إفرين كاستلز ودون أومبرت فيجا إى موريرا. أحضرهما مباشرة إلى مكتبى. بعد أن بات وحده راح يفتح آلياً أدراجاً وملفات، ويخرج أوراقاً يتصفحها ثم يلقى بها فى النار حسبما يتراءى له. أحياناً كان يقلب الرماد بالمنخس. دقت ساعة ببندول فى صالون المنزل تمام الثانية عشرة. دخل رئيس الخدم ليعلن مجئ إفرين كاستلز ودون أومبرت فيجا إى موريرا. قال: ليدخلا.

حضر حموه منهاراً من البكاء. كان يرتدى معطفاً داكناً تطل من تحته بيجاما مخططة. منذ أن رحلت زوجه خف عقله: لم يعد يعى شيئاً مما يدور حوله. ما حاول إفرين كاستلز أن يوضحه له لم يرسخ فى فهمه؛ كل ما سمعه أن زوج ابنته سيفر من البلاد وجعل يبكى وهو يفكر فى مصير ابنته وحفيدتيه. دخل حجرة المكتب متسائلاً:

- أونوفرى، أونوفرى، أصحيح ما أخبرنى به هذا الحيوان؟ أصحيح أن حكومة غرسية بريتو سقطت وأن عليك أن ترحل إلى فرنسا حتى لا يصيبك عيار فى مقتل؟ آه يا رب السموات، يا إله السماء! وابنتى وحفيدتاى الصغيرتان، ماذا سيكون مصيرهن؟ ذلك ما كنت أقوله لامرأتى، رحمها الله، إننا أخطأنا حين زوجناك طفلتنا، وكان أفضل لها كثيراً أن تتزوج ذلك الأحدب، أتتذكر ذلك الذى أتحدث عنه يا أونوفرى؟ ذلك الولد المهذب والخجول الذى كان يحيا فى باريس، ما اسمه؟

هدأ أونوفرى من روع حميه وقال له ألا شىء هناك. كان القائد العام لقطلونيا خرج صوب مدريد منذ ساعات وكانت حاميتا قطلونيا وأراجون تساندانه. وأخبر حماه: مازلنا ننتظر ماذا سيحدث فى مدريد، فإن وجد مقاومة قد تقوم الحرب لكننى أعتقد فى الواقع أن كل شىء تم إنجازه فلا أركان حرب الجيش ولا الملك يمكنهما التصدى له، لأن الصفوة تؤيده - أكد ذلك بلا سخرية -: أنا معهم وهم يعلمون ذلك - أضاف فى حزن - لكنهم لا يثقون بى. فى حقيقة الأمر هم لا يخشون

طبقة العمال بقدر ما يخشونني أنا، فأنا أكثر ما يكرهون. أشعل سيجاراً فيما يفكر ثم قال: هذا الذى يحدث كان على أن أتوقعه من قبل. فى الثلاثين من أكتوبر ١٩٢٢ قام أصحاب القمصان السوداء بدخولهم الشهير فى روما؛ بعد ذلك بعام، فى الثالث عشر من عام ١٩٢٣، قرر دون ميجل بريمو دى ريبيرا إى أوربانيخا أن يقتفى أثر موسولينى. كى يتحقق له ذلك لم يكن يستند إلى ملايين المؤيدين، لذا كان عليه أن يلجأ إلى الجيش. قال أونوفرى: هذا هو الفارق بين كليهما: بريمو ليس رجلاً شريراً بيد أنه أحمق قليلاً وهو، ككل الحمقى، سئ الظن وهياب. لن يستمر طويلاً، لكننى مادامت الحال هكذا، يجب أن أنجو: اجلس يا دون أومبرت إلى المائدة وخذ ورقة وقلماً وحرر عقد تنازل، أريد أن أتنازل عن كل أعمالى لإفرين كاستلز الحاضر هنا. صاح دون أومبرت فيجا إى موريرا:

- أى هراء تقول!

طرق رئيس الخدم الباب، كان يحضر القهوة التى طلبها منه أونوفرى لكنه سمح لنفسه بإضافة فنجانين آخرين ربما رغب إفرين كاستلز ودون أومبرت فى تناول القهوة. همس: يبدو أن هذه الليلة ستكون طويلة. وكان تناهى إلى مسامعه أصوات. كان مناخ التوتر ينتشر فى الشوارع كالشبورة. حمام زاجل شق السماء وراح يركض بقنوات المجارى بحثاً عن مأمن زعماء الحركات الثورية، وفى ملتقى قناتين كريهتى الرائحة يلتقى فوضويون باشتراكيين وبانفصاليين قطلونيين، فيتعرف بعضهم بعضاً فى ضوء كشافاتهم الضارب إلى الخضرة ويتبادلون تحية مقتضبة ثم يواصلون سيرهم.

قال أونوفرى بوفيلا:

- إنها الطريقة الوحيدة لتجنب احتمال المصادرة.

- لكن هذا الذى تطلبه منى مستحيل، كيف يمكننا أن نقدر حجم ثرائك؟

- حدد لها أية قيمة: سعراً رمزياً، ما الفارق؟ المهم أن يصبح كل شىء فى يد أمينة.

بعد عمل حسابات ومناقشة استغرقت وقتاً توصلوا إلى إجمالى مبلغ بالجنيه الاسترلينى التزم مارد كاليّا بتحويله فى ذلك اليوم نفسه إلى أحد الحسابات الجارية لأونوفرى بوفيلا فى سويسرا. راح دون أومبرت فيجا إى موريرا يئن فيما ينتهى من صياغة الشكل القانونى لذلك الاتفاق. فى عدة مرات اضطروا إلى قطع المهمة لكى يقول إنه يشعر بأنه يحضر تقسيم الإمبراطورية العثمانية، ذلك الحدث القريب فى الزمن والذى أترعه بالكرب. أوضح أنه شعر دائماً بالتضامن العميق مع تلك الإمبراطورية، وكان شعوراً بلا تفسير واضح لأنه أولاً لم يكن يعرف أين تقع الإمبراطورية العثمانية فضلاً عن أنه كان يجهل كل شىء عنها. قال: لكن اسمها، فى رأيه، كان ينم عن أبهة وعظمة. ناشده أونوفرى أن يواصل العمل بلا شرود. قال: سرعان ما سينبلج النهار؛ ستضطلع حضرتك بحمل هذا العقد إلى مكتب موثق العقود لتوثيقه. ثم أضاف فى نبرة محايدة لم تحل دون أن يجهش دون أومبرت بالبكاء مرة أخرى: أضع بين أيديكما رعاية أسرتى وحمايتها. فى النهاية، وقع الطرفان المتعاقدان كافة وثائق التنازل، كما وقعها دون أومبرت ورئيس الخدم كشاهدين على التوقيع. بعد ذلك رافق إفرين كاستلز أونوفرى إلى سابادل. تركا دون أومبرت فى المنزل لكى يقوم بشرح مبررات غياب أونوفرى لابنته وليخفف من مخاوفها حين تصحو ولا تجده. الآن تسير السيارة فى شوارع المدينة الخاوية، يبزغ الفجر، لكن عمال الإنارة لم يجرؤوا على الخروج إلى الشوارع فظلت المصابيح تنير كأنها فى قلب الليل. فى الطريق لم يجدا سوى صبى يحمل صحفاً، صدر إليه أمر بتوزيع الصحف ككل يوم، على هذا النحو سيعرف الناس ما حدث فى مدريد قبل ساعات قليلة. هناك، أيد العسكريون بريمو دى ريبيرا وقدمت الحكومة استقالتها للملك الذى كلف بريمو دى ريبيرا بتشكيل

حكومة جديدة. أوردت الجريدة فى صفحتها الأولى قائمة الجنرالات الذين يشكلون الحكومة الجديدة وأعلنت إلغاء كافة الضمانات الدستورية مؤقتاً. أما بقية الصفحات فقد أعملت فى معظمها يد الرقابة.

عند وصولهما المطار اضطرا إلى الانتظار بعض الوقت إلى أن ظهر الطيار الذى جاء متحيراً قليلاً، فمن الفندق إلى المطار أوقفته ثمانى دوريات مختلفة. صاح حين رأى أونوفرى بوفيلا: اللعنة، لا أحد يحب البلجيكيين هنا. وأونوفرى أبلغه أنه يريد العودة إلى باريس معه، وهو ما كان مبعث رضا البلجيكى الذى كان قنع بالقيام بالرحلة بمفرده. تعانق إفرين كاستلز وأونوفرى وصعد هذا الطائرة التى أقلعت فى الحال. كانا يطيران منذ نصف الساعة حين طلب أونوفرى من الطيار أن يتجه نحو اليسار قليلاً، فقال له إنه ليس اتجاه باريس فرد عليه أونوفرى:

- أعلم ذلك، ولكننا لن نذهب إلى باريس، افعل ما آمرك به وسأضاعف لك الأجر.

أقنع هذا المبرر الطيار والآن راحت الطائرة ترسم دوائر بين الجبال، فوق واد يغطيه الضباب. وفيما هما يهبطان راح أونوفرى بوفيلا يعطى تعليماته للطيار: انتبه إلى ذلك السفح، فهناك عدد من أشجار السنديان السامقة: أنحن أفضل إلى هناك لعلنا نتمكن من تتبع مجرى النهر، إلخ. فى النهاية، بينَ مزق الضباب، لمحا جرناً درس حديثاً. حين هبطت الطائرة حلق سرب من الطيور السوداء كانت تنقر الحزم المكدسة فى الجرن. كان عددها كبيراً للغاية حتى إنها سودت الشمس للحظة. سلم أونوفرى بوفيلا الطيار صكاً يمكنه أن يصرفه من أى بنك فرنسى وقفز من الطائرة ومن هناك شرح للطيار كيف يواصل طريقه دون أن يضل. دون أن يوقف المحرك، استدار الطيار بطائرته وسار قليلاً على أرض الجرن ثم أقلع مخلفاً دوامة من الغبار والتبن. بعد ساعة بلغ أونوفرى بوفيلا باب منزله الذى ولد فيه: هناك، يعيش الآن فلاح وزوجته وأبناؤه

الثمانية. أجابوه على أسئلته بأن السيد العمدة يقطن الآن منزلاً جديداً، إلى جانب الكنيسة. اعتقد أونوفرى أنه يعرف الفلاح وزوجته لكنهما لم يتعرفاه.

(٣)

ذهبت لتفتح الباب امرأة فى حوالى الثلاثين، ذكية الملامح، الخشنة قليلاً، لكنها لا تخلو من جاذبية. تعقد منديلاً حول رأسها لتحمى شعرها من الغبار وتمسك فى يدها بمنافض كانت تعمل بها. ظن أونوفرى أن أخاه ربما تزوج دون أن يبلغه. كانت المرأة تنظر إليه فى اندهاش أكثر من كونه حذراً. فكر: هذا يبين أنه لم يحدثها قط عنى. قال بصوت عال: أنا أونوفرى بوفيلا. رمشت عينا المرأة. أضاف: شقيق جوان. تغير تعبير وجه المرأة. قالت: السيد جوان نائم لكننى سأبلغه فى الحال أنك هنا. من نبرة صوتها كان جلياً أنها ليست زوج جوان. فكر: قد تكون خليلته، سُريته، ولا تبدو عزياء كذلك، من المحتمل أن تكون أرملة شابة تحتاج إلى رجل على أى نحو، إلى حماية وأمان اقتصادى وكل ذلك. وبما أنها تركته وحده بالباب دخل إلى الدهليز. فوق القوس المؤدى إلى الممر ثمة قطعة خزفية مؤطرة كتب عليها: سلاماً يا مريم. تصاعدت من المدخل رائحة غبار، لابد أن المرأة أثارته وهى تنفض شيئاً بالمنافض. مصباح وحامل مظلات من الحديد المزخرف وأربعة كراس ذات المساند القائمة كانت كل أثاث المدخل. على الممر تطل أربعة أبواب، بابان على كل جانب. كانت المرأة تطرق واحداً منها، حين انتهت قالت: سيد جوان، أخوك هنا. كانت تتحدث بصوت خفيض ولكنها لم تحاول ألا يسمعها أونوفرى. بعد وهلة أجابها صوت صادر من كهف، من داخل الحجرة. أنصتت المرأة جيداً إذ ألصقت أذنها بالباب ثم التفتت إلى أونوفرى. قالت: يقول إنه سينهض فى الحال فانتظره. باليد الممسكة بالمنافض أومأت إيماءة طفيفة مشيرة إلى قاعة الطعام التى ترى فى الطرف الآخر من الممر. اجتازه أونوفرى تبعاً لتلك الإيماءة وانتحت المرأة جانباً. فى قاعة الطعام منضدة مربعة الشكل فوقها مصباح من الكريستال المصنفر وكراس

مستندة إلى الحوائط. وهنالك كذلك خوان داكن اللون وشوكة مغطاة بالرخام الأبيض وسمندر من الفولاذ أطرافه من الخزف المطلى بالمينا فيما ينفح قاعة الطعام جواً من رغد العيش. فوق الشوكة، على الحائط، علقت لوحة العشاء المقدس من الخشب المنقوش. فى مواجهة قوس المدخل باب مزدوج من الزجاج يؤدى إلى فناء مستطيل الشكل فى نهايته مرحاض صغير الحجم. فى الفناء، نمت أشجار المغنولية والأزالية. إلى يمين قاعة الطعام يوجد المطبخ. ولكل شىء هيئة نظيفة ومرتبة وباردة. فيما يشاهد أونوفرى كل ذلك دق قريباً جداً منه جرس الكنيسة فأصابه بالذعر على نحو مرئى، والمرأة التى كانت ترقبه من الممر ضحكت خفيضاً. قال هو:

- افترض أنها مسألة تعود - وهى هزت منكبيها - أتسكنين هذا المنزل؟

اشارت إلى أحد الأبواب. فكر: ليس نفس الباب الذى طرقته فى التو لكن ذلك لا ينفى أو يثبت شيئاً.

فى تلك اللحظة ظهر أخوه بالممر. حافياً ومرتدياً سراويل من القطيفة الحائلة وقميصاً كحلياً لم يزرر جيداً، ويهرش رأسه بكلتا يديه. اجتاز قاعة الطعام دون أن يقول شيئاً كأنه لم ير أخاه أو المرأة، خرج إلى الفناء وأغلق عليه المرحاض. كانت المرأة ذهبت إلى المطبخ، وتملأ دلواً معدنياً بماء يخرج من صنبور. على الرغم من أنه فى الليلة السابقة قضى الليل فى واحد من أفخم فنادق باريس، غمره شعور منتش بالرخاء المادى لأن بقريته ماء جارياً. عندما امتلأ الدلو بالماء رفعته المرأة من يده وأخرجته إلى الممر ثم عادت إلى المطبخ وأخذت تشعل النار فى الخشب والفحم بأعواد الثقاب ومروحة من القش المجدول. ظل يفكر أونوفرى: ما أبطأ كل شىء هنا. فى نصف الوقت الذى قضاه فى المنزل الآخر قام أحياناً بعقد صفقات شديدة الأهمية. أما هنا، فى المقابل، فلا أية قيمة للوقت - هذا ما قاله لنفسه. خرج أخوه من المرحاض يزرر سراويله.

غسل فى ماء الدلو وجهه ويديه ثم أخذه وألقى الماء فى المرحاض، ثم ألقى بالدلو على الأرض فى الفناء ودخل قاعة الطعام فيما تركت المرأة المطبخ لتخرج إلى الفناء وتأخذ الدلو. سأل جوان أخاه:

- جئت فى سيارة؟

- فى طائرة - أجابه بابتسامة.

نظر إليه جوان وهلة زاماً شفتيه، زفر:

- لابد أن هذه هى الحقيقة مادمت قلت أنت ذلك. هل تناولت فطورك؟

هز أونوفرى رأسه بالنفى فقال جوان: ولا أنا، هأنت ترى أننى صحوت من توى، ليلة أمس نمت متأخراً. بدا أنه سيحكى فيم كان سهره ولكنه ظل فاغراً فاه ولم يقل شيئاً. من المطبخ انبعثت رائحة خبز محمص. وضعت المرأة على مائدة الطعام قطعة خشبية عليها سجق من عدة أنواع ومدية رحلات مرشوقة فى الخشب. حين رأى السجق أحس بخواء مؤلم فى بطنه والتفت إلى أنه لم يأكل شيئاً منذ عدة ساعات. قال له جوان مفسراً تعبير وجهه جيداً: اهجم بلا خوف فأنت فى بيتك. جعل أونوفرى يتساءل أهو بيته بحق. الآن، وأشد من أى وقت مضى، كان يرغب فى ذلك. بعد تلك السنين من الكفاح يعتقد أنه عاد إلى نقطة البداية وهذا ما أخبر به أخاه. أتت المرأة من المطبخ بصينية كاملة من الخبز المحمص. وفى طبق من الفخار أحضرت إناء زيت وطاسة بها ملح وعدداً من فصوص الثوم لتتبيل الخبز. وأخيراً، أخرجت زجاجة نبيذ أحمر وكوبين. كان لذلك النبيذ مزية بث الروح فى جوان وكذلك ثرثرة لم يكن أخوه يعرفها فيه. انتصف النهار تقريباً حين انتهيا من فطورهما. راح النوم يداعب جفونه. أشار إليه أخوه بأن فى وسعه أن يشغل أية حجرة، فعلى الرغم من أن أياً من الثلاثة لم يطرق هذا الموضوع كان ثلاثتهم يعلم أنه سيمكث هناك ما شاء أن يمكث. كانت الحجرة المخصصة له هى نفسها التى أشارت إليها المرأة حين سألها إذا كانت تعيش فى ذلك المنزل،

وهذا جعله يخلد إلى نومه وهو يقلب أوجه هذا الأمر فى رأسه. فى الغرفة كانت هنالك خزانة ملابس روستيك قديمة تعرفها فى الحال: خزانة الملابس نفسها التى كانت والدته تحفظ فيها الملابس. فكر فى فتح أحد الأدراج لكنه لم يجرؤ على ذلك فى تلك اللحظة حتى لا يسمعانه فى قاعة الطعام. تضوعت الملاءات برائحة الصابون.

فى الأيام التالية على وصوله كرس وقته ليحيا على هواه: يأكل وينام كما يشاء ويقوم بنزهات مطولة فى الريف ويتحدث إلى الناس أو يتجنبهم، فلا أحد يضايقه. فى الحال، لم يعد وجوده فى القرية سراً. كان جميعهم سمع عنه، يعرفون أنه هاجر إلى برشلونة منذ سنين طويلة، ويقال عنه إنه صار غنياً لكن ولا ذلك حتى أثار فضول الناس، فجميعهم بشكل أو بآخر استمع بشخصه أو يتذكر حكاية جوان بوفيلا، والد الأخوين، فإذا كان الأول هاجر إلى كوبا وعاد متظاهراً بثروة اتضح فيما بعد أنها وهمية فلا مبرر هنالك لئلا نفكر فى أن ابنه يفعل ما فعل أبوه - هذا ما راحوا يقولونه. كانت تلك الحيرة مبعث ابتهاج أونوفرى الذى كان يغذيها. فيما عدا ذلك، لم يكن متأكداً من أنهم ليسوا على حق حين يظنونه مفلساً، ففى قرارة نفسه كان يعتقد أن إفرين كاستلز وحماه اغتنما غيابه ليسلباه كل شىء، ومن المحتمل أن يكون دون أومبرت فيجا إى موريرا قد تلاعب بالعقود كما كان فعل بتحريض من أونوفرى نفسه فى أملاك أوسوريو، حاكم لوثون السابق. قال لنفسه فى فلسفة: أمس كان دوره، الآن حان دورى. كان أخوه ينظر إليه ساخراً حين يسمعه يتحدث على هذا النحو، ويقول له: حياة بأكملها من العمل من أجل هذا! فكان يرد عليه: ثم ماذا؟ لو كنت عملت كناساً أو متسولاً لبذلت نفس المجهود. حينئذ فقط راح يفطن إلى السمة الحقيقية للمجتمع الهمجى الذى يتحرك فيه بكل ذلك النفوذ وكل تلك الطلاقة الظاهرة. حل تشاؤم النضج المرتعب محل وقاحة أعوام شبابه الساذجة. فى ساعات الدعة تلك كان يقول له أخوه:

– لقد كنت دائماً مغفلاً، بوسعى الآن أن أقول لك ذلك وجهاً لوجه!

هذه التعليقات المباغتة وغير المناسبة لم تكن تخلف فيه أدنى أثر عامة. التفصيلات التى تبدو غير مهمة هى وحدها التى تستحوذ على اهتمامه: المدفأة المطفأة فى أحد أركان الحجرة، تغير الضوء تبعاً لمرور سحابة بالقطعة المستطيلة من المساء التى يؤطرها الفناء، وقع أقدام فى الشارع، رائحة حطب محروق، نباح بعيد، إلخ. فى أحايين أخرى تفسح هذه اللامبالاة الفلسفية التى يجيدها المجال لسخطه المباغت، وهنا يسب أخاه. لكن جوان لم يكن ينتبه إلى مثل هذه النوبات إلا فى النادر فقد أدمن الكحوليات ولم يكن يمضى من النهار سوى ساعتين أو ثلاث فى حالة وعى نسبى؛ وفى هذه الساعات، يبت فى أمور البلدية بمكر وبلا أمانة. كان أهالى القرية اعتادوا سير الأمور على هذا النحو ويعتبرون أن ذلك هو التقدم وحاولوا ألا يصيبهم إلا بأقل ضرر. لم يحاول جوان بوفيلا أن يجعل من منصبه شيئاً آخر سوى وسيلة للعيش بلا عمل، ولكن، حتى فى مجتمع بذلك الصغر تجاوز الواقع السياسى طموحاته المتواضعة، فالآن أصبح على رأس القوى "الحية " فى القرية وكان عدد هذه القوى "الحية "أكبر بكثير مما ظنه أونوفرى فى مبتدأ الأمر: القس والطبيب والبيطرى والصيدلى والمعلم وصاحبى المتجر والحانة. منذ أن رحل أونوفرى نمت القرية على نحو كبير. هؤلاء "الكبار " كانوا يعرفون بالفعل من هو ويحاول كل منهم بطريقته أن يحوز ثقته، فكانوا يتملقونه بشكل حقير ويتيحون له على نحو سافر أن يظهر ازدراءه لهم. لم تكن تمر ليلة دون أن يستقبل زيارة هذا أو ذاك من أولئك الخبثاء المحدودى القدرة. تلك الزيارات كانت مصدر ألم بالغ للقس، كاهن شاب وأبله وجشع ومنافق، هاجم المرأة التى تعيش مع جوان من على المنبر. والآن، نظراً إلى وجود أونوفرى فى نفس المنزل، ألفى نفسه مضطراً ليس إلى الذهاب إلى هناك كالآخرين وحسب بل وإلى تعزيز مظاهر حسن معاملتها. أما أونوفرى وأخوه فكانا يتسليان على

حسابه، فيقول له أونوفرى:

- انظر يا سيدى القس، لقد قرأت الإنجيل عدة مرات بتأن ولم أجد فى أى مكان منه أن يسوع اضطر إلى العمل ليكسب قوت يومه، أى نوع من القدوة هذا؟!

إزاء مثل ذلك الازدراء كان القس الصغير يعض شفتيه ويخفض جبهته ويفكر فى انتقام لا يرحم. وأونوفرى الذى كان بوسعه قراءة أفكاره بلا صعوبة لم يكن يستطيع أن يكتم ضحكه. أما الآخرون فكانوا أكثر منه حذقاً. فكان الصيدلى والبيطرى من هواة القنص، فيما بينهما كان لديهما كلاب صيد مدربة وأخرى من سلالة جيدة ونصف دستة بنادق. فى بعض المرات قاما بدعوة أونوفرى وأخيه للخروج للصيد. ولما كان جوان ثملاً أغلب الوقت فإن صحبته انطوت على بالغ الخطر. من جانبه، كان صاحب المتجر يتلقى أسبوعياً بعض الصحف التى تحضرها له الشاحنة التى تقطع الآن المسافة بين القرية وباسورا. هكذا تمكن أونوفرى من تتبع مجرى الأحداث السياسية التى أدت إلى نفيه. وهذه الصحف التى تستقى أخبارها من صحف أخرى كانت تقدم دائماً أنباء قديمة وزائفة فى الأغلب. ولا يبدو أن ذلك يضايق القراء، فضلاً عن أن أخبار السياسة كانت تحتل منزلة ثانوية فى تلك الصحف التى تعطى الأولوية للأحداث المحلية ولأنباء أخرى أقل أهمية. تلك المعايير المقلوبة كانت تثير ضيق أونوفرى؛ ومع ذلك، بعد مضى وقت، طفق يفكر فى أن ترتيب الأولويات على ذلك النحو ربما لم يكن غير حكيم كما كان يفكر فى البداية. فالآن هو الذى راح يفكر فى أن كل ما تراءى له من قبل بالغ الأهمية يعن له الآن بلا جدوى. كانت تأتيه هذه الأفكار فى لحظات الهدوء، حين يتمكن من تجنب الطفيليين المتقربين إليه الذين يحاصرونه ويلجأ إلى مخابئ الطفولة. كثير من تلك المخابئ لم يعد لها وجود، وربما بعضها مازال قائماً بيد أنه فشل فى العثور عليه، فيما نجا بعض آخر من الاندثار لكن شخصاً فى سنه يصعب عليه الوصول إليها. حتى تلك

التى عثر عليها كانت ضيقة وبائسة. خيال الطفولة وحده هو الذى جعل منها أماكن مسحورة ومترعة بالمخاطر والعجائب. أما الآن فقد كان يراها كما كانت وذلك أثار حنقه واكتئابه بدل أن يحرك مشاعره. الجدول وحده ظل يحتفظ أمام ناظريه بأسرار ذكرياته. إلى هناك كان يذهب مع والده كل يوم تقريباً، حين عاد هذا من كوبا؛ الآن كذلك لم يكن يمر يوم دون أن يذهب إلى النهر فيجلس على صخرة ويشاهد جريان الماء وتقافز سمك التروتة وينصت إلى تلك الاصوات الواضحة دائماً حتى إنها على وشك أن تصير كلمات. على شجيرات الضفة الأخرى فى صباح العديد من الأيام تنشر الملاءات لتجف فى الشمس التى تبرز بياضها على خلفية العشب الداكنة فتؤذى العين. كان ينتشى كذلك بأريج الريف. ففى المدينة، الروائح كالأشخاص، فردية وعدوانية وأكثرها نفاذاً له الغلبة على الروائح الأخرى، تسرب الغاز من مصنع، عطر امرأة، إلخ. بعكس الريف حيث تمتزج شتى الروائح فى واحدة تترع بدورها الهواء، فهنا التنسم والتنفس شىء واحد. كانت الطريق المؤدية إلى الجدول مغطاة بالأوراق الجافة، وتحت الشجر عيش الغراب بألوان وأشكال شتى: إنه الخريف. ترك أونوفرى نفسه لتغمره هذه الأحاسيس التى تحيى فيه ذكريات متنائية وغير محددة، ذكريات تعبر ذاكرته لحظياً كظلال طيور محلقة. وحين يريد أن يقتفى أثر أية ذكرى يجد نفسه تائهاً فى ضباب كثيف، حينئذ ينتابه ضرب من الحلم المنقذ: يعتقد أنه يرى يد والدته أو والده وهما يجتهدان إرشاده إلى مكان أكثر نوراً وأماناً. لكن أياً من هاتين اليدين لا تتمكن من الإمساك بيده. فى درج خزانة الملابس فى الحجرة التى خصصت له فى منزل أخيه، عثر على قطعة من الصوف الخشن كانت لأمه. هى كانت تستخدمها شالاً، تحديداً فى أيام الشتاء الغادرة. الآن صار الصوف متيبساً وخشن الملمس وله رائحة الرطوبة والغبار. حين يسقط فريسة لتلك الذكريات والأحلام كان أونوفرى يخرج الشال الذى كان لوالدته ويجلس ويضعه فوق ركبتيه

وهكذا يلبث سـاعـات وهو يداعب الشـال فى شـرود. فى مـثل تلك اللحظات كان يفكر فى أنه لو لم يختـر حيـاة المغامـرة ربما تمتع بحيـاة غنيـة بالمشاعـر والحنان. لم يكن يؤنب نفسـه على ما اقترفه من شـر بل على تقديم أمور أخـرى على ذكريات حميمة لم يعشها. هذا الألم، فضلاً عن كونه يجيىء جد متأخر، كان ينطوى على كثير من الأنانية.

فى مسـاء أحد الأيام، لدى عـودته من النهـر، رأى رجـلاً متكئاً على جذع شـجـرة على جـانب الطريق التى يسيـر فيهـا، برأسـه المنكفئ على صـدره بدا نائمـاً لكن وضعـه لاح غيـر مـألوف مما دفـعـه إلى الحيد عن الطريق والاقتـراب من الرجل. من ثوب الرهـبنة كان يُرى أنه القس، ذلك الكاهن الشـاب الذى كان يطلق ضـده خطبـاً مهـرطقـة. قبل أن يصل إلى جانبـه أدرك أنه ميت. بعد قليل من الفحص المتأنى اكتشف أن موته لم يكن نتيجة لظروف طبيعية بل إن شخصـاً أطلق على صدره رصاصة من عيار كبيـر، وربما تكون بندقية صيد، وفى موضع الطلقـة تيبس قماش ثوب الراهب بفعل الدم المتجلط. كذلك تلوثت يده اليمنى وجبهته وخـده بالدم رغم أنهـا لم تكن مصـابة. مع أن العنف لم يكن جـديداً عليـه تأثر كثيـراً لهذه الجـريمة، ومسـألة أن يكون هو من يكتشـفهـا لاح له نذيراً من القـدر أو ثمـرة مـؤامـرة شـريـرة تصله على نحـو مشـؤوم بالقس المقـتول. والآن، انكسـر بلا رجعـة ذلك السـلام الداخلى الذى ظن أنه عـثـر عليـه. غـادر مكان الجـريمة ركـضـاً ولم يتوقف إلا عند بـاب منزل أخيـه. وهذا كان جالسـاً فى غرفـة الطعام يحتسـى نبيذاً فيمـا تعد المرأة العشاء. وحين التقط أنفاسه وأخبر أخاه بما حدث لاحظ أن المرأة تركت ما كانت تفعله وجعلت تنصت باهتمام للقصة متكئة على قائم باب المطبخ. تبادل شقيقه وهى نظرات لم تخف عليـه. منذ اليوم الذى وصل فيه أتيـحت له فرصـة التعامل معهـا واكتشف بلا دهشـة أنهـا صـاحبـة السلطة فى ذلك البيت. كل ليلة تقريباً، بعد أن تضع جوان فى الفراش، الذى من النادر أن يسمح

له الكحول باجتياز عتبة منتصف الليل وهو فى وعيه، وبما أنه، على عكس أخيه، يغوص به الشراب فى حالة من التوتر تجافى النوم، فإن كليهما، أونوفرى والمرأة، التى يبدو أنها لم تكن فى حاجة إلى الراحة أو على الأقل إلى تلك الراحة المعتادة التى يحتاج إليها الناس، خاصة الرجال، فى مختلف المراحل السنية، كانا يجلسان فى غرفة الطعام أو، إذا كانت ليلة قائظة وأقل رطوبة عن المألوف، فى الفناء الذى يغزوه فى تلك الساعات عبق زهور الأزالية النفاذ، ويتجاذبان أطراف الحديث فى دعة، وأحياناً حتى ساعات متقدمة من النهار. دون أن تكون امرأة ذكية كانت لها ما للنساء من موهبة إدراك لما يجهله الرجال دائماً من أمور مهما حاولوا استكناهها: ومن خلال الظاهر كانت قادرة على رؤية الحقيقة المجردة التى تطلع عليها الآن أونوفرى بوفيلا. وبفضلها أخذ يكتشف أن تحت الانسجام المصطنع السائد فى القرية تغلى عواطف متدنية وأحقاد لها جذور قديمة، وغيرة وخيانة؛ وهى ترى أن سكان ذلك الوادى من الفلاحين كائنات حقيرة بسبب الأمراض الناجمة عن زواج الأقارب، كائنات باردة بلا قلب تترك العجائز يموتون جوعاً، وتمارس قتل الأطفال وتعذب الحيوانات المستأنسة بهدف المتعة وحدها. وهو كان يرفض من حيث المبدأ أن يصدق مثل تلك الأمور إذ يعتقد أن مردها شعور الحقد العام البادى على تلك المرأة. وهو لم يستبعد كذلك أن تكون تلك الأسرار القاتمة جزءاً من خطة أعدت هى لها بطريقة أو أخرى. على أية حال، ما كانت تقوله له أثار فى نفسه قلقاً زاد حالته العامة انزعاجاً. أحياناً، مقتدياً بأخيه، بحث فى الشراب عن راحة يبدو أن ضميره حرمها على جسده. فى واحد من هذه الأحيان صحا من نومه مع أذان الديك ليكتشف مذعوراً أن المرأة ترقد فى دعة إلى جواره فى الفراش ولا يتذكر ما حدث فى الليلة السابقة. وحين أيقظ المرأة ليسألها أومأت له بغضب لكنها لم تجبه فجعلها تترك الفراش أولاً ثم طردها من الغرفة ولبث يفكر فى العواقب المحتملة لذلك الحادث غير المتوقع:

فسواء أأقدم هو على ارتكاب فعل أرعن أم وقع فريسة لخدعة ما حدث هو أن الأمور أخذت تجرى مجرى غير مُرض. مع ذلك، لم يكن فى وسعه الا يعجب بشجاعة المرأة التى بدأ يشعر نحوها بانجذاب خطر يدوم أطول بكثير مما يسفر عنه تناول الكحول من نزوات عارضة. وبالطبع لم يكن هنالك أقل ضرب من ضروب العفوية فى سلوك المرأة الذى لم يكن مرده البراءة الطبيعية، فهى تعلم جيداً ما وضعها فى ذلك المنزل ورد الفعل الذى يثيره فى القرية، لكنها لم تكن امرأة تحسن تقدير الأمور وتدبيرها فاقتصرت على اللعب بما لديها من مزايا قليلة، وأن تقامر بأوراقها الفقيرة، بالهدوء البادى على المقامر المحترف الذى يدرك أن حياته متوقفة على الحظ وعلى مهارته معاً. على مدار كل ذلك الوقت وعلى الرغم من تبادل الثقة فيما بينهما لم يتمكن أونوفرى من التوصل إلى حقيقة العلاقة التى تربطها بشقيقه. كان يعلم أنها أرملة كما حدس فى البداية وأنها دخلت فى خدمة جوان لحاجتها إلى العمل أما فيما عدا ذلك فظل فى طى الكتمان. وكان كل شىء يشير إلى أن إدمان أخيه للخمر يسقط من هذه العلاقة عنصر الجسد، ولكن، فى هذه الحالة، ما مبرر عدم إيضاح هذا الفهم الخاطئ للقرية والذى يسفر عن إلحاق الضرر بها بل تسهم فى استمراره؟ فكر أونوفرى: من المحتمل أنها تتحين فرصة اصطياده، وتعلم أنه لن يلبث أن يقع، حينئذ ستكون هى امرأة العمدة وتستعيض بذلك من أعوام المهانة والمرارة. كلما فكر فى ذلك يغزوه أحلك صنوف التشاؤم، فيقول لنفسه: نحن الفقراء ليس لنا إلا خيار واحد: إما الشرف والمهانة وإما الشر وعذاب الضمير. كان يفكر فى هذا أغنى رجل فى إسبانيا. فيما بعد اكتشف ان زوج تلك المرأة مات ميتة عنيفة ورغم إلحافه امتنعت المرأة عن إعطائه أية تفاصيل فى هذا الشأن. أثار ذلك الاكتشاف الجزئى فى رأسه كافة أنواع التخييلات: ربما لم تكن هى بعيدة عن تلك الميتة العنيفة مهما ظهر أنها لم تفد منها شيئاً مادياً؛ قد يكون أخوه قد تورط فى جريمة تقيده الآن بهذه المرأة

بشكل نهـائى. بمرور الوقت راحت الحـيـاة فى ذلك المنزل تعن له غـيـر مريحة. ثم وقعت الجريمة المذكورة فداخله شعور أكبر بعدم الأمان. كان يقول لنفسه إنها حين بدأت معه علاقة تعلم مسبقاً أنها غير محتملة وعارضة حتماً كانت تحاول فقط إجبار جوان على حل غموض وضعهما معاً، على أن هذا التفسير المنطقى لم يكن يبدد خوفه المتنامى من أن يكون ضحية مؤامرة. والآن النظرة التى تبادلها جوان والمرأة بعد سماع ما حدث استغلقت تماماً على فهمه. وحين أشار إلى أخيه إلى أن القس مات متأثراً بطلقة بندقية، وهو ما يقصر قائمة المشتبه فيهم على الصيدلى والبيطرى اللذين لديهما ترخيص بحيازة أسلحة صيد، أجابه اخوه مقهقهاً: لا توجد دار فى الوادى لا تملك ترسانة صغيرة غير مرخص بها. أقلقه هذا التمديد الفجائى لقوس المشتبه فيهم، فالآن ستبدأ الأقاويل والتخمينات التى سيجد نفسه متورطاً فيها على نحو من الأنحاء. وخلافاته مع الكاهن يحيط بها عموم الناس: هذه الخلافات لم تأخذ قط مأخذاً جدياً بل كانت، من ناحيته، تسلية محضة، لكن المحتمل أن تؤولها ألسنة الخبثاء تأويلاً شريراً ونتيجة للأقاويل تفهم على أنها عداء متبادل. ويمكن أن تكون مصدراً للاشتباه فيه كذلك البغضاء الشديدة القائمة بين القس والمرأة، هذه التفريعة المحتملة للجريمة كانت تقيم صلة بينه وبينها. كان الوضع معقداً. فى واقع الأمر، لم يكن يشغله احتمال اتهامه بجريمة لم يرتكبها فلقد كان اعتاد بما فيه الكفاية أن يتجنب أن يتهم بارتكاب جرائم ارتكبها بالفعل لكى تجىء اليوم وفاة قس ريفى صغير لتفقده شهيته للطعام. لكن ما يسبب له دواراً هو ما يلى: فكرة أن هذه الجريمة لم تكن ستـرتكب قط إلا فى حضوره، وكونه هو الذى سيسعد الجانى الحقيقى بنفى التهمة عنه وإعطائه حافزاً. فى بحثه عن السلام قاد الوادى إلى الفرقة والعنف وسمم مناخه. فلم يكن هنالك ملاذ من مصيره: طالما بدأ هذه الطريق عليه أن يسير فيها حتى النهاية. فى اليوم التالى غادر القرية فى الشاحنة القادمة من باسورا.

كانت جثة القس قد اكتشفت مرة أخرى فى ذلك الصباح لكن لم يدر بذهن أحد أن يبقى عليه فى القرية أو يناقشه فى حقه فى مغادرتها؛ وذلك فى رأيه دليل ملموس على أنهم جميعاً يرتابون فى تورطه. ودعه أخوه بنفس القلق الذى استقبله به؛ فى ذلك التصرف الخالى من أى تعبير قرأ أونوفرى انكشافاً مطلقاً. لم تظهر المرأة كذلك أى شعور حيال رحيله لكن عينيها عكستا جفاف من ذرف دمعاً غزيراً، من ينتابه أعمق يأس. أمن المعقول، بعد كل هذا، أن يكون ما يحرك أفعالها ليس إلا حباً هشاً بلا مستقبل، وألا يكون كل ما عدا ذلك سوى خيال معذب؟ - هذا ما راح يفكر فيه فى الشاحنة.

(٤)

حين عاد إلى منزله ألفى أسرته فريسة اهتياج شديد. فمنذ عدة أيام وهم يبحثون عنه فى يأس: فظناً منهم أنه فى باريس اتصلوا هاتفياً بالقنصلية وبالسفارة الإسبانية هناك وبكافة الفنادق الكبرى واتصلوا كذلك بالسلطات الفرنسية. الاضطراب الناجم عن تلك الإجراءات الحاسمة يحجب الآن مفاجأة رجوعه نفسها، فلم يبدُ أن أحداً التفت إليه. فى نهاية الأمر نجح فى أن يفسر له أحد مبرر البحث عنه على ذلك النحو غير المألوف: تقدم شاب حسن الهيئة ومن أسرة عريقة يطلب بلا مقدمات يد ابنته الصغرى البالغة من العمر ثمانية عشر عاماً أتمتها حديثاً. فكر: ها قد بدأ الصراع على ما تبقى منى. فهو لم يكن يعرف لابنتيه قيمة كبيرة، واعتقد أن عليه أن يواجه واحداً من صائدى الدوطة غير أنه وطد عزمه على ذلك الاحتمال. لم يكن فى وسعه أن يحمل المسألة محمل الهزل كذلك، لذا أعطى تعليماته لدعوة الخاطب إلى مكتبه فى ذلك المساء نفسه. ثم اختلى إلى نفسه للراحة. أيقظه رئيس الخدم ليعلمه بزيارة إفرين كاستلز. اقتحم مكتبه ومعه حقيبة مملوءة بالأوراق: جاء ليتحدث فى أعمال. أصابه ذلك بالخيبة. ابتدره إفرين قائلاً:

- أحسنت فعلاً باختفائك، كانوا يسعون للقضاء عليك حقاً.

أومأ مارد كاليّا متحيراً وزفر زفرة: لحسن الطالع مرت لحظة التوتر الأولى بسلام. قال:

- ذهبت إلى حيث جاءت.

خلال أيام حتى هو نفسه لم يكن يأمن على حياته. سيارات مريبة راحت تنهب الشوارع فى ساعات متأخرة من الليل؛ فى أحايين أخرى، فى أشد ساعات الصخب تغوص المدينة فجأة فى سكون وصمت

ويتحدث الناس بصوت خفيض. ثم عاد كل شىء إلى مجراه الطبيعى. فتح العملاق الحقيبة وجعل يخرج منها أضابير. طفق يقول:

- جئت أعرض عليك الحسابات...

استوقفه أونوفرى بوفيلا قائلاً: لدينا وقت. أصر إفرين كاستلز على أن يطلعه على الموقف الاقتصادى الخاص لكليهما. قال العملاق:

- فى بداية الأمر شاءوا أن يسلبوك كل شىء فلما رأوا العقود التى أبرمناها أسقط فى أيديهم حتى إن الذعر والسخط لاحا على وجوههم.

أولئك الأشخاص أنفسهم الذين ما كانوا ترددوا فى قتله أصابهم الشلل أمام ذلك الكم من الوثائق الموثقة، لم يباغته ذلك التناقض الظاهر. أردف العملاق:

- استدعوا كل محاميهم للتشاور ولبثوا يدرسون المسألة عدة أيام بلياليها فأعيتهم الوسيلة للنفاذ إليها. وفى يأس طلبوا إسهامى لكننى ظللت صامداً. فى النهاية توصلنا إلى اتفاق: أنا وعدتهم بأن أستمر فى الاضطلاع بأعمالك وهم، فى المقابل، وعدونى باحترام استقلالى، واضطررت كذلك إلى الالتزام بالحصول على موافقتك على ذلك الاتفاق، وكل شىء يتوقف الآن على ذلك.

قال ذلك ولزم صمتاً موقراً. قال أونوفرى بوفيلا:

- لقد أحلت إلى التقاعد، أليس كذلك؟

- لن يستمر طويلاً.

فى الثامنة، حضر طالب يد ابنته إلى مكتبه متحرجاً. له مظهر هش، قليل الذكاء، ويبذل مجهوداً عظيماً فى نطق عبارتين مفهومتين؛ لا يبدو وغداً ولا رجلاً شريفاً. جعل أونوفرى يعامله بود، وذلك الود الذى لم يكن ينتظره حيّر الخاطب إذ إن والده كان نصحه: مهما يحدث لا تفقد اتزانك، إذا سبك أو أساء إلى العائلة أظهر أنك لم تفهم. والآن، إزاء كل ذلك الود، لا يعرف ماذا يفعل أو يقول. أونوفرى نفسه كان يسير

على غير هدى، فبُعيد ذهاب إفرين كاستلز تلقى زيارة حميه. ردد دون أومبرت فيجا إى موريرا نفس الحجج التى طرحها مارد كاليًا، ثم نصحه بما يلى: الأفضل أن نتسلح بالصبر، اعتبر هذه الفترة إجازة كنت فى حاجة إليها، كرس نفسك للحياة الأسرية ومتع المنزل والمائدة العامرة. وعده أونوفرى بوفيلا بأن يستمع إلى نصائحه. ثم دخلت زوجه وابنته. قالت له زوجه: أطلعنى أبى على الوضع، يسعدنى أنك قررت التصدى للأمر بهدوء. لاحظ فى صوتها نبرة رضا، لاح تعبير وجهها كأنه يقول له: لو أن هذه الأزمات تفيد فى أن نستعيدك أنا وابنتاى فأهلاً بها. طرقت ابنته الموضوع مباشرة، رجته: كن رفيقاً به يا أبى، فأنا أحبه بكل روحى، والآن كل سعادتى بين يديك. تذكر هذه الكلمات وهو ينظر إلى طالب يدها، فكر: سيكون دمية فى يد ابنتى، ربما يكون هذا ما أرادته، مثل هذه الأمور تكون فى غاية الوضوح فى مثل سنها: حسن، سأعطيها موافقتى وبذا أكسب امتنان أسرتى كلها، وبعد قليل، ستشهد الدار غزواً من الأحفاد، قد يكون حماى على حق وحانت ساعة التمتع بالراحة فى المنزل. ثم قال بصوت عال: أنا لا أعارض تماماً هذا الزواج العبثى فحسب بل أمنعك من معاودة رؤية ابنتى، وإذا حاولت بأية وسيلة الاتصال بها أو بأى فرد من هذا المنزل، من أسرتى أو من الخدم، سأجعل رجالى يتعقبونك ويكسرون كل عظامك فى زقاق مظلم. شاء القدر أن يقدم له ضحية يصب عليها جام غضبه المتراكم طوال اليوم وهو لم يكن يهدر مثل تلك الفرص. فكر: حير الله أسرتى! ثم استأنف حديثه متوجهاً إلى العريس الذى لم يكن يصدق ما يسمعه: هذا المنع الذى أعلمك به الآن لا رجعة فيه، لا تعول على أننى سأغير رأيى بمرور الوقت، فهذا لم يحدث من قبل ولن يحدث من بعد، وإذا أصررت على رؤية ابنتى أو على توصيل رسائل إليها، على الرغم من كل تحذيراتى، فسوف أضطر بكل أسف إلى أن آمر بأن يطلقوا عليك رصاصة فى قفاك. أعتقد أننى تكلمت بكل وضوح. سيصحبك رئيس الخدم حتى

الباب.

جعله هذا اللقاء يستعيد جزءاً من اعتدال مزاجه المفقود؛ بل إنه بادر بلفتة كريمة نحو زوجه فيما بعد، إذ قال لها: لا تقلقى، إذا كان كل منهما يحب الآخر فعلاً وهو يستحقها فسيعود من أجلها على الرغم من تهديداتى: فى هذه الحالة، لن ألتزم بما قلت، بل على العكس، سنقيم عرساً عظيماً وسأحاول ألا ينقصهما شىء؛ غير أننى أرى أننا لن نعاود السماع عن هذا الولد، صدقينى يا امرأة، ليس إلا طفيلياً، ولن يسعد البنت. سيكون هنالك غيره، لا تبكى واذهبى لتواسيها، وسترين كيف يزول حزنها فى الحال. فيما عدا هذه الحالات العارضة لم يكن يرى فى الحياة الأسرية أى حافز.

والآن كرس كل وقته لاستئناف إعادة بناء الضيعة الذى توقف مع رحيله. ومن قبيل المصادفة تم الانتهاء من ذلك العمل الضخم فى حوالى منتصف ديسمبر، بُعيد أيام من إتمام أونوفرى بوفيلا عامه الخمسين. الآن فقدت الحديقة هيئة الغابة واستعادت تناغمها الاصلى فالزوارق تتمايل فى القناة بعد تلميعها بالورنيش وعدد من أزواج البجع عكس أشكاله البديعة على مياه البحيرة الشفيفة. وداخل المنزل، تفتح الأبواب وتغلق فى نعومة وتومض الثريا فى المرايا وعلى الأسقف ترى كروبيم وحوريات رسمت حديثاً، وتخفف البُسُط من وقع الأقدام ويمتص الأثاث سطحه البراق الضوء المصفى المتسلل من منفرجات الشيش. حانت لحظة الانتقال. حاولت ابنتاه مقاومة الفكرة، إذ ترفضان الرحيل عن المدينة وتقولان: من سيأتى لزيارتنا فى هذا المكان المهجور؟ وكان يرد على ذلك بقوله: مادمت غنياً سيذهبون إلى الجحيم لزيارتنا هناك إذا لزم الأمر. فى واقع الأمر، كانت زوجه وابنتاه يخشين على أنفسهن من العيش فى مكان منعزل مع ذلك الرجل الذى يمارس طغيانه عليهن ويبدو أنه يستمتع برؤيتهن يتعذبن. كما أن الضيعة بثت فيهن خوفاً ونفوراً، فعلى الرغم من أن إعادة بنائها يمكن أن توصف بأنها رائعة كان ثمة ما

يثير القلق فى تلك النسخة الشديدة المطابقة للأصل، شىء مفرط الأبهة فى ذلك الزخرف المبالغ فيه، شىء من الخبل فى ذلك المسعى لتقليد وجود غابر وغريب، شىء فظ فى تلك اللوحات والقوارير والساعات والتماثيل المقلدة التى لم تكن هدايا أو إرثاً والتى لم يكن وجودها نتيجة اكتشافات متلاحقة أو نزوات والتى لا تحتفظ بذكرى لحظة اقتنائها أو المناسبة التى أصبحت فيها جزءاً من المنزل؛ هناك، كان مرد كل شىء إرادة صارمة، كان كل شىء مزيفاً وقمعياً. بعد أن سكنت أصوات الأعمال واختفى البناؤون والعمال والمزخرفون والنقاشون وفرض النظام والنظافة استعاد القصر مهابة جنائزية. حتى البجع فى البحيرة اكتسى بلاهة أصيلة فيه. بزغ الفجر ليلقى ضوءاً مشؤوماً ومغايراً على القصر. نالت تلك السمات رضا أونوفرى بوفيلا. هناك بوسعه أن يحيا على هواه دون أن يرى أو يسمع زوجه وبناته خلال أسابيع كاملة. لم يتنزه فى الحديقة البتة ونادراً ما يخرج طوال النهار من الغرف التى قصرها على استخدامه الشخصى. لا يستقبل زيارات، وعلى عكس توقعاته لم يذهب أحد لزيارتهم بناء على رغبته. بعد عدة شهور من الانتقال هجرت بنتاه البيت نهائياً. كانت الصغرى أول من رحل. بمساعدة جدها دون أوميرت فيجا إى موريرا، الذى من فرط حبه لها تجرأ رغم سنه ونوباته على التعرض لغضب زوج ابنته المحتمل، أقامت فى باريس؛ هناك، بعد مرور بعض الوقت، تزوجت من عازف بيانو مجرى هش السمعة والمستقبل وتضاعف سنه سنها، ومنذ ذلك الحين وهما وهما يهيمان على وجهيهما من مدينة إلى مدينة يطاردهما الدائنون. لم تلبث الابنة الكبرى أن حذت حذو شقيقتها. فعلى الرغم من أنها أقرت على الملأ بأنها ليست لديها أية ميول فى ذلك الاتجاه، انضمت إلى جماعة تبشيرية علمانية تمارس التعليم والطب فى أصقاع بعيدة ومتخلفة. وفى أعقاب عدة أعوام قضتها فى الأمزون، على مقربة من إيكيتوس، لا تحسن بقدر ما تسئ المراوحة بين ممارسة التوليد واستهلاك الويسكى بلا اعتدال، أعادتها

سلطات بيرو إلى وطنها؛ من أجل ذلك اضطروا إلى رشوة عدد من موظفى الحكومة وتعويض ضحايا إهمالها وإدمانها وجهلها. بعد ذلك عاشت حياة وادعة، تلفها أبخرة الكحول، فى جناح فندق الريتز بمدريد حتى وفاتها فى عام ١٩٨١. رأى أونوفرى بوفيلا تفكك أسرته بنفس الإعراض الذى رأى به تكونها بعد وفاة ولده الثانى: أسرة من النفاية والشعور بالخيبة. تمضى زوجه اليوم بأكمله وجزءاً من الليل فى مصلى الطابق الأول؛ إلى هناك تأمر بإحضار صناديق الكمأ المثلج والملبس بالكحول الذى تستهلكه جبراً فيما تجرب الخروج من متاهة الصلوات التساعية والثلاثية وإحياء ذكرى آلام المسيح وأعياد الغطاس وغيرها وكتب الصلوات وما بين أيام الأعياد وزيارة المعابد، إلخ، التى كانت تضل فيها. الآن تبدو الدار خاوية حقاً. وإذا كان الأثاث والأشياء فى بداية الأمر افتقرت إلى حياة مفعمة بالمشاعر فسرعان ما اكتست حياة شبحية: فى الليل تسمع أصوات فى الحجرات الخاوية وفى اليوم التالى تبدو الأصونة وكأنها تحركت من مكانها والبُسُط مطوية كأنما كل تلك القطع الضخمة والمفرطة الثقل قضت الليل تتجول بين القاعات تحت جنح الليل. فى حقيقة الأمر، لم يكن هنالك شىء خارق فى ذلك: إنهم الخدم يعبرون عن عدم رضاهم واستيائهم. جعلوا يقولون فيما بينهم: لنرَ، ربما تمكننا من إصابة السيدة بالخبل! فيما يعمدون مباشرة إلى طرق المواعين وجر الأثاث وخبط الحوائط بالسلاسل الحديدية. ولكى يتحرر من ذلك المناخ المقبض الذى يسود الدار اعتاد الخروج كل ليلة. فى صحبة السائق والحارس الشخصى راح يجوب أحط جيوب الرذيلة، وهرباً من الأناقة والنظافة يبحث عن صحبة الحرامية والأشرار والبغايا معتقداً أنه على ذلك النحو قد استعاد برشلونة تلك التى شاء من قبل أن يعلو عليها ولكنه يظن الآن أنه كان سعيداً فيها. فى حقيقة الأمر ما يهفو إليه هو شبابه الضائع. لهذا الغرض أخذ يجرب إقناع نفسه أنه يشعر فى تلك الأجواء التى ترشح خزياً وشقاءً بأنه فى داره. فى قرارة نفسه

يعلم أن تلك الجحور الدنسة، السيئة التهوية، وتلك الأسرة التى تنز عرقاً والكريهة الرائحة التى يستيقظ فيها مذعوراً، يعلم أنها تثير غثيانه. فالنبيذ الردىء والشمبانيا المغشوشة والكوكايين الذى يتناوله ليظل مبتهجاً طوال الليل، كانت تؤذيه إذ اعتاد التقيؤ فى الشارع أو فى السيارة لدى عودته مع انبلاج الفجر. كان يعلم كذلك أن أولئك الثرثارين والمهربين والعاهرات يسعون وراء ماله فى استماتة. فحين يخرجه السائق، بين ذراعيه تقريباً، من أى ماخور، يتغير فى غمضة عين تصرف البغايا اللائى كن استقبلنه بمظاهر بذيئة من التعاطف، فيسلبهن القوادون ضرباً المال الذى أعطاهن إياه بلا حساب، فيتلاشى الفرح والشبق ولا يبقى سوى الجشع والعنف والحقد. كان يدرك ذلك كله لكنه ينخدع بمحض إرادته وليس فى ماله وحده الذى كان يبذره وإنما بذلك الخداع كان يظن أنه يدفع حق تنفس هواء الميناء من جديد، ورائحة الملح والبترول والفاكهة الناضجة التى تفسد فى الحجر الصحى فى أقبية المراكب، كأنه مازال على قيد هذا العالم، الذى كان فقده قبل ذلك بأعوام.

فى إحدى الليالى، استيقظ فى حجرة صغيرة مغطاة بورق قذر كان لونه الأصلى برتقالياً وتدلت من سلك كهربى لمبة سلك حرارى. شعر ببرودة يديه وقدميه وبتمميل كريه فى ضلعه الأيسر. أدرك أنه يحتضر وأدهشه الدقة التى مازال بوسعه أن يرصد بها تفصيلات بلا أهمية. إلى جانبه سمع صراخ بغى لا يتذكر أنه رأى وجهها من قبل. بعد مجهود مضن تمكن من الإمساك برسغها: كان يعلم أنها لو أفلتت من يده ستسلبه كل ما معه وتفر دون أن تقول شيئاً لأحد. ستتركه يموت فى مكانه. فكر: سأعدها بكل شىء لو أنها ساعدتنى. لكن الكلمات تخنقه، لا تدعه يتنفس. فكر: ليس مكاناً سيئاً أموت فيه، يا لها من فضيحة! ولكن، ماذا أقول؟ أنا لا أريد أن أموت هنا ولا فى أى مكان آخر. تخلصت البغى من قبضة يده ولملمت ملابسها المتناثرة على أرض الغرفة وخرجت إلى الممر

وملابسها بين ذراعيها. وحده، اجتهد ألا يقع فريسة للذعر. فكر: هذه هى النهاية. سمع صراخاً وركضاً فى الممر قبل أن يفقد وعيه.

فى واقع الأمر، تصرف الجميع بحكمة. ركضت البغى تبحث عن السائق ما إن ارتدت ملابسها وهذا، خشية أن تقع المسؤولية على كاهله إذا ساءت عاقبة الأمر، بحث بدوره عن إفرين كاستلز. وحين وصل كلاهما الماخور كان القوادون والفتيات قد ألبسوه على أى نحو ملابسه، غير أنهم لم يتمكنوا من إجباره على تناول جرعة كونياك مهما حاولوا إرغامه بيد الملعقة. وزع إفرين كاستلز إكراميات على الجميع، حتى على الحارس الليلى وحامل مفاتيح الدور، اللذين كانا حاضرين، فأعربوا جميعاً عن رضاهم وأقسموا أن يلزموا الصمت. كانت الساعة تدق الرابعة صباحاً حين وضعوه فى الفراش وأبلغوا زوجه. وهى كانت على مستوى الموقف وتصرفت تصرف سيدة البيوتات، فقبلت الإيضاحات المرتجلة وغير المنطقية التى قام بها إفرين كاستلز على نحو أخرق وحركت جميع الخدم، ونتيجة لذلك، بعد عدة ساعات، تحول القصر إلى خلية نحل، فقصد الضيعة أطباء متخصصون وممرضات وأيضاً، تحسباً لأية نهاية أليمة، محامون وموثقو عقود ومعهم مساعدوهم ووكلاء لتغيير العملة والبورصة ومسجلو أملاك وموظفو الخزانة وقناصل وأقطاب الجريمة المنظمة وسياسيون (حاولوا إخفاء هويتهم) وصحفيون ومراسلون وعدد كبير من رجال الدين مزودين بما يلزم لتناول القربان المقدس أو الاعتراف أو المسحة الأخيرة، حسب الحالة. ذلك الحشد يهيم الآن على وجهه فى الحديقة والمنزل، يدخل كل القاعات والغرف ويفتش فى الأصونة ويفتح الأدراج ويقلب المتاع ويلمس الأعمال الفنية ويتلف بعض الأشياء بإرادته أو بغيرها، ومصورو الصحف ينصبون حوامل عدساتهم وآلاتهم وسط الصالونات ويؤذون عيون الجميع بدخان لمبات الماغنسيوم ويسرفون فى استخدام ألواح التصوير فى التقاط صور يضيع معناها عند تحميضها، وتلقى الخدم الرشاوى مقابل إفشاء أسرار

حقيقية أو متخيلة لمن يدفع أكثر. ولم يغب محتالون ادعوا أنهم أصدقاء الأسرة أو معاونون مقربون للمريض تلقى منهم الصحفيون والمزايدون المبتدئون، مقابل مبالغ مالية، أشد المعلومات تشويهاً وغموضاً مما أسفر عن انخفاض البورصة فى عدة أسواق مالية. وهو لم يكن يعلم شيئاً عن هذه الأمور أو كانت لديه فكرة مبهمة، فبفعل ما يتناوله من أدوية بدا معلقاً فى الهواء، لا شىء يؤلمه ولا يشعر بجسده إلا فيما عدا برودة أطرافه المستمرة. ولولا تلك البرودة لكانت حالته أفضل من أى وقت مضى - هكذا فكر. شىء من هذا الشعور بالرغد يعود به إلى طفولة أسبق على أقدم ذكرياته. فقد إحساسه بالزمن وعلى الرغم من سكونه التام لم يثقل عليه انصرام الوقت أو عدم الحركة. والأشخاص الذين يدخلون ويخرجون، الأطباء الذين يفحصونه بلا توقف، الممرضات اللائى كن يعطينه الدواء والغذاء والمهدئات والحقن ويأخذن منه عينات الدم ويقمن على قضائه حاجاته التى لم يعد يتحكم فيها ويحممنه ويعطرنه، زوجته التى تزوره بصفة دورية، التى تقضى فى البكاء إلى جانب فراشه اللحظات القليلة المتاحة لها، اقتحام أولئك الذين تمكنوا بأية وسيلة من التسلل إلى مخدعه ليطلبوا منه معروفاً أخيراً، ليدعوه أن يسعى إلى سلام نفسه مع بارئها، ليسألوه عن أحد البيانات الجوهرية لشركة أو صفقة تجارية مهمة أو ربما ليسمعوا على لسانه سر نجاحه، هؤلاء الأشخاص يبدون له شخوصاً متخيلة، شخصيات من صورة للأطفال تتحرك الآن فى مستويات محدودة وثابتة فى الحيز الذى يحيط به وتتداخل فيها. وكذلك حيرته الهمسات والهمهمات وأصداء الأصواء ووقع الخطا القادمة عبر الحوائط والتى ترتفع عندما يفتح باب ثم تصمت عند إغلاقه، فلم يكن فى وسعه التمييز على نحو واضح بين الأصوات والروائح والأشكال والأحاسيس، فكافة هذه الأشياء تتعرض لتفسيرات معقدة وليست صائبة أو منطقية دائماً. ملمس يد الطبيب أو الممرضة، رائحة الكينا أو بياض معطف، وجه متفرس قريب

من وجهه قد تؤلف كلاً واحداً يمتنع عليه أن يفصله، فيقول لنفسه: ما معنى هذا؟ ماذا تفعل هذه الأشياء غير المتجانسة إلى جانبى؟ لم توجد هنا؟ وينقله خياله المنطلق عند لمسه هذه المحفزات ينقله وهلة بسرعة تثير الدوار عبر فضاء بلا حدود ويتركه على ضفة لحظة نائية من ماضيه يعيشها الآن على نحو بالغ الدقة حتى لتبدو له تلك المعايشة محيرة ومؤلمة. ثم يتلاشى ذلك كله فى بطء كدخان السجائر فى الجو الخانق لقاعة ولا يبقى فى الوعى إلا رعب اقتراب الموت. فى مثل تلك الحالات ود لو قدم أى شىء لقاء مواصلة الحياة نذراً قليلاً وعلى أى نحو، وهو يعلم أنه فى ذلك الوضع ليس بوسعه أن يعقد أية صفقة فيخيم عليه اليأس. كان يقول لنفسه: كيف يمكننى أن أصدق أننى لا أستطيع فعل أى شىء لتجنب هذا الأمر الرهيب؟ مقتنعاً بأن حياته على وشك التلاشى كما يتلاشى ضوء بمجرد لمس مفتاح الضوء وأنه سيختفى إلى الأبد وبلا حل، كان يجهش بالبكاء فى يأس طفل حديث الولادة لكن أحداً لم يكن يلتفت إلى ذلك لأن ملامحه لا تتبدل فلا تعبر إلا عن الدعة والتماسك.

لم تغب كذلك حالات أسفرت فيها هذه الذكريات والدوار والذعر عن رؤى غير واقعية وممتعة. ففى واحدة منها ظن أنه فى مكان غير محدد ينيره ضوء رتيب، كأنه منتصف نهار مضبب؛ حينئذ رأى، وهو فى هذا المكان دون أن يدرى السبب، رأى شخصاً يقترب منه لاح من بعيد أنه يعرفه. وحين دنا منه شكر للظروف إتاحتها ذلك اللقاء. قال: أبى، لم نلتق منذ زمن طويل. ابتسم الأمريكى، لم تكن هيئته تغيرت عن اليوم الذى عاد فيه من كوبا ببذلته الكتانية وقبعة بنما وقفص القرد فيما عدا أنه الآن أطلق لحية طويلة ومشذبة. سأله: وهذه اللحية يا أبى، لم أطلقتها؟ هز الأمريكى منكبيه كأنه أراد أن يقول: لا أدرى يا بنى. ثم فغر فاه وحرك شفتيه فى بطء كأنه سيقول شيئاً لكنه لبث هكذا، دون أن يخرج أى صوت. كتم أونوفرى أنفاسه، انتظر أن يطلعه والده فى أية

لحظة على أمر بالغ الأهمية لكن أباه ظل على حاله: فى النهاية، أغلق فمه وعاود الابتسام، والآن اصطبغت ابتسامته بالحزن. فكر أونوفرى وقد انتابته رعدة: ربما كان هذا هو الموت فى حقيقة الأمر، هذا السكون، لأنك عندما تكون ميتاً لا تذهب إلى أى مكان فى الواقع، فيصبح كل شىء مقيماً: لا تغير، لا ألم ولا بهجة كذلك، فإذا كان من خصائص الموت شىء فهو غياب البهجة تماماً ليظل هذا الجهل المحرج وحده الذى أراه مكتوباً على وجه أبى. هو مات حقاً وهذا واضح بلا أدنى شك، لذا فإن صحبته التى لاحت لى فى البدء مبهجة ليس لها الآن إلا أن تترعنى بالأحزان، وكل هذا دليل على أننى لست ميتاً وإلا لما فكرت فيما أفكر فيه الآن. ولكنى فى أغلب الظن لست حياً وإلا لما رأيت هذه الرؤيا. لا ريب هنالك: أنا فى حالة انتقالية، إحدى رجلى على هذا الجانب والأخرى على الجانب الآخر من الخط الفاصل، كما يقال فى العالم الذى أنا على وشك الرحيل عنه. ليس هنالك ما أدخره مقابل أن أعود إلى الحياة، لا أطلب البدء من جديد، كلا، فهذا مستحيل، ومن ناحية أخرى من المؤكد أننى سأحيا الحياة نفسها التى عشتها. كلا، لا أريد إلا مواصلة الحياة، وسأكون راضياً بذلك. آه، لو كتب لى أن أعيش سأرى كل شىء بعينين مختلفتين.

(٥)

قالت الراهبة:

- لا أدرى هل من الصواب أن أسمح لك برؤيتها: أعنى أن تراك هى.

- أنت تعلمين من أنا إذاً؟

زمت الراهبة شفتيها ولم تخفف لذلك المبرر البرودة الذى تفرست به فى محدثها. لم يكن فى ذلك البرود شبهة النفور بل فضول وحذر فقط وعلى حد السواء.

- كل الناس يعلمون من أنت يا سيد بوفيلا - قالت ذلك بصوت خفيض جداً، وفى دلال تقريباً. كل واحد من ملامحها ينم على سمة من سمات شخصيتها: سخاء، عذوبة، صبر، قوة تحمل، إلخ. وجهها بأكمله لغز. أضافت بعد أن تغيرت نبرة صوتها:

- المسكينة عانت الكثير... والآن تمضى جل وقتها هادئة؛ تنتكس أحياناً لا أكثر ولا يحدث هذا إلا لأيام قلائل، فى مثل هذه الحالات تعود فتعتقد أنها ملكة وقديسة.

هز أونوفرى بوفيلا رأسه موافقاً. قال: أنا على علم بالوضع. والحق أنه علم بذلك تواً تقريباً، فخلال شهور النقاهة التى لا تنتهى، فى الفترة التى تراءت فيها حياته المنتشلة فى النزع الأخير من براثن الموت معلقة على نحو سئ من خيط عنكبوت، أخفوا عنه الحقيقة. فقد رأى الأطباء أن أية مضايقة قد تؤدى إلى نتيجة مشؤومة. غير أنهم لم يحولوا دون وقوفه على ما يجرى بطريقة غير مباشرة. فى يوم من أيام الخريف وهو يقتل السأم متصفحاً المجلات فى ركن الصالون، إلى جانب الشرفة المغلقة، وركبتاه مغطاتان ببطانية من الوبر، قرأ نبأ العرس. فى البدء لم يلتفت إلى معناه فكل شىء يمر أمامه دون أن يلتفت إليه منذ زمن. رفعت

خادم المجلات التى سقطت منه على الأرض وأسدلت الستائر حتى لا تسقط على وجهه شمس المساء التى بدأت تنفذ عبر الزجاج. ما إن ذهبت الخادم استند بخده إلى غطاء المسند الذى تم كيه حديثاً وله شذى الحبق المنعش. وهكذا أسلم نفسه يغشاه الوسن. للمرة الأولى فى حياته ينام عدة ساعات؛ أى مجهود بسيط يتعبه، من حسن الطالع كانت هذه الأحلام ممتعة دائماً. لكنه هذه المرة استيقظ مذعوراً. لا يدرى الوقت الذى قضاه فى النوم، لكن بحساب وضع الخط الذى ترسمه الشمس على البلاط الرخامى، نام قليلاً. خلال عدة دقائق جرب التوصل إلى مبرر قلقه. تساءل: هل له علاقة بشىء قرأته فى المجلات؟ دق الناقوس الذى فى متناول يده طوال الوقت فهرولت الخادم والممرضة وعليهما تعبير ذعر. قال لهما غاضباً إزاء هذا الاهتمام شبه الرسمى: ليس بى شىء، اللعنة، أريد فقط أن يحضروا لى المجلات التى كنت أقرؤها منذ وهلة. فيما ذهبت الخادم تبحث عن المجلات قاست الممرضة نبضه، كانت ضامرة ومتكدرة. كان يقول لإفرين كاستلز حين يذهب هذا لزيارته: زوجتى تعاقبنى بأولئك المسترجلات. فيرد عليه المارد بصرامة: ماذا تريد؟ فتاة مثيرة لتصاب بأزمة أخرى؟ ثم ينظر فى كل اتجاه للتأكد من أن أحداً لا يسمعهما ويردف: لو رأيت نفسك كما رأيتك حين ذهبت لأحضرك من الماخور لما قلت ما تقول.

- هيا، لا تتفحصينى لتتأكدى إن كنت حياً أو ميتاً وامسحى نظارتى بالشاش الذى يظهر من جيبك - همهم وهو يسحب يده.

نظرت الممرضة إليه وهو إليها هنيهة بتعبير تحد. فكر: هذا ما وصلت إليه حالى، الشجار مع عوانس. ثم أمر بإزاحة الستائر وبأن يتركوه وحده. بحث عن أنباء العرس على نحو محموم. أنا فى منتهى السعادة - هذا ما صرحت به النجمة لمراسل المجلة - أنا وجيمس سنعيش أغلب الوقت فى اسكتلندا. هناك يمتلك جيمس قصراً. كان جيمس ارستقراطياً إنجليزياً وسيماً وثرياً. تعرف بعضهما إلى بعض

على ظهر عابرة محيطات فاخرة واعترف كلاهما أنه حب من أول نظرة، وخلال عدة أشهر فضلا أن يحتفظا بسر خطوبتهما لتجنب تعقب الصحافة لهما، وفى تلك الشهور أرسل إليها كل يوم زهرة أوركيد إلى غرفتها فكانت أول ما تراه عندما تفتح عينيها. من المزمع عقد القران قبل الشتاء فى مكان لم يفصحا عنه. ثم أردفت: بعد ذلك ينتظرنا شهر عسل طويل فى بلاد ساحرة، أنا فى منتهى السعادة - راحت تردد. لذلك فإنها تعلن اعتزالها السينما إلى الأبد.

فى ذلك المساء نفسه ألقى بهذا السؤال على المارد:

- أين هى؟

تحير إفرين كاستلز، قال له:

- إنها فى أفضل حالة ممكنة، صدقنى. المكان فى غاية الجمال، لا يبدو مصحاً - ثم حين شعر بأنه متهم على نحو مستتر من صمت صديقه العدائى، دافع عن نفسه غاضباً -، لا، لا تنظر إلى بهذا الوجه، أونوفرى بحق أغلى ما تحب، كنت ستفعل ما فعلته، أى مخرج آخر كان لدينا؟ منذ البداية وأنت تعلم أفضل من أى شخص أن تلك المغامرة سيأتى عليها يوم وتنتهى على هذا النحو، ومبرر ذلك يعود إلى ما قبل. شرح له كيف سارت الأحوال من سئ إلى أسوأ منذ انتقال ملكية استوديوهات السينما. فسرعان ما أدركوا أن أونيستا لابرو ليست مستعدة لطاعة أمر أحد ما لم يكن هو نفسه، وهو كان ذهب ولم يعد. حينئذ أصبحت الأفلام التى تصور من قبل فى أربعة أيام أو خمسة تستغرق عدة أسابيع فراحت تتضاعف المشاكل. فى نهاية الأمر، حاولت قتل زوكيرمان. فى يوم عاملها بقسوة أشد من المعتاد أخرجت مسدساً من حقيبة يدها وأطلقت النار على المخرج. كان سلاحاً قديماً، الله أعلم من أين أتت به، فانفجر فى يدها ولم ينفجر فى رأسها بمعجزة. بعد ذلك الحادث، اتفق الجميع ألا علاج لها إلا باحتجازها. وافقه أونوفرى فى حزن. بعد اختفاء أونيستا لابرو بدأت صناعة السينما التى أقامها

هو فى الانهيار. جربوا ممثلات أخريات لكنهن فشلن. والأفلام التى درت أرباحاً ضخمة من قبل أصبحت اليوم لا تغطى تكاليفها. وأصبح الجمهور بلا ريب يفضل الأفلام القادمة من الولايات المتحدة، إفرين كاستلز نفسه يفضل مارى بيكفورد وشارلى شابلن. وقرروا إغلاق الاستوديوهات وتصفية الشركة والتفرغ لاستيراد الأفلام الأجنبية. قال إفرين كاستلز: دعهم يشحذو عقولهم ويخاطرو بأموالهم. رفع أونوفرى بوفيلا البطانية حتى صدره وهز منكبيه: يستوى لديه كل شىء.

قالت الراهبة بغتة: هيا.

كانت أمضت وقتاً تفكر وهذا القرار نجم عن ذلك التفكير. من طريقتها فى الحديث نستنتج أنها اعتادت معاملة أشخاص لا تحتاج إلى تفهمهم. سار وراء الراهبة إلى أن بلغ قاعة ذات أبعاد عادية مؤثثة أثاثاً بسيطاً وتبدو نظيفة ومريحة لكنها ترشح برائحة المرض والتدهور. من النافذة دخل ضوء منتصف نهار شتوى شاحب. فى القاعة كان الجو بالغ البرودة. ثلاثة رجال من أعمار غير محددة يلعبون الورق حول مائدة مستديرة اثنان منهم يلبسان قلنسوة وثلاثتهم لفاعات ملتفة حول أعناقهم. على مائدة أخرى قريبة من الحائط وعليها مفرش أزرق يصل حتى الأرض هنالك مشهد يمثل ميلاد المسيح: الجبال من الفلين والنهر من ورق القصدير والعشب ألواح من الطحالب والتماثيل الطينية لا تتناسب فيما بينها. إلى جانب المنضدة ثمة بيانو رأسى له غطاء من قماش الخيام. قالت الراهبة:

– المرضى أنفسهم أقاموا هذا الميلاد.

حين سمع الرجال الثلاثة ذلك أوقفوا اللعب وابتسموا فى اتجاه أونوفرى بوفيلا. أردفت:

– فى ليلة عيد الميلاد، بعد قداس الفجر، نقيم عشاء جماعياً، أى يمكن أن يحضره من يرغب من الأقارب والأهل. أتصور أن هذه ليست حالتك، لكننى أقول ذلك على أية حال.

لاحظ أونوفرى أن كل النوافذ لها قضبان. خرجا من هناك من باب مختلف يؤدى إلى ممر آخر. حين بلغا نهايته توقفت الراهبة. قالت:

- الآن ستضطر إلى الانتظار هنا لحظة. لا يسمح للرجال بدخول جناح النساء والعكس، فما أدرانا فى أية حالة سنجدهم.

تركته الراهبة هناك وحده. فتش كل جيوبه رغم علمه بعدم جدوى ذلك البحث. كان الأطباء منعوه التدخين ولم يكن يحمل تبغاً. فكر فى العودة إلى القاعة ليطلب من اللاعبين سيجارة. قال لنفسه: سيكون معهم تبغ ولا يبدو أنهم خطرون، ففى نهاية الأمر، ماذا بوسعهم أن يعملوا بى؟ وهو يفكر فى ذلك حدج انعكاس صورته على زجاج نافذة الممر بنظرة ناقدة إذ رأى شيخاً صغير الحجم ومحدباً وشاحباً يغطيه معطف أسود له ياقة من الأستراكان ويستند إلى عصا ذات مقبض من العاج. بيده الأخرى أمسك قبعته المرنة وقفازيه. نفحه هذا كله مظهراً زائفاً لا يخلو من الهزل. قطع وصول الراهبة ذلك التأمل المؤسى. قالت له: الآن يمكنك الدخول.

ديلفينا بدورها كانت هرمت كثيراً. فضلاً عن أنها فقدت الكثير من وزنها على نحو باعث على القلق، استعادت ضمورها الأصيل، لن يتعرف أحد فيها النجمة الشهيرة التى بهرت العالم، الآن هو وحده يمكنه أن يتعرف فى ذلك الطلل الخادم الشرسة القديمة. كانت ترتدى روباً من الصوف الثقيل فوق قميص نوم من الفانلة وكذلك جورباً من الصوف وخفاً من فرو الأرنب. قالت الراهبة: انظرى من جاء لزيارتك يا سيدة ديلفينا. وهى لم تحرك ساكناً إزاء هذه الكلمات أو إزاء حضوره، بل تنظر إلى نقطة بعيدة، تتجاوز حوائط الممر فساد صمت أشعره بعدم الارتياح. اقترحت الراهبة أن يقوما بنزهة وحدهما. قالت الراهبة: الجو بارد لكن فى الشمس لن يكون سيئاً، اخرجا إلى الحديقة فسيفيد كلاكما من الحركة. فى رأى الراهبة أية ممثلة سينما هى أفضل قليلاً من عاهرة أو تساويها - فكر أونوفرى بوفيلا فيما يقود ديلفينا فى الممر

صوب الحديقة؛ وإذا كانت تركتهما يخرجان وحدهما فمرد ذلك أن تقدمهما فى العمر يضفى عليهما براءة مجددة. هذه العملية كانت وعرة ولا تنتهى، فهى كانت تسير مخدرة وفى بالغ البطء وكل حركة تتحركها تراءت ثمرة عملية ذهنية بالغة التعقيد وقرار محسوب ولا يخلو من مخاطرة. يبدو أنها كانت تقول: لقد خطوت نصف خطوة، حسن، والآن سأتقدم نصف خطوة أخرى. نظراً إلى ذلك البطء بدت الحديقة - التى لم تكن كبيرة - بدت رحيبة. فكر أونوفرى: لا يجانبها الصواب: فيم العجلة إذا كانت لن تتجاوز أبداً سور الحديقة. كان هو الذى أجهد من شدة ذلك البطء المثير للحنق. قال فى النهاية: تعالى يا ديلفينا، تعالى نجلس قليلاً على هذا المقعد. وعندما جلسا جنباً إلى جنب على المقعد الخشبى قال هو:

- هنا سنكون على ما يرام.

الآن، هنالك حاجة ملحة للحديث. تساقطت أوراق الشجر وإلى جانب سور المصح نمت أشجار حب المسك. سألها عن أحوالها، أيؤلمها شىء؟ وفى المصح، هل يحسنون معاملتها؟ أتحتاج إلى شىء يمكنه أن يحضره لها؟ وهى لم ترد، أدامت النظر إلى الأمام، بالتعبير الرابط الجأش نفسه، لم يبدُ حتى أنها تدرى أين هى أو مع من. ذلك الصمت اعتصر أونوفرى أشد مما كان يتخيل. قال بصوت خفيض: كم من الأمور جرت ومع ذلك لا شىء يتغير، مازلنا كما نحن، أليس كذلك؟ كل ما هنالك أن الحياة أضاعت القليل الذى كنا نحتكم عليه. طائر أسود حط على حجارة الحديقة وتوقف هناك وهلة ثم حلق من جديد. واصل أونوفرى حديثه بعد أن ذهب الطائر: أتذكرين حين التقينا يا ديلفينا؟ لا أقصد إلى لحظة لقائنا بل إلى تلك الحقبة. كان عام ١٨٨٧، قرناً آخر، لم يكن شيئاً يذكر، كانت برشلونة قرية، لم يكن هناك ضوء كهربى ولا ترام ولا هاتف: زمن المعرض العالمى. أتعلمين أنهم الآن يتحدثون عن إقامة معرض عالمى آخر؟ ربما كانت هذه فرصتى للعودة إلى النشاط، ما

رأيك؟ آه، حينئذ، كنت أشعر بالوحدة الشديدة، وكنت مرعوباً، وهأنت ترين أننى، فى هذا الجانب، لم أتغير. ومع ذلك، حينئذ، كنت أنت لدى، لم نكن على وفاق قط لكننى أعلم أنك قريبة منى وكان ذلك يكفينى على الرغم من أننى لم أكن أدرك ذلك. وبما أنها ظلت ساكنة خشى أن تكون تجمدت من البرد، رغم أن الهواء كان دافئاً وخففت الشمس من الرطوبة. فكر: تمثال من الثلج، كانت دائماً تمثالاً من الثلج فيما عدا تلك الليلة التى احتويتها بين ذراعى. أخذ يدها وألفاها باردة ولكنها لم تتجمد كما كان يخشى. قال: ستصابين بالبرد، خذى، ارتدى قفازى. خلع قفازيه وألبسها إياهما دون أدنى معاونة أو مقاومة من جانبها. باغته انهما يناسبان يديها، فتذكر أن يديها كانتا دائماً كبيرتين. فكر: بهاتين اليدين تعلقت بكتفى يائسة. قال بصوت عال: خذيهما، هأنت ترين كم يناسبانك. حين رفع رأسه رأى الرجال الثلاثة، الذين كانوا من قبل يلعبون الورق، يطلون الآن من شرفة القاعة؛ ومن هناك، وبلا أية مواربة، جعلوا يراقبون الشخصين الجالسين على المقعد بنحو من التركيز والجدية. على الرغم من أنهم بعيدون، على الرغم من أن الأمر لا يعدو كونهم ثلاثة مرضى، تخلص أونوفرى من يد ديلفينا التى كانت بين يديه. وهى ضمتها إلى الأخرى لتستقرا على ركبتيها. استأنف حديثه: ومع ذلك لا جدوى الآن من التفكير فى ذلك، وإذا كنت أتحدث عن هذه الأشياء فذلك لأننى كنت على شفا الموت وأشعر بالخوف، ولا أجد غضاضة فى أن أبوح لك أنت بذلك، فقد أدركت دائماً أنك الشخص الوحيد الذى يفهمنى، لأنك أدركت دائماً مبرر أفعالى. أما الآخرون فلا يفهموننى ولا حتى من يمقتوننى. هم لديهم أيديولوجيتهم وحججهم، ومن منطلقهما يفسرون كل شىء؛ وبذلك يبررون أى شىء، النجاح أو الفشل، وأنا عيب فى النظام، مجمل عارض وبالغ الغرابة من العديد من الأشياء التى لا تحظى بأى تقدير. وهم لا يعيبون على أفعالى أو طموحى أو الوسائل التى توسلتها لإرضائه أو للتسلق والثراء فهذا ما

نرغب فيه جميعاً فهم كانوا سيفعلون ما فعلت بدافع الحاجة أو الخوف. فى واقع الأمر، أنا الخاسر. كنت أظن أننى إذا صرت شريراً سأقبض على العالم بيدى، ولكننى، مع ذلك، أخطأت: العالم أسوأ منى.

بعد حلول الربيع بزمن تلقى رسالة عليها إمضاء راهبة، قد تكون تلك التى قامت على خدمتها يوم أن ذهب إلى المصح. نعت فى تلك الرسالة وفاة ديلفينا: "جاءها الموت وهى نائمة"، هكذا جاء فى الرسالة. والآن يحيطونه بنبأ الوفاة علماً بأنه ليس من أقاربها أو معارفها بل "للعلاقة الحميمة والخاصة التى كانت تربطه بالمتوفاة". وعلى الرغم من أن ديلفينا، منذ يوم زيارته لها، لم تستعد صوتها ولم تعد إلى وعيها، لم يكن من غير المحتمل التأكيد على أنها "ماتت واسمه على شفتيها". فى غرفة المتوفاة عثر على بعض الأوراق المخطوطة، رسالة موجهة إليه فى الأغلب، إلى جانب "أوراق أخرى ذات محتوى حميمى وفاحش رأينا من المناسب أن نمزقها"، هذا ما اختتمت به الرسالة: يقول خطاب ديلفينا: "الواقع الذى يلفنا ليس إلا ستاراً مطلياً، وعلى الجانب الآخر من هذا الستار لا توجد حياة أخرى، بل هى الحياة نفسها، والغيب ليس إلا ذلك الجانب الآخر من الستار، وحين نوقف النظر على الستار لا نرى الجانب الآخر الذى هو الشىء نفسه، وحين نفهم أن الواقع ليس إلا ظاهرة بصرية سيكون فى وسعنا أن نعبر هذا الستار المطلى، وحين نعبره سنجد أنفسنا فى عالم آخر ومساو لهذا العالم، فى ذلك العالم يوجد كذلك من ماتوا ومن لم يولدوا إلى الآن ولكننا الآن لا نراهم لأن هذا الحاجز المطلى الذى نخلط بينه وبين الواقع يفصلهم عنا، وبمجرد أن نخترق هذا الستار فى اتجاه يصبح من السهل دائماً اختراقه فى نفس الاتجاه وفى الاتجاه المقابل كذلك، ويمكن أن نحيا فى الوقت نفسه على هذا الجانب وعلى الجانب الآخر ليس فى الوقت نفسه، واللحظة المحددة لاختراق الستار المطلى إلى هناك هى ساعة الغروب: وإلى هنا، ساعة الفجر،

هكذا نحصل على مفعول أفضل، فيما عدا ذلك لا طائل تحته، ولا طائل تحت الدعاء أو الدافع، وعلى الجانب الآخر من الستار لا يوجد التقسيم السخيف للمادة إلى ثلاثة أبعاد، على هذا الجانب كل بعد يشوبه نحو من السخف أمام أعيننا، من هم على الجانب الآخر من الستار يدركون ذلك ويضحكون، من لم يولدوا بعد يظنون أن الموتى هم أباؤهم". ثم صار الخط لا يقرأ.

الفصل السابع

(١)

دون أن تكون كبيرة فى حجم "كلينام" أو "إكسلسيور" أو شهيرة مثل "كوهى نور" (المذكورة فى الماهاب هراتا) أو مثل "المنغولى العظيم" (من مقتنيات شاه إيران) أو "أورلوف" (التى تزين الصولجان الإمبراطورى الروسى)، عدت "ريجنيت" أروع الماسات من حيث الكمال. استخرجت من مناجم جولكوندا الأسطورية وكانت ملك دوق أورليانز الذى اضطر إلى رهنها فى برلين إبان الثورة الفرنسية. بعد إنقاذها من يد مراب رصع بها مقبض سيف نابليون بونابرت، كان أونوفرى بوفيلا يمسكها بيده فى الليلة التى زاره فيها سانتياجو بلتال. باستخدام عدسة تفحص بإعجاب نقاءها وبريقها. بعد أن أحيل إلى التقاعد من جانب النظام الديكتاتورى قرر استثمار ثروته، المال الذى حوله إفرين كاستلز إلى سويسرا، فى سوق الماس الدولى؛ والآن، يوغل عملاؤه فى جبال ديكهان وفى أدغال بورنى ويحومون حول حانات ومواخير مناجم جيريه وكيمبرلى. دون أن يسعى وراء ذلك بدأ يتحول إلى واحد من أغنى رجال العالم. والآن بوسعه أن يطيح بالجنرال بريمو دى ريبيرا فى يسر، الانتقام للإهانة التى أقدم عليها فى حقه لكنه لم تداخله أية رغبة فى فعل ذلك فلقد نظر دائماً إلى السياسة بازدراء، ورآها خليطاً معقداً من الصفقات لم ير أنه فى حاجة إلى عقدها. فى الواقع، تملكه خمود الهمة. فكر وهو ينظر إلى الماسة: لا يشعرنى انصرام الزمن إلا بأحاسيس الموت. أعقبت موت ديلفينا، ١٩٢٥، وفاة حميه، دون أومبرت فيجا إى موريرا فى أوائل ١٩٢٧، ثم وفاة أخيه جوان، فى ظروف غامضة، فى أواخر العام نفسه. كل واحدة من تلك الوفيات لاحت له نذير شؤم. كما أنه لم يكن فى حاجة إلى مكافحة نظام ديكتاتورى ينهار وحده. مقتدياً بموسولينى أنشأ بريمو دى ريبيرا حزباً أوحد أطلق عليه حزب الوحدة الوطنية وظن أن

صفوفه ستضم شخصيات من اتجاهات شتى وأن فى حضن الحزب ستتصالح عناصر النخبة فى القطر، مع ذلك لم يجذب إليه سوى طبقة مستغلى النظام القديم وحفنة من الشباب المتسلقين؛ كما انتهى الأمر بالجيش إلى الانفصال عن الديكتاتور الذى هتف له قبل أعوام، حتى الملك نفسه راح يسعى فى يأس من أجل إزاحته عن طريقه. وتلاحقت المؤامرات ضده داخل وخارج إسبانيا وكان يتصدى لها بالاعتقالات والنفى، لكنه لم يكن متعطشاً للدماء ولم يرد قتل أحد. كل ما هنالك أن ضعف المعارضة والرقابة الحديدية التى فرضها والفساد الإدارى وخوف الناس من حدوث أى تغيير - وكان له ما يبرره - هذا كله ضمن بقاءه فى السلطة، وهو كان يستمسك بها كالمجنون، لم يكن يدرك أنه يدين بهذه السلطة للاتفاق العارض لطبيعة شخصيته الخاصة وأبعد نقطة فى حركة بندول التاريخ. لم تكن طريقة حكمه سيئة بل شاذة، ففى زمن قصير دعم الأشغال العامة وبذلك حل مشكلة البطالة العامة وحدث البلاد. وكان ذلك لصالح الشعب. هذه المحصلة الإيجابية لأعماله جعلته لا يفهم سر هذه العزلة التى يعانى منها الآن. وحين رأى أنه فقد مساندة التاج أيضاً سعى إلى مساندة أونوفرى بوفيلا، وعن طريق وساطة ماركيز أوت، الذى ظل وفياً له، جرب الاقتراب منه لكن بعد فوات الأوان.

سانتياجو بلتال، الذى سيرتبط اسمه باسم أونوفرى بوفيلا إلى الأبد، كان يبلغ من العمر ثلاثة وأربعين عاماً حين ذهب لرؤية أونوفرى بوفيلا تلك الليلة. على الرغم من رداءة ملبسه اهتم بنظافة جسده، ففى ذلك اليوم استحم وحلق ذقنه وقص له شخص شعره بخير نية لكن بلا توفيق. وعزز هذا التزين مظهره كمقترض لا يرد ديونه، عيناه الغاضبتان وحدهما فى ذلك الوجه المتعب أنقذتاه من السخف. حين أبلغه رئيس الخدم بأن السيد لا يستقبل أحداً لا يكون وجه إليه دعوة، أخرج من جيبه بطاقة حائلة ومجعدة وأظهرها لرئيس الخدم وقال: أعطانى إياها السيد بوفيلا نفسه، وأظن أنها توازى الدعوة العادية. تفحص رئيس

الخدم البطاقة بتعبير متحير. سأله: متى أعطاك هذه البطاقة؟ قال سانتياجو بلتال رابط الجأش: منذ أربعة عشر عاماً. أضاف رئيس الخدم: تتأخر يا سيدى قليلاً فى قبول أية دعوة، هلا قلت لى اسمك مرة أخرى؟ ذكر سانتياجو بلتال اسمه وأردف: وإن كنت لا أعتقد أن السيد يتذكرنى. مسح رئيس الخدم جبهته بيده متشككاً ثم قرر أن يبلغ السيد بمقدم ذلك الشخص ذى المظهر غير المرغوب فيه، ورغم أنه يخشى مضايقة سيده إلا أنه يدرك أنه يهوى الشخصيات الغريبة. وفى هذه الحالة تأكدت ظنونه. قال له أونوفرى بوفيلا: دعه يدخل! مع أن الليلة كانت دافئة اتقدت جذوع شجر فى مدفأة غرفة المكتبة. أحس سانتياجو بلتال بحر خانق، وردد ما إن وصل إلى هناك:

- لا أعتقد أنك تتذكرنى.

أطلت فى صوته نبرة تملق، كأن كلماته وتصرفاته تقول: رجل مهم مثلك لا يمكنه أن يتذكر شخصاً تافهاً مثلى. ابتسم أونوفرى بوفيلا فى ازدراء. قال: لو أن ذاكرتى ضعيفة كما تصفنى أنت وآخرون من السذج لما كنت على ما أنا عليه. قال ذلك ورفع قبضة يده اليمنى إلى أعلى. لوهلة خشى سانتياجو بلتال من أن يوجه إليه لكمة لكن تلك الإيماءة لم تكن تنطوى على تهديد. عاود سانتياجو بلتال القول ليعزز ظنه:

- التقينا منذ أربعة عشر عاماً.

- كلا، ليست أربعة عشر عاماً بل خمسة عشر، فى ألف وتسعمائة واثنتى عشرة، فى باسورا، اسمك سانتياجو بلتال، مهنتك مخترع، لك ابنة تدعى ماريا، طفلة مشاكسة. ماذا جئت تبيعنى؟

أخرست هذه الكلمات سانتياجو بلتال، فقد استبق محدثه بهذا الجفاء ما كان سيقوله وأحبط الخطاب الذى كان أعده وتدرب عليه عدة ساعات. احمر وجهه رغماً عنه. همس لنفسه وليس لكى يسمعه أحد: أرى أننى ارتكبت خطأ بمقدمى، أستميحك العذر. أحالت ابتسامة أونوفرى بوفيلا الساخرة تراجعه غضباً. نهض من مقعده واتجه صوب

الباب وقال بصوت مرتفع: أنت الخاسر.

سأل أونوفرى بوفيلا بهدوء ساخر:

– ما هذا الذى سأخسره؟

عاد المخترع على عقبيه وواجه رجل المال العظيم، الآن يتحدثان نداً لند. قال: أعجوبة حقيقية. وأونوفرى بوفيلا بسط يده المنقبضة حتى تلك اللحظة. تعلقت عينا المخترع بأوجه "ريجينت" التى رقط وميضها روب أونوفرى الحريرى. همس هذا:

– أية عجيبة تقارن بهذه؟

– الطيران. – أجاب المخترع فى الحال.

فى العقد الثانى من القرن العشرين بلغ الطيران، بلا نقاش، ما أطلقت عليه الصحافة حينئذ "سن الرشد" وبدءاً من ذلك الوقت لم يعد أحد يرتاب فى تفوق تلك الآلات الأثقل من الهواء على أية وسيلة من وسائل النقل الجوى. ولم يكن يمر يوم بلا إضافة جديدة للتقدم فى هذا الحقل. مع ذلك بقيت مشاكل بلا حل. رغم ما يبدو غريباً فى يومنا هذا فإن أيسر هذه المشاكل كان معدل أمان الرحلات الجوية: كانت الحوادث نادرة وضحاياها لا تذكر، فضلاً عن أن جزءاً كبيراً لم يكن مرده العيوب الفنية بل إصرار الطيارين الصبيانى على إثبات استقرار الطائرات وخبرتهم ومهارتهم وهم يطيرون فى وضع مقلوب أو يرسمون بها دوائر ودوامات أو حركات "أنشوطية" وبهلوانية فى الهواء. وكانت سرعة رد الفعل واللياقة البدنية التى يجب توافرها فى الطيار فى تلك المرحلة البدائية من تاريخ الطيران تتطلب أن يكون الطيارون من الشباب (سن ١٥ سنة كانت تعد مناسبة لبدء التدريب) مما يسفر عن شىء من عدم اكتمال الوعى لدى الطيار. ونقرأ ما يلى فى صحيفة برشلونية عام ١٩٢٥: "لما كان من تسميهم الصحافة الصفراء أبطال الجو يتنافسون فيما بينهم فى لندن وفى باريس بتنفيذ الآتى: يمرون بطائراتهم على

ارتفاع منخفض من جسور نهرى السين والتيمز وما ينجم عن ذلك من ذعر والسقوط فى الماء؛ وبما أن مدينة برشلونة تفتقر إلى جسور لأنها ليس لها أنهار، فإن طيارينا، رغم الخطر المعلن الذى أقرته بلدية المدينة، اخترعوا لعبة بهلوانية مثل المذكورة آنفاً بل أشد خطورة: فهم يطيرون بجناح الطائرة عمودياً مع الأرض ويمرقون بها هكذا، كمن يدخل خيطاً فى إبرة، من بين أبراج معبد العائلة المقدسة". وتواصل الصحيفة روايتها فتقول إنه فى مثل هذه الحالات من المعتاد - فى أعلى هذه الأبراج - رؤية عجوز ضامر وغير مهندم يضرب الهواء بقبضته كأنما يحاول فى سذاجة أن يصيب الطائرة الفاجرة فيما يصب لعناته على الطيار. بطل ذلك المشهد الطريف (الذى سيستوحى منه فيما بعد مشهد شبيه فى فيلم كنج كونج الذى أصبح من كلاسيكيات السينما) لم يكن سوى أنطونى جاودى إى كورنيت، وهو فى آخر شهور حياته. كان بتلك المواجهة غير المتكافئة شىء من التمثيل الكنائى: فى ذلك الوقت، أعقبت "الحداثة" التى يمثلها هذا المعمارى الواسع الشهرة حركة أخرى ذات طابع بالغ الاختلاف فى قطلونيا تسمى "الألف والتسعمائة"؛ أولى هاتين الحركتين تنظر إلى الماضى، خاصة العصر الوسيط؛ والثانية، إلى المستقبل؛ الأولى مثالية ورومنطيقية؛ الثانية مادية وشكلية. أنصار "الألف والتسعمائة" استهزأوا بجاودى وبأعماله وسخروا منها بالكاريكاتير والمقالات القاسية، وشعر العبقرى الشيخ بالألم، لكن ليس فى صمت، فمرور الأعوام أحال شخصيته أكثر حدة وغرابة؛ وفى ذلك الوقت كان يحيا وحده فى سرداب كنيسة العائلة المقدسة، الذى تحول مؤقتاً إلى ورشة، تحوطه تماثيل عملاقة وحلى معمارية وردية ضخمة من الحجر وزخارف لم توضع فى الأماكن المخصصة لنقص فى الأموال. وهناك يرقد دون أن يغير ملابسه التى أضحت أسمالاً ويتنفس ذلك الهواء المترع بالأسمنت والجبس. فى الصباح يؤدى تمرينات رياضية ثم يحضر القداس ويتناول القربان ثم يفطر على حبات من البندق أو حزمة

برسيم أو ثمرة عنبية ليغوص بعدها فى ذلك العمل المنافى لزمنه والمستحيل. حين يرى أحداً يزوره، إذا رأى جماعة من الفضوليين تدنو منه يقفز من أعلى السقالة برشاقة لا تتناسب مع سنه ويركض فى اتجاههم وقبعته فى يده: يطلب حسنة كأنه شحاذ كى يتمكن من مواصلة العمل وليكن لعدة أيام. من أجل بزيتة واحدة يقذف فى الهواء بحبة بندق من تلك التى تعتبر وجبته الرئيسية ويلتقطها بفمه بعد أن يقفز بأعجوبة إلى الخلف مقوساً ظهره وثانياً ركبتيه، يتبدل محياه ويفيض حماسه على الآخرين. أحياناً يضطرون إلى إخراجه من بركة مونة حية. وفى جلساته الخاصة، بين أصدقائه، لا يتمكن من إخفاء يأسه، فيقول لهم: أنا والتقدم فى حرب وشد ما أخاف أننى سأكون الخاسر. فى النهاية، دهسه ترام كهربائى فى تقاطع شارعى بايلين وجران بيا، وتوفى إثر ذلك الحادث السخيف فى مستشفى سانتا كروث. من المشاكل الأخرى التى أرقت مهندسى الطيران هو ما أطلق عليه فيما بعد "استقلالية الطائرة فى الجو". فيم يفيد الطيران إذا كان لا يحملنا إلى أى مكان؟ - هكذا تساءلوا. لحل هذه المشكلة زودت الطائرات بمستودعات وقود كبيرة الحجم حتى إنها لتثقل على الطائرة ولا تسمح لها بالإقلاع، وذلك بدوره كان يستعاض منه بتخفيف ثقل هيكل الطائرة، وفى النهاية كان الطيارون يطيرون جلوساً حرفياً على مستودعات مادة شديدة الاشتعال. من الآن لا يخشون من السقوط والكسور بل من الحروق الشديدة الألم والمستديمة. كما أن الوقود جعل يتحسن بخطا واسعة، فأصبح هنالك تكرير للبترول وكانت ثمة خلطات ترفع من أدائه. هذه التجارب لم تكن عقيمة، ففى ٢٧ مايو ١٩٢٧، قام شارلز ليندبرج، طيار من أمريكا الشمالية، بالطيران بمفرده ودون التوقف للراحة من نيويورك إلى باريس. كان أفق الإمكانات التى فتحها هذا الإنجاز بلا حدود. بُعيد ذلك، فى ٩ مايو ١٩٢٨، خرجت سيدة، ليدى بايلى، من كرويدون فى إنجلترا، تقود طائرة صغيرة من طراز هافيلاندموث ذات

محرك سعة ١٠٠ حصان، مرت بباريس ونابولى ومالطا والقاهرة والخرطوم وتابورا وليفينجستون وبلومفونتين إلى أن وصلت كيبتاون فى ٣٠ أبريل؛ استراحت عدة أيام وفى الثانى عشر من مايو بدأت رحلة العودة؛ وبعد أن هبطت فى باندونو ونيامى وجاو ودكار والدار البيضاء ومالقة وبرشلونة ثم باريس مرة أخرى، هبطت فى كرويدون - التى بدأت رحلتها منها قبل ثمانية شهور - فى العاشر من يناير ١٩٢٩. لم تتخلف صناعة الطائرات فى إسبانيا عن غيرها من الأقطار إذ دفعتها حرب المغرب إلى تطوير هذه الصناعة كما حدث لصناعة الطائرات فى الدول المتنازعة قبل قيام الحرب العظمى. ففى عام ١٩٢٦ قطع كل من فرانكو ورويث دى ألدا ودوران ورادا المسافة من بالوس دى موجير إلى بوينس أيرس على متن "بلوس أولترا" فى الفترة من ٢٢ يناير إلى ١٠ فبراير؛ وفى نفس ذلك العام، طار كل من لوريجا وجايارثا من مدريد إلى مانيلا على طائرة فى الفترة من الخامس من أبريل إلى الثالث عشر من مايو، كما قطعت طائرة الدورية "أتلانتيدا" بقيادة يورنتى المسافة بين مليلة وغينيا الإسبانية فى خمسة عشر يوماً. كل رحلة كانت خطوة واسعة إلى المستقبل المفعم بالمفاجآت ولكن مع كل خطوة تظهر مشاكل جديدة أيضاً: البوصلات والعدادات يصيبها مس عندما تعبر نصف الكرة الأرضية بلا فترة انتقالية، الخرائط التقليدية لا تفى باحتياجات الملاحة الجوية، لابد من التحديث الدائم لمقياسات الارتفاع والخطوط العمودية والضغط الجوى وسرعة الريح، إلخ، لابد من تعديل ليس فقط الآلات بل والملبس والمآكل واشياء أخرى كثيرة لتلائم الظروف الجديدة. كما صار من الضرورى التنبؤ الدقيق بالتغيرات الجوية، فأى إعصار أو أية غيوم قد يسفرا عن عواقب وخيمة على الطائرة وطاقمها. إذا فوجئ قطار أو سيارة بهذه الظروف ففى وسعهما التوقف عن السير ويمكن لمركب أن يواجه عاصفة لكن الطائرة فى منتصف رحلتها، وعلى بعد فراسخ طويلة من أقرب ممر هبوط، وكمية وقود محدودة ما بوسعها أن تفعل فى

ظروف كهذه؟ وأيضاً: ماذا يحدث لو توقف المحرك فى الهواء؟ راح العلماء يشحذون أذهانهم للتغلب على ما ليس له حل. درسوا باهتمام متجدد تشريح حشرات طائرة كانوا يغارون من مهارتها فى الهبوط بلا أدنى تعقيد فوق سطح "مدقة" متناهى الصغر، فيما تحتاج طائرة إلى سطح طويل، أفقى ومستو كى تتمكن من الهبوط دون أن تنفجر. ومرد ذلك أن الهبوط لا يمكن أن يحدث بسرعة أقل من مائة كيلو متر فى الساعة، ففى هذه الطائرات لم يكن الحمل والانتقال شيئين منفصلين.

انتهى أونوفرى بوفيلا من الاستماع إلى شروحات المخترع شارداً ثم رن الجرس وحين ظهر رئيس الخدم فى حجرة المكتبة قال له أن يضيف بعض جذوع الشجر إلى ما فى المدفأة. وبنفس الشرود راقب تحركات رئيس الخدم. قال سانتياجو بلتال ما إن تركهما وحدهما:

- أرى أن مقترحى لم يقنعك تمام الاقتناع.

بدا أن هذه العبارة غير ذات الأهمية أخرجته على نحو مباغت من شروده. نظر إلى المخترع كأنه يراه لأول مرة، وقال فى جفاء:

- الأمر ببساطة لا يثير اهتمامى.

الآن لم يرغب فى شىء آخر سوى التخلص من المخترع، ثم أضاف حين رأى الحيرة بادية على وجهه بعد أن حدا به اهتمام أونوفرى المبدئى والظاهر إلى أن يعلق آمالاً زائفة:

- لا أقول إن الفكرة ليست شائعة، بل من المحتمل فى المستقبل أنا نفسى... - أضاف ذلك آلياً دون أن يتكبد حتى مشقة إتمام الجملة.

فى الأسابيع التى أعقبت ذلك اللقاء جاءته أنباء عن سانتياجو بلتال فى عدة مناسبات. عرض المخترع مشروعه على أشخاص آخرين، وتوجه كذلك إلى شركات وهيئات حكومية. لم ينل فى أى مكان سوى عبارات تشجيع ووعود غير محددة، فيقولون له: سندرس الموضوع بالاهتمام الواجب بلا شك. أخبره رجاله أن "البلتالين"، الأب والابنة، يسكنان

حجرة مؤجرة من الباطن فى شقة بشارع سيبولبيدا. ويقول الجيران عنهما إنهما مخبولان ولا نفع يرجى منهما ولا يحتكمان على ريال واحد. مدركاً أن شيئاً ما سيحدث إن آجلاً أو عاجلاً قرر الانتظار. فى نهاية الأمر، فى مساء بلون الرصاص، أعلن كبير الخدم عن زيارة؛ عن بعد دوى صدى الرعود. قال كبير الخدم فى نبرة محايدة: حضرت آنسة وتقول إنها تريد الحديث إلى سيدى على حدة. هذه النبرة لم تحل دون سريان رعدة فى سلسلة ظهره. قال مستديراً الباب كأنما يود إخفاء حيرته: دعها تدخل ومُر ألا يضايقنى أحد. ثم أضاف فيما يهم كبير الخدم بالانصراف لتنفيذ تعليماته: قل كذلك للسائق ألا ينام حتى أصرح له بذلك وأن يعد لى سيارة إذا ما احتجت إلى ذلك فى أية ساعة. انصرف كبير الخدم من غرفة المكتبة حين رأى أنه لن يتلقى أوامر أخرى، أغلق الباب خلفه واتجه إلى البهو، وهناك قال:

– تفضلى بمرافقتى، سيستقبلك سيدى فى الحال.

وهى كذلك لم تتمكن من تجنب رعدة. فكرت وهى تسير فى إثر كبير الخدم: أعلم ما سيحدث، أرجو الله ألا يحدث أكثر من ذلك.

تعرفها لحظة أن رآها تدخل غرفة المكتبة يسبقها رئيس الخدم، تذكرها بدقة مثيرة للقلق، كأنما، بفعل حضورها الآن، ضغطت الأعوام التى تفصل بين لقائهما الأول البالغ القصر ولقاء اليوم تلسكوبياً، كأنما مرت فحسب عدة دقائق، اللحظات الضرورية كى يولد الآن هذا الإحساس التراجعى بألم الغياب، شيء أكبر قليلاً من حلم قصير، والذى يبدو فى هذه اللحظة كأنه حياتى بأكملها – هكذا فكر. قالت هى: أنا ماريا بلتال. فأجابها:

– أعلم جيداً من أنت. الجو حار فى هذه الغرفة – أضاف ليكسر الصمت – أشعل المدفأة دائماً، كنت مريضاً لعدة أشهر ويضطرنى الأطباء إلى الاعتناء بنفسى على نحو مبالغ فيه. اجلسى وأخبرينى فيم زيارتك هذه. بعد تردد طفيف اختارت كرسياً، فبما أنها ترتدى تنورة

بالغة القصر فإن جلستها فى أى من المقاعد الكبيرة فى المكتبة قد تكون مرهقة وسخيفة. ففى تلك الاعوام وصل ذيل التنورة، الذى انفصل فى ١٩١٦ عن مشط القدم وراح يرتفع عن الساق بإصرار حلزون، وصل حتى الركبة وتوقف هناك إلى مطلع الستينيات. أثار هذا التقلص فى طول التنورة نحواً من الفزع فى صناعة النسيج، العمود الفقرى لقطلونيا. ومع ذلك لم يكن لهذه المخاوف ما يبررها، فإذا كانت الثياب تحتاج إلى قماش أقل فإن صوان الملابس الحريمى تضاعف على نحو رحيب من جراء تنامى مشاركة المرأة فى الحياة العامة: فى العمل، فى الرياضة، إلخ. كل شىء قد تغير فى أمور الموضة: حقائب اليد، القفازات، الأحذية، القبعات، الجوارب، تسريحة الشعر. لم تعد الحلى تستخدم كثيراً ومروحة السيدات أدينت مؤقتاً. عندما وضعت ساقاً فوق الأخرى لاحظ، رغماً عنه، جوربها الأبيض الشفاف وتساءل عن مغزى هذه الحركة. ابتدرته مارتا بلتال قائلة:

- لا تظن يا سيدى أننى أتبع خطا أبى، لا نؤلف فريقاً، كما يقال عن الأشخاص التى تتصرف بهذه الطريقة. أعلم أنه جاء ليراك، وأفترض بكل بساطة أنه جاء يعرض عليك آخر مخترعاته. وأتيت فقط لأقول لك إن أبى ليس مشعوذاً ولا محتالاً ولا أحمق كما قد يحمل مظهره على الظن. هو فى الواقع عالم أصيل، تكوينه عصامى لكنه راسخ وحقيقى، عامل لا يشق له غبار وشريف وموهوب. واختراعاته ليست خيالات أو مبالغات. أعلم أن الكلام بلا براهين لا يكفى، كما أنك لن تصدق كلامى أنا لأننى ابنته. فى الواقع، أنا جئت إلى هنا خلافاً لأى منطق، بيد أن الأمور ببساطة لا تسير على ما يرام، لم تسر أمورنا قط على ما يرام، لكنها الآن بلغت بنا حد اليأس. لم يعد لدينا ما نسدد به الإيجار أو ما نسد به الرمق، أو ما نواصل به الحياة ببساطة. ولن أخفى عليك الحقيقة: جئت متوسلة إليك. يتقدم أبى فى العمر، وليس هذا فى الحقيقة ما يقلقنى، بوسعى أن أعمل ولقد عملت بالفعل أحياناً، بوسعى

توفير القوت لكلينا. غير أننى أعتقد أن الوقت قد حان لينال فرصة فى الحياة، وألا يواجه الشيخوخة وهو يشعر أن حياته ضاعت سدى. لا تنظر إلىَّ بسخرية، فأنا أعلم أنه مصيرنا جميعاً، لكن، ألن تسمح لى بأن أتمرد باسم أبى؟ - حين انتهت من قول ذلك نهضت من الكرسى وخطت عدة خطوات على البساط؛ من مقعده، نظر إلى جذوع الشجرة المتقدة فى المدفأة من بين ربلتى ساقيها. ثم جلست وواصلت حديثها بنبرة أكثر هدوءاً - جئت إليك يا سيدى لعلمى أنك الشخص الوحيد فى هذه اللحظة الذى يمكنه إخراج أبى من الهوة التى سقط فيها منذ زمن طويل. ولا أقول ذلك كى أتملقك، بل لأننى أعلم أنك لا تخشى المخاطر، ومسألة أنك أنت نفسك منذ أعوام أعطيته بطاقتك يؤكد قولى، فأنت لا تتراجع إزاء المجهول أو الجديد. - ثم أضافت وقد احمرت خجلاً -: منذ ذلك اليوم تذكرت دائماً تلك اللعنة. فى الواقع أنا لا أطلب منك شيئاً، بل فكر فى قرارك، لا أكثر. لا ترفض مقدماً ما قد يكون أبى عرضه عليك، خذه بعين الاعتبار، دع خبيراً يفحص رسوماته، شاور عدة فنيين فى هذا التخصص، اطلب منهم فتوى فنية، وليقولوا هم إذا كان الأمر يستحق العناء أم لا.

سكتت فجأة وسكنت حركتها، كأنما أصابها خدر، وقد تلاحقت أنفاسها من التوتر الناشئ عن تخيلها لرد الفعل المحتمل من جانب محدثها: كانت تخشى أن يطردها من هناك شر طردة أو، وذلك أنكى، أن يعرض عليها استسلاماً مهيناً. فهى فى الحقيقة لم تكن تجهل ما قد تنطوى عليه زيارتها، وكانت مستعدة لتحمل النتائج. ما كان يخيفها هى الطريقة التى ستسير عليها الأمور. فعلى الرغم من أنها اقتنعت منذ سنوات بأن ظروفها تجبرها على هذا المصير لم تكن تدرى كيف تتصرف إذا وضعت فى هذا الموقف ولا كيف ستتدخل مشاعرها فيه. فى واقع الأمر، جعلت تقاوم لإبعاد مشهد هوسى عن ذهنها: كانت والدتها قد هجرت البيت منذ زمن بعيد ولا تحتفظ بأية ذكرى لها. منذ ذلك الوقت

تحولت الأم الغائبة إلى حضور دائم فى خيالها، وكل حياتها مرت فى صحبة شخص غير موجود. لكنه الآن يحدجها ببصره فحسب. وهى تذكرت أنها رأت هذه النظرة وهى لم تزل طفلة؛ فى تلك المناسبة، شعرت بالخجل من كل شىء: من جسدها غير الرشيق ومن الأسمال التى كانت ترتديها ومن الظروف المأسوية التى كانا يعيشانها. مع ذلك، التفتت إلى تلك النظرة. الآن يفكر هو فيما يلى: كنت أتذكر هاتين العينين اللتين بلون الكاراميل، والآن هأنا أرى أن لونهما رمادى.

(٢)

تقول أسطورة حديثة: في الأعوام الأولى من هذا القرن، وفي أحد الأيام، انتزع الشيطان رجل مال برشلونياً من مكتبه وطار به إلى هضبة مونجوي. ولما كان ذلك اليوم صحواً، رأى من هناك برشلونة كلها، من الميناء إلى جبال كولسيرولا ومن نهر برات إلى بيسوس. بنى الجزء الأعظم من إجمالي ١٣٩٨٩٩٤٢ متراً مربعاً هي قوام مشروع سارداه. والآن تلامس التوسعة تخوم القرى المجاورة (تلك القرى التي كان سكانها يستمتعون قديماً برؤية أهالي برشلونة وهم يسعون في شوارع مدينتهم الصغيرة، تحاصرهم الأسوار وتراقبهم كتلة القلعة الكئيبة) ويؤلف دخان المصانع ستاراً من التل يحركه النسيم، وعبر هذا الستار ترى حقول ماريسمه، بلون الزمرد، والشاطئ الذهبي والبحر الأزرق والوادع المرصع بزوارق الصيد. انبرى الشيطان يقول: سأعطيك كل هذا إذا جثوت أمامي و... لم يتركه رجل المال يكمل عبارته، فبعد أن اعتاد الصفقات التي يعقدها يومياً في "لالونخا" لاح له هذا الاتفاق مربحاً جداً ولم يتردد في إنهائه في الحال. هذا الرجل إما بطئ الفهم أو قصير النظر أو أصم لأنه لم يفهم جيداً ما يعرضه عليه الشيطان مقابل روحه، ظن أن موضوع العقد هو تحديداً الهضبة التي يقفان عليها، وما إن انتهت الرؤيا أو صحا من نومه طفق يفكر في الطريقة التي يفيد بها من الهضبة. حتى ذلك الوقت كانت سفوح هذه الهضبة وعرة لكنها كانت مرتقعاً لطيفاً ووارفاً، ونمت هناك أشجار البرتقال والغار والياسمين. وحين كانت القلعة الشائنة التي تتوجه تكف عن بث النار والشظايا والقنابل فوق المدينة بمبرر أو بلا مبرر، يذهب أهل برشلونة جماعة إلى الجبل، وتعد هناك وجباتها الأسر الفقيرة والخادمات والجنود. من فرط التفكير في الأمر تفتق ذهن رجل المال عن فكرة عدها عبقرية: لنقم في

مونجوى معرضاً عالمياً، معرضاً عالمياً ناجحاً ومربحاً مثل معرض ١٨٨٨. حينئذ العجز الذى خلفه المعرض تكلف تضحيات كثيرة ولم تعد المدينة تتذكر سوى الازدهار والاحتفالات. رحب عمدة المدينة بالمبادرة بحماس لا يخلو من غيرة. قال لنفسه فيما يعرض عليه رجل المال المشروع: آه، ما أجمل الفكرة، لمَ لم تراودنى أنا؟ فى الحال تم التصويت على تقديم دعم للمشروع. أغلق جبل مونجوى أمام الجمهور وأزيلت الغابات وتم تحويل ماء الينابيع أو سدها بالديناميت، وهناك أقيمت منحدرات ووضع أساس ما سيكون فيما بعد قصوراً وأجنحة. ومثلما حدث فى المرة السابقة ما لبثت أن ظهرت العقبات: فاندلاع الحرب العظمى أولاً ثم تحفظ حكومة مدريد عطلا دائماً سير العمل. على شفا الموت وبتدخل من القديس أنطونيو ماريا كلاريت تمكن الرجل من إنقاذ روحه من براثن إبليس لكن المعرض لم يعد إلى الحياة. كان لابد أن تمضى عشرون سنة كى تبعث سياسة الاشغال العامة فى عهد الجنرال بريمو دى ريبيرا الحياة فى الفكرة. الآن ليس مونجوى وحده بل المدينة بأكملها ستكون مسرحاً لمشاريعه الضخمة: بنايات عديدة هدمت ورفع بلاط الشوارع لمد خطوط المترو. وذكر مظهر برشلونة بتلك الحرب العظمى التى قضت على فكرة إقامة المعرض من قبل. فى تلك الأشغال وفى إنشاءات المعرض الدولى عمل عدة ألوف من العمال البنائين من كافة أرجاء شبة الجزيرة، خاصة من الجنوب، يأتون فى قطارات مزدحمة حتى أرصفة محطة "فرنسا"، بعد توسعتها وتجديدها. وكالمعتاد لا تتسع المدينة لاستيعاب هذا الطوفان، فأقام المهاجرون خصاصاً لعدم توافر المنازل. أطلق على هذه الخصاص اسم "بارّاكا"، وبين عشية وضحاها كثرت أحياء "البارّاكا" فى ضواحى المدينة وعلى سفوح مونجوى وعلى ضفة نهر بيسوس، أحياء مرذولة اتخذت أسماء "لامينا" و"كامبو دى لابوتا" و"بكين". ومما يثير القلق فى هذه الظاهرة، أسوأ ما فى ظاهرة "البارّاكا"، هى صفة الإقامة، فإرادة الإقامة كانت جد واضحة فى أبنائها، إرادة التوطن. ففى نوافذ

أحقر الخصاص وضعوا ستائر من الأسمال، وبالحجارة المطلية بالجير أقاموا حدوداً لحدائق أمام كل خص، وفى هذه الحدائق زرعوا طماطم وفى صفائح البترول القديمة نما الغرنوق والبقدونس والحبق كأنما فى أصص. لحل هذا الوضع دعمت السلطات إنشاء بلوكات ضخمة من المنازل سميت "البيوت الرخيصة". فى هذا النوع من الدور لم يكن الإيجار منخفضاً فحسب، بل إن مواد البناء كانت بالغة الرداءة، فالأسمنت مخلوط بالرمل والنفايات ودعامات الأسقف هى أحياناً رواقد متآكلة من مخلفات السكك الحديدية والحوائط من الكارتون أو الورق المكبوس. وكونت هذه البلوكات مدناً تابعة لا يصلها الماء الجارى أو الكهرباء أو الهاتف أو الغاز؛ كما لم تكن هنالك لا مدارس ولا مراكز رعاية أو ترفيه أو مساحات خضراء من أى نوع. ولما كانت تفتقر كذلك إلى وسائل النقل العام كان سكانها يستخدمون الدراجات. وأصاب الانحدار الشديد لشوارع برشلونة سائقى الدراجات بالإرهاق الشديد فيعودون بدورهم مكدودين من العمل الذى كان بعضهم تأتيه الوفاة أثناءه. أما النساء والأطفال فكانوا يفضلون الدراجة ذات الثلاث عجلات لأنها أكثر راحة وأماناً رغم كونها ليست خفيفة ولاعملية. كانت المرافق فى البيوت الرخيصة بالغة القصور حتى إن الحرائق وتسرب المياه صارا أمراً مألوفاً ويومياً. وتورد الصحافة اليومية من تلك الفترة أنباء كاشفة كهذا النبأ: "مساء أمس، الثلاثاء، بعد نقاش حاد مع زوجته وحماته، وجه بنتاجرويل كريادو إى تشوبو، من مواليد مولا، مقاطعة مرسية، ٢٥ سنة، عامل بناء وحالياً فى جناح ألمانيا بالمعرض العالمى، وجه بقبضة يده خبطة لحائط غرفة الطعام والمعيشة فتهدمت الحائط فألفى المدعو بنتاجرويل كريادو نفسه فى حجرة نوم جاريه خوان دى لا كروث ماركث إى لوبث ونيثيفورا غرسية دى ماركيس اللذين وجه إليهما عبارات خارجة. أثناء المشاجرة التى نجمت عن ذلك سقطت واحدة تلو الأخرى كافة حوائط الطابق. تدخلت بقية جيران الطابق نفسه، فى هذا اندلعت

حرب طروادة! أكثر اقتضاباً هذا العنوان لتحقيق عن حادث نشر فى ١٩٢٦ ويقول: وفاة طفل حين شد جاره فى الطابق العلوى سلسلة السيفون. إلى جانب ساكنى الخصاص والبيوت الرخيصة فى ظروفهم الحقيرة ينبغى أن نذكر مستأجرى الباطن. وهؤلاء كان يسمح لهم مستأجرو الشقق الشرعيون بتأجير حجرة من الباطن (دائماً أردأ حجرة) واستخدام الحمام والمطبخ فى أضيق الحدود. ومستأجرو الباطن، الذين وصل عددهم فى برشلونة فى ١٩٢٧ إلى أكثر من مائة ألف، هم الذين كانوا يعيشون فى أفضل ظروف، على أنهم هم أيضاً، فيما عدا بعض الحالات المعدودة، الذين تعرضوا لأكبر قدر من المهانة والخزى. فوق ذلك النسيج من الاحتضار والفاقة والحقد أقامت برشلونة المعرض الذى سيباغت العالم. بعيداً عن مونجوى، فى مصلاها الذى سوده دخان الشموع، تأملت القديسة إوّلاليا المشهد وفكرت: أية مدينة هذه، يا إلهى! بالفعل، لا يمكننا القول إن المدينة كانت سخية مع القديسة إوّلاليا. فى القرن الرابع الميلادى، وهى فى الثانية عشرة من عمرها لا تكاد، ولأنها أبت أن تعبد أرباباً وثنية، تعرضت للتعذيب ثم للحرق. ويحكى لنا برودنسيوس: عندما حضرها الموت خرجت من فمها حمامة بيضاء وغطى جسدها بغتة جليد كثيف. لهذا السبب، وعلى مدى أعوام طويلة، كانت راعية المدينة؛ فيما بعد اضطرت إلى التنازل عن هذا اللقب لعذراء لا ميرثيد التى مازالت تحمله. وفيما بعد، وكأن ذلك الهوان لا يكفى، أُقر أن القديسة إوّلاليا، العذراء الشهيدة، والتى ظلت برشلونة تحت رعايتها عدة قرون، فى حقيقة الأمر، لم يكن لها وجود، بل كانت نسخة فحسب، نسخة مزيفة من إوّلاليا أخرى مولودة فى ماردة عام ٣٠٤ وحرقت مع مسيحيين آخرين أثناء تعقب المسيحيين حسب المرسوم الذى أصدره ماكسيميانوس. قال أهل برشلونة: القديسون يهزؤون بنا! لذا تسير الأمور على هذا النحو. فى النهاية، حتى وجود إوّلاليا ماردة، القديسة الحقيقية، التى نحتفل بعيدها فى العاشر من ديسمبر، وضع

موضع الشك. والآن يحتل تمثال القديسة المخلوعة مذبحاً جانبياً فى كاتدرائية برشلونة ومن هناك راحت تتأمل ما يحدث حولها. فى يوم من الأيام قالت لنفسها: لا يمكن للأمر أن يستمر هكذا، أقسم بأننى لابد فاعلة شيئاً. طلبت من القديسة لوثيا ومن مسيح ليبانت أن يغطيا غيابها بمعجزة، ثم نزلت من منصة تمثالها وخرجت إلى الشارع وتوجهت بحزم صوب مبنى البلدية حيث استقبلها العمدة بمشاعر متقابلة: فمن ناحية أسعده أن يحسب حساب تضامن القديسة معه، ومن أخرى كان يخشى من رأيها فى إدارته. قالت له القديسة إوِلاليا: آه، يا داريوس، تأتون أفعالاً همجية فيما بينكم جميعاً! كان داريوس روميو إى فريشا، بارون بيبر، يشغل منصب العمدة منذ عام ١٩٢٤. قال معتذراً: عندما توليت منصبى كان كل شىء قد بدأ، كنت أفضل ألا ينعقد المعرض. هذا الرجل لم يكن ولن يستطيع أن يكون فى نفس حماس ريوس إى تاوليت، سلفه العظيم، فالآن برشلونة مدينة ضخمة ومعقدة. واصل حديثه: مرد ذلك بريمو دى ريبيرا وهوسه بالأشغال العامة، سياسة شعبية علينا جميعاً الآن أن ندفع ثمنها شئنا أم أبينا، فبسببه تكتظ المدينة بالمهاجرين وبأهل الجنوب. فجأة تذكر أن العلماء يرجحون أن القديسة من الجنوب فأسرع يضيف: لا تفهمينى خطأ أيتها القديسة إوِلاليا، لا أحمل شيئاً ضد أحد، فأنا أرى أننا جميعاً سواسية أمام الخالق، لكن روحى تنزعج حين أرى الظروف البائسة التى يكابدها أولئك التعساء، ولكن، ماذا فى وسعى أن أفعل؟ هزت القديسة إوِلاليا رأسها فى أناة وقد بدا عليها الإحباط. فى النهاية، قالت: لا أدرى، لا أدرى. تنهدت بعمق وأضافت: لو أننا على الأقل نتمكن من الاعتماد على أونوفرى بوفيلا! لكنها فى ذلك الوقت لم تكن تستطيع أن تعتمد عليه.

اقترح عليه السائق:

- ربما كان من المناسب أن أرافق سيدى.

كان شارع سيبولبيدا يصب فى ميدان إسبانيا الذى تحول الآن إلى فوهة بركان يتصاعد منها الدخان: فهناك بدأت أعمال المعرض العالمى، ومن هناك يبدأ طريق الملكة كريستينا وعلى جانبيه قصور وأجنحة فى طور البناء، وفى وسط الميدان تشيد نافورة أثرية وإلى جانبها محطة مترو جديدة. فى هذه الإنشاءات عمل عشرات الآلاف من العمال. فى الليل، يعودون إلى خصاصهم أو إلى بيوتهم الرخيصة أو إلى المنازل الكئيبة التى يعيشون فيها مستأجرين من الباطن. بعضهم، من ليس لديه مأوى، يرقد فى الشوارع القريبة من الميدان، فى العراء، وأكثرهم حظاً يلتحف بطانية، والأقل منهم: أوراق الصحف: ويرقد الأطفال يعانقون آباءهم أو إخوتهم، وأسند المرضى إلى جدران المنازل فى انتظار تخفيف غير محتمل لآلامهم مع مقدم اليوم الجديد. عن بعد يرى لهيب نار، وظلال من يتحلقونها. دخان منخفض يبعث برائحة قلى ويترع بهذه الرائحة الملابس وشعر الرأس؛ وفى أحد الأركان يسمع نغم قيثارة. أمر أونوفرى بوفيلا السائق أن يظل إلى جانب السيارة. قال: لن يحدث لى شىء. كان يعلم أن أولئك الرعاع ليسوا من أرباب العنف. محتمياً جيداً داخل معطف أسود ياقته من الجلد ومرتدياً قبعة وقفازين من جلد الغنم سار هادئاً فى قلب الشارع. راقبه الرعاع بدهشة لا بعداء، كأنهم يشاهدون عرضاً. فى النهاية، توقف فجأة أمام منزل فى الشارع، منزل مبتذل وخال تماماً من أية زخرفة، ثم طرق الباب عدة مرات بمقرعة الباب. بعد أن أظهر قطعة معدنية للشخص الذى ينظر من العين السحرية تمكن من أن يفتح له الباب فى الحال. عند الباب الخارجى تبادل الهمس وهلة مع العجوز التى فتحت له الباب والتى لم تكن هنالك سن واحدة فى لثتها عندما تضحك فى صمت. بدأ الصعود فيما تجتهد العجوز الممتنة المبالغة فى أداء تحية الاحترام وترفع قنديلاً ليرى درجات السلم. بدءاً من أول بسطة اضطر أن يتحسس الظلام، لكن ذلك لم يجعله يبطئ فى سيره أو يفقد الاتجاه فمازال يحتفظ بهوايته القديمة فى التجول ليلاً. فى النهاية توقف عند

بسطة وأشعل عود ثقاب وعلى ضوئه اللحظى قرأ رقماً وطرق باباً ما لبث أن فتحه رجل عليه علامات المرض وغير حليق الذقن يرتدى روباً حائلاً فوق بيجاما قذرة ومجعدة. قال قبل أن يسأله الرجل عن مبرر وجوده هناك: جئت لرؤية السيد سانتياجو بلتال. أجابه الرجل: ليست هذه ساعة زيارة. وشرع يغلق الباب لكن أونوفرى بوفيلا فتحه بركلة قوية من مقدمة قدمه وبطرف العصا ضرب الرجل فى ضلوعه ودفع به فاصطدم بحامل المظلات الخزفى الذى سقط وتناثرت أجزاؤه. قال دون أن يرفع صوته: لم أطلب رأيك ولا أريد أن أسمعه: اذهب وقل لسانتياجو بلتال أن يخرج للقائى ثم اذهب إلى حيث لا أراك. مهزوماً نهض الرجل بصعوبة وفى ذات الوقت راح يبحث عن طرفى نطاق الروب الذى انحل حين سقط ثم اختفى دون أن يقول شيئاً خلف ستارة تفصل تلك الردهة عن بقية المنزل. من هناك ظهر سانتياجو بلتال بعد لحظات وألحف فى طلب المعذرة، قال: لم أكن أنتظر أحداً ولاسيما زيارة بهذه الأهمية. ثم أضاف أن الظروف التى يعيشها... وترك العبارة دون أن يكملها. سار أونوفرى بوفيلا إثر الرجل فى الدهليز المظلم حتى غرفة محدودة الأبعاد لا تهوية بها سوى من خلال كوة تطل على فناء داخلى مغطى فكان الجو هناك متكاثفاً. كان هنالك سريران معدنيان ومنضدة وكرسيان ومصباح قائم؛ وفى عدة صناديق من الكرتون لصق الجدران يحتفظ المستأجرون من الباطن بملابسهم وأمتعتهم. غطيت تلك الجدران بالرسومات التى علقها المخترع بدبابيس. ماريا بلتال كانت جالسة إلى المنضدة، ترفو على ضوء اللمبة الشاحب جورباً باستخدام بيضة خشبية. ولكى تحتمى من القر والرطوبة اللذين يسودان المنزل كله وضعت شالاً فوق رداء قديم من الصوف الخشن: وأكمل ملبسها البائس جورب من الصوف وحذاء من اللباد. هذا الملبس عزز نحافة تكوينها ولون بشرتها اللازوردى والذى أخفاه طلاء وجهها خلال لقائهما قبل أيامها. تباين هذا الشحوب وحمرة أنفها بسبب الزكام، زكام أهل برشلونة المزمن. حين دخل الحجرة رفعت للحظة نظرها عن الخياطة

ثم خفضته؛ هذه المرة، عاد لعينيها لون الكارامل الذى ظن أنه يتذكره من لقائهما الأول.

قال المخترع وهو يذرع الحجرة فيما بين الأثاث فى توتر معززاً بإيماءاته الحادة وهياجه مناخ الفوضى العام الذى يُتنفس هناك:

- أستميحك العذر لهذه الفوضى الفظيعة، لو أننا علمنا أنك ستمنحنا هذا الشرف لكنا على الأقل أزلنا هذه الأوراق السخيفة من على الحائط؛ أوه! أى سهو هذا! لم اقدم لك ابنتى، أنت لا تعرفها. ابنتى ماريا يا سيدى. ماريا، هذا السيد هو دون أونوفرى بوفيلا الذى حدثتك عنه، منذ أيام ذهبت إلى منزله لأقدم إليه عروضاً تفضل هو بأخذها بعين الاعتبار.

تبادل كلاهما نظرة مختلسة ربما أثارت ريب أى شخص ولم يفطن إليها المخترع الذى أخذ معطف الزائر وقبعته وعصاه وقفازيه، وهو بمعزل عن أى شىء، ووضعها بعناية على سرير. ثم قرب صندوقاً من المنضدة وقدم لأونوفرى الكرسى الشاغر وجلس فى الحال على الصندوق وشبك أصابعه متأهباً لسماع ما جاء أونوفرى ليقوله لهما. وهذا، كعادته، تحدث فى الموضوع مباشرة بلا مقدمات.

ابتدرهما قائلاً:

- قررت قبول هذا العرض الذى تحدثت عنه فى التو - هكذا بهذه الإيماءة تجنب عبارات الامتنان والحماس التى كان المخترع على وشك إطلاقها بعد دهشة اللحظة الأولى -، وبذلك أود أن أقول ببساطة إننى الآن أعتبر مسألة وضع مبلغ من المال تحت تصرفك كى تتمكن من إنجاز تجاريك التى حدثتنى عنها، أعتبرها مخاطرة معقولة. وبالطبع هذا الاتفاق لا يخلو من شروط. عن هذه الشروط تحديداً جئت لأتحدث معك.

قال المخترع:

- كلى آذان صاغية.

إذا كان بارون بيبر، وهو من أنصار الملكية، تزوره القديسة إوْلاليا فإن الجنرال بريمو دى ريبيرا، الذى تخلى عن كونه ملكياً حقداً على الملك، كان يظهر له من حين إلى حين سرطان بحر يرتدى قبعة من التيرول. بعد أن هجره الجميع ورفضه تسليم السلطة لغيره، راح الديكتاتور يعلق آماله الآن على معرض برشلونة العالمى. قال: حين توليت الحكومة كانت إسبانيا قدراً مليئة بالصراصير، بلداً من الإرهابيين والحرامية، فى سنين قلائل حولتها إلى أمة مزدهرة ومحترمة، لدينا فرص عمل وسلام، وسوف يرى ذلك على نحو لا يفند فى المعرض العالمى، هناك سيضطر من ينتقدنى إلى خفض رأسه مهانة. سمح وزير الدعم لنفسه بأن يعرض ملاحظة، قال: خطة فخامتك هذه، الرائعة، تتطلب للأسف ميزانية تتخطى حدود إمكاناتنا. وذلك صحيحاً: كان الاقتصاد القومى أصيب بأضرار جسيمة فى الأعوام الأخيرة، والاحتياطى على وشك النفاد وسعر البزيتة فى الأسواق الخارجية مضحكاً. هرش الديكتاتور منخاره. همهم: يا للشيطان، كنت أظن أن تكاليف المعرض سيضطلع بها القطلونيون. ثم أضاف من بين أسنانه كأنه يكلم نفسه: يا سلالة البخلاء! بكياسة مرهفة بين له وزير الدعم أن القطلونيين، على هامش شمائلهم أو عيوبهم، يرفضون أن يصرفوا بزيتة واحدة ليعلو نجم من يسئ معاملتهم بلا هوادة. صرخ بريمو دى ريبيرا: والآن يتضح أنه أمر معقد! ما رأيك إذا نفينا المناوئين؟ رد وزير الداخلية: إنهم عدة ملايين يا سيدى الجنرال. ابتهج وزير الدعم لأن ثقل المحادثة يقع الآن على كاهل زميله فى الحكومة. خبط بريمو دى ريبيرا المنضدة بقبضته، قال: إلى الجحيم كافة الحقائب الوزارية! بيد أنه لم يكن غاضباً، فقد طرأت عليه قبل لحظة فكرة منقذة. قال: حسن، هذا ما سنفعله: سندعم معرضاً دولياً آخر فى مدينة إسبانية أخرى، برغش، بامبلونة، أية مدينة. وحين رأى الوزيرين ينظران إليه فى ذعر ابتسم فى دهاء وأضاف: لن تكون هنالك حاجة لإنفاق الكثير فى هذا، فحين تصل

إلى علم القطلونيين هذه الخطة سيبيعون كل شىء، سينفقون بلا حدود كى يصير معرض برشلونة أفضل المعرضين. اضطر الوزراء إلى الاتفاق على أن الفكرة كانت طيبة. وزير الزراعة وحده جرؤ على إيضاح شىء، قال: سيكون هناك من يكشفنا، من يفضح هذه المناورة. زأر الديكتاتور: من يفعل ذلك ننفه. والآن تتقدم أعمال معرض برشلونة العالمى بأقصى سرعة؛ ومن جديد أصبحت الديون تقرض خزانة البلدية. كانت مونجوى الجرح الذى ينزف منه اقتصاد المدينة. والعمدة وكل من عارض الفكرة، كل من عارض ذلك التبذير، تم تهميشهم بلا تفكير وتولى صلاحياتهم أشخاص آخرون من الموالين لبريمو دى ريبيرا. من بين هؤلاء مزايدون أفادوا من تلك الفوضى ليثروا ثراء فاحشاً. ولم يكن مسموحاً للصحف إلا بنشر الأنباء الواعدة والتعليقات المؤيدة لما كان يجرى وإلا لا تسمح الرقابة بنشرها أو تصادرها من أكشاك البيع وتفرض على رؤساء تحريرها غرامات قاسية. بفضل ذلك جعل مونجوى يتحول إلى جبل مسحور. فقد ارتفع هناك الآن قصر الكهرباء وقصر القوة الدافعة وقصر الملبس وقصر فن النسج وقصر الفنون الصناعية والتطبيقية وقصر العروض وقصر فنون الطباعة والتصوير وقصر صناعة البناء (واسمه أيضاً قصر ألفونسو الثالث عشر) وقصر العمل وقصر الاتصالات والنقل، إلخ. بدأ العمل فى هذه القصور قبل عقود، إبان أوج مذهب الحداثة، والآن صار مظهرها صارماً، فى رأى الخبراء، إذ لاح لزجاً وغير أصيل ورديئ الذوق. إلى جانبه، متباينة معه، بدأت تظهر الأجنحة الأجنبية التى صممت حديثاً وتعكس الاتجاهات الحديثة من حيث المعمار والناحية الجمالية. كتب صحفى فى ١٩٢٧: "إذا كانت معارض أخرى تخصصت فى مجال محدد، كالصناعة أو الطاقة الكهربية أو وسائل النقل، فإن هذا المعرض قد تخصص بجدارة فى الابتذال". بعد ذلك نفى الصحفى إلى جزيرة جوميرا بجزر الكنارى. يضيف: "لم يكفهم أننا أفلسنا بل سنظهر أمام العالم كأننا من سكان

الكهوف المبتذلين". مع ذلك لم تفت هذه الضجة فى عضد منظمى المعرض.

فيما تجرى هذه الأمور حول المعرض العالمى، على ربوة أخرى، تفصلها المدينة بأكملها عن مونجوى، كان أونوفرى بوفيلا فى مواجهة مع نفسه فى حديقة ضيعته. قال لنفسه: كيف؟ عاشق أنا؟ وفى سنى! كلا، ليس معقولاً ...، ومع ذلك، أجل، محتمل، ومسألة أن يكون محتملاً تترعنى ببالغ الفرح. آه، من كان يصدق! جعل يضحك خفيضاً وهو يفكر فى ذلك؛ لأول مرة فى حياته ينظر إلى نفسه بحنان، وهذا نفسه أتاح له أن يضحك لتردده. ثم انمحت الابتسامة من شفتيه وقطب جبينه، فهو لا يفهم كيف حدث له ذلك، فالمعجزة التى يبدو أنها حدثت لروحه ألقت به فى خضم الحيرة. سأل نفسه: أى نفوذ لا يقاوم يمكن لهذه المرأة القليلة الشأن أن تكون مارسته علىَّ؟ واصل محاورته مع محدث خفى: هذا لا يعنى ألا تكون جذابة، ولكن علىَّ أن أقر بأنها ليست كذلك امرأة بالغة الفتنة. وحتى لو كانت كذلك، لم فتنت أنا بها إلى هذا الحد؟ لم تغب عن حياتى نساء رائعات، إناث حقيقيات يتوقف لعبورهن المرور؛ بمالى لم يكن صعباً شراء الجمال، الحصول على الأفضل. مع ذلك، لم أشعر نحوهن فى الواقع بأى شىء سوى الازدراء. فى المقابل، تشعرنى هذه المرأة بالتواضع حتى إننى مباغت، ولا أجد تفسيراً لما يحدث، فإذا تحدثت إلىَّ أو ابتسمت أو نظرت إلىَّ يغمرنى إحساس ببالغ السعادة حتى إنى لأحس بالامتنان نحوها أكثر من أى شىء آخر. حين كان يفكر فى ذلك ظن أن هذا التواضع هو خلاصه من أنانيته كلها. ثم يقول وهو يراجع شريط حياته: صحيح أننى أحياناً أتيت بأفعال شريرة، ويعلم الله أن هنالك صفحات فى تاريخى سأحاسب عليها جميعها، وإذا كان ليس فى وسع أحد أن يزعم أننى قتلت أحداً بيدى فقد مات بعض الناس بسببى على نحو مباشر أو غير مباشر: أشخاص آخرون عاشوا تعساء

وربما يلقون عليّ تبعة تعاستهم. آه، ما أفظع أن أنتبه الآن إلى هذه الأمور، بعد فوات أوان الندم أو المصالحة! حين وعى ذلك خرّ على الأرض كأن صاعقة صعقته. كان الهواء هادئاً، وعلى صفحة البحيرة الصناعية الساكنة ومضت الشمس ونفح ذلك الوميض ريش البجع الأبيض بريقاً يؤذى البصر. فى لحظة اضطراب نفسه كان متأهباً لأن يرى فى ذلك البجع الفلورسنتى رسلاً من لدن الأعلى أرسلها لتحمل إليه رسالة رحمة وأمل. ويبدو أنها جاءت تقول له إن السماء ستبتهج لتوبة آثم واحد أكثر من احتفائها بتسعة وتسعين من الصالحين الذين ليسوا فى حاجة إليها. متأثراً بذلك الهاجس غرس جبهته فى العشب وهمس: المغفرة، المغفرة؛ كنت أحمق وقاسى القلب ولا عذر لى، لا مخفف لذنبى. أمام عينى ضميره، كأنما يقلب ألبوم صور، مرت أمامه الوجوه التى تدينه: أودون موستاثا ودون أليكساندرى كنالز إى فورميجا وابنه المسكين نيكولاو كنالز إى راتبلان وجوان سيكارت وأرناو بونثيا والجنرال أوسوريو، حاكم لوثون الأسبق، وأيضاً وجوه زوجه وابنتيه وديلفينا والسيد براوليو وأبيه وأمه وحتى أخيه جوان: هؤلاء الأشخاص جميعهم وكثيرون آخرون لم ير وجوههم ولن يراها قط ضحى بهم على مذبح طموحه وجنونه، جميعهم راح ضحية تعطشه غير المبرر للانتقام، وعانوا بلا داع ليوفروا له مؤقتاً مذاق النصر المز. فكر وهو يحس بالدموع تود لو تنهمر بين جفنيه المغمضين: أهنالك فى السماء كرم يشمل مخلوقاً بشعاً كنته تلك السنين كلها؟ ما إن طرأ عليه هذا الفكر أحس بمن يربت على كتفه. لعلمه بأنه وحده فى الحديقة أحس بالذعر، والآن لا يجرؤ على فتح عينيه خشية أن يجد نفسه فى حضرة ملاك مهيب، ملاك يشهر سيفاً من نار. وحين فتح عينيه فى نهاية الأمر وجد أن بجعة تنقره نقراً خفيفاً فى كتفه بمنقارها. مستغربة لوجود هذا الشخص المجهول الذى يرقد مقرفصاً وساكناً على ضفة البحيرة خرجت البجعة من البحيرة ودنت منه، ربما أوفدها البجع الآخر، لتستطلع الأمر. نهض

أونوفرى بوفيـلا بغتة فتقهقـرت البـجعة مذعورة. من الخلف لا يمكن لسيرها أن يكون أسخف، حتى نعيقها فج وقبيح. اشتعل غضبه لأنه أتاح لطائر غير رشيق كهذا أن يدخل فى قلبه الذعر ولحق بالبجعة قبل أن تنجو منه فى الماء وعاجلها بركة بكل قواه. رسمت البجعة رمزاً فى الهواء قبل أن تسقط فى الماء حيث لبث رأسها ورقبتها تحت الماء وذيلها طافياً فيما تسكن حركة الماء مرة أخرى بعد أهاجه ذلك السقوط؛ وعلى سطح البحيرة طفا الريش الأبيض الذى فقدته البجعة من جراء الركلة. تخلص أونوفرى بوفيلا من قذى العشب الملتصق بملابسه ودون أن يتوقف ليرى هل البجعة حية أم ميتة واصل نزهته. رده الحادث إلى الواقع، وتوقفت رؤيا آثامـه المؤلمة وحل محلهـا الآن من جـديد المنطق الذى لا يرحم والمتحيز الذى طبقه دائماً على كل شىء. قال لنفسه: هيا، عم أحمل نفسى المسؤولية؟ إذا سمعنى أحد قد يظن أن العالم ليس به مبرر لليأس سواى. ثم رد على خصمه المتخيل: كلا، لا شىء أكثر زيفاً من ذلك! كان الناس تعساء قبل أن أولد وسيظلون تعساء حتى بعد موتى. صحيح أننى تسببت فى تعاسة البعض ولكن، هل كنت أنا السبب الحقيقى لتعاستهم أم كنت أداة فى يد القدر؟ لو لم ألتق بأودون موستاثا، أكان سينتهى نهاية أقل مأسوية ذلك القواد السفاح؟ ألم يكن مآله منذ ولد سقالة الإعدام؟ وديلفينا، ماذا كان يخبئ لها المصير لولا أننى ظهرت فى أحد الأيام ببنسيون والديها؟ كانت بلا أدنى شك ستمسح البلاط طيلة حياتها، وفى أفضل الأحوال كانت ستتزوج كسولاً همجياً ومدمناً للكحول يضربها طوال الوقت ولأزهق روحها بالعمل والولادة. يا للشيطان! على الأقل، معى، سنحت لكل جرذان المجارى هذه فرصة، وعلى حسابى نالوا لحظة مجد. قطع أفكاره انفجار مكتوم لكنه قريب. تبعته سلسلة أخرى من الانفجارات. حلقت الطيور وتركت أوكارها بأشجار الغابة ورسمت دوائر على ارتفاع عال وقد اختلطت فى سرب غير متجانس مثيرة ضجة كبيرة. ابتسم أونوفرى بوفيلا مجدداً وأضاف بصوت خفيض: مثل هذا

التعيس المسكين، من قبيل ذكر مثال. الآن فقدت هذه الابتسامة الورع الذى وسمها قبل وهلة.

مستدبراً البحيرة اتجه صوب المكان الذى حدثت فيه الانفجارات. عن قصد، ترك المرج البهيج والمشذب جيداً وتوغل فى الغابة، وهناك تمكن من التقدم بين الاشجار على أطراف أصابعه. حين بلغ تخم الغابة توقف ليراقب دون أن يراه أحد العمل الذى يجرى على مقربة من مخبئه. هناك توجد خيمة سيرك يدخل ويخرج منها طوال الوقت أشخاص لهم مظهر وملابس عمال ميكانيكيين. فى فوهة النفق المصنوع من قماش الخيام ويؤدى إلى داخل خيمة السيرك التى لم يزل يرى عليها أعلام ورايات، يقف حارسان مسلحان يراقبان دخول وخروج هؤلاء الميكانيكيين. وعلى الرغم من أن خيمة السيرك نفسها تحجب عنه كل شىء يعلم أن على الجانب الآخر منها حظائر بداخلها ماكينات فى غاية التعقيد الغرض الأساسى منها توفير الطاقة الدافعة للآلة الكهربية التى تطن وتصر الآن داخل الخيمة. وبالطبع كان من الأفضل والأرخص الحصول على هذه الطاقة من شركة توزيع التيار الكهربائى لكن ذلك سيحول دون سرية النشاط الذى يجرى هناك. لذلك أقيمت تلك الحظائر التى تحمى الآن من فضول الغير تلك المولدات التى تم الحصول عليها فى عدة دول بوساطة شركات مساهمة أنشئت لهذا الغرض وحده ثم أدخلت قطلونيا عن طريق التهريب ثم نقلت إلى وجهتها قطعة قطعة فى سرية. ونقل بنفس الطريقة الفحم الذى يغذيها والذى يحفظ الاحتياطى منه الآن مطموراً فى مخازن تحت مروج الضيعة والغابة والبحيرة. هكذا تم أيضاً تجميع أجزاء الماكينات اللازمة للمشروع. أما عملية التعاقد مع العاملين فى المشروع فكانت أكثر صعوبة. فإذا كان تدفق المهاجرين قد أتاح الفرصة لاختيار وتشغيل العمال بأشد الطرق المكنة تغطية وحرصاً فإن المتخصصين والفنيين

والمهندسين – الذين قد يكون اختفاؤهم المفاجئ من الحياة العامة ومن أعمالهم فى غاية الصعوبة – هم الذين طرحوا عدداً من المشاكل التى دعت الحاجة إلى حلها واحدة بعد أخرى وكل حالة على حدة. فتم التعاقد مع بعض منهم خارج البلاد؛ بعض آخر هجر التقاعد الذى كان أحيل إليه لمبررات شتى؛ أما البعض الثالث والأخير فقد أرسلت إليهم عروض للعمل فى الجامعات الأمريكية. من قبل هذه العروض تلقى بعد قليل تذاكر سفر درجة أولى فى إحدى عابرات المحيطات ذات الرحلات المنتظمة، وحين يتخطى المركب الذى يسافر فيه هؤلاء المهندسون المشاهير الحدود الإقليمية يقتادون تحت تهديد السلاح من قمراتهم ويجبرون على النزول إلى زورق سريع يحملهم إلى حيث جاءوا. وهناك، على اليابسة، تنتظرهم سيارة تنقلهم إلى الضيعة حيث يتم إخبارهم بمبرر تلك الخدعة وعملية الاختطاف تلك وكذلك نوع المهمة الموكلة إليهم والطبيعة العارضة لذلك الوضع الشاذ والمكافآت السخية التى سيكافأون بها لقاء مشاركتهم والمضايقات التى تعرضوا لها. وإزاء هذه النهاية السعيدة لمغامرتهم يعرب الجميع عن سعادتهم. مع ذلك، كان المنهج بطيئاً ومعقداً ومكلفاً. ولكن لإنجاز ذلك المشروع لم يلق أحد بالاً إلى النفقات. الخيمة وحدها، والتى كانت أبعادها أكثر من مناسبة، تم شراؤها بسعر جيد من سيرك قضى وباء الكوليرا على أعضائه فى جنوب إيطاليا. تلك المجزرة أرغمت الناجين القلائل، امرأة بلحية وفارسة و"شمشون"، على حل الفرقة وبيع المعدات بثمن بخس. الآن، هذه الشخصيات الثلاث الفانتازية، التى كان من المحتم التعاقد معها وإحضارها لتعلم الجميع إقامة وتأمين الخيمة، كانت هى أيضاً تهيم على وجهها بالضيعة، ترتدى الشبك والمآزر والترتر وتمارس على قدر استطاعتها مهاراتها وتبث فى الجميع الحيرة إن لم يكن الرعب.

الآن راح يتذكر هذه الطرائف الغريبة حين رآها تخرج من خيمة السيرك، ترتدى تنورة وردية اللون ومن القصر بحيث تكشف ركبتيها

وتتم ثنايا القماش، إلى أعلى قليلاً، عن تكوين فخذيها فيجذب ذلك نظرات عمال الميكانيكا ويثير حفيظة أونوفرى بوفيلا. وأما بقية ملابسها فبسيطة ومحتشمة. فكر فيما تتسارع دقات قلبه وهو يختلس النظرة تارة إليها وأخرى إلى الميكانيكيين: ينبغى أن ألفت نظرها إلى هذا الشأن. توقفت وهلة أمام فوهة الخيمة وعيناها شبه مغمضتين بعد أن بهرها ضوء الشمس؛ ساوت شعرها بأصابعها ثم ارتدت قبعة عريضة الحافة، ثم اتجهت إلى الغابة حيث كان هو دونما مبرر لحضوره. قال لنفسه وهو يختفى تماماً خلف جذع شجرة: يا إلهى، أرجو ألا ترانى. خلال الشهور التى أقامت فيها ماريا بلتال ووالدها فى الضيعة وحتى الآن لم يتبادل معها إلا العبارات الرسمية فى مناسبتين أو ثلاث؛ بذلك أراد أن يعزز الظن بأن جل اهتمامه يدور حول مشروع المخترع الذى بناء على تعليماته جعل ينمو ذلك التجمع الصناعى الخاص جداً والذى كان يتبادل معه، مع ذلك، أحاديث لا تنتهى. منذ البداية، شغل سانتياجو بلتال وابنته واحداً من أجنحة الصيد المقامة من قديم فى الحديقة، منفصلين تماماً عن المنزل. هناك تم إعداد مسكن مستقل لهما، مزود بوسائل الراحة وليس بالكماليات المفرطة، وإلا لانكشفت دوافع أونوفرى بوفيلا الخفية والمبرر الحقيقى لقراره بالإقدام فى هذه السن على مشروع مجنون كهذا. فى ذلك المسكن، الذى اختار هو أثاثه وديكوره بنفسه بكل دقة، لم يضع قدمه منذ أن شغله سانتياجو وماريا بلتال فحين ينبغى لهما أن يجتمعا يدعو ساع المخترع إلى المكتبة. اضطرت طبيعة المشروع السرية العاملين فيه إلى عدم مغادرة الضيعة، لذا كان يعلم أنها دائماً هناك وبأنها مهما تكن علاقتهما وهمية لا تنتمى إلى شخص آخر. كلاهما كان يشاطر الآخر أرضاً مشتركة، يعيشان على أرض يملكها هو. وكان ذلك كافياً ليشعر بأنها هى أيضاً ملكه، وكان هو سعيداً بذلك مؤقتاً. فى الخفاء، كما يفعل الآن، كان يتجسس على تحركاتها كلها. فكر وهو يكمن خلف السنديانة، ويتابع بإعجاب طريقتها

المليحة فى السير ورشاقتها وملاحتها: غريب! عندما كنت شاباً يافعاً كانت الحياة مازالت أمامى، حينئذ بدا لى كل شىء عاجلاً؛ أما الآن، فى المقابل، والزمن ينصرم بسرعة لست متعجلاً. فكر: تعلمت الانتظار والآن لا أجد معنى إلا للانتظار. ومع ذلك لا تتلاحق الأشياء إلا الآن. نظر إلى السماء وعلى غير المتوقع رآها زرقاء، بلا سحب. تذكر أنه زار قبل يوم المعرض العالمى وهناك تصادف وجود ماركيز أوت الذى لم يكن رآه منذ زمن. كان الماركيز المتحدث باسم مجلس إدارة المعرض ورجل ثقة بريمو دى ريبيرا فى برشلونة، وهو الذى يتلقى التعليمات من مدريد وينفذها دون علم عمدة المدينة. فى مقابل ذلك الولاء كان يعقد صفقات مريبة بمنأى تماماً عن أية مساءلة.

تجهم الماركيز حين رأى أونوفرى بوفيلا فى أرض المعرض فلقد تحولت صداقتهما القديمة إلى حقد من جانب الأول وحذر متبادل، لكنهما حافظا على المظاهر.

صاح الماركيز وهو يعانق القادم لتوه:

- يا ولد، ما أطيب مظهرك! علمت أنك مررت بأزمة ويسعدنى أنك تجاوزتها تماماً، وأنك مازلت شاباً كالمعتاد.

- أنت أيضاً مظهرك على ما يرام.

- كلا، كلا...

سارا معاً يأخذ كل بذراع الآخر، يتجنبان الحفر وأكوام الأنقاض ويعبران المنخفضات من فوق ألواح خشبية تتقوس تحت أقدامهما. أثناء النزهة جعل الماركيز يوضح لمرافقه أبرز سمات المكان: القصور، الأجنحة، المطاعم، المرافق، إلخ. ودون أن يخفى فخره أراه كذلك أعمال البناء بالستاد. قال الماركيز: هذا البناء الذى أضيف لاحقاً إلى خطة المعرض العامة. تبلغ مساحته ٤٦٢٢٥ متراً مربعاً ومخصص للمسابقات الرياضية. منذ انتشار الأيديولوجية الفاشية فى أوربا والحكومات جميعها تدعم الرياضة والحضور الجماهيرى لأية مسابقة رياضية. بهذه

الموضة حاولت الأمم تقليد الإمبراطورية الرومانية وأن تقتدى بخطاها رغم الفارق الزمنى. وأصبحت الانتصارات الرياضية رمزاً لعظمة الشعوب. فلم تعد الرياضة نشاطاً مقصوراً على الطبقات التى لا تعمل أو امتيازاً للأثرياء دون غيرهم بل الطريقة الطبيعية لتسلية المجتمع الحضرى: ويرى السياسيون والمفكرون أن الأعراق سوف تتحسن بالرياضة. قال الماركيز: البطل الرياضى هو معبود زماننا والمرآة التى ينظر فيها الشباب. أعرب أونوفرى بوفيلا عن اتفاقه وهذه النظرية. قال بعذوبة: أنا على اقتناع بذلك. ثم زارا المسرح الرومانى والقرية الإسبانية والشبكة الشديدة التعقيد من الأنابيب والأسلاك والمحركات والمواسير التى سوف تغذى وتحرك النافورة المضيئة. يجب أن تكون هذه الفسقية عامل الجذب الأول، أكثر ما يشد الانتباه ويثير الأحاديث فى المعرض، مثلما كانت النافورة المسحورة فى المعرض السابق. قامت فوق مرتفع فى الجبل، أى تمكن رؤيتها من أى مكان فى أرض المعارض، وقوامها بركة قطرها خمسون متراً وسعتها ٣٢٠٠ متر مكعب ومزودة بعدد من النافورات التى هى فى الواقع ثلاثة آلاف لتر من الماء تضخها خمس مضخات سعة ١١٧٥ حصاناً ويضيؤها حوالى ١٣٠٠ كيلووات من الطاقة الكهربية، مع إمكان أن يتغير شكل ولون مجموع النوافير على نحو متصل. قال الماركيز: تستهلك الفسقية والنوافير المصطفة على جانبى الطريق المركزى للمعرض كل ساعتين مجموع ما تستهلكه مدينة برشلونة من ماء فى يوم بأكمله. ثم تساءل: أين ومتى رأينا شيئاً فى مثل هذه العظمة؟ وهنا أيضاً اتفق أونوفرى بوفيلا وما يقوله الماركيز بلا أدنى تحفظ. أثارت هذه الموافقة غير المشروطة وذلك الاهتمام الفائق ريب الأخير. قال لنفسه: ما المبرر الحقيقى لمجئ هذا الثعلب إلى هنا؟ وما المبرر الحقيقى لهذا الحماس كله؟ بيد أنه مهما يقدح زناد فكره لا يجد تفسيراً لذلك اللغز. فلا يمكنه أن يعلم أن وفداً غريباً زار قبل أسبوعين مكاتب منظمى المعرض. كان الوفد مؤلفاً من سيد وسيدة

يرتديان ثياباً أنيقة بلا تكلف ويومئان فى اقتضاب ويتحدثان بلكنة أجنبية. قالا للموظف الذى استقبلهما إنها يمثلان شركة نسيج كبرى، مجموعة شركات دولية لم يسمع الموظف اسمها من قبل ولكن المستندات التى قدماها إليه دون أن يطلبها لا تدع مجالاً للشك فى شرعيتها. لكن ذلك لم يمنعه من أن يفطن فى غرابة إلى أن تحت الخمار الذى أخفت به السيدة وجهها طوال زمن المقابلة تطل لحية كثيفة. وبالطبع، امتنع عن الإشارة إلى ذلك. أما السيد الذى لم يكد ينبس ببنت شفة فلم يتوقف بدوره عن مراقبة حركات الموظف وردود أفعاله وعلى وجهه تعبير شرس. سيتذكر هذا الموظف فيما بعد أن ذلك السيد كان متين البنيان ويكشف عن قوة خارقة. لم يثر هذا المجمل من التفاصيل أية ريبة فى نفس الموظف، فمنذ أن تولى تلك الوظيفة تعامل مع أجانب كثيرين واعتاد ملامح لم يرها من قبل وسلوكيات غريبة. سألهما فيم يمكنه أن يساعدهما فأجاباه بأنهما جاءا لطلب تصاريح لإقامة جناح داخل المعرض العالمى. قالت السيدة: تزمع شركتنا أن تعرض فى هذا الجناح ماكيناتها ومنتجاتها. وأضافت: سيكون ثمة كذلك لوحات خشبية أو أبواب متحركة تعرض فيها للجمهور تنظيمها الداخلى. قال لهما الموظف إن الشركات الأجنبية لا تستطيع الاشتراك فى المعرض إلا فى الأجنحة المخصصة لدولها، وقال مختتماً حديثه: إذا أعطينا تصريحاً لشركة واحدة علينا أن نعطيه لكافة الشركات التى تطلبه كذلك، فتنظيم معرض دولى معقد للغاية ولا يسمح باستثناءات أو بامتيازات. ولكى يريا أنه لا يتحدث من أجل الحديث وحده أشار إلى كتاب فوق المنضدة، إلى كتالوج المعرض وقوامه ٩٨٤ صفحة. أمسك السيد بالدليل بين يديه وشقه نصفين بلا أدنى مجهود. وقالت السيدة فى الوقت نفسه: أنا متأكدة من أننا سنتمكن من تذليل كافة الصعوبات. بإحدى يديها مسدت لحيتها وبالأخرى فتحت وأغلقت الحقيبة السوداء التى تحملها. رأى الموظف الحقيبة مكتظة بالعملات الورقية وفهم أن من الافضل له أن يصمت.

والآن، على أحد جوانب أرض المعارض، يرتفع هيكل هذه الشركة المجهولة. فى مبتدأ الأمر خصص المكان لجناح البعثات قبل أن تحتله هذه الشركة. وهذا الجناح الجديد الذى جعل يأخذ شكل خيمة السيرك كلما تقدمت أعمال البناء كان مقره بميدان "الكون"، إلى جانب طريق ريوس إى تاوليت تحديداً. كان الموقع رائعاً لأنه يسمح بالدخول والخروج من الخلف، من أرض ممهدة (هى اليوم شارع لاردة) فى سرية تامة. وبالقرب من هذا الجناح يحوم ليل نهار رجال ذوو هيئة مخيفة تتلخص وظيفتهم فى منع أى شخص من الاقتراب من الجناح. بمظهرهم المخيف ذاك كانوا سيبعدون الفضوليين وحتى مفتشو المعرض أنفسهم كانوا يتراجعون عن أداء مهامهم. مع ذلك، لم تكن هذه المعلومات تصل ماركيز أوت الذى كان يجهلها أو كان على علم بها لكنه لم يربطها بأونوفرى بوفيلا أو بزيارته للمعرض. الآن يفكر فى هذه الأشياء مختبئاً خلف سنديانة ويقول لنفسه: أجل، كل شىء سيتم كما أردت له أن يتم، فلا يحتمل أن يؤدى خلل إلى فشل كل هذه الخطط الرائعة: هى رائعة الجمال وأنا فى غاية الذكاء والقوة وكل شىء سيتم على ما يرام بالقوة، آه، آه، بأية ملاحة تتحرك وبأية أنفة عفوية! واضح جداً أنها ولدت كى تكون ملكة. أجل، أجل، كل شىء سيتم على خير ما يرام ولا يمكن أن يتم بصورة أخرى. فيما يقول ذلك راح ينظر إلى السماء متضرعاً، فعلى الرغم من تفاؤله اعتقد أنه رأى فى تلك القبة الزرقاء التى لا تشوبها سحابة واحدة تعليقاً ساخراً على رعونة آماله.

بالفعل. كل شىء بدا أن مآله الخسران. فى يناير ١٩٢٩ بلغت قيمة العجز فى الميزانية الناجم عن إقامة معرض برشلونة الدولى مائة وأربعين مليون بزينة، ورأى بارون بيبر أن هوة سحيقة انشقت تحت قدميه. صاح: هذا الوضع فى حاجة إلى حل يائس. سكب بنزيناً على مكتبه واستعد لكى يشعل عود ثقاب حين انفتحت الأبواب على مصاريعها واقتحمت المكان القديسات إِوْلاليا وإينس ومرجريتا وكاترين.

كن هذه هذه المرة قد تركن لوحة أيقونات رومانية تمكن رؤيتها إلى الآن فى متحف سولسونا الكنسى؛ والأربع كن لقين ميتة عنيفة ولديهن معرفة بذلك. فسلبن العمدة المكروب أعواد الثقاب وأجبرنه على التعقل. أحضرت القديسة إينس معها خروفاً، والقديسة مرجريتا تنيناً نقالاً. أبعدن عن ذهنه الأفكار السخيفة التى جعل يغذيها فى رأسه، إذ إنه فضلاً عن الانتحار كان فكر فى إمكان التحريض على تمرد شعبى دون أن يلتفت إلى تعارض الأمرين. قلن له: أيام بريمو دى ريبيرا معدودة، وتلك الأبهة ليست سوى النفس الأخير للوحش. ذكرنه بحكاية الضفدع الذى انتفخ حتى انفجر. قالت القديسة مرجريتا التى يحتفل بعيدها فى العشرين من يولية: فضلاً عن أن من مساوئ أى تمرد شعبى أنك تعلم متى يبدأ لا متى ينتهى. قالت القديسة إينس، ويوم عيدها الحادى والعشرون من يناير: اجلس أما باب بيتك وسترى جثة عدوك تمر. وعدهن العمدة بأن ينتظر وبأن يكف عن ارتكاب حماقات أخرى. كان ذلك أفضل ما يمكن فعله فى تلك اللحظة، فلا أحد اقتنع بالنظام الإدارى الذى أراد الديكتاتور أن يقيمه، ولا أحد كان يريد النظام الديكتاتورى، الذى يهدد ببث الفوضى وباندلاع الثورة. انتهى الأمر بالأشغال العامة إلى ارتفاع معدل التضخم على نحو لا يحتمل إلى الانخفاض المستمر فى سعر البزيتة. ومما حال دون القيام بانقلاب عسكرى غياب جنرال طموح. فضلاً عن أنه، فى السادس من فبراير، قبل ثلاثة أشهر على افتتاح المعرض، انتقلت الملكة ماريا كريستينا إلى جوار ربها متأثرة بذبحة صدرية. كانت هى، بصفتها وصية على العرش، التى افتتحت معرض ١٨٨٨ الذى يتذكره الجميع الآن بحنين، وعدت وفاتها نذير شؤم. ويقال أيضاً إن الملكة نصحت ابنها وهى على فراش الموت بالتخلص من بريمو دى ريبيرا فى أقرب وقت، فتأثر الملك بذلك. وسط هذا المناخ المشحون بالتوتر حل موعد الافتتاح.

(٢)

قالت ماريال بلتال:

– يجب أن تخلد للنوم يا أبى، غداً ينتظرنا يوم عصيب وستحتاج إلى كل قواك.

نهض المخترع من مقعده. كان جالساً يدخن غليونه بعد العشاء. بدل أن يتجه إلى مخدعه كما اقترحت عليه ابنته أن يفعل، اتجه صوب الباب. سألته: أبى، إلى أين؟ لم يرد وخرج من جناح الصيد. مع أن من المنطقى أن يبدو شارداً تلك الليلة تحديداً قررت أن تخرج معه، فعلى مدار أعوام طوال اكتسبت عادة ألا يغيب عن بصرها. قبل أن تخرج ذهبت تبحث عن شال تحتمى به من الطل. فى الحديقة أتت الريح المتقطعة بنذر مطر. فكرت: هذا لا، أى شىء إلا المطر. رأته يسير آلياً نحو الخيمة: ففى كافة الليالى قطع هذه المسافة نفسها، ولم يخلد قط للنوم دون أن يزور الخيمة، ثم بعد ذلك لابد من الإصرار على أن يرجع إلى جناح القنص وتعنيفه كى لا يقضى الليل مستيقظاً. فى هذه الحالة كانت الزيارة رمزية تماماً لأن الآلات والوقود نقلا بالفعل إلى جناح المعرض فى مونجوى وتم تركيب الآلة هناك بأكملها. حيَّاه الرجل الذى لم يزل يقوم بحراسة مدخل الخيمة بمحض القصور الذاتى أو مبالغة فى الحذر: طابت ليلتك، بروفيسور سانتياجو. رد المخترع تحيته. أضاف الحارس: غداً اليوم الكبير، أليس كذلك يا بروفيسور؟ هز المخترع رأسه حين سمع ذلك، سأل: ماذا قلت؟ استند الحارس بمؤخرة بندقيته على العشب وابتسم وردد بحماس: اليوم الكبير! ثم أردف بصوت خفيض: نرجو الله أن يسير كل شىء على مايرام. أومأ المخترع برأسه موافقاً. فكر فيما يلج الخيمة: طريف! جميعهم مهتاج عشية الحدث، جميعهم يشعر بأنه شريك فيه حتى هذا الفتوة الذى لا يمكن لمشاركته أن تكون

أقل من الناحية العلمية ولا أنأى عن مغزى شركتنا نفسه؛ مع ذلك، يبدو أن سعادته متوقفة على نجاح مهمتنا. والحارس فكر بدوره: شخصيته صعبة، ولكن لا شك فى أنه عالم أصيل، وطبيعى أن يرزح الليلة تحت وطأة الهموم، وابنته، كم هى مثيرة! داخل الخيمة لا يوجد الآن إلا المخلفات والعدد متناثرة هنا وهناك، بقايا خشب التغليف، صناديق فارغة، وما تبقى من الاثنين والتسعين طناً من نشارة الخشب اللازمة لحماية القطع البالغة الدقة من الخبطات. المظهر الموحش الذى تنم عنه هذه الفوضى وهذا الحيز الرحيب الخاوى عززا انطباعاً شديد الكآبة. فكر سانتياجو بلتال: أما أنا الذى انتهيت من توى من تحقيق حلم حياتى فلا أشعر سوى بالحزن والكرب. والخواء الذى يحوطه داخل خيمة السيرك عن له انعكاساً دقيقاً لحالته النفسية. فى المقابل، تراءت له سنون الكفاح الآن أعواماً سعيدة. فكر: حينئذ كنت أعيش على الأحلام. ثم أدرك أن ما فكر فيه فى التو لم يكن سوى زيف. قال: ضحيت بحياتى من أجل هذه الأحلام. وشرع يسأل نفسه هل هذه التضحية استحقت العناء حقاً؟ قطع صوت الحارس هذا التساؤل، إذ سمعه يقول: طابت ليلتك يا آنستى! فكر: إنها ماريا جاءت تبحث عنى. هى كانت أكبر ضحايا جنونى، لقد قدمت دائماً ما بى من جنون العظمة على الاهتمام بها، وبدل أن أعطيها ما كانت هى تنتظره منى عن وجه حق، كانت هى التى لم تدخر وسعاً فى رعايتى؛ وبسببى راحت حياتها فى تنازلات متصلة، وفى مهانة لا تنتهى. اختلس النظر إلى ظل ابنته فى الضوء الشاحب للمبات البترول التى تضئ الخيمة من الداخل. فكر: حتى هذه اللحظة نفسها جاءت إلى هنا من أجلى، جاءت تبحث عنى لأنها ترى أن على أن أرتاح: ربما كانت هذه أنسب فرصة لأقول لها هذه الأشياء، بهذا لن نصلح شيئاً ولن أزيل الضرر الذى سببته لها ولن نسترجع الزمن الضائع لكن قد يعزيها أن تعلم أننى لم أكن غافلاً عن شقائها.

قالت ماريا بلتال:

- أبى، ينبغى أن تنام. الوقت تأخر ولم نعد نستطيع أن نفعل شيئاً هنا. انظر، كل شىء فى مونجوى. حتى المهندسون ذهبوا. عاد الجميع إلى ديارهم.

ما قالته كان صحيحاً: فيما كان العمل يقارب على الانتهاء بدأ الاستغناء عن العمال والفنيين، وأعاد أونوفرى بوفيلا خبراء الأيروديناميكا إلى الأماكن التى جاءوا منها على وعد بأن يجزل لهم العطاء إذا حافظوا على سر ما أنجزوه هناك وما رأوا غيرهم ينجزه. والآن مازال يعمل فى المشروع سانتياجو بلتال ومهندس عسكرى بروسى، خبير فى المقذوفات تعامل معه أونوفرى بوفيلا بكثرة أثناء الحرب العظمى ولا غنى عنه لإنجاز المشروع. قال سانتياجو بلتال:

- هنالك ما أود أن أقوله لك يا ابنتى!

-الوقت متأخر الآن يا أبى، قله لى غداً!

-كلا، غداً سيكون الأوان قد فات.

قطع هذا الحوار دخول رجل الخيمة. كان رئيس الخدم بالقصر. فبأمر من أونوفرى بوفيلا ذهب إلى جناح القنص ولما ألفاه خاوياً فكر أن يطل على الخيمة لعلهما هناك. قال:

- سيدى ينتظر فى المكتبة.

تنهد سانتياجو بلتال وقال لابنته: لا ينبغى أن أتأخر على ولى نعمتنا. وقال لكبير الخدم: سأكون معك فى الحال.

هز كبير الخدم رأسه وقال فى جفاف: أستميحك العذر، فسيدى لا ينتظرك أنت بل ينتظر الآنسة. نظر المخترع وابنته كل منهما إلى الآخر فى دهشة. قال سانتياجو بلتال فى النهاية: اذهبى يا ابنتى، وأنا سأذهب فى الحال إلى مخدعى، لا تبالى. فكرت ماريا بلتال: ربما ينبغى أن أمر للحظة بجناح الصيد لأغير ملابسى.

لم يقل شيئاً ولم يرفع عينيه عن المنضدة حين أبلغه كبير الخدم

بحضور ماريا بلتال. قال بصوت خفيض: دعها تدخل ثم أغلق الباب واذهب إلى غرفتك فلن أحتاج إليك من الآن. وحدها معه ودون أن تدرى ماذا ينتظر منها اقتربت من المنضدة. وحين أمست على مقربة منه ابتدرها قائلاً: انظرى، أتعلمين ما هذا؟ هكذا تحدث إليها بصيغة حميمية فلم يغب ذلك عن إدراكها. كانت الريح تخبط الزجاج. فكرت: هل سيسقط المطر غداً؟ قال هو: إنها "ريجنت"، أروع ماسة فى الوجود، إنها لى، وبها يمكننى شراء دول بأكملها، ومع ذلك ليست أكبر حجماً من راحة يدى، يا للعجب. وضع الماسة فى يد ماريا بلتال وجعلها تقبض عليها بأصابعها. للحظة شاهدت البريق الذى ترسله أوجه الماسة، كأنما تحمل بداخلها سلكاً حرارياً مشتعلاً. قال هو: كل شىء له ثمن. وهى فتحت يدها فأخذ الماسة ولفها فى منديل أبيض وحفظها فى جيب الروب الذى كان يرتديه. وتوقفت فجأة الرعدة الخفيفة الظاهرة على شفتيه وقال بلا تمهيد: أود أن أقف على حقيقة مشاعرك. ثم أضاف: إن كنت لا أحرك فيك إلا شعوراً بالعرفان أو بالخوف فلا تقولى شيئاً. أغمضت ماريا بلتال عينيها وقالت بصوت هامس: منذ عشرين عاماً وأنا لا أعيش إلا من أجل هذه اللحظة. نهض هو بغتة وقال: لا تخشى شيئاً، سيسير كل شىء على ما يرام.

استيقظ سانتياجو بلتال غارقاً فى عرقه. رأى فى المنام أنه يفقد ابنته وأنه لن يعاود رؤيتها إلى الأبد. فكر وهو يشعل ضوء مصباح الكومودينو: هذا سخيف، لابد أن هنالك مبرراً آخر لقلقى. نظر إلى الساعة فوجد أنها الرابعة صباحاً. كانت الريح توقفت والسماء صحواً. كان الظلام مازال دامساً لكن خيطاً رمادياً جعل يرتسم فى الأفق فتشحب النجوم تدريجياً. فكر: سيكون الطقس طيباً، الحمد لله. لكن ذلك لم يكفِ كى يتلاشى قلقه تماماً. ردد فى قرارة نفسه: هنالك شىء على غير مايرام. نهض وخرج بالبيجاما وحافياً من غرفته. خيم السكون

على جناح القنص. رأى باب غرفة ابنته موارياً. فأطل خلسة. حين اعتادت عيناه الظلام وجد فراشها مرتباً وماريا غائبة. تساءل: كيف هذا؟ لم تعد من لقائها مع بوفيلا؟ فيم يتحدثان؟ دنا من النافذة ونظر فى اتجاه القصر فلم ير هناك أى ضوء. فكر: ماذا يحدث فى هذه اللحظة؟ دون أن يضيع ثانية واحدة فى ارتداء الحذاء أو الاحتماء من البرد خرج من جناح القنص. فى الحديقة اعترض طريقه ثلاثة رجال كان أحدهم الحارس الذى حياه قبل ساعات عند مدخل خيمة السيرك والثانى لاعب السيرك القوى الذى جاء مع السيرك نفسه؛ أما الثالث، الذى لا يتذكر أنه رآه من قبل، فكان عجوزاً لون بشرته ضارب إلى الحمرة وعيناه زرقاوان ولا ينفصل عنه كلب صغير وأخرق. ويبدو أن ذلك العجوز هو المتحدث باسمهم. قال له:

- اتبعنا من فضلك يا سيد بلتال ومن فضلك لا ترفع صوتك، فلابد من أن نتصرف بحكمة وبسرعة.

- إيه؟ من أنت، بحق الشيطان؟ وكيف تجرؤ على توجيه الأوامر إلى؟ وهذا السطو، ماذا يعنى؟

- لا تغضب يا سيد بلتال، فنحن لا ننفذ سوى ما أمرنا به السيد بوفيلا. لم تصب ابنتك بأى مكروه.

عمغم المخترع وهو يعض نواجذه ويهدد بقبضتيه العجوز صاحب الكلب.

- ابـنـتـى! ماذا تقول؟ لماذا ستصاب ابنتى بمكروه، أيها العجوز الملعون؟

فيما يقول ذلك حاول الاعتداء على العجوز لكن "هرقل" احتاط للأمر ووقف خلف المخترع وشل حركته بحزم من ذراعيه. وراح هذا يصرخ بملء رئتيه: يا بوليس، النجدة، سيخطفوننى!

قال العجوز صاحب الكلب:

- لا أحد سيسمعك هنا ولكنك ينبغى أن تلزم الصمت فى القصر

إذا أردت ألا توقظ أحداً. لا تضطرنا إلى استخدام الكلوروفورم.

أعاده هذا التحذير إلى صوابه، فضل التزام الصمت، راح يسأل نفسه: هل من المعقول أن يكون كل شيء وهماً؟ وأننى وابنتى كنا مجرد قطعتين فى لعبة نجهل قواعدها تماماً؟ تزاحمت على ذهنه أسوأ الإجابات لكن نفسه استبعدتها بيأس من يستبعد الواقع الفظيع بعد أن يستيقظ من حلم رائع. جعل يقول لنفسه: كلا، كلا، أى مبرر هنالك ليكون كل شيء كذبة قاسية؟ فيما هو فى ذلك تلونت السماء بألوان قوس قزح وظهرت فوق المدينة مساحات قرمزية اللون، بومض حريق. تساءل: ما هذا؟ أتشتعل برشلونة من كل ناحية؟ فى نفس الوقت كانت ماريا بلتال تشاهد ذلك الفجر الجذاب والمترع بالعظمة. همست: كأن الأفق يحترق، وجاءت الجحيم لزيارتنا. كانت واقفة بجانب النافذة الكبيرة لغرفة المكتبة ملتفة فى قماش الستارة المخملى القرمزى. حين التفتت إلى الداخل رأت من جديد ملابسها مبعثرة على البساط: ارتعدت وهى تحدج ببصرها مرة أخرى السماء المشؤومة. فكرت: ماذا سيكون من أمرى الآن؟ فجأة أخرجتها صرخة من ذلك التأمل: ما كان هذا؟ أونوفرى بوفيلا كان انتهى من ارتداء ملابسه وأشعل سيجاراً فى هدوء مقصود وقبل أن يرد نفخ فى عود الثقاب ووضعه من جديد فى منفضة السجائر وسحب عدة أنفاس من السيجار. قال: لا علم لى، خادم، بفّال يحث بغاله، فيم يهم؟ سمعت الصرخة مرة أخرى فعاودت الرعدة ماريا بلتال. قالت دون أن ترفع صوتها:

- إنه أبى!

- كلا، ماذا تقولين؟إنها خيالاتك: فأنت الآن متوترة.

لكنها لم تلتفت إلى كلماته. توسلت إليه:

- من فضلك، جئنى بملابسى، علىّ أن أذهب لأرى ماذا حدث.

لم يتحرك من مكانه. ومن خلال دخان سيجاره نظر إليها وهو يقلب عينيه، داخله حنان وهو يرى كتفيها ورقبتها التى تكشف عنها الستارة،

وهو يرى هشاشتها البادية وشعرها المشعث ولهاثها الذى يهز مخمل الستارة. قال فى النهاية:

- لن أتركك أبداً!

وفكر فى قرارة نفسه: لن أسمح لك مطلقاً بأن تهجرينى. أحبك يا ماريا، أحبك بجنون. منذ عشرين سنة وأنا أتعذب لحبك دون أن أدرى. سمعها تسأل:

- وأبى؟ ماذا ستفعل به؟

- لن أصيبه بمكروه.

- أين هو الآن؟ وماذا يفعل به رجالك؟

- ينقلونه إلى مكان آمن، فلا تهتمى. هل تظنيننى قادراً على فعل شىء لا يعجبك؟. - قال بوجه مسترخ عليه ابتسامة هادئة. ثم سمع طرق بالباب فقال لها: استرى جسمك، فلا أريد أن يروك. ثم رفع صوته آمراً: ادخل. فتح الباب قليلاً وأطل رأس العجوز صاحب الكلب. سأله: كل شىء على مايرام؟ أومأ العجوز برأسه موافقاً ودون أن يصدر أى صوت فقال أونوفرى بوفيلا: حسن، هيا فى التو.

بعد أن اختفى العجوز وأغلق الباب اتجه إلى المنضدة بخطوات واسعة. قال: هيا، بوسعك الخروج، هيا، ارتدى ثيابك، ليس أمامنا وقت نضيعه. ثم بعد أن لاحظ ترددها أضاف متحفظاً: حسن، حسن، لن أنظر، فيم الآن هذه المخاوف؟ وفيما تلتقط هى ملابسها من الأرض أدار لها ظهره ومع ذلك لم يتخل عن اختلاس النظر إلى حركاتها: كان يخشى أن تغافله وتفر أو تعتدى عليه بأى شىء لكنها لم تقدم على أى شىء من ذلك. فى هذه الأثناء، أخرج من درج خطاباً بخط اليد فوقعه وطواه ووضعه فى مظروف. وكتب شيئاً على ظهره وأغلقه بطرف لسانه وتركه على المنضدة بحيث يكون ظاهراً للعيان ثم عاد إليها وهى تنتهى من عقد مشبك الجورب عند فخذيها. متأهبة؟ - سألها فأومأت بالإيجاب. فصاح أونوفرى بوفيلا: هيا بنا إذن!

خرجا إلى الممر متشابكى اليدين. حين شرعا فى هبوط الدرج المؤدى إلى الطابقين السفليين رفع إصبعه إلى شفتيه وقال فى دعة: صـــه! لا يجب أن تستيقظ زوجتي. بلغا الباب الرئيسى على أطراف أصابعهما. هناك كان كبير الخدم ينتظرهما حاملاً سترة تتدلى من ذراعه. تخلص أونوفرى بوفيلا من الروب وارتدى السترة التى مد يده بها كبير الخدم. ثم وضع يده فى جيب الروب وأخرج المنديل الذى يلف الماسة ووضعه فى جيب السترة وربت على كتف كبير الخدم وقال له: هأنت تعلم ما عليك أن تفعله. أجابه كبير الخدم بكلمة "أجل" ثم أضاف بعد ذلك بنبرة محايدة لا تظهر أى تأثر: خذ حذرك يا سيدى! دون أن يرد أمسك أونوفرى بيد ماريا بلتال مرة أخرى. خرجا إلى الحديقة. كان العشب مندى. على الطرف الآخر من الجسر، أمام ستارة الفجر الحمراء كانت السيارة تنتظر. صعدها أونوفرى بوفيلا وماريا بلتال. قال للسائق: أنت تعرف وجهتك. تحركت السيارة تشق الضباب بكشافيها.

مهما أسرفت السلطات المحلية فى الإطراء، مهما بالغ رجالات المدينة فى نكاتهم البذيئة، وعلى الرغم من إعلان أنها مناسبة احتفالية، رفض صاحب الجلالة دون ألفونسو الثالث عشر التخلى عن عبوسه. وهو ينزل فى قصر بدرالبس تمثلت أمام ناظريه الذكرى الحية لذلك الحادث الرهيب الذى وقع قبل ثلاثة وعشرين عاماً. حينئذ كان صغير السن وحديث الزواج من الأميرة فيكتوريا أوجينى دى باتنبرج. رغم رذاذ المطر، تزاحم الناس فى الشوارع ليشاهدوا مرور الموكب. كان العروسان الملكيان قد خرجا من كنيسة سان خيرونيمو التى جرت فيها مراسم الزواج، وكانا فى طريقهما إلى قصر الشرق، فى العربة الملكية. وعند مرورهما بشارع مايور ألقيت قنبلة من إحدى البنايات وسقطت أمام العربة وانفجرت فى ذلك المكان نفسه. على الرغم من الذعر الشديد الذى أثارته لم يصابا بجروح. بعد أن تأكد من أنه سليم التفت إلى زوجه

وسألها: أنت بخير؟ اصطبغ فستان العروس باللون الأحمر إذ لطخه دم العامة وجنود الحرس الخاص. أومأت الأميرة فيكتوريا أوجينى برأسها فى هدوء ولم تزد عن قول: نعم. أسفر ذلك الحادث الإرهابى عن مقتل ما بين عشرين وثلاثين شخصاً. عندما وصلا القصر هرع الملكان ليبدلا ملابسهما. بين ثنايا عباءته وجد ألفونسو الثالث عشر إصبعاً فوضعها فى جيبه بحركة سريعة حتى لا تراها هى. فيما بعد، أثناء حفل الاستقبال، أعطاها خفية للكونت رومانونس قائلاً: خذ، ارم هذه فى المرحاض. صاح الكونت: جلالة الملك، إنها رفات مسيحى. فرد الملك: ادفنوها إذن فى كنيسة عذراء المودنيا، على ألا أعاود رؤيتها. فيما يرقص النبلاء وأعضاء السلك الدبلوماسى كان عدة ألوف من رجال البوليس يقلبون أرجاء مدريد بحثاً عن مرتكب المحاولة. وبعد عدة أيام عثروا على جثته فى ضاحية تورّيخون دى أردوث. كان استوقفه حارس ضيعة، وحين رأى أنه مقضى عليه قتل الهارب الحارس أولاً ثم انتحر. شاب هذا التفسير بعض النقاط غير المنطقية لكن ود الجميع لو نسى الواقعة فقبل هذا التفسير بلا نقاش. تم التعرف على مرتكب الحادث فى الحال: اسمه ماتيو مورّال، نجل صاحب مصنع فى سابادل، وعمل مدرساً أو مشرفاً فى "مدرسة فيرّير جوارديا الحديثة". منذ ذلك الحين وألفونسو الثالث عشر يعتبر أهل قطلونيا عدائيين وذوى سلوك طائش ولا يمكن التكهن به. والآن، فى القصر الملكى بدرالبس، وضع على رأس فراشه بنادق الصيد الخاصة به. "تحسباً لأى طارئ" قال لزوجه. فى استخدام هذه البنادق لم يكن له نظير، فحين كان يخرج للقنص كالمعتاد فى أحايين كثيرة، يحمل ثلاث بنادق مشحونة بوسعه أن يصيب فى الهواء حجلين أمامه وآخرين فوق رأسه وآخرين وراء ظهره. جورج الخامس وحده كان بوسعه منافسته فى هذا المجال. ومع ذلك لم ينم جيداً تلك الليلة. قبل أن يأتوا لإيقاظه كان نهض ويتأمل الفجر من النافذة. بدت السماء جمرةً. فكر الملك: مشهد رائع، ولكن هل هو بشرى طيبة؟ الله أعلم!

في مكان آخر من المدينة نفسها كان الجنرال بريمو دى ريبيرا يستطلع السماء هو كذلك بحثاً عن علامات ويقول لنفسه: هذا بلا ريب فجر كاذب، نذير كوارث، وأنا هنا كالأبله - فكر. هو بدوره لم ينم جيداً وذهنه لم يكن صافياً. استدعى خادمه وأمره أن يأتيه بالقهوة وحين عاد هذا ومعه القهوة ألفى الديكتاتور يصارع حذاءه ذا الرقبة العالية. جثا على ركبتيه وقال: اسمح لى يا سيدى الجنرال. صب بريمو دى ريبيرا لنفسه قدحاً من القهوة وقرب القدح إلى شفتيه. قال: فى مساء أحد الأيام، منذ زمن طويل، فى طنجة، دخلت حانة... ليس لغرض معين، كما تعلم، بل لأحتسى جرعة، وحين دخلت، أتدرى من وجدت؟ لنرَ، من تتخيل؟ هز الخادم منكبيه، قال: ليس لدى أدنى فكرة يا سيدى الجنرال. قال الديكتاتور: قل أى اسم يا رجل! قال الخادم بعد أن هرش فى رأسه: مهما أحاول لا يحضرنى أى اسم يا سيدى الجنرال. فأصر هذا: أنت قل أى اسم، أول اسم يطرأ على بالك. ثم أردف مبتسماً: مهما يكن الاسم لن تتصور من. احتسى حسوة من القهوة وتنفس بصوت مسموع، صاح: ليس هنالك خير من فنجان قهوة ثقيلة لبدء اليوم! عن بعد سمع نشاز نفير ثم دوى طبول ثم فرقة موسيقا عسكرية تتدرب على مارش. غمغم الديكتاتور: آى، يعزفون نفس اللحن دائماً ويسيؤون دائماً العزف، أين ميدالياتى؟ قدم له مساعده علبة من الخشب الداكن، هذه العلبة، التى تحمل شعار التاج منقوشاً على غطائها، كانت تنتمى إلى عمه، أول من حاز لقب ماركيز إسيتيا. فتح بريمو دى ريبيرا العلبة وتفحص الميداليات فى مزيج من التباهى والحنين. سأل مساعده: حسن، ألا تقول لى من وجدت فى حانة طنجة؟ أعطاه مساعده التمام قبل أن يتكلم: قابلت بافلو بيل يا سيدى الجنرال. جعل بريمو دى ريبيرا ينظر إليه وهلة: اللعنة، كيف عرفت؟ احمر وجه مساعده وهو يعتذر إليه بقوله: أستميحك العذر يا سيدى الجنرال، محض مصادفة، أقسم لك بأمى. هدأه الديكتاتور قائلاً: لا تعتذر يا بنى فأنت لم تأتِ أى فعل سئ.

فى هذه الساعة أيضاً كان بارون بيير على أهبة لأداء التزاماته، على الرغم من أنه يغلى من الداخل، ففى اليوم السابق استقبل فى مكتبه بالبلدية رئيس بروتوكول القصر الملكى الذى أراه عدداً من الخرائط غير المفهومة ثم أعطاه تعليمات قاطعة بكل صلف. والآن، فى منزله، وحده، يصرخ العمدة: ياللوقاحة، يقول لى أنا ما على أن أفعله وأين ومتى وكيف، هل يصدق أحد؟ أين يظنون أنفسهم إذن؟ هذه مدينتى أيها السادة! فيما يقول ذلك جعل يصيح وينهض وهو يومئ ويشيح بيديه وقد علا بهما فوق قبعته ويذرع غرفة الملابس فى دوائر. راح يسأل الهواء: وهذا التنظيم، من الذى فكر فيه؟ أولاً: الملك، ثم العائلة الملكية ثم بريمو دى ريبيرا ووزراؤه وخلفهم المفوض الملكى للمعرض ونيافة الأسقف وأصحاب السعادة السفراء ثم الملحقين... وأنا؟ أين موقعى أنا بحق الشيطان؟ فى العربة الأخيرة؟ تقدم نحو الباب ووضع يده على مقبضه، كأنه سيخرج من هناك، ثم وقف ساكناً فى هذا الوضع وترك مقبض الباب وعاد يذرع الحجرة فى الاتجاه المعاكس. ثم قال لنفسه بعد أن هدأ بغتة: كلا، أمر بهذا الوضوح لا يمكن أن يكون مصادفة أو أن يعزى إلى الجهل أو عدم الكفاءة، إن هذه بالفعل سبة مقصودة لشخصى ولمنصبى وعليه لبرشلونة قاطبة. هذه الفكرة أثارت هياجه ثانيةً وجعلت مناجاته الفردية تكتسى نحواً من الهذيان. قال بصوت خفيض وهو يعض نواجذه: سأنتقم، بحق الإله القادر على كل شىء، سأنتقم، وسط حفل الافتتاح سأخفض سراويلى وأبول على حذائه وليرمنى بالرصاص فى نفس المكان لو واتته الشجاعة! هذه النوبات كانت تمر سريعةً فسرعان ما تنتابه حالة من الخور فيرى كل شىء مظلماً ومريكاً ويفكر: هل أرى الأشياء كما هى عليه بالفعل أم أن كل شىء ثمرة جنون العظمة؟ بأى وجه حق أزعم أن المدينة ممثلة فى شخصى؟ ألست آخر خدامها وأشد موظفيها تواضعاً؟ أنا حتى لم أكن فى المعارضة، بل إن بريمو دى ريبيرا نفسه هو الذى قام بتعيينى. والآن، بهذا التصرف، ألا أعتدى على

الصالح العام؟ آى، لا أدرى فيم أفكر، كل شىء يسبب لى دواراً. فى النهاية شقت الشمس طريقها بين السحب وانقضى الفجر العظيم؛ الآن يتحلل اللون الوردى فى الجو ليحل محله الضوء الأزرق الشفيف والوادع فى صباح يوم من أيام الربيع؛ تساءل بزفرة مؤلمة: وما الحياة...؟

صاحب الجلالة ألفونسو الثالث عشر كان يلبس قفازيه فيما يجتاز قاعات وممرات قصر بدرالبس الذى يقوده إلى خارجه تشريفاتى. كان يفكر: يا للفظاعة، هذا القصر الكبير لكى نقضى فيه ليلة أو ليلتين فحسب! أجبرت خطواته الواسعة الموكب المرافق له على الركض تقريباً؛ الملكة وحدها، الإنجليزية، يمكنها أن تسايره بلا مجهود ظاهر بل وفى وسعها أن تتحدث معه أثناء السير. قال لها دون أن يخفض سرعته: أتعلمين؟ هذا هو المعرض العالمى الثانى الذى أفتتحه فى برشلونة؛ فى المرة السابقة، كنت طفلاً ذا عامين، وبالطبع لا أتذكر أى شىء، غير أن والدتى اعتادت أن تحكى لى أشياء. كانت ذكريات طفولته ذكريات رسمية دائماً: والده، دون ألفونسو الثانى عشر، توفى قبل مولده. لذا اعتاد أن يقول: ولدت ملكاً لإسبانيا. وأدت القابلات والممرضات اللائى يولدن والدته تحية التبجيل قبل أن يخبطنه على مؤخرته فيبكى لأول مرة. لهذا كان جد قريب من والدته منذ البداية. والآن هى ماتت منذ وقت قصير. قال وهو يصعد السيارة المصفحة التى ستقله إلى مونجوى: فى الرابعة والأربعين من العمر تحدث الأشياء للمرة الثانية على الأقل.

قال بريمو دى ريبيرا: يمكنك أن تقول ما يحلو لك لكن من رأيته ليس سوى مهرج وليس عرضه سوى خداع للحمقى. قال مساعده: إذا قلت ذلك فأنت أعلم يا سيدى الجنرال لكن الإعلان كان واضحاً، وكأننى أراه الآن: بافلو بيل، الأوحد والحقيقى. رد الديكتاتور: كذب، بافلو بيل مات فى عام ١٩١٧، أؤكد لك – ثم أضاف ساخراً –: لنرَ، فى ذلك العرض الذى رأيته، أكان هنالك هنود؟ كانت السيارة التى تقلهما تجتاز برشلونة بأقصى سرعة. كان الوقت تأخر وعليهما أن يسرعا ليصلا إلى

أرض المعارض قبل وصول الملكين، لأنهما لو اضطرا إلى انتظار الديكتاتور فقد يختل التوازن البالغ الدقة بين أجزاء هذا اللغز السياسى للأمة، وتكون لهذه الواقعة غير ذات الأهمية عواقب وخيمة. أشرق وجه المساعد، قال:

- هنود؟ بالطبع يا سيدى الجنرال! وكم كانوا يصرخون، أبناء القحبة!

- عجباً، و"كاوبويز"؟

- أجل يا سيدى الجنرال.

- أنت متأكد؟ "كاوبويز" ممن يلقون بالحبل؟

- تماماً يا سيدى الجنرال!

طوال الطريق هنالك صف ممتد ولكنه غير كثيف من الفضوليين. وانضم بعض المارة إلى الصف فى اللحظة الأخيرة وقد شده صوت أبواق الدراجات النارية التى تفسح الطريق لموكب الديكتاتور. مع ذلك لم يكن أحد يصفق أو يهز منديله، وكثير منهم من الذين ظنوا أن ذلك موكب الملك امتنعوا فقط عن إظهار إحباطهم بسبب الحضور الضعيف للشرطة.

- هل كانت هنالك عربة تجرها الخيول؟

ارتسم الرعب على وجه المساعد:

- عربة؟ أى عربة يا سيدى الجنرال؟

- آها، قلت لك ذلك... - صاح الديكتاتور. أوشك توقف السيارة المباغت على أن يرسله إلى دواسة السيارة -. حسن، ها قد وصلنا، نحمد الله، مازال صاحب الجلالة فى الطريق. هيا، انزل، ماذا تنتظر؟

حين هبط من السيارة استقبل بالاحترام والتصفيق. ودوت أنفار وطبول. تائهاً وسط جمهرة الأعلام المتدافعة من حوله، على أطراف أصابعه ومشرئباً، نشب بارون بيبر عينيه المحتقنتين بفعل السهر والغضب فى عدوه اللدود. لاحظ: مظهره سئ، أقسم أنه مريض. هذه

الفكرة أذابت فى الحال كل حقده على الديكتاتور . فى تلك اللحظة نفسها دوت طلقة مدفع، تبعتها طلقات أخرى اكتمل عددها الرسمى. بهذه الطريقة راحت بطاريات القلعة تحى وصول الملك مونجوى. جرّت الجماهير بارون بيبر نحو القصر الوطنى الذى ستجرى فى قاعة احتفالاته مراسم الافتتاح. اجتمع فى أرض المعارض جمهور غفير. ومن القصر تمكن رؤية هذا الخضم من الرؤوس يغطى كل شىء. بعد انتهاء حفل الافتتاح أطل الملكان من الشرفة وهتفت الجماهير تحييهما فترة طويلة. البعض، ظناً منه أنه يحتمى بذلك العدد الكبير ولن يتعرفه أحد، وجه عبارات استهجان لبريمو دى ريبيرا . بناء على تلك الأعراض توقع ماركيز أوت السقوط القريب للديكتاتور وحاميه فتمكن من الوقوف إلى جانب الملك ليكسب حظوته من جديد . بحركة مسرحية مسح المشهد العظيم المرتسم أمام أعين من يقف فى الشرفة، قال بصوت مفخم:

– انظر يا مولاى ما فى وسع قطلونيا أن تقدمه برجالها وذكائها وعملها .

– وبقنابلها – أجابه الملك وقد تذكر فى التو ماتيو مورال.

ود الماركيز أن يجيبه لكنه لم يجد لذلك كلمات. فيما عدا ذلك، شدت ظاهرة انتباه العاهل والحضور جميعاً . على يمين الشرفة، أقصى ميدان الكون، إلى جانب طريق ريوس إى تاوليت، كان هنالك جناح دائرى يذكر على نحو غريب بخيمة سيرك. وخلافاً لبقية الأجنحة لم تخفق فوق ذلك الجناح أية راية أو علم. وحتى تلك اللحظة غاب الأمر والظروف الخاصة التى أحاطت بإقامته عن انتباه الناس. الآن، صدر من هناك هدير متواصل، صوت كصوت محرك طائرة متنام. فجأة صار هذا الصوت صخباً أسكت الهمهمات بين الجمهور. وأسقط فى يد المسؤولين عن المعرض، فمن كثرتهم لم يكن أحد منهم يعرف ما اختصاصاته أو حتى حدود مسؤوليته ولو من بعيد . وفيما بينهم راح بعضهم يسأل بعضاً بالنظر فى عصبية وحاول أغلبهم أن يتجنب

المسؤولية. فى نهاية الأمر، نظراً إلى أن الصخب لا يتوقف وأن أحداً لم يتحرك فى هذا الشأن، شرع بريمو دى ريبيرا نفسه فى إصدار أوامر حازمة إلى العسكريين القريبين منه ونقل هؤلاء بدورهم الأوامر إلى ضباط وحداتهم. وبعد وهلة تحركت صوب الجناح القوات التالية: فرقة حرس المدينة بقيادة الملازم ألبارو بلاناس غاسويا، وفصيلة من فرقة مشاة بطليوس بقيادة النقيب دون أغوستين ميرينو دى كوردرنيثيو، وسرية من الحرس المدنى بقيادة النقيب دون أنخل دل أولمو مندث، وفصيلة خيالة من قوات الأمن بقيادة النقيب أنطونيو جولياه كوبلز، وسرية خدمات أمن محلية بقيادة الملازم دون خوسيه ماريا بيرالس فاورا، وفصيلة من سلاح الفرسان "مونتيسا" بقيادة الرائد دون مانويل خيمنث سانتاماريا، وجماعة من أفراد الأمن القطلونى بقيادة الرقيب دون توماس بينيول إى مالوفريه وعدد من رجال الشرطة فى ملابس مدنية. أكثر من ألفى رجل راحوا يشقون طريقهم وسط الزحام الذى بدأ الذعر يسرى فيه، فكثير منهم راح يتذكر الأحداث الدامية فى الأعوام السابقة، قنابل عيد الفطاس، وظناً منهم أنهم يتعرضون لنفس الظروف راحوا يبحثون عن مكان آمن لهم بكل ما لديهم من وسائل. فى بعض النقاط حدث تدافع أشد خطورة من القنابل نفسها. وبلا مبرر سمع صوت طلق نارى أعقبه صراخ شيطانى اعتاد أن يسبق ما اشتهر من خطوب جسام. فى شرفات القصر الوطنى، حيث الحضور الكثيف للسلطات، تعلقت كل الأعين بذلك الجناح الذى بدأت جدرانه تهتز كأن المبنى بأكمله فى حقيقة الأمر أحد المفرقعات العظيمة الحجم. كانت القوات التى تتقدم إلى هناك تجد صعوبة بالغة بسبب الجماهير التى تتحرك فى عكس الاتجاه فى محاولة عصابية للابتعاد قدر الإمكان عن ذلك الجناح. صاح المسؤولون عن المعرض فى صوت واحد: يا للفضيحة! ضاعت سمعة المدينة! وفى داخلهم راحوا يتخيلون ما ستقوله صحف العالم أجمع فى اليوم التالى أو ربما فى ذات اليوم، فى إصدار غير

عادى: "ارتدت برشلونة ثوب الحداد"، هذا ما جعلوا يقرؤنه بعين الخيال. ثم تحت العنوان: "وقعت المأساة لخلل فى إجراءات الأمن يسأل عنه السيد..."، كل منهم قرأ اسمه بحروف الطباعة. لكن الأحداث تلاحقت ولم تتح لهم فرصة التوقف عند هذه التأملات، فالآن فتح سقف الجناح عن طريق آلية هيدرومائية كأنه مكون من بابين متحركين يستقران داخل فراغ فى الحائطين الجانبيتين للجناح. من تلك الفتحة فى السقف خرج إعصار ساخن يؤلف عموداً مرئياً فى الهواء بسبب انعكاسات الضوء. ذلك العمود كان يصعد إلى أقصى ما يدركه النظر. فى النهاية استقر جزءا السقف المتحركين تماماً داخل الحائطين الجانبيتين وصار جناح العرض أسطوانة مفتوحة من إحدى طرفيها على شكل ماسورة مدفع. فى تلك اللحظة لم يكن أحد يرتاب فى ظهور ماكينة جديدة لم يرها أحد من قبل، فى أية لحظة. وبالفعل، بدأت هذه الماكينة تخرج من هناك بعد مرور ثوان. وسرعان ما خرجت تماماً من جناح العرض، ترتفع وحدها فى الفضاء كأنها كوكب. والآن أصبحت ترى من كل مكان فى أرض المعارض وحتى من خارجها. والجماهير التى لزمت الصمت بعد الرعب انفجرت فيما بعد فى صيحات دهشة وإعجاب. لم يكن الأمر يستحق أقل من ذلك: كان شكل الماكينة بيضاوياً وطولها حوالى عشرة أمتار وعرضها أربعة على أقصى تقدير. تم حساب هذه الأبعاد فى نفس المكان، بالعين المجردة وهى حتى الآن لم تزل مثاراً للجدل، ففى واقع الأمر لم يتحقق أحد قط هذه الأبعاد، فلا الماكينة ولا التصميمات التى بنيت على أساسها تم العثور على أى منها فيما بعد. صنع النصف الخلفى من معدن أملس براق والجزء الأمامى من الزجاج المحمى بشبكة من الفولاذ أو الخشب المرن. وكلا الجزئين يربطهما ما يشبه الطوق عرضه حوالى نصف المتر، وهو أشبه بالحلقات المعدنية المستخدمة فى صنع البراميل. فى ذلك الطوق عدة مئات من اللمبات المضيئة تلف الماكينة فى هالة من الضوء. كان واضحاً أن النصف الخلفى من الماكينة

يحتوى على الموتور الذى يدفعها إلى الأمام أو يمكنها من الوقوف فى الهواء وأن الجزء الآخر مخصص للركاب الذين ترى ظلالهم غير واضحة وسط سحابة الغبار المصاحبة لصعود الماكينة. كانت الجماهير منتشية برؤية ذلك الاختراع العظيم، وحتى الملك نفسه، متخلياً عن سمته المزدرى وشبه النائم الذى اتخذه ذلك اليوم، أصدر صفير إعجاب وهمس: يا إلهى! تساءل الجميع ما هذا. ولم يفلح كبح جماح خيالهم بحثاً عن إجابة فقالوا: لا شك هناك، إنهم أهل المريخ اختاروا برشلونة تحديداً ليقدموا للعالم تقنياتهم الفريدة. ثم جعلوا يفكرون وهم فى غاية ابتهاجهم: هذا الاختيار سيجعل مدناً أخرى متعجرفة مثل باريس وبرلين ونيويورك تعض نواجزها من الغيرة. ففى تلك السنين لم يكن أحد يرتاب فى وجود كائنات من كواكب أخرى. وسرت بين الناس حكايات فى غاية الغرابة لم يبدُ أن العلماء اهتموا بدحضها. تلك الكائنات، أو الكائنات من خارج الأرض كما سميت فيما بعد وعهد برسم شكلها إلى رسامى مجلات الأطفال وحدهم، كانت تظهر دائماً بجسم آدمى ورأس سمكة. كانوا فى أغلب الأحوال يصورون عرايا، ولم يكن ذلك يخدش الحياء، إذ لا تظهر أعضاؤهم التناسلية، وبشرتهم كقشر السمك، وإذا ارتدوا شيئاً فصداراً وسراويل. أما تفصيلة الأنف على شكل سماعة فلم تضف إلى النماذج المستخدمة إلا فى الأربعينيات عندما أتاحت السينما بالتحالف مع الميكروسكوب تكبير صور البعوض وحشرات أخرى. فيما يتعلق بالزوار من كواكب أخرى والذين أطلق عليهم العامة حينئذ اسم "أهل المريخ"، من الثابت أن ذكاءهم أشد بكثير من ذكاء الأرضيين ومن المفترض أن نواياهم سلمية وأنهم بطيئو الحركة. ومع ذلك لم تدم هذه التخمينات دقيقة لأن الماكينة بعد أن ارتفعت فوق قباب القصر الوطنى رسمت نصف دائرة ثم أخذت تهبط ببطء فوق بركة مياه النافورة المسحورة. حينئذ اتضح أن من يقود الماكينة أشخاص من لحم ودم وأن الماكينة ليست إلا مغايراً لما سيطلق عليه فيما بعد أسماء شتى آخرها

الطائرة الهليكوبتر أو المروحية، أى طائرات تحلق وتهبط رأسياً. كانت هذه الطائرات تحت التجريب فى السنين الأخيرة بلا نتائج مبشرة إلى تلك اللحظة. ففى ١٨ أبريل ١٩٢٤ تمكن ماركيز بيسكارا من الارتفاع والهبوط رأسياً فى إيسى - ليه - مولينو لكن المسافة كانت قصيرة ولا تعدو ١٣٦ متراً. أما المهندس الإسبانى خوان دى لا ثييريا فقد اخترع قبل ذلك بعام، أى فى ١٩٢٣، طائرة أقل طموحاً ولكنها أكثر فعالية، كانت طائرة تقليدية فى كل شىء (بجناحين وذيل وجنيحين موازيين والهيكل العام) أضيف إليها مروحة حرة لها عدة ريشات تدور حول محور مثبت بالجزء الأعلى من الطائرة وتتحرك بقوة الهواء الذى تزيحه الطائرة عند الطيران، ثم حين يتوقف محرك الطائرة وتسقط هذه إلى أسفل فإن الهواء الناشئ عن السقوط يسبب كذلك ما يطلق عليه فى الطيران مصطلح الدفق الدوامى يجعل ريشات المروحة الحرة تعمل بقوة أشد، وبهذا تتخفض سرعة هبوط الطائرة. بعد حل بعض المشاكل الإضافية، من مثل الاحتكاك واتزان الطائرة، أصبحت اختراعاً آمناً وذا جدوى. فى عقد الثلاثينيات: قامت برحلات دورية مدريد - لشبونة بلا توقف. لكن بين ذلك وبين مسألة الإقلاع رأسياً وإمكان التوقف فى الهواء كانت هنالك هوة سحيقة لم يتجاوزها بلا صعوبات سوى هذه الماكينة التى تحلق الآن فوق أرض المعرض العالمى، والتى تعلو وتهبط حسب إرادة قائدها أو تظل معلقة فى الهواء على أى ارتفاع كأنها لمبة سقف كما أنها تتحرك أفقياً دونما اهتزاز أو انحراف. كان ذلك معجزة، لكن الأعجب أن تقوم بذلك وبمناورات أخرى دون مروحة تدفعها.

(٤)

فى الأراضى البور المجاورة لأرض المعارض نمت قرية بأكملها من الخصاص يعيش فيها ألوف المهاجرين. لم يكن أحد يعلم من رتب الخصاص بحيث تؤلف شوارع ولا من خطط هذه الشوارع بحيث يتعامد بعضها مع بعض. أمام بعض الخصاص كانت تربى أرانب ودجاج داخل صناديق خشبية واستبدل غطاء هذه الصناديق بقطعة من النسيج المعدنى لتكشف عن تكدس هذه الحيوانات. أمام منازل أخرى رقدت كلاب ضامرة ذات نظرة مخيفة. أمام واحد من هذه الأبواب توقفت السيارة وهبط منها أونوفرى بوفيلا وماريا بلتال. أصدر الكلب همهمة عندما مرا من جانبه ثم واصل رقاده. من داخل الخص، بعد أن انتبهت إلى وجودهما من صوت السيارة، أزاحت امرأة مشعثة الشعر وترتدى أسمالاً أزاحت ستارة الخيش المتدلية من ساكف باب الخص، المؤلف من أربعة ألواح خشبية مزينة بمسامير ومغروسة فى الأرض، وكان السقف المكون من البوص وسعف النخيل يسمح بنفاذ ضوء الفجر من بين منفرجاته. أسدلت المرأة الستارة بعد دخولهما ثم لبثت تنظر إلى أونوفرى بوفيلا فى بلاهة. من الملاحظ أنها استيقظت فى الحال من نوم هادئ سألها: وزوجك؟ أين هو؟ وضعت المرأة يديها فى خاصرتها وعادت برأسها إلى الوراء، لكن لم يكن هنالك عدائية أو تحد فى وقفتها. أجابته: ذهب أمس ولم يعد بعد - بدا أنها على وشك إطلاق قهقهة ازدراء -، والمال الذى تعطيه إياه ينفقه على الشراب وبنات الهوى - أضافت ذلك وهى تحدج ماريا بلتال بنظرها. قال أونوفرى بوفيلا دون أن يلتفت إلى تلك النظرة: هذا أمر يخصه، ولا مبرر لدى كى أسلمك راتبه. اهتزت ستارة الخيش حين دلف الكلب إلى الخص. تشمم بخطمه الرطب ربلة ساق ماريا بلتال ومن حين لآخر عطس فى صخب. توجه بلا

سبب إلى ماريا بلتال التى لم تزل يدها بين يديه قائلاً: حسن، ما الذى ننتظره هنا؟ جثت المرأة على ركبتيها وبحد يديها أزاحت التراب عن فتحة فى الأرض. زجرت الكلب الذى يتشمم الفتحة ورفعتها من حلقة معدنية بها. من الثقب الذى كشفت عنه هبطت عدة درجات سلم منحوتة فى الأرض نفسها. أخرج أونوفرى بوفيلا من جيبه عدة عملات ومد يده بها إلى المرأة ونصحها: خبئيها فى مكان لا تصل إليه يد زوجك. ابتسمت المرأة نصف ابتسامة وسألت وهى تحيط ببصرها الحجرة التى وقفوا فيها: وأين هذا المكان؟ وهو لم يعد ينصت إلى ما تقوله فقد شرع يهبط درجات السلم ويجذب وراءه ماريا بلتال. بكشاف صغير أضاء السرداب الذى سار فيه عدة مئات من الأمتار حتى عثرا على سلم مشابه للسابق. فى نهاية هذا السلم كان هنالك أيضاً باب سحرى انفتح عندما طرقه ثلاث مرات بمقبض الكشاف الكهربى. والآن أصبحا داخل الجناح وكان بناء من الخرسانة المسلحة مناظر فى كل شىء للخيمة التى لبثوا يعملون بها حتى قبل ذلك بأيام، الخيمة التى مازالت قائمة لكنها خاوية فى حديقة الضيعة، على أن الجناح، على عكس خيمة السيرك، لم تكن به أبواب أو نوافذ ولا يمكن دخوله إلا عن طريق السرداب وهذه الفتحة السحرية. الرجل الذى فتح لهما كان متقدماً فى العمر وذا بشرة متوردة وفوق ملابسه كان يرتدى معطف طبيب أبيض. حين رأى أونوفرى بوفيلا قطب جبينه وأشار بسبابته ساعة يده كأنما يقول: أهذه ساعة مناسبة؟ كان أونوفرى بوفيلا عرفه إبان الحرب العظمى، حينئذ كان مهندساً عسكرياً شهيراً، خبيراً فى المقذوفات، وأدى انهيار إمبراطوريات وسط أوربا إلى فقده لعمله وخلال عشرة أعوام واصل الحياة يعطى دروساً فى الفيزياء والهندسة فى توبينجا فى مدرسة رهبان مريم العذراء. هناك، فى أوائل ١٩٢٨، تلقى رسالة من أونوفرى بوفيلا يدعوه فيها إلى الانتقال إلى برشلونة "للمشاركة فى مشروع يتصل بتخصصك". فى مركب من توبينجا سلموه الأموال اللازمة نفقات السفر. اختتمت

الرسالة المذكورة بالعبارة التالية: "آسف لعدم إمكانى الإفصاح عن أكثر من ذلك نظراً إلى طبيعة المشروع نفسها ومبررات أخرى مهمة". ذكرت هذه اللغة المهندس البروسى بالأوقات السعيدة. استقل القطار فى توبينجا ووصل إلى برشلونة بعد أربعة أيام وخمس ليال من السفر المتواصل. طوال الطريق ازداد هياج مزاجه الحاد المعتاد. وحين عرض عليه أونوفرى بوفيلا فى النهاية المشروع وأراه التصميمات وأبلغه بما ينتظره منه ألقى بنظارته الطبية على أرض المكتبة حيث مكان اللقاء وداسها بقدمه. قال: المشروع أحمق ومن أعده أحمق وأنت أكثر حمقاً إن جاز ذلك، أنت حقاً أكثر من عرفتهم من الرجال حمقاً. ابتسم أونوفرى بوفيلا وتركه يفرغ شحنة غضبه، كان يعلم أن حياته فى مدرسة توبينجا عذاب متصل، فالطلبة يطلقون عليه لقب "الجنرال بوم بوم" ويجعلونه هدف أشد مزاحهم دموية. والآن بفضله هو تطورت أفكار سانتياجو بلتال المهلوسة إلى أن صارت شيئاً علمياً. فقد حول هو هراء عبقرياً إلى ماكينة تطير. واضطر أونوفرى بوفيلا بدوره إلى اللجوء إلى كل ما أوتى من صبر وسلطة كى يحل الخلافات الضارية التى تنشب فى كل ساعة بين المخترع القطلونى والمهندس البروسى: هو وحده تمكن من أن يكون التعاون بينهما مثمراً.

الآن، تحتل الطائرة قلب جناح العرض مستندة إلى شبكة معقدة من السقالات كأنها شال مطرز. صاح: قطعة فريدة، رائع! تنهد المهندس، كان يؤلمه تكريس كل تلك الموهبة وذلك الجهد والمال لآلة الهدف منها التسلية فقط. وأونوفرى بوفيلا الذى كان على علم كاف بمبرر حزنه لم يلتفت إليه، فلم تكن اللحظة مناسبة للدخول فى نقاش أكاديمى. فى الخارج دوت طلقات المدفع معلنة وصول ملكى إسبانيا إلى أرض المعرض. قال: هيا. فى الجناح يتحرك عدد من الرجال يرتدون زياً أزرق ولوثهم الشحم، يؤدى كل منهم مهمته دون أن يلتفت إلى الآخرين، لا أحد يتكلم أو يقطع أداء مهامه ليدخن سيجارة أو يحتسى جرعة فقد تمكن

المهندس البروسى من أن يعلم فريقه الانضباط، كان أعضاؤه هم نخبة الميكانيكيين، الذين لا يحولون بصرهم عن أدواتهم ولا حتى حين تمر ماريا بلتال بجانبهم. الآن، تفهم لم أتى بها إلى هنا وحاولت الفرار لكنه أمسك بها بقوة ولكن بلا عنف. قرأ الرعب فى عينيها. فكر: لا تثق باختراع والدها وأنا تعتبرنى مجنون، قد لا تكون مخطئة. الآن يرى تحت قدميه أرض المعرض الدولى كلها. راح يفكر: غريب، يبدو كل شىء من هنا لا واقعياً، ربما كانت ديلفينا العزيزة على حق: العالم فى الواقع مثله مثل السينما. فيما بعد فكر: آه، سأهبط قليلاً لأرى وجوه الناس. حرك أذرع لوحة التحكم فانخفضت الطائرة. كانت الجماهير عادت إلى هدوئها وتتابع هذه التطورات دون أن يفوتها أى شىء. وبمجرد أن تسمح المسافة بين الجماهير والطائرة برؤية طاقمها يقول الناس فيما بينهم: انظر، انظر، إنه أونوفرى بوفيلا! أجل، أجل، إنه هو، وهذه الفتاة التى ترافقه، من هى؟ تبدو شابة وجميلة؛ آى، تلبس تنورة شديدة القصر، يا لها من وقحة! هذه التعليقات وأخرى أشبه كانت تقال بحنان أقرب إلى العبادة. فالحكايات التى تحكى عن ثروته الطائلة وعن الوسائل التى توسلها لتحقيقها حولته إلى شخصية شعبية: حين يسير فى الشارع يتوقف الناس لمراقبته سراً ولكن على نحو شديد الإصرار والكثافة ويحاولون أن يقرأوا فى ملامحه ما يؤكد أو ينفى الشائعات التى سمعوها عنه. وكان جميعهم يتساءل حين يرى مظهره المحافظ والمبتذل قليلاً: هل من المعقول أنه كان فى شبابه فوضوياً ولصاً وقاتلاً أجيراً وأنه خلال الحرب العظمى كان تاجر سلاح؟ وأنه كان يرشو سياسيين مشاهير بل وحكومات بأكملها؟ وأنه فعل كل ذلك وحده وبلا معاونة ومبتدئاً من الصفر عماده الشجاعة والإرادة؟ فى الواقع كانوا جميعاً على استعداد لأن يصدقوا أن تلك هى الحقيقة، ففى شخصه تتحقق أحلام الجميع، ومن خلاله يتحقق انتقام جماعى. وحتى لو أنه كان شريراً بالفعل، يقولون: وماذا فى ذلك؟ وهل هناك أى مخرج آخر الآن

لأى رجل فى هذا البلد؟ لذا، حين أدركوا أنه هو هتفوا له، والتصفيق الذى حيوا به من قبل الملك تحول الآن إليه. قال لماريا بلتال التى لم تكد تجرؤ على فتح عينيها: انظرى، انظرى كيف يهتفون لى. ثم أردف رافعاً صوته عالياً ليتغلب على صوت المحرك: الناس طيبون للغاية، أتعلمين؟ طيبون للغاية، كم من الأشياء يسمحون بأن تحدث لهم دون أن يحتجوا! فيما يقول ذلك ضغط زراً فانفتح آلياً باب فى مؤخرة الماكينة خرج منه عشرات الحمام. حين رأى نفسه تحرر من محبسه ابتعد فى تشكيل متداخل مذعوراً لقربه من الطائرة. لدى رؤية هذا المشهد لم يستطع أحد أن يحبس صيحة بهجة ولا حتى الملك نفسه. راضياً عن الأثر الذى خلفه، تقدم أونوفرى بوفيلا بالماكينة فى بطء إلى أن توقف على مقربة أمتار من شرفات القصر الوطنى التى كانت تنذر بالسقوط بكل ما تحمله من شخصيات اجتمعت هناك. الآن بوسعه أن يرى وجوههم جميعاً بدقة والعكس. قال: انظرى، انظرى، إنه الملك، يحيا الملك! تحيا الملكة! يحيا دون ألفونسو الثالث عشر! - هكذا صاح وهو أعلم بأن أحداً لا يسمعه فيما عدا ماريا بلتال، ثم أضاف: أوه، هذا هو بريمو دى ريبيرا، آه، إلى الشيطان أيها السكير! هكذا راح يتعرف الوجوه المعروفة ويريها فى سعادة لمرافقته: أترين هذا الشخص البالغ الطول الذى يرتفع رأسه فوق رؤوس الجميع؟ إنه إفرين كاستلز، الصديق الصدوق الأوحد لى فى الحياة: ربما كان لى أكثر من واحد، لكن الآخرين اختفوا إلى الأبد. ثم أردف مبدلاً نبرة صوته: كلا، لندع الحزن الآن، هيا، لنرحل عن هنا، فقد رأينا ذلك جيداً. حرك ذراعاً حتى النهاية فانطلقت الماكينة إلى الخلف وإلى أعلى. الآن يريان تحت أقدامهما المدينة بأكملها، جبال كولسيرولا، نهر يوبرجات، نهر بيسوس، البحر الواسع والمضئ. قال بصوت مزقه التأثر: آى، برشلونة، ما أجملها، من يصدق أننى حين جئتها لأول مرة لم يكن هنالك أى شىء مما نراه الآن! واصل حديثه منتشياً: كان الريف جد قريب منها، والبيوت جد صغيرة وهذه الأحياء

المزدحمة كانت قرى، فى نطاق "التوسعة" كانت الأبقار لم تزل ترعى، لن تصدقى. وأنا كنت أعيش هناك، فى زقاق لم يزل على حاله، فى بنسيون أغلق أبوابه منذ قرون. هنالك أيضاً عاش أشخاص غريبو الأطوار أتذكر أن عرافة كانت تعيش هناك حينئذ وقرأت لى المستقبل فى إحدى الليالى. لم أعد أتذكر بالطبع أى شىء مما قالته لى. ثم طفق يفكر: وحتى وإن كنت أتذكره، ما أهمية ذلك؟ الآن ذلك المستقبل صار ماضياً.
من كانوا يتابعون تطورات الماكينة من مونجوى ومن أقلقهم صخب محركاتها فخرجوا إلى الشرفات أو صعدوا إلى أسطح المنازل رأوا كيف تغير الماكينة الطائرة اتجاهها صوب البحر، كأنما تدفعها ريح غريبة مباغتة. بعيداً عن الشاطئ فقدت ارتفاعها ثم استعادت توازنها للحظات وأخيراً سقطت فى البحر. حكى الصيادون الذين كانوا يمارسون مهنتهم فى تلك اللحظة قريباً من هناك أنهم ارتعبوا حين رأوا الطائرة قادمة فوقهم، فلم يعرفوا ما كان ذلك. ظن بعضهم أنه نيزك، كرة نار تسقط فوقهم. ومع ذلك لم يستطيعوا أن يؤكدوا هل اندلعت النيران فى الماكينة بالفعل أم أن ذلك الانطباع كان نتيجة لانعكاس الشمس على السطح المعدنى وعلى زجاج الطائرة. لكنهم جميعاً أجمعوا على أن المحركات توقفت بشكل مباغت لحظة سقوط الطائرة. وقالوا إن الصخب توقف وأعاد وجيب الأمواج إلى البحر الإحساس بالأزلية. كان كل شىء ساكناً، كأنما توقف الزمن – هذا ما صرحوا به للصحافة. ثم سقطت الماكينة فى الماء كطلقة مدفع ومن اقترب من المكان الذى من المرجح أن الطائرة سقطت فيه لم يجد أثراً لها ولا حتى بقعة زيت أو بترول. واختلفت أراؤهم حول تحديد نقطة اصطدام الماكينة بالماء فلا أحد فى زوارقهم البدائية كان لديه أجهزة قياس. وأرسلت قيادة البحرية فى الحال عدداً من القطع البحرية وأعلنت عدة دول عن استعدادها لتقديم المعاونة، إذ شاعت المشاركة فى عمليات الإنقاذ. فى واقع الأمر أراد جميعها أن يحصل على الماكينة الطائرة وعلى سر تشغيلها لكن تلك الجهود المشتركة

لم تسفر عن أية نتائج. كان الغواصون يغوصون ويطفون صفرى اليدين ولا تستخرج المجسات سوى رمل وأعشاب بحرية. فى نهاية الأمر حالت عاصفة بحرية دون مواصلة أعمال البحث التى لم تستأنف حين هدأت العاصفة. ولما لم يتم العثور على جثتى راكبى الطائرة أقيمت صلاة الجنازة على روحيهما فى الكاتدرائية ثم ألقيت أكاليل الزهور فى مياه الميناء الداكنة ليحملها تيار الماء إلى عرض البحر. ونشرت الصحف أنباء الوفاة على النحو المعتاد فى مثل هذه الحالات، ونصوصاً متخمة بالبلاغة. كما ظهرت لمحات من سيرة حياة أونوفرى بوفيلا طهرت بشكل مناسب وأعدت بحيث تكون قدوة للقراء. جميع الصحف اتفق على اختفاء رجل عظيم. فقد قالت صحيفة من تلك الأيام: "إن المدينة لتدين له بالعرفان الدائم". وقالت أخرى: "كان رمزاً أعلى لعصر مات قليلاً بوفاته". فيما لاحظت صحيفة ثالثة: "بدأت حياته العملية مع المعرض العالمى عام ١٨٨٨ وانتهت مع معرض ١٩٢٩"، ثم اختتمت تعليقها بخبث ظاهر فتساءلت: "كيف نفسر هذه المصادفة؟". بالفعل، فالمعرض الذى أحيا أونوفرى بوفيلا تدشينه بألعابه الطريفة لاح أن مآله الفشل الذريع. ففى شهر أكتوبر من العام نفسه، بعد أربعة أشهر من تاريخ الافتتاح، انهارت بورصة نيويورك. وبين عشية وضحاها، ودونما مقدمات انهارت دعائم النظام الرأسمالى، وتبع ذلك إفلاس ألوف الشركات، وتدافع ممثلوها بجنون على أجنحة وقصور المعرض لنقل المعروضات قبل أن تظهر الشرطة القضائية ومعها أوامر الحجز عليها. انتحر عدد كبير من العارضين، فلكى يتجنبوا العار وألم الخراب الاقتصادى كانوا يقفزون من نوافذ مكاتبهم الكائنة بأعلى ناطحات سحاب وول ستريت. وحتى لا تظل الأجنحة خاوية فجأة، مما كان سيخلف انطباعاً بالغ السوء فى الزوار، راحت الحكومة الإسبانية تسد أماكن ما تم سحبه من المعروضات بأى شىء فى متناول يدها. وسرعان ما صارت هناك أجنحة تعرض أشياء غاية فى السخف. غطت هذه الظروف على شائعات لا

أساس لها سرت فى ذلك الوقت فى برشلونة ومفادها أن أونوفرى بوفيلا لم يمت فى الواقع وأن حادث الوفاة كان خدعة وأنه الآن يحيا حياة منعمة فى مكان بعيد فى صحبة ماريا بلتال التى وجد إلى جانبها الحب الحقيقى والتى يكرس لحبها ساعات الليل والنهار جميعها. لتعزيز هذا الفرض الرومانسى قدمت عدة معلومات. فقبل الحادث كان أونوفرى بوفيلا قد رتب الأمور بالفعل بحيث لا يمكن العثور على الماكينة الطائرة فحسب، كما حدث فيما بعد، بل ولا على التصميمات أو الفنيين الذين شاركوا فى بنائها. وعندما تمكن جنود سلاح المهندسين فى النهاية من دخول الجناح فى المعرض بشق فتحة فى الجدار لم يجدوا هناك إلا ألواحاً خشبية كانت تؤلف السقالات التى تستند إليها الماكينة على الأرض. تم اكتشاف باب السرداب بمحض مصادفة، لكن السرداب كان يؤدى إلى خص مهجور. وليس أقل مما سبق إثارة للريب مسألة أن يحمل أونوفرى بوفيلا معه الريجينت، أروع وأكمل ماسة فى العالم، لدى وقوع الحادث. وإذا أضفنا إلى ذلك ما جرى ذلك العام من أحداث فإن ذلك جميعه جعل الناس يخمنون أن أونوفرى بوفيلا كان وراء انهيار الاقتصاد العالمى مع أن أحداً لم يتمكن من تحديد أسباب ما حدا به إلى التصرف على ذلك النحو. حينئذ تحولت كافة الأنظار إلى أرملته لكن أحداً لم يستطع أن ينتزع منها أى إيضاح. بيعت الضيعة لمجلس مقاطعة برشلونة الذى أهملها، وبسبب التهاون تركها ليلحق بها الضرر إلى أن تحولت مرة أخرى إلى ما كانت عليه من خراب، فيما انتقلت أرملته إلى شاليه فى يابانيراس كان من قبل ضمن ممتلكات حاكم لوثون السابق، الجنرال أوسوريو إى كليمنتى. وهناك لبثت فى أقصى عزلة إلى أن وافتها المنية، فى ٤ أغسطس ١٩٤٠. عند وفاتها تركت عدة أوراق ليس من بينها الرسالة التى تركها أونوفرى بوفيلا على مكتبه قبل أن يخرج إلى مونجوى قبل أحد عشر عاماً. هذه الشائعات وأخرى قريبة الشبه منها جعلت تخبو رويداً بمرور الوقت ودون أن يعززها وقائع أو حقائق

جديدة وطالما استحوذت على اهتمام أهل برشلونة مشاكل أخرى أكثر إلحاحاً؛ وفيما خفت بريق المعرض العالمى كان الرأى العام يسخر علانية من منظمى المعرض وبطريقة غير مباشرة من حكومة بريمو دى ريبيرا، وبهذه الذريعة بينوا رفضهم للديكتاتور. وعلى الرغم من وجود الرقابة لم يتورع أحد عن مقارنة معرض ١٩٢٩ بمعرض ١٨٨٨: تلقى الأول أقسى النقد فيما ذكر ثانيهما بأرق المديح؛ لم يرغب أحد فى تذكر المشاكل التى أثارها حينئذ، وخلافات وعداوات ذلك الوقت، العجز الذى فت فى عضد اقتصاد المدينة. والآن يشعر بارون بيبر بالندم لأنه لم يقف وقفة أكثر تشدداً. اعتاد القول فى نبرة نائحة: لكى ننتهى هذه النهاية المخزية، التى سوف يصمنا سخفها جميعاً، قمنا برهن المدينة. وسرعان ما أقصى عن منصبه. وبريمو دى ريبيرا كذلك، الذى كان المشجع الأول على إقامة المعرض والذى علق على نجاحه آمالاً عراضاً، اضطر إلى الإقرار بموقفه المتدهور وإلى الاعتراف بعدم شعبيته. فى يناير من عام ١٩٣٠ قدم استقالته للملك الذى قبلها دون أن يخفى شعوره بالرضا. اختار الديكتاتور المخلوع باريس منفى اختيارياً له وهناك لم يمهله الموت إلا أشهراً معدودات إذ توفى فى ١٦ مايو ١٩٣٠ قبل أيام من اكتمال علم على افتتاح معرض برشلونة العالمى. بعد ذلك بأربعة أعوام تنازل ألفونسو الثالث عشر عن عرش إسبانيا ورحل إلى المنفى. تبعت هذه الأحداث أحداث أخرى تساويها فى أهميتها، منها السعيد ومنها النحس؛ فيما بعد امتزج جميعها فى الذاكرة الجمعية وانتهى بها الأمر إلى أن صارت شيئاً واحداً، سلسلةً أو حافة هاوية أدت حتماً إلى الحرب وإلى الكارثة. فيما بعد، رأى الناس وهم يراجعون التاريخ أن برشلونة فى السنة التى اختفى فيها أونوفرى بوفيلا من المدينة كانت قد بدأت فترة انحطاط جلى.

المشروع القومى للترجمة

١- اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت أحمد درويش
٢- الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت أحمد فؤاد بلبع
٣- التراث المسروق	جورج جيمس	ت شوقى جلال
٤- كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت أحمد الحضرى
٥- ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت . محمد علاء الدين منصور
٦- اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧- العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت يوسف الأنطكى
٨- مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت . مصطفى ماهر
٩- التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت محمود محمد عاشور
١٠- خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١- مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت . هناء عبد الفتاح
١٢- طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت أحمد محمود
١٣- ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت . عبد الوهاب علوب
١٤- التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت . حسن المودن
١٥- الحركات الفنية	إدوارد لوسى سميث	ت أشرف رفيق عفيفى
١٦- أثينة السوداء	مارتن برنال	ت بإشراف أحمد عتمان
١٧- مختارات	فيليب لاركين	ت . محمد مصطفى بدوى
١٨- الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت طلعت شاهين
١٩- الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت . نعيم عطية
٢٠- قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت. يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١- خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت . ماجدة العنانى
٢٢- مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت سيد أحمد على الناصرى
٢٣- تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت . سعيد توفيق
٢٤- ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت . بكر عباس
٢٥- مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦- دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت . أحمد محمد حسين هيكل
٢٧- التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت . نخبة
٢٨- رسالة فى التسامح	جون لوك	ت . منى أبو سنه
٢٩- الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت بدر الديب
٣٠- الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت أحمد فؤاد بلبع
٣١- مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت . عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
٣٢- الانقراض	ديفيد روس	ت مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣- التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت أحمد فؤاد بلبع
٣٤- الرواية العربية	روجر آلن	ت . حصة إبراهيم المنيف
٣٥- الأسطورة والحداثة	بول . ب . ديكسون	ت . خليل كلفت

٣٦- نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت حياة جاسم محمد
٣٧- واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت جمال عبد الرحيم
٣٨- نقد الحداثة	آلن تورين	ت أنور مغيث
٣٩- الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت . منيرة كروان
٤٠- قصائد حب	آن سكستون	ت محمد عيد إبراهيم
٤١- ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ماجد
٤٢- عالم ماك	بنجامين باربر	ت . أحمد محمود
٤٣- اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	ت . المهدى أخريف
٤٤- بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلي	ت . مارلين تادرس
٤٥- التراث المغدور	روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين	ت أحمد محمود
٤٦- عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت . محمود السيد على
٤٧- تاريخ النقد الأدبى الحديث (١)	رينيه ويليك	ت مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨- حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت ماهر جويجاتى
٤٩- الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	ت عبد الوهاب علوب
٥٠- ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١- مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانوييا وخ. م بينياليستى	ت محمد أبو العطا
٥٢- العلاج النفسى التدعيمى	بيتر . ن نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيز وروجر بيل	ت لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣- الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت مرسى سعد الدين
٥٤- المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت . محسن مصيلحى
٥٥- ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	ت على يوسف على
٥٦- الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت محمود على مكى
٥٧- الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت . محمود السيد ، ماهر البطوطى
٥٨- مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت . محمد أبو العطا
٥٩- المحبرة	كارلوس مونييث	ت السيد السيد سهيم
٦٠- التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت صبرى محمد عبد الغنى
٦١- موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	مراجعة وإشراف محمد الجوهرى
٦٢- لذّة النّص	رولان بارت	ت محمد خير البقاعى .
٦٣- تاريخ النقد الأدبى الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤- برتراند راسل (سيرة حياة)	ألان وود	ت . رمسيس عوض .
٦٥- فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت رمسيس عوض .
٦٦- خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت . عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧- مختارات	فرناندو بيسوا	ت . المهدى أخريف
٦٨- ناتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت . أشرف الصباغ
٦٩- العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت . أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠- ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت . عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١- السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت . حسين محمود

٧٢- السياسى العجوز	ت . س . إليوت	ت فؤاد مجلى
٧٣- نقد استجابة القارئ	جين . ب . توميكنز	ت : حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤- صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيميونا	ت حسن بيومى
٧٥- فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت أحمد درويش
٧٦- جاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من الكتاب	ت . عبد المقصود عبد الكريم
٧٧- تاريخ النقد الأدبى الحديث ج ٣	رينيه ويليك	ت مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨- العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
٧٩- شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	ت سعيد الغانمى وناصر حلاوى
٨٠- بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت مكارم الغمرى
٨١- الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت . محمد طارق الشرقاوى
٨٢- مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	ت محمود السيد على
٨٣- مختارات	غوتفريد بن	ت . خالد المعالى
٨٤- موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت عبد الحميد شيحة
٨٥- منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	ت . عبد الرازق بركات
٨٦- طول الليل	جمال مير صادقى	ت : أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧- نون والقلم	جلال آل أحمد	ت ماجدة العنانى
٨٨- الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت إبراهيم الدسوقى شتا
٨٩- الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	ت . أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠- وسم السيف	ميجل دى ثربانتس	ت محمد إبراهيم مبروك
٩١- المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
٩٢- أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر	كارلوس ميجل	ت نادية جمال الدين
٩٣- محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	ت : عبد الوهاب علوب
٩٤- الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت فوزية العشماوى
٩٥- مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	ت سرى محمد محمد عبد اللطيف
٩٦- ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت : إدوار الخراط
٩٧- هوية فرنسا مج ١	فرنان برودل	ت بشير السباعى
٩٨- الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	نماذج ومقالات	ت : أشرف الصباغ
٩٩- تاريخ السينما العالمية	ديفيد روبنسون	ت : إبراهيم قنديل
١٠٠- مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت : إبراهيم فتحى
١٠١- النص الروائى (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت . رشيد بنحدو
١٠٢- السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبى	ت : عز الدين الكتانى الإدريسى
١٠٣- قبر ابن عربى يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت . محمد بنيس
١٠٤- أوبرا ماهوجنى	برتولت بريشت	ت عبد الغفار مكاوى
١٠٥- مدخل إلى النص الجامع	جيرار جينيت	ت : عبد العزيز شبيل
١٠٦- الأدب الأندلسى	د. ماريا خيسوس روبييرا متى	ت : د. أشرف على دعدور
١٠٧- صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة	ت : محمد عبد الله الجعيدى

١٠٨- ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي	مجموعة من النقاد	ت: محمود علي مكي
١٠٩- حروب المياه	جون بولوك وعادل درويش	ت: هاشم أحمد محمد
١١٠- النساء في العالم النامي	حسنة بيجوم	ت: منى قطان
١١١- المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت: ريهام حسين إبراهيم
١١٢- الاحتجاج الهادئ	أرلين علوي ماكليود	ت: إكرام يوسف
١١٣- راية التمرد	سادي پلانت	ت: أحمد حسان
١١٤- مسرحيتا حصاد كونجي وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت: نسيم مجلي
١١٥- غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	ت: سمية رمضان
١١٦- امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت: نهاد أحمد سالم
١١٧- المرأة والجنوسة في الإسلام	ليلى أحمد	ت: منى إبراهيم، وهالة كمال
١١٨- النهضة النسائية في مصر	بث بارون	ت: لميس النقاش
١١٩- النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهري سنبل	ت: بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠- الحركة النسائية والتطور في الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت: نخبة من المترجمين
١٢١- الدليل الصغير في كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت: محمد الجندي، وإيزابيل كمال
١٢٢- نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت: منيرة كروان
١٢٣- الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نينل الكسندر وفنادولينا	ت: أنور محمد إبراهيم
١٢٤- الفجر الكاذب	جون جراي	ت: أحمد فؤاد بلبع
١٢٥- التحليل الموسيقي	سيدريك ثورپ ديڤي	ت: سمحه الخولي
١٢٦- فعل القراءة	ڤولفانج إيسر	ت: عبد الوهاب علوب
١٢٧- إرهاب	صفاء فتحي	ت: بشير السباعي
١٢٨- الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت: أميرة حسن نويرة
١٢٩- الرواية الاسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت: محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠- الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت: شوقي جلال
١٣١- مصر القديمة (التاريخ الاجتماعي)	مجموعة من المؤلفين	ت: لويس بقطر
١٣٢- ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	ت: عبد الوهاب علوب
١٣٣- الخوف من المرايا	طارق علي	ت: طلعت الشايب
١٣٤- تشريح حضارة	باري ج. كيمب	ت: أحمد محمود
١٣٥- المختار من نقد ت. س. إليوت	ت. س. إليوت	ت: ماهر شفيق فريد
١٣٦- فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت: سحر توفيق
١٣٧- مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية	چوزيف ماري مواريه	ت: كاميليا صبحي
١٣٨- عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤليا تاروني	ت: وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩- پارسيڤال	ريشارد ڤاجنر	ت: مصطفى ماهر
١٤٠- حيث تلتقي الأنهار	هربرت ميسن	ت: أمل الجبوري
١٤١- اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت: نعيم عطية
١٤٢- الإسكندرية تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت: حسن بيومي
١٤٣- قضايا التنظير في البحث الاجتماعي	ديريك لايدار	ت: عدلي السمري
١٤٤- صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدوني	ت: سلامة محمد سليمان

١٤٥- موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت أحمد حسان
١٤٦- الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	ت على عبدالرؤوف البمبى
١٤٧- خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت : عبدالغفار مكاوى
١٤٨- القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكى أندرسون إمبرت	ت . على إبراهيم على منوفى
١٤٩- النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت أسامة إسبر
١٥٠- التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	ت منيرة كروان
١٥١- هوية فرنسا مج ٢ ، ج١	فرنان برودل	ت بشير السباعى
١٥٢- عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكتاب	ت محمد محمد الخطابى
١٥٣- غرام الفراعنة	فيولين فانويك	ت . فاطمة عبدالله محمود
١٥٤- مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت خليل كلفت
١٥٥- الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	ت أحمد مرسى
١٥٦- المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت فيرمو	ت مى التلمسانى
١٥٧- خسرو وشيرين	النظامى الكنوجى	ت عبدالعزيز بقوش
١٥٨- هوية فرنسا مج ٢ ، ج٢	فرنان برودل	ت بشير السباعى
١٥٩- الإيديولوجية	ديفيد هوكس	ت إبراهيم فتحى
١٦٠- آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت: حسين بيومى
١٦١- من المسرح الإسبانى	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت: زيدان عبدالحليم زيدان
١٦٢- تاريخ الكنيسة	يوحنا الآسيوى	ت صلاح عبدالعزيز محجوب
١٦٣- موسوعة علم الاجتماع	جوردن مارشال	ت بإشراف محمد الجوهرى
١٦٤- شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	ت نبيل سعد
١٦٥- حكايات الثعلب	أ. ن أفانا سيفا	ت سهير المصادفة
١٦٦- العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليفمان	ت محمد محمود أبو غدير
١٦٧- فى عالم طاغور	رابندرانات طاغور	ت شكرى محمد عياد
١٦٨- دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت: شكرى محمد عياد
١٦٩- إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت شكرى محمد عياد
١٧٠- الطريق	ميغيل دليبيس	ت بسام ياسين رشيد
١٧١- وضع حد	فرانك بيجو	ت هدى حسين
١٧٢- حجر الشمس	مختارات	ت: محمد محمد الخطابى
١٧٣- معنى الجمال	ولتر ت. ستيس	ت.إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤- صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	ت أحمد محمود
١٧٥- التليفزيون فى الحياة اليومية	لوريتزو فيلشس	ت وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦- نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت. جلال البنا
١٧٧- أنطون تشيخوف	هنرى ترويا	ت. حصة إبراهيم المنيف
١٧٨- مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	ت. محمد حمدى إبراهيم
١٧٩- حكايات أيسوب	أيسوب	ت إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠- قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت سليم عبد الأمير حمدان
١٨١- النقد الأدبى الأمريكى	فنسنت ب. ليتش	ت: محمد يحيى
١٨٢- العنف والنبوءة	و.ب. ييتس	ت ياسين طه حافظ
١٨٣- چان كوكتو على شاشة السينما	رينيه چيلسون	ت فتحى العشرى

٢٦٠- موسوعة علم الاجتماع ج٣	جوردن مارشال	ت باشراف محمد الجوهرى
٢٦١- رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	ت امام عبد الفتاح امام
٢٦٢- مدينة المعجزات	ادوارد مندوثا	ت. محمد أبو العطا عبد الرؤوف

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

٢٠٠١/١٣٧٤٨

التنفيذ والطباعة: Stampa

11 ميدان سفنكس - المهندسين

تليفون: 3448824 - 3034408